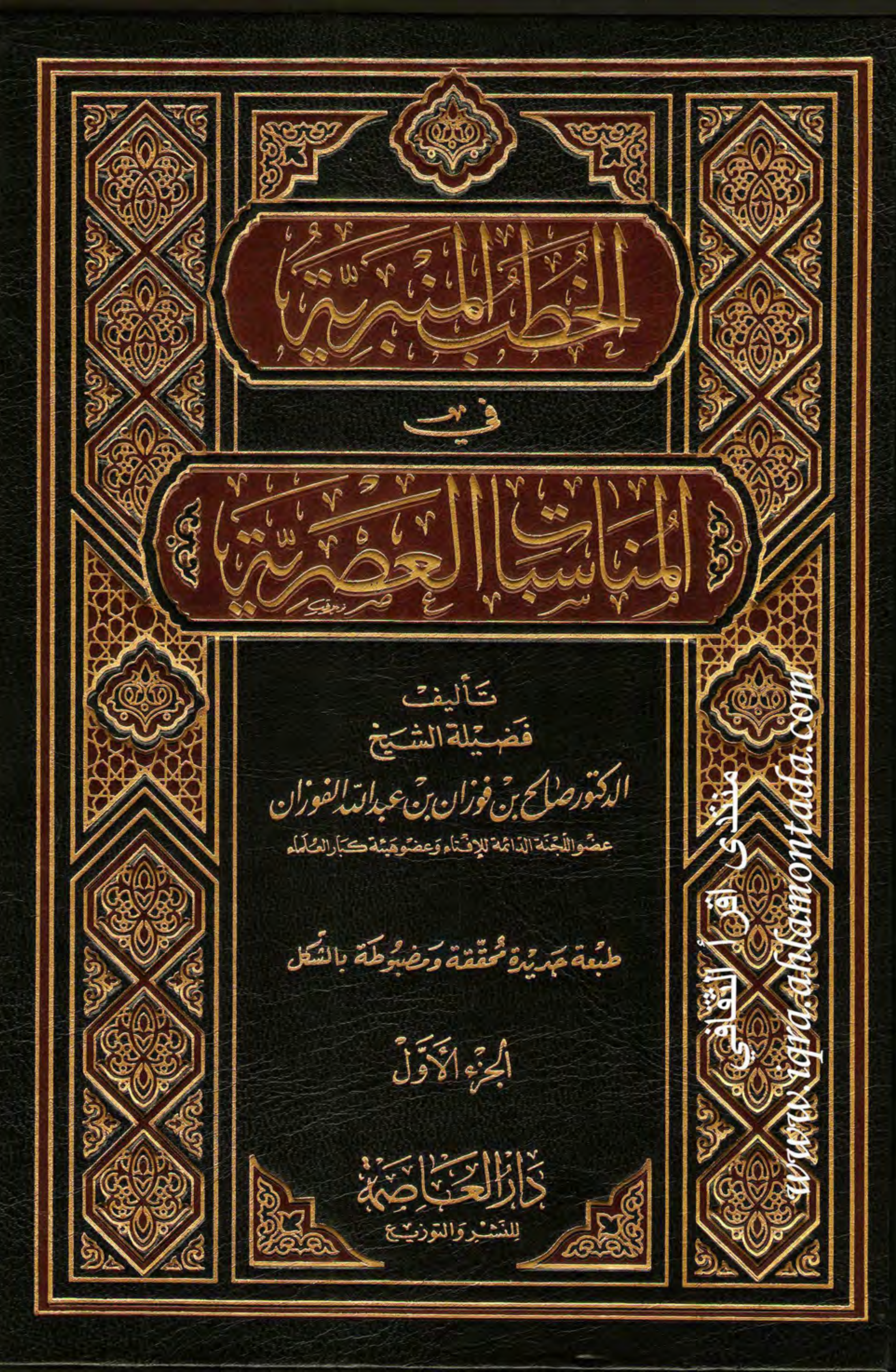
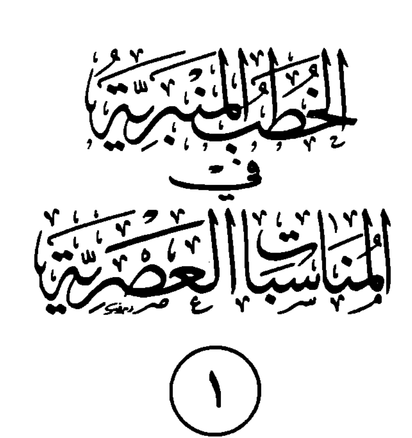

الخطب المنبرية
في
المناسبات العصرية
تأليف
فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء
طبعة جديدة محققة ومضبوطة بالشكل
الجزء الأول
دار العاصمة
للنشر والتوزيع
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqraahlamontada.com


الخطب المنبرية
في
المناسبات العصرية
١

© دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الفوزان، صالح بن فوزان

الخطب المنبرية في المناسبات العصرية ./ صالح بن فوزان الفوزان .

– الرياض ١٤٢٦ هـ

٦ مج

ردمك : ٠-٠٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٠١-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج ١)

١- خطبة الجمعة أ – العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٦/٢٠٤

رقم الإيداع : ١٤٢٦/٢٠٤

ردمك : ٠-٠٠-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٩-٠١-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج ١)

الطَّبعَة الأولى

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

الصف والإخراج دار العاصمة للنشر والتوزيع

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

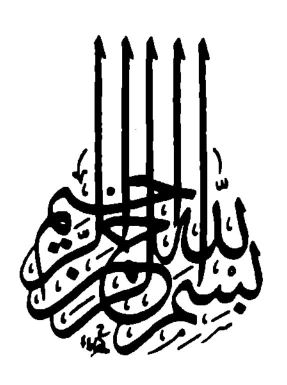


تأليف
فضيلة الشيخ
الدكتور صالح بن فوزان بن عبدالله الفوزان
عضو اللجنة الدائمة للإفتاء وعضو هيئة كبار العلماء

طبعة جديدة محققة ومضبوطة بالشكل

الجزء الأول

دار العاصمة
للنشر والتوزيع


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدّمةُ الطبعَةِ الخَامِسةِ

الحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، أَمرَ بالتَّذكيرِ، وأخبَرَ أَنَّ الذِّكرىٰ تنفَعُ المؤمِنينَ، وأَنكرَ علَى الذينَ يُعرِضُونَ عنِ التَّذكِيرِ فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المدثر: ٤٩] والصلاةُ والسلامُ على نبيِّنَا محمدٍ المبعُوثِ رحمةً للعالمِينَ، فدعَا إلى اللهِ وذكَّرَ بأَيَّامِ اللهِ، وبَلَّغَ البَلاَغَ المُبِينَ، وعلىٰ آلِهِ وأَصْحَابِهِ والتَّابعينَ لهم بإِحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ ـ وبعدُ: فهذَا هُو الجُزْءُ الخامسُ منَ: «الخُطَبِ المنبَريةِ في المُناسبات العَصريةِ» والتي أَحْببتُ نشرَهَا رَجاءَ أن ينفعَ اللهُ بها من يقْرؤها، كما أَرجُو أنْ يكونَ قد انتفَعَ بِهَا مَنْ سمِعَهَا.

وسَيُلاَحظُ القارئُ الكريمُ أنهُ رُبَّما تتكرَّرُ عدَّةُ خُطَبٍ في موضوعٍ واحدٍ؛ وهذا رَاجعٌ لأَهميةِ هذَا الموضوعِ ووجُوبِ العنَايةِ بهِ، ولأن تَنويعَ التذكيرِ وتكْراره قدْ يَكُونُ أَبلغَ في التأثيرِ، وخُطْبَةُ الجُمُعَةِ لهَا أَهميةٌ كُبْرىٰ، وقد أَمرَ اللهُ سبحانه بالسَّعي لحضُورِها واستِمَاعِهَا، ونهَى النَّبي ﷺ عنِ الكلامِ وقتَ إِلقائها[1]؛ قالَ اللهُ تعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩] والذِّكرُ هو الخُطبةُ؛ قال القرْطبيُّ رحمهُ اللهُ في تفسيرِه: قولُه تعالىٰ: ﴿إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أَي الصَّلاةُ، وقِيلَ: الخُطْبةُ، والموَاعِظُ؛ قاله سعيدُ بنُ جُبير. والصَّحيحُ أنهُ واجبٌ في الجمِيعِ وأَوَّلُهُ الخُطبةُ. وبهِ قال عُلمَاؤُنا إلاَّ عبدَ الملكِ بن الماجشون؛ فإِنَّه رآهَا سُنَّةً. والدَّليلُ

---

(١) ورد النهي عن الكلام أثناء خطبة الجمعة، منها حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت» أخرجه البخاري(٩٣٤) ومسلم (٨٥١).

عَلَى وجُوبِها أنَّها تُحرِّمُ البيعَ، ولولاَ وجوبُها مَا حَرَّمَتْهُ؛ لأنَّ المُستحَبَّ لاَ يُحَرِّمُ المُبَاحَ. وإذَا قُلْنَا: إنَّ المُرَادَ بِالذِّكْرِ الصلاةُ، فالخُطبةُ منَ الصَّلاةِ، والعبدُ يكونُ ذاكرًا للهِ بفعلِه كمَا يكُونُ مُسَبِّحًا للهِ بفِعْلِهِ. فَإنْ قُلْتَ: كيفَ يُفسَّرُ ذكْرُ اللهِ بالخُطبةِ وفيهَا غَيرُ ذلك؟ قلتُ: ما كانَ منْ ذِكرِ رسُولِ اللهِ ﷺ والثناءِ عليهِ وعَلى خُلفَائِهِ الرَّاشدِينَ وأتقياءِ المؤمنينَ والموعظةِ والتَّذكيرِ ـ فهُو في حكمِ ذكرِ اللهِ. انتهىٰ.

قال علماؤُنا: يشترطُ لصحةِ صلاةِ الجمعةِ: تقدمُ خطبتينِ؛ لمُواظبةِ النَّبي ﷺ عليهمَا. وقالَ ابنُ عُمرَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يخطبُ خطبتينِ وهو قائمٌ يفصِلُ بينهمَا بِجُلُوسٍ. مُتَّفَقٌ عليْهِ[1].

هذا.. ويجبُ الاعتناءُ بموضوعِ خطبتَيِ الجمعةِ بحيثُ يكونَا عِلاَجًا لمشَاكِلِ المجتمعِ الإسلاميِّ.

قالَ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ: ومن تأمَّلَ خطبَ النبيِّ ﷺ وخُطبَ أصحَابِهِ وجَدَها كَفِيلةً ببَيَانِ الهُدىٰ والتَّوحيدِ وذكرِ صفَاتِ الرَّبِّ جلَّ جلالهُ، وأُصُولِ الإيمانِ الكُليةِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ وذكرِ آلائهِ تعالىٰ التي تحبِّبُهُ إلى خلقهِ، وأيامهِ التي تخوفهُم منْ بأسهِ، والأمر بذكرِهِ وشكرِهِ الذي يحببهُمْ إليه، فيذكرُونَ منْ عَظمَةِ اللهِ وصفاتِهِ وأسمائهِ ما يُحبِّبُهُ إلى خلقِهِ، ويأمرُونَ من طاعَتهِ وشُكرِهِ وذكرِهِ ما يُحَبِّبُهُمْ إليهِ؛ فينصرِفُ السامعونَ وقد أحبُّوهُ وأَحبَّهُمْ. ثم طالَ العهدُ وخَفِيَ نُورُ النُّبُوَّةِ وصَارَتِ الشَّرائِعُ والأَوامِرُ رُسُومًا تُقَامُ مِنْ غَيرِ مُرَاعاةِ حقَائِقِهَا ومَقَاصِدِهَا. فجَعَلُوا الرُّسُومَ والأَوضَاعَ سُننًا لاَ يَنبَغِي الإخلاَلُ بهَا، وأَخلُّوا بالمقاصدِ التِي لاَ ينْبَغِي الإخلاَلُ بِهَا فَرصَّعُوا الخطَبَ بالتسْجِيع والفِقَرِ وعلمِ البَدِيع، فنقَص بَلْ

(١) صحيح البخاري (٩٢٠، ٩٢١) وصحيح مسلم (٨٦١).

عُدِمَ حفظُ القُلوبِ منهَا، وفات المقصُودُ بها. انتَهَى.

وأَقُولُ: هذَا مَا قالَهُ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ في طابعِ الخُطبِ في عَصْرِهِ، وقدْ زَادَ الأَمرُ عَلى ما وصَفَ، حَتَّى صَارَ الغَالبُ عَلى الخُطبِ اليَومَ أنْ تكُونَ حَشْوًا مِنَ الكَلاَمِ قليل الفائدَةِ، فبعضُ الخُطَبَاءِ أَوْ كثِيرٌ منهُمْ يجعَلُ الخُطْبَةَ كَأَنَّهَا موضوعُ إنشاءٍ مدرَسِيٍّ، يرْتَجِلُ فِيهِ مَا حضَرَهُ منَ الكلامِ بمُناسبةٍ وبدُونِ مُناسبةٍ، ويُطِيلُ الخُطبةَ إطَالةً مُمِلةً، حتى إن بعضَهُم يهملُ شروطَ صحةِ الخُطبةِ أو بعضَهَا ولاَ يتقيَّدُ بمُواصَفَاتِهَا الشَّرْعِيَّةِ، فهَبَطُوا بالخُطبِ إلى هذا المُستوى الذي لمْ تَعُدْ معَهُ مُؤدِّيةً للغرضِ المطلوبِ منَ التأثيرِ والتَّأثُّرِ والإفادَةِ. وبعضُ الخطباءِ يُقْحِمُ في الخُطَبةِ موَاضِيعَ لاَ تتنَاسبُ معَ موضوعِهَا، وليسَ منَ الحكمةَ ذكرُهَا في هذا المقام، وقد لا يَفْهَمُها غَالِبُ الحُضورِ لأنَّهَا أَرفَعُ من مُستَواهُم.

فَيَا أَيها الخُطباءُ.. عُدُوا بالخطْبةِ إلى الهَدْيِ النبوِيِّ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ركِّزُوا مواضِيعَهَا على نُصوصٍ منَ القُرآنِ والسُّنَّةِ تتنَاسَبُ معَ المقامِ، وضَمِّنُوهَا الوصِيَّةَ بتقوَى اللهِ والموعِظَة الحسَنَة. وعَالِجُوا بِهَا أَمرَاضَ مُجتمعَاتِكم بأسلُوبٍ واضِحٍ مُخْتصَرٍ، أكثِرُوا فيَها من قراءَةِ القُرْآنِ العَظِيمِ الذِي به حياةُ القُلوبِ ونُورُ البَصَائِرِ.

إذْ لَيْسَ المَقصُودُ وجُودَ خُطْبَتَينِ فقطْ، بل المقصُود أثرهُمَا في المجتمع، كمَا قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رَحِمَهُ اللهُ: لا يكْفِي في الخطْبَةِ ذمُّ الدُّنْيا وذكرُ الموتِ، لأنهُ لاَ بُدَّ من اسمِ الخُطْبَةِ عُرفًا بما يُحرِّكُ القلُوبَ ويبعثُ بهَا إلى الخيرِ، وذَمُّ الدُّنيا والتحذيرُ منهَا ممَّا تَواصَى بهِ منكِرُو الشرائعِ، بلْ لاَ بُدَّ منَ الحَثِّ عَلَى الطَّاعةِ والزَّجْرِ عنِ المعصِيَةِ والدَّعوَةِ إلى اللهِ والتَّذكيرِ بآلائِهِ. ولاَ تحصلُ الخُطبةُ باختصَارٍ يفُوتُ بهِ المقصودُ. وقدْ كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا خَطَبَ

احمرَّتْ عيناهُ وعَلاَ صوتُهُ، واشتدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنذِرُ جَيشٍ يقُولُ: صَبَّحَكُمْ ومَسَّاكُم[١]. وهذهِ هِي العناصِرُ المُهِمَّةُ في الخُطْبَةِ.

وقدْ ذكرَ الفُقَهَاءُ رحِمَهُم اللهُ أنهُ يُسنُّ في خُطبَتَي الجمعة، أنْ يَخْطُب على مِنْبرٍ؛ لِفعْلِهِ عَلَيهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمُ، ولأنَّ ذلكَ أَبلَغُ فِي الإعْلاَمِ وأَبلَغُ فِي الوَعظِ حِينَمَا يُشَاهِدُ الحُضُورُ الخَطِيبَ أَمَامَهُم. قَالَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: واتِّخَاذُهُ سُنةٌ مجمعٌ عليها. ويُسَنُّ أنْ يُسَلِّمَ الخطِيبُ عَلَى المأمُومِينَ إذَا أَقْبَلَ عَلَيْهِمْ؛ لِقَوْلِ جَابرٍ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إذا صَعِدَ المِنْبَرَ سَلَّمَ[٢]. رَوَاهُ ابنُ مَاجه، وَلَه شَوَاهِدُ.

وَيُسَنُّ أنْ يجلِسَ عَلَى المِنْبَرِ إلى فرَاغِ المُؤَذِّنِ؛ لِقَوْلِ ابنِ عُمَرَ: كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجلسُ إذَا صعدَ المِنبرَ حتَّى يفرُغَ المُؤَذِّنُ، ثُمَّ يقومُ فَيَخْطُبُ. رَوَاهُ أَبُو دَاودَ[٣].

ومِنْ سُنَنِ خُطْبَتَي الجُمُعَةِ أنْ يَجْلِسَ بينَهُمَا؛ لحديثِ ابنِ عُمَرَ: كانَ النَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ خُطبتينِ وهُو قَائِمٌ يَفصِلُ بينَهما بِجُلوسٍ. مُتفقٌ عليهِ[٤]. وَمِنْ سُننهمَا أنْ يَخْطُبَ قَائِمًا لِفِعْلِ الرَّسُولِ ﷺ، وَلِقَولِهِ تَعالىٰ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًاۚ﴾ [الجمعة: ١١]، وعمل المسلمينَ علَيْهِ.

وَيُسَنُّ أنْ يعتمِدَ عَلَى عَصا ونَحْوِهَا[٥]، ويُسَنُّ أَنْ يَقْصِدَ تِلقاءَ وَجهِهِ؛ لِفِعْلِهِ ﷺ، وَلأَنَّ التفَاتَهُ إِلَى أَحَدِ جَانِبيه فِيه إعْرَاضٌ عَنِ الآخَرِ وَمُخَالَفَةٌ للسُّنَّةِ؛ لأنَّه ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١١٠٩) من حديث جابر بن عبد الله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٤٥).

(٣) سنن أبي داود (١٠٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٩١٣).

(٤) صحيح البخاري (٩٢٠، ٩٢١) ومسلم (٨٦١).

(٥) من الأدلة على ذلك ما رواه أبو داود (١٠٩٦) من حديث الحكم بن حزن.

كان يَقْصِدُ تِلقَاء وَجْهِهِ في الخُطبَةِ. ويستقبلهُ الحَاضرونَ بِوجوهِهم؛ لِقَولِ ابنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ: كان إذا اسْتَوىٰ علَى المِنْبَرِ استقبلنَاه بِوجوهِنا. رَواه التِّرمذي[١].

ويُسنُّ أَنْ يُقَصِّرَ الخُطبة تَقصيرًا مُعتدلاً بِحيثُ لاَ يُطيلُها حتَّى يَمَلُّوا وتَنفر نُفوسُهم، ولاَ يُقصرُها تَقصيرًا مُخِلاًّ فَلاَ يَستفيدوا مِنْهَا؛ فَقد رَوى الإمامُ مسلمٌ عنْ عمَّار مَرفوعًا: «**إنَّ طُولَ صَلاَةِ الرَّجُلِ وقِصَرَ خُطبته مَئِنَّةٌ منْ فِقهِهِ؛ فَأطيلوا الصَّلاَةَ واقْصُرُوا الخُطْبَةَ**»[٢].

وَيُسَنُّ أَنْ يَرفَعَ صَوتَه بِهَا؛ لأَنَّهُ ﷺ كانَ إذا خطَبَ عَلاَ صَوتهُ واشْتَدَّ غَضَبُهُ[٣]، وَلأَنَّ ذلِكَ أَوْقَعُ في النُّفُوسِ وَأَبْلَغُ فِي الوَعْظِ. وأَنْ يُلْقِيَهَا بِعِبَارَاتٍ واضِحَةٍ قَويةٍ مُؤثرةٍ، وَبِعبارات جَزلَةٍ.

ويُسَنُّ أَنْ يَدْعُوَ لِلمُسلمينَ بِمَا فِيهِ صَلاَحُ دِينِهم وَدُنياهُم، ويَدْعُو لإِمَامِ المُسلمينَ وَولاَةِ أُمورِهم بالصَّلاَحِ والتَّوفيقِ، وكَانَ الدُّعَاءُ لِولاَةِ الأُمُورِ فِي الخُطبةِ مَعروفًا عِنْدَ المُسلمينَ وَعَليهِ عَمَلُهم.

قالَ الإمَامُ أَحمدُ: لَو كانَ لنَا دعْوةٌ مُستجَابةٌ لَدَعَوْنَا بِهَا لِلسُّلْطَانِ؛ لأَنَّ في صَلاَحِهِ صَلاَحَ المُسْلِمينَ.

أَقولُ: وقَد تُركتْ هذهِ السُّنَّةُ حتَّى صَارَ النَّاسُ يَسْتغربُونَ الدُّعَاءَ لِولاَةِ الأُمُور ويُسيئُونَ الظَّنَّ بِمَنْ يَفْعَلُهُ!.

وَيُسَنُّ إِذَا فَرَغَ مِنَ الخُطْبَتَيْنِ أَنْ تُقَامَ الصَّلاَةُ مُبَاشَرَةً، وَأَنْ يَشرَعَ فِي الصَّلاَةِ

---

(١) سنن الترمذي (٥٠٩).
(٢) صحيح مسلم (٨٦٩).
(٣) تقدم ص٦.

مِنْ غَيرِ فَصْلٍ طَويلٍ.

وَصَلاَةُ الجُمُعَةِ رَكْعَتَانِ بالإجماعِ، يُجْهَرُ فِيهمَا بالقرَاءَةِ، ويُسَنُّ أَنْ يَقْرَأَ فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى مِنهُمَا بِسورةِ الجمعةِ بعدَ الفاتحةِ ويقرأَ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ بعدَ «الفاتحةِ» بسورةِ «المنافقينَ»؛ لأنهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ كانَ يقرأُ بهمَا، كمَا رواه مسلمٌ عنِ ابنِ عباسٍ[1]، أوْ يقرأ في الأُولى بـ«سَبح اسمَ رَبِّكَ الأَعْلَى» وفِي الثَّانيةِ بـ«هَلْ أتَاكَ حدِيثُ الغَاشيةِ». قد صحَّ أنهُ ﷺ كانَ يقْرَأُ أَحْيَانًا بالجُمُعَةِ وَالمُنَافِقينَ، وَأَحْيَانًا بـ«سَبِّحْ» وَ«الغَاشِيَةِ»، وَلاَ يُقَسِّم سُورَةً واحِدَةً مْن هذِه السُّورِ بينَ الرَّكْعَتينِ، ولاَ يقرأُ منْ وسطِ السُّورةِ أَوْ آخِرِهَا؛ لأنَّ ذَلِكَ خِلاَفُ السُّنَّةِ.

والحكمةُ في الجهرِ بالقراءةِ فِي صَلاَة الجُمعةِ كونُ ذلك أَبلغَ في تحصيلِ المقصُودِ وأنفعَ للمسلمينَ الحاضرينَ للصَّلاَةِ؛ فَفِي ذلكَ تبلِيغُ كلامِ اللهِ إليهم، والحمكةُ في قراءةِ سورةِ الجُمعةِ والمنافقينَ، لأنَّ سورةَ الجمعةِ قدْ تَضَمَّنَتْ الأَمرَ بِصَلاَةِ الجُمُعَةِ وإيجَابَ السَّعْي إليهَا وترْكِ العَمَلِ العَائقِ عَنْهَا، والأَمرَ بالإكْثَارِ منْ ذِكْرِ اللهِ لِيَحْصُلَ لهُمُ الفَلاَحُ في الدَّارَين. وأما سُورة المُنَافِقِينَ فَلِمَا فِيها مِنَ التحذِيرِ للأُمةِ مِنَ النفاقِ والتحذِيرِ منَ الاشتغالِ بالأموالِ والأولادِ عَنْ صَلاَةِ الجُمَعَةِ وعَنْ ذِكْرِ اللهِ، والحَثِّ عَلى الإنفَاقِ الذي بِهِ سعَادتُهُم، وتَذْكِيرِهِم بالموتِ للاستِعْدادِ لهُ قبْلَ نُزُولِه.

وأمَّا سَبِّحْ والغَاشيةُ فَلِمَا فيهمَا من التَّذْكِيرِ بأحْوَالِ الآخِرَةِ والوَعْدِ والوَعيدِ، لَكِنْ مَعَ الأَسفِ كَثِيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ الجَوَامعِ فِي هذا الزمانِ يتَكَاسَلُونَ عنْ قِرَاءةِ هذهِ

---

(١) صحيح مسلم (٨٧٨).

السُّورِ، ويُقْصرُونَ القِرَاءةَ جِدًّا وَهَذَا خِلاَفُ السُّنَّةِ، وَتَفْوِيتٌ لِلْمَصْلَحَةِ العَظِيمةِ التِي تَحْصُلُ بِقِرَاءِةِ هذِه السُّورِ، فَيَنْبَغِي لَهُم أَنْ يَتَّقُوا اللهَ ويحرصُوا على الاقتدَاءِ برسُولِ اللهِ ﷺ. . .

وَفقَ اللهُ الجَمِيع لِفِعْلِ الخَيرِ والعَمَلِ بالسُّنَّةِ واجتناب البِدْعةِ. . .

وصلَّى اللهُ وسلَّمَ علَى نبينَا مُحَمَّدٍ وآلِهِ وصحْبهِ.

المؤلف

مُقدِّمةُ الطَّبعةِ الأُولَىٰ وَالثانيةِ

الحمْدُ للهِ رَبِّ العالمِينَ، القائلِ في كتابهِ المُبينِ: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

والصلاةُ والسلامُ على نبيهِ الناصحِ الأمينِ، نبينا مُحمَّدٍ وعَلىٰ آلِهِ وأَصْحَابِهِ والتابِعينَ لهُم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ.

فهذهِ مجمُوعةٌ منَ الخُطَبِ أَلقيتُها في أيام الجُمعِ وأَحببتُ نَشْرَها رَجَاء أنْ ينفعَ اللهُ بها من يقرَؤُها، كما أَرجُو أنْ يكونَ قد انتفعَ بهَا منْ سمِعَها، إنَّهُ سمِيعٌ مُجيبٌ.

وصلَّى اللهُ وسَلَّمَ علَى نبينا محمدٍ وآلهِ وصحبِهِ.

المؤلف

في التَّذكيرِ بنِعْمَةِ الإسْلاَمِ

الحمدُ للهِ الذي خَلَقَ الإنسانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وكَرَّمَهُ وفَضَّلَهُ على كثيرٍ ممنْ خلقهُ تفضِيلاً، أَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ التِي لاَ تَزَالُ تَتَوالَى علَى العِبَادِ، وَأَشْكُرُه شُكْرُهُ مؤْذِنٌ بالمَزِيدِ. وأشهَدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، أمرَ بالمحافظةِ على نعمِهِ بشُكْرِهَا ونهىٰ عنْ تعريضِهَا للزَّوالِ بكُفرِهَا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولهُ، بعثهُ اللهُ ليُتَمِّمَ مكَارمَ الأَخلاقِ، ويهدِي لأقومِ السُّبُلِ، فكانتْ بعثتُهُ رحمَةً للعَالَمِينَ، وحُجَّةً عَلى الخَلْقِ أجْمَعِينَ، صَلَواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيهِ ما تَعَاقَبَ اللَّيْلُ والنهارُ، وعلىٰ آلِهِ وأصحابِهِ البَرَرَةِ الأطْهَارِ.

أما بعدُ: أيُّهَا الناسُ اتَّقُوا اللهَ واشكُرُوهُ على نِعْمةِ الإسلاَمِ. أيُّهَا المُسْلِمونَ. بَيْنَ أَيدِيكُم دينٌ عظِيمٌ اختارَهُ اللهُ لَكُمْ ومَنَّ بهِ عليْكُمْ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إبرَاهِيمَ، اشتملَ على كلِّ مَا اشتملتْ عليه أديانُ الأَنْبياء فَهُو خُلاَصَتُها وخاتمَتُهَا؛ قالَ تعالَى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣]. ورسُولكُمْ خيرُ رَسُولٍ عرفته البشريَّةُ فهو أفضلُ المُرسلِينَ وخاتمُ النبيينَ، به تمَّتْ عليكمُ النِّعمةُ وانْجلَتْ بِهِ عنكُمْ ظُلُماتُ الجهالَةِ والشِّرْكِ والظُّلمِ والعدوانِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ولقد وصاكم ربُّكم بالتمسكِ بهذَا الدِّينِ والاقتداءِ بهذَا الرَّسُولِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أيها المسلمونَ: أمَامَنا طريقُ السَّعادةِ مفتوحٌ، فلماذا لاَ نسلُكُه؟ أمامنا طريقُ الرُّقيِّ والفلاحِ واضحٌ، فلماذا نعدِلُ عنهُ ونترُكُهُ، ونسلكُ طريقَ التأخُّر والشَّقَاء والخُسْرَانِ؟! أرَأيْتُم أنَّ دينكُمْ قَصَّرَ فِي إرْشَادِكُم إلى سَبيلِ الفلاحِ فعَدَلْتُمْ عنهُ؟! هل قرَأتم في تعَالِيمهِ مَا يصُدُّكُم عنْ جَلائِلِ الأَعمَالِ ومَكَارِمِ الأخلاقِ فهجرتُمُوه؟! كَلاَّ؛ إنَّه دينُ اللهِ الذي يبْقَىٰ طريقًا للسعادة والرُّقِيِّ إلى يومِ يبعثُونَ؛ مَا من فضيلةٍ إلاَّ حثَّ على التَّخَلُّقِ بهَا، ومَا مِنْ رَذِيلَةٍ إلاَّ حَذَّرَ مِنْ قُبْحِهَا وبيَّنَ سُوءَ عَاقِبَتِهَا. فَمَا بَالُ أكثرنَا يَسيرُونَ عَلى غَيْرِ هُدًى ويُقلِّدونَ الكُفارَ فيما حرَّمهُ الإسلامُ ونهىٰ عنه؟! قدْ أهْمَلَ الكَثيرُ أَمْرَ الدِّينِ، واستهَانُوا بحقُوقهِ، وَعَبَثُوا بِوَاجِبَاتِهِ، وتجرَّأوا على انتِهَاكِ حُرُمَاتِ اللهِ، واستبْدَلُوا بذلِكَ أخلاَقَ الكُفَّارِ وعادَاتِهِم وتَقَالِيدَهم، فَيَا ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠].

أَيُّهَا المُسلمونَ: إنَّ المسلمَ الحقيقيَّ لا يرضَى بديلاً مهما كلَّفهُ الأمرُ ومهما بُذِلَ منْ قَبِيلِ الكَفرةِ لَهُ منَ المُغْريَاتِ، أَوْ نَالَهُ مِنْهُم مِنَ الأَذَىٰ، ويَبْقَى أَمَامَ كُلِّ فِتْنةٍ صَلْبًا فِي دِينهُ مُتمسِّكًا بعقيدتِه.

فهَذا بِلاَلٌ مؤذنُ رَسولِ اللهِ ﷺ يشتدُّ عليه أذَى الكفارِ حتى إنهمْ لَيَطْرحُونَهُ على ظهْرِهِ في رَمْضَاءِ مَكَّةَ المُلتهبةِ بالحَرارَة ويَضعُونَ الصَّخْرةَ الثقيلةَ على صَدْرِهِ، يُريدونَ منهُ أَنْ يترُكَ هذا الدِّينَ، فَيَصْمدُ ويثْبُتُ على دِينهِ ويقُولُ: أَحدٌ أَحَدٌ.

وهذا خُبَيْبُ بنُ الرَّبِيعِ يَقُولُ لَهُ مُسيلمةُ الكذَّابُ قُلْ: لاَ إِلَه إلاَّ اللهُ، فَيَقُولُ:

لاَ إِلَه إلاَ اللهُ. فيَقُولُ لَهُ: قُلْ: أشهَدُ أنَّ مسيلمةَ رَسولُ الله، فيقُولُ: لاَ أَسْمَعُ. ثُمَّ يُقَطِّعُهُ مُسيلمةُ عُضوًا عُضوًا ويَأبَىٰ أنْ يقولَ: مُسيلمةُ رَسولُ اللهِ، حتى لَقِيَ رَبَّهُ صَابرًا مُحتسبًا.

وهذَا عبدُ اللهِ بنُ حُذَافَةَ السَّهميُّ يَأخذُه مَلِكُ النَّصَارى أَسيرًا عندَهُ ويقُول لَهُ: اتَّبعْنِي وأُشْرِكُكَ في مُلكي، فَيأبى ويقُول: لاَ أَبْغِي بدِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ بديلاً. ثُم يَحمي مَلكُ الرُّومِ النُّحَاسَ والنار ويُغلي القدُورَ لتعْذيبِهِ، وعند ذلكَ يَبْكِي عبدُ اللهِ ابنُ حُذَافةَ، فَيطمَعُ مَلِكُ الرُّوم برجوعِه عَنِ الإسلامِ ويقولُ: تَتَّبعُنِي وتَتْرُكُ دِينَك؟ فَيرَدُّ عليهِ عبدُ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهُ بقولهِ: مَا بَكَيْتُ خَوفًا علَى نَفْسِي ولكِنْ وَددتُ أَنَّ لِي نُفوسًا عددَ شَعْرِي تُعذبُ فِي سبيل اللهِ فتدْخلُ الجنَّةَ بغيرِ حساب.

وهذا عمارُ بنُ يَاسِرٍ وَأَبُوهُ وأُمُّهُ سُمَيَّةُ وأَهْلُ بَيْتِهِ، عُذِّبُوا في اللهِ لِيتْرُكُوا دِينَ الإِسلاَمِ، فَصَبَرُوا عَلَى العَذَابِ وتَمَسَّكُوا بالإِسْلاَم، وكَانَ رَسُول اللهِ ﷺ يَمُرَّ عليهم وهُم يُعذَّبونَ ويقُولُ: «صَبْرًا آلَ يَاسرٍ فَإِنَّ مَوعِدَكُمُ الجنَّةُ»[١].

وهذا خَبَّابُ بنُ الأَرتِّ عُذِّبَ فِي اللهِ وصَبَرَ عَلى دِينهِ، وكَانَ منْ تعْذِيبِ المُشْرِكينَ له أنْ أَوْقَدُوا لهُ نَارًا وسَحَبُوه عَليهَا، فَمَا أَطْفَأَهَا إلاَّ شَحْمُ ظَهْرِهِ لَمَّا ذابَ، كلُّ ذلِكَ وهو صابرٌ على دِينهِ لاَ يَتَزَحْزَحُ عَنْهُ قيدَ شَعْرةٍ.

أَيُّهَا المسلِمونَ: هذه نماذجُ من ثَباتِ المسلمينَ على دينهم معَ شِدَّةِ الأَذى والتَّعذيبِ، أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ مَا قَدَّمُوهُ في سَبيلِ حِمَايَةِ هذَا الدِّينِ ونَشْرِهِ مِنْ جِهَادٍ بالأنفسِ والأموالِ، يتساقطُ منهُم مِئاتُ الشُّهداءِ في المعارِكِ وهُم مُغْتَبِطُونَ بذلكَ فَخُورُونَ، بَلْ تَرَكُوا مِنْ أَجْلِهِ الدِّيارَ والأَمْوالَ وهَاجَرُوا فِرَارًا بِهِ أَنْ يُخْدَشَ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٥٠٨) من حديث جابر بن عبد الله. وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٣٠٣ رقم ٧٦٩) من حديث عثمان.

أَوْ يُدَنَّسَ، يبْتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ ورضْوَانًا وينصرُونَ اللهَ ورَسُولَهُ. ومَا ذلِكُم إلاَّ لِمَا عَرَفُوا فِي هذا الدِّينِ منَ الخيرِ والسعادَةِ، فتَأَصَّلَ حُبُّهُ في قلوبِهِم حتى صارَ أَحبَّ إِلَيْهِم مِنْ أَنفُسِهِم وأَولاَدِهِم وأَموَالِهِم وَدِيَارِهِم حَتَّى قالَ قَائِلُهُم: إذا عَرضَ بلاءٌ فقدِّمْ مَالكَ دُونَ نفسِكَ، فَإِنْ تَجَاوزَ البَلاَءُ فَقَدِّمْ نَفْسَكَ دُونَ دِينِكَ.

عِبَادَ اللهِ: فَمَا بَالُ كَثِيرٍ مِمَّنْ يَتَسَمَّونَ بالإسلامِ اليومَ وَيَنْتَسِبُونَ إليهِ، ترخُصُ عليهم تعاليمهُ عندَ أَدنىٰ طَمَعٍ، فتراهُمْ يَستبدِلُونهَا بتعَاليمِ الكُفرِ؟! مَا بَالُهُم يرْفُضُونَ التَّحَاكُمَ إِلَيْهِ ويَتَحَاكَمُونَ إِلَى قَوَانينِ الكُفْرِ وأنظِمَتِهِ؟ مَا بَالُ الكَثِيرِ منَ المسلمينَ يتَشَبَّهُونَ بالكُفَّارِ في زِيِّهِمْ وَلِبَاسِهِمْ وكَلاَمِهِمْ بَلْ حتَّى في صِفَةِ أَكْلِهِم، فَيَحْلِقُونَ لِحَاهُم ويُغَذُّونَ شَوَارِبهُم ويرسلُونَ شُعُورَ رُؤُوسِهِم ويُطِيلُونَ أَظافرَهُم وَيلْبَسُونَ خَوَاتِيمَ الذَّهبِ ويأْكُلونَ ويشْرَبُونَ باليدِ اليُسْرىٰ؟ مَا بالُ المسلمِ وابنِ المُسْلِمِينَ ومَنْ نَشَأَ في بيئةِ التَّوحيدِ وتحتَ رَايَةِ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ يَذْهَبُ إِلى بِلاَدِ الكُفَّارِ فَيُشَارِكُهُم فِي شُرْبِ الخُمُورِ وأكلِ لَحْمِ الخِنْزِيرِ وَفِعلِ البِغَاءِ ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْنَا مُتَنكِّرًا لِدِينِنَا وآدابِنَا الإسلاميةِ، ويُحَاوِلُ أَنْ يُحوِّلَ بِلاَدَنَا إلى قطعةٍ منَ البلادِ الكَافِرةِ التي قدِمَ منها؟! إنه شَرُّ وَافِدٍ وَشَرُّ وَارِدٍ لِقَومِهِ. ذَهبَ لِيتعلمَ التَّخصصاتِ التي تَحتاجُ إِلَيهَا بِلاَدُهُ، لَكنَّهُ عَادَ بِلاَ دِينٍ وَلاَ أخلاقٍ، بلْ بلاَ تَعَلُّمٍ مُفيدٍ، عَادَ بالقُشُورِ والرَّذَائِلِ، بعدَ أنْ تَنكَّرَ لِلدِّينِ والفضَائِلِ. إن كَثيرًا مِنْ دُوَلِ الغَرْبِ مِمَّنْ يَتَعطَّشُونَ إِلَى الإِسْلاَمِ إِذَا رَأَوا هؤلاءِ زَهِدُوا فِي الإِسْلاَمِ ظَنًّا أَنَّ هؤُلاءِ يُمثلونهُ فصاروا منَ الذينَ يصدُّونَ عنْ سبيلِ اللهِ ويبغُونَها عِوَجًا.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ دينكُم دينٌ عظِيمٌ هُو صَلاَحُ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاء ـ فَلَئِنْ رَخُصَ لَدَيْكُمْ فَلَنْ يَرْخُصَ لَدَى الذِينَ يَنشُدُونَ الحقيقةَ ويَتَلَمَّسُونَ أسبَابَ

النَّجاةِ: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨ ﴾ [محمد: ٣٨].

إن دينكُم يريدُ منكُم الصِّدْقَ والصَّبرَ والجَلَدَ والبذلَ في سَبيله وصَدَّ الهُجُوم المُعَادِي لَهُ والأخْذَ عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُم عن العَبَثِ بتَعَاليمِهِ، وَإلاَّ فَسَيرحَلُ عَنْكُم إلى غَيركُم فَتَخسَرُونَ الدُّنْيَا والآخرَةَ ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ۝٣٨ ﴾ [محمد: ٣٨]. أعوذ باللهِ من الشيطان الرجيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ. . . ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].

* * *

سَمَاحةُ الإسْلَامِ

الحَمدُ للهِ الذِي رضِيَ لنا الإسلامَ دِينًا، وجَعَلهُ دِينَ يُسْرٍ وسَمَاحَةٍ ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]. وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه: «ما خُيرَ بينَ أَمرينَ إلاَّ اختارَ أَيسَرَهُما مَا لَمْ يَكُنْ إِثمًا»، صَلَّى اللهُ عَلَيه وعَلَى آلِهِ وأصحَابِه وَمَنْ تَمسَّكَ بسُنَّتهِ إلى يَومِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا المسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ واشكرُوه على ما اختصَّكم بهِ من هذا الدِّينِ العظيمِ، وبعثةِ هذا النبي الكريمِ، ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. إنَّ هذا الدِّينَ الذِي جَاءَ به نبيُّنَا من عِنْدِ اللهِ هو دِينُ الرحمةِ والخَيرِ والسعَادَةِ لِلبشَريةِ، فلمْ يطرقِ العالمَ دِينٌ أكْملُ ولاَ أشمَلُ وَلاَ أَسهَلُ منْ هذا الدِّينِ الحَنيفِ، الدِّينِ الذِي أَوْصَانَا اللهُ أَنْ نَتمَسَّكَ بِهِ إلى المَمَاتِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وَدَعا بهِ الخليلُ وابنُه إسماعيلُ لَهُمَا ولِذُرِّيَّتِهِمَا فقالاَ: ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [البقرة: ١٢٨]، ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٢]، فالإسلامُ ـ الذي هو الاستسلامُ للهِ بالتوحيدِ والانقيادُ لَهُ بالطَّاعةِ والخُلوصُ منَ الشرْكِ وَأَهْلِهِ ـ هُو دينُ الأنبياءِ جَميعًا؛ قَالَ نُوحٌ عَلَيهِ السَّلَامُ: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾، [يونس: ٧٢]، ﴿ وَقَالَ

مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤]، فالإسلامُ بمعناهُ العام يتناولُ كلَّ شريعةٍ بعثَ اللهُ بها نبيًا، ولفظُ «المسلمينَ» يتناولُ كلَّ أُمَّةٍ متَّبعةٍ لِنبيٍّ من الأنبياءِ قبلَ بعثةِ خاتمِ النبيينَ نبينا محمدٍ ﷺ، فَبِبعْثَتِهِ توحَّدَتِ الدِّيانَةُ السماويةُ، وشملتْ رِسالتهُ كُلَّ العالَمينَ الجن والإنس، وامتدتْ إِلَى آخرِ الدُّنيَا، لاَ تُبَدَّلُ ولاَ تُنْسَخُ إِلى يَوْمِ القِيَامَةِ، وأَوْجَبَ اللهُ على جَميعِ الخلقِ اتباعَهُ وطاعتَهُ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥]، ورَفَعَ اللهُ بِهِ الآصَار والأغْلاَلَ عَمَّنْ آمنَ بهِ واتَّبعَهُ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧، ١٥٨]. فشرائع الإسلام كلُّها يسر ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ويقُولُ الرَّسولُ ﷺ: «إذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا منهُ مَا استطَعْتُم»(١)، ويقولُ ﷺ: «بُعِثْتُ بالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ»(٢)، وقَدْ رَاعَى اللهُ سُبْحَانَهُ فِي هَذَا الدِّينِ العَظيمِ أَحْوَالَ عِبَادِهِ رَحْمَةً بِهِمْ وتخفيفًا عَلَيهم، فشرعَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٦٦) من حديث أبي أمامة.

لكُلِّ حالَةٍ مَا يَتناسَبُ مَعهَا؛ فَرَخَّصَ للمُسافرِ بالإفْطارِ في نهارِ رمضانَ والقضاء من أيامٍ أُخرَ يكونُ صِيامُها أَسهلَ عليهِ، ورخصَ له بِقَصْرِ الصَّلاَةِ الرُّبَاعِيَّةِ إِلَى ركعتينِ، وأَبَاحَ لَهُ الجمعَ بينَ الصَّلاَتينِ فِي وقتِ إِحْدَاهُما، وشَرَعَ للخَائِفِ أَنْ يُصلِّي على حسَبِ حَالِهِ مَاشيًا أَوْ رَاكِبًا مسْتقبلَ القِبلةِ وغيرَ مستقبلِهَا ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ﴾ [البقرة: ٢٣٩]، وشرعَ للمرِيضِ أَنْ يُصَلِّي على حسبِ استطاعتِه قَائِمًا أَوْ قاعِدًا أَوْ على جَنبٍ.

ورَفَعَ سبحانهُ عنْ هذهِ الأمةِ المُؤَاخَذَةَ بالخطأ والنسيانِ وما استكْرِهُوا عَلَيْهِ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ورَوى الطَّبرانِيُّ وابنُ حِبَّانَ عنِ ابن عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إِنَّ الله وَضَعَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ والنِّسْيَانَ ومَا استُكْرِهُوا عَلَيهِ»[1]، وقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ نَسِيَ وهُو صَائمٌ فأَكلَ أَوْ شَرِبَ فَليتم صَومَه فَإِنَّمَا أَطعمهُ اللهُ وسَقَاه»[2].

كَما شَرَعَ سُبحانهُ للضَّرُورَاتِ أَحكامًا تُناسِبُها؛ فيُباحُ لِلمُضْطَرِّ مَا هُو مُحرَّمٌ فِي غَيْرِ حَالِ الضَّرُورَةِ؛ كَأَكْلِ المَيْتَةِ؛ قَالَ تعالَى: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وقالَ تعالىٰ: ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة: ٣].

وشرعَ اللهُ للمسلمِ إذا عَدِمَ المَاءَ أَوْ خَافَ ضَرَرًا باستعمَالِهِ أَنْ يَتيمَّمَ التُّرَابَ فَيَمْسَحَ بوَجْهِهِ ويَدَيْهِ بَدلَ المَاءِ؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [النساء: ٤٣].

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٠٤٥) والطبراني في الأوسط (٨٢٧٣) وابن حبان (٧٢١٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٣، ٦٦٦٩) ومسلم (١١٥٥) من حديث أبي هريرة.

ولما شرعَ اللهُ سبحانهُ الجِهادَ في سبيلهِ بقِتالِ الكُفَّارِ بالأَموَالِ والأنفُسِ رَاعَىٰ أَحْوَالَ الذِينَ لاَ يستطِيعُونَ ذلكَ؛ فَخَفَّفَ عنهُم وعَذَرَهُم؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ ﴾ [التوبة: ٩١]، إلى غيرِ ذلكَ منَ الأَمثلةِ الكثيرةِ لسماحَةِ الإسلامَ. ولأجلِ ذلكَ حَرَّمَ اللهُ الغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ لأَنَّهُ يتَنَافَى معَ سماحةِ الإسلامِ، ويُسرِهِ، فقد نَهَىٰ ﷺ عن أنْ يشُقَّ الإنسانُ على نفسِهِ في العِبَادةِ، وحث على الاقتصادِ فِيهَا؛ فَروى الإمامُ مُسْلِمٌ بِسَنَدِهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «هَلكَ المُتنطعُونَ»[1]. أَي: المُتَشَدِّدُونَ. وَرَوى البُخَارِيُّ رَحِمَهُ الله: أَنَّ ثلاثَةَ رَهطٍ جَاءُوا إلَى بيوتِ أَزواجِ النبيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عنْ عِبَادَةِ النَّبيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُم تَقَالُّوهَا، فقَالُوا: أَيْنَ نحْنُ مِنَ النَّبيِّ ﷺ وقَدْ غُفِرَ لهُ مَا تقدَّمَ منْ ذنْبِهِ ومَا تَأَخرَ؟! قالَ أَحدُهم: أَمَّا أَنا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا. وقالَ الآخرُ: أَنا أَصُومُ النَّهارَ ولاَ أُفطرُ. وقَالَ الآخرُ: أَنا أَعتزِلُ النِّساءَ فلاَ أَتزوَّجُ أَبدًا. فجاءَ رسُولُ اللهِ ﷺ فقَالَ: «أَنتمُ الذينَ قُلتمْ كذَا وكذَا. أَما واللهِ إنِّي لأَخشاكُمْ للهِ وأتقَاكُم لَهُ، لكنِّي أَصُومُ وأُفطرُ وأَقُومُ وأَرْقُدُ، وأتزوَّجُ النِّساءَ، فمنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيس مِنِّي»[2]. وهكذا سُنَّةُ الرَّسولِ ﷺ وسطٌ بينَ الإفراطِ والتَّفريطِ، لاَ غُلُوَّ ولاَ تساهُل، بلْ مُداوَمَةٌ على فِعلِ الخيرِ منْ غَيرِ تحامُلٍ على النَّفْسِ بما يشُقُّ عليها. .

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: مِنَ النَّاسِ منْ يُريدُ أنْ يستغِلَّ سماحةَ الإسلامِ استغلاَلاً سَيئًا فَيُبيح لِنفْسِهِ فعلَ المُحَرَّماتِ وتَرْكَ الواجِبَاتِ، ويقولُ: الدِّينُ يُسرٌ. نعم. .

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠) من حديث ابن مسعود.

(٢) صحيح البخاري (٥٠٦٣)، وأخرجه مسلم (١٤٠١) كلاهما من حديث أنس.

الدِّينُ يُسْرٌ، لَكِنَّها كلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ؛ فليسَ مَعنى يُسْرِية الدِّينِ وسماحتِهِ التَّفلُّتَ منْ واجِباتِهِ وارتكابَ مُحَرَّماتِهِ. وإنَّما معنىٰ ذلكَ الانتقالُ بالعَبْدِ من العِبَادَةِ الشَّاقَّةِ إلى العِبَادَةِ السَّهلةِ؛ كالانتقَالِ بالمُسافِرِ من الصَّلاةِ التَّامَّةِ إلى الصَّلاةِ المقْصُورةِ، والانتقالِ بهِ مِنَ الصِّيامِ في أَيامِ السَّفَرِ إلى الصِّيامِ في أيامٍ أُخر، والانتقالِ منَ الطَّهارةِ بالمَاءِ إلى الطَّهارةِ بالتُّراب، وهَكذا إسْقَاطُ الوَاجبِ عَمَّن عَجَز عَنْهُ معَ نِيَّةِ فِعلِهِ إذا قَدَرَ عليه. لاَ أَنْ يتركَ الوَاجِبَ رغبةً عنه وكراهِيةً لَه، فمَنْ تركَ الوَاجِبَ لِعجزِه عَنه معَ عَزمِه عَلَى فِعلِه إِذَا استطَاع كُتِبَ لَه من الأجرِ مثلُ أجرِ مَن فَعَلهُ؛ فَفِي حَديثِ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إنَّ بالمدينةِ أقوامًا مَا قَطعتُم وَادِيًا ولا سِرْتُم سَيرًا إلاَّ وهُم مَعكم**». قالُوا: وهُم بالمَدينةِ؟ قَالَ: «**نَعم حبَسَهُم العُذْرُ**»[1]، وعن جابرٍ قالَ: قالَ رَسُول اللهِ ﷺ: «**لقد خَلَّفْتُمْ بالمَدينةِ رِجَالاً مَا قَطعتُم وَادِيًا ولاَ سَلكتُم طَرِيقًا إلا شَرِكُوكُم فِي الأَجْرِ، حَبَسَهُم المَرَضُ**»[2]. فَليسَ مَعنىٰ يُسرِ الدِّينِ أَنْ تتركَ واجِباتِه، وترتكبَ حُرُماتِه، بلْ مَنْ فعلَ ذلك استحقَّ العُقوبةَ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ. ولِهَذَا شُرِعَتِ الحُدُودُ والعُقُوبَاتُ لِرَدْعِ هَؤُلاءِ وإلزامِهم بشَرائعِ الدِّين. ومثلُ هَذَا من يفعلُ المعَاصِي فَإِذَا نُهِيَ عنهَا يقولُ: الدِّينُ ليسَ بالمظاهرِ، الدِّينُ فِي القلْبِ. ويحتجُّ بِقَولِ الرَّسُولِ ﷺ: «**التَّقْوىٰ هَهُنَا**» وَأَشارَ إلى صَدْرِهِ ﷺ[3]، وهُو احتِجَاجٌ بَاطِلٌ؛ لأَنَّ منْ كَانَ فِي قَلْبِهِ تَقْوى فَإِنَّهُ يبغضُ المَعَاصِي وَيَتَجَنَّبُهَا، وأَمَّا مَنْ ضَعُفَتِ التَّقْوىٰ في قلْبهِ أَو عُدِمَتْ فَإِنَّهُ لاَ يَأْنَفُ مِنَ المَعَاصِي ولا يستَنكرُها؛ قَالَ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٨، ٢٨٣٩، ٤٤٢٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٩١١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: ٣٢]. وفسادُ الظَّاهِرِ يَدُلُّ على فَسَادِ البَاطِنِ، وصَلاَحُ البَاطِنِ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي صَلاح الظَّاهِرِ، فالتَّقْوَىٰ أَصْلُهَا فِي القَلْبِ، وقَالَ ﷺ: «إِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذَا فسدتْ فسَدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلاَ وهِي القلبُ»(١). اللَّهُمَّ أَصْلِحْ قُلوبَنَا وثَبِّتْهَا على الحقِّ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢، ٢٠٥١) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

تَأمُّلاتٌ فِي أرْكَانِ الإسْلَامِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمِينَ، شَرعَ لِعبادِه منْ هذِه الأُمَّةِ أكملَ الشرائعِ وأيسرَ الأَديانِ، وجَعَلَهَا من خَيرِ أُمَّةٍ أُخرجت لِلنَّاسِ، فَهي آخِرُ الأُمَمِ في الدُّنْيَا وأَوَّلُ الأمَمِ يَومَ القِيامَةِ؛ لِمَا يَحتويه دِينُها الذِي هُو خَاتَمُ الدِّيانَاتِ السَّماويةِ مِنْ خَيرٍ للبَشَرِيَّةِ، فِي مَصَادِرِهِ ومَوَارِدِه وأحكامِهِ وتَشريعاتِه. وأشهدُ أَنْ لاَ إِلَه إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، وأَشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُه، صَلَّى اللهُ عليه وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ وَمن سَارَ على نَهْجِهِ وتَمَسَّكَ بسُنتهِ، وسلَّم تَسليمًا كَثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا المسلمونَ، اتَّقُوا اللهَ واعلَمُوا أَنَّ دِينَ الإسلامِ هُو النِّعْمَةُ الكُبْرَى التِي أَسْدَاهَا اللهُ على عِبادِهِ حيْثُ يَقُولُ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] هذا الإسلامُ العظِيمُ مَبْنِيٌّ علَى أركانٍ خَمْسةٍ، إِذَا تَأملتَها وَجدتَ كُلَّ رُكْنٍ مِنْهَا يشتملُ علَى مَصَالحَ عَظِيمةٍ ومنَافِعَ جَمَّةٍ لاَ تدخلُ تحتَ الحَصْرِ، وحسبنا فِي هذا المقام أَنْ نُشيرَ إِلى مَا تَيَسَّرَ مِنْهَا على ضَوءِ مَا وَرَدَ فِي الأَدلَّةِ، وشَهِدَ لَهُ الوَاقِعُ وَالحسُّ؛ فَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ التحدثَ بِهَا ظاهرًا؛ قَالَ تَعالىٰ: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١ ﴾ [الضحى: ١١].

فَالرُّكْنُ الأَوَّلُ وهُو الشَّهادتَان: شهَادَةُ أَنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحمدًا رَسولُ اللهِ، وهَذَا الرُّكْنُ يَعنِي الإخلاَصَ للهِ تعالىٰ فِي العِبادَةِ وتَجْريدَ المُتَابَعةِ لِلنَّبِيِّ ﷺ. فَمَنْ قَامَ بِهِ حَقَّ القِيَامِ استَحَقَّ السَّعادَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ: أَمَّا فِي الدُّنْيَا فإِنَّهُ يخرُجُ بِه منْ مِلَّةِ الكُفْرِ إِلَى مِلَّةِ الإِسْلاَمِ ويَحفَظُ دَمَهُ وَمَالَهُ، قَالَ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لاَ إِلَه إلاَّ اللهُ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُم وأَمْوَالَهُم

إلاَّ بِحَقِّ الإسْلَامِ»(١). وقال ﷺ: «مَنْ قالَ: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وكَفَرَ بمَا يُعبدُ مِنْ دُونِ اللهِ، أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»(٢). واتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ يَقِيكَ البِدَعَ المُضِلةَ، وتحصُلُ بِهِ على مَحَبَّةِ اللهِ لَكَ وَمَغْفِرتِهِ لِذُنُوبِكَ؛ فَقَدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال تعالىٰ: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، فَاتِّبَاعُهُ ﷺ هُو مِنْ مَعْنَى الشَّهَادةِ لَهُ بالرِّسَالةِ.

وأَمَّا الرُّكْنُ الثَّانِي منْ أَركانِ الإسْلامِ وهُو إِقَامةُ الصَّلاَةِ، فَالصَّلاَةُ صِلَةٌ بينَ العَبدِ وبَيْنَ رَبِّهِ، يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيهِ، ويرفَعُ فِيهَا إليه حَوائِجَه، ويتطهَّر بِهَا مِن ذُنوبه وَسيئاتِهِ، وهِي تشتمِلُ علَى أَنوَاعٍ مِنَ العِبَادَاتِ القَوليةِ والفِعليةِ: عِبَاداتِ القَلب والجَوَارِحِ، لاَ تجتَمِعُ فِي غَيرِهَا، وهِي عَوْنٌ على الشَّدَائِدِ وصُعُوبَاتِ الحَيَاةِ، قَالَ تعالَىٰ: ﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة: ٤٥] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣].

وكَانَ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ أَمرٌ فزعَ إِلَى الصَّلاةِ؛ لأنَّه يجدُ فِيهَا من طُمأنينة قَلبِهِ ونعيمِ رُوحهِ مَا يُنسيه هُمومَ الدُّنيَا ويُعينُه عَلَى مُواجهةِ مَشَاقِّ الحَياةِ ويفتحُ لَه أَبوابًا مِنَ الفَرَجِ. وَالصَّلاَةُ أيضًا تُعَدِّلُ سُلوكَ الإنسانِ وتُوجهُه نَحو الخَيرِ وتُجنبُه مَا يُستَقْبَحُ مِنَ الأَقْوَالِ والأَفْعَالِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأَعْلَىٰ مِنْ ذلكَ أَنَّهَا تشتمِلُ على ذِكْرِ اللهِ ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. والصَّلاَةُ أيضًا تُهَذِّبُ النَّفْسَ وتُكْسِبُ الإنسانَ الصَّبرَ عَلى الضَّرَّاءِ والشُّكْرَ عِنْدَ الرَّخاءِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥) ومسلم (٢٢) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٣٥)، ومسلم (٢٨) من حديث عبادة بن الصامت.

هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾ [المعارج: ١٩ـ٢٢]. والصَّلاةُ أَيضًا لِقَاءٌ ومُقابلةٌ معَ اللهِ جَلَّ شَأْنُهُ؛ كَمَا صَحَّ فِي الحَديثِ أَنْ اللهَ يَنْصِبُ وجْهَهُ قِبلَ وَجْهِ المُصَلِّي ويستمعُ لمُناجاتِهِ ويُجيبُهُ إذَا سَأَلَهُ. تَأَمَّلُوا سُورةَ الفَاتحةِ التِي تَقرؤونَها فِي كُلِّ رَكْعَةٍ ومَا تشتملُ عَليهِ مِنَ الثَّنَاءِ علَى اللهِ ودُعَائِهِ!.

وأَمَّا الرُّكْنُ الثالِثُ مِنْ أركانِ الإسْلامِ وهُو إيتاءُ الزَّكَاةِ، ففيهِ مِنَ المَنَافعِ مَا هُو وَاضِحٌ للْعيَانِ؛ فهُو تَطْهِيرٌ لِلنَّفْسِ مِنَ الشُّحِّ والبُخْلِ اللَّذيْنِ هُمَا مِنْ أَسْوَإِ الأَمراضِ النَّفْسِيَّةِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، وقال: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وَفِي إِيتَاءِ الزَّكَاةِ أَيضًا تَنميةٌ لِلمَالِ وَاستنزالٌ للبَركَةِ فِيهِ؛ قال ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ من صَدَقَةٍ»(١) بَلْ تزيدُه. وهذا المعنىٰ يُؤخذُ مِنْ لَفظِ الزَّكاةِ؛ فَإِنَّ مَعنَاهُ: النَّمَاء والزِّيادة. وَفِي إيتاءِ الزَّكَاةِ إحسانٌ إلى الفُقراءِ وإعانَةُ الغَارمينَ وإسْعافُ ابنِ السَّبيلِ المُنْقَطِعِ؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقالَ تعَالَىٰ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الروم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]، ففِي هذِه الآياتِ الكَريمةِ وَمَا شَابهها إِشارَةٌ

---

(١) أخرجه البزار (١٠٣٢) من حديث عبد الرحمن بن عوف. والطبراني في الأوسط (٢٢٧٠) والصغير (١٤٢) من حديث أم سلمة. وله شاهد في صحيح مسلم (٢٥٨٨) من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا ومن تواضع لله رفعه».

إلى أَنَّ الزَّكَاةَ يَحصُلُ بِهَا استفَادةٌ للدَّافِعِ والآخذِ، وَبالتَّالِي فِيهَا بِناءٌ للمُجتمعِ الإِسْلاَمِيِّ.

والرُّكْنُ الرَّابعُ مِنْ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ وَهُو الصِّيامُ فِيه مَنَافعُ وفَوائِدُ عظِيمةٌ؛ منهَا تقديمُ طَاعةِ اللهِ علَى طَاعَةِ النَّفْسِ والهَوىٰ؛ إذ الصَّائمُ يَمْتَثِلُ أَمْرَ رَبِّهِ بتركِ شَهواتِ نَفْسِهِ، حيثُ تَرَكَ أَعَزَّ شَيءٍ تَطلبُه نَفْسُهُ وهُو الطَّعامُ والشَّرَابُ والتَّمَتُّعُ بِزَوجَتِهِ؛ لمَّا عَلِمَ أَنَّ فِي ذلك رِضَا رَبِّهِ.

والصَّائِمُ أَيضًا يَتَرَبَّىٰ بِالصِّيامِ على الصَّبرِ والجَلدِ والتَّحمُّلِ؛ إِذْ يصبرُ على مَسِّ الجُوعِ ولَفْحِ العَطَشِ؛ ولهذا سُمِّي شَهْرُ رَمَضَانَ شهْرَ الصَّبرِ، ولاَ شَكَّ أَنَّ مقَامَ الصَّبرِ مقامٌ عظِيمٌ فِي الإِسلامِ قَد جَاءت آياتٌ كثيرةٌ فِي كِتابِ اللهِ تُنوِّهُ بشأنِه وتُثني عَلَى أَهْلِهِ، وهُو يحْصُلُ بِالصِّيامِ.

وَفِي الصِّيَامِ أيضًا تهذيبٌ لِلنَّفْسِ وَكَفٌّ للإنسانِ عنْ أَذى الآخَرينَ بِقوْلٍ أَوْ فِعْلٍ؛ فَإِنَّ الصَّائمَ مَنْهِيٌّ عَنْ أَنْ يَتَنَاولَ الآخَرِينَ بِمَا يُسِيءُ إِليهم مِنْ غِيبةٍ أَوْ نَميمةٍ أَوْ شتْمٍ، حَتَّى وَلَوْ تَطَاوَلَ عليه أحدٌ بالكَلامِ فإنَّه لاَ ينبَغِي لَهُ أَنْ يَرُدَّ عليهِ بالمِثْلِ؛ فَفِي الحدِيثِ: «**فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ فَليقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ**»[1]. وفي الصِّيام أَيضًا تذْكِيرٌ بِنعْمةِ اللهِ على الصَّائِم بِمَا يَسَّرَ لَهُ مِنَ الطَّعَامِ والشَّرابِ، حَيثُ يُدْرِكُ مَشقَّةَ الابتعَادِ عَن تنَاولِهِمَا عِندَ الحَاجَةِ إِليهمَا وشِدَّةَ حَاجَتِهِ إِلَيْهِمَا لِبقَاءِ حَيَاتِهِ.

وَفِي الصِّيَامِ أيضًا تذْكِيرٌ لِلصَّائم بِحَاجَةِ الفُقراءِ والمساكِينِ الذين لاَ يَجدُونَ مَا يأْكُلونَ عِندَ الحَاجَةِ فَيعْطِفُ عَليهِم. كمَا أَنَّ فِي الصِّيامِ أيضًا كَبْحًا لِجمَاحِ النَّفْسِ وسَدًّا لَمَنَافِذِ الشَّيطانِ في الإنسانِ؛ فَإِنَّ الشِّبَعَ وتَمْكِينَ النَّفْسِ مِنْ شَهَواتِهَا

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤، ١٩٠٤) ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة.

مِمَّا يَدْعُو إِلَى الأَشرِ والبَطَرِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، وفِي الصِّيامِ أَسْرارٌ عَجِيبةٌ وخيرَاتٌ كَثيرةٌ يُمْكِنُنَا أَنْ نستنبطَها مِنْ قَولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ [البقرة: ١٨٣]. فَهُو سَبَبٌ لِلتَّقْوَى التِي علَّقَ اللهُ عَليها كُلَّ خَيرٍ وَوصَفَ أَهْلَهَا بِكُلِّ بِرٍّ.

والرُّكْنُ الخَامِسُ مِنْ أَركانِ الإسلامِ وهُو الحجُّ وفيهِ مِنَ المنَافِعِ العَاجِلَةِ والآجِلَةِ مَا لاَ يدْخُلُ تَحْتَ حَصْرٍ، وقَد وَرَد حَدِيثٌ عَنِ النَّبيِّ ﷺ يُبَيِّنُ فَضْلَهُ؛ فَقَدْ رَوى الطَّبرَانِيُّ فِي «الكَبيرِ» والبَزارُ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِي اللهُ عَنْهُمَا قالَ: كنتُ جَالِسًا مَعَ النَّبيِّ ﷺ فِي مَسْجدِ مِنَى فَأَتَاهُ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ وَرَجُلٌ مِنْ ثَقِيف، فَسلَّمَا، ثُمَّ قالاَ: يَا رَسُولَ اللهِ جِئْنَا نسأَلُكَ. فقَالَ: «إِنْ شِئْتُمَا أَخبرتُكُمَا بِمَا جِئْتُمَا تَسْأَلانِي عَنْهُ فَعَلْتُ، وإِنْ شِئْتُمَا أَنْ أُمْسِكَ وتَسْأَلانِي فَعَلْتُ». فَقَالاَ: أَخبِرْنَا يَا رَسُولَ اللهِ، فقَالَ الثَّقَفِيُّ للأَنصَارِيِّ: سَلْ. فَقَالَ: أَخْبِرْنِي يَا رَسُولَ اللهِ فَقالَ: «جِئتنِي تَسْأَلُنِي عَنْ مَخرجِك مِن بيتِك تؤمُّ البيتَ الحَرامَ ومَا لكَ فِيه، وعنْ رَكعتيكَ بعدَ الطَّوافِ ومَا لكَ فيهما، وعَنْ طَوافِك بينَ الصَّفَا والمَروةِ ومَا لكَ فِيه. وعَنْ وقُوفِكِ عَشيَّةَ عَرفةَ، ومَا لَكَ فيهِ. وعَنْ رَمْيِكَ الجِمَارَ ومَا لكَ فِيهِ، وعَنْ نَحركَ ومَا لكَ فِيه معَ الإفاضةِ». فَقالَ: والذِي بعثكَ بالحقِّ لَعَنْ هَذَا جِئْتُ أَسْأَلكَ. قالَ: «فَإِنَّك إِذَا خَرجتَ مِنْ بيتِك تَؤمُّ البيتَ الحرامَ لاَ تَضَعُ نَاقَتُكَ خُفًّا وَلاَ تَرْفَعُهُ إِلاَّ كُتِبَ لَكَ بِه حَسَنةٌ ومحِيَ عَنكَ خَطيئةٌ. وأَمَّا ركعتاكَ بعدَ الطَّوافِ كَعِتْقِ رَقَبَةٍ مِنْ بَنِي إسماعيلَ، وأما طَوافُك بالصَّفَا والمَروةِ كعتقِ سَبعينَ رَقبةً. وأمَّا وقوفُك عَشيةَ عَرفَة فَإِنَّ اللهَ يَهْبطُ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِي بِكُمُ المَلائكةَ يقُولُ: عِبَادِي جَاءونِي شُعْثًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ يَرْجُونَ رَحْمَتِي، فَلَو كَانَتْ ذُنوبُكم كَعَدَدِ الرَّمْلِ أَوْ كَقَطْرِ

المَطَرِ أَوْ كَزَبَدِ البَحْرِ لغفَرْتُهَا، أفيضُوا عِبَادِي مَغفُورًا لكُم وَلِمَنْ شَفعتُم لَه. وَأَمَّا رَمْيُكَ الجِمَارَ فَلَكَ بِكُلِّ حَصَاةٍ رَميتَها تكفيرُ كَبيرَةٍ مِنَ المُوبِقَاتِ. وَأَمَّا نَحْرُكَ فَمَذْخُورٌ لَكَ عِندَ رَبِّكَ. وأَمَّا طَوافُك بالبيتِ بعدَ ذلكَ فإنَّك تَطوفُ وَلاَ ذَنْبَ لَكَ. يَأتِي مَلَكٌ حتَّى يَضَعَ يَدَيْهِ بينَ كَتفَيْكَ فَيقُولُ: اعْملْ فِيمَا يَسْتقْبلُ فَقَد غُفرَ لَكَ مَا مَضى»[1] قَالَ البَزَّارُ: رُوِي هذَا الحدِيثُ مِنْ وجُوهٍ ولاَ نَعْلَمُ لَهُ أَحْسَنَ مِنْ هَذَا الطريق. وقالَ الحافِظُ المُنْذِرِيُّ في«التَرْغِيب والتَّرْهِيب»: وهِي طَرِيقٌ لاَ بأْسَ بِهَا؛ رُواتُهَا كُلُّهُم موثَّقُونَ. ورَواهُ ابنُ حِبَّانَ فِي «صحيحِهِ»[2].

عِبَادَ اللهِ: هذَا دِينُ الإسْلاَمِ ينبنِي على هذِه الأَرْكَانِ العَظِيمَةِ التِي سَمعتم بعضَ فَوائِدِهَا، ومِنْهَا مَا يُطْلَبُ مِنكم الاستمرارُ عَليه فِي كُلِّ لَحْظَةٍ وهُو الشَّهادَتَانِ. ومِنهَا مَا يُطْلَبُ مِنْكُم فِي اليَومِ واللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ وَهُو الصَّلواتُ الخَمْسُ. ومِنْهَا مَا يُطْلَبُ مِنْكُم كُلَّ عامٍ وهُما الزَّكاةُ والصِّيامُ، ومنهَا مَا يُطْلَبُ مِنكُمْ مَرَّةً فِي العُمْرِ وَهُو الحَجُّ، ومَا زَادَ فَهُو تَطَوعٌ. فاحْمَدُوا اللهَ إذْ هَدَاكُمْ لِلإِسْلاَمَ واسْأَلُوه الثَّبَاتَ عَليه إلى المَمَاتِ.

أعوذ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

* * *

(١) هذا الحديث أورده هكذا الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥) وعزاه للبزار والطبراني بنحوه ونقل عقبه قول البزار المذكور. والحديث في المعجم الكبير (١٢/ ٤٢٥ رقم ١٣٥٦٦).

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٢/ ١١٠ ـ ١١١).

الإسلامُ ونَواقِضُه

الحَمْدُ للهِ الذِي رَضِيَ لَنَا الإسلامَ دِينًا، وَجَعَلَنا مِنْ خَيرِ أُمَّةٍ أُخرجت للنَّاسِ، وَأَمَرَنَا بالتمسكِ بهذَا الدِّينِ والثباتِ عَليه إِلى المَمَاتِ، وَحذَّرنا من التَّخلي عَنه؛ فقالَ سُبحانه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

وَأَشهدُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عَليه وَعلى آلِه وَصَحبِهِ وَأتباعِهم إِلى يومِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ تَعَالَى. إِنَّ دِينَ اللهِ وَاحِدٌ وَطَرِيقهُ وَاضِحٌ مُسْتقِيم، وإِنَّ الضَّلاَلَ طُرُقٌ مُتَشَعِّبَةٌ ومَتَاهَاتٌ كَثِيرةٌ؛ قالَ تعالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وعلى كلِّ سَبيلٍ مِنْ سُبُلِ الضَّلالِ شَيطانٌ يَدْعُو إِليْهِ، فَالسَّالِكُ على طَرِيقِ الحَقِّ تَعترِضُه صَوَارفُ عَنِ المُضِيِّ في طَرِيقِه إِلى طُرُقِ الضَّلاَلِ، تَارَةً بِالتَّرْغِيبِ وَتَارَةً بالتَّرْهِيبِ، فَهُو يَحْتَاجُ إِلى عِلْمٍ بالطَّرِيقِ المُستقِيمِ، وَعِلْمٍ بِتِلْكَ الطُّرُقِ المُضلَّةِ ويحتاجُ إِلى صَبْرٍ وَثَبَاتٍ عَلَى الحَقِّ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: والارْتِدادُ عَنْ دِينِ الإِسلاَمِ إِلَى الكُفْرِ تَارَةً يَكُونُ بِتَرْكِ الإِسْلاَمِ بِالكُلية إِلى مِلَّةٍ مِنْ مِلَلِ الكُفْرِ، وتارةً يكونُ بارتكابِ نَاقِضٍ مِنْ نَوَاقِضِ الإِسْلاَمِ مَع بقاءِ التَّسَمِّي بالإسلامِ وأَداءِ شعائِرِهِ، فيكونُ مَحسوبًا مِنْ جُمْلَةِ

المُسلمينَ وهُو لَيس مِنهم. وَهَذا أَمرٌ خَطيرٌ وموقفٌ دقيقٌ يحتاجُ إلى بصيرةٍ نافذةٍ يحصلُ بها الفُرْقانُ بينَ الحقِّ والباطلِ والهُدىٰ والضَّلالِ؛ إِذْ كَثِيرًا مَا يلتبسُ هذا الموقفُ على كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ بِسَبَبِ جَهْلِهِ بِنواقِضِ الإِسْلامِ وأَسْبَابِ الرِّدَّةِ، فَيَظُنُّ أَنَّ مَنْ أَدَّىٰ شَيئًا مِنْ شَعَائرِ الإسلامِ صَارَ مُسلمًا وَلَوِ ارْتَكَبَ شَيئًا مِنَ المُكَفِّرَاتِ، وَهَذَا الظَّنُّ الفَاسِدُ إِنَّمَا نَشَأَ مِنَ الجَهْلِ بِحَقِيقَةِ الإِسْلَامِ وَمَا يُنَاقِضُهُ. وهذَا وَاقِعٌ مُؤلِمٌ يَعِيشُهُ كَثيرٌ منَ النَّاسِ فِي عَصْرِنا هذا مِمَّنْ لاَ يُمَيِّزُونَ بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ والهُدىٰ والضَّلَالِ، فَصَاروا يُطْلِقُونَ اسم الإِسلَامِ عَلى مَنْ يُؤَدِّي بعضَ شعائرِه ولو ارتكبَ أَلفَ ناقضٍ. ولم يعلم هؤلاءِ أن من ادَّعَى الإسلام ومارسَ بعض العِبَادَاتِ ثُمَّ ارتكبَ شَيئًا مِن نَواقضِه، فَهُو بمثَابةِ مَنْ يتوضَّأُ ثُمَّ يُحْدِثُ، فهلْ يَبقَى لوضُوئهِ أَثرٌ؟!

إنَّ الإِسلامَ ليسَ مُجردَ دَعوى بِلاَ حَقيقةٍ، ولاَ هُو جَمعٌ بينَ المُتَنَاقِضَاتِ، إِنَّ الإِسلامَ دِينُ الحَقِّ والصِّدْقِ، إِنَّ الإِسلامَ هُو الاستسلامُ للهِ بِالتَّوحيدِ والانقيادُ لَه بِالطَّاعَةِ والخُلُوصُ مِنَ الشِّرْكِ، إِنَّ الإِسْلَامَ وحدةٌ كامِلةٌ لاَ تَتَجَزَّأُ، لاَبُدَّ مِنَ القِيامِ بِشَعَائِرِهِ وحُقُوقِهِ وتَجَنُّبِ نَوَاقِضِهِ، إِنَّ الإِسْلَامَ دِينٌ وَدَولةٌ، عِبَادةٌ وحُكمٌ وَعملٌ، دَعوةٌ وجِهادٌ، وبِالجملةِ فالإِسلامُ يحكمُ جَميعَ التصرفاتِ والتحركاتِ الصَّادرةِ مِن مُعتنقِيه.

عِبادَ اللهِ: إِنَّهُ لاَ يكونُ الرَّجلُ مُسلمًا بِمُجرَّدِ الانتسابِ إِلى الإِسلامِ مَع البقاءِ عَلى مَا يُنَاقضُهُ مِنَ الأُمُورِ الكُفريةِ، كَمَا أَنَّهُ لاَ يَكفِي مَدحُ الإِسلامِ والثناءُ عليه منْ غيرِ تَمَسُّكٍ بآدابهِ وعملٍ بأحكامِه. فَاليومَ المُنتسبونَ إلى الإسلام كَثيرٌ ولكنَّ المُسلمينَ مِنهم بالمَعنى الصَّحيحِ قَليلٌ. واليومَ نَسمعُ كَثيرًا ونقرأ كَثيرًا مِنْ مَدْحِ الإِسلامِ ولَكِنْ إذا رَجَعْنَا إِلى مَجَالِ التَّطبيقِ والعملِ وجدنَا الشُّقَّةَ بَعيدةً بينَ حَقيقةِ

الإسْلامِ وبينَ كَثيرٍ مِمَّنْ يَمدحونَه ويُثنونَ عَليه. وإنَّهُ لَمِنَ الظُّلمِ الوَاضِحِ والضَّلالِ المُبينِ أَنْ نُطْلِقَ اسْمَ الإسْلاَمِ عَلى مَن لاَ يستحقُّه لمُجردِ أنَّه يَدَّعِيهِ أَوْ يمدحُه ويُثْني عَليه وهُو بَعيدٌ عنهُ بأفعالِه وتصرفاتِه. كَمَا أَنَّهُ مِنَ الظُّلم الواضحِ والضلالِ المُبينِ أَنْ نَصِفَ بالإسلامِ مَنْ هُو مُرتكبٌ لِمَا يُنَاقِضُهُ مِنْ أَنواعِ الرِّدَّةِ لِمُجَرَّدِ أنه يَصومُ أَو يُصلي أَو يُمارسُ شَيئًا مِنْ شَعَائِرِهِ، وهذا مِنَّا إِمَّا نَتيجةُ جَهْلٍ بحقيقةِ الإسلامِ أَو اتِّباعٌ لِلهَوَىٰ، وكِلاَ الأَمْرَينِ خَطيرٌ وَقَبيحٌ.

عِبَادَ اللهِ: إنَّ نواقضَ الإسلام كثيرةٌ وأسبابَ الردةِ مُتعددةٌ، لَكِنَّنَا نَذكُرُ مِنهَا مَا يَكثُرُ وقوعُه اليومَ فِي مُجتمعاتِنا لنكونَ عَلى بَيِّنَةٍ منهُ لِنَحْذَرَهُ، فَمِنْهَا:

الشِّرْكُ فِي عِبادةِ اللهِ تَعالى، مِثلُ مَا يُفعلُ اليومَ عندَ القُبورِ مِنَ التقربِ إلى المَوتَى بطلبِ الحَاجَاتِ مِنهم وصرفِ النُّذورِ لَهم والذبحِ لأَضرحتِهم، والذبحِ للجنِّ لطلبِ شفاءِ المريضِ، وهَذا واقعٌ اليومَ، وَكَثيرٌ فِيمن يَدَّعُونَ الإسلامَ، والذِي يذهبُ إلى البِلاَدِ المجاورَةِ يرى هذا عيانًا. ومنه شَيءٌ يمارسه الذين يذهبونَ إلى المُشعوذينَ والدَّجَّالينَ لِطَلَبِ العِلاَجِ فَيأمرونَهم بِالذبحِ للجنِّ فينفذُون ذلكَ مِن غيرِ مُبالاةٍ، والذبحُ لِغيرِ اللهِ شِرْكٌ أكبرُ.

ومِنْ أَنواعِ الرِّدَّةِ عنِ الإسلامِ الاستهزاءُ بشيءٍ ممَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، كَالذِي يستهزئ بإعفاءِ اللِّحَىٰ أو بالسِّوَاكِ أو بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عَن المُنكرِ أو بالجهادِ أو غيرِ ذلكَ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

ومِنْ أنواعِ الرِّدَّةِ عنِ الإسلامِ الحكمُ بغيرِ مَا أنزلَ اللهُ فَمنْ حكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ وهو يرَى أَنَّهُ أحسنُ مِنْ حُكمِ اللهِ ورسولِه وأصلحُ للناسِ، أَو يَرى أنه مُخَيَّرٌ بينَ أَنْ يحكُمَ بِمَا أنزلَ اللهُ أو يحكمَ بغيرِه مِنَ القَوانينِ ـ فهُو كافرٌ مُرتدٌّ عَنِ

الإِسْلَامِ؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة: ٤٤]. وسَواءٌ حكَّمَ القانُونَ في كلِّ شيءٍ أو حكمه فِي بعضِ القضايَا مَا دَام أَنَّهُ يرىٰ أَنَّ ذلِكَ أصلحُ للمجتمعِ أَو أَنَّهُ أَمرٌ جائِزٌ فهُو كافرٌ باللهِ ولو صلَّىٰ وصامَ وزعمَ أَنَّهُ مسلِمٌ. وكذلِكَ الذِي يَطلُبُ التَّحاكُمَ إِلى غيرِ الشَّرعِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ ﴾ إلى قَولِهِ تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٠ـ٦٥]. وهذا خطرٌ دَاهَمَ المسلمينَ اليومَ، فَإِنَّ كثيرًا مِنَ الحُكَّامِ نَبَذُوا كِتابَ اللهِ واستبدلُوه بقَوانينَ استوردُوها مِنَ الغَربِ وحَكَمُوا بِهَا بينَ النَّاسِ. فيجبُ علَى المُسلمِ أنْ يعرِفَ حُكمَ اللهِ في هؤلاءِ ويحكُمَ بهِ عليهم، ولاَ يرضَى بِفِعْلِهِم.

ومنْ نواقضِ الإسلامِ تركُ الصَّلاَةِ، فمَنْ تركها جَاحدًا لوجوبِها فهُو كافرٌ بإجماعِ المسلمينَ، ومَن تَركها وهو يُقِرُّ بوجوبِها لكن تركَها من بابِ الكَسَلِ فهذَا يُؤمَرُ بِهَا ويُدْعَى إليها، فَإِن أَبَىٰ أنْ يُصلِّيَ واستمرَّ على تَرْكِهَا فَهو كافرٌ على الصَّحيحِ؛ قالَ تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة: ٥]. وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة: ١١] فَدلَّتِ الآيتانِ على أنَّ منْ لمْ يُقِمِ الصَّلاةَ لاَ يُخَلَّى سبيلُه بلْ يُقتلُ وليسَ هُو من إخوانِنَا لأَنَّهُ كافرٌ. وقالَ تعالىٰ عَنْ أَهلِ النارِ: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المدثر: ٤٢ـ٤٨]. فأخبرَ أنَّ مِن جُملةِ الأسبابِ التي دخلُوا بِهَا

النارَ تركَ الصَّلاة، وأخبرَ أنَّهمُ لاَ تَنفعُهم شفاعةُ الشَّافعِينَ؛ فدلَّ على أنَّهُم كُفَّارٌ؛ لأنَّ المُسْلِمَ تَنفعه شَفَاعةُ الشَّافعِينَ بإذنِ اللهِ، وقالَ ﷺ: «العهدُ الذِي بينَنا وبينَهم ـ يعنِي الكُفَّارَ ـ الصَّلاَةُ»[1] فدلَّ الحديثُ عَلى أنَّ الصَّلاة هِي الفارِقةُ بينَ الكَافِرِ والمُسلمِ؛ فمنْ لمْ يُصلِّ فليسَ بمُسْلِمٍ. وقالَ ﷺ: «بينَ العبدِ وبينَ الكُفرِ أَو الشِّركِ تركُ الصَّلاةِ»[2]. وهذِه نُصُوصٌ منْ كتاب اللهِ وسُنَّةِ رسولِهِ تدُلُّ على كفرِ تاركِ الصلاةِ وخُروجِه مِنَ المِلَّةِ ولو كانَ يَدَّعِي الإسلام ويُقيمُ معَ المسلِمينَ.

وقدْ كَثُرَ اليومَ تركُ الصَّلاةِ وعدمُ المُبَالاَةِ بِهَا، مَعَ العِلمِ أَنَّ تَاركَها لاَ حظَّ لهُ في الإسلامِ، بَلْ يُستتابُ فإنْ تَابَ وأقَامَ الصَّلاةَ وإلا قُتِلَ مُرْتدًّا، لاَ يُدفنُ في مقابرِ المُسلمينَ، ولاَ يرثُهُ أقاربُهُ بلْ يُصَادرُ مَالُه لِبيتِ مَالِ المسلمينَ. وكذلكَ يجبُ أَنْ يُفَرَّقَ بينَهُ وبينَ زَوجتِه المُسلمةِ؛ لأنَّ المُسلمةَ لاَ تحِلُّ لِكافرٍ؛ قالَ تعَالىٰ: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، فَلاَ يجوزُ أنْ يُزَوَّجَ مِنْ مسْلمةٍ، ولاَ يَجُوزُ أنْ تَبقَى معَهُ مُسلمةٌ في عِصْمتِه. ولكنْ حِينمَا أَغمضَ المسلمونَ أَعينَهم عنْ هؤُلاءِ وتركُوهم يُساكنونَهم فِي بُيوتِهم ويتزوجُونَ مِنْ نِسَائِهم صَارتْ جَريمتُهم مِنَ الأُمورِ المُعتادةِ التِي لاَ تُستنكرُ، فَلا حولَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ باللهِ العلِيِّ العظيم!.

أيها المُسلمونَ: ومنْ نواقضِ الإسلامِ التِي كَثُرَ انتشارهَا اليومَ في المجتمعاتِ الإسلاميةِ اعتناقُ المَبادىء الهدَّامَةِ كالشيوعيةِ والاشتراكيةِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٣) والنسائي (٤٦٣) وابن ماجه (١٠٧٩) من حديث بريدة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٢)، وأبو داود (٤٦٧٨)، والترمذي (٢٦١٨)، ٢٦٢٠)، وابن ماجه (١٠٧٨) من حديث جابر بن عبد الله.

والقَوميات المُناهضة للإسلام فمن استصوبَ شَيئًا من هذه المبادىء أَو دَافعَ عنهُ أو أعانَ أهله على المسلمينَ فقد ارْتدَّ عنْ دِينِ الإسلامِ ولَحِقَ بالكُفَّارِ، فَلْنَكُنْ على بصيرةٍ من دِينِنَا ومِنْ أمرنَا، لِنعرِفَ مَا هُو الإسلامُ وَمَا هِي نواقِضُه حتَّى نَحْذَرَ منهَا ومِنْ أَهلِهَا.

اللَّهمَّ بَصِّرنَا بالإسلامِ وَثَبتنا عَليه إلى يومِ نَلقاكَ غيرَ مُبَدِّلينَ ولاَ مُغَيِّرينَ يارب العَالمِين، اللَّهُمَّ أَرِنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتِّباعَهُ، وأرِنَا الباطِلَ بَاطِلاً وارزقْنا اجتنَابه.

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٥ـ٢٨].

* * *

فِي الحَثِّ علَى العَدْلِ وَبَيَانِ أَنوَاعِهِ

الحمدُ للهِ أَمرَ بالعدلِ فِي كِتابِه المُبينِ، وَنَهَى عَنِ الجَوْرِ وَالظُّلمِ والعُدوانِ حتَّى فِي حَقِّ الكَافِرينَ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ الملكُ الحقُّ المُبينُ، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه بعثَه رحمةً للعالَمينَ، وحُجةً علَى الخَلقِ أجمعينَ، صَلَّى اللهُ علَيه وعلَى آلِه وأصحَابه الذِينَ سَارُوا عَلى نَهجِهِ وتَمسكُوا بِسُنتهِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ تَعَالى، واعلمُوا أنَّ اللهَ أَمرَ بالعدلِ عمومًا وأخبرَ أَنَّهُ يُحِبُّ أَهلَه؛ قالَ تعالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقالَ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [المائدة: ٤٢]، والعدلُ هُو القَصدُ في الأمُورِ، والعَدَالةُ صِفةٌ تُوجِبُ الاحترازَ عمَّا يُخلُّ بالمُروءَةِ، وقَالَ ﷺ: **«إِنَّ المُقسطِينَ عندَ اللهِ علَى مَنابرَ مِنْ نُورٍ، الذِينَ يعْدِلُونَ فِي حُكمِهِم وَأَهْلِيهِم ومَا وَلُوا»** رَواهُ مُسْلِمٌ[(١)].

عِبادَ اللهِ: إنَّ مقامَ العدلِ فِي الإسلامِ عَظيمٌ، وثَوابَه عندَ اللهِ كَبيرٌ، والعدلُ أنواعٌ كثيرةٌ، وكلٌّ يَجِبُ عليهِ مِنَ العَدلِ بِقَدْرِ مَسؤوليتِه فِي هذِه الحَيَاةِ؛ فَالإمَامُ يَجِبُ عَليهِ العَدْلُ فِي رَعيتِه؛ قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]. وقالَ النَّبيُّ ﷺ: **«سَبعةٌ يُظلهم اللهُ فِي ظِلِّه يومَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّهُ..»** وذَكَرَ مَنهُم الإمامَ العَادِلَ[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم (١٨٢٧) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) من حديث أبي هريرة.

والقَاضِي يَجبُ عليهِ العَدْلُ في حُكمِهِ؛ قَالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]، وقَالَ ﷺ: «القُضَاةُ ثَلاثةٌ، اثْنَانِ فِي النَّارِ وَوَاحِدٌ فِي الجَنَّةِ: رَجلٌ عرفَ الحقَّ فَقضى بِهِ فَهو فِي الجَنَّةِ، ورَجُلٌ عرفَ الحَقَّ فَلَمْ يقْضِ بِهِ وجَارَ فِي الحُكم فهُو فِي النَّارِ. ورَجلٌ لمْ يعرفِ الحقَّ فَقَضىٰ للنَّاسِ علَى جَهْلٍ فهُو فِي النَّارِ»[1] لكنِ القَاضِي إذَا كانَ قَصْدُهُ الحَقَّ وبَذَلَ جُهْدَهُ فِي إصَابتِهِ فهُو مأجورٌ لو أَخطَأَ؛ لأنَّهُ لمْ يَقْصِدِ الخَطَأَ؛ قالَ ﷺ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فاجتهدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرانِ، وإِذَا حَكَمَ فاجتهَدَ ثُمَّ أَخطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»[2] متفقٌ عَليهِ.

ويَجبُ على الوَالِدِ أَنْ يعدِلَ بينَ أولادِه فِي العَطِيَّةِ وغيرِها؛ فَلا يُعطِي بعضَهم ويتركُ البعضَ الآخرَ ذَكَرًا كانَ أَوْ أُنثَىٰ، فَعَن النُّعْمَانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ أَنَّ أَبَاهُ أَتَىٰ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هذا غُلَامًا كانَ لِي. فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «كُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذا» فقالَ: لاَ. فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَارْجِعْهُ»[3] وفِي لَفظٍ: فانطلقَ أَبِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ لِيُشْهِدهُ على صَدَقَتِي. فقالَ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِم؟». قالَ: لاَ. قالَ: «اتَّقُوا اللهَ واعْدِلُوا بينَ أَوْلاَدِكم»[4] فَلْيَتَنَبَّهِ الآباءُ لِمِثْلِ هَذَا ولاَ يَخُصُّوا بعضَ أولادِهم بالعَطِيَّةِ دُونَ بَعْضٍ.

ويَجبُ علَى الزَّوجِ أَنْ يَعْدِلَ بيْنَ زَوجاتِه؛ قَالَ تعَالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ

---

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١١٢) بهذا اللفظ وعزاه لأبي داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٥٢) ومسلم (١٧١٦) من حديث عمرو بن العاص.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨٦) ومسلم (١٦٢٣/ ٩).

(٤) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣/ ١٣) من حديث النعمان بن بشير أيضا.

بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النساء: ١٩]. فَيَجِبُ عَلَى الزَّوجِ أَنْ يُسَاوِي بينَ زَوجاتِهِ فِي المَبِيتِ والنَّفَقةِ وسَائرِ الحُقُوقِ الزَّوجيةِ؛ قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، وقالَ تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣] وَعَنْ أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ لَهُ امرَأتَانِ فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يومَ القِيامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ»[(١)] أَيْ: يَكُونُ أَحدُ شِقَّيْهِ مَفْلُوجًا سَاقِطًا.

ويَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ العَدْلُ فِي القَوْلِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ أَيْ: إِذَا تَكلمتُم فِي شَيءٍ فاعْدِلُوا فِي القَوْلِ فَلَا تَجُورُوا فِيهِ، بَلْ قُولُوا الحَقَّ وَلَو كَانَ مُرًّا، سَواء أَكَانَ الحَقُّ عليكُم أَمْ عَلَى غَيرِكُم، ولَو على أَقْرَبِ النَّاسِ وأَحَبِّ النَّاسِ إِليكُم؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ﴾ [المائدة: ٨] وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ [النساء: ١٣٥]. يَأمُرُ تَعالىٰ بالعدلِ فِي الفِعَالِ والمَقَالِ على النَّفْسِ والقريبِ والبعيدِ، ويأمرُ بالعدلِ لكل أحدٍ في كُلِّ وقتٍ وفِي كُلِّ حَالٍ.

وَيجبُ على المُسلمِ أَنْ يَكُونَ عَادِلاً حتَّى مَعَ أَعْدَائِهِ مِنَ الكُفَّارِ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾ [المائدة: ٢]. أَيْ لاَ يَحملنَّكم بُغْضُ مَنْ قَدْ كَانُوا صَدُّوكُم عَنِ الوصُولِ إِلى المسجدِ الحرامِ أَنْ تَعْتَدُوا حُكْمَ اللهِ فِيهِم فَتَقْتصُّوا مِنهُم ظُلْمًا وعدوَانًا بَلِ احْكُمُوا بِمَا أَمَرَكُم اللهُ بهِ من العدلِ في حقِّ كُلِّ أَحدٍ. وَقَالَ تعَالىٰ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]. أَيْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٣) والترمذي (١١٤١) والنسائي (٣٩٤٢) وابن ماجه (١٩٦٩).

لاَ يَحملنَّكم بغضُ قَومٍ عَلى تَرْكِ العدلِ؛ فَإنَّ العدلَ واجبٌ على كُلِّ أَحدٍ فِي كُلِّ حَالٍ؛ لأنَّ العدلَ بهِ قَامتِ السَّمواتُ والأَرْضُ، وهُو مَحبوبٌ إلى كُلِّ النُّفُوسِ، وَبِهِ تَنتظمُ المَصَالحُ ويأمنُ النَّاسُ عَلَى دِمَائِهم وأموالِهم وأَعْرَاضِهم.

وأَمَرَ اللهُ تعَالَىٰ بِالعدلِ فِي القِصَاصِ؛ فَيُؤَاخَذُ الجَانِي بِمثلِ جِنَايَتِهِ مِنْ غَيرِ زِيَادَةٍ؛ قَالَ تعَالَىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقالَ تعالىٰ: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ۝٦٠﴾ [الحج: ٦٠]، وَقالَ تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وَيجبُ على المُسلِمينَ الإصلاحُ بينَ الفِئتينِ المُتقاتلتينِ بالعدلِ بَيْنَهُمَا؛ قالَ تعالىٰ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩]. أَيِ اعْدِلُوا بَينهُمَا فِيمَا كانَ أَصابَ بعضُهُم لِبعْضٍ بالقِسطِ وهُو العدلُ، فهُو سُبحانَهُ يأمُرُ المؤمنينَ أَنْ يَقُومُوا بالإِصْلاَحِ بينَ المتقاتلين، فَإِنْ أَبَتْ إِحْدَى الطَّائفتينِ قَبُولَ الإِصْلاَحِ فَهِي بَاغِيةٌ، وعَلَى المُؤمنينَ جَمِيعًا أَنْ يُقَاتِلُوا البُغَاةَ حتَّى يَرجعُوهم إِلَى قَبُولِ حُكْمِ اللهِ، فَإِذَا رَجَعُوا إِليهِ قَامَ المُؤمِنُونَ بِالإِصْلاَحِ القَائِمِ عَلى العدلِ بِإِنْصافِ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الطَّائِفَةِ الأُخرىٰ، حَتَّى يَسْتَتِبَّ الأَمْنُ ويرْجِعَ الصَّفَاءُ وَالمحبةُ بينَ المُؤمنينَ بِمُوجبِ الأُخُوَّةِ الدِّينيةِ.

أَيُّهَا المُسلِمونَ، هذَا دِينُنا؛ دينٌ قَائِمٌ عَلَى العَدْلِ فِي كُلِّ أَحكامِهِ وتَشريعاتِه؛ قالَ تعَالَىٰ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥] فهُو

صِدْقٌ فِي أَخْبَارِهِ عدْلٌ فِي أَحكامِه، لاَ يُقرُّ الجَورَ والظلمَ والعُدوانَ، ولاَ يُحابِي أَحدًا، بَلْ هُو دَائمًا مَعَ الحَقِّ أَيْنَمَا كَانَ، يأمرُ بالوفاءِ بالعقودِ والعُهودِ حَتَّى مَعَ الكُفَّارِ؛ قالَ تعالَى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٨]. أَيْ إِنْ خِفْتَ مِنْ قَومٍ مُعاهِدِين أَنْ يَخُونُوا فِي عَهْدِهِم فَاطْرَحْ إِليهم عَهْدَهُم بِأَنْ تُخبرَهم أَنَّكَ قَطعتَ العَهْدَ الذِي بينكَ وبينهَم، فَلاَ يَكُونوا عَلَى تَوَهُّم بقَاءِ العَهْدِ فيكُون ذلكَ خِيانةً مِنْكَ. وإِنَّ دِينًا هذِه صِفتُه لَهُو الدِّينُ الصَّالِحُ لِكُلِّ زَمانٍ ومكانٍ ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۚ ﴾ [الأنعام: ٥٧]. ولهذَا كُلُّ مَنْ تَأَمَّلَ هَذَا الدِّينَ أَوْ عاش تحتَ ظِلِّه مِنَ الكفَّارِ أَقرُّوا بعَدَالَتِهِ وكَمَالِهِ وصَلاَحِيَتِهِ فمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمنهم مَنْ آثرَ البقاءَ عَلَى الكُفرِ ﴿ مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّۖ ﴾ [البقرة: ١٠٩] عِنادًا ومُكَابرةً، والقَصَصُ فِي هذَا طَويلةٌ مَنْ أَرَادَ الاطلاعَ عَليهَا أَوْ على شَيءٍ مِنْهَا فليُراجعْ كُتُبَ التَّارِيخِ، وليطلعْ على آراءِ بعضِ المُستشرقينَ المُنْصِفِينَ.

* * *

فِي شَأنِ الصَّلاَةِ

الحمدُ للهِ الذِي جَعَلَ الصَّلاَةَ عَمُودَ الدِّينِ، وَقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، حَثَّ عَلَى إِقَامِ الصَّلاَةِ فِي كِتَابِهِ المُبينِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عبدُهُ وَرَسُولُهُ، كانَ آخِرُ وصيتِه لأُمتهِ عندَ خُروجِه مِنَ الدُّنيا الحَثَّ على الصَّلاَةِ لِمَا لَهَا مِنَ الأهميةِ فِي الدِّينِ، صَلَّىٰ اللهُ عَليهِ، وعلى آلِهِ وصَحابتِه الطَّيبينَ الطَّاهرينَ، وسَلَّمَ تَسليمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّها النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ تعَالىٰ فِي دِينِكم عامَّةً وصَلاتِكم خَاصَّةً، أَقِيمُوهَا وحَافِظُوا عليها وأَدُّوهَا بِخشُوعٍ وطُمأنينةٍ وحُضورِ قَلْبٍ، ولاَزِمُوا لَهَا الجُمَعَ والجَمَاعَاتِ، وابْنُوا لَهَا المسَاجِدَ، واهتمُّوا بشأنها غَايةَ الاهتمامِ، فَهِي عَمودُ الدِّينِ وعُنوانُ السَّعادةِ، هِي نُورٌ لَكُمْ فِي الأَرْضِ، وذُخرٌ لَكُمْ في السَّمَاءِ، وعَونٌ لكمْ على مَشَاقِّ الحَيَاةِ ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]. ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥] هِي قُرَّةُ عَيْنِ الرَّسُولِ ﷺ وَمفْزَعُهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَرَاحَتُهُ مِنَ المَشَاقِّ، هِي الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَركانِ الإسلامِ، يَجتمعُ فِيهَا مِنْ أنواعِ العِباداتِ مَا لاَ يجتمعُ فِي غيرِهَا، هِي الصِّلَةُ بينَ العبدِ وبينَ رَبِّهِ، وَهِي الفَارِقَةُ بينَ الكُفرِ والإيمانِ، فَلاَ حَظَّ فِي الإِسْلاَمِ لِمَنْ ضَيَّعَ الصَّلاَةَ.

عِبَادَ اللهِ: إِنَّ مِيزَانَ الصَّلاَةِ فِي الإِسلامِ عَظِيمٌ، ومنزلتها عندَ اللهِ عَاليةٌ، فَاهتمُّوا بِشأنِها غَايةَ الاهتمامِ، وأَدُّوهَا بِالوَفَاءِ والتَّمَامِ، فالصلاةُ مكيالٌ مَنْ وَفَّاهُ

وُفِّيَ أَجْرَهُ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ، ومَنْ طَفَّفَ فِيهِ فقدْ عَلِمتُم مَا قالَ اللهُ فِي المُطففينَ.

إِنَّهُ لاَ يُكتبُ للعبدِ مِن صَلاتِهِ إلا مَا عَقَلَ مِنهَا، وَلا تصحُّ إلاَّ إِذَا أُدِّيَتْ بِطُمَأنينةٍ؛ فعَنْ أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخلَ المسجدَ، فدخلَ رَجلٌ فَصلَّى ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلى النَّبيِّ ﷺ فردَّ عَليهِ السَّلاَمَ فَقَالَ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فَعلَ الرَّجُلُ ذلكَ ثَلاَثًا وَفِي كُلِّ مرَّةٍ يقولُ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فقال: وَالذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لاَ أُحسِنُ غيرَ هذَا فَعَلِّمْنِي، فقالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاَةِ فَأَسْبغِ الوضُوءَ، ثم استَقْبِلِ القِبْلَةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ القُرآنِ ثُمَّ اركعْ حتَّى تَطمئنَّ رَاكعًا، ثُمَّ ارفعْ حتى تَعتدلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطمئنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارفعْ حتَّى تطمئنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حتَّى تَطمئنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلكَ في صَلاتِكَ كُلِّهَا». مُتفقٌ عليه[١]. وفِيهِ دليلٌ على وجوب الطُّمأنينةِ، وأنَّ من تركهَا لم يفعل ما أُمِرَ بهِ ولم تبرأْ ذمَّتهُ منهُ، فَمنْ صَلَّى بِدُونِ طُمَأنينةٍ أُمِرَ بِإِعادَةِ الصَّلاَةِ. قَالَ بعَضُ العُلمَاءِ: فِي هذا الحدِيثِ دَليلٌ على أَنَّ الطُّمأنينةَ فِي الصَّلاَةِ لاَ تَسقطُ بِحَالٍ، وَإِلاَّ لسَقَطَتْ عَنْ هذَا الأعرابِيِّ الجَاهِلِ.

وقَدْ نَهى النَّبيُّ ﷺ عَنْ نَقرِ المُصلِّي صَلاتَه، وأَخْبَرَ أَنَّ النَّقْرَ صَلاَةُ المُنافِقينَ، قَالَ ﷺ: «تِلْكَ صَلاَةُ المُنَافِقِ يَجلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حتَّى إِذَا كانت بينَ قَرْنَي الشَّيطانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لاَ يَذكُرُ اللهَ فِيهَا إِلاَّ قَليلاً»[٢]. كَمَا أَنَّ مِنْ صِفَاتِ المُنافِقين فِي الصَّلاَةِ أَنَّهُمْ لاَ يُؤدُّونَها مَعَ الجَماعَةِ. وَمِنْ صِفاتِهم فِيهَا مَا قالَ اللهُ عَنهُم: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]. قالَ الإمامُ شَمسُ الدِّين ابنُ القَيِّمِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧، ٦٢٥١، ٦٢٥٢، ٦٦٦٧) ومسلم (٣٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٦٢٢) من حديث أبي هريرة.

رحِمَهُ اللهُ: فَهَذِهِ سِتُّ صِفاتٍ فِي الصَّلَاةِ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ: الكَسَلُ عِنْدَ القِيامِ إليها، ومُراءاةُ النَّاسِ فِي فِعلِهَا، وتأخيرُها، وَنَقرُهَا، وَقِلَّةُ ذِكْرِ اللهِ فِيهَا، والتخلفُ عَن جَماعتِها.

وَعنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ الأَشعريِّ قالَ: صَلَّى النَّبيُّ ﷺ بِأصحَابه ثُمَّ جَلَسَ فِي طَائفةٍ مِنهم فدَخَلَ رَجُلٌ مِنهم فقَامَ يُصَلِّي فَجعلَ يَركعُ وَينقرُ فِي سُجودِهِ وَرَسولُ اللهِ ﷺ يَنظرُ إليه فقَالَ: «**تَرونَ هذا لَو ماتَ لَمَاتَ عَلَى غَيرِ مِلَّةِ مُحمدٍ، ينقرُ صَلَاته كَمَا يَنقرُ الغُرابُ الدَّم**»[1] الحديثُ رَواه أَبُو بَكرٍ بنُ خُزيمةَ فِي صَحيحه. فأخبرَ أنَّ الذي يَنقُرُ الصَّلَاةَ لَو ماتَ لمَاتَ على غَيرِ الإسلامِ. وقد جَعلَ رَسولُ اللهِ ﷺ لِصَّ الصَّلاةِ وسَارِقَها شَرًّا مِنْ لِصِّ الأَموالِ وَسارِقِها فقال ﷺ: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلاتِهِ**» قَالُوا: يَا رسولَ اللهِ كَيفَ يسرقُ صَلاتَه؟ قال: «**لاَ يُتِمُّ ركوعَها ولاَ سجودَها**» أَوْ قالَ: «**لا يُقيمُ صُلبَه فِي الركوعِ والسجودِ**»[2] رواه الإمامُ أحمد، فَصَرَّحَ النَّبيُّ ﷺ بأَنَّ الذِي لاَ يُتِمُّ صَلاتَه أَسوأُ حالاً من سَارِقِ الأَموالِ، ولاَ رَيبَ أَنَّ لِصَّ الدِّينِ شَرٌّ مِنْ لِصِّ الدُّنْيَا.

أَيُّهَا المسلمونَ: ومِمَّا يُخِلُّ بَالصَّلاةِ خَلَلاً عَظيمًا مُسابقةُ الإمامِ فِي الرُّكُوعِ والسُّجودِ والخفضِ والرَّفعِ. قالَ الإمامُ أحمدُ: ليسَ لِمَنْ سَبَقَ الإمامَ صَلَاةٌ؛ بِذلِكَ جَاءتِ الأَحاديثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ وَعَنْ أَصحابِه رِضوانُ اللهِ عَليهم أَجمعينَ. جَاءَ الحَديثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**أَمَا يَخَافُ الذِي يَرْفَعُ رأسَهُ قبلَ الإمامِ أَنْ يُحولَ اللهُ رَأسَه رأسَ حِمَارٍ**»[3]. وذلِكَ لإساءتِهِ في صَلَاتِهِ لأَنَّهُ لاَ صَلَاةَ لَهُ ولَو

---

(١) صحيح ابن خزيمة (٦٦٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٣١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٩٦١) ومسلم (٤٢٧) من حديث أبي هريرة.

كانت لَهُ صَلاَةٌ لَرُجِي لَهُ الثَّوابُ ولمْ يُخَفْ عليه العِقَابُ أَنْ يُحولَ اللهُ رأسه رأسَ حِمَارٍ. قَالَ أَبو مُوسى الأَشعريُّ رَضيَ اللهُ عَنْهُ: إِنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ عَلَّمَنا صَلاتَنَا وعلَّمنا مَا نَقولُ فِيهَا، قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا كَبَّرَ الإِمَامُ فَكَبِّرُوا، وإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا، وإِذَا قالَ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ فقُولُوا: آمِينَ يُجِبْكُم اللهُ، وَإِذَا كَبَّرَ وَرَكَعَ فَكَبِّرُوا واركَعُوا، وإِذَا رَفَعَ رَأْسَه وَقَالَ: سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَارْفَعُوا رُؤوسَكم، وَقُولُوا: اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ، يَسمع اللهُ لَكُمْ، فَإِذَا كَبَّرَ وسجدَ فَكَبِّرُوا واسْجُدُوا، وَإِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ فَارْفَعُوا وَكَبِّرُوا». قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «تِلْكَ بِتِلْكَ»[1]. قَالَ الإمامُ أَحْمَدُ: قَولُ النَّبيِّ ﷺ: «إِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا» مَعْنَاهُ أَنْ تَنتظرُوا الإِمَامَ حَتَّى يُكَبِّرَ ويفرغَ مِنْ تكبيرِه وينقطعَ صوتُه ثُمَّ تكبرونَ بعدَه، والنَّاسُ يَغلطونَ فِي هذِه الأَحاديثِ ويَجهلونَهَا، وكذلكَ بقِيَّةُ أَفْعَالِ المَأمومِ في الصَّلَاةِ يَجِبُ أَنْ تكُونَ بعدَ نِهَايةِ فِعْلِ الإِمَامِ، لاَ تَكُونُ مَعَهُ وَلاَ قَبْلَهُ. ومَعلومٌ أَنَّ المَأمومَ لاَ يستفيدُ مِنْ مُسابقةِ الإمامِ فَإِنَّهُ لَنْ يَنصرفَ مِنَ الصَّلاةِ قَبلَ الإِمامِ، ولكنْ يَخدعُه الشَّيطانُ فيحملُه عَلى المُسابقةِ لِيُفسدَ عَليهِ صَلاتَه.

فَاتَّقُوا اللهَ في أُمورِكم عَامَّةً وَفِي صَلاتِكم خَاصَّةً، فَأَحْكِمُوهَا فَإِنَّها آخِرُ دينِكم فَتَمَسَّكُوا بآخِرِ دِينِكم وَمَا أُوصَاكم بِهِ رَبُّكُم عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّ الصَّلاةَ مِنْ آخِرِ مَا عَهِدَ إِليكُم نَبيكُم؛ فَقد جَاءَ عَنهُ عليه الصَّلاَةُ والسَّلامُ أَنَّهُ كانَ آخِرُ وصيتِه لأُمَّتِه وَآخِرُ عَهْدِهِ إِليهم عِنْدَ خُروجِه مِنَ الدُّنْيا: أَن اتَّقُوا اللهَ فِي الصَّلَاةِ وَفِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ، وَهِي آخِرُ مَا يَذْهَبُ مِنَ الإِسلامِ لَيْسَ بَعْدَ ذَهَابِهَا إِسْلَامٌ وَلاَ دِينٌ، وَهِي أَوَّلُ مَا يُسأَلُ عَنْهُ العَبدُ يومَ القِيامةِ مِنْ عَمَلِهِ، وَهِي عَمُودُ الإِسْلَامِ، وقَد خَصَّهَا اللهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٤٠٥).

عَزَّ وَجَلَّ بِالذِّكْرِ مِن بينِ الطَّاعَةِ كُلِّهَا وَنَسَبَ أهلَها إِلَى الفضلِ، وأَمر بالاستعانةِ بِهَا وبالصبر عَلَى جميع الطَّاعةِ واجتنابِ المَعصيةِ. .

أَعُوذ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحِيم ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ . . .﴾ الآياتُ، إِلَى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ـ١١].

* * *

في المُحافَظَةِ عَلَى الصَّلاَةِ

الحمدُ للهِ الذي جَعلَ الصَّلاَةَ عِمَادَ الدِّينِ، وجعلَها كِتابًا مَوقوتًا علَى المُؤمنينَ، فقالَ وهو أَصدَقُ القَائِلينَ: ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]. أَحمدُهُ على إحسانِهِ، وأَشكرُه على عظيمِ بِرِّهِ وامْتِنانِهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لَهُ في عبادتِه، كَمَا أَنَّهُ لاَ شريكَ لهُ في ربُوبيتِه، وأَشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُه، حَثَّ على الصَّلاَة وَرَغَّبَ فيهَا وحذَّرَ منْ إضاعتِهَا والتكاسلِ عنهَا، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلهِ وأَصْحابِهِ وأَتباعهِ إلى يومِ الدِّينِ، وسلَّمَ تَسليمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّها الناسُ، اتَّقُوا اللهَ وأطيعُوه، أَيُّهَا المسلمونَ إنَّ الفارقَ بينَ المُسلمِ والكافرِ إقامةُ الصَّلاةِ فَمَنْ تَرَكَ الصَّلاَةَ فقدْ كَفَرَ، ومن تكَاسلَ عنهَا وأَخَّرهَا عنْ وقْتِهَا فقدْ تَوَعَّدَهُ اللهُ بِأَلِيمِ الوَعيدِ، فقالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]، ومَنْ تَأَخَّرَ عنْ أَدَائِهَا معَ الجماعةِ منْ غَيرِ عُذْرٍ شَرْعِيٍّ فَهُو مُتَّصِفٌ بصِفةِ المُنَافِقينَ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء: ١٤٢]. وقالَ ﷺ: «أَثقلُ الصَّلاَةِ عَلى المُنَافقِينَ صَلاَةُ العِشَاءِ وصَلاَةُ الفَجْرِ ولَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهمَا لأَتَوْهُمَا ولَوْ حَبْوًا»(١). وقالَ عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنهُ: «ولقدْ رَأَيتُنا ومَا يَتخلفُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة.

عنهَا إلاَّ منافقٌ مَعلومُ النِّفَاقِ»[١].

أَيُّهَا المُؤمنون: خمسُ صَلواتٍ كَتبهنَّ اللهُ فِي اليومِ والليلةِ عَلَى العِبَادِ، يُطهرونَ بِهَا أَرواحَهم مِنَ الذُّنوبِ كَمَا يُطهرونَ أبدانَهم بِالمَاءِ منَ الأوسَاخِ والأَدْرَانِ، قدْ جَعلَها اللهُ رُكْنًا أَسَاسِيًّا، وأَمَرَ بِهَا النَّبيينَ والمُرسلينَ وأَتباعَهم إلى يومِ الدِّينِ؛ قالَ إبراهيمُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠] وَكانَ إسماعيلُ عَليهِ السَّلاَمُ: ﴿يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٥]. وقالَ عِيسى عليهِ السَّلاَمُ: ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣١]. وأَمرَ اللهُ مُحَمَّدًا عليهِ الصَّلاةُ والسَّلاَمُ بها بِقَولهِ: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٨، ٧٩]، وبقَولِهِ سُبحانَهُ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ [هود: ١١٤]، وبقولِهِ سُبحَانَهُ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢] فاقتدُوا بهؤُلاءِ الأخيارِ الذينَ قالَ اللهُ فِيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾ [مريم: ٥٨]، ولاَ تكُونُوا مِنَ الذينَ قالَ اللهُ فِيهم: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾﴾ [مريم: ٥٩] فَتارِكُ الصَّلاة مُعرضٌ عنِ اللهِ خارجٌ من دَائرةِ الإسلامِ، كافرٌ بغيرِ تفصِيل عندَ جمعٍ منْ أَئِمَّةِ الإسلامِ، مَحرومٌ منَ التَّلذذِ

---

(١) أخرجه مسلم (٦٥٤).

بمناجاةِ رَبِّهِ بقولِه: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ لاَ صَلاةَ لهُ تَنْهَاهُ عَنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ وقَبيح الآثامِ، ومحرومٌ منْ وِرَاثةِ الفِردوسِ والتكريمِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ مَعَ الذِينَ هُم على صَلوَاتِهِم يُحَافِظُونَ، مأْوَاهُ سَقَرُ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝ ﴾ [المدثر ٢٧ ـ ٣٠].

وإِذَا سُئِلُوا ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ۝ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۝ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ۝ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨].

عِبادَ اللهِ: مَا بَالُ مساجِدنَا خَاليةً مِنَ الشُّبَّانِ إلاَّ النَّزْرَ اليسيرَ؟ مَا بَالُ جُمعتنا وجمَاعَتِنَا لا يَحضُرهَا إلاَّ العَددُ القَليلُ مِنَ الجَمعِ الكَثيرِ؟ أَيَعَافُ أَغنياؤُنا المُترفُونَ حُضورَ المساجِدِ والوقوفَ بينَ يدي المَلِكِ القَدِيرِ! مَا بَالُ مَساجِدنا مُعَطَّلةً منْ ذِكْرِ اللهِ مُعظَمَ الوقتِ مَا عَدَا لَحَظَاتٍ تُؤَدَّىٰ فيهَا الصَّلاَةُ على عَجَلٍ! وَفِي حَالَةِ فُتُورٍ وَكَسَلٍ؟ أَلَمْ تَكُن المساجِدُ مَحِلَّ اجتمَاعِ المُسلمينَ بُكْرَةً وعشيةً؟ لا يَتَخَلَّفُ عنهَا إلاَّ مُسافرٌ أَوْ مَريضٌ أَوْ مَعذورٌ، كَانت المساجِدُ تَغَصُّ بالمُسلمينَ شُيوخًا وشُبانًا، وكانت تَعُجُّ بِأَصواتِهم تسبيحًا وَتَهليلاً واستغفارًا وقُرآنًا، كَانُوا يَؤُمُّونَهَا إِذَا سَمِعُوا الأذانَ مُبَادِرينَ، لاَ يتخلفُ مِنهم إلاَّ مريضٌ فيُعادُ أَوْ غَائِبٌ فَيُسْأَلُ عنهُ. واليومَ قدْ هُجِرَتْ بُيوتُ اللهِ وأَصبحَ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ يَترفَّعُون عَنْ دُخولِها، وَكَثيرٌ مِنهم يبخلُون بِصرفِ شَيءٍ مِنْ وَقتِهم فِيهَا، بينَما نَراهم لاَ يَبخلونَ بِطَويلِ الوقتِ فِي مَجالسِ القِيلِ والقَالِ، أَو السَّعْيِ فِي طَلَبِ المَالِ، أَوْ مُشَاهَدَةِ المَلاَهِي وَاسْتِمَاعِهَا، أَو حُضور الأنديةِ الرِّياضيةِ منْ غَيرِ مَا كَسَلٍ أَوْ مَلَلٍ. وَبُيوتُ اللهِ خَاليةٌ مِنَ العُلَمَاءِ والعُبَّادِ ورُوادِ المسَاجِدِ فِي ظُلماتِ اللَّيَالِي مِنَ الذين لا تُلْهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ ـ قد فُقدوا

في هذا الزَّمَانِ.

فَيا شَبَابَ الإسلامِ ويَا شُيوخَ المُسْلِمِينَ، كَيْفَ هَجرتُمُ المَسَاجِدَ وجَالستُم العُصَاةَ والفَاسقِينَ وَهبطتم إلى مُستوى السفلَةِ والمُنَافقِينَ؟ أَيُحِبُّ أَحدُكم أَنْ يَسمَعَ مُنَادِي الصَّلاَةِ فَيُدبر عَنهَا ولاَ يُجيب فيكُونَ كَمَنْ قَالَ اللهُ فِيه: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ۝ ﴾؟ [القيامة: ٣١ ـ ٣٣]. إِنَّ المُؤْمِنَ يَستجيبُ لِدَاعِي اللهِ ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٢١]، ﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [إبراهيم: ١٠]، ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ [يونس: ٢٥]. المُؤمنُ يُعظمُ ذِكرَ اللهِ فَيبعثُ فِي قَلبه الخَشيةَ، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٢، ٣].

أَيُّهَا المُؤمنونَ: إنَّ الصَّلاَةَ إِنَّمَا تُكَفِّرُ سَيئاتِ العَبدِ إِذَا أَدَّى حقَّها وأَكملَ خُشُوعَهَا ووقفَ بينَ يَدي رَبِّه تعالى بقلبِه، فهذا ينصرفُ مِنْ صَلاتِه وَهُو يجدُ خِفَّةً مِنْ نَفْسِهِ ويُحِسُّ بأثقالٍ قدْ وُضِعَتْ عَنهُ فَيجدُ نَشَاطًا ورَاحةً ورَوْحًا. حَتَّى يتَمنى أَنَّهُ لَمْ يَخرج مِنهَا لأَنَّهَا قُرَّةُ عَينِه وَنعيمُ رُوحهِ، وَجَنَّةُ قَلبِه ومُستَرَاحُه فِي الدُّنْيَا، فَلاَ يَزَالُ كَأَنَّهُ فِي سِجْنٍ وَضيقٍ حَتَّى يَدْخُلَ فِيهَا فَيستريحَ بِهَا لا مِنهَا. فَالمُحِبُّونَ يقُولونَ: نُصَلِّي فَنستريح بِصَلاَتِنَا؛ كَمَا قَالَ إمَامُهم وقدوتُهم ونبيُّهم ﷺ: «يَا بلاَلُ أَرِحْنَا بالصَّلاَةِ»[1] ولمْ يَقُلْ: أَرِحْنَا مِنهَا، وقالَ ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي في

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٥٧٨) وأبو داود (٤٩٨٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

الصَّلاَةِ»[١]، فَمَنْ جعلتْ قُرَّةُ عَينِه فِي الصَّلاَةِ، كيفَ تَقرُّ عَيْنُه بِدُونِهَا وكَيفَ يُطِيقُ الصَّبْرَ عَنْهَا؟! فَصَلاةُ هذا الحَاضِرِ بقلبِه الذي قُرَّةُ عَينِه في الصَّلاَةِ هِي التِي تَصْعَدُ وَلَهَا نُورٌ وَبُرهَانٌ حتَّى يَستقبلَ بِهَا الرَّحْمَن عزَّ وجلَّ فتقُولُ: «حَفِظَكَ اللهُ تعالىٰ كَمَا حَفِظْتَنِي»، وأَمَّا صَلاَةُ المُفرِّطِ المُضَيِّعِ لِحُقُوقِهَا وَحدُودِهَا وخُشُوعِهَا فَإِنَّها تُلَفُّ كَمَا يُلَفُّ الثَّوبُ الخَلَقُ ويُضْرَبُ بِهَا وَجْهُ صَاحِبِهَا، وتَقُولُ: «ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي». وقدْ رُوِيَ في حديثٍ مَرْفوعٍ: «مَا مِنْ مُؤمنٍ يُتِمُّ الوضُوءَ إلَى أَمَاكِنِهِ ثُمَّ يَقُومُ إلى الصَّلاَةِ فِي وَقْتِهَا فيؤدِّيهَا للهِ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يَنْقُصْ مِنْ وَقتِهَا ورُكُوعِهَا وسُجُودِهَا ومَعَالِمِهَا شيئًا إلاَّ رُفِعتْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بيضاءَ مُسْفِرةً يَستضيءُ بِنُورِهَا مَا بينَ الخَافقَيْنِ حتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى الرَّحْمَنِ عَزَّ وجَلَّ. وَمَنْ قامَ إلى الصَّلاةِ فَلَمْ يُكمِلْ وضُوءَهَا وأَخَّرَهَا عن وقْتِهَا واستَرَقَ رُكُوعَهَا وسُجُودَهَا ومعَالِمَهَا رُفِعَتْ عنهُ سَوداءَ مُظلمة، ثُمَّ لا تُجَاوِزُ شَعرَ رَأْسِهِ تَقُولُ: ضَيَّعَكَ اللهُ كَمَا ضَيَّعْتَنِي»[٢]. وَرَوَىٰ مسلمٌ في صحيحِه عنْ جَابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهُما قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمسِ كَمثَلِ نَهرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكم يغتسلُ منه كُلَّ يومٍ خمْسَ مرَّاتٍ»[٣].

أَعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، بسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحيمِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ

---

(١) أخرجه أحمد (١١٨٨٤، ١١٨٨٥) والنسائي (٣٩٣٩، ٣٩٤٠) من حديث أنس.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٠٩٥) من حديث أنس. وله شاهد من حديث عبادة بن الصامت أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (٥٨٥).

(٣) أخرجه مسلم (٦٦٨).

أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ [المؤمنون: ١ـ١١].

بَارَكَ اللهُ لِي وَلَكُمْ فِي القُرآنِ العظيم ونَفَعَنِي وإيَّاكُم بِمَا فِيهِ من الآياتِ والذِّكْرِ الحَكِيم. أَقُولُ قَولِي هذا وأَستغفِرُ اللهَ لِي ولكُمْ وَلِجَميعِ المُسْلِمِينَ.

* * *

فِي التَّحْذِيرِ مِنَ التَّهَاوُنِ بِالصَّلاةِ

الحمدُ للهِ الذِي جعلَ الصَّلاةَ على المُؤمنينَ كِتَابًا موقُوتًا، ووَعدَ مَنْ حَافظَ عليهَا بِجَزيلِ الثَّوَابِ، وتَوعَّدَ مَنْ تَهَاونَ بِهَا بِأَلِيم العِقَابِ، وأشهَدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَشهَدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِه فِي الصَّلاَةِ، وكانتْ آخِرَ مَا وَصَّى بِهِ أُمَّتهُ عِندَ خُروجهِ مِنَ الدُّنيا، صَلَّى اللهُ عليه وَعَلَى آلِهِ وأَصْحَابِهِ وسَلَّم تسلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعد: أَيُّهَا المسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ فِيمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْكُم، تَعْلَمُونَ أَنَّ الصَّلاَةَ هِي آكَدُ أَرْكَانِ الإسلامِ بعدَ الشَّهَادتينِ، وهِي عَمُودُ الدِّينِ، وأَوَّلُ مَا يُحاسَبُ عنهُ العبدُ يومَ القِيَامةِ. وتعلمونَ أَنَّ هذِه الصَّلاَةَ شُرِعَتْ فِي أوقاتٍ مُعينةٍ لاَ يَجوزُ تَأخيرُها عَنها أَوْ تَقديمُها عَليهَا منْ غَيرِ عُذْرٍ شَرعيٍّ؛ كَسَفرٍ أَوْ مَرَضٍ يُبيحَانِ الجَمعَ بينَ الصَّلاتينِ؛ قالَ تَعالَىٰ: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩]، قالَ ابنُ مَسعودٍ: ليسَ معنَىٰ أَضَاعُوهَا تَركُوها بالكُلِّيَّةِ، ولكنْ أَخَّرُوهَا عنْ أَوْقَاتِهَا. وقَالَ سعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ إمامُ التَّابعينَ: هُو أَلا يُصلِّي الظُّهرَ حتَّى تأْتِي العَصرُ، ولاَ يُصَلِّي العصرَ إلى المغرِب، ولاَ يُصَلِّي المغربَ إلى العِشَاء، ولاَ يُصَلِّي العِشَاءَ إلى الفَجْرِ، ولاَ يُصَلِّي الفَجرَ إلى طُلوعِ الشَّمسِ. فمَنْ مَاتَ وَهُو مُصِرٌّ على هذِه الحالةِ ولمْ يَتُبْ أَوعدَهُ اللهُ بغَيٍّ وهُو وادٍ في جهنَّمَ بعِيدٌ قَعْرُهُ شَدِيدٌ عِقَابُهُ. وقالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [المنافِقون: ٩]. قالَ جَمَاعةٌ مِنَ المُفسرينَ: المُرَادُ

بِذِكْرِ اللهِ: الصَّلواتُ الخمسُ. فَمن اشتغلَ عنِ الصَّلاَةِ فِي وقتِهَا بِمَالِه كَبَيْعِهِ أَو صَنْعِتهِ أَوْ وَلَدِهِ كَانَ مِنَ الخَاسِرِينَ؛ ولِهَذا قالَ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُحَاسَبُ عَنهُ العبدُ يومَ القيامةِ منْ عَمله صَلاتُه، فَإِنْ صَلَحتْ فَقد أَفلحَ وأَنجح، وإنْ نَقصتْ فَقد خَابَ وَخَسِرَ»[١]. وقالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝﴾ [الماعون: ٤، ٥]، قالَ ﷺ: «هُمُ الذِينَ يُؤخرونَ الصَّلاةَ عَنْ وقتِها»[٢]. وأخرجَ أحمدُ بسندٍ جَيدٍ والطَّبرانيُّ وابنُ حِبَّان في صحيحِه، أَنَّهُ ﷺ ذَكَرَ الصَّلاَةَ يومًا فقَالَ: «مَنْ حَافظَ عليها كانت له نُورًا وبُرهانًا ونَجاةً يومَ القيامَةِ، ومَنْ لَمْ يُحافِظْ عليها لمْ يكَنْ لَهُ نُورٌ ولاَ بُرهانٌ ولاَ نجَاةٌ، وكَانَ يومَ القِيامةِ مَعَ قَارونَ وفِرعونَ وهَامانَ وأُبيِّ بنِ خَلَفٍ»[٣]. قالَ بعضُ العُلماءِ: إِنَّمَا حُشرَ معَ هؤلاءِ لأَنَّهُ إنِ اشتغلَ عنِ الصَّلاةِ بمَالِهِ أَشْبَهَ قَارونَ فَيحشرُ مَعه، أوْ بِمُلكِهِ أَشْبَهَ فِرعونَ فَيحشَر مَعه، أَوْ بِوزارتِهِ أَشْبَهَ هَامَانَ فيُحشرُ مَعه، أوْ بتجارتِه أَشْبَهَ أُبيَّ بنَ خلَفٍ تَاجِرَ كُفَّارِ مَكَّةَ فيحشرُ معهُ، وَروى ابنُ حِبَّانَ في صَحِيحهِ: «مَنْ فَاتتهُ صَلاَةٌ فكَأنَّما وُتِرَ أَهْلَهُ ومَالَهُ»[٤]. وَروى الشَّيخانِ والأربعةُ: «الذِي تَفوتُهُ صَلاَةُ العَصْرِ كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ ومَالَهُ»[٥] زَادَ ابنُ خُزيمةَ فِي صَحيحِه: قالَ مَالِكٌ: تفسيرُه ذَهَابُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٣) والنسائي (٤٦٥) وابن ماجه (١٤٢٥، ١٤٢٦) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه ابن نصر في تعظيم قدر الصلاة (٤٢) وأبو يعلىٰ في مسنده (٨٢٢) وابن جرير في تفسيره (٣٠/٣١٣) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦٥٤٠) وابن حبان (٦٥٧٦) والطبراني (١٧٦٧ مختصرا) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) صحيح ابن حبان (١٤٦٨) من حديث نوفل بن معاوية.

(٥) صحيح البخاري (٥٥٢) وأخرجه مسلم (٦٢٦) وأبو داود (٤١٤) والترمذي (١٧٥) والنسائي (٤٧٨، ٤٧٩، ٤٨٠، ٥١٢) وابن ماجه (٦٨٥) من حديث عبد الله بن عمر.

الوقتِ(١). وروى البُخَارِيُّ عَنْ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: كَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِمَّا يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ لأَصْحَابِهِ: «هلْ رَأى أَحدٌ مِنكُم رؤيا؟» فيقصّ مَا شَاء اللهُ أن يَقُصَّ، وإنهُ قالَ لنَا ذاتَ غَدَاةٍ: «إِنَّهُ أَتَانِي الليلةَ آتِيَانِ، وإنهُمَا انبعثَا بِي، وإنَّهما قَالاَ لِي: انطلقِ. وإنِّي انطلقتُ معَهُما، وإنا أتينَا على رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ وإذا آخرُ قَائمٌ عَليهِ بِصَخْرَةٍ وإذَا هُو يَهوي بالصَّخرةِ على رَأسِه فيثلغُ رأسَه فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ـ أَي فيتدَحرَجُ ـ فيأخذُه فَلا يَرجعُ إليه حتَّى يصحّ رأسُه كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعودُ إليه فيفعلُ بِهِ مِثلَ مَا فَعَلَ فِي المرةِ الأُولى» قال: «قُلتُ لَهُمَا: سُبحانَ اللهِ مَا هذَا؟ فأَخْبَراهُ أنَّهُ الرَّجُلُ يأخذُ القُرآنَ فيرفضُه وينامُ عنِ الصَّلاةِ المَكتوبةِ»(٢). وفي حديثِ البَزَّارِ قالَ: ثُمَّ أَتَى النَّبيُّ ﷺ على قومٍ تُرْضَخُ رُؤوسُهم بالصَّخرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عادَتْ كَمَا كَانت ولاَ يَفْتُرُ عَنهم مِنْ ذلكَ شيءٌ قالَ: «يَا جبريلُ، مَنْ هَؤلاءِ؟ قالَ: هَولاءِ الذينَ ثَقُلَتْ رُؤوسُهم عَنِ الصَّلاةِ»(٣).

عِبادَ اللهِ: إنَّ الصَّلاةَ اليومَ قد خَفَّ مِيزانُها عندَ كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ فتهَاونوا بِها، فمنهم منْ يَتهَاونَ بِشرُوطِها وأركانِها وواجباتِها؛ فَلاَ يأتي بِهَا كَامِلَةً ولاَ يَتعلمُها ويتفهمُها حتَّى يَأتِي بِهَا على وجْهِهَا، فَرُبَّمَا يُخِلُّ بشرْطٍ منْ شُروطِها أَوْ رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِهَا فلاَ تَصِحُّ صَلاَتُهُ، ويستمرُّ على هذِهِ الحَالَةِ يَظُنُّ أَنَّهُ يُصلِّي وهو لاَ يُصَلِّي. وقدْ رأى النَّبيُّ ﷺ رَجُلاً فِي قَدَمِهِ لمعةٌ قَدر الدِّرْهَمِ لَمْ يُصِبْهَا المَاءُ فَأَمَرَهُ أَنْ يُعيد(٤)، ورَأى رَجُلاً يُصَلِّي ولاَ يَطمئنُّ فِي صَلاتِه فقالَ لَهُ: «ارجعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ

---

(١) صحيح ابن خزيمة (١/ ١٧٣) عقب الحديث (٣٣٥).

(٢) صحيح البخاري (٧٠٤٧). والحديث مخرج أيضا في أكثر من موضع في الصحيح، انظر: صحيح البخاري (٨٤٥، ١٣٨٦) وصحيح مسلم (٢٢٧٥).

(٣) عزاه للبزار كذلك المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ٢٢٠).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٥).

تُصَلِّ. . . »[١]. ومنهم منْ يتهَاونُ بالصَّلاةِ معَ الجماعةِ، وهذا مِنْ عَلاماتِ النِّفاقِ، ومَنْ تركَ الصَّلاةَ معَ الجماعةِ مِنْ غيرِ عُذرٍ شرعيٍّ فقد ارتكبَ جُرْمًا عظيمًا واستحق عقوبةً شَديدةً في الدُّنيَا والآخرةِ، بَلْ ذَهبَ جَمعٌ مِنَ العُلماءِ إلى عَدَمِ صِحَّةِ صَلاتِهِ التِي صَلاَّهَا وَحْدَهُ.

واليومَ نَرَىٰ مِنَ النَّاسِ تَسَاهُلاً عَظيمًا فِي الصَّلاَةِ مَعَ الجَمَاعةِ؛ فَمنهم مَنْ لاَ نَرَاهُ فِي المسجدِ أَبدًا فِي جَميعِ الصَّلواتِ وهُو يَسكنُ بجوارِ المَسجدِ، يَخرجُ مِن بيتِه لأَعمالِه الدُّنيويةِ ولاَ يخرجُ من بيتهِ لأداءِ الصَّلاةِ فِي المَسجدِ وهُو يَسمعُ النِّداءَ خمسَ مراتٍ في اليومِ والليلةِ، فيقولُ: سمِعْنَا وعَصينَا! والعَجيبُ في الأَمرِ أنَّ مثلَ هذَا الشَّخصِ الذِي عصَىٰ رَبَّهُ وأَبَىٰ أنْ يُجيبَ دَعوتَه ويحضرَ في المسجدِ لأَداءِ فريضتِه، العَجيبُ في الأمرِ أَنَّ هذَا يَسكنُ مَعهُ في البيتِ رِجَالٌ منْ أَهلِه يُصلُّونَ معَ المُسلمينَ، ولاَ يُنكرونَ عَليه بَلْ يَتْرُكُونَه فِي البيتِ وَكَأَنَّهُ ما فَعلَ شَيئًا، ويُواكِلونَه ويُشاربونَه ويُجالِسُونَهُ، فَأَينَ الغيرةُ في الدِّينِ؟! وأينَ الأَمْرُ بالمعروفِ والنَّهي عن المُنكرِ؟ إنَّ الواجِبَ على هؤلاءِ أنْ يُنكرُوا على هذَا العَاصِي أَشَدَّ الإنْكارِ، فَإنْ تَابَ إلَى اللهِ وصَلىٰ معَ المُسلمينَ وإلاَّ أَخرجُوهُ من مسكَنِهم وإن كانَ المَسكَنُ لَهُ خَرَجُوا هم مِنْ عِندِهِ وسكَنُوا في بيتٍ بعيدٍ عنهُ، فلاَ مُحَابَاةَ ولاَ مُدَاهَنَةَ فِي دِينِ اللهِ، وإنْ كَانُوا يَرجُون مِنَ الشَّخْصِ العاصِي طَمَعًا دُنيويًّا، فَمَا عندَ اللهِ خيرٌ وأبقَىٰ ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [الجمعة: ١١] ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

والبعضُ مِن النَّاسِ يُصلِّي معَ الجماعةِ بعضَ الصَّلواتِ ويتركُ الجماعةَ في

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٧، ٦٢٥١، ٦٢٥٢، ٦٦٦٧) ومسلم (٣٩٧).

البعضِ الآخر؛ كَصَلاةِ الفَجْرِ، فَإِنَّ الذِينَ يتخلفونَ عنْ صَلاةِ الفجرِ معَ الجَماعةِ كَثيرٌ، وقد أَخبرَ النَّبيُّ ﷺ أَنَّ ذلكَ مِنْ عَلاَماتِ النِّفاقِ[1]، وسَمِعتُم فِي الحَدِيثينِ السَّابقَينِ أَنَّ الذِينَ تَثَاقَلتْ رُؤوسُهم عنْ صَلاةِ الفَجرِ تُرضَخُ رُؤوسُهم بِالحجارةِ فِي قُبورِهم وَيومَ نُشورِهم، وكُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانت، ولاَ يزالُ هذا دَأْبهم والعِياذُ باللهِ . .

ومِمَّا يُسببُ النَّومَ عنْ صلاَةِ الفَجرِ فِي هذَا الزَّمَانِ أَنَّ كَثيرًا منَ النَّاسِ يسْهَرونَ الليل إِمَّا على قِيلَ وقالَ، وإِمَّا عَلَى لَهْوٍ وَلَعِبٍ واستمَاعِ أَغَانٍ ومزَاميرَ، وإمَّا على مُشَاهَدةِ أفلامٍ تُعرَضُ فِي التِّلفزيونِ أَوِ الفِيديو وقدْ تكونُ أَفلاماً خليعةً، فَإذَا أَقبَلَ طُلوعُ الفَجرِ نَامُوا عَنِ الصَّلاةِ، فَهؤلاءِ سَهِرُوا على مُحَرَّمٍ ونَامُوا عن وَاجِب، وهكذا المَعَاصِي يَجُرُّ بعضُهَا بعضًا، ولَو أَنَّ إنسَانًا سَهِرَ على تِلاَوَةِ القُرْآنِ ونَامَ عَنِ الصَّلاةِ لَكَانَ سَهَرُهُ حَرَامًا، فكيفَ بالذِي يسهرُ على مَعصيةِ اللهِ وينَامُ عنْ طاعةِ اللهِ، وقدْ يُضِيفُ إِلى تَرْكِ الجماعةِ جَريمةً أُخرىٰ وَهِي إخراجُ الصَّلاَةِ عنْ وقتِها فَلاَ يُصلِّيها إلاَّ بعدَ طُلوعِ الشَّمْسِ. فيكونُ مِنَ الذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهم سَاهُونَ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: إنَّ المُسلمَ الذِي تهمُّهُ صَلاَتُهُ لاَ يَنَامُ عَنْ صَلاَةِ الفَجرِ ولاَ يتخَلَّفُ عنِ الجماعةِ، فالمسلمُ يَعملُ الاحتياطاتِ التِي تُوقظُه للصَّلاَةِ، ومِنْ ذلكَ أنْ ينامَ مُبكرًا حتَّى يستيقظَ مُبكرًا، وَمِنْ ذَلك أَنْ يُوصِي مَنْ يُوقظُه مِنْ أَهْلِهِ أَوْ جيرانِه، وَمِنْ ذلكَ أَنْ يجعلَ عِندَهُ سَاعةً تَدُقُّ عندَ حُلُولِ الوقتِ، بَلْ إِنَّ الإنسانَ إذا نام على نِيَّةِ الاستيقاظِ لِلصَّلاةِ فَإِنَّ اللهَ يُهَيِّىءُ لَهُ مَا يُوقِظُهُ، لَكنْ إذا لم يُبَالِ

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة.

بِالصَّلاةِ ولَمْ تَخْطُرْ على بَالِه، فَإِنَّ الشَّيطانَ يَستحوذُ عَليه وَيُثَبِّطُهُ.

فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ في أُمُورِ دِينكم عامَّةً، وفِي صَلاتِكم خَاصَّةً؛ فَإِنَّهَا آخِرُ مَا يُفْقَدُ مِنَ الدِّينِ فَليسَ بعدَها دينٌ.

أعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرَّجيمِ ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ۝٦٠ ﴾ [مريم: ٥٩: ٦٠].

* * *

فِي بَيَانِ فَضْلِ صَلاَةِ الجَمَاعَةِ فِي المَسَاجِدِ

الحمدُ للهِ الذِي شرعَ لنَا أكملَ الشَّرائعِ، ووعدَ مَنْ أَطَاعَهُ بأوفرِ الجَزَاءِ، وحثَّ على الازْدِيادِ مِنَ الخَيرِ، ورغَّبَ في الأعمالِ الصَّالحةِ لتتوفرَ لعبادِهِ سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ. وأشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذِي دَعَا إِلَى كُلِّ خيرٍ، وكان أوَّلَ المُسلمينَ السَّابقينَ إليه، صَلَّى اللهُ عَليه وعلَى آلِهِ وأصحابِه الذِينَ كانَ تنافسُهم وتسابقُهم فِي الأعمالِ الصَّالِحةِ، وسَلَّم تسليمًا كَثيرًا..

أَمَّا بعدُ، عِبادَ اللهِ: اتَّقُوا اللهَ واعلمُوا أنَّ مِنْ أَفضَلِ شعَائِرِ الإسلام ومَزَايَاهُ العِظَامِ صَلاةَ الجماعةِ فِي المساجِدِ، هذِهِ الشَّعِيرَةُ التِي قدْ خَفَّ مِيزانُها اليومَ عِنْدَ كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ اتِّبَاعًا للشيطانِ ومُجَارَاةً لِهَوى النُّفُوسِ الأمارةِ بالسوءِ، واقتداءً بِمَنْ قَلَّ خَوفُ اللهِ في قُلوبِهم مِنَ الكُسَالَىٰ والمُنافِقين. وإِنَّهَا لَخَسَارَةٌ كَبيرةٌ أَنْ نَرى أعدادًا كثيرةً وجُموعًا غفيرةً مِنَ النَّاسِ فِي مُجتمعِ المُسلمينَ لاَ يُبالونَ بِصَلاَةِ الجَمَاعةِ، ولاَ يَرْتَادُونَ المساجِدَ، وهُم يَسمعونَ المُنَادِي يَدعُوهم بِأَعْلَىٰ صَوتِه ويقُول لَهُم: «حَيَّ على الصَّلاةِ، حَيَّ علَى الفَلاَحِ» فَيُعرضُون عنهُ وهمْ يَقُولونَ بِلِسانِ حَالِهِم: لاَ نُرِيدُ الصَّلاَةَ وَلاَ نُرِيدُ الفَلاَحَ. أَيُّ حِرمانٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا؟! إنَّ المؤذنَ يُقيم عَليكَ الحُجَّةَ فِي اليومِ والليلةِ خمسَ مَرَّاتٍ، والمَلَكُ يكتبُ عَليكَ امتناعَك عَنِ الحَضُورِ ويُسجِّلُ عليكَ الغِيابَ فِي سِجلاَّتٍ مَحفوظةٍ تُعْرَضُ عَليكَ يَوْمَ القِيامةِ وتُوضعُ فِي مِيزَانِ عَمَلِكَ، إنَّكَ لَو دُعِيتَ إلى طَمَعٍ مِنْ أَطْمَاعِ الدُّنيا لحَضَرتَ وبادَرْتَ ولَو مَعَ تَحَمُّلِ المَشَاقِّ رَغْبَةً في الحُطامِ الفَانِي.

وَلَو دَعَاكَ السُّلْطَانُ إلى الحُضُورِ لَدَيْهِ، لبَادَرْتَ بِالإجَابةِ خَوفًا مِنْ عِقابهِ ورَهْبَةً مِنْ تَهديدِه ودَفعًا لِغضَبه، فَمَا بَالُكَ لاَ تُجيبُ دَعوةَ اللهِ الذِي لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ، وبيدِه الخيرُ وهُو على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ؟! كيفَ تَتَجَرَّأُ على مُخالَفَةِ أَمْرِهِ ولاَ تُجيبُ دَعوتَه وأنتَ لاَ تخرُجُ عَنْ قَبْضَتِهِ ولا تَستغنِي عنْ رِزْقِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؟! أَمَا حَذَّرَكَ وأَنْذَرَكَ؟! أَمَا دَعَاكَ وَأَمَرَكَ؟! أَمَا وَهَبَكَ الصِّحةَ والقُوَّةَ؟ أَمَا أَعْطَاكَ المَالَ وَأَغْنَاكَ؟! أَمَا أَمهَلَكَ وحَثَّكَ على العملِ؟! فَمَا لكَ لاَ تُجيبُ دَعوتَه، ولاَ تَحْضُرُ لأَداءِ عِبادتِه فِي بيتٍ مِنْ بُيوتِهِ؟!.

عِبادَ اللهِ: إنَّ شَأْنَ صَلاةِ الجماعةِ في الإسلامِ عظِيمٌ، ومَكَانَتَهَا عندَ اللهِ عاليةٌ، ولذلك شرعَ اللهُ بناءَ المساجدِ لهَا فقالَ سُبحانه وتعالىٰ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦]، وأَوَّلُ عملٍ بدأَ بهِ الرَّسُولُ ﷺ حينَ قَدِمَ المَدينةَ بناءُ المَسْجِدِ لأَداءِ الصَّلاَةِ فِيهِ. وشُرِعَ النِّدَاء لِصَلاَةِ الجماعةِ منْ أَرْفَعِ مَكانٍ بأَعلى صوتٍ وعُيِّنَتْ لَهَا الأَئمةُ، وكانَ ﷺ يتفقدُ الغَائبينَ ويتوعَّدُ المُتخلفين. وشهِدَ اللهُ لِمَنْ يُحَافِظُ على صَلاةِ الجماعةِ في المساجدِ بالإيمانِ؛ حَيثُ يقولُ سُبحانهُ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ١٨]. إنَّ صَلاَةَ المُسلمِ معَ الجماعةِ تَفْضُلُ على صَلاَتِهِ وحدَهُ بِسَبْعٍ وعِشْرِينَ دَرَجَةً؛ أَيُّ فَضْلٍ أَعظَمُ مِنْ هذَا؟! إنَّهُ لَو قِيلَ للنَّاسِ: إنَّ المُسَاهَمَةَ في التِّجَارةِ الفُلانيَّةِ يَكْسِبُ فِيهَا الدِّرْهَمُ الوَاحِدُ سَبْعَةً وعِشْرينَ دِرْهمًا لاقْتَتَلُوا عَلَى المُسَاهَمَةِ فِيهَا؛ طَمَعًا فِي هذَا الرِّبْحِ العَاجِلِ الزَّائِلِ الذِي قَدْ يَحْصُلُ وقَدْ لاَ يَحْصُلُ. وأَمَّا المُسَاهَمَةُ فِي التِّجارةِ الرَّابحَةِ بِالأَعْمَالِ الصَّالحةِ التِي رِبْحُهَا مَضْمُونٌ وخَيرُهَا معلومٌ، فَلا يتقدَّمُ لَهَا إلاَّ الأَفرادُ، والأكثرُ كَمَا قالَ اللهُ تعالى

فِيهم: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

إنَّ الخُطَا التي يمشِيهَا المسلمُ لِصَلاةِ الجماعةِ تُحْتَسَبُ لَهُ عِنْدَ اللهِ أَجْرًا وثَوَابًا، فَلاَ يَخْطُو خُطْوَةً إلاَّ رُفِعَتْ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وحُطَّتْ عنهُ بِها خَطِيئةٌ؛ كَمَا ثبتَ فِي الصَّحِيحَينِ عنِ النَّبيِّ ﷺ. إنَّ انتظارَ صَلاَةِ الجَماعةِ فِي المَسْجدِ كَالرِّباطِ فِي سَبيلِ اللهِ، والمُنتظرُ لَهَا في صَلاَةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاَةُ تَحْبسُهُ، والمَلائكةُ تَستغفرُ لَهُ؛ كَمَا ثبَتَ ذلكَ عنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ[1]. فَالذِي يَنتظرُ إقامةَ الصَّلاَةِ فِي المَسْجدِ يَحْصُلُ على ثَلاثِ مزايا: الأُولى: أَنَّهُ كَالمُرابِطِ فِي سَبيلِ اللهِ. الثَّانِيةُ: أَنَّهُ يُكتَبُ لَهُ أجرُ المُصَلِّي وهو جَالِسٌ. الثَّالِثةُ: أنَّ الملائكةَ تستغفرُ لَهُ. أضِفْ إلى ذلكَ إذَا كانَ في هذِه الحَالةِ يَتْلُو القُرآنَ أَو يذكُرُ اللهَ؛ فَإنَّهُ يُكْتَبُ لَهُ أَجرُ التَّالِي أَو الذَّاكِرِ.

إنَّ المُصَلِّي معَ الجماعةِ يخْلُصُ منْ أَسْرِ الشَّيطانِ وشَرِّهِ، ويدخلُ في جماعةِ المُسلمينَ فَيبتعدُ عنهُ الشَّيطانُ. والذِي يتركُ صَلاَةَ الجماعةِ يستحوذُ عليه الشَّيطانُ؛ قالَ ﷺ: **«مَا مِنْ ثَلاثةٍ في قَريةٍ لاَ يُؤذَّنُ ولاَ تُقَامُ فِيهم الصَّلاَةُ إلاَّ استحوذَ عليهمُ الشَّيطانُ، فعليكَ بالجماعةِ فَإنَّمَا يأكُلُ الذِّئْبُ القَاصِيةَ»**[2] رَواهُ الإمَامُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاودَ.

إنَّ صَلاةَ الجماعةِ فِيها تَعاونٌ على البرِّ والتَّقْوىٰ والأَمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المُنْكَرِ؛ يَقِفُ المُسلمونَ فِيهَا صَفًّا وَاحِدًا خَلْفَ إمَامٍ وَاحدٍ بَينَ يَدَي اللهِ تعَالَى كَالبُنْيانِ المَرْصُوصِ، مِمَّا بِهِ تظهرُ قُوَّةُ المُسْلِمِينَ واتِّحَادُهُم. فِي صَلاَةِ الجَمَاعةِ اجتِمَاعُ كَلِمَةِ المُسْلِمِينَ وائتِلافُ قُلوبِهم وتعارُفُهُم وتفَقُّدُ بعْضِهِم لأحوالِ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧، ٦٤٧) ومسلم (٦٤٩) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٠٣، ٢٦٩٦٨) وأبو داود (٥٤٧) والنسائي (٨٤٧) من حديث أبي الدرداء.

بعضٍ. فيها مظهَرُ التَّعَاطُفِ والتَّراحُمِ، ودَفعُ الكِبرِ والتَّعَاظُمِ. وفيها تَقويةُ الأُخُوةِ الدِّينيةِ؛ فيقفُ الكَبيرُ إلَى جَانبِ الصَّغيرِ، والغَنيُّ إلَى جَانبِ الفَقيرِ، والمَلكُ والقَويُّ إلَى جَانبِ الضَّعيفِ، لاَ فضلَ لأحَدٍ على أحدٍ إلاَّ بالتَّقوىٰ؛ ممَّا بهِ تظهرُ عدالةُ الإسلامِ، وحاجةُ الخَلقِ إلى المَلكِ العَلاَّمِ. صلاةُ الجماعةِ تُؤخَذُ مِنهَا الدُّرُوسُ الإيمَانيةُ، وتُسْمَعُ فِيهَا الآياتُ القُرآنيةُ؛ فَيتعلمُ بِهَا الجَاهلُ ويتذكرُ الغَافِلُ ويتوبُ المُذْنبُ، وتَخشعُ القُلوبُ وتَقْربُ مِنْ حَضرةِ عَلاَّمِ الغُيوبِ. صَلاَةُ المُسْلمِ فِي جَمَاعةٍ أَقْرَبُ إلى الخُشُوعِ وحُضورِ القَلْبِ والطُّمأنينةِ. وإنَّ الإنسانَ ليجدُ الفَارِقَ العَظيمَ بينَ مَا إِذَا صَلَّى وحْدَهُ وإذَا صَلَّى معَ الجَمَاعةِ.

إنَّ صَلاةَ الجماعةِ فيها إِظْهارُ شعارِ الإسلامِ وإرهابُ الأعداءِ، وإعلاَنُ ذِكْرِ اللهِ في بُيُوتِهِ التِي أَذِنَ أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ. إنَّ صَلاةَ المُسلمِ معَ الجماعةِ في المساجدِ تَجْعَلُهُ فِي عِدَادِ الرِّجالِ الذِينَ مَدَحَهُم اللهُ ووعَدَهم بجَزيلِ الثَّوابِ في قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وتعالىٰ: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

يَا مَنْ ضَيَّعْتَ الصَّلاَةَ معَ الجماعةِ، ورَضِيتَ بِالتفريطِ والإضَاعةِ، لقدْ خَسِرْتَ وَرَبِّ الكَعْبةِ كُلَّ هذه الفَضَائِلِ وفَاتَتْكَ كُلُّ هذه الخَيراتِ، وعصَيْتَ الرَّحمٰنَ، وأرْضَيْتَ الشَّيطانَ، لقدْ ظَلَمتَ نَفْسَكَ أعظمَ الظُّلْمِ حَيثُ حَرَمتَها ثَوابَ اللهِ وعرَّضْتَهَا لِعِقَابِهِ وأخرجْتَهَا عَنْ جماعةِ المُسلمين وموطن الأَمانِ إلى مَواطِنِ الهَلَكاتِ والمَخاوِفِ، فَحَشَرْتَهَا معَ الذِّئابِ المُفترسةِ. يا مَن تُدعى إلى المَسجدِ فَلا تُجيبُ، ويُطْلبُ مِنكَ الحُضورُ فتغيبُ، سوفَ تندمُ مع النَّادِمينَ: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟

يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣]. وما ذلكَ اليومُ مِنْكَ ببَعِيدٍ!. فَانْتَبِهْ لِنَفْسِكَ وتُبْ إلى ربّك، وحافِظْ على الصَّلاةِ معَ الجماعةِ، وإنْ شَقَّ عليْكَ مُخَالفةُ هوَاكَ ورَأيْتَ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الروم: ٦٠].

أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرَّجيم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣١: ٣٢].

* * *

فِي وُجُوبِ صَلاةِ الجَمَاعَةِ

الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، شَرَعَ للمُسلمينَ أَفضلَ الشَّرَائِعِ وأَكْمَلهَا، وأَشهَدُ أَنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَنْ تَمسَّكَ بِسُنتِه إلى يَوْمِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا المسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ واعلمُوا أنَّ أداءَ الفريضةِ معَ جماعةِ المُسلمينَ في المساجدِ شعيرةٌ عظيمةٌ مِنْ شَعائرِ الإسْلامِ، فقدِ اتَّفقَ المُسلمونَ على أنَّ أَدَاءَ الصَّلواتِ الخمسِ في المساجدِ مِنْ آكَدِ الطَّاعاتِ، وأَعْظَمِ القُرُباتِ.

فقدْ شرعَ اللهُ لهذهِ الأُمةِ الاجتماعَ في أوقاتٍ مُعينةٍ، مِنْ هذَا الاجتماعِ مَا يَتَكَرَّرُ فِي اليَوْمِ واللَّيْلَةِ؛ كَالاجتماعِ لِلصَّلواتِ الخمسِ في المساجِدِ، فإنَّ المُسلمينَ يَجتمعونَ لذلِكَ في مساجدِ الحَارَاتِ بصفةٍ مُستمرةٍ لاَ يَغيبُ عنْ هذَا الاجتماعِ إلاَّ مَنْ هُو مَعذورٌ بعذرٍ شَرْعِيٍّ، أوْ مَنْ هُو مُنَافِقٌ مَعلومُ النِّفاقِ.

ومِنْ هذه الاجتماعاتِ المُبارَكةِ مَا يتكررُ على المسلمينَ في الأُسبوعِ مَرَّةً وهُو الاجتماعُ لِصَلاَةِ الجُمُعةِ، يجتمعُ فِيه عَدَدٌ ضَخمٌ مِنَ المُسلمينَ لاَ يَغِيبُ عنهُ إلاَّ معذُورٌ، أوْ مَنْ طَبَعَ اللهُ على قَلْبِهِ وَكَانَ مِنَ الغَافِلينَ.

وَمِنْ هذِه الاجتماعاتِ الإسلاميَّةِ مَا يَتكرَّرُ على المسلمينَ مرَّتينِ في السَّنَةِ وهُو الاجتماعُ لِصَلاةِ العِيدينِ، يَجتمعُ فيه جَميعُ أَهْلِ البَلَدِ حتَّى الحُيَّضُ والعَوَاتِقُ مِنَ النِّسَاءِ لِيَشْهَدْنَ دَعوةَ المُسلمينَ ويعتزلُ الحيض المُصلىٰ. وَمِن هذِه الاجتماعاتِ الدِّينيةِ العَظيمةِ مَا يتكررُ على المُسلمينَ مرَّةً واحدةً في السَّنةِ، وهو الاجتماعُ للوقوفِ بعرفَةَ، وهذا الاجتماعُ يَحْضُرُهُ المُسلمونَ مِنْ كافَّةِ أقْطارِ

الأرضِ في صَعِيدٍ واحدٍ مُحْرمينَ مُلَبِّينَ دَاعِينَ مُستغفِرِينَ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إِنَّما شُرِعَتْ هذه الاجتماعاتُ العَظيمةُ لِمَصَالِحَ عَظِيمَةٍ عَاجِلَةٍ وآجِلَةٍ، يَحصُلُ بِهَا التَّعَارُفُ بينَ المُسلمينَ والتَّواصُلُ بَينَهُم بِالبِرِّ والإِحْسَانِ يَحْصُلُ بِهَا التَّعَارفُ والرِّعَايَةُ، يَحصُلُ بِهَا التَّوَادُّ والتَّحَابُّ في القُلُوبِ، يَحْصُلُ بِهَا تَفَقُّدُ بَعضِهِم لأحوالِ بعَضٍ؛ لِيَعُودوا مَرِيضَهُم، ويُشَيِّعُوا مَيِّتَهُم، ويُواسُوا فُقَرَاءَهُم. يَحصُلُ بِهَا تَعليمُ الجَاهِلِ، وتذْكِيرُ الغَافِلِ. يَحصُلُ بِهَا إِظْهَارُ قُوةِ المُسلمينَ وَإِغَاظَةُ الكُفَّارِ والمُنَافِقِينَ. يَحصُلُ بِهذِهِ الاجتماعاتِ تَكْفِيرُ السَّيِّئَاتِ وَرِفْعَةُ الدَّرَجَاتِ. يَحْصُلُ بِهَا النَّشَاطُ وَالجِدُّ فِي الأَعمالِ الصَّالِحَةِ والتَّعَاونُ علَى البِرِّ والتَّقْوَىٰ. وفي الحَدِيثِ المُتَّفَقِ عَلَى صِحَّتِهِ أَنَّ الصَّلاَةَ فِي الجَمَاعةِ تَفْضُلُ على صَلاَةِ المُنْفَرِدِ بِسَبْعٍ وعِشْرِينَ دَرَجَةً.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ صَلاَةَ الجماعةِ واجِبَةٌ على الرِّجالِ فِي الحَضَرَ والسَّفرِ وفي حالِ الأَمَانِ وحالِ الخَوفِ وجُوبًا عَيْنِيًّا. والدَّلِيلُ على ذلكَ: الكتابُ والسُّنَّةُ وعملُ المُسلمينَ قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ. ومِنْ أجلِ ذلكَ عُمِرَتِ المساجدُ ورُتِّبَ الأَئِمَّةُ والمُؤذِّنونَ، وشُرِعَ لهَا النِّداءُ بأعْلَى صَوْتٍ: «حَيَّ على الصَّلاَةِ حَيَّ على الفَلاَحِ» وقالَ تعَالىٰ آمِرًا نَبيَّهُ أَنْ يُقِيمَ صَلاَةَ الجَمَاعَةِ فِي حَالِ الخَوفِ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]. والأمرُ لِلنَّبيِّ ﷺ أَمرٌ لأُمَّتِهِ مَا لمْ يدُلَّ دليلٌ على خُصوصيتِه بِهِ؛ فَدَلَتْ هذِهِ الآيةُ الكَريمةُ على وجوبِ صَلاةِ الجماعةِ؛ حيثُ لَمْ يُرَخِّصْ لِلمُسلمينَ فِي تَرْكِهَا فِي حالِ الخَوفِ، فَلَوْ كانتْ غيرَ وَاجبَةٍ لكانَ أَولى الأَعْذارِ لِتَرْكِهَا عَذْرُ الخَوفِ؛ فَإِنَّ صَلاةَ الجماعةِ فِي حالِ الخَوفِ يُتْرَكَ فِيهَا

كَثيرٌ منَ الواجِبَاتِ في الصَّلَاةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ على تأَكُّدِ وجُوبِهَا، وقد اغْتُفِرَتْ فِي صَلَاةِ الخَوفِ حرَكاتٌ كَثِيرةٌ وتنَقُّلَاتٌ وحمْلُ أَسْلِحَةٍ ومُرَاقبةٌ لِتَحَرُّكاتِ العَدوِّ وانحِرَافٌ عَنِ القِبْلَةِ، كُلُّ هذهِ الأُمُورُ اغْتُفِرَتْ مِنْ أَجْلِ الحُصُولِ علَى صَلَاةِ الجماعةِ؛ فهذَا مِنْ أَعظَمِ الأَدلَّةِ عَلى وجُوبِهَا وتأكُّدِهَا.

ومِنَ الأَدلَّةِ على وُجُوبِ صلاةِ الجماعةِ مَا ورَدَ فِي الصَّحيحينِ عنْ أَبِي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«أثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلى المُنافقينَ صَلاةُ العِشَاءِ وصَلَاةُ الفَجْرِ، ولَو يَعلمونَ مَا فِيهِمَا لأتوهُما ولَوْ حَبْوًا. ولقدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصَّلاةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّي بالنَّاسِ، ثمَّ أنطلقَ مَعِي برجَالٍ معهُم حزمٌ مِنْ حَطَبٍ إلى قَومٍ لاَ يَشهَدُونَ الصَّلَاةَ فَأحَرِّقَ عليهم بُيوتَهم بالنَّارِ»**[1]. فقدْ وصفَ النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ المُتخلفينَ عنْ صَلَاةِ الجَماعَةِ بالنِّفاقِ، وَهذَا أَيضًا وَصفُهُم فِي القُرآنِ الكَريمِ؛ قالَ تعالىٰ عن المُنافقينَ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢]. وقالَ تعالىٰ عنهُم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤]. ثُمَّ هدَّدَ ﷺ المُتخلفينَ عَنْ صَلَاةِ الجَماعةِ بِأَنْ يحرقَ عَليهم بُيوتَهم بالنَّارِ، وهذِه عُقوبةٌ شَنيعةٌ، فوَصَفَهُم بالنِّفاقِ أوَّلاً، وهَدَّدَهُم بالتَّحريقِ بالنَّارِ ثَانيًا، ولَمْ يَمْنَعْهُ مِنْ ذلكَ إلاَّ مَا فِي البُيوتِ مِنَ النِّساءِ والذُّرِّيَّةِ الذينَ لاَ تَجِبُ عليهم صَلَاةُ الجَمَاعةِ؛ مِمَّا يَدُلُّ دلاَلَةً صَرِيحةً على عِظَمِ جَرِيمةِ المُتخلِّفِ عنْ صَلَاةِ الجماعةِ وأنَّهُ مُستحِقٌّ لأَعظَمِ العُقُوباتِ في الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة.

وفِي صَحِيحِ مُسْلمٍ أَنْ رَجُلاً أَعْمَى قالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، ليسَ لِي قَائِدٌ يقُودُنِي إلى المسجدِ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ أَنْ يُصلِّي في بيتِهِ فرخَّصَ لهُ، فَلمَّا وَلَّىٰ دَعَاهُ فقال: «هلْ تسمَعُ النِّدَاءَ؟!» قَالَ: نعمْ. قالَ: «فَأَجِبْ»[١]. فهذا رَجُلٌ أَعْمَى أَبدىٰ أعذاراً كَثِيرةً ومعَ هذَا لَمْ يسقُطْ عنهُ حُضُورُ صلاةِ الجماعةِ. فَمَا حالُ الذِي يتخلَّفُ عنهَا مِنْ غَيرِ عُذْرٍ، وهُو مُجَاوِرٌ لِلمسجِدِ وأصوَاتُ المُؤذنينَ تَختَرِقُ بيتَه مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، يُدْعَىٰ فلا يُجِيبُ، ويُؤمَرُ فَلاَ يَمْتثِلُ، وَيَعصِي فَلاَ يَتُوبُ؟!!.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: لقدْ بَلَغَ مِن اهتمامِ صدْرِ هذِه الأُمةِ بصلاةِ الجماعةِ مَا رَواهُ ابنُ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: لقدْ رأيتُنا ومَا يتخلفُ عَنها إلاَّ مُنافقٌ مَعلومُ النِّفاقِ، ولقدْ كانَ الرَّجلُ يُؤتَىٰ بِه يُهَادَىٰ بينَ الرَّجُلَيْنِ حتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ[٢]. يَعنِي إِذا كانَ الرَّجلُ مِنهُم لاَ يستطيعُ المَشْيَ لِمَرَضٍ أَوْ كِبَرٍ أَخذُوا بِعَضُدَيه وساعَدُوه على المَشْيِ حتَّى يُقِيمُوه في صَفِّ المُسلمينَ لِلصَّلاةِ. فمَا بَالُ الذِي يَتَخَلَّفُ عنِ الصَّلاَةِ اليومَ وهُو صَحِيحٌ قَوِيُّ الجِسمِ؟! لقدْ سُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عَنهُمَا عن رَجُلٍ يَصُومُ النَّهَارَ ويقومُ اللَّيلَ ولاَ يحضرُ الجماعةَ فقالُ: هُو في النَّارِ[٣]. وقد ثَبتَ عنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «يَدُ اللهِ على الجماعةِ، ومنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ»[٤].

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: ومَكانُ صلاةِ الجماعةِ هُو المساجدُ التِي أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فِيهَا اسمُهُ؛ وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «لاَ صلاةَ لِجَارِ المسجدِ إلاَّ فِي

---

(١) صحيح مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم (٦٥٤).
(٣) أخرجه الترمذي (٢١٨).
(٤) أخرجه الترمذي (٢١٦٧) من حديث ابن عمر.

المَسْجِدِ»[(١)]. وَرُوي عنْ عليٍّ رَضِيَ اللهُ عنْهُ مِثْله وَزَادَ: «وجَارُ المَسجدِ مَنْ أَسْمَعَهُ المُنَادِي»[(٢)]. رَواهُ البيهقيُّ بإسنادٍ جَيِّدٍ. قالَ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ الله: وَمَنْ تَأمَّلَ السُّنَّةَ حَقَّ التَّأَمُّلِ تَبيَّنَ لَهُ أَنَّ فِعْلَهَا فِي المسَاجِدِ فَرْضٌ على الأَعْيَانِ إلاَّ لِعَارِضٍ يَجُوزُ معَهُ تَرْكُ الجماعةِ، فَتَرْكُ حُضُورِ المساجِدِ لِغَيرِ عُذْرٍ كَتَرْكِ أَصلِ الجماعةِ لِغَيْرِ عُذْرٍ، وبهذَا تتَّفقُ الأحادِيثُ وجَمِيعُ الآثارِ، انتهىٰ.

وفِي إقامةِ صلاَةِ الجماعةِ في غيرِ المساجدِ تعطيلٌ لِلمساجدِ أَوْ تقليلٌ مِنَ المُصَلِّينَ فِيهَا، ويكونُ ذلكَ سَبَبًا لِتَقْلِيلِ أهمِّيةِ الصَّلاَةِ فِي النُّفُوسِ، وقدْ قالَ اللهُ تعَالىٰ: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقالَ تعَالىٰ: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦]، ففي هاتينِ الآيتينِ تَنْويهٌ بشأنِ المساجدِ وعُمَّارِهَا ووعْدُهُم بِجَزيلِ الثَّوَابِ، وفي ضِمْنِ ذلكَ ذَمٌّ المُتخلفينَ عنهَا. لكنْ إذا دَعَتْ حَاجَةٌ لإقامةِ صَلاَةِ الجماعةِ فِي غَيْرِ المَسْجِدِ كَالمُوظَّفِينَ الذِينَ يُصَلُّونَ فِي مَحِلِّ عَمَلِهِم؛ لأنَّهم إذا صَلَّوا فِي دَائرتِهِم كانَ أضبَطَ لِعَمَلِهِم وأحزَمَ لِجَمعِ المُوظفينَ لأَدَاءِ الصَّلاَةِ، لعَلَّهُ لِهذِه المُبرراتِ يكونُ لَهم عُذْرٌ فِي عَدَمِ الذَّهابِ إِلَى المَسْجِدِ نَظَراً لِلمَصَالِحِ المُتَرَتِّبَةِ عَلَى ذلِكَ.

أَيُّهَا المُتخلفُ عَنْ صَلاةِ الجمَاعةِ لِغَيرِ عُذْرٍ، لقدْ عَصَيْتَ رَبَّكَ وحَرَمْتَ نَفْسَكَ ثَوَابًا عَظِيمًا، وعَرَّضْتَهَا لِسَخَطِ اللهِ وعُقوبتِه. لَقَدْ شَارَكْتَ المُنافقِينَ في صِفاتِهِم وَأصبحتَ أَسِيرًا لِلشيطانِ. لقد سَمِعْتَ دَاعيَ اللهِ فامتنعتَ عن إجابتِه

---

(١) أخرجه الدارقطني (١/ ٤٢٠) من حديث جابر. وفي (١/ ٤٢١) من حديث أبي هريرة.

(٢) سنن البيهقي (٣/ ٥٧)، وأخرجه أيضا عبد الرزاق في المصنف (١٩١٥) وابن أبي شيبة في مصنفه كذلك (١/ ٣٠٣) موقوفا على علي رضي الله عنه.

مِرارًا، لَيلاً ونَهارًا، فَتُبْ إلى اللهِ وحافِظْ على الجُمَعِ والجمَاعاتِ، فَإِنَّ اللهَ يَتوبُ علَى منْ تَابَ.

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجِيمِ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾ [هود: ١١٤، ١١٥].

* * *

التَّحذِيرُ مِنْ تَرْكِ صَلاَةِ الجَمَاعَةِ

الحمدُ لِلهِ الذِي جعلَ الصلاةَ كِتاباً موقوتاً على المؤمنينَ، وأمرَ بإقامتِها والمُحَافَظةِ عليها وأَدائها معَ جماعةِ المُسلمينَ، أَحْمَدُهُ على نِعَمِهِ، وأَشْكُرُه على جَزِيلِ منِّهِ وَكَرَمِهِ. وأَشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، تَوعَّدَ مَنْ تخَلَّفَ عَنْ صَلاةِ الجماعةِ بأشدِّ الوَعيدِ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه ومَن تَمَسَّكَ بِسُنته وسارَ على نَهْجِهِ إلى يومِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تسلِيماً كَثِيراً.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ: اتَّقُوا اللهَ واعلمُوا أَنَّ مقامَ الصَّلاَةِ عظِيمٌ وقدْ نَوَّهَ اللهُ بِشأْنِهَا في كِتابِهِ الكَريمِ، وهِيَ الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكانِ الإسلامِ بعدَ الشَّهَادَتَينِ، وَهِيَ الفَارقةُ بينَ المُسْلمِ والكَافِرِ، وهِيَ عمُودُ الإسلامِ، والأَدِلَّةُ على ذلكَ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ كَثِيرَةٌ.

أَيُّهَا المُسْلِمُونَ: إنَّ الشيطانَ يَحْرِصُ كُلَّ الحِرْصِ على صَرْفِ المُسْلِمِ عنْ هذِه الصَّلاَةِ؛ لِعلْمِهِ أَنَّهُ إذا انْصَرَفَ عنها انْصَرَفَ عَنْ بقِيَّةِ أحكامِ الدِّينِ مِنْ بَابِ أَوْلَى، فَإِنَّهُ لاَ دِينَ لِمَنْ لاَ صَلاَةَ لَهُ، ولاَ حَظَّ لَهُ فِي الإسْلاَمِ؛ كَمَا قالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلامُ: «**آخِرُ مَا تَفْقِدُونَ مِنْ دِينكُم الصَّلاةُ**» وإنَّ الشَّيطَانَ يَأْتي لصَرْفِ المُسلمِ عنْ هذِهِ الصَّلاةِ مِنْ طُرقٍ كَثيرةٍ؛ فإنْ تمَكَّنَ مِنْ مَنعِهِ مِنهَا بالكُليةِ فإِنَّهُ يبذلُ لذلكَ كُلَّ مُمْكِنٍ، وإنْ لَمْ يَتمكنْ مِنْ منْعِهِ منهَا احتالَ عَلَيه بِمَنْعِهِ مِنَ الصَّلاَةِ معَ الجماعَةِ، ثُمَّ الحُضورِ إلى المسجدِ حَتَّى يفوتَه بعضُها، ويحرمه فَضيلةَ السَّبْقِ إلى المَسجِدِ وحُضُورِ الصَّلاَةِ مِنَ أَوَّلِهَا، وهَذَا هُو الواقع اليومَ مِنْ كَثيرٍ مِنَ

المُسلمينَ؛ فَمِنْهُم أَعْدادٌ كَثيرةٌ مِنْ جِيرانِ المَسَاجِدِ لاَ يَدخلونَ المساجدَ للصَّلاةِ فِيها، أو يدخلونَها لبعضِ الصَّلواتِ ويتركونَ بعضَها، وأعدادٌ كثيرةٌ تحضرُ إلى المساجدِ مُتأخرةً لاَ تُدركُ إلاَّ بعضَ الصَّلاَةِ معَ الإمامِ أَوْ لاَ تُدْرِكُ مِنهَا شَيئاً. فَأَمَّا الذينَ ضَيَّعُوا الصَّلاَةَ معَ الجماعةِ فهؤلاءِ قدْ عصَوا اللهَ ورسولَه وعرَّضُوا أنفسَهم لِسَخطِ اللهِ، واستحقُّوا العُقوبةَ العَاجِلَةَ والآجِلَةَ، وحَرَمُوا أنفسَهم خَيراً كَثيراً، واسْمَعُوا هذِه النُّصُوصَ مِنْ كِتابِ اللهِ وسُنةِ رَسولِهِ تُوجِبُ الصَّلاَةَ معَ الجماعةِ وتُنْذرُ مَنْ أَخلَّ بهذَا الواجبِ بعذَابٍ أَليمٍ:

قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]، فَأَمرَ بِإقامةِ الصَّلاَةِ والرُّكُوعِ معَ الرَّاكعينَ، وهذَا يَعني فِعْلَهَا مَعَ جماعةِ المُصلينَ، والأمْرُ المُقيَّدُ بِصفةٍ أَوْ حَالٍ لاَ يكونُ المَأْمورُ مُمْتَثِلاً إلاَّ إذَا أَتَىٰ بِهِ على تِلكَ الحَالِ أَوِ الصِّفَةِ، فَدَلَّتِ الآيةُ علَى أَنَّ الصَّلاةَ لاَ بُدَّ لَهَا مِنْ جَماعةٍ تُقَامُ فِيهَا.

وقالَ تعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢- ٤٣]، فَيُعَاقِبُهُم سُبحانَهُ يَومَ القِيامةِ بِأنْ يَحُولَ بينَهم وبينَ السُّجودِ هُناكَ؛ لأَنَّهُ لمَّا دَعَاهُم إلى السُّجُودِ فِي الدُّنْيَا في المساجِدِ أَبَوا أَنْ يُجيبوا الدَّاعِي، وقد فَسَّرَ النَّبيُّ ﷺ إجابةَ الدَّاعِي بِمَا رَواهُ مُسلمٌ فِي صَحيحِه عنْ أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: أَتَىٰ النَّبيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعْمَى فقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لَيْسَ لِي قَائِدٌ يَقودُنِي إلى المسجدِ، فَسَأَلَ رسولَ اللهِ ﷺ أَنْ يُرَخِّصَ لَهُ أَنْ يُصليَ فِي بيتِه فَرَخَّصَ لَهُ. فَلمَّا وَلَّى دَعَاهُ فقالَ: «هَلْ تَسْمَعُ النِّداءَ». قالَ: نَعَمْ. قالَ: «فَأَجِبْ[1]» فَدلَّ الحديثُ على أنَّ

(١) صحيح مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هريرة.

الإجابةَ المَأْمُورَ بِهَا هِي الإتيانُ إِلَى المَسْجِدِ لِصَلاَةِ الجَمَاعَةِ، وقدْ قالَ غيرُ وَاحِدٍ منَ السَّلفِ في قولِهِ تعَالَى: ﴿كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾ [القلم: ٤٣] ـ: إنَّ مَعْنَى «يُدْعَوْنَ» هُو قَوْلُ المُؤَذِّنِ: «حَيَّ على الصَّلاةِ حَي على الفَلاَحِ» فَيَا مَنْ تَسمعونَ الأذانَ وتقعُدونَ فِي بُيوتِكم أَوْ فِي أسواقِكم وتتركونَ الصَّلاةَ معَ الجماعةِ، إنْ لَمْ تَتوبُوا إلى رَبِّكُمْ فَستكونُونَ مَعَ هَؤلاءِ يومَ القِيامَةِ وسُتفتضحونَ أَمَامَ اللهِ وأَمَامَ خَلْقِهِ.

إنَّ التخلفَ عَنْ صلاةِ الجماعةِ مِنْ علامَاتِ النِّفاقِ؛ ففِي الصَّحيحينِ عن أَبِي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ رسَولَ اللهِ ﷺ قالَ: «إنَّ أثقلَ الصَّلاَةِ على المُنافقينَ صَلاَةُ العِشَاءِ وصَلاَةُ الفَجْرِ، وَلَو يَعلمونَ مَا فِيهمَا لأتوهُما وَلَوْ حَبْواً، ولقد هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصَّلاَةِ فَتُقَامَ ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً يُصَلِّي بالنَّاسِ ثُمَّ أنطلقَ مَعي بِرجالٍ معهم حزمٌ مِنْ حَطَبٍ إلى قَومٍ لاَ يَشهدونَ الصَّلاَةَ فَأُحَرِّق عَليهم بُيوتَهم بالنَّارِ»[1]. وفِي رِوايةٍ للإمامِ أحمدَ عنهُ ﷺ: «لَوْلاَ مَا فِي البُيوتِ مِنَ النِّسَاءِ والذُّرِّيَّةِ أَقمتُ صَلاَةَ العِشَاءِ وأمرتُ فِتْيَانِي يَحرقونَ مَا فِي البُيوتِ بالنَّارِ»[2]. إنَّ الرَّسُولَ هَمَّ أَنْ يَحْرِقَ على هؤلاءِ المُتخلفينَ عنْ صَلاةِ الجماعةِ تلكَ البيوتَ التِي تُؤويهم عَنْ أَدَاءِ هذا الواجِبِ العظِيمِ، فَيَذْهَبُ الحَريقُ بنُفوسِهم وأموالِهم عِقَاباً لَهم عَلَى تَرْكِ هذِهِ الشَّعيرةِ، وهذِه عُقوبةٌ غَليظةٌ لاَ تكونُ إلاَّ علَى جَريمةٍ عَظيمةٍ. إنَّه لَو أُحْرِقَ بَيْتٌ على مَنْ فِيه بالنَّارِ لَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ ذلكَ فَزَعًا شَديدًا، ولَو فُعِلَ ذلكَ بِمَنْ يتركُ الجماعةَ لكانَ جَزَاءَهُ شَرْعًا.

إنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَهتمونَ بصَلاَةِ الجماعةِ ويُنكرونَ بشدَّةٍ على من تَخَلَّفَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧) ومسلم (٦٥١) من حديث أبي هريرة.
(٢) المسند (٨٥٧٨).

عَنْهَا وَيصفُونَه بالنفاقِ؛ فَفِي صَحيحِ مُسلمٍ عنْ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عَنهُ قَالَ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلقَى اللهَ غَداً مُسلماً فَليحافظْ علَى هَؤلاءِ الصَّلواتِ حيثُ يُنادى بِهنَّ؛ فَإنهنَّ مِنْ سُننِ الهُدَى، وإنَّ اللهَ شَرَعَ لِنبيِّكم سُنَنَ الهُدَى. وإنَّكُمْ لَوْ صَليتُم فِي بيُوتِكم كَمَا يُصَلِّي هَذَا المُتخلفُ فِي بيتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبيكُم، ولَوْ أَنَّكُمْ تَركتم سُنة نَبيكم لضَلَلْتُم، ومَا مِنْ رَجلٍ يَتطهرُ فَيُحسِنُ الطهورَ ثم يعمدُ إِلى مسجدٍ مِنْ هذهِ المساجدِ إلاَّ كتَبَ اللهُ لَهُ بِكُلِّ خُطوةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً ويرفعُه بِهَا دَرجةً ويحطُّ عَنه بِهَا سَيئةً، وَلَقد رَأيتُنا ومَا يتخلفُ عَنها إلاَّ مُنافقٌ مَعلومُ النِّفاقِ، ولقد كانَ الرَّجل يُؤتَى بِهِ يُهادى بينَ الرَّجلينِ حتَّى يقامَ فِي الصَّفِّ[1]. هذَا مَا قَاله عبدُ اللهِ ابنُ مَسعودٍ عَنْ مَكانَةِ صَلاةِ الجماعةِ عنْدَ صَحَابةِ رَسولِ اللهِ ﷺ وحُكمِهم على مَنْ تخلَّفَ عَنهَا؛ إنَّهُ عنْدَهُم مُنافقٌ مَعلومُ النِّفاقِ ينبذونَه ويهجرونَه. والمتخلفُ عَنِ الصَّلاةِ اليومَ أَخٌ عَزيزٌ لَدَيْنَا نُكرمُه ونُخالطُه ونُعاشرُه كَأَنَّهُ ما ارتكبَ جَريمةً! وكأَنَّه ما عَصَى اللهَ ورسولَه! وهذَا مِمَّا يَدُلُّ على أنَّ مِيزانَ الصَّلاَةِ لَديْنا خَفيفٌ وأمرَها هَيِّنٌ.

فَتَبينَ لَنَا مِنَ القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ المُطهرةِ وعملِ الصَّحابةِ وعملِ المُسلمينَ إلى يَومِنا هذَا، وجوبُ صَلاةِ الجماعةِ ووجوبُ الإنكارِ على مَنْ تَخلَّف عَنها ومُعاقبتُه فِي الدُّنْيَا والآخرةِ. فَمَا عُذرُك يا مَن تَسمعُ النِّداءَ وقد يكونُ المسجدُ إلى جَانبِ بيتِك وأنتَ صَحيحُ البَدَنِ آمنٌ مِنَ الخَوْفِ، ثُمَّ لاَ تَحْضُرُ لِصَلاَةِ الجماعةِ؟! هَلْ أنتَ لَمْ تَسمعِ الآياتِ والأحاديثَ، أَوْ سَمعْتَها وقُلت: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ إنَّ حالتَنا اليومَ أَيُّهَا المُسلمونَ مَعَ الصَّلاَةِ حَالةٌ سَيئةٌ. خَفَّ مِيزانُها لدينا

---

(١) أخرجه مسلم (٦٤٥).

وتساهلنا فِي شَأنِها وصَارَ التخلفُ عَنْهَا أمراً هَيِّنًا بَلْ أَمْرَا عَادِياً. فَالأسرةُ الكبيرةُ فِي البيتِ لاَ يَحْضُرُ مِنْهَا إلاَّ الأفرادُ، وبعضُ البيوتِ لا يَحْضُرُ مِنْهَا أَحدٌ، والذينَ يَحْضُرُونَ لاَ يُنكرونَ على المُتخلِّفينَ، وقَد يَكونُون مِنْ أولادِهم الذِين كُلِّفُوا بِأمرِهم بِهَا وضَربِهم عَليها. فَأنتَ تَرى البيوتَ والأسواقَ مُكْتَظَّةً بالناسِ ولاَ يَرْتَادُ المَسَاجِدَ مِنهم إلاَّ الأفرادُ، والغَالبيةُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ، رَضُوا بالعقوبةِ، رَضُوا بوصفِ النفاقِ. يَا لَها مِن خسارةٍ لاَ تُشبهُها خَسارةُ الأرواحِ والأموالِ!

فاتقوا اللهَ عباد الله، وتوبوا إلى ربكم من قبل أن تحل بكم نقمته وأنتم لا تشعرون. أَعُوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ: ﴿ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٣١].

* * *

فِي خَصَائِصِ يَوْمِ الجُمُعَةِ

الحمدُ للهِ الذِي جَعلَ يومَ الجُمُعَةِ سَيِّدَ الأيامِ، واختصَّ بِهِ هذِه الأُمَّةَ مِنْ بَينِ الأَنامِ. أَحمدُه على نِعَمِهِ العظَامِ، وأشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ المَلِكُ العَلاَّمُ. وأشهدُ أَنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، صَلَّى اللهُ عَليهِ وعلى آلِهِ وَأصحابِه مَا تَعاقبتِ اللَّيَالِي والأَيَّامُ، وسَلَّمَ تسليماً كَثيراً.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا المسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ، لَقَد اختَصكُم اللهُ بيومٍ عَظيمٍ ومَوسمٍ كَريمٍ، يتكررُ عَليكُم كُلَّ أسبوعٍ. قَدْ ضَلَّتْ عَنهُ الأُمَمُ قَبلكُم وهَداكمُ اللهُ لَهُ؛ فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيامةِ بَيْدَ أَنَّهم أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنا، ثُمَّ هذَا يَومُهم الذِي فَرَضَ اللهُ عَليهم فَاختَلَفُوا فِيه فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، والنَّاسُ لَنَا فِيه تَبَعٌ؛ اليهودُ غداً، والنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ»**[1]. وفِي جَامِعِ التِّرمِذيِّ مِنْ حدِيثِ أَبِي هُريرةَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: **«خَيرُ يَومٍ طَلعتْ فِيهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ؛ فيهِ خلَقَ اللهُ آدَمَ، وَفيهِ أُدْخِلَ الجنَّةَ، وفيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، ولاَ تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ يَوْمَ الجُمُعةِ»**[2].

وكانَ مِنْ هَدْيِ النَّبيِّ ﷺ تَعظيمُ هذَا اليومِ وتشريفُه وتخصيصُه بعباداتٍ يَختَصُّ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ؛ فكانَ ﷺ يَقْرَأُ فِي فجْرِ هذَا اليومِ بِسُورَتَي «أَلَمٓ تَنزِيلُ» «وَهَلْ أَتَىٰ على الإنسانِ»[3] وإِنَّما كانَ ﷺ يَقْرَأُ هَاتَيْنِ السُّورتَينِ في فَجْرِ يومِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٨٩٨) ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) سنن الترمذي (٤٨٨). وهو في صحيح مسلم (٧٥٤) نحوه.
(٣) أخرجه البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة.

الجُمُعَةِ لأَنَّهمَا تَضَمَّنَتا مَا كانَ ومَا يكُونُ في يَوْمِها، فَإِنَّهمَا اشتَمَلَتَا على خَلقِ آدمَ وعَلَى ذِكرِ يَومِ القِيامَةِ وحَشْرِ العِبَادِ، وذلكَ يَكُونُ يَومَ الجُمُعَةِ؛ فَفِي قَراءتِهما فِي هذَا اليومِ تَذْكِيرٌ للأُمَّةِ بِمَا يَحْدُثُ فِيهِ من الأحداث العظام حتى يستعدوا لذلك.

ومن خصائص هذا اليوم استحباب الإكثار مِنَ الصَّلاَةِ على النَّبيِّ ﷺ فِيهِ وفِي لَيلتِهِ؛ لأَنَّ كُلَّ خَيرٍ نَالَتْهُ هذِه الأُمَّةُ في هذا اليومِ وفي غَيرِهِ مِنْ خَيري الدُّنيَا والآخرةِ فإِنَّمَا نالتْهُ على يَد هذَا النَّبيِّ الكَرِيمِ؛ فَينبغِي الإكثارُ منَ الصَّلاةِ عليه.

ومنْ خصائصِ هذا اليومِ استحبابُ الاغتسالِ والتنظيفِ والتَّطيبِ والسواكِ ولبسِ أحسنِ الثيابِ؛ لأَنَّهُ يومُ اجتماعِ المُسلمينَ وعيدُ الأسبوعِ؛ فيكونُ المسلمُ في هذِه المُناسَبةِ على أَحسنِ الأحوالِ وأكملِ الخِصالِ؛ تعظيماً لهذا اليومِ وعَملاً بسُنةِ النَّبيِّ ﷺ.

ومِنْ خَصَائصِ هذا اليومِ استحبابُ التَّبْكِيرِ بالذهابِ لِصَلاَةِ الجُمُعَةِ مَاشِياً إنْ أَمْكَنَ؛ فَإِنَّ لِلْمَاشِي إلى الجُمُعَةِ بِكُلِّ خُطوةٍ أجرَ صِيامِ سَنَةٍ وَقِيامِهَا؛ لِمَا رَواهُ الإمامُ أحمدُ بسندٍ صَحيح وابنُ خُزيمةَ وصَحَّحَهُ، عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: **«مَن غسَّلَ واغتسلَ يومَ الجُمعةِ وبَكَّرَ وابتكر ودَنَا مِنَ الإمَامِ فأنصتَ، كَانَ لهُ بِكُلِّ خُطوةٍ يَخطُوها صيامُ سَنَةٍ وقِيَامُهَا، وذلكَ على الله يَسِيرٌ»**[1]. فمَا أَعظَمَ هذَا الأجرَ يَا عِبَادَ اللهِ. هذَا أَجْرُ المَسيرِ والتَّبكيرِ إلى الجُمُعةِ: كُلُّ خُطوةٍ تُعَادلُ في الثَّوابِ صِيَامَ سَنَةٍ وقِيامَهَا، أضِفْ إلى ذلِكَ أَنَّ المُبَكِّرَ إذَا دَخلَ المَسْجدَ فَاشتغلَ بالصَّلاَةِ والذِّكرِ وقِرَاءَةِ القُرآنِ حصلَ على خَيراتٍ كَثيرةٍ، والمَلائكةُ تستغفرُ لَهُ طِيلَةَ بَقَائِهِ فِي المَسجدِ، وَيُكْتَبُ لَهُ أَجرُ المُصَلِّي مَا دَامَ يَنتظِرُ الصَّلاَةَ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٥) والترمذي (٤٩٦) والنسائي (١٣٨١، ١٣٨٤، ١٣٩٨) وابن ماجه (١٠٨٧) من حديث أوس بن أوس.

وكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ زَهِدَ في هذَا الأَجْرِ فِي هذا الزَّمانَ فَصَارَ لاَ يَأْتِي لِصَلاَةِ الجُمُعَةِ إلاَّ فِي آخِرِ لَحْظَةٍ؛ فَمنهم مَنْ يَأْتِي وقتَ الخُطبةِ فقط، وَمِنهم مَنْ يَتأخرُ إِلَى الإقامَة، ومنهم مَنْ يَأتي فِي آخرِ الصَّلاَةِ، وهَذَا حِرْمَانٌ وتَثبيطٌ مِنَ الشَّيطانِ. فَاتَّقُوا اللهَ وَلا تَحْرِمُوا أنفسَكم هذَا الثوابَ العَظيمَ، بَكِّرُوا إِلى الجُمُعَةِ لتَحُوزُوا هَذَا الثَّوَابَ.

وَمِنْ خصَائِصِ يَوْمِ الجُمعةِ أَنَّ فِيهِ الخُطبةَ التِي يُقْصَدُ بِهَا الثَّنَاءُ على اللهِ وتمجيدُه، والشهادةُ لَهُ بالوحدانيةِ، ولنبيهِ بالرسالةِ، وتذكيرُ العِبَادِ بأيامِ اللهِ وتحذيرُهم مِنْ بأْسِهِ وَنِقْمَتِهِ، ووصيتُهم بِمَا يُقربُهم إِلَيْهِ، ونهيهُم عَمَّا يقربُهم مِنْ سَخَطِهِ وَنَارِهِ، فالخطبةُ شَرطٌ مِنْ شُرُوطِ صِحَّةِ الجُمُعةِ، وحُضورُها واستماعُها أَمرٌ مقصودٌ ومُتَأَكِّدٌ فِي حَقِّ المُصلينَ؛ قَالَ تَعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝﴾ [الأعراف: ٢٠٤] فقدْ ذَكَرَ ابنُ كَثيرٍ عَنْ سَعيدِ بنِ جُبيرٍ قالَ: الإنصاتُ يَومَ الأَضْحَى ويومَ الفطرِ ويومَ الجمعةِ وفيمَا يَجْهَرُ بِهِ الإمامُ فِي الصَّلاَةِ. وهذَا اختيارُ ابنِ جَرِيرٍ: أَنَّ المُرادَ مِنْ ذلكَ الإنصاتُ فِي الصَّلاَةِ وفِي الجُمُعَةِ، كمَا جَاءَ فِي الأحَاديثِ طَلَبُ الإنصاتِ خَلْفَ الإمَامِ وَحَالَ الخُطْبَةِ، فالإنصات لِلخُطبةِ إِذَا سَمِعَهَا وَاجِبٌ، وَمَنْ لَمْ يُنْصِتْ كَانَ لاَغِياً، وَمنْ لَغا فَلاَ جُمْعَةَ لَهُ.

فَحضُور الخُطبةِ واستماعُها والإنصاتُ لَهَا أَمرٌ مَقصودٌ لِلشَّارِعِ؛ لأَنَّ فِيها تَذكيراً للمُستمعِ وتَعليماً للجَاهِلِ ومَوعظةً للغَافِلِ؛ قَالَ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ [الجمعة: ٩]، وذِكْرُ اللهِ المَأمورُ بِالسَّعي إِليه هُو الخُطْبَةُ والصَّلاَةُ؛ ولِهَذَا يُشْرَعُ لِمَنْ حَضَرَ أَنْ يَتَّجِهَ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ إِلَى الخُطْبةِ، وَلاَ يَعْبَثَ

ولاَ يَتَكَلَّمَ حَالَ الخُطبةِ؛ وذلِكَ لِيَسْمَعَ ويستفِيدَ. وكثِيرٌ من النَّاسِ اليومَ قدْ غلبَ عليهِمُ الكسَلُ أَوْ عَدمُ المُبَالاَةِ فَلا يَأْتُونَ إلى المسجدِ إلاَّ بعدَ انقضاءِ الخُطبَةِ أَوْ فَواتِ مُعظمِها، فَيفوتُهم الثَّوابُ وتَفوتُهم الفائِدةُ، وهذَا حِرمانٌ عظيمٌ.

واعلمُوا يَا عِبادَ اللهِ أنَّ منَ دخلَ والإمامُ يَخْطُبُ فَإِنَّهُ لاَ يجوزُ لَهُ الجُلوسُ حتَّى يُصَلِّيَ رَكعتينِ خَفيفتينِ؛ لِقولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: **«إِذَا جَاءَ أحدُكم يومَ الجُمُعةِ وقَد خَرَجَ الإمامُ فَليصلِّ رَكعتينِ»**[١] متفقٌ عليهِ ـ وَزَاد مُسلمٌ: **«وليُوجِزْ فِيهمَا»**.

وَمِنْ خصَائِصِ يومِ الجُمُعةِ: صَلاَةُ الجُمُعَةِ التِي هي مِنْ آكدِ فَرائضِ الإسلامِ ومنْ أَعظَمِ مَجَامِعِ المُسلمينَ، وَمَنْ تَركهَا تَهاوناً بِهَا طبعَ اللهُ على قَلْبِهِ، ومَنْ صلاَّهَا وحافظَ عليها كَفَّرَتْ عنهُ مِنَ الذُّنُوبِ الصَّغائرِ مَا بينَها وبينَ الجُمُعَةِ الأُخرىٰ، وأَمَّا الذُّنوبُ الكَبائرُ فَلاَ تُكَفَّرُ إلاَّ بالتوبةِ مِنهَا. وهُنا يغلطُ بعضُ الجُهَّالِ حيثُ يَسمعُ أَنَّ الجمعة تُكَفِّرُ مَا بينَها وبينَ الجُمُعةِ الأُخرىٰ، فيُحافظُ على صلاَةِ الجُمعةِ ويضيعُ بَقيةَ الصَّلَواتِ الخمسِ فلاَ يُصَلِّي غيرَ الجُمعةِ، ظَانّاً أنها تكْفِيهِ عنْ بقيةِ الصَّلواتِ، وهذا تحريفٌ لِلْكَلِم عنْ مَواضِعِهِ، وإيمانٌ ببعضِ الكتابِ وكُفرٌ بِبعضِهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ ﷺ إنَّمَا ذكر أَنَّ الجُمُعَةَ تُكَفِّرُ الذُّنُوبَ الصَّغَائِرَ دُونَ الكَبائِرِ حيثُ قالَ ﷺ: **«الصَّلواتُ الخمسُ والجمعَةُ إلى الجُمُعةِ ورَمَضانُ إلى رمضانَ، كَفَّارةٌ لِمَا بيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَتِ الكَبَائِرُ»**[٢]. وتركُ الصَّلواتِ الخمسِ مِنْ أكبرِ الكبَائِرِ بَلْ هُو كُفْرٌ باللهِ، فَلاَ تُكَفِّرُهُ الجمعَةُ، بلْ لاَ تَصِحُّ صَلاَةُ الجُمُعةِ مِمَّنْ هذِهِ حَالُهُ حَتَّى يُؤَدِّيَ الصَّلَواتِ الخمسَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣١، ١١٦٦) ومسلم (٨٧٥) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه أحمد (٨٤٩٨) ومسلم (٢٣٣) من حديث أبي هريرة.

ومِنْ خَصَائِصِ يوم الجُمعةِ: أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ السَّفرُ فِي يَوْمِهَا لِمَنْ تَلزَمُهُ قَبْلَ فِعْلِهَا بَعْدَ دُخُولِ وقتِها بِزَوالِ الشَّمسِ، وقبلَ الزَّوالِ يُكْرَهُ السفرُ إلاَّ إنْ كانَ سَيُؤدِّيها فِي طَريقِهِ فِي جَامعٍ آخَرَ.

ثُمَّ اعلَمُوا: أَنَّ مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنْ صَلاَةِ الجُمُعةِ مَعَ الإمَامِ فَلْيُضِفْ إِليهَا رَكْعَةً أُخْرَىٰ وقدْ تَمَّتْ جُمْعَتُهُ. ومَنْ أَدْرَكَ أَقَلَّ مِنْ رَكْعَةٍ فَقَدْ فَاتَتْهُ الجُمُعةُ، فَيدْخَلُ مَعَ الإمامِ بِنِيَّةِ الظُّهْرِ ويُصَلِّي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ. ومَنْ حَضَرَ إلى المسجدِ فَلاَ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَتَخطَّىٰ رِقَابَ النَّاسِ؛ فَقَدْ رَأَى النَّبيُّ ﷺ وهُو على المِنبَرِ رَجُلاً يَتَخطَّى رِقَابَ النَّاسِ فقالَ لَهُ: «اجْلِسْ فقدْ آذَيْتَ»[1] ولاَ يجوزُ لَهُ أَنْ يَحْجزَ مَكَاناً فِي المسجدِ يَحْرِمِ النَّاسَ مِنْهُ، إلاَّ مَنْ عَرَضَ لَهُ عَارِضٌ فَقَامَ ثُمَّ عَادَ قَرِيباً، فَهُو أَحَقُّ بمكانِهِ. ويَتَنَفَّلُ قَبْلَ صَلاَةِ الجُمُعةِ بِمَا شَاءَ مِنَ الصَّلاَةِ حَتَّى يَحْضُرَ الإمامُ. وأَقَلُّ السُّنَّةِ الرَّاتِبَةِ بعدَ الجمعةِ رَكْعتانِ، وأكثرُها أَرْبَعُ رَكَعَاتٍ. ولاَ رَاتِبَةَ لَها قَبْلَهَا، بل يتنفل بما يشاء.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (١١١٨) والنسائي (١٣٩٩) من حديث عبد الله بن بسر.

فِي الحَثّ علَى صَلاَةِ الجُمُعَةِ وَبَيَانِ فَضْلِهَا

الحمدُ للهِ الذِي جَعلَ يومَ الجُمُعةِ مِنْ أشرفِ الأيامِ، وجَعلَهُ عيدَ الأسبوعِ لأهلِ الإسلامِ، وأمرَنَا بالسَّعي إلى ذِكرِه عِند النِّداءِ للصلاةِ فِيه وتَرْكِ الاشتغالِ بالدُّنيا لنَتفرغَ لِذِكْرِ اللهِ وأداءِ الصَّلاَةِ، لنَنَالَ الفلاحَ العَاجِلَ والآجِلَ. نَحمدُكَ اللَّهُمَّ عَلى نِعْمَةِ الإسلامِ وَهِيَ النِّعمةُ الكُبْرَىٰ، وَنَشكُركَ اللَّهُمَّ فِي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ وعلى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ. نشهدُ أَنْ لاَ إله إلاَّ أَنتَ، لَكَ الأَمْرُ فِي الأُولَى والأُخْرَى. ونَشْهَدُ أنَّ سَيدَنا مُحمداً عبْدُكَ ورسولُكَ الذِي قُلْتَ لَهُ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الأعلى: ٩]، اللَّهم صَلِّ وسلِّم تَسليماً كَثيراً عَليه وعَلى آلِهِ وأَصحابِه وأَتباعِه إلى يومِ الدِّينِ.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ، عِبَادَ اللهِ. يومُ الجُمُعةِ يومٌ مُباركٌ قَدْ فَضَّلَهُ اللهُ علَى سَائِرِ الأَيَّامِ، واخْتَصَّ بِهِ المُسلمينَ مِنْ بينِ سَائرِ الأممِ، واختص الله هذا اليوم المبارك بخصائص لا توجد، في سائر الأَيَّام:

مِنْهَا أَنَّهُ تُقَامُ فِيهِ صَلاَةُ الجُمعَةِ التِي هِي مِنْ آكدِ فُروضِ الإسْلاَمِ، وهِي مِنْ أَعْظَمِ مَجَامِعِ المُسلمينَ، وَهِي أعظمُ مَجْمَعٍ يَجتمعونَ فِيهِ وأَفْرَضُه سِوىٰ مَجْمَعِ عَرَفَةَ. مَنْ تَرَكَ صَلاةَ الجُمُعةِ تَهاوناً بِهَا طَبعَ اللهُ عَلى قَلْبِهِ، كَمَا صَحَّ بذلِكَ الحَديثُ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ(١). وهُو اليَوْمُ الذِي يُسْتَحَبُّ أَنْ يُتفرغَ فِيهِ لِلْعِبادَةِ. ولَهُ علَى سَائِرِ الأَيامِ مزيةٌ بأنواعِ العِباداتِ الوَاجبةِ والمُستحبةِ. فَاللهُ سُبحانَهُ جَعلَ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٠٥٢) والترمذي (٥٠٠) والنسائي (١٣٦٩) وابن ماجه (١١٢٥) من حديث أبي الجعد الضمري.

لأَهْلِ كُلِّ مِلَّةٍ يَوماً يَتفرغونَ فِيه لِلعبادةِ، ويَتخلون فِيه عنْ أَشغالِ الدُّنْيَا، فَيَوْمُ الجُمُعَةِ يومُ عِبادةٍ، وهو يَومُ هذِهِ الأُمَّةِ وَهُو فِي الأيامِ كَشَهْرِ رَمَضَانَ فِي الشهُورِ، ويومُ الجُمُعةِ ميزانُ الأُسبوعِ.

عِبَادَ اللهِ: إنَّهُ يُستحبُّ التبكيرُ فِي الذهابِ إلى المسجدِ يومَ الجُمعةِ؛ فَفِي الصَّحِيحينِ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**مَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الأُولَى فَكأَنَّما قَرَّبَ بَدنةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعةِ الثَّانيةِ فَكأنمَا قَرَّبَ بقرةً، وَمَن رَاحَ فِي السَّاعةِ الثَّالثةِ فَكأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشاً أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعةِ الرابعةِ فَكأنما قَرَّبَ دَجاجةً، ومَن رَاحَ فِي السَّاعةِ الخَامسةِ فكأنما قَرَّبَ بَيضةً، فَإذَا خَرَجَ الإمامُ حَضَرتِ المَلائكةُ يَستمعونَ الذِّكْرَ قُبيلَ خُروجِ الإِمَامِ**»[(١)].

فلَمَّا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ فِي الأُسبوعِ كالعيدِ فِي العَامِ، وكَانَ العِيدُ مُشتملاً على صلاةٍ وذَبْحِ قُرْبانٍ، وكانَ يَوْمُ الجُمُعةِ يومَ صَلاَةٍ ـ جَعَلَ اللهُ سُبحانهُ التَّعْجيلَ فِيه إلَى المَسجدِ بَدلاً مِنَ القُربانِ وقَائِماً مقامَه، فَيجتمعُ للرائحِ فِيه إلى المسجدِ الصلاةُ والقربانُ. فانْظُروا يَا عِبَادَ اللهِ إِلَى هذَا الفَرْقِ العَظيمِ بينَ أَجْرِ مَنْ يُبَكِّرُ إلَى الجُمُعةِ فَيأتِي فِي السَّاعةِ الأولَى، وأَجْرِ مَنْ يَتَأَخَّرُ فَلاَ يَأْتِي إلاَّ فِي السَّاعةِ الأَخيرةِ، إِنَّهُ الفَرْقُ بَينَ مَنْ يُهْدِي البعيرَ وَمَنْ يُهدي البيضةَ. بَلْ إِنَّ مَنْ يتأخرُ إلى دخولِ الإمامِ فإنها تطوى عنه الصحفُ ولا يكتبُ له قربانٌ بعد ذلك. إننا نرى بَعْضَ النَّاسِ ـ هَدَاهُمُ اللهُ ـ يَتَأَخَّرونَ عنِ الحُضَورِ إلى الجُمعَةِ إلى وقتِ دُخُولِ الإمامِ، ولاَ تَسمَحُ نُفوسُهم بالتقدمِ والتَّبْكِيرِ بُخْلاً بِالوقتِ وتَشاغلاً بِمَا لاَ فَائِدَةَ فِيهِ، أَوْ مَا فَائدتُه ضَئِيلةٌ يمكنُهم الحُصولُ عَليها فِي وقتٍ آخَر، إِنَّهم بِهذَا التَّأَخُّرِ

---

(١) أخرجه البخاري (٨٨١) ومسلم (٨٥٠) من حديث أبي هريرة.

يُفوِّتون على أنفسِهم خَيراً كَثيراً وَأَجْراً جَزِيلاً. اسْمَعُوا قولَ الرَّسُولِ ﷺ: «مَنْ تَوضَّأَ فأحسنَ الوضُوءَ ثُمَّ أَتَى الجُمُعَةَ فاستمعَ وأنصتَ، غُفرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وبَيْنَ الجُمُعةِ وزيَادَةُ ثَلاثةِ أيَّام»(١) رَواهُ مُسْلِمٌ فِي «صحيحِه». والمُرادُ: غُفرَ لَهُ الذُّنُوبُ الصَّغَائِرُ كمَا فِي قَوْلِه سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

يا أَخِي المُسلم، كيف تُفَوِّتُ على نَفْسِكَ هذَا الأجرَ العَظِيمَ مُطاوعةً لِنفسكِ الأمارة بالسوءِ وطَاعةً للشيطانِ الذِي لاَ يُرِيدُ لَكَ إلاَّ الهَلاَكَ. تَقَدَّمْ يَا أَخِي المسلم فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ إِلَى المسجد لانتظارِ صَلاَةِ الجُمُعةِ، واعْمُرْ وَقْتَكَ بِطَاعةِ اللهِ مِنَ الصَّلاَةِ والذِّكْرِ وتِلاَوَةِ القُرْآنِ حَتَّى يَخرجَ الإمامُ، فَإِذَا خَرَجَ فقدِ انتهَى وقتُ الصَّلاَةِ النَّافِلَةِ، وإِذَا شَرَعَ فِي الخُطْبَةِ وَجَبَ الإِنْصَاتُ وحَرُمَ الكَلامُ، فَخُرُوجُ الإِمَامِ يَمْنَعُ الصَّلاَةَ وخُطْبَتُه تَمْنَعُ الكَلاَمَ. فإنَّ مِنْ خَصَائِصِ هذَا اليومِ العَظِيمِ أَنَّ فِيهِ الخُطْبَةَ التِي يُقْصَدُ بِهَا الثناءُ على اللهِ وتمجيدُه والشهادةُ لَهُ بالوحدانيةِ ولِرسولِه ﷺ بالرسالةِ وتذكيرُ العِبَادِ بأيامِه وتَحذيرُهم مِنْ بَأْسِهِ ونِقْمَتِهِ ووصيتُهم بِمَا يُقربُهم إليه وإلى جِنَانِهِ وَنَهْيهِمْ عَمَّا يُقربُهم مِنْ سَخَطِهِ ونَارِهِ؛ فَيَجِبُ حِينئِذٍ الإمساكُ عَنِ الصَّلاَةِ والاستماعُ للخُطبةِ بإنصاتٍ. ومنْ دَخَلَ المسجدَ والإمامُ يَخْطُبُ فَلاَ يَجْلِسْ حتَّى يُصليَ رَكعتينِ خَفيفتينِ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بذلِكَ(٢).

أَخِي المسلمَ: إنَّ يومَ الجُمُعةِ يومٌ عَظِيمٌ اختصَّه اللهُ بخصائصَ كَثيرةٍ لاَ تُوجَدُ في غيرِه مِنَ الأيامِ، فقدْ ثَبَتَ في الصَّحيحينِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ السَّابِقُونَ يَوْمَ القِيامَة بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ

(١) صحيح مسلم (٢٧/٨٥٧) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه البخاري (٩٣١، ١١٦٦) ومسلم (٨٧٥) من حديث جابر بن عبد الله.

قَبْلِنَا». ثُمَّ هَذَا يومُهم الذِي فَرَضَ اللهُ عَليهم فَاختَلفُوا فِيه فَهَدَانَا اللهُ لَهُ، والنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ؛ اليهودُ غداً، والنَّصَارى بعدَ غَدٍ»[١]. وَفِي صحيحِ مُسْلِمٍ عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وحُذَيْفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالاَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِليهودِ يومُ السَّبْتِ ولِلنَّصَارَىٰ يوم الأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهدانَا لِيوم الجُمُعَةِ»[٢]. فهو يومُ اجْتِمَاعِ النَّاسِ وتذكِيرِهم بالمبْدَأ والمعادِ.

وقَد شَرَعَ اللهُ لكلِّ أُمَّةٍ فِي الأسبوعِ يَوماً يتفرغونَ لِلعبادةِ فِيه ويتذكرونَ فِيه اجتماعَهم يومَ الجَمْعِ الأكبرِ قِياماً بَينَ يَدَيْ رَبِّ العَالَمينَ. وكانَ أَحقَّ الأيامِ بِهَذا هُو اليومُ الذِي يَجْمَعُ اللهُ فِيه الخَلائِقَ وذَلِكَ هُو يومُ الجُمعةِ، فَادَّخَرَهُ اللهُ لِهذِه الأُمَّةِ لِفَضْلِهَا وَشَرَفِهَا.

وكانَ ﷺ يُعَظِّمُ هَذا اليومَ ويَخُصُّهُ بِعِبَادَاتٍ لاَ تُوجَدُ فِي غيرِه مِنَ الأيامِ؛ فكانَ ﷺ يَقْرَأُ فِي فَجْرِهِ بِسُورتَي «آلَمَ السَّجْدَة» و«هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسانِ»[٣]. لأَنَّ هَاتين السُّورتَينِ تَضَمَّنَتَا مَا كَانَ وَمَا يكونُ في هذا اليومِ؛ فَإِنَّهُما اشْتملَتَا على ذِكْرِ خَلقِ آدَمَ وعَلى ذِكْرِ يومِ القِيَامَةِ وحَشْرِ العِبَادِ؛ وذلِكَ يَكُونُ يومَ الجُمعَةِ؛ فَكَانَ فِي قَراءتِهما فِي هذا اليومِ تذكيرٌ لِلأُمَّةِ بِمَا كانَ ومَا يَكُونُ في هذَا اليَوم.

ومِمَّا يَخْتَصُّ بهِ يومُ الجُمُعَةِ كَثْرَةُ الصَّلاَةِ عَلى النَّبيِّ ﷺ فِيهِ وَفِي لَيلتهِ، وَأَمَرَ ﷺ بالاغتسالِ فِي هذَا اليومِ وهُو أَمْرٌ مُؤَكَّدٌ فِي حَقِّ مَنْ بِهِ رَائِحَةٌ كَرِيهةٌ يَحتاجُ إِلى إِزالتِهَا بِالغُسْلِ. ويُستحبُّ التطيبُ فِيه وهُو أَفْضَلُ مِنَ التَّطيبِ فِي غَيرِهِ مِنَ الأيامِ. ويُستحبُّ أنْ يَلبسَ فِيه أحسنَ اللِّبَاسِ الذِي يَقْدِرُ عَلَيهِ. وَفِي هذَا اليومِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٨، ٨٧٦، ٨٩٨) ومسلم (٨٥٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم (٨٥٦) من حديثهما معاً.
(٣) أخرجه البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) ومسلم (٨٨٠) من حديث أبي هريرة.

ساعةُ الإجَابةِ، وهِي السَّاعَةُ التِي لاَ يُسْأَلُ اللهُ فِيهَا شَيئاً إلاَّ أَعْطَاهُ، فَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللهُ عَنْهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«إنَّ فِي الجُمُعَةِ لَسَاعةً لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسلمٌ وهُو قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللهَ شَيئاً إلاَّ أَعْطَاهُ إيَّاهُ»**(١).

أَيُّهَا المُسلمونَ: مَعَ هذِه المَزَايا الكثيرةِ والفضائِلِ العَظيمةِ لهذا اليومِ الذِي جَعلَهُ اللهُ مَوْسِماً عظيماً لنيل الدرجات وتكفير السيئات. نرى بعض الناس لا يقيم لهذا اليوم وزناً ولا يحسب لَهُ حِسَاباً، ولاَ يَعرفُ هذَا اليومَ إلاَّ أنَّهُ يومُ عطْلَةٍ وفَرَاغٍ يَقْضِيهِ فِي اللَّهوِ واللَّعِبِ، ورُبَّمَا فِي المَعَاصِي، يَسْهَرُ لَيْلَه ويَقْضِي نَهَارَهُ بِذلِكَ، لاَ يعرِفُ عَن هذَا اليوم إلاَّ أنه يومُ نُزْهَةٍ يُعطِي فِيه نفْسَهُ مَا تَشتهي، والبعضُ مِنَ النَّاسِ يَنفِرُونَ مِنَ البَلَدِ إلَى البَرَارِي ولاَ يَحْضُرُونَ صَلاَةَ الجُمُعَةِ، وقدْ نَصَّ العُلمَاءُ على أَنَّهُ لاَ يَجُوزُ السَّفَرُ فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ لِمَنْ تَلزمُهُ صَلاةُ الجُمعةِ بَعْدَ دُخولِ وَقْتِهَا وذلِكَ حِينَ تَزُولُ الشَّمسُ حتَّى يُصَلِّيَهَا، إلاَّ إذَا كانَ سَيؤديها فِي مَسْجِدٍ فِي طَرِيقِه، وأمَّا السَّفَرُ فِي أَوَّلِ النَّهَارِ فَمَكْروهٌ. هذَا حُكْمُ السَّفرِ الذِي قَدْ يكُونُ الإنسانُ محتاجاً إليه، فكيفَ بِمَنْ يَخْرُجُ مِنَ البَلَدِ في هذا اليومِ لِتضْيِيعِ الوقتِ والتَّغَيُّبِ عَنِ الصَّلاَةِ، إنَّ التحريمَ أوِ الكَرَاهَةَ في حَقِّ هذَا أَشَدُّ. إنَّهُ ينبغِي لِلمسلمِ أَنْ يُخَصِّصَ للخروجِ يَوماً غَيرَ يومِ الجُمعةِ، وإِذَا خَرَجَ يومَ الجُمعةِ فَليحرصْ عَلى أَدَاءِ صَلاةِ الجُمعةِ فِيمَا حَوْلَهُ مِنَ المساجِدِ ولاَ يُفَرِّط فِيهَا فَهِي مِنْ فُرَصِ العُمْرِ. وَفَّقَ اللهُ الجَميعَ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ.

ثُمَّ اعْلمُوا رَحِمَكُم اللهُ أَنَّ مَنْ أدركَ رَكْعةً مِنَ الجُمعةِ مَعَ الإمامِ فَقَدْ أَدْركَ الجُمعةَ فَلْيُضِفْ إليها ركْعَةً أُخْرَىٰ بعدَ سَلامِ الإمامِ وقَدْ تَمَّتْ جُمعتُه، ومَنْ جاءَ

---

(١) أخرجه البخاري (٩٣٥، ٥٢٩٤، ٦٤٠٠) ومسلم (٦٤٠٠).

بعدمَا رَفعَ الإمَامُ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكعةِ الثانيةِ فقَدْ فاتتْهُ الجمعةُ فينوي صَلاةَ الظُّهْرِ ويَدْخلُ مَعَ الإمَامِ فَإذَا سَلَّمَ قَامَ فَصَلَّى أَرْبَعَ رَكعَاتٍ صَلاَةَ الظُّهْرِ، إذَا كانَ قدْ دَخلَ وقْتُ الظُّهْرِ.

أعوذُ باللهِ السَّمِيعِ العَلِيمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ. . .﴾ [الجمعة: ٩] إلى آخرِ السُّورَةِ.

* * *

فِي الزَّكَاةِ

الحَمدُ للهِ الذِي جَعلَ الزَّكَاةَ أَحدَ أَرْكانِ الإِسْلامِ، وأَوْجَبهَا فِي مَالِ الأَغنياءِ طُهْرَةً لَهُم مِنَ البُخْلِ والشُّحِّ والآثامِ، ومُواسَاةً لِذَوي الحَاجَةِ مِنَ الفُقَرَاءِ والأَرَامِلِ والأَيْتَامِ، أَحْمَدُهُ على نِعْمَةِ الإسلامِ، وأَشْكُرُهُ على مَزِيدِ فَضْلهِ وإِحْسَانِهِ على الدَّوامِ. وأشهدُ أنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأشهَدُ أَنَّ مُحمداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ حَثَّ عَلَى أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَحَذَّرَ مِنْ مَنْعِهَا والتَّسَاهُلِ فِي أَدائِها، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأَصحابِهِ، وسَلَّمَ تَسْلِيماً كَثيراً.

أَمَّا بعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ واهْتَمُّوا بِأَدَاءِ الزَّكَاةِ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: إِنَّ مقامَ الزَّكاةِ في الإسلامِ عظيمٌ فَهِي أحدُ أَركانِ الإسلامِ وهي قَرِينَةُ الصَّلاةِ في كثيرٍ منْ آيِ القُرْآنِ. وقدْ كانَ النَّبِيُّ ﷺ يهْتَمُّ بِهَا اهتِمَاماً خَاصّاً فَيبعثُ السُّعَاةَ لِقَبْضِهَا مِنَ الأغنياءِ وجِبايتِها لإيصالِهَا إِلَى مُستحقِّيها وتَبرئَةِ ذِمَمِ الأَغْنياءِ من مَسؤوليتِها، وسَارَ على ذلِكَ خُلفاؤُه الرَّاشِدُونَ، وعندمَا هَمَّ بعضُ القَبَائِلِ بِمَنْعِ الزَّكَاةِ بعْدَ وفَاةِ الرَّسُولِ ﷺ قَاتَلَهُم الخَليفةُ الأَوَّلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّديقُ رضِي اللهُ عنه حَتَّى أَخْضَعَهُم لِحُكْمِ اللهِ وقَال: لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بينَ الصَّلاَةِ والزَّكَاةِ.

عِبَادَ اللهِ: مَنْ جَحَدَ وجُوبَ الزَّكَاةِ فهُو كَافِرٌ مُرْتَدٌّ عنْ دِينِ الإِسلامِ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ وأَقَرَّ بوجوبِها وَأَدَّاهَا وإلاَّ قُتِلَ؛ لأَنَّهُ مُكَذِّبٌ للهِ ولرَسُولِهِ وَلإِجْمَاعِ المُسْلمينَ. ومنْ مَنَعَهَا بُخلاً مَعَ إِقْرَارِهِ بوجُوبِها أُخِذَتْ مِنْهُ قَهْراً وأُدِّبَ أَدَباً رَادِعاً فَإِنْ لَمْ يُمْكِنْ أَخذُهَا مِنهُ إلاَّ بِقِتَالِهِ قُوتِلَ؛ لاتفاقِ الصَّحَابَةِ على قِتَالِ مَانِعِي الزَّكَاةِ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: هذهِ عُقوبةُ مَانِعي الزَّكَاةِ في الدُّنيَا معَ ما قدْ يُعَاقَبُونَ بهِ مِنْ تَلَفِ أَموالِهم بالآفاتِ السَّمَاويةِ مِنْ حَريقٍ وغيرِهِ. وأَمَّا عُقوبتُهم فِي الآخرةِ فَاسمَعُوا بَيَانَهَا مِنْ كَلاَمِ رَبِّكُم عَزَّ وجَلَّ وسُنَّةِ نَبيِّكُم ﷺ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. وقالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له يومَ القيامة شجاعٌ أقرع ـ وهو الثعبان ـ له زبيبتان يطوقه يوم القيامة فيأخذ بلهزمتيهِ (أي بشِدقيهِ) فيَقُول: أنا مَالُكَ أنَا كَنْزُكَ» ثُمَّ تَلاَ هذهِ الآيةَ)[1] أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ. وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥]. وثَبَتَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ في صَحِيحِ البُخَارِيِّ ومُسْلمٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ ولاَ فِضَّةٍ لاَ يُؤدِّي حَقَّهَا إلاَّ إذَا كَانَ يومُ القِيامَةِ صُفحتْ لَهُ صَفَائِح مِنْ نَارٍ فَأُحْمِيَ عَليهَا في نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْوَىٰ بِهَا جَبِينُهُ وجَنْبَاهُ وظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَردتْ أُعيدتْ لَهُ، في يومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمسينَ أَلف سَنَةٍ، حتَّى يَقْضِي اللهُ بَيْنَ النَّاسِ فَيَرَىٰ سَبيلَه إمَّا إلى الجَنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ»[2]. قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: لاَ يُوضَعُ دِينَارٌ على دِينَارٍ ولاَ دِرْهَمٌ على دِرْهَمٍ، ولَكِنْ يُوَسَّعُ جِلْدُهُ حَتَّى يُوضَعُ كُلُّ دينارٍ ودِرْهَمٍ على حِدَتِهِ[3].

عِبَادَ اللهِ: إنَّ الكَنْزَ الذِي تَوَعَّدَ اللهُ صَاحِبَهُ هُو المالُ الذِي لاَ تُؤَدَّىٰ زَكَاتُهُ،

---

(١) صحيح البخاري (١٤٠٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) هو نفس حديث أبي هريرة السابق والمتن المذكور عند مسلم (٩٨٧).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/٤٢٧) والطبراني في المعجم الكبير (٨٧٥٤).

ولَيْسَ المُرَادُ بِالكنزِ هُنا المَالَ المَدْفُونَ كَمَا قدْ يَفْهَمُ بعضُ النَّاسِ. قالَ ابْنُ عُمرَ: مَا أُدِّيَ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وإِنْ كَانَ تَحْتَ سَبْعِ أَرَضِين، وَمَا كَانَ ظَاهِراً لاَ تُؤَدَّىٰ زَكَاتُهُ فَهُو كَنْزٌ[١]. وقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: أَيُّما مَالٍ أُدِّيتْ زَكَاتُهُ فليسَ بِكَنْزٍ وإِنْ كانَ مَدْفُوناً فِي الأَرْضِ، وأَيُّمَا مَالٍ لَمْ تُؤَدَّ زَكَاتُهُ فَهُو كَنْزٌ يُكْوىٰ بهِ صَاحِبُهُ وإِنْ كانَ على وَجْهِ الأَرْضِ[٢].

أَيُّهَا المُسلمونَ: إنَّ الزَّكَاةَ تَجِبُ على أربعةِ أنواعٍ مِنَ المَالِ هِي: الأَثْمَانُ، وعُروضُ التِّجَارةِ، وبَهيمةُ الأنعامِ، والخارجُ مِنَ الأرضِ.

فَتَجِبُ فِي النَّقْدَيْنِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ وَمَا يَقُومُ مَقَامَهُمَا مِنَ الأوْراقِ النَّقْدِيَّةِ المُستعلمةِ في هذا الزَّمَانِ. وتَجِبُ فِي عُروضِ التِّجَارةِ وهِي السِّلَعُ المَعروضَةُ لِلْبَيْعِ في الدكاكين والمعارض وغيرها من الأقمشة والأطعمة والأشربة وتوابعها والسيارات والمَاكينات ومَوَادِّ البِنَاءِ وقِطَعِ الغِيَارِ وغَيْرِ ذَلِكَ مِن الآلِيَّاتِ، وكذَا الأَرَاضِي والبِنَايَاتِ المُعَدَّةِ لِلْبَيْعِ والتِّجَارةِ، وكَذَا المَوَاشِي المُعَدَّةِ لِلْبَيْعِ والتِّجَارةِ. وتَجِبُ الزَّكَاةُ أَيْضاً في الخَارِجِ مِنَ الأَرْضِ مِنَ الحُبُوبِ والثِّمَارِ، وفي بَهيمَةِ الأنْعَامِ، وهِي الإبلُ والبَقرُ والغنَمُ بِشُرُوطٍ واعتِبَارَاتٍ مَعروفةٍ في كُتُبِ الفِقْهِ، والذِي يهُمُّنَا الآنَ مَعرفةُ زَكَاةِ النَّوْعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ: النُّقودِ وَعُروضِ التِّجارةِ لأَنَّهما يَغْلِبُ وجودُهما بأيدِي أهلِ المُدُنِ.

فأَمَّا النُّقودُ فإِنَّها إِذا بَلَغتْ نِصَاباً فأكثرَ وَتَمَّ لَها حَوْلٌ وهِي بيدِ صَاحِبها وَجَبَ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٧١٤١، ٧١٤٢) وابن أبي شيبة (٢/٤١١). وقال المنذري في الترغيب والترهيب (١/٣٠١): «رواه الطبراني في الأوسط مرفوعاً ورواه غيره موقوفاً على ابن عمر وهو الصحيح».

(٢) أخرجه البيهقي في سننه (٨٣/٤) وذكره ابن كثير في تفسيره (٢/٣٥١) في تفسير سورة التوبة الآية: ٣٤.

فِيهَا رُبْعُ العُشْرِ. ومقْدَارُ النِّصَابِ مِنَ الفِضَّةِ بالرِّيالِ الفِضِّي السُّعودِي: سِتَّةٌ وخَمْسُون رِيَالاً، أَوْ مَا يُعَادِلُهَا مِنَ الوَرَقِ النَّقْدِيِّ. ونِصَابُ الذَّهَبِ بِالجُنَيْهِ السُّعودِي: أَحَدَ عَشَرَ جُنيهاً وَثَلاَثَة أسباعِ جُنَيْهٍ. والرِّبْحُ حَوْلُهُ حَوْلُ رَأسِ المَالِ، فلاَ يُبْتَدَأُ لَهُ حَوْلٌ جَدِيدٌ بَلْ يَتْبَعُ رَأْسَ المَالِ فِي ذلِكَ.

وتَجِبُ الزَّكاةُ فِي النُّقُودِ سَوَاء كَانَتْ بِيَدِهِ أَوْ كَانَتْ دُيوناً لَهُ فِي ذِمَمِ النَّاسِ. فَتَجِبُ الزَّكَاةُ فِي الدَّينِ الثَّابتِ سَواء كَانَ قَرْضاً أَو ثَمَنَ مَبيعٍ أَوْ أُجْرةً أَوْ غيرَ ذلِكَ. فإنْ كَانَ الدَّينُ على مُعْسِرٍ أَوْ على مُماطِلٍ ويُخْشَى أَلا يَتَمَكَّنَ مِن اسْتيفائِه فَهذا يُزَكيه إِذَا قَبَضَهُ لِعَامٍ واحِدٍ عَلَى الصَّحِيحِ.

وأَمَّا عُروضُ التِّجَارةِ وهي السِّلَعُ المُعَدَّةُ لِلبَيْعِ ـ كَمَا سَبَقَ ـ فَيُقَوِّمُها بِمَا تُسَاوي عِنْدَمَا يَتِمُّ الحَوْلُ عَلَيهَا أَوْ عَلَى ثَمَنِهَا الذِي اشتراهَا بهِ، فإنَّ حَوْلَهَا حِينئذٍ حَولُ ثَمَنِهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ قِيمتُها التي تُقَدَّرُ لَها عِنْدَ رَأسِ الحَولِ بِقَدْرِ ثَمَنِهَا الذِي اشْتَرَاهَا بِهِ أَوْ أَقَلَّ أَوْ أَكْثرَ، ويُخرِجُ رُبْعَ عُشرِ قِيمتِها. وإنْ كانَ لهُ مُسَاهَمَةٌ فِي أَرْضٍ فَإِنَّهُ يَسْأَلُ كَمْ تُسَاوِي تِلكَ الأرضُ عِنْدَ تَمَامِ الحَوْلِ، ثُمَّ يُخرِجُ زَكَاةَ نَصيبِه مِنْهَا. وَيَجِبُ عَلى أَهْلِ البقالاتِ والآلياتِ وقطعِ الغيارِ وتُجَّارِ الأقمشةِ أَنْ يُحصوهَا إحصاءً دَقيقاً ويُقومُوها بِمَا تُساوي عِنْدَ تَمَامِ الحَوْلِ ثُمَّ يُخْرِجُوا رُبْعَ عُشْرِ قِيمتِها، ويَجِبُ عَلى المُسلمِ أَنْ يتقيَ اللهَ في ذلكَ ويُحَاسِبَ نفسَه مُحاسبةَ الشَّريكِ الشحيحِ لِشَرِيكِهِ لإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ.

وأَمَّا الأَرَاضِي والدُّورُ والدَّكَاكِينُ والسَّياراتُ المُعَدَّةُ للاستعمال، فَلا زَكَاةَ فِيهَا، والمُعَدَّةُ للإِيجَارِ لا زكاةَ فِيها أَيضاً وإِنَّمَا تَجِبُ الزكاةُ فِي أُجرتِها إِذَا حَالَ عَليها الحَوْلُ، وبَلَغتْ نِصَاباً بِنَفْسِهَا أَوْ بِضَمِّهَا إِلى مَا بِيدِهِ.

أَيُّهَا المُسلمون: لقدْ بيَّنَ اللهُ مَصَارِفَ الزَّكَاةِ بِقَولِهِ تعالى: ﴿ ۞ إِنَّمَا

ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾ [التوبة: ٦٠] فَلَا يَجُوزُ صَرفُها لِغَيرِ هذِهِ الأصنافِ الثمانيةِ ولاَ يُجزئ. فَلَا بُدَّ لَكَ أَيُّهَا المُسلمُ مِنْ أَمرين: الأَوَّلُ: إخراجُ الزَّكَاةِ بالوفَاءِ والتمام. والثانِي: صَرفُها فِي مَصرفِها الشَّرعيِّ بِأَنْ تَدفعَها لأَحَدِ هذِه الأصنافِ الثَّمَانِيَةِ. فَيُعْطَى مِنْهَا الفقراءُ والمَسَاكِينُ وهُم مَنْ لاَ دَخْلَ لَهُم أَوْ لَهُمْ دَخْلٌ لاَ يَكفِيهم، فيُعطَونَ كِفايتَهم أو تمامَ كفايتِهم لِمُدَّةِ عَامٍ حتَّى يَأتِي عَامُ الزَّكَاةِ الثَّاني. وَيُعْطىٰ مِنْهَا الغَارِمُ لإصلاحِ ذاتِ البَيْنِ وهُو مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً لإطفاءِ فتنةٍ بينَ قَبيلتينِ مِنَ المُسلمينَ مَثلاً. ويُعطى مِنها الغَارمُ لِنفسِه وهُو مَنْ عَليه دَيْنٌ لاَ يَقْدِرُ على سَدادِه فَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ ما يُسَدِّدُ بِهِ دَيْنَهُ. ويُعْطَى مِنْهَا ابنُ السَّبيلِ وهُو المُسافرُ الذِي نَفِدَ مَا بِيده أَوْ ضَاعَ أو سُرِقَ، فَيُعْطَى مِنَ الزَّكَاةِ مَا يُوصلُه إِلى بَلدِه وإِنْ كَانَ غَنيًّا فِي بَلَدِه.

أَيُّهَا المسلمُ: لا تَجعلِ الزَّكَاةَ وِقَايةً لِمَالِكَ؛ بأَنْ تَدفعَها لِمَنْ لَهُ عَليكَ حَقٌّ بَدَلَ حَقِّهِ، ولا تُبطلْ صَدقتَك بِالمَنِّ والأَذَىٰ، واحمدِ اللهَ واشكُرْه إِذْ رَزَقَكَ هَذَا المَالَ. واعْلَمْ أَنَّ هذِهِ الزَّكاةَ تنمِّي مَالكَ وتُطَهِّرُهُ وتَزيدُه بركةً وتُطَهِّرُ نَفْسَكَ مِنَ الشُّحِّ والبُخْلِ وتُورثُ الرحمةَ والمَودةَ بينَ المُسلمينَ وتُحصِّنُ مَالكَ وتَحفظُه مِنَ الآفاتِ، وهِي سَبَبٌ لِدَفْعِ البَلاَءِ والأَسْقَامِ، وهِي تُسَبِّبُ دُعَاءَ المُسلمينَ لَكَ بِالخيرِ والبركةِ فأَطِبْ بِهَا نَفْسَكَ ولاَ يَضِقْ بِهَا صَدْرُكَ.

وأَنتم يَا مَنْ تَسألونَ النَّاسَ وتَأخذُون الزَّكَاةَ، اعلمُوا أَنَّهَا لاَ تَحِلُّ لِغَنِيٍّ عِنده مَا يَكفيهِ لِمُدَّةِ عَامٍ. ولاَ تَحِلُّ لِقَويٍّ في بَدَنِهِ يقدر على الاكتساب والحرفة. فمن أخذها منكم وهو غني عنها لا يريد أكلها وإنما يريد جَمْعَ الدَّراهِم والتكثرَ بهَا، أَوْ أَخذَهَا وهُو قَوِيٌّ في بَدَنِهِ قَادرٌ على الاكتسابِ ـ فإِنَّمَا يَأخُذُ حَراماً وسُحْتاً

ويأخذُ جَمْراً وعذَاباً مِنْ جَهَنَّمَ. وقَدْ صَحَّ عَنْ رسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّ الذِي يَسْأَلُ النَّاسَ تَكثُّراً ـ أَيْ ليسَ بِهِ حَاجَةٌ وإِنَّمَا يُرِيدُ تَكْثِيرَ مَالِهِ ـ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْراً، وأَنَّهُ يَأتِي يومَ القِيامَةِ وليسَ في وجْهِهِ مزْعَةُ لَحْمٍ[1]، ويَأتي يومَ القِيامَةِ وقدْ أَثَّرتْ مَسْأَلَتُهُ خُدُوشاً في وَجْهِهِ[2]. وكَثيرٌ مِنْ هَؤلاءِ المُتسولِين يَكْذِبُ على اللهِ وعلى خَلْقِهِ فَيَظْهَرُ أَمَامَ النَّاسِ بِمَظْهَر الفَقِيرِ وهُو غَنِيٌّ، ويظْهَرُ أَمَامَ النَّاسِ بِمَظْهَرِ المَرِيضِ العَاجِزِ وهُو قَوِيٌّ مُعَافىً، ويَظْهَرُ أَمامَ النَّاسِ بمظهر المصاب بالآفات من العرج والعمى وهو سليم. وهؤلاء إن خفي أمرهم على الناس فَلاَ يَخْفَى على اللهِ، لَكِنَّهُم لاَ يَخافونَ اللهَ ولاَ يُبَالُونَ بالكذِبِ. وقد نُزِعَ الحَيَاءُ مِنْهُم فَصَارُوا يُضَايقُونَ المُسْلِمينَ في مَسَاجِدِهم وفِي بُيوتِهم وأَسواقِهم. وهَؤلاءِ يَجِبُ على الحُكُومةِ أَنْ تَأْخُذَ على أَيدِيهم وتَردعَهم عَنْ فِعْلِهم القَبِيحِ لأَنَّهُم مُستحقونَ لِلعقوبةِ العَاجِلَةِ والآجلةِ. نَسأَلُ اللهَ العَافِيةَ والسَّلامَةَ.

اللَّهُمَّ أَغْنِنَا بِحلاَلِكَ عَنْ حرَامكَ وبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سواكَ. أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٤ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [التوبة: ١٠٣ـ١٠٥].

* * *

(١) في معناه ما رواه البخاري (١٤٧٤) من حديث ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم».

(٢) في معناه ما رواه أبو داود (١٦٢٦) والترمذي (٦٥٠) من حديث ابن مسعود.

فِي التَّحْذِيرِ مِنَ البِدَعِ
بِمُنَاسَبَةِ ذِكْرَى الإِسْرَاءِ وَالمِعْرَاجِ

الحمد للهِ الذِي أَمَرَنَا بالاتباعِ، ونَهَانَا عنِ الابتداعِ، وأشهدُ أنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لهُ في العِبادةِ، كَمَا أنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي الخلْقِ والإبداعِ، وأشهدُ أنَّ مُحمدًا عَبدُهُ ورسولُه الذِي أَرْسَلَهُ لِيُتَّبَعَ ويُطَاعَ، صَلَّى اللهُ عَليه وعَلى آلهِ وأَصْحَابه وسَائِرِ الأَتباعِ، وسَلّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ. اتَّقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الله قدْ أَكْمَلَ لَنَا الدِّينِ وأَمَرَنَا باتِّبَاعِهِ والتَّمَسُّكِ بهِ؛ قالَ تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. فَكُلُّ عملٍ لَيْسَ لَهُ أَصْلٌ فِي الشَّرْعِ ولَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ مِنَ السُّنَّةِ فهو من ابتداعِ المُضلين، وهو مِنَ السُّبُلِ المُتفرقةِ التِي تتفرقُ بِمَن اتَّبَعَهَا عَنْ سَبِيلِ اللهِ. قالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَليه أَمرُنا فهُو رَدٌّ»[١]. وفِي رِوَايَةٍ: «منْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُو رَدٌّ»[٢].

عِبادَ اللهِ: إنَّ البِدَعَ تَقْضِي عَلَى الدِّينِ الصَّحيحِ وتَحلُّ مَحلَّ السُّنَنِ، فَقدْ رَوى الإمَامُ أحمدُ بسندِه عنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مَا ابْتَدَعَ قَومٌ بِدْعَةً إلاَّ نَزَعَ اللهُ عَنْهُم مِنَ السُّنَّةِ مِثْلَهَا».

وفي البِدَعِ مَفَاسِدُ عَظِيمةٌ، منها: أنَّها تَحلُّ مَحلَّ السُّنَنِ كَمَا سَبقَ. فَكُلَّمَا جَاءَتْ بِدْعَةٌ تُرِكَتْ سُنةٌ وهكذَا حتى يُقْضَىٰ على الدِّينِ بالكُلِّيَّةِ. ولهذَا تَجدُونَ

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨) من حديث عائشة.
(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة أيضا.

أصْحَابَ البِدَعِ يَحْرِصُونَ عليهَا أكثرَ مِمَّا يَحْرِصُونَ على السُّنَنِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يُزَيِّنُهَا لَهُم.

ومِنهَا: أنَّ صَاحِبَ البِدْعَةِ يَرَى أنَّ الدِّينَ نَاقِصٌ فَهو يُرِيدُ أنْ يُكمِلَهُ بِبِدْعَتِهِ، وإلاَّ فَلَوْ كَانَ يَرى أنَّ الدِّينَ كامِلٌ لاسْتغْنىٰ بهِ عنِ البِدَعِ.

ومِنْهَا: أَنَّ أصحابَ البِدَعِ يَزْهَدُونَ فِي السُّنَنِ وتَفْتُر عَزَائِمُهُم عَنِ العَمَلِ بِهَا وينشطُونَ فِي البِدَعِ، فَلذَلِكَ نَجِدُهُم يُنفقونَ أموالَهم وَيَنصبُون أبدانَهم ويُضيعُونَ أوقاتَهم فِي إحياءِ البِدعِ.

ومْنها: أَنَّ البِدَعَ تُعِيدُ الجَاهليةَ إلى حَياةِ النَّاسِ فَتُورِثُ التَّفَرُّقَ والاختلافَ، وكلُّ فريقٍ يَرىٰ أنَّ مَا هُو عليه أحسنُ مِمَّا عليهِ الآخَرُ؛ كَمَا قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: ٥٣]، وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أَمَّا السُّنَنُ فَإِنَّهَا تُجَمِّعُ النَّاسَ وتُؤلفُ بَينَ قُلوبهم فيكونُون إخوةً مُتحابين على مَنهجٍ وَاحِدٍ وَدِينٍ وَاحِدٍ مُمْتَثِلينَ قَولَهُ تَعَالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ومن مَفَاسِدِ البِدَعِ أَنَّهَا تُورثُ الاستكبارَ عَنِ الحَقِّ، فَالمُبْتَدِعُ إِذَا دُعِي إلى الحَقِّ لاَ يَمْتَثِلُ، وَيَتَمَسَّكُ ببدعتِه وَيُدافِعُ عَنْهَا.

ومِنْ مَفَاسِدِ البِدَعِ: أَنَّهَا تُفسدُ الدِّينَ الصَّحِيحَ، وهذا مَا يُرِيدُه شَياطينُ الجنِّ والإنسِ مِنَ الكُفَّارِ والمُنافقين، فَأَعدَاءُ الدِّينِ يُحاولونَ إفسادَه بِشتَّى الوسائلِ، وأهمُّ سِلَاحٍ يَستخدمُونه في ذلكَ هو البِدَعُ والخُرافاتُ ليُشَوِّهُوا بِهَا الإسلامَ ويُغَطُّوا بِهَا وَجْهَ الدِّينِ الصَّحيحِ، حتَّى يَظُنَّ مَنْ لاَ يعرِفُ حَقيقةَ الإسلامِ أَنَّهُ مَجموعةٌ مِنَ الخُرَافاتِ والطُّقُوسِ الفَارِغَةِ فَيَنْصَرِفَ عَنهُ مَنْ يُرِيدُ الدُّخولَ فِيه.

أَضِفْ إِلَى ذلِكَ أَنَّ الذِينَ يُروجُونَ البدعَ يَجْنُونَ مِنْ وَرَائِهَا مَكَاسِبَ مَاديةً أَوْ يَتمكنونَ بِهَا مِنْ نَيلِ شَهواتِهِم المُحَرَّمَةِ، فَكَمْ يُنفَقُ فِي إِحْيَاءِ هذِه البِدَعِ مِنْ أَموَالٍ، وَكَمْ يُهْتَكُ فِيهَا مِنْ أعراضٍ بِسبَبِ الاختلاطِ بينَ الرجالِ والنساءِ بِلاَ وازعٍ ولاَ رَادعٍ.

هذَا ولوَسَائِلِ الإعْلاَمِ مِنْ صَحَافةٍ وإِذَاعاتٍ دَوْرٌ كَبِيرٌ فِي تَرْويجِ هذِه البِدَعِ وَبَثِّهَا فِي أرجاءِ المَعمورةِ، حيثُ يَنْقُلُونَ لَهَا صُورًا حَيَّةً إِلي مُخْتلفِ البِلادِ فَيَغْتَرّ بِهَا منْ يَسمعُ أو يقرأُ عَنْهَا وَيظنُّها مِنَ الدِّينِ. كَمَا أَنَّ لِعُلَمَاءِ السُّوءِ دَورًا أَكبرَ فِي إِحياءِ البِدَعِ وتَرويجِها وإِلباسِها لِبَاسَ الشَّرعيةِ، فَيَتعينُ علَى العُلماءِ والخُطباءِ أَنْ يُحَذِّرُوا النَّاسَ مِنها.

عِبادَ اللهِ: ومِنَ البِدَعِ المُحْدَثَةِ فِي الدِّينِ مَا يُفْعَلُ فِي هَذِه الأَيَّامِ القَرِيبةِ فِي لَيلةِ السَّابعِ والعِشرينَ مِنْ شَهْرِ رَجَب مِنَ الاحتفالِ بذِكْرَى الإسراءِ والمِعراجِ، وهُو كغيرِه مِنَ الاحتفالاتِ يَشتملُ على مُنكراتٍ فَظيعةٍ مِنْ شِرْكٍ وَبدَعٍ، وهذا الاحتفالُ مُحْدَثٌ فِي دِينِ الإسلامِ لَمْ يَفْعَلْهُ رَسولُ اللهِ ﷺ ولاَ صَحابتُه ولاَ القُرونُ المُفضَّلَةُ، وإِنَّمَا حَدَثَ فِي العُصُورِ المُتأخرةِ مِنْ جُمْلَةِ مَا حَدَثَ مِنَ البدعِ المُخالفةِ لِلهدي النَّبَويِّ، عَلَى نَمَطِ مَا يَفعلُه النَّصارى فِي دِينهم، مِصْدَاقًا لِقَوْلِ الرسولِ ﷺ: **«لتَتَّبِعُنَّ سننَ مَنْ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القذَّةِ بالقذَّةِ حتَّى لَو دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لدَخَلْتُمُوه»**[1]. ومِنَ العَجِيبِ أَنَّ كَثيرًا مِمَّنْ يُحيونَ بِدْعَةَ الاحتفالِ بِذِكْرَى الإسراءِ والمِعْراجِ يَهتمونَ بهذِه البدعةِ ولاَ يَهتمونَ بالصلواتِ الخمسِ التِي حَصلتْ فَرضيتُها ليلةَ المِعراجِ فَلا يُحافظونَ عَليها فِي أوقاتِها مَعَ الجَمَاعةِ، بَلْ يَتهاونونَ بِالصَّلاةِ أَو لاَ يُصَلُّونَ أَصْلاً؛ لأنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ لَهُمُ البدعةَ وَكَرَّهَ إِليهم

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري.

العِبادَةَ المَشروعةَ، بَلْ نَراهُم لاَ يَهتمونَ بِأمرِ دِينهم عَامَّةً؛ لأَنَّ الدِّينَ فِي عُرفِهم مَا أَحْدَثُوا مِنَ البِدَعِ والخُرَافَاتِ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَد كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُحَذِّرُ مِنَ البِدَعِ فَكانَ يَقُولُ فِي خُطَبِهِ: «وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلاَلةٌ»(١). وكَانَ صَحَابَةُ الرَّسولِ ﷺ يُحذرونَ مِنَ البِدَعِ غَايَةَ التَّحْذِيرِ. فَقَدْ بَلَغَ ابنَ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ عَمرو بنَ عُتبةَ فِي أصحابٍ لَهُ بَنوا مَسجدًا بظَهْرِ الكُوفةِ فَأَمَرَ عبدُ اللهِ بذلكَ المسجدِ فَهُدِمَ، ثُمَّ بَلَغَهُ أَنَّهُم يَجتمعونَ في نَاحيةٍ مِنْ مَسجدِ الكُوفةِ يُسَبِّحُونَ تَسبيحًا مَعلومًا وَيُهللونَ ويُكبرون، قَال: فَلَبسَ بُرْنُسًا ثُمَّ انْطَلَقَ فَجلسَ إِليهم فَلَمَّا عَرَفَ مَا يَقُولُونَ رَفَعَ البُرْنُسَ عنْ رَأْسِهِ ثُمَّ قَالَ: أَنَا أَبُو عبدِالرحمنِ، ثمَّ قالَ: لَقَدْ فَضلتُم أصحابَ مُحمدٍ ﷺ عِلْمًا، أوْ لَقَدْ جِئتُم ببدعةٍ ظُلمًا! قالَ: فَقالَ عَمْرو بنُ عُتبةَ: نَستغفرُ اللهَ. ثَلاَثَ مَراتٍ. ثُمَّ قَالَ رَجلٌ مِنْ بني تَميمٍ: واللهِ مَا فَضلنا أصحابَ مُحمدٍ عِلْمًا، ولاَ جِئْنَا بِبدِعةٍ ظُلْمًا، وَلَكِنَّا قَوْمٌ نَذْكُرُ رَبَّنَا. فقَالَ: بَلَى، والذِي نفْسُ ابن مسعودٍ بيَدِهِ لئِنْ أَخذتُم آثارَ القومِ لَقدْ سَبقتُم سَبْقًا بَعيدًا، ولَئِنْ حُدْتُمْ يَمينًا وشِمَالاً لَتضلنَّ ضَلالاً بَعيدًا(٢).

اللَّهُمَّ أَرِنَا الحقَّ حَقًّا وارزقْنا اتباعَه، وأَرِنَا الباطلَ بَاطلاً وَارزقْنَا اجتنابَه.

أَعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

* * *

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٦٣٠).

البِشَارَةُ بِقُدُومِ شَهْرِ رَمَضَانَ المُبَارَكِ

الحمد للهِ الذِي جَعلَ لِعبادِهِ مَواسِمَ يتقربونَ إليه فيها بأنواعِ الطَّاعَاتِ، فيغفرُ لَهم الذنوبَ ويرفعُ لَهم الدرجاتِ، وأشهدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ، حَكَمَ فَقدَّرَ، وشَرَعَ فَيَسَّرَ، ولاَ يَزالُ يُفيضُ على عِبَادِهِ مِنْ أَنواعِ البرِّ والبرَكاتِ. وأشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أولُ سابقٍ إلى الخَيراتِ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأَصحابِه الذِين كَانوا يُحافظونَ عَلى طَاعةِ رَبِّهم فِي جَميعِ الأوقاتِ، ويخصُّونَ أوقاتَ الفضائلِ بِمَزِيدٍ مِنَ القُرُبَاتِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللهَ تَعَالَى، واعلمُوا أَنَّه يَجبُ على المُسلمِ أَنْ يَعْبُدَ رَبَّهُ ويطيعَه فِي جَميعِ مدَّةِ حَيَاتِهِ؛ قالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩ ﴾ [الحجر: ٩٩] قالَ بعْضُ السَّلَفِ: ليسَ لِعَمَلِ المُسلمِ غَايةٌ دُونَ المَوتِ. وينبغِي لَهُ أَنْ يَخُصَّ مَوَاسِمَ الخَيرِ بمزيدِ اهتمامٍ واجتهادٍ. وقد جَعلَ اللهُ مَواسمَ للعبادةِ تُضَاعَفُ فِيهَا الحسناتُ أكثرَ مِنْ غَيرِها. وَمِنْ هذِه المواسِمِ شهرُ رَمَضانَ المُبارَكُ الذِي أُنْزِلَ فِيه القُرْآنُ هُدًى للنَّاسِ وبيناتٍ مِنَ الهُدَىٰ والفُرقانِ. فِيَا لَهُ مِنْ مَوسمٍ عَظيمِ الشأنِ، وقَدْ قَارَبَ حُلولُه عَليكُم ضَيفًا مُبارَكًا ووافِدًا كَريمًا، فَاستقبِلُوه بالغِبْطَةِ والسُّرُورِ، واشْكُرُوا اللهَ إِذَا بَلَّغَكُم إِيَّاهُ، واسْأَلُوه أَنْ يُعينكم عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ فِيهِ، واسْأَلُوه القَبولَ؛ فقَد كانَ النَّبيُّ ﷺ يَدْعُو اللهَ بِبلُوغِ رمضانَ، فَقَد رَوى الطَّبَرَانِيُّ وغيرُه عنَ أنسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَدعُو اللهَ بِبلُوغِ رَمَضانَ، فكانَ إِذا دَخلَ شهرُ رَجَب قَالَ: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي

رجبٍ وشَعْبَانَ وبَلِّغْنَا رمضان»[١] وكانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَدعونَ اللهَ أَنْ يُبلغَهم رمضانَ فَإِذَا بَلَّغَهُم إِيَّاهُ دعَوُا اللهَ أَنْ يتقبلَه مِنهم، وكَانَ ﷺ يُبَشِّرُ أصحابَه بِقُدُومِ هذَا الشَّهْرِ المُبَارَكِ؛ فقدْ رَوى ابنُ خُزيمةَ والبيهقيُّ وغيرُهما عنْ سَلمان رَضيَ اللهُ عنهُ، قالَ: خَطبنا رَسولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوم مِنْ شعبانَ فَقالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ قد أَظَلَّكُم شهرٌ عَظيمٌ مُبارَكٌ، شَهرٌ فِيه لَيلةُ القدْرِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعلَ اللهُ صِيامَه فريضةً وقيامَ لَيْلِهِ تَطوعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيهِ بِخصلةٍ مِنْ خِصَالِ الخَيرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ فَرِيضةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّىٰ فِيهِ فريضةً كانَ كَمَنْ أَدَّىٰ سَبعينَ فَرِيضةً فِيمَا سِوَاهُ، وهو شهرُ الصَّبْرِ، والصَّبرُ ثَوابهُ الجَنَّةُ، وشهرُ المُواسَاةِ، وشهرٌ يُزَادُ فِيه الرِّزْقُ، ومنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كَان مَغْفِرَةً لِذنُوبِهِ وعِتْقَ رَقَبَتِهِ مِنَ النَّارِ، وكانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَير أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجرِهِ شَيءٌ»، قَالُوا: يا رَسولَ اللهِ، ليسَ كُلُّنَا يَجدُ مَا يُفطِّرُ بهِ الصَّائِمَ. قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُعْطِي اللهُ هذا الثَّوَابَ لِمنْ فَطَّرَ صَائِمًا على مِذْقَةِ لَبَنٍ أَوْ تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ، ومَنْ سَقَى صَائِمًا سَقَاهُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِنْ حَوضِي شَرْبَةً لاَ يَظْمأُ بَعْدَهَا حتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ خَفَّفَ عَنْ مَملوكِه فِيه غَفرَ اللهُ لَهُ وأَعْتَقهُ مِنَ النَّارِ حتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ، وهو شهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وأَوْسَطُهُ مَغْفِرَةٌ، وآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، فَاستكثرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ؛ خصلتينِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُم، وخصلتين لاَ غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا: أَمَّا الخصلتانِ اللَّتانِ تُرضُونَ بهمَا رَبَّكُم: فشهَادةُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ، وتَستغفرونَه، وأَمَّا الخصلتانِ اللَّتَانِ لاَ غِنى بِكُمْ عَنْهُما: فَتَسأَلونَ اللهَ الجَنَّةَ، وتعوذونَ بِهِ مِنَ النَّارِ»[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٩٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩) والبيهقي في الشعب (٣٨١٥).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) والبيهقي (٣٦٠٨) وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب =

عِبَادَ اللهِ: لَقدْ بَينَ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي هذَا الحَدِيثِ الشَّرِيفِ فَضْلَ هذَا الشَّهرِ ومَا فِيهِ مِنَ الخيرَاتِ وحَثَّكُم على الاجتهادِ فِيه بالأعمالِ الصَّالِحةِ مِنْ فَرَائِضَ ونَوافِل، مِنْ صَلوَاتٍ وصدَقاتٍ، وبَذْلِ مَعرُوفٍ وإِحْسَانٍ، وصَبْرٍ على طاعةِ اللهِ، وعِمَارَةِ نَهَارِهِ بالصِّيَامِ ولَيْلِهِ بالقيامِ، واجتِهَادٍ في الدُّعاءِ والذِّكْرِ، وطَلَبٍ لليلةِ القَدْرِ التِي هي خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شهرٍ. فَلا تُضيعُوه بالغَفْلَةِ والإعراضِ كَحَالِ الأشقياءِ الذِينَ نَسُوا اللهَ فَأنسَاهم أنفسَهم، فَلاَ يَستفيدُونَ مِنْ مُرورِ مَواسِمِ الخَيْرِ عَليهم، ولاَ يَعرفونَ لَهَا حُرْمةً، ولاَ يَقدرونَ لَهَا قِيمَةً، فَيَا أَيُّهَا العَاصِي تُبْ إلى رَبِّكَ، وانْتَبِهْ لِنَفْسِكَ، واستقْبِلْ هذَا الشَّهرَ بالإقبالِ على اللهِ، فَإِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنوبَ جَمِيعًا، ودَاوِمْ على التَّوْبَةِ والاستقامَةِ في بَقِيَّةِ عُمْرِكَ، لَعلَّ اللهَ يَخْتِمُ لَكَ بالسَّعادَةِ، ولعلكَ تُكْتَبُ فِي هذا الشَّهرِ منْ جُمْلَةِ العُتَقَاءِ من النَّارِ؛ شهرُ رَمَضَانَ تفتَحُ فِيه أبوابُ الجِنَانِ، وتُغْلَقُ فيهِ أبوابُ النِّيرَانِ، ويُصَفَّدُ فِيهِ كلُّ شَيطَانٍ، وتَتنزَّلُ فِيه الخيراتُ مِنَ الرَّحمنِ، شهرٌ عظَّمهُ اللهُ فَعَظِّمُوهُ، وضَيْفٌ كَرِيمٌ سينزلُ بِكم فَأكْرِمُوهُ، واحْمَدُوا اللهَ على بُلُوغِهِ واشْكُرُوهُ.

عِبَادَ اللهِ: كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ لاَ يَعرفُون هذَا الشَّهرَ إلاَّ أنه شَهْرٌ لِتنويعِ المَآكِلِ والمَشَارِبِ، فَيُبَالِغُونَ فِي إعْطَاءِ نُفوسِهم مَا تَشْتَهِي ويُكْثِرُونَ منْ شِرَاءِ الكَمَالِيَّاتِ التِي لاَ دَاعِيَ لَهَا، ومَعْلُومٌ أَنَّ الإِكْثَارَ مِنَ الأكلِ يُكَسِّلُ عَنِ الطَّاعةِ، والمَطْلُوبُ مِنَ المُسلمِ فِي هذَا الشَّهْرِ أَنْ يُقَلِّلَ مِنَ الطَّعام حتَّى يَنْشَطَ لِلعِبَادَةِ. والبَعْضُ الآخرُ لاَ يَعْرِفُ شَهْرَ رَمضانَ إلاَّ أَنَّهُ شَهْرُ النَّوْمِ والبَطَالَةِ، فَتجدُه مُعْظَمَ نَهَارِهِ نَائِمًا فَيَنَامُ حتَّى عَنْ أَدَاءِ الصَّلاَةِ المَفْرُوضَةِ. والبعضُ الآخرُ مِنَ النَّاسِ لاَ يَعرفُ شَهرَ

= (٢/ ٥٧) لأبي الشيخ باختصار.

رَمضانَ إلاَّ أَنَّهُ وقتٌ لِلسَّهرِ فِي اللَّيْلِ عَلَى اللَّهْوِ واللعبِ والغفلةِ، فإِذَا فَرَغَ مِنْ سَهَرِهِ تَسَحَّرَ ونَامَ عَنْ صَلاَةِ الفَجْرِ، والبعضُ الآخرُ يَجْلِسُ على مَائِدَةِ إفطاره ويتركُ صَلاةَ المَغرِبِ مَعَ الجَمَاعَةِ. هَذَا مَا عليهِ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ اليومَ فِي شهْرِ رَمَضانَ، إِنَّهُم يُضَيِّعُونَ فِيهِ الوَاجِبَاتِ وَيرْتكِبُونَ فِيهِ المُحَرمَاتِ، ولاَ يَخْشَونَ اللهَ ولاَ يَخافونَه، فَمَا قِيمةُ رَمضانَ عِنْدَ هؤُلاءِ ومَاذَا يستفيدونَ منهُ؟! والبعضُ الآخَرُ مِنَ النَّاسِ لاَ يَعرفونَ شَهْرَ رَمَضانَ إلاَّ أَنَّهُ مَوسمٌ لِلتجارةِ وعَرْضِ السِّلَعِ، فَينشطونَ على البيعِ والشراءِ فِيهِ ويُلازِمُونَ الأَسواقَ ولاَ يَحضُرونَ المسَاجدَ إلاَّ قَليلاً مِنَ الوقتِ وعلى عَجَلٍ، فَصَارَ رَمَضَانُ عِندهم مَوسمًا لِلدُّنْيَا لاَ لِلآخِرَةِ، يُطْلَبُ فِيه العَرَضُ الفَانِي، ويُتْرَكُ النَّافِعُ البَاقِي. وصنْفٌ آخَرُ مِنَ النَّاسِ لاَ يعرِفُ شهرَ رَمَضانَ إلاَّ أَنَّهُ وَقْتٌ للتَّسَوُّلِ فِي المَسَاجِدِ والشَّوَارِعِ، فَيُمْضِي أَوْقاتَهُ بينَ ذَهابٍ وإِيَابٍ، ويُظْهِرُ نَفْسَهُ بِمَظْهَرِ الفَقْرِ والفاقةِ وهو كذَّابٌ مُخَادعٌ، أَوْ يُظْهِرُ نَفسَه بمظهرِ المُصَابِ بِالآفاتِ وهو سَليمٌ مُعَافًى، فَيَجْحَدُ نِعْمَةَ اللهِ، ويَأخذُ المَالَ بِغَيْرِ حَقٍّ، ويُضَيِّعُ وقتَه الغَالِي فِيمَا هُو مَضَرَّةٌ عليه.

هذا قَدرُ شهرِ رَمَضَانَ فِي عُرْفِ هذِه الأصنافِ مِنَ النَّاسِ، وهذا مِنْ أَعظمِ الحِرْمَانِ لَهم وأَشَدُّ المَصَائِبِ عَليهم؛ حَيْثُ ضَيَّعُوا الفُرْصَةَ على أنفسِهم، وأَعرضُوا عَنْ فَوَائِدِ هذا الشَّهْرِ، وصَرَفُوا أَوْقاتَه في غَيرِ مَا هُيِّئَتْ لَهُ.

عِبَادَ اللهِ: كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَجْتهدُ في هذا الشَّهرِ أكثرَ مِمَّا يجتهدُ فِي غيرِهِ، بَلْ كَانَ يتفرغُ فِيه مِنْ كَثيرٍ مِنَ المَشاغِلِ ويُقبلُ على عِبادةِ رَبِّهِ. وكانَ السَّلفُ الصَّالحُ يهتمونَ بِهذا الشهرِ غَايةَ الاهتمامِ، ويَتفرغونَ فِيه للتقربِ إلى اللهِ بالأعمالِ الصَّالحَةِ. كَانُوا يَجتهدونَ فِي قِيَامِ لَيْلِهِ وعِمَارَةِ أَوْقَاتِهِ بالطَّاعَةِ، قالَ الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: إِذَا دَخَلَ رَمضانُ إِنَّمَا هُو تِلاَوَةُ القُرْآنِ وإِطْعَامُ الطَّعَامِ. وكَانُوا

يَحْرِصُونَ على الجُلُوسِ فِي المسَاجِدِ ويقُولُونَ: نَحْفظُ صَوْمَنَا ولاَ نَغْتَابُ أحَدًا، وكَانُوا يَحْرِصُونَ عَلَى صَلاَةِ التَّرَاوِيحِ ولاَ يَنْصَرِفُونَ مِنْهَا حَتَّى يَنْصَرِفَ الإمامُ. وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ قامَ رَمَضانَ إيمَانا واحتسَاباً غُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[1] مُتفقٌ عَليه. وقَالَ ﷺ: «مَنْ قَامَ مَعَ الإمَامِ حتَّى يَنْصَرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيامُ لَيْلَةٍ»[2]. رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

فاتَّقُوا اللهَ أيُّهَا المُسلمونَ وَحَافِظُوا على شَهْرِكُم، وَأَكْثِرُوا فِيه مِنْ طَاعَةِ رَبِّكُم، لَعَلَّكُم تُكتبونَ فِيهِ مِنَ الفَائِزين.

أعوذُ باللهِ منَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٥، ١٨٦].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٨) ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٧٥) والترمذي (٨٠٦) والنسائي (١٣٦٤، ١٦٠٥) وابن ماجه (١٣٢٧) من حديث أبي ذر.

خصائص شهر رمضان المبارك

الحَمدُ للهِ، يَخلُقُ مَا يَشاءُ ويَختَارُ، وأَشهَدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ. وأَشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ النَّبيُّ المُختارُ ﷺ، وعلى آلِهِ وأَصْحابِهِ البَرَرةِ الأَطْهَارِ، صَلاَةً وسَلاَمًا دَائِمينِ مُتَعاقِبَيْنِ بِتَعَاقُبِ اللَّيْلِ والنَّهارِ.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ تعالَىٰ، واشْكُرُوهُ. إِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ بِعِلْمِهِ المُحيطِ بِكُلِّ شَيءٍ وبحكمتِهِ البَالِغَةِ يَخْتَارُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَخلوقاتِهِ فَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا علَى بَعْضٍ، يُفَضِّلُ بَعْضَ البَشَرِ وبَعْضَ الأمْكِنَةِ والأَزْمِنَةِ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْ ذلِكَ تَفضيلُه شَهْرَ رَمَضَانَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقدْ فَصَّلَ النَّبيُّ ﷺ خصَائِصَ هذا الشهرِ في الحديثِ الذي رواه ابنُ خُزيمةَ والبيهقيُّ عَنْ سَلْمَانَ الفَارسيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَطبنَا رَسولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعبانَ فقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ قَد أَظَلَّكُم شَهرٌ عظِيمٌ مُبَارَكٌ، شهرٌ فِيه لَيلةُ القدْرِ خَيرٌ منْ أَلْفِ شَهْرٍ، جَعلَ اللهُ صِيَامَهُ فَريضةً وقِيامَ لَيْلِهِ تطَوُّعًا، مَنْ تَقرَّبَ فِيهِ بخصلةٍ مِن خِصَالِ الخَيْرِ كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ فَريضةً فِيمَا سِوَاهُ، وَمَنْ أَدَّىٰ فِيه فَريضةً كَانَ كَمَنْ أَدَّى سَبعينَ فَريضةً فِيمَا سِوَاهُ، وهُو شَهْرُ الصَّبْرِ، والصَّبْرُ ثَوابُه الجَنَّةُ، وشَهْرُ المُواسَاةِ، وشَهْرٌ يُزَادُ فِيهِ الرِّزْقُ، وَمَنْ فَطَّرَ فِيهِ صَائِمًا كَانَ مَغفرةً لِذنوبِهِ وعِتْقَ رَقبتِه مِنَ النَّارِ، وكَانَ لَهُ مِثْلُ أجرِه مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيءٌ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، لَيْسَ كُلُّنَا يَجِدُ مَا يُفَطِّرُ بِهِ الصَّائِمَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُعْطِي اللهُ هذا الثَّوَابَ لِمَنْ فَطَّرَ صَائِمًا عَلَى مِذْقَةِ لَبَنٍ أَوْ تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ. وَمَنْ سَقَى صَائِمًا

سَقَاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا حَتَى يدْخُلَ الجَنَّةَ، ومَنْ خَفَّفَ عنْ مَمْلُوكِهِ فِيهِ غَفَرَ اللهُ لهُ وأَعْتَقَهُ مِنَ النَّارِ حَتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ. وهُو شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وأَوْسَطُهُ مَغفرةٌ، وآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ، فاسْتَكْثِرُوا فِيهِ مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ؛ خصلتينِ تُرْضُونَ بِهِمَا رَبَّكُم، وَخصلتينِ لاَ غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا: أَمَّا الخصلتانِ اللَّتَانِ تُرضُونَ بِهِمَا رَبَّكُم: فَشَهَادَةُ أَنْ لاَ إِله إِلاَّ اللهُ، وتَستغفرونَه، وأَمَّا الخصلتانِ اللَّتَانِ لاَ غِنَى بِكُمْ عَنْهُمَا: فَتَسْأَلُونَ اللهَ الجَنَّةَ، وتعوذونَ بِهِ مِنَ النَّارِ»[1].

أَيُّهَا المُسلمونَ: فِي هذا الحَديثِ الشَّريفِ بَيَانُ خَصَائِصِ هذَا الشَّهْرِ المُبَارَكِ فَقَدْ وَصَفَهُ النَّبيُّ ﷺ بِأَنَّهُ شَهرٌ عَظِيمٌ مُبارَكٌ، وهذَانِ الوَصْفَانِ يُضْفِيَانِ عَلَيْهِ مِيزَةً خَاصَّةً عَلَى غَيرِهِ مِنَ الشُّهُورِ، فَكُلُّ لَحْظَةٍ مِنْ هذَا الشَّهْرِ تَتَّصِفُ بالعَظَمَةِ والبَرَكَةِ، بَرَكَةٌ فِي الوقتِ وبركةٌ فِي العَمَلِ وبركةٌ فِي الجَزَاءِ، وأَخْبَرَ ﷺ أَنَّ فِيهِ لَيلةَ القدْرِ وهي خيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، فَمِنْ مَزَايَا هذَا الشَّهْرِ اشتمالُه على هذِه اللَّيْلَةِ العَظِيمةِ التي لاَ تُوجَدُ فِي غَيْرِهِ، تِلْكُمُ الليلةُ التِي وُصِفَتْ في القُرْآنِ بِأَوْصَافٍ عظِيمَةٍ، فَهِي اللَّيْلَةُ التِي أُنْزِلَ فِيهَا القُرْآنُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾ [القدر: ١]. وقَدْ صَحَّ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ جُمْلَةً وَاحِدةً إِلَى بَيْتِ العِزَّةِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيا وكَانَ ذَلِكَ فِي لَيْلَةِ القَدْرِ. وهِي خَيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ؛ أَي: العَمَلُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ العَمَلِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ. وَهِي لَيْلَةٌ مُبَارَكَةٌ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] وَهِي لَيْلَةٌ تتنَزَّلُ فِيهَا المَلائِكَةُ بِالخيرَاتِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

(١) أخرجه ابن خزيمة (١٨٨٧) والبيهقي (٣٦٠٨) وعزاه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٥٧) لأبي الشيخ باختصار.

فِيهَا﴾ [القدر: ٤] وهي لَيلةٌ سَلامٌ كُلُّهَا؛ كَمَا قَالَ تعالَىٰ: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝﴾ [القدر: ٥]. فهذِه اللَّيْلَةُ العَظِيمةُ بِخَيْرَاتِهَا وبَرَكَاتِهَا هِي مِنْ جُمْلَةِ خَصَائِصِ شَهْرِ رَمَضَانَ المُبَارَكِ.

ومِنْ خَصَائِصِهِ التِي بَيَّنَها ﷺ فِي هذَا الحَدِيثِ افتراضُ صِيامِ نَهَارِهِ واستحبابُ قِيامِ لَيْلَهِ، فَصِيامُ نَهَارِهِ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ، فَامْتَازَ على غَيْرِهِ بِاشْتِمَالِهِ عَلَى أَحَدِ أَرْكَانِ الإِسْلاَمِ، واشْتِمَالِ لَيْلِهِ عَلى صَلاَةِ التَّرَاوِيحِ التِي هِي مِنْ آكَدِ السُّنَنِ ولاَ تُشْرَعُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

ومِنَ الخَصَائِصِ التِي بَيَّنَها هذَا الحَدِيثُ لِهَذَا الشَّهْرِ المُبَارَكِ كَثْرَةُ مُضاعَفَةِ الحَسَنَاتِ فِيهِ، فَالسُّنَّةُ تَكُونُ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ الفَرَائِضِ فِي الأَجْرِ، والفَرِيضةُ الواحدةُ فِيه تُعَادِلُ فِي الأَجْرِ سَبعينَ فَرِيضةً فِي غَيْرِهِ، ولَمْ يَرِدْ مِثْلُ هذَا التَّضْعِيفِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ.

وَمِنْ خَصَائِصِهِ: أَنَّهُ شَهْرُ الصَّبرِ، أَيْ حَبْسُ النَّفسِ عَنْ شَهَواتِهَا بِالصِّيَامِ، وَتَحَمُّلُهَا مَشَقَّةَ الطَّاعةِ والبُعْدِ عَنْ مَأْلُوفِهَا. والصَّبْرُ مِنْ أَشَقِّ الطَّاعَاتِ عَلَى النُّفُوسِ، ولِهَذَا صَارَ ثَوَابُهُ الجَنَّةَ، وقالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝﴾ [الزمر: ١٠].

ومِنْ خَصَائِصِ هذا الشهرِ أَنَّهُ شهرُ الجُودِ: الجُودُ مِنَ البَارِي جَلَّ وعَلاَ عَلَى عِبَادِهِ بِالمغفرةِ والإعتاقِ مِنَ النَّارِ، والجُودُ مِنَ العِبَادِ بعضِهم بالمُواسَاةِ وإِطْعامِ الجَائِعِ وسَقْيِ الظَّمْآنِ وتَفْطِيرِ الصَّائِمِ والرِّفقِ بالمَمْلُوكِ.

ومِنْ خَصَائِصِهِ: أَنَّهُ شهْرُ التَّرَاحُمِ بَيْنَ العِبَادِ ونُزُولِ الرَّحْمَةِ عَليهم مِنَ الرَّحْمٰنِ؛ فَالغَنِيُّ يَرْحَمُ الفَقِيرَ، والقَوِيُّ يَرْحَمُ الضَّعِيفَ، والمَالِكُ يَرْحَمُ المَمْلُوكَ، و«الرَّاحِمُونَ يَرحمُهم الرَّحمنُ».

وَمنْ خَصَائِصِ هذَا الشَّهْرِ: تَنوعُ الخَيراتِ فِيه؛ فَأوله رَحمةٌ، وأَوسطُه مَغفرةٌ، وآخرُه عِتْقٌ مِنَ النَّارِ.

عِبَادَ اللهِ: جَدِيرٌ بِشهرٍ هذِه أوصافُه وخصائصُه أَنْ يُفرحَ بِقُدومِهِ، ولِهَذَا كَان النَّبيُّ ﷺ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُبَلِّغَهُ رَمَضانَ؛ فَكَان ﷺ إِذَا دخلَ شهرُ رَجَبٍ قالَ: «اللَّهُمَّ بارِكْ لَنَا فِي رَجب وشعْبَانَ، وبَلِّغْنا رَمَضَانَ»(١) وكانَ السَّلفُ الصَّالِحُ يَدْعُونَ اللهَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ أَنْ يُبلغَهم رَمَضَانَ، ثُمَّ يَدْعُونَهُ سِتَّةَ أَشهرٍ أَنْ يَتقبلَ مِنهم رَمضانَ، وذَلِكَ لِمَا يَعلمونَه فِيه منِ الخَيراتِ، ومَا يَعملونَه فِيه مِنَ الطَّاعَاتِ.

اللهم بلغنا رمضان، وأعنّا على الطاعةِ في رمضان، وتقبل منا رمضان.

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ . . .﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٣ـ١٨٥].

* * *

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٩٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩) والبيهقي في الشعب (٣٨١٥).

من فضائلِ شَهْرِ رَمضَانَ

الحمدُ للهِ الذِي خَصَّ شهرَ رمضانَ بالفضلِ والإحسانِ، وجعلَهُ موسمًا لنيلِ العفوِ والغفرانِ، أنزلَ فيهِ القرآن هُدًى للنَّاسِ وبينَاتٍ من الهُدَىٰ والفرقانِ، أحمدهُ على نعمهِ التِي لاَ تزالُ تتوالىٰ على العِبادِ في كُلِّ زمانٍ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحَدهُ لاَ شرِيكَ لَهُ، أوجَبَ على العبادِ صَومَ شهرِ رمضانَ، ليضاعفَ لهم الأجورَ ويغفرَ الذُّنُوبَ والعصيان، وأشهدُ أنْ محمدًا عبده ورسولُه، كان يَخُصُّ شهرَ رمضانَ بمزيدِ طاعاتٍ من صلاةٍ وتلاوةِ قرآنٍ وصدقةٍ وإحسانٍ، صلى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابهِ مَا تعاقبتِ الشهورُ وتوالت الأزمان، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ واسمَعُوا مَا وردَ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في بيانِ فضَائِلِ شهْرِ رَمضَانَ:

عنْ سلْمَانَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَعْبَانَ فَقَالَ: **«يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَد أَظَلكُم شَهْرٌ مُبارَكٌ، شهرٌ فِيه لَيلةُ القَدْرِ خَيرٌ منْ أَلْفِ شهرٍ، جعلَ اللهُ صيامَهُ فريضةً وقِيَامَ لَيْلِهِ تَطَوُّعًا، مَنْ تَقَرَّبَ فِيه بخصلةٍ مِنْ خِصَالِ الخَيْرِ كَانَ كَمنْ أَدَّىٰ فريضةً فِيمَا سِواهُ. ومَنْ أَدَّىٰ فِيهِ فَرِيضةً كَانَ كَمَنْ أَدَّىٰ سَبعينَ فَرِيضةً فِيمَا سِوَاهُ، وهُو شهرُ الصَّبْرِ والصَّبرُ ثَوابُه الجَنَّةُ، وشهرُ المُواسَاةِ، وشهرٌ يُزَادُ فِيه رِزْقُ المُؤمنِ، وَمَن فَطَّرَ فِيه صَائِمًا كَانَ مَغفرةً لِذنوبه وعتقَ رَقبتِه مِنَ النَّارِ، وكانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهِ شَيْئًا»**. قالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، ليسَ كُلُّنَا يَجدُ مَا يُفَطِّرُ الصَّائِمَ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يُعْطِي اللهُ هذا الثَّوَابَ**

لِمَنْ فَطَّرَ صَائِمًا على مِذْقَةِ لَبَنٍ أَوْ تَمْرَةٍ أَوْ شَرْبَةِ مَاءٍ. وَمَنْ سَقَى صَائِمًا سَقَاهُ اللهُ عزَّ وَجَلَّ مِنْ حَوْضِي شَرْبَةً لاَ يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا حتَّى يَدْخُلَ الجَنَّةَ، ومَن خَفَّفَ عَنْ مَملوكِه فيه غَفرَ اللهُ لَهُ وأعتَقه مِنَ النَّارِ حتَّى يَدخلَ الجَنَّةَ وهُو شَهْرٌ أَوَّلُهُ رَحْمَةٌ، وأَوْسَطُهُ مَغْفِرةٌ، وآخِرُهُ عِتْقٌ مِنَ النَّارِ. فَاسْتَكْثِرُوا فِيه مِنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ؛ خَصلتين تُرضونَ بِهمَا رَبَّكُم، وخصلتينِ لاَ غِنَى بِكُم عَنْهُمَا: أَمَّا الخصلتانِ اللتانِ تُرضونَ بِهمَا رَبَّكم فَشَهَادة أَنْ لاَ إله إلاَّ اللهُ وتَستغفرونَه، وأَمَّا اللَّتَانِ لاَ غِنى بكُم عنهُمَا فتَسألونَ اللهَ الجَنَّةَ وتعوذونَ بِه منَ النَّارِ»[1] رَواه ابنُ خُزيمةَ والبيهقيُّ وغيرُهما.

وعن أَبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَنْ رَسولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَظلكُم شَهرُكم هذَا، بِمحلوفِ رَسولِ اللهِ ﷺ مَا مَرَّ بالمُسلمينَ شَهْرٌ خَير لَهُم مِنْهُ، ولاَ مَرَّ بِالمُنافقين شَهرٌ شَرٌّ لَهُم مِنْهُ»[2].

أَيُّهَا المُسلمونَ، اشْكُرُوا اللهَ إِذ بَلَّغَكُم شهرَ رمضانَ، وسَلُوهُ الإعانةَ على فِعلِ الخيراتِ وتقديمِ الطَّاعاتِ، وأنْ يتقبلَ مِنكُم صِيامَكم وقِيامَكم، ويغفرَ لَكُم سَيئاتِكم. واعمُرُوا أوقَاتَه بالأعمالِ الصَّالِحَةِ؛ فإنَّهَا هِي التجارةُ الرَّابحةُ، فإنَّ رَبَّكُم قدْ أتاحَ لَكُم الفرصةَ وأعطاكُم المُهلَةَ ومَكَّنكُم مِنَ العملِ الذِي يَنفعُكُم، فَلاَ تُضيِّعُوا هذَا الشهرَ باللَّهْوِ والغَفْلَةِ والإقبالِ على طَلبِ الدُّنيَا.

فَإنَّ بعضَ النَّاسِ لاَ يعرفُ مَنْ شهرِ رمضانَ إلاَّ أَنَّهُ وقتٌ لِلتَّفَنُّنِ في المَأكُولاَتِ والمَشْرُوبَاتِ، فَيشغلونَ لَيلهُ بالأكلِ والشُّربِ والسَّهرِ على القِيلِ والقَالِ والمِزَاحِ والضَّحِكِ، ويُضيعُونَ نَهَارَهُ بالنَّومِ والكَسَلِ، فَلمْ يَزِدْهُم رَمضانُ

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٩٣٩) وأبو نعيم في الحلية (٦/٢٦٩) والبيهقي في الشعب (٣٨١٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٤٠٤).

إلاَّ رَغبةً في الأكْلِ وحِرْصًا على النَّومِ. وصِنفٌ آخَرُ مِنَ النَّاسِ يَنشغلونَ فِي رَمضانَ بالبيعِ والشِّرَاءِ وطَلَبِ الدُّنْيَا؛ لأنَّ حَرَكَة الأسواقِ تَزيدُ فِي رَمَضانَ فَينتهزونَه فُرصةً لِطَلَبِ الدُّنيا، لاَ نَطْلُبُ مِنْ هؤلاءِ أَنْ يُغْلِقُوا دَكَاكِينَهُم ويُعَطِّلُوا الأَسبابَ، ولَكِنْ نُريدُ مِنْهُم ألا يَصْرِفُوا كُلَّ الوَقْتِ لِطَلبِ الدُّنْيَا، وإِنَّمَا يَأخذونَ مِنْ ذَلِكَ بِقَدْرٍ لاَ يَطْغَىٰ عَلَى طَلَبِ الآخِرَةِ ويُفَوِّتُ مَواسِمَ العِبَادةِ؛ فقدْ كانَ السَّلَفُ يَتفرغونَ فِي رمضانَ حتَّى منْ طلبِ العِلْمِ، ويُقْبِلُونَ على الصَّلاةِ والتِّلاَوَةِ والذِّكْرِ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: حَافِظُوا على صِيامِكُم مِمَّا يُخلُّ بهِ أَوْ يُفسِدُهُ مِنَ الأَعمالِ السَّيِّئَةِ والأَقوالِ الآثِمَةِ، فَاحْفَظُوا أَسْمَاعَكُم عَنْ سَمَاعِ مَا حرَّمَ اللهُ مِنَ الأغَانِي وقَوْلِ الزُّورِ والغِيبَةِ والنَّميمَةِ، واحفَظُوا أَبْصارَكُم عنْ رُؤيةِ مَا حَرَّمَ اللهُ عَلَيكم مِنَ المَنَاظِرِ الفَاتِنَةِ، فَإِنَّ النَّظْرَةَ سَهْمٌ مَسمومٌ مِنْ سِهَامِ إبليسَ. واحفَظُوا أَلسنَتَكُم مِنْ قَولِ الزُّورِ وشهَادةِ الزُّورِ والغِيبةِ والنَّمِيمَةِ والشَّتْمِ والسِّبَابِ، فَإِنْ سَبَّكَ أَحدٌ فَلا تَرُدَّ عليهِ بالمثْلِ بَلْ قُلْ: إِنِّي صَائِمٌ. فَلَيْسَ الصِّيَامُ هُو الإمساكَ عَنِ الطَّعامِ والشَّرَابِ فقط، بَلْ هُو إِمْسَاكٌ كذلِكَ عَنْ كُلِّ مَا حرَّمَ اللهُ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: عَليكم بِتِلاَوةِ القُرْآنِ العَظِيمِ في هذا الشَّهرِ العَظِيمِ، اقْتداءً بِنَبِيِّكُم ﷺ، فقد كانَ يَلْقَاهُ جبريلُ فَيُدَارِسُهُ القُرآنَ في شهرِ رَمضَانَ، وكانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يُكثِرُونَ مِنْ تِلاَوةِ القُرآنِ في هذا الشَّهرِ، وأَخْبَارُهُم في ذلِكَ مَشْهُورَةٌ، ذَلِكم يَا عِبَادَ اللهِ لِمَا لِهذَا الشهرِ من خَاصِّيَّةٍ بالقُرآنِ على غَيرِهِ مِنَ الشُّهُورِ؛ قالَ تعَالَى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقَدْ صَحَّ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مَنْ

قرأ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ»[١] ولتَكُن تِلاَوَتُكُم لِلقُرْآنِ بِتَدَبُّرٍ وخُشُوعٍ وحُضورِ قَلْبٍ وترتيلٍ لآياتِه، وحَسِّنُوا أَصْوَاتكُم بالتلفظِ ﷺ بهِ مَا استطعتُم. اقْرَؤوهُ فِي المَسْجِدِ والبُيوتِ، وأَكْثِرُوا مِنْ تِلاَوَتِهِ وتَرْديدِهِ، فَإِنَّهُ لاَ يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ ولاَ تَفْنَى عَجَائِبُهُ. أَلْزِمُوا أَوْلاَدَكُم بِتِلاَوَتِهِ وتَفَقَّدُوهُم فِي ذلِكَ وشَجِّعُوهُم بالجوَائِزِ التِي تُشجعُهم عَلى تِلاوتهِ، ولاَ تَتْرُكُوهُم يَهِيمُونَ في الشَّوَارِعِ ويُضَيِّعُونَ الأَوْقَاتَ فِي اللَّعِبِ؛ فَإِنَّهُم يَشِبُّونَ على مَا عَوَّدْتُمُوهُم.

فَيَا أَيُّهَا المُسْلِمُ يَا مَنْ مَنَّ اللهُ عليكَ بِحفظِ كِتَابهِ العَظِيمِ اشْكُرْهُ على هذِه النِّعْمَةِ العَظِيمَةِ ودَاوِمْ على تِلاَوَتِهِ وتعَاهُدِهِ لاَ سِيَّمَا في هذَا الشَّهرِ المُبَارَكِ، تَلَذَّذْ بأَلْفَاظِهِ وتَفكَّرْ فِي مَعَانِيهِ فَلاَ أَحْلَى مِنْ كَلاَمِ اللهِ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: لاَزِمُوا صَلاَةَ التَّرَاوِيحِ ولاَ تُفرِّطُوا فِيهَا فَإِنَّ ثَوابَهَا عَظِيمٌ؛ رَوى الإِمَامُ أَحْمَدُ والتِّرمِذِيُّ وصَحَّحَهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ مَعَ الإِمَامِ حَتَّى يَنْصرِفَ كُتِبَ لَهُ قِيامُ لَيْلَةٍ»[٢]. وقَالَ ﷺ: «مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا واحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٣] مُتفقٌ عَلَيْهِ.

والتَّرَاوِيحُ سُنَّةٌ مؤكدةٌ وفِعْلُ الصَّحَابَةِ لَهَا مَشْهُورٌ، وتَلَقَّتْهَا الأُمَّةُ بالقبولِ خَلفًا بعْدَ سَلَفٍ. فَاحرِصُوا عَلَيْهَا ولاَ تتكَاسَلُوا عنهَا فَإِنَّكُم بِأَشَدِّ الحَاجَةِ إِلَيْهَا، لَعلَّ اللهَ يَكْتُبُكُمْ مَعَ الصَّائِمينَ القَائِمينَ.

أَيُّهَا المسلمونَ: استقبلُوا شهرَكم ـ بَارَكَ اللهُ لَكُم فِيهِ ـ بالتَّوْبَة والفَرحِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٧٥) والترمذي (٨٠٦) والنسائي (١٣٦٤، ١٦٠٥) وابن ماجه (١٣٢٧) من حديث أبي ذر.

(٣) أخرجه البخاري (٢٠٠٨) ومسلم (٧٥٩) من حديث أبي هريرة.

بِإِدْراكِهِ واجْتَهِدُوا في اسْتِغْلاَلِ أَوقاتِهِ الشَّرِيفةِ بمَا يَنفعُكم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. اجْعَلُوهُ مُنْطَلَقًا لَكُم مِنْ أَسْرِ الشَّهَواتِ والغَفلةِ إلى نُورِ الطَّاعَةِ والتَّقْوىٰ، لعَلَّهُ يَكُونُ مُنَبِّهًا لَكُم على تَفْرِيطِكُم فِيمَا مَضَى لِتَسْتَدْرِكُوا مَا تَبَقَّىٰ مِنْ أَعْمَارِكُم. فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكُم مِنْ أَعْمَارِكُم؛ إلاَّ مَا عَمَرْتُمُوهُ بالطَّاعَةِ، ومَا ضَيعتُموه فَإِنَّهُ يَكونُ حَسْرَةً عليكُم.

أَيُّهَا المُسلمونَ: هذَا شهرُ البَرَكاتِ، هذَا شهرُ الخَيرَاتِ، هذَا شهرُ الرَّحْمَةِ والمَغْفِرَةِ والعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ، هذَا شهرٌ كَرِيمٌ ومَوسِمٌ عظِيمٌ.

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجِيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٣ ـ ١٨٦].

* * *

فَوَائِدُ الصِّيَامِ وَآدَابُهُ

الحَمْدُ للهِ الذِي شَرَعَ لِعِبَادِهِ الصِّيَامَ، لِتَهْذِيبِ نُفوسِهم وتَطهيرِهم مِنَ الآثَامِ، أَحْمَدُهُ وهُو المُستحقُّ لِلْحَمْدِ، وأَشْكُرُهُ على نِعَمٍ تَزيدُ عنِ العَدِّ. وأَشهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شرِيكَ لهُ في عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي مُلْكِهِ، وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، أَتقَىٰ مَنْ صَلَّى وصامَ وحجَّ واعْتمرَ، وأَطاعَ ربَّهُ في السِّرِّ والجَهرِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصْحابهِ وَمَنْ سَارَ على نَهْجِهِ وتَمَسَّكَ بِسُنَّتِهِ إلى يَومِ الدِّينِ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ. اشْكُرُوا اللهَ أَنْ بَلَّغَكُم شَهرَ رَمَضَانَ وَمَكَّنَكُمْ مِنَ الصِّيامِ والقِيَامِ؛ فَإِنَّ الصِّيَامَ مِنْ أَنْفعِ العِبَادَاتِ وأَعْظَمِهَا آثَارًا فِي تَطْهِيرِ النُّفُوسِ وتَهْذِيبِ الأَخْلاقِ. فمِنْ فَوائِدِهِ أَنَّهُ يُسبِّبُ تَقوى اللهِ تعَالى؛ قالَ تَعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فَالصِّيامُ يُدْخِلُ العبدَ في حظيرةِ التَّقوى التي هي فعلُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ وتَركُ مَا نَهَى عنهُ، فَيَقِي بذلِكَ نَفْسَهُ مِنَ النَّارِ ومِنْ جَميعِ المَخَاوفِ. وَمِنْ فَوَائدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُكْسِبُ العبدَ الخيرَ الكَثِيرَ في الدُّنْيَا والآخرَةِ؛ قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

ومِنْ فَوَائدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُعَوِّدُ الإِنْسَانَ الصَّبْرَ والتَحمُّلَ والجَلَدَ؛ لأنَّه يَحْمِلُ الإنسانَ علَى تَرْكِ مَألوفِه وشَهَواتِهِ عَنْ طَوَاعِيَةٍ واختِيَارٍ.

ومِنْ فَوائِدهِ أَنَّهُ يُمَكِّنُ الإِنسانَ مِنَ الانتِصَارِ على نفْسِهِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ مَيَّالَةٌ إلى الشَّهَواتِ، فَإِذا أَعْطَاهَا الإِنسانُ مَا تَشْتَهِي دَائِمًا تَغَلَّبَتْ عليه ورُبَّمَا انْحَرفَتْ بِهِ إِلى

مَا لاَ تُحْمَدُ عُقْبَاهُ، قَالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ﴾ [يوسف: ٥٣]. فَالصَّائِمُ يَمْلِكُ زِمَامَ نَفْسِهِ ويَنْتَصِرُ عَلَيْهَا.

ومِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُضْعِفُ مَجَارِيَ الشَّيطَانِ في البَدَنِ؛ لأَنَّهُ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ، فَالعَبْدُ إِذَا أَتَاحَ لِنَفْسِهِ مَا تَطْلُبُهُ مِنَ الشَّهواتِ فَإِنَّ ذلِكَ مِمَّا يُسَاعِدُ الشَّيطانَ على التَّمَكُّنِ مِنْهُ وإِضْلاَلِهِ وحَمْلِهِ على الأَشَرِ والبَطَرِ وغَيرِ ذلِكَ مِنَ الخِصَالِ الذَّمِيمَةِ، والصِّيَامُ يَسُدُّ هذَا البَابَ مِنْ أَسَاسِهِ ويَطْرُدُ الشَّيْطَانَ.

ومِنْ فَوائِدِ الصِّيَامِ: أَنَّهُ يُذَكِّرُ العَبْدَ بِنِعْمَةِ اللهِ عليْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا ذَاقَ مَسَّ الجَوعِ والعَطَشِ، عَرَفَ قَدْرَ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهِ، حيْثُ يَسّرَ لَهُ الطَّعامَ والشَّرَابَ فِي أَوْقَاتِ الحَاجَةِ إِليْهِ فَيَشْكُرُ اللهَ على ذلكَ، ويعْرِفُ حَاجَتَهُ إِلى رَبِّهِ.

ومِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يَحْمِلُ عَلَى الإِحْسَانِ إِلَى الفُقَرَاءِ والمُحْتاجِينَ؛ فَإِنَّ الصَّائِمَ إِذَا جَاعَ تذَكَّرَ الجَائِعِينَ، وإِذَا عَطشَ تَذَكَّرَ العطَاشَىٰ؛ فَيَحْمِلُهُ ذلكَ عَلى البَذْلِ والصَّدَقَةِ والإِحْسانِ إِلى المُحْتَاجِينَ.

ومِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يَقْمَعُ الكِبْرَ والتَّرَفُّعَ على النَّاسِ؛ فَإِنَّهُ إِذَا صَامَ الغَنِيُّ والفَقيرُ والمَلِكُ والصُّعْلُوكُ والشَّرِيفُ وَالوَضِيعُ، فَإِنَّ العَبْدَ يَتَذَكَّرُ أَنَّهُ لاَ فَضْلَ لأَحَدٍ عَلَى أَحَدٍ إِلاَّ بِالتَّقْوَىٰ، وأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُم عِبَادُ اللهِ، تَجْرِي عَلَيْهِم أَحْكَامُهُ على حَدٍّ سَوَاءٍ.

ومِنْ فَوائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ سَبَبٌ لاجْتِمَاعِ كَلِمَةِ المُسلمينَ وارْتِبَاطِ بَعْضِهِم بِبَعْضٍ؛ فَإِنَّهُم يَصُومُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيُفْطِرُونَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ؛ فَكَانَ ذلِكَ مِمَّا يُسَبِّبُ ائْتِلاَفَهِمْ ويُزِيلُ أَسْبَابَ الفُرْقَةِ والنُّفْرَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ.

ومِنْ فَوَائِدِ الصِّيَامِ أَنَّهُ يُسَهِّلُ فِعْلَ الطَّاعاتِ، فَمَنْ يُلاَحِظُ حَالَ الصَّائِمِينَ فِي رَمَضَان وَمَا هُمْ عَلَيهِ مِنْ تَحَرِّي الطَّاعَةِ وتَحَرِّي سَبيل الخَيْرَاتِ وابْتِعَادِهِم عَنِ

المَعَاصِي وَرَغْبَتِهِمْ فِي الإِحْسَانِ، يُدْرِكُ أَنَّ الصَّوْمَ مِنْ أَعظَمِ أَسبَابِ الهِدَايَةِ، ويُدْرِكُ مَعْنى قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤] وقَوْلِهِ ﷺ: «الصَّوْمُ جُنَّةٌ»[1] أَيْ: وِقَايَةٌ مِنَ المَحْذُورِ.

ومِنْ فَوائِدِ الصِّيَام أَنَّهُ يُسبِّبُ صِحَّةَ البَدَنِ بِخُلُوِّ المَعِدَةِ مِنْ أَخْلَاطِ الطَّعامِ المُضِرَّةِ، فَفِيهِ صِحَّةٌ لِلْقَلْبِ مِنَ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ وَصِحَّةٌ لِلْبَدَنِ مِنَ الأَمراضِ المُؤْذِيَةِ، إلى غَيرِ ذلِكَ مِنَ الفَوائدِ التِي لاَ تُحْصَىٰ.

عِبَادَ اللهِ: واعْلَمُوا أَنَّ لِلصَّومِ آدَابًا تَجِبُ مُرَاعَاتُها؛ فَالصَّائِمُ هُو الذِي صَامَتْ جَوارِحُهُ عن الآثامِ ولسانُهُ عنِ الكَذِبِ والفُحْشِ وقَوْلِ الزُّورِ، وبَطْنُهُ عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وفرْجُهُ عَنِ الرَّفَثِ، فإنْ تكلَّمَ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمَا يَجْرَحُ صَوْمَهُ، وإنْ فَعلَ لَمْ يَفْعلْ مَا يُفْسِدُ صَوْمَهُ؛ فَيَخْرُجُ كَلامُهُ نافِعًا صَالِحًا، وكذلِكَ أَعْمَالُهُ؛ فَهو بِمَنْزِلَةِ الرَّائِحَةِ التِي يَشَمُّهَا مَنْ جَالسَ حَامِلِ المِسْكِ، كذلِكَ مَنْ جَالسَ الصَّائِمَ انْتَفَعَ بِمُجَالَسَتِهِ وأَمِنَ فِيهَا مِنَ الزُّورِ والكذِبِ والفُجُورِ والظُّلمِ، هذا هُو الصَّومُ المَشْرُوعُ لاَ مُجَرَّدُ الإمْسَاكِ عَنِ الطَّعامِ والشَّرَابِ.

ومِنْ آدابِ الصِّيَامِ ألاَّ يُكْثِرَ مِنَ الطَّعامِ في اللَّيْلِ بَلْ يأكُلُ بِمِقْدَارٍ، فَإِنَّهُ مَا مَلأَ ابنُ آدَمَ وعاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، ومَتَى شَبِعَ أَوَّلَ اللَّيلِ لَمْ يَنْتَفِعْ بِنَفْسِهِ فِي بَاقِيه، وكذلك إِذَا شَبِعَ وقتَ السَّحَرِ لَمْ يَنتفع بِنفسهِ في غالِبِ النَّهارِ؛ لأَنَّ كَثْرَةَ الأَكْلِ تُورثُ الكَسَلَ والفُتُورَ، ثُمَّ إِنَّهُ يُفَوِّتُ المَقْصودَ مِنَ الصِّيَام بِكَثْرَةِ الأَكْلِ؛ لأَنَّ المُرَادَ مِنَ الصِّيَامِ أَنْ يَذُوقَ طَعْمَ الجوعِ وَيَكُونَ تَارِكًا لِلْمُشْتَهَىٰ.

ومِنْ آدَابِ الصِّيَامِ تَأْخِيرُ السحُورِ بِحَيثُ يَبْدَأُ الصِّيَامَ عِنْدَ طُلُوعِ الفَجْرِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٩٢) ومسلم (١١٥١) من حديث أبي هريرة.

الثَّانِي؛ قالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]. ومِنْ آدَابِ الصِّيَامِ تَعْجِيلُ الإفْطَارِ إِذَا تَحقَّقَ غُرُوبُ الشَّمْسِ إِمَّا بِمُشَاهَدَةٍ أَوْ سمَاعِ أَذَانِ المَغْرِبِ. وبعضُ النَّاسِ يُخِلُّونَ بذلِكَ بِحَيْثُ يَسْهَرُونَ مُعْظَمَ اللَّيْلِ ثُم يَتَسَحَّرُونَ ويَنَامُونَ قَبْلَ الفَجْرِ بِسَاعَةٍ أَوْ أَكْثَرَ، وهؤُلاءِ قَدِ ارْتَكَبُوا عِدَّةَ أَخْطَاءٍ:

أَولاً: أَنَّهُم صَامُوا قَبْلَ وَقْتِ الصِّيَامِ.

ثانِيًا: رُبَّمَا تَرَكُوا صَلاَةَ الفَجْرِ مَعَ الجَمَاعَةِ فَعَصَوُا اللهَ بِتَرْكِ مَا أَوْجَبَ عَلَيْهِم مِنْ صَلاَةِ الجَمَاعَةِ.

ثالِثًا: رُبَّمَا يُخْرِجُونَ صَلاَةَ الفَجْرِ عَنْ وَقْتِهَا لاَ يُصَلُّونَهَا إلاَّ بَعْدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وهذَا خطَرٌ عَظِيمٌ؛ قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝ ﴾ [الماعون: ٤، ٥]. وقالَ تعالىٰ: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ ﴾ [مريم: ٥٩]. وَالسَّهْوُ والإضَاعَةُ المَذْكُورَانِ في الآيَتَيْنِ هُمَا إِخْراجُ الصَّلاَةِ عَنْ وَقْتِهَا.

فَاتَّقُوا اللهَ يَا عِبَادَ اللهِ. وَلاَ تَبْنُوا دِينَكُم مِنْ جَانِبٍ وتَهْدِمُوهُ مِنْ جَانِبٍ آخر، فإنَّ الإسْلاَمَ يَنْبَنِي على خَمْسَةِ أَرْكانٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ وأَنَّ محمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وإِقَامِ الصَّلاَةِ وإيتاءِ الزَّكَاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ، فَأَقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تتفرَّقُوا فِيهِ.

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرَّجيمِ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٣، ١٨٤].

العَشْرُ الأَوَاخِرُ

الحمدُ للهِ الذِي أَتاحَ لِعبادِهِ أَوقاتَ الفضَائِلِ ومواسِمَ العِبادةِ، لِيَتَزَوَّدُوا فيها مِنَ الأَعمالِ الصَّالِحَةِ وَيَتُوبُوا إِلى رَبِّهم مِنَ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ، ولِيُضَاعِفَ لَهُم فِيهَا الأُجُورَ، ويُعَرِّضهُمْ فِيهَا لِنَفَحَاتِ جُودِهِ، ويُنَزِّلَ عليهم فيها مِنْ رَحْمتِهِ وإحسانِهِ، أَحمَدُهُ على نِعَمِهِ وأَشْكُرُهُ على جَزيلِ إِحْسَانِهِ، وأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ اللهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، شَرَعَ فَيَسَّرَ، ورَحِمَ وغفَرَ، وأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ ورَسُولُهُ، كَانَ يَغْتَنِمُ مواسِمَ الفَضَائِلِ ويَحُثُّ على اغْتِنَامِهَا ويُحَذِّرُ مِنْ إِضَاعَتِهَا؛ نُصْحًا لِلأُمَّةِ وحِرْصًا على جلْبِ الخيرِ لها ودفعِ الشَّرِّ عنهَا، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ الذينَ تَمَسَّكُوا بِهَدْيِهِ وسَارُوا على سُنَّتِهِ، وسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا المسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ واعلمُوا أَنَّكُم تسْتقبلُونَ عَشْرًا مُبَارَكَةً هي العَشْرُ الأَوَاخِرِ مِنْ شهرِ رمضَانَ المُعَظَّمِ، إِنَّهَا العَشْرُ التي اختَصَّهَا اللهُ بِالفَضَائِلِ والأُجُورِ الكَثِيرَةِ والخَيْرَاتِ الوَفِيرَةِ.

فَمِنْ خَصَائِصِ هذِه العَشْرِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يجْتَهِدُ فِي العَمَلِ فِيهَا أَكْثَرَ مِنْ غَيرِهَا؛ فَفِي صَحِيحِ مُسْلمٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عنْهَا: أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يجتهدُ في العشرِ الأَواخِرِ مَا لاَ يجتهدُ في غيرهِ[1]. وفي الصَّحيحين عنهَا قالتْ: كانَ النَّبيُّ ﷺ إذَا دخَلَ العَشْرُ شَدَّ مِئْزَرَهُ وَأَحْيَا لَيْلَهُ وأَيْقَظَ أَهْلَهُ[2]. وهذَا شامِلٌ للاجْتِهَادِ في هذِهِ العَشْرِ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ مِنْ صَلاَةٍ وقِرَاءَةِ قُرْآنٍ، وذِكْرِ اللهِ بالتَّسْبِيحِ

---

(١) صحيح مسلم (١١٧٥).

(٢) صحيح البخاري (٢٠٢٤) وصحيح مسلم (١١٧٤).

والتَّهْلِيلِ والاسْتِغْفَارِ والصَّدَقَةِ وغَيْرِ ذلِكَ. وفِي هذَينِ الحَدِيثَيْنِ ومَا جَاءَ بِمَعْنَاهُمَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَتفَرَّغُ لِلْعِبَادَةِ في هذِه العَشْرِ. فَيَنْبَغِي لَكَ أَيُّهَا المُسْلِمُ أَنْ تَتفَرَّغَ فِيهَا مِنْ أَعمَالِ الدُّنْيَا أَوْ تُخَفِّفَ مِنْهَا، وتَشْتَغِلَ بالعِبَادَةِ اقْتِدَاءً بِنَبيكَ وطَلَبًا للأَجْرِ وغُفْرَانِ الذُّنُوبِ.

وَمِنْ خَصَائِصِ هذِهِ العَشْرِ المُبَارَكَةِ الاجْتِهَادُ فِي اللَّيْلِ وتَطْويلُ الصَّلاَةِ بِتَطْويلِ القِيَامِ فِيهَا والرُّكُوعِ والسُّجُودِ. وإِيقَاظُ الأَهْلِ والأَوْلاَدِ لِيُشَارِكُوا المُسلمينَ في إِظْهَارِ هذِه الشَّعِيرَةِ ويَشْتَرِكُوا فِي الأَجْرِ والثَّوَابِ، ويَتربَّوا على العِبَادَةِ وتَعظيمِ هذِه المُنَاسباتِ الدِّينيةِ. وهذَا أَمْرٌ يَغفُلُ عنهُ الكثيرُ مِنَ النَّاسِ فَيتركُونَ أولادَهم يلعبُون فِي الشَّوارعِ ويَسْهَرُونَ لِمُزَاوَلَةِ أمورٍ تَضُرُّهُم فِي دِينِهم وَدُنياهُم. وَإِنَّه لَمِنَ الحِرْمَانِ العَظِيمِ والخَسَارَةِ الفَادِحَةِ أَنْ تَرَى كَثِيرًا مِنَ المُسلمينَ تَمُرُّ بِهِم هذِه اللَّيَالِي العَظِيمةُ وهُم وأَهلُوهم وأَولادُهم فِي غَفلةٍ مُعرضونَ، فَيُمضُونَ هذِه الأوقاتَ الثَّمِينَةَ فِيمَا لاَ يَنفعُهم؛ يَسْهَرونَ مُعْظَمَ اللَّيلِ فِي اللَّهو البَاطِلِ، فَإذَا جَاءَ القِيَامُ والتَّهجدُ نَامُوا وفَوتُوا عَلَى أنفسِهم خيرًا كَثيرًا لَعلَّهم لاَ يُدرِكُونَه بَعْدَ عَامِهم هذَا، وحَمَّلُوا أنفسَهم وأهلَهم وأَولادَهم أَوزَارًا ثَقيلةً لَمْ يُفكروا في سُوءِ عَاقبتِها. إِنَّ هذَا مِنْ تَلاَعُبِ الشَّيطانِ بِهم وَصَدِّهِ إِيَّاهُم عَنْ سَبِيلِ اللهِ. قَدْ يَقُولُ قَائِلٌ: إِنَّ هذَا القِيَامَ نَافِلةٌ وأَنَا يَكفِينِي المُحافظةُ عَلى الفَرائضِ. والجَوابُ عَنْ ذلِكَ أَنْ نَقولَ: إِنَّ المُحافظةَ على الفَرائضِ فيه خَيرٌ كَثيرٌ ولاَ نُسْأَلُ إلاَّ عَنْهَا، ولَكِنْ مَا الذِي يُدْرِيكَ أَنَّكَ أَدَّيْتَ الفَرَائِضَ بالوفَاءِ والتَّمَامِ، فَأنتَ بِحاجةٍ إِلَى النَّوافِلِ لِيُكمَّلَ بِها نَقْصُ الفَرائضِ يومَ القِيامَةِ؛ رَوى التِّرمذِيُّ وغَيرُه: «قالَ الرَّبُّ سُبحانَه: انْظروا هَل لِعبدي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيكملَ بِهَا مَا انتقصَ مِنَ

الفَرِيضةِ، ثمَّ يَكونُ سَائِر عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»[1] واللهُ سُبحانَه فَرَضَ الفَرَائِضَ وعَلِمَ مِنْ عبادِهِ أَنَّهُم سَيُقَصِّرُونَ فِي إتْمَامِهَا وإكمَالِهَا فَشَرَعَ لَهُمُ النَّوَافِلَ لِجَبْرِ هذَا التَّقْصِيرِ رَحْمَةً بِهِم، وشَرَعَ نَوافلَ مِنْ جِنْسِ الوَاجِبَاتِ فجعلَ مِنَ الصَّلاَةِ ما هو واجبٌ وما هو تَطَوُّعٌ، وجعلَ مِنَ الصَّدقات ما هو وَاجبٌ ومَا هُو تَطوعٌ، وجعلَ مِنَ الصِّيَامِ مَا هُو واجِبٌ ومَا هُو تَطوعٌ، وَمِنَ الحَجِّ مَا هوُ وَاجِبٌ وَمَا هُو تَطوعٌ. ولاَ تكادُ تَجِدُ وَاجِبًا إلاَّ وَبجانِبه تَطوعٌ مِنْ جِنْسِهِ. ثُمَّ لَو فَرَضْنَا أَنَّكَ وَفَّيْتَ الفَرائضَ حَقَّهَا؛ فَأنتَ مَأمورٌ بالاقتداءِ بِنبيكَ ﷺ فَقَدْ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ عَلى الدَّوَامِ ولاَ سِيَّمَا فِي هذِه العَشْرِ، وقد قالت عائشةُ أُمُّ المُؤمنينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لِرَجُلٍ: لاَ تَدعْ قِيَامَ اللَّيلِ فَإنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لاَ يدعُه وكانَ إِذَا مَرِضَ، أو قالت كَسلَ، صَلَّى قَاعِدًا. وفِي رِوايةٍ عَنْهَا قَالتْ: بَلغني عَنْ قَومٍ يَقولون: إنْ أَدَّيْنَا الفَرائضَ لَمْ نُبَالِ أَلاَّ نزْدَادَ، وَلعَمْرِي لاَ يَسألُهم اللهُ إلاَّ عَمَّا افترضَ عَليهم، وَلكنَّهم قَومٌ يُخطئونَ بالليلِ والنَّهارِ، ومَا أَنتم إلاَّ مِنْ نَبيِّكُم وَمَا نَبيكُم إلا مِنكم، واللهِ مَا تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قِيامَ اللَّيلِ. تُشيرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا إِلَى أَنَّهُ يَنبغِي للمسلمِ الاقتداءُ بِنبيه فَلاَ يَدَعُ قِيامَ اللَّيْلِ.

أَيُّهَا المُسلمونَ: ومِنْ خصَائِصِ هذِه العَشْرِ أَنَّهَا يُرْجَى فِيها مُصَادَفَةُ لَيلةِ القدْرِ التِي قَال اللهُ فِيهَا: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣]. قالَ النَّخَعِيُّ: العملُ فيهَا خيرٌ مِنَ العَمَلِ في أَلْفِ شَهْرٍ سِواهَا. وأَلْفُ شهرٍ يَا عِبَادَ اللهِ ثَلاثةٌ وثمانونَ عَامًا وأَربعةُ أَشْهُرٍ. فالعملُ في هذِه اللَّيلةِ لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ خيرٌ منَ العملِ فِي ثَلاَثةٍ وثمانِينَ عامًا وأربعةِ أَشهُرٍ. وفِي الصَّحيحينِ عَنْ أَبِي هُريرةَ

---

(١) سنن الترمذي (٤١٣) من حديث أبي هريرة.

رَضِي اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ قَامَ لَيلةَ القدْرِ إيمَانًا واحتسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تقدَّمَ مِنْ ذَنبه»[1] وقَولُه: «إيمَانًا واحتسَابًا» يَعني إيمَانًا باللهِ وبِمَا أَعَدَّ فِيهَا مِنَ الثَّوَابِ للقَائِمينَ فِيها، واحتسَابًا للأجرِ وطَلَبِ الثَّوَابِ.

وهذِه اللَّيلةُ فِي العشرِ الأواخرِ مِنْ رمضانَ، لِقولِ النَّبيِّ ﷺ فِي الحديثِ المتفقِ عَليه: «تَحرَّوا لَيلةَ القدرِ فِي العَشْرِ الأواخِرِ مِنْ رمضَانَ»[2]. ولنْ تَظْفَرَ بهذِه الليلةِ إلاَّ إذَا قُمْتَ لَيالي العَشْرِ كُلَّهَا. فَقَدْ أَخْفَى اللهُ سُبحانه عِلْمَهَا عَلَىٰ العِبَادِ رَحمةً بِهم لِيكثرَ عَملُهم فِي طَلبِها فِي تِلكَ اللَّيالِي الفَاضلةِ بالصَّلاةِ والذِّكْرِ والدُّعاءِ، فَيزدادُوا تَقربًا إلى اللهِ تَعَالَى وثَوَابًا، وأَخْفَاهَا أيضًا اخْتِبَارًا لِلعبادِ لِيتبينَ بذلكَ مَنْ كانَ جَادًّا فِي طَلبها حَريصًا عليها مِمَّنْ كَانَ كَسْلاَنَ مُتهاونًا؛ فإنَّ مَنْ حَرَصَ على شَيءٍ جَدَّ في طَلَبِه. أرأيتُم لو أُعْلِنَ عَنْ مُساهمَةٍ فِي شَركةٍ يُؤَمَّلُ فيها النَّاسُ حُصولَ الرِّبْحِ أَليسُوا يزدحمُون على المُساهمةِ فِيهَا ويتحملونَ التَّعبَ وبَذْلَ الأَموالِ فِي سَبيلِ ذلك؟ وَمَنْ فَاتَتْهُ الفُرصةُ مِنهم ندمَ ندامَةً شَديدةً. فَما بَالهم يُعرضونَ عنِ المُساهمةِ في الجَنَّةِ لَدَى أَرحمِ الرَّاحمينَ الذِي يَرْبَحُ العَامِلُونَ عِنْدَهُ أَضْعَافًا مُضاعفةً بِغيرِ حِسَابٍ؟ إنَّهُ الحِرْمَانُ والخذْلاَنُ ولاَ حَولَ ولاَ قُوةَ إلاَّ باللهِ؛ قَالَ تَعَالىٰ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

أَيُّهَا المُسلمونَ: ومنْ خصَائِصِ هذه العَشْرِ المُباركةِ مَشروعيةُ الاعتكافِ فيهَا، وهُو اللُّبثُ والبقاءُ في المساجدِ مُدَّةَ هذِه الأيامِ المُباركةِ للتفرغِ لطاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهُو مِنَ السُّنَنِ الثَّابتَةِ بكتابِ اللهِ وسُنة رَسوله ﷺ فقد اعْتكَفَ النَّبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٥٨٣) وأبو داود (١٣٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١) ومسلم (٧٦٠).

واعتكفَ أصحابُه مَعه وبعدَه. والاعتكافُ: انقطاعٌ عَنِ النَّاسِ وتفرغٌ لِطاعةِ اللهِ في مَسجدٍ مِنْ مَساجدِه طَلبًا لِفَضْلِهِ وثَوابِهِ وطَلبًا لِلَيْلَةِ القَدْرِ، ويَشتغلُ المُعتكِفُ بالذِّكْرِ والقراءةِ والصَّلاةِ والعِبادةَ ولا يخرجُ مِنَ المَسجدِ إلاَّ لمَا لاَ بُدَّ مِنْهُ، لِيخلوَ برَبِّهِ وَيتزودَ لِنَفْسِهِ مِنَ الأَعمالِ الصالحةِ في هذا الموسمِ العَظِيمِ. فَينبغِي لِمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنْ إحْيَاءِ هذِهِ السُّنَّةِ أن يُبادرَ إليهَا لِمَا فيها مِنَ الأجرِ العظيمِ وتدريبِ النفسِ على الطَّاعةِ، إنَّ إحياء هذه السنة التي تُرِكَتْ فِي هذَا الزَّمَانِ أولَى مِنَ العُمرةِ؛ فَإِنَّ النَّبيَّ ﷺ لَمْ يَعتمرْ في هذَا الشَّهْرِ بَينمَا كَانَ يعتكفُ إلى أَنْ لَقِيَ رَبَّهُ. وتَرى النَّاسَ يَتَسابقُونَ إلى العُمرةِ ويَحرصُونَ عَليها وهذا شَيءٌ طيِّبٌ ولَكِنَّ الاعتكافَ آكدُ.

ومَنْ لم يَتمكن مِنَ الاعتكافِ فَلْيُحَافظْ على بَقِيَّةِ الطَّاعاتِ الوَاجِبَةِ والمَسنونةِ مِنَ التَّبْكِيرِ إِلَى المَسَاجدِ والجُلُوسِ فيها لِتلاوةِ القُرْآنِ والذِّكْرِ والعِبَادَةِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

أعوذُ باللهِ من الشَّيطانِ الرجيمِ، بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر: ١ ـ ٥].

* * *

خِتامُ الشَّهرِ

الحمدُ للهِ المُتوحدِ بالعزِّ والبقاءِ، الذِي قَضَى بِالفَنَاءِ والزَّوَالِ عَلَى أَهْلِ هذِه الدَّارِ، لِيَدُلَّنَا بذَلِكَ عَلَى أَنَّ لِكُلِّ نَازِلٍ رَحِيلاً وانتقالاً، وأشهدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، أَهَلَّ علينَا شهرَ رَمضانَ لِيفيضَ فِيه الإحسان عَلى خَلْقِهِ وَيغفرَ لَهم الذنوبَ ويُضَاعِفَ لَهم الأعمالَ الصَّالِحَةَ، ثُمَّ حَكَمَ بانقضائِه وانتقالِه، فَمِنْ رَابِحٍ فِيهِ صَارَ شَاهِدًا لَهُ عِندَ اللهِ بالخيرِ، وشَافِعًا لَديه في تَخليصِه مِنَ العذَابِ وتَمكينِه مِنْ نَيْلِ الثَّوَابِ، ومِنْ خَاسِرٍ فِيه قَد ضَيَّعَ أَوقاتَهُ الشَّرِيفَةَ ومَواسمَه العَظيمةَ باللَّهو والغفلةِ والتفريطِ، فَصَارت حَياتُه عليه وبَالاً، وصَارَ شَهرُ رَمَضانَ شَاهدًا عليه عندَ اللهِ بالتفريطِ والإضَاعةِ، وخَصْمًا لَهُ يُقِيمُ الحُجةَ عَليه عندَ أحكمِ الحَاكِمينَ بِمَا ضَيَّعَ مِنْ حُقوقِه وانتهكَ مِنْ حُرمتِه، وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورَسولُه، حَثَّ عَلَى اغتنامِ الأوقاتِ قَبْلَ الفَوَاتِ، وأمرَ بالاستغفارِ مِنَ التَّقْصِيرِ والهَفَوَاتِ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، وسَلم تَسليمًا كَثيرًا.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا الناسُ: اتقوا الله، **أَيُّهَا** المُسلمونَ هذَا شهرُ رَمضانَ قَدْ قَرُبَ رَحيلُه عنكُم فَمَنْ كانَ مِنكم مُحسنًا فِيه فَليحمدِ الله على ذلكَ وَلْيُبْشِرْ بِعَظِيمِ الثَّوَابِ مِنَ المَلِكِ الوَهَّابِ. ومَنْ كَانَ مُسيئًا فِيه فَلْيَتُبْ إِلى اللهِ تَوبةً نَصوحًا؛ فَإِنَّ اللهَ يَتوبُ عَلَى مَنْ تَابَ، ولْيُحْسِنِ الخِتَامَ؛ فَإِنَّ الأعمالَ بالخَواتيمِ.

أَيُّهَا المُسلمُ يَا مَنْ بَنَيْتَ حَياتَكَ على الاستقامةِ فِي هذَا الشَّهْرِ المُبارَكِ، دُمْ علَى ذلِكَ فِي بَقيةِ حَياتِك، ولاَ تَهدم مَا بَنَيْتَ بِعَوْدِكَ إلى المَعَاصِي فَتكونَ ﴿ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل: ٩٢] يَا مَنْ أَعْتَقَهُ مَولاَهُ مِن

النَّارِ، إِيَّاكَ أَنْ تَعودَ إِلَيها بفِعْلِ المَعَاصِي والأوزارِ، يَا مَن اعْتَادَ حُضورَ المساجدِ و عِمَارةَ بيوتِ اللهِ بالطاعةِ وأداء صَلاةِ الجُمُعَة والجَماعةِ، وَاصِلْ هذِه الخُطوةَ المُباركةَ، ولاَ تُقْلِلْ صِلَتَكَ بالمسَاجِدِ فَتُشارِكَ المُنافقين الذِين لا ﴿ يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ﴾ [التوبة: ٥٤] ولاَ تَهْجُرِ المساجد وتَنقطع عَنها نِهائيًّا فَيختمَ اللهُ على قَلبك؛ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ على أَعوادِ مِنبرِه: «لَيَنْتَهِيَنَّ أقوامٌ عَن وَدْعِهِمُ الجُمُعاتِ أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلينَ»[1]. رَوَاهُ الإمَامُ مُسْلِم.

يَا مَنْ تَعودْتَ تِلاَوةَ القُرْآنِ فِي هذَا الشَّهْرِ دَاوِمْ على تِلاوتِه، ولا تَقطعْ صِلَتَكَ بِهِ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ المَتينُ، وهُو رُوحٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ وهُدًى ونورٌ وشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ. هُو شَفيعُك عِنْدَ رَبِّكَ وحُجَّتُكَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلاَ تُعْرِضْ عَنْهُ بعدَ رمضانَ فإِنَّهُ لاَ غِنى لكَ عنهُ بحَالٍ مِنَ الأحوالِ.

يَا مَنِ اعْتَدتَّ قِيامَ الليلِ استمرَّ فِي هذِه المَسيرةِ الطَّيبةِ فاجعلْ لكَ حَظًّا مُستمرًّا مِنْ قِيامِ اللَّيلِ ولو كانَ قَليلاً تَرْفَعُ فيه حَوائجَك إِلَى رَبِّكَ وتكونُ مِمَّنْ قالَ اللهُ تعَالىٰ فِيهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة: ١٦] وتكونُ معَ المُستغفرينَ بالأسحارِ.

يَا مَنِ اعْتَدتَّ الصِّيَامَ فِي رمضانَ امْضِ فِي هذِه العَادَةِ الحَميدةِ فإِنَّ الصِّيَامَ لاَ يَزَالُ مَشروعًا فِي العامِ كُلِّهِ وهُناكَ أيامٌ مِنَ السَّنةِ حَثَّ النَّبيُّ ﷺ عَلَى صِيامَها، مِنْهَا صِيامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ مِنْ شَوَّالٍ؛ قالَ ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمضانَ ثُمَّ أَتْبَعهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصيَامِ الدَّهْرِ»[2] رواهُ مُسلِمٌ. فَصُمْ هذِه السِّتَّ فِي أَوَّلِ شَوَّالٍ أَوْ فِي وَسَطِه أَوْ في

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٥) من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمر.
(٢) صحيح مسلم (١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري.

آخِرِه، صُمْهَا مُتابعةً أَوْ مُتفرقةً في الشَّهرِ، ولاَ تَتْرُكْهَا فَتُحْرَمَ هذا الثَّوَابَ العظِيمَ. ومِنْهَا صِيامُ ثَلاَثةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شهْرٍ. ومنْهَا صَومُ يَوْمِ عَرفَةَ. ومنْهَا صِيَامُ يومِ عَاشُوراءَ ويوْمٍ قَبْلَهُ أَوْ بعْدَهُ. ومِنْهَا صِيَامُ يَومِ الإثنينِ والخَميسِ . ومنها صِيامُ عَشْرِ ذي الحِجَّةِ. ومِنْهَا صِيَامُ شهْرِ اللهِ المُحَرَّمِ. كُلُّ هذِهِ أيامٌ يُستَحَبُّ صِيَامُهَا وَمَنْ أَرَادَ الزِّيَادَةَ فَلْيَصُم يَوْمًا ويُفْطِر يَوْمًا كَمَا أَرْشَدَ إِلى ذلكَ النَّبيُّ ﷺ.

يَا مَنْ تَعوَّدتَّ في هذا الشَّهرِ المُبَارَكِ بَذْلَ الصَّدَقَاتِ والإحسانِ وَاصِلْ مَسيرتَك الخَيِّرَةَ في بَقيةِ السَّنَةِ فَتصَدَّقْ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِى ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ۝٨٨﴾ [يوسف: ٨٨] وتَحَرَّ في صَدَقَتِكَ المَحَاوِيجَ المُتَعَفِّفِينَ عَنِ السُّؤالِ.

وهَكَذَا أَيُّهَا المُسلمون، إن انْقَضَى شَهْرُ رَمضانَ فإنَّ عَمَلَ المُؤمِنِ لاَ يَنقضِي قَبْلَ المَوتِ، قَالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، وقالَ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَن رَبِّهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ۝٣١﴾ [مريم: ٣١]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أَيُّهَا المُسلمونَ: لقد شَرَعَ اللهُ لكم في خِتَامِ هذا الشَّهرِ المُبَارَكِ عِبادَاتٍ تَزيدُكُمْ مِنَ اللهِ قُرْبًا، فَشَرعَ لكُم صدقةَ الفِطرِ وهِي فَريضةٌ فَرَضها رَسولُ اللهِ ﷺ علَى الكَبيرِ والصغيرِ والذَّكَرِ والأنثىٰ والحُرِّ والعبدِ، وهِي زَكَاةُ البدَنِ، وطُهْرَةٌ للصائمِ مِنَ اللَّغوِ والإثمِ، وهِي شُكرٌ للهِ على إتمامِ الصِّيامِ والأعمالِ الصَّالحةِ في هذا الشهرِ، وهي إحسانٌ إلى الفُقراءِ. وَيُخْرِجُهَا عَنِ الحَمْلِ الذي فِي البَطْنِ، لَكِنْ يُخرجُها عَنْهُ مِنْ بَابِ الاسْتِحْبَابِ، ويُخرجُها في البَلَدِ الذي وَافَاهُ تمَامُ الشَّهرِ وهُو فِيهِ. وإنْ كَانَ مَنْ يَلْزَمُهُ أَنْ يُفْطِرَ عنهم في بلَدٍ وهو في بلَدٍ آخرَ فَإنَّهُ يُخرجُ فطرتَهم معَ فطرتِهِ في البَلَدِ الذي هو فِيهِ. ويَجُوزُ أَنْ يُفوضَهم في إخراجِها

عَنْهُ وعَنهم في بَلدِهم. وَمَنْ لَزِمَ غَيْرَهُ فِطرتُه فَأخرجَها عنْ نَفْسِهِ فَلاَ بَأسَ. ووقتُ إخراجِها يَبدأُ بِغُروبِ الشَّمسِ لَيلةَ العِيدِ ويَستمرُّ إِلَى صَلاَة العِيدِ. ويَجوزُ تَعجيلُها قَبل يومِ العِيدِ بيومٍ أَوْ يَومينِ؛ أَيْ في اليومِ الثَّامِنِ والعِشرينَ أَو التَّاسِعِ والعِشرينَ، وقَبْلَ ذَلِكَ لاَ يَجوزُ، وتَأْخِيرُ إخراجِها إلى صَبَاحِ العِيدِ قَبْلَ الصَّلاَةِ أَفْضَلُ، وإنْ أخَّرَ إخراجَها عَنْ صَلاَةِ العِيدِ مِنْ غَيرِ عُذْرٍ أَثِمَ، ويلزمُهُ إخراجُها ولَو تَأخرتْ عنْ يومِ العِيدِ، ويكونُ ذلكَ قَضَاءً.

فَتبينَ بذلكَ أَنَّهُ لاَ بُدَّ مِنْ إِخْراجِ زكاةِ الفِطْرِ في حقِّ المُستطيعِ، وأنَّ وقتَ الإخراجِ يَنْقَسِمُ إلى وقتِ جَوازٍ وهُو مَا قَبْلَ العِيدِ بيومٍ أَو يومينِ، ووقتِ فَضيلةٍ وهُو مَا بينَ غُروبِ الشَّمسِ لَيلةَ العِيدِ إلى صَلاة العِيدِ، ووقتُ إجْزاءٍ مع الإثْمِ وهو ما بعدَ صَلاةِ العِيدِ إلى آخرِ اليومِ، ووقتُ قَضاءٍ وهو مَا بعدَ يوم العيدِ.

والمُستحقُّ لِزكاةِ الفِطْرِ هُو المُستحقُّ لِزكَاةِ المَالِ، فَيدفعُها إليه أو إلى وكيلِه في وقتِ الإخراجِ، فإنْ لم يجدْ مَنْ يُريدُ دَفعَها إليه ولاَ وجَدَ وَكيلَهُ في الوقتِ المُحددِ للإخراجِ دَفعَهَا إلى غَيرِه مِنَ المُستحقِّينَ، ولا يُودِعُهَا عِنْدَ آخَر وهُو غيرُ وكيلٍ للمُستحقِّ، كَمَا يَفعلُ بعضُ الجُهَّالِ.

ومِقْدَارُ صَدقةِ الفطرِ عن الشَّخصِ الواحدِ صَاعٌ مِنَ البُرِّ أَوْ مِنَ الشَّعيرِ أو مِنَ التَّمْرِ أو مِنَ الزَّبيبِ أو مِنَ الأقطِ. ويُخرجُ مِن هذه الأصنافِ مَا كَانَ مُعتادًا أكلُه فِي البلدِ، وكذلكَ يُخرجُ مِنْ غَيرهَا مِمَّا يَغْلِبُ استعمالُه فِي البَلدِ كالأَرزِّ والذُّرةِ والدخنِ وغيرِها، فالعبرةُ بالطعامِ الذِي يَغْلِبُ استعمالُه فِي البلدِ فَيخرجُ مِنْهُ. ولاَ يُجزئُ دَفْعُ القِيمةِ بِأَنْ يُخرجَ الدَّرَاهِمَ عَنْ زَكَاةِ الفِطْرِ؛ لأَنَّ ذلك يُخالفُ مَا أَمَرَ بِهِ ﷺ ويُخالفُ عَمَلَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عَنهم، فَلم يَكُنْ إخراجُ القِيمةِ مَعروفًا فِي عَصرِ النَّبيِّ ﷺ ولاَ عَصْرِ صَحابتِهِ، مَعَ أَنَّ الدَّرَاهِمَ كَانت مَوجودَةً عِندَهم، وقدْ

قالَ ﷺ: «عليكُم بسُنتي وسُنة الخُلفاءِ الرَّاشدينَ المَهديينَ مِن بعدي»[١]، وقالَ ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَملاً لَيس عَليه أَمرُنا فَهو رَدٌّ»[٢]. أَيْ مَردودٌ عَليهِ. فَإخراجُ القِيمةِ بدلَ زكاةِ الفِطرِ تغييرٌ لِمَا سَنَّهُ رسولُ اللهِ ﷺ وكَفى بذلك إثمًا مُبينًا، فاحذرُوا ذلكَ ولاَ تَلتفتُوا لِمَنْ يَفعلهُ أَوْ يُفتِي بِهِ، فَكُلٌّ يُؤخذُ من قَولِهِ مَا وَافَقَ الدَّلِيل وَيُتْرَكُ مِنْهُ مَا خَالَفَهُ؛ لأنَّهُ يُخطيءُ ويُصيبُ، إلاَّ رَسولَ اللهِ ﷺ فَإنَّهُ مَعصومٌ مِنَ الخَطَأ، واللهُ تعالَى يَقُولُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [النساء: ٥٩].

أَيُّهَا المُسلمونَ: وَمِمَّا شَرَعَهُ اللهُ لَكم في خِتَامِ هذَا الشَّهرِ التَّكْبيرُ عِنْدَ إكْمالِ العِدَّةِ مِنْ غُروبِ الشَّمْسِ لَيلةَ العِيدِ إلى صَلاَةِ العِيدِ. وَصِفَةُ التَّكبيرِ أَنْ يَقُولَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لاَ إله إلاَّ اللهُ واللهُ أَكبرُ وللهِ الحَمْدُ. ويُسَنُّ جَهْرُ الرِّجَالِ بهِ في المَسَاجدِ والأسواقِ والبيوتِ إعلانًا لتعظيمِ اللهِ وشُكرِهِ، والنساءُ يُكَبِّرْنَ سِرًّا لأنهنَّ مَأموراتٌ بالتسترِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وشرَعَ اللهُ لَكم في خِتَامِ الشَّهرِ صَلاَةَ العِيدِ، وهِي مِنْ تَمَامِ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وإنَّما كَانَ يومُ الفِطرِ مِنْ رَمَضَانَ عِيدًا لِجميعِ الأمةِ لأنَّه يُعتَقُ فِيه أهلُ الكَبائِرِ مِنَ الصَّائمينَ مِنَ النَّارِ، فَيلحقُ فِيه المُذنبونَ بالأبرارِ، كَمَا أَنَّ يَومَ النَّحْرِ هُو العيدُ الأكبرُ لأنَّ قَبلَه يومَ عرفةَ وهو اليومُ الذِي لاَ يُرى يومٌ مِنْ أَيامِ الدُّنيا أَكْثَر عُتقاءَ مِنَ النَّارِ مِنْهُ. فَمَنْ أُعْتِقَ مِن النَّارِ فِي اليَومَيْنِ فَلَهُ يَومُ عِيدٍ، وَمَنْ فَاتَهُ العِتقُ فِي اليَومينِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٢) من حديث العرباض بن سارية.

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة أيضا.

فَلَه يومُ وَعِيدٍ.

أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥] الآية.

الخُطبةُ الثَّانيةُ:

الحَمدُ للهِ الذي بِنعمتِه تَتمُّ الصَّالِحَاتُ، وأشهدُ أَنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ في الرُّبوبيةِ والإلهيةِ والأسماءِ والصِّفاتِ، وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عَبدُه ورسولُه الذِي بَيَّنَ لأُمَّتِهِ طَريقَ النَّجاةِ، وَحَذَّرَ مِنْ طَرِيقِ الغَيِّ والهَلَكَاتِ، صَلَّى اللهُ عليه وعَلى آلِه وأَصحابِه وأَتباعِه إلى يومِ الدِّينِ.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اشْكُروا اللهَ علَى استكمالِ شَهْرِ رَمضانَ بالصيامِ والقيامِ، واسْأَلُوهُ القَبُولَ والعفوَ عَنِ التَّقْصِيرِ، ووَاصِلُوا بقِيَّةَ دَهْرِكُم بالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فَإِنَّ رَبَّ الشُّهُورِ واحِدٌ، والجزاءَ عَلَى الأعمالِ وَاقعٌ في جَميعها، فَلا تَكُونُوا كَالذِينَ يُمْسِكُونَ عَنِ المَعَاصِي فِي رَمَضانَ فَإِذَا انْسَلَخَ عَادُوا إِلى الإثمِ والعِصْيَانِ، وأَتبعُوا رَمَضانَ بِقبِيحِ الأَفْعالِ وذَمِيمِ الخِصَالِ، فَيَكُونُونَ كالذِينَ بَدَّلُوا نِعَمَةَ اللهِ كُفرًا ونكثوا مَا عَاهدوا اللهَ عليه في رَمضانَ مِن التَّوبةِ، وهَدَمُوا مَا بَنوا فِيه مِنَ الأعمالِ الصَّالِحَةِ. وإنَّ أُنَاسًا يَحصلُ مِنهم بَعْدَ رَمضانَ إسرافٌ فِي الشَّهواتِ، وإقبالٌ على استعمالِ المَلاَهِي واستماعِ المُغنيينَ والمُغنياتِ ـ فَكأَنَّهم بِهذَا يُعلنونَ تَضايقَهم مِن رمضانَ وفرحَهم بانقضائهِ حتَّى كَأَنه عَدُوٌّ انتصرُوا عَليه. وَمَا هَكَذَا يَنبغِي أَنْ تكونَ حَالةُ المُسلمِ بعدَ فَراغِ العِبادةِ. إنَّ المَشروعَ لِلمسلمِ بعدَ الفَراغِ مِنَ العِبادةِ أَنْ يَستغفرَ اللهَ. فالاستغفارُ خِتامُ الأعمالِ الصَّالحةِ كُلِّها؛ فَتُختَمُ بِهِ الصَّلاةُ والحجُّ وقِيامُ اللَّيلِ وتُختمُ بِهِ المَجالسُ، فكذلكَ يَنبغِي أنْ يُختمَ صِيامُ رَمضانَ بالاستغفارِ، واللهُ تعالىٰ يَقُولُ:

﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥].

وإنَّهُ لاَ مانِعَ مِنْ تَناولِ الطَّيباتِ، وفِعلِ المُباحَاتِ، وإظهارِ الفَرَحِ والسُّرورِ بالعيدِ، بلْ ذلكَ مُستحبٌّ مَعَ المُحافظَةِ عَلى فِعْلِ مَا أوجبَ اللهُ وتَرْكِ مَا حرَّمَ اللهُ، وعدَمِ الإسرافِ والخُيلاءِ، ومَعَ الاستغفارِ والتوبةِ وسُؤالِ اللهِ أَنْ يَتقبلَ مِنَّا صَالحَ الأعمالِ، فَقَدْ كَانَ الصَّحابةُ مَعَ جَلالةِ مَا يُؤدونَ مِنْ صَالحِ الأَعمالِ يَخافونَ أَنْ تُرَدَّ عَليهم كَمَا ذَكَرَ اللهُ عنهم بِقَولِه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠] وأَخبارُهم فِي ذلكَ مَشهورةٌ.

إنَّ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ تَضِيعُ أَوقاتُهم بعدَ العِيدِ بالسهراتِ والرقصاتِ الشَّعبيةِ واللَّهوِ واللَّعبِ، ورُبَّمَا تَركُوا أَداءَ الصَّلواتِ في أَوقاتِها أَو مع الجماعةِ. فكَأَنَّهم يُريدُونَ بذلِكَ أَنْ يَمْحُوا أَثرَ رَمضانَ مِنْ نُفوسِهم إنْ كَانَ لَهُ فِيهَا أَثرٌ، ويُجَدِّدُوا عَهْدهُم مع الشَّيطانِ الذِي قَلَّ تَعاملُهم مَعَهُ في شهْرِ رَمَضَانَ. إنَّ أولئكَ حَريونَ ألا يُقبلَ مِنهمْ رَمضانُ؛ لأنَّ مِنْ شُروطِ صِحَّةِ التَّوبةِ العزمَ على عدَمِ العَودةِ إلى الذَّنْبِ بَعْدَها. وهَؤلاءِ تَركُوا الذُّنوبَ تَركًا مُؤقتًا ثُمَّ عَادُوا إليها، وهذَا لاَ يُعتبرُ تَوبةً؛ لأَنَّهم إنَّمَا تَركُوها لِعَارضٍ، ثُمَّ عَادُوا إليهَا بعدَ زَوالِهِ. فاتَّقُوا اللهَ عِبَادَ اللهِ. إنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كِتَابُ اللهِ... إلخ.

* * *

حَالَةُ النَّاس بَعْدَ شَهرِ رَمَضَانَ

الحمدُ للهِ مُصَرِّفِ الشُّهورِ، ومُقَدِّرِ المَقدورِ، يُولجُ الليلَ فِي النَّهَارِ ويُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيلِ وهُو عَليمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ، جَعَلَ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابًا، ولِكُلِّ عَملٍ حسَابًا، وجَعلَ الدُّنيا مَزرعةً للآخرةِ، وسُوقًا يتزودُ مِنْهُ العِبَادُ، فَيَا سَعادةَ مَنْ أَحْسَنَ الزَّادَ، ويَا شَقَاوةَ مَنْ ضَيَّعَ نفْسَهُ وَنَسِيَ يومَ المعاد، أحمدُ رَبِّي على نِعَمِهِ الظَّاهرةِ والبَاطنةِ، وأشهدُ أنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ، لَهُ الخَلْقُ والأمرُ، وإليه المَصيرُ يومَ الحَشْرِ. وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه، كُلُّ حَياتِه جِهَادٌ وعملٌ، فَمَا زالَ يعبدُ رَبَّهُ حتَّى حضَره الأجلُ. صلى الله عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذِين كُلُّ دَهرِهم رمضانُ، فَمَا كانَ دُخولُه يَزيدُ مِن اجتهادِهم، ومَا كان خُروجُه ينقصُ مِنهُ، وسلَّم تَسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهِ ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ﴾ [البقرة: ١٩٧].

عِبادَ اللهِ، كُنتم في شهرِ الخَيرِ والبركَةِ، تَصومُونَ نَهارَه وتَقومُونَ مِنْ لَيْلِهِ وتَتقربونَ إِلى رَبّكم بأَنواعِ القُرُباتِ، طَمَعًا في ثَوابهِ وخَوفًا مِن عِقَابه، ثُمَّ انْتَهَتْ تلكَ الأيامُ وقَطعتُم بِهَا مَرحلةً مِنْ حَيَاتِكُم لَنْ تَعودَ إِليكُم، وإِنَّمَا يَبْقى لَكُم مَا أَوْدَعْتُمُوهُ فِيهَا مِنْ خيرٍ أَوْ شَرٍّ، وهكذَا كُلُّ أَيام العُمرِ مَرَاحلُ تَقطعونَها يَوْمًا بعدَ يَومٍ فِي طَريقِكم إِلَى الدَّارِ الآخَرةِ، فَهِي تَنْقُصُ مِنْ أَعمارِكم، وتُقربُكم مِنْ آجالِكم، ويُحْفَظُ عَليكُم مَا عَمِلتُموه فِيهَا لِتُجَازَوْا عليه فِي الدَّارِ البَاقيةَ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠].

حَلَّ عليكُم شهرُ رَمَضانَ لِترجعُوا إلى رَبِّكُم بالتوبةِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وتَتَربَّوا على فِعلِ الطَّاعاتِ وتركِ المُحرماتِ وتَتلقوا دُورسَ الصَّبرِ، وتَنْتَصِرُوا على النُّفُوسِ الأَمَّارةِ بالسوءِ. فَمَا تَنقضِي أيامُ هذَا الشَّهْرِ المُبارَكِ إلاَّ وقد أَلفتُمُ الطَّاعةَ، وكَرِهْتُمُ المَعصيةَ، وتَرَبَّيْتُمْ على الأَخلاَقِ الفاضِلَةِ؛ فَتَيَقَّظْتُمْ بعدَ غَفْلَةٍ، وحَضرْتُم بعدَ طُولِ غِيَابٍ، وعَرفتُم قدرَ الحَيَاةِ وقِيمَةَ العِبَادَةِ.

عِبَادَ اللهِ، والآنَ انْقَضَى شهرُ رَمضانَ فَلا تَرْجِعُوا بَعْدَهُ إلى المَعَاصِي؛ فَإِنَّ رَبَّ الشُّهُورِ وَاحِدٌ، ولاَ تَهْدِمُوا مَا بَنَيْتُمْ فيهِ مِنْ صَالحِ الأعمالِ؛ فإنَّ مِنْ علامةِ قَبولِ الحَسَنةِ إتْبَاعَهَا بالحسنةِ، وإنَّ الرُّجُوعَ إلى المعَاصِي بعدَ التَّوبةِ مِنها أعظمُ جُرْمًا وأشدُّ إثْمًا مِمَّا كَانَ قَبْلَ ذلك، وإنَّ أَمَامَكُم مِيزانًا تُوزَنُ فِيه حَسناتُكم وسيئاتُكم ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، والشُّهورُ مَزرعةٌ للأعمالِ، ومَواقِيتٌ لِلآجَالِ.

عِبَادَ اللهِ، إن انْقَضَىٰ مَوسمُ رَمَضانَ فَبَيْنَ أَيديكُم مَوسمٌ يَتكررُ فِي اليومِ والليلةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وهُو الصَّلواتُ الخمسُ التي فَرَضَهَا اللهُ على عِبَادِهِ، تُدْعَونَ لِحُضُورهَا في المَسَاجِدِ؛ لِتَقِفُوا بينَ يَديْ مَوْلاَكُم وتدْعُوه وتستغفرُوه وتَسألُوه مِنْ فَضْلِهِ، فأجِيبُوا ﴿دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٣١، ٣٢]، وبينَ أَيديكُم مَوسمٌ يتكررُ كُلَّ أُسبوعٍ وهُو صَلاَةُ الجُمعةِ ويومُ الجمُعةِ الذِي اختَصَّ اللهُ به هذه الأمةَ، وفيه سَاعةُ الإجابَةِ التي لاَ يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ يسألُ اللهَ شَيئًا وهو قَائمٌ يُصلِّي إلاَّ أَعْطَاهُ إيَّاهُ. وبينَ أَيديكُم مَواسمُ في جَوْفِ اللَّيلِ وفِي وَقْتِ الأَسْحَارِ، وخَزَائِنُ رَبِّكُمْ مَلأَىٰ

لاَ تُغِيضُهَا نَفَقَةٌ، وَيَدُهُ سَحَّاءُ باللَّيلِ والنَّهار؛ فَإِنَّهُ لاَ غِنَى بِكُم عَنْه طَرْفَةَ عَينٍ فِي أَيِّ لَحظةٍ مِنَ اللَّحظاتِ فَلَيْسَتْ حَاجَتُكُم إليهِ في رمضانَ فقط. فَمَا بَالُ أقوامٍ يُقْبِلُونَ في رمَضَانَ على الطَّاعةِ فَإِذا انْسَلَخَ تَنكَّرُوا وتَغَيَّرَتْ أَحْوالُهم. لقدْ سُئِلَ بعضُ السَّلفِ عَنْ مِثْلِ هَؤلاءِ فقال: بِئْسَ القومُ لاَ يَعرفونَ اللهَ إلاَّ في رمضَانَ. لَقَدْ كانتْ تَمْتَلِىءُ المَسَاجِدُ بهؤلاءِ فِي الصَّلواتِ الخَمْسِ، وعندما انْسَلخَ رَمضانُ اخْتَفَوا وانْمَحَتْ آثارُهُم إلى المساجدِ وَقَبَعُوا فِي بُيوتِهم، كَأَنَّهُمُ اسْتَغْنَوا عَن اللهِ، أَوْ كَأَنَّ الوَاجِبَاتِ سَقَطَتْ عَنهم والمُحرَّماتِ أبيحتْ لَهم خَارج رَمضانَ، نَعوذُ باللهِ مِنَ الضَّلاَلِ بعدَ الهُدىٰ وَمِنَ العَمىٰ بعدَ البَصيرَةِ، ومِنَ الكُفْرِ بعدَ الإيمانِ؛ قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [محمد: ٣٣]. فَكَمَا أَنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيئَاتِ فكذلِكَ السَّيئَاتُ تَقْضِي على الحَسَنَاتِ. وقدْ قِيلَ: ذَنْبٌ بَعْدَ تَوبةٍ أَقْبَحُ مِنْ سَبعِينَ قَبْلَهَا. بَكَى بعَضُ السَّلفِ عندَ الموتِ فَسُئِلَ عَن ذلكَ فَقالَ: أَبْكِي على لَيلةٍ مَا قُمْتُهَا وعلى يومٍ مَا صُمْتُهُ. فَإِذَا كانَ الإنسانُ سَيندمُ عِنْدَ المَوتِ على تَرْكِ النَّوَافِلِ فَمَا بَالُكم بِنَدَامَةِ مَنْ ضَيَّعَ الفَرَائِضَ؟!.

إنَّ شَهْرَ رَمضانَ يَجبُ أَنْ يُودَّع بالاستغفارِ وطلبِ القبولِ؛ فقد كانَ السَّلفُ الصَّالحُ يَدْعُونَ اللهَ سِتَّةَ أَشْهرٍ أَنْ يُبَلِّغَهُم رَمضانَ فإذَا بَلَّغَهُم إِيَّاهُ وعمِلُوا فيه عملاً صَالِحًا دَعَوا اللهَ سِتَّةَ أَشهُرٍ أَنْ يَتَقَبَّلَهُ مِنْهُمُ فَكُلُّ زَمَانِهم رمَضَانُ. وكِثيرٌ مِنْ أَهْلِ هذا الزَّمَانِ يُوَدِّعُونَهُ ويُتْبِعُونَهُ بِالمَعَاصِي وتَرْكِ الوَاجِبَاتِ وفِعْلِ المُحَرَّماتِ. إنَّ اللهَ يأمرُنا أَنْ نَختمَ شهرَ رمضانَ بالتكبيرِ وشُكْرِ اللهِ على تَمَامِ النِّعْمَةِ حيثُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥]. والرَّسُولُ ﷺ يَحُثُّنَا على أَنْ نُتْبِعَهُ بِصِيامِ سِتَّةِ أَيَّامٍ

مِنْ شهْرِ شَوَّالَ، فَرَوَىٰ مُسلمٌ مِنْ حَديثِ أَبِي أَيوبَ الأَنصَارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمضانَ ثُمَّ أتبعَه سِتًّا مِنْ شَوَّال كَانَ كصيامِ الدَّهْرِ»[١].

وإنَّمَا كانَ صيامُ رمضَانَ وإتْبَاعُهُ سِتًّا مِنْ شوَّال يَعْدلُ صِيامَ الدَّهْرِ؛ لأَنَّ الحَسَنَة بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا فرمَضَانُ عَنْ عَشرةِ أَشْهُرٍ وستَّةُ أيَّام مِنْ شَوَّال عَنْ شَهْرَيْنِ. وفي مُعَاوَدَةِ الصِّيَامِ بعْدَ رَمضانَ فَوائدُ عَديدةٌ؛ مِنْهَا أَنَّ صِيامَ هذِهِ السِّتَّةِ بعدَ رمضانَ كصَلَاةِ النافلةِ بعدَ الفريضةِ يكملُ بذلكَ مَا حصَلَ في صيامِ رمضانَ مِن خَلَلٍ ونَقْصٍ؛ فإنَّ الفَرَائِضَ تُجبَرُ أَوْ تُكملُ بالنَّوافِلِ يومَ القِيامةِ. وأَكْثَرُ النَّاسِ يقعُ فِي صِيامِه للفرضِ خَللٌ ونقْصٌ فَيحتاجُ إلى مَا يَجْبُرُهُ ويكملُه مِنْ صِيامِ النَّفْلِ. ومِنْهَا أنَّ مُعاودَةَ الصِّيَامِ بَعْدَ صِيَامِ رَمضانَ عَلَامةٌ على قَبولِ صَوْمِ رَمضانَ، فَإنَّ اللهَ إِذَا تَقبَّلَ عملَ عبدٍ وفَّقَهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ بعدَهُ كَمَا قالَ بعضُهم: ثَوَابُ الحَسَنَةِ الحَسَنَةُ بَعْدَهَا. كَمَا أَنَّ مَنْ عَمِلَ حسَنَةً ثمَّ أَتبعَها بِسيئةٍ كَانَ ذلِكَ عَلَامةً على رَدِّ الحَسَنَةِ التِي عَمِلَها وعدمِ قَبُولِهَا. ومِنْهَا أَنَّ صِيامَ رَمَضانَ يُوجِبُ مَغفرةَ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الذُّنوبِ فَيكونُ مُعَاوَدَةُ الصِّيَامِ بعْدَ الفِطْرِ شُكرًا لِهذِه النِّعْمَةِ. فَمِنْ جُمْلَةِ شُكْرِ العَبْدِ لِرَبِّه على تَوفيقِه لِصيامِ رَمضَانَ وإِعانتِه عَليه ومَغفرتِهِ لِذنوبِه أَنْ يَصُومَ لَهُ شُكْرًا عَقِبَ ذَلِكَ. ومِنْهَا أَنَّ العودَةَ إِلى الصِّيَامِ بعْدَ الفِطْرِ يَدُلُّ على رَغْبتهِ في الصِّيامِ وأَنَّهُ لَمْ يَملَّهُ وَلَم يَسْتَثْقِلْهُ.

عِبَادَ اللهِ: إنَّ مُقَابلةَ نِعْمَةِ التَّوفيقِ لِصيامِ شَهْرِ رمضانَ بِارتكابِ المَعَاصِي بعدَ خُروجِه: مِنْ تَبديلِ نِعمةِ اللهِ كُفرًا، فَمَنْ عزَمَ على مُعاودة المعَاصِي بعدَ رَمضانَ فَصِيامُهُ عليه مَردودٌ، وبابُ الرَّحمةِ في وجهِهِ مَسدودٌ؛ إِنَّ هذِه الشُّهورَ

(١) صحيح مسلم (١٦٤) من حديث أبي أيوب الأنصاري.

والأعوامَ والليَالي والأيامَ كُلُّها مَقَاديرُ الآجَالِ، ومَواقِيتُ الأَعْمَالِ، ثم تَنقضِي سَريعًا، وتَمْضِي جَمِيعًا، والذِي أَوْجَدَها وابْتَدَعَهَا وخَصَّهَا بالفَضَائِلِ وأَوْدَعَهَا، باقٍ لاَ يَزُولُ، ودَائِمٌ لاَ يَحُولُ، هُو في جَمِيعِ الأوقاتِ إلهٌ واحِدٌ، ولأعمالِ عِبَادِهِ رَقِيبٌ ومُشَاهِدٌ، فاتَّقُوهُ ودَاوِمُوا على طَاعَتِهِ واجْتِنَابِ مَعْصِيَتِهِ؛ فَإِنَّ كُلَّ وَقْتٍ يُخليه العبدُ مِنْ طَاعَتِهِ فَقَدْ خَسِرَهُ، وَكُلُّ ساعَةٍ يَغْفُلُ فِيهَا عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ تكُونُ عَليه يَوْمَ القِيامَةِ حَسْرَةً ونَدَامةً ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

عبادَ اللهِ: إنَّ فَضْلَ اللهِ عَليكُم مُتواصِلٌ، ومَواسمَ المَغفرةِ لاَ تَزَالُ مُتتاليَةً لِمَنْ وَفَّقَهُ اللهُ لاغتنامِها؛ فإنَّهُ لَمَا انقضَىٰ شهرُ رمضانَ دخَلَتْ أَشهرُ الحَجِّ إلى بيْتِ اللهِ الحَرَامِ، فَكَمَا أَنَّ مَنْ صامَ رمضانَ وقامهُ غُفرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ، فكذلك من حجَّ البيتَ ولم يرفثْ ولم يَفسُق رَجَعَ مِنْ ذُنوبِه كيومَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ. فَمَا يَمْضِي مِنْ عُمْرِ المُؤمِنِ ساعَةٌ مِنَ السَّاعَاتِ إلاَّ وللهِ فيها عليه وظيفةٌ مِنْ وظَائِفِ الطَّاعاتِ؛ فَالمؤمنُ يَتقلبُ بينَ هذِه الوَظائفِ ويَتقربُ بِها إلى مَولاهُ.

فَاشْكُروا اللهَ على هذِه النِّعمِ، واغْتنمُوها بِطاعةِ اللهِ ولا تُضيعَوها بالغفلةِ والإعراضِ.

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجِيمِ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر: ٥٤ـ٥٩].

فِي فَضْلِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ

الحمدُ للهِ الذِي جَعلَ لِعبادِه مَواسِمَ يتقربونَ إليه فِيهَا بأنواعِ الطَّاعاتِ، ويتطهرونَ بِهَا مِنْ أدرانِ السيئاتِ، أَحمدُه عَلى نِعَمٍ لاَ تَزالُ تَتوالى على مَمر الأوقاتِ. وأشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ فِي رُبوبيتِه وإلهيتهِ وَمَا لَهُ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ. وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُه أَوَّلُ مُسارعٍ إلى الخَيْرَاتِ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأَصْحَابِهِ ومَنْ سَارَ عَلى نَهْجِهِ وتَمَسَّكَ بِسُنتِهِ إِلى يومِ الدِّينِ، وسلَّم تسليمًا كَثِيرًا.

أَمَّا بعْدُ: فَيا عِبَادَ اللهِ اتَّقُوا اللهَ واشكُروا نِعمةَ اللهِ عَليكُم حيثُ هَيأَ لَكُم مَواسِمَ الخَيْرَاتِ، وشَرَعَ لَكُم مِنْ أَنواعِ الطَّاعَاتِ مَا يَرفعُ بهِ دَرجاتِكم ويُكفِّرُ خَطَاياكُم. وَمِنْ ذَلِكَ هذِه الأيامُ التِي أَنْتُم فِيهَا، وهي أيامُ التَّشريقِ المُباركةُ؛ وهِي أيامُ مِنَى، أخرجَ الإمامُ مُسلمٌ فِي «صَحِيحه» مِنْ حدِيثِ نُبَيْشَةَ الهُذَلِيِّ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: **«أَيامُ مِنى أيامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرٍ للهِ عَزَّ وَجلَّ»**[1]. وفي بعضِ الرِّواياتِ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ في أيام مِنَى مُنادِيًا يُنادي: **«لا تَصُومُوا هذِه الأيامَ فَإِنَّهَا أيامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرٍ للهِ عزَّ وجَلَّ»**[2]. وفي رِوايةٍ: **«أيامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وصَلاَةٍ»**. وفي رِوايةٍ أَنَّهَا هِي الأيامُ المَعْدُودَاتُ التِي قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ فِيها:

---

(١) أخرجه مسلم (١١٤٢) من حديث كعب بن مالك. وأخرجه ابن ماجه (١٧١٩) من حديث أبي هريرة. وليس فيها: «وذكر لله عز وجل».

(٢) أخرجه أحمد (١٤٥٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. وأخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحج، باب: ما جاء في صيام أيام منى حديث (٨٤٤) واللفظ المذكور لمالك.

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ﴾(١) [البقرة: ٢٠٣]. وهي ثلاثةُ أيامٍ بعدَ يَومِ النَّحْرِ، وقد أمرَ اللهُ بِذكْرِهِ في هذهِ الأيامِ المَعدوداتِ؛ كَمَا قالَ النَّبيُّ ﷺ: «إنَّهَا أيامُ أكْلٍ وَشُرْبٍ وذِكْرٍ للهِ عزَّ وجَلَّ».

عِبادَ اللهِ، وذِكرُ اللهِ عزَّ وجَلَّ المَأمُورُ بهِ في هذِه الأيامِ أَنواع مُتعددةٌ: مِنْهَا ذِكر اللهِ عزَّ وجَلَّ عقبَ الصَّلواتِ المَكتوباتِ بالتكبيرِ في أدْبَارِهَا بعدَ السَّلامِ وذلك من فجرِ يومِ عرفةَ إلى آخِرِ اليومِ الثَّالِثِ مِنْ أَيامِ التَّشريقِ، ويُسمَّى بالتكبيرِ المُقيَّدِ، فَإذَا سَلَّمَ مِنَ الصَّلاَةِ المكتوبةِ قَالَ: اللهُ أكبرُ اللهُ أكبرُ لاَ إله إلاَّ اللهُ، وَاللهُ أكبرُ اللهُ أَكبرُ، وللهِ الحمْدُ.

ومِنْ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ في هذِه الأيامِ: ذِكْرُهُ بالتسميةِ والتكبيرِ عِندَ ذَبْحِ النُّسُكِ مِنَ الهَدْي والأَضَاحِي، فَإنَّ ذَبحَ الأضَاحِي سُنَّةٌ مُؤكدةٌ مِنْ سُنَّةِ إبراهيمَ الخليلِ عَليهِ السَّلاَمُ ومِنْ سُنَّةِ خَاتَمِ المُرسلينَ نَبيِّنَا محمدٍ عليه وعليهم أفضلُ الصَّلاةِ وأزكى التسليمِ. فَيَذْبَحُ المُسْلِمُ الأُضْحِيَّةَ عَنْهُ وعَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، ويذبحُ الأُضحيةَ عَنِ الأمواتِ مِنَ أَقَارِبهِ وعنْ غَيرِهِم مِنَ المُسلمينَ، وفِيهَا أَجْرٌ عَظيمٌ، وثوابٌ جَزيلٌ، ويَأكلُ مِنْ هذِه الأضَاحِي ويُهدي مِنها لجيرانِه، ويَتصدقُ مِنها على الفقراءِ والمَساكينِ. ويمتدُّ وقتُ ذَبحِ الأضَاحِي إلى غُروبِ الشَّمْسِ مِن اليومِ الثَّالث عَشَر مِنْ ذِي الحِجَّةِ على الصَّحيحِ مِنْ أقوالِ العُلماءِ. والسِّنُّ المُجْزِىءُ فِيهَا مِنَ الضَّأْنِ مَا تَمَّ لَهُ سِتَّةُ أَشْهُرٍ، ومِنَ المَعزِ مَا تَّمَّ لَهُ سَنَةٌ، وَمِنَ البَقَرِ مَا تَمَّ لَهُ سَنَتَانِ، وَمِنَ الإبلِ مَا تَمَّ لَهُ خَمْسُ سِنين، وتُجْزِىءُ الشَّاةُ عَنِ الرَّجلِ

---

(١) قال ابن عبد البر في التمهيد (٢١/ ٢٣٣): «لا خلاف بين العلماء أن أيام منى هي الأيام المعدودات التي ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾ وهي أيام التشريق وأن هذه الثلاثة الأسماء واقعة عليها».

وأهلِ بيتِه وتُجزىءُ البَقَرَةُ والبَدَنَةُ عَنْ سَبْعِ أضَاحٍ. وَيَتَجَنَّبُ المَعِيبةَ والمَرِيضةَ والهَزيلةَ. وأفضلُ كُلِّ جِنْسٍ مِنْ هذِه الأجناسِ أَسْمَنُهُ وأوفَرُه لَحْمًا ثُمَّ أَغْلاَهُ ثَمَنًا، قَالَ اللهُ تَعَالىٰ: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الحج: ٣٢].

ومِنْ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ فِي هذِه الأيامِ المُبارَكَةِ ذِكْرُهُ على الأكلِ والشُّرْبِ، فَإِنَّ المَشروعَ في الأكلِ والشُّرْبِ أَنْ يُسَمِّيَ اللهَ فِي أَوَّلِهِ ويَحْمَدَهُ فِي آخِرِه، وفِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: «**أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرْضَىٰ عَنِ العَبْدِ أَنْ يأكُلَ الأَكْلَةَ فَيحمدَهُ عليها ويشربَ الشَّربةَ ويَحمده عَليها**»[1]. وقد رُوي أَنَّ مَنْ سَمَّى على أول طَعَامِهِ وحَمدَ اللهَ عَلَى آخِرِهِ فقدْ أَدَّىٰ ثَمَنَهُ ولَمْ يُسْأَلْ بعدُ عن شُكْرِهِ.

ومِنْ ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في هذِه الأيامِ المُباركةِ ذِكْرُهُ بأداءِ المَنَاسِكِ فِيهَا مِنَ الوقُوفِ بالمَشَاعِرِ والطَّوافِ والسَّعي وَرَمْيِ الجِمَارِ وغيرِ ذَلِكَ بالنسبةِ للحُجَّاجِ.

وَمِنْ ذِكْرِ اللهِ فِي هذِه الأيامِ المُبَارَكةِ ذِكْرُهُ بالتكبيرِ المُطْلَقِ فِي كُلِّ أوقاتِها؛ فَقَدْ كَانَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يُكَبِّرُ بِمِنَى في قُبَّتِهِ فَيَسْمَعُهُ النَّاسُ فَيُكَبِّرُونَ فَتَرْتَجّ مِنَى تَكْبِيرًا، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَـٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وقدِ اسْتَحَبَّ كَثيرٌ مِنَ السَّلَفِ كَثْرَةَ الدُّعَاءِ بِقَوْلِهِ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠١]. فهذا الدُّعَاءُ مِنْ أَجْمَعِ الأدعيةِ لِلخيرِ، وكانَ النَّبيُّ ﷺ يُكثرُ مِنْهُ فَإِنَّهُ يَجمعُ خَيرَ الدُّنيا والآخِرةِ. قَالَ الحَسَنُ: الحَسَنَةُ فِي الدُّنْيا: العِلمُ والعِبادةُ، وفي الآخرة: الجَنَّةُ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) والترمذي (١٨١٦) وغيرهما من حديث أنس بن مالك.

عِبَادَ اللهِ، إنَّ أيامَ التشريقِ يجتمعُ فِيها لِلمؤمنينَ نَعيمُ أبدانِهم بالأكلِ والشُّرْبِ، ونَعيمُ قُلوبِهم بالذِّكْرِ والشُّكْرِ وبذلكَ تَتِمُّ النِّعَمُ. وفي قَوْلِ النَّبيِّ ﷺ: «إنَّهَا أَيَّامُ أَكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرٍ للهِ عَزَّ وجَلَّ»(١) إشارةٌ إلى أَنَّ الأكلَ والشربَ في أيامِ الأعيادِ إنما يُستعانُ به على طاعةِ اللهِ عز وجل، وقدْ أَمرَ اللهُ فِي كِتابِهِ بالأكلِ مِنَ الطَّيباتِ والشُّكرِ لهُ بالطاعاتِ. فمَنِ اسْتَعَانَ بِنِعَم اللهِ على مَعَاصِيه فقدْ كَفَرَ نِعمةَ اللهِ عليه وبَدَّلَها كُفْرًا، فَاحْذَرُوا مِنْ ذلك يَا عِبَادَ اللهِ ولاَ تَجْعَلُوا هذه الأيامَ المُبَارَكةَ أيامَ غَفلةٍ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وأيامَ اشتغالٍ باللَّهْوِ واللَّعِبِ والإعراضِ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، فَتِلْكُم حَالُ الأشقياءِ.

أَعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرَّجِيمِ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥٩) من حديث سعد بن أبي وقاص. وأخرجه مالك في الموطأ في كتاب الحج، باب: ما جاء في صيام أيام منى حديث (٨٤٤) واللفظ المذكور لمالك.

فِي وَدَاعِ العَـامِ الهِجْرِيِّ

الحمدُ للهِ الذِي جَعلَ اللَّيْلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا، والحمدُ للهِ الذِي جَعلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا، وأشهدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، سُبحانَه وتعالى عَمَّا يقُولُ الظَّالِمُونَ عُلوا كَبيرًا، وأشهدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه، صلى اللهُ عَليه وعلى آلِهِ وأصحابِه وسَلَّمَ تَسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا اللهَ، واعتبِروا بِمَا تَروْنَ وتَسمعونَ، تَمُرُّ الشُّهورُ بعدَ الشُّهورِ والأعوامُ بعدَ الأعوامِ ونحنُ في سُبَاتٍ غَافلونَ، ومَهْمَا عِشْتَ يَا ابنَ آدمَ فإلى الثَّمَانِينَ أَو التِّسعينَ، وهَبْكَ بلَغْتَ المِئينَ، فَمَا أَقْصَرَها مِنْ مُدَّةٍ، ومَا أَقَلَّهُ مِنْ عُمْرٍ. قِيلَ لِنُوحٍ عليه الصَّلاَة والسَّلامُ وقدْ لَبِثَ فِي قَومِه ألفَ سَنةٍ إلاَّ خَمسينَ عَامًا: كَيفَ رَأيتَ هذِه الدُّنْيا؟ فقال: كَدَاخِلٍ مِنْ بَابٍ وخَارِجٍ مِنْ آخرَ.

فَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وتَبَصَّرُوا فِي هذِه الأَيَّامِ واللَّيَالِي؛ فَإِنَّهَا مَراحلُ تَقطعونَها إِلى الدَّارِ الآخرةِ حتَّى تَنتهوا إِلى آخِرِ سَفرِكُم، وكُلُّ يَومٍ يَمُرُّ بِكم فَإِنَّهُ يُبْعِدُكُم عَنِ الدُّنيا ويُقربُكم مِن الآخِرَةِ، فَطُوبَىٰ لِعَبدٍ اغتَنَمَ هذِه الأيامَ بِمَا يُقَرِّبُهُ إِلى اللهِ، طُوبَى لِعَبْدٍ شَغَلَهَا بالطَّاعاتِ، واتَّعَظَ بِمَا فِيهَا مِنَ العِظَاتِ، تَنْقَضِي بِهَا الأعمارُ ﴿ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النور: ٤٤].

عِبَادَ اللهِ، جُمْعَتُكُم هذِه هي آخِرُ جُمعةٍ مِنْ هذَا العامِ الهجريِّ فَبَعْدَ أَيامٍ قَلائلَ سَيطْوِي سَجلَّه ويَختِمُ عَمَلَهُ. فَهَنِيئًا لِمَن أَحْسَنَ فِيه واستقامَ، وويْلٌ لِمَنْ أَسَاءَ وارتكبَ الإجرامَ، فَهَلُمَّ نَتساءلْ عَنْ هذا العامِ: كيفَ قَضيناه؟ ولنُفَتِّشْ كِتَابَ أعمَالِنَا كَيْفَ أَمْلَيْنَاهُ، فَإِنْ كَانَ خَيْرًا حَمِدْنَا اللهَ وشَكَرْنَاهُ، وإِنْ كَانَ شَرًّا تُبْنَا

إِلى اللهِ واستغفَرْنَاهُ. كَمْ يتمنَّى المرءُ تَمَامَ شَهرِهِ، وهوُ يَعلمُ أَنَّ ذلكَ يَنْقُصُ مِن عُمرِهِ، وأنَّهَا مَراحلُ يَقطعُها مِنْ سَفَرِهِ، وَصفحاتٌ يَطويها مِنْ دَفْتَرِه، وَخُطواتٌ يَمْشِيهَا إِلى قَبْرِهِ، فَهلْ يَفرحُ بِذلكَ إلاَّ مَنِ استعدَّ لِلقُدُومِ على رَبِّهِ بامتثالِ أَمْرِهِ؟!

عِبادَ اللهِ، أَلَمْ تَروا إِلى هذِه الشَّمسِ كلَّ يَوْمٍ تَطلعُ وتَغربُ، فَفِي طُلوعِهَا ثمَّ غُروبِها إِيذانٌ بِأَنَّ هذه الدُّنيا لَيستْ بِدَارِ قَرَارٍ، وإِنَّمَا هِي طُلوعٌ ثُمَّ غُروبٌ. أَلَمْ تَروا إِلَى هذِه الأعوامِ تَتجَدَّدُ عَامًا بعدَ عَامٍ؟ فَأَنْتُم تُودِّعُونَ العامَ المَاضي وتَستقبلونَ العَامَ الجَديدَ.

فَلْيَقِفْ كُلٌّ مِنَّا مَع نَفْسِهِ مُحاسِبًا مَاذا أسلَفَتْ في عَامِهَا المَاضِي، فإِنْ كَان خيرًا ازْدادَ، وإِنْ يَكُنْ غيرَ ذلكَ أَقلعَ وأنابَ، فَإِنَّمَا تُمْحَى السيئةُ بالحسنةِ؛ قالَ ﷺ: «وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا»[1]. لِيُحَاسِبْ كُلٌّ مِنَّا نفسَه عَنْ فَرائضِ الإِسلام وأدائِها، عن حقوقِ المخلُوقِينَ والتخلصِ منها، عنْ أموالِهِ التي جَمَعَها من أَينَ جَاءتَ وكيفَ يُنفقُهَا؟.

أَيُّهَا النَّاسُ، حاسِبُوا أنفسَكم اليومَ فَأنتم أَقْدَرُ على العِلاَجِ مِنكم غَدًا، فَإِنَّكُم لاَ تَدْرُونَ مَا يَأْتِي بِه الغدُ، حَاسِبُوهَا فِي خِتَام عَامِكُم وفي جَمِيعِ أَيامِكم، فإِنَّهَا خَزائنُكم التِي تَحفَظُ لَكُم أعمالَكم، وعَمَّا قَرِيبٍ تُفْتَحُ لَكم فَتَرونَ مَا أودعتُم فِيهَا. رُوِيَ أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ خَطَبَ فقَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ لكم مَعَالِمَ فانتهُوا إلى مَعَالِمِكُم، وإِنَّ لكم نِهايةً فانتهُوا إلى نهايتِكم، إِنَّ المؤمنَ بينَ مَخافتينِ: أَجَلٌ قد مَضى لاَ يَدْرِي مَا اللهُ صَانِعٌ فِيهِ، وأَجَلٌ قدْ بَقِي لاَ يَدْرِي مَا اللهُ قَاضٍ فِيه، فَلْيَأْخُذ العَبْدُ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ، وَمِنْ دُنياه لآخرتِهِ، ومِنَ الشَّبيبةِ قَبلَ الهَرَم، وَمِنَ الحَياةِ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر. وقال الترمذي: حسن صحيح.

قَبْلَ المَوتِ»[(١)]. وقالَ أبو بكر الصديقُ رَضِيَ اللهُ عنهُ في خُطبتِه: «إنَّكم تَغدُونَ وتَروحُون إلى أَجَلٍ قد غُيِّبَ عَنكم عِلْمُهُ، فَإن استطعتُم ألا يَمْضِي هذا الأجلُ إلاَّ وأنتمُ فِي عَمَلٍ صَالحٍ فَافعَلُوا». وقالَ عُمَرُ بنُ الخَطاب رَضِيَ اللهُ عَنهُ فِي خُطبتِه: «أيُّهَا النَّاسُ حَاسِبُوا أنفسَكم قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوها قَبْلَ أَنْ تُوزنُوا، وتأَهَّبُوا لِلْعَرْضِ الأكبرِ عَلَى اللهِ» ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨].

عِبَادَ اللهِ، لِنَتَذَكَّرْ بانقضاءِ العامِ انقضاء العُمرِ، وبِسرعةِ مُرورِ الأيامِ قُربَ المَوتِ، وَبِتَغَيُّرِ الأحوالِ زَوالَ الدُّنيا وحُلولَ الآخرةِ. فَكَمْ وُلِدَ فِي هذا العامِ مِنْ مَولودٍ، وكَمْ مَاتَ فِيهِ مِنْ حَيٍّ، وكَمِ اسْتَغْنَىٰ فِيهِ مِنْ فَقيرٍ، وافْتَقَرَ مِنْ غَنِيٍّ، وكَمْ عَزَّ فيه مِنْ ذَليلٍ، وذَلَّ فِيهِ مِنْ عَزيزٍ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

أَيُّهَا المُسلمُ، رَاجِعْ نفسَكَ على أي شَيءٍ تَطوي صَحائِفَ هذا العام، فَلَعَلَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ عُمرِكَ إلاَّ سَاعاتٌ أَوْ أَيامٌ، فاسْتَدْرِكْ عُمْرًا قد أَضَعْتَ أَوَّلَهُ، فإنَّ عُمْرَ المُؤمِن لاَ قِيمَةَ لَهُ. قَالَ النَّبيُّ ﷺ: «**اغْتنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحتَكَ قبلَ سَقَمِكَ، وغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قبلَ شُغلِكَ، وحياتَكَ قبلَ موتِكَ**»[(٢)]. هكذا أوصَانا رَسُولُ اللهِ ﷺ باغتنامِ هذه الخمسِ قَبْلَ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٥٨١) من حديث الحسن عن رجل من أصحاب النبي ﷺ. وذكره القرطبي في تفسيره (١٨/١١٦) من حديث جابر بن عبد الله.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٤١) والبيهقي في الشعب (١٠٢٤٨) من حديث ابن عباس.

حُلولِ أَضدادِها، فَفِي الشَّبَابِ قُوةٌ وعَزيمةٌ، فَإذا هَرِمَ الإنسانُ وشابَ ضَعُفَتْ قُوتُه وفتَرتْ عَزيمتُه. وَفي الصِّحَّةِ نَشَاطٌ وانبساطٌ، فإذا مَرِضَ الإنسانُ انْحَطَّ نَشاطُه وضَاقت نفسُه وثقُلت عَليه الأعمالُ. وفِي الغِنَى رَاحةٌ وفَراغٌ، فإذَا افْتَقَرَ الإنسانُ اشْتَغَلَ بِطَلَبِ العَيشِ لِنفْسِهِ ولِعِيَالِهِ. وَفِي الحَياةِ مَيدانٌ فَسيحٌ لِصَالِحِ الأعمالِ، فإذَا مَاتَ الإنسانُ انقطعَ عَملُه إلاَّ مِن ثَلاثٍ: صَدقةٍ جَاريةٍ، أَو عِلْمٍ ينتفعُ به، أو ولدٍ صَالحٍ يدعُو له.

فَاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، واستدرِكُوا مَا فَاتَ بِالتَّوبةِ واستقبلُوا مَا بَقِي بالعملِ الصَّالحِ؛ فَإِنَّ إِقامَتكم فِي هذِه الدُّنيا مَحدودةٌ، وأيامَكم مَعدودةٌ، وأعمالَكم مَشهودةٌ.

أعوذُ باللهِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ... ﴾ إلى قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء: ١٢ـ١٥].

* * *

فِي الهِجْـرةِ النَّبويةِ

الحمْدُ للهِ الذِي شرعَ الهِجرةَ والجِهَادَ، لِنَشْرِ الدِّينِ وقَمْعِ الفَسَادِ، نَحمدُه تَعَالى إِذْ نَصَرَ عبدَهُ وأعزَّ جُندَه، وهَزَمَ الأحزابَ وحْدَهُ. ونَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شَريكَ لَه، ونشْهَدُ أَنَّ مُحمدًا عبدُه ورسولُه المُهاجرُ بدِينهِ مِنْ بلاَدِ الكُفْرِ إلى بِلاَدِ الإِسلامِ، والقَائِلُ: «**لاَ تنقَطِعُ الهِجرةُ حتَّى تَنقطعَ التوبةُ، ولاَ تَنقطعُ التوبةُ حتَّى تَخْرُجَ الشمسُ مِن مَغْرِبِهَا**»[1]. صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه والتَّابِعينَ لَهم بإحسانٍ إلى يوْمِ الدِّينِ، وسَلَّمَ تَسليمًا كَثيرًا.

أَيُّهَا المُسلمونَ: اتَّقُوا اللهَ واشْكُرُوه عَلى نِعمةِ الإِسْلاَمِ. فَقَبْلَ البعْثَةِ النَّبويةِ كانَ النَّاسُ ـ إلاَّ مَنْ شَاءَ اللهُ ـ عَلى الضَّلاَلِ، يعيشونَ على النَّهْبِ والسَّلْبِ والقِتَالِ، يَعبدونَ الشَّجَرَ والحَجَرَ والأصنامَ والأولياءَ والصَّالحينَ، ويَتَّبعُونَ كُلَّ كَاذِبٍ وسَاحِرٍ وكَاهِنٍ وَدَجَّالٍ، فَبعَثَ اللهُ فِيهم رَسولاً مِنهم يتلُو عَليهم آياتِه ويُزكيهم ويُعلمهمُ الكِتَابَ والحِكمةَ، فَهدَى به مِنَ الضَّلاَلَةِ، وعَلَّمَ بِهِ مِنَ الجَهَالَةِ، وبَصَّرَ بِهِ مِنَ العَمَى، فقَامَ بِأداءِ رِسالةِ رَبِّهِ خَيْرَ قِيَامٍ، فَبَشَّرَ وأَنْذَرَ، وصَدعَ بِأَمْرِ اللهِ تَعالَى وجَهَر، وجَعلَ المُشركونَ يَسخرونَ مِنْهُ ويَستهزئونَ بهِ ويُؤذُونَه أَشَدَّ الأذَىٰ ويُعذبونَ مَنْ آمنَ بهِ لِيردوهم عَنْ دِينهِم، وكان عَمُّهُ أَبو طالبٍ يَحمِيه مِنْ أَذَى قَومِهِ، وكَانت زَوجُه خَديجةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تُؤْنِسُهُ وتُعِينُهُ، واشتَدَّ أَذَى قَومِه لهُ ولِمَنْ آمَنَ بِهِ، وماتَ عَمُّهُ أَبُو طَالبٍ وَزوجُه خَديجةُ فِي عامٍ وَاحِدٍ، فَاشتدَّ حُزْنُهُ ﷺ وتَطَاوَلَ عَليه المُشركون، واشتدتْ بِهِ ﷺ الكُرْبَةُ وضَاق

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية بن أبي سفيان.

بِهِ الحَالُ، فَخَرَجَ ﷺ مِنْ مَكَّةَ إِلى أهلِ الطائفِ لِيدعُوهم إلى اللهِ لَعلهم يُؤمنون بهِ ويُناصِرونَه، حتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ، فَقَابَلَ رُؤساءَهم وعَرَضَ عليهم مَا جَاء إليهم مِنْ أَجْلهِ، فَرَدُّوا عليه ردًّا قَبيحًا وأَغْرَوا عَبيدَهم وغِلمانَهم يَسُبُّونَه ويرمُونه بالحِجارةِ، حتَّى أَصَابُوا رِجْلَهُ، وسَالَ الدَّمُ مِنْ عَقِبهِ عَليه الصَّلاَةُ والسَّلاَم. فَرَجَع عَنْهُم قَاصِدًا مَكَّةَ وَلَكنْ أَنَّى لَهُ بمكةَ وفِيها أَلَدُّ أعدائِه، لَقَدْ تَكَالَبَتْ عَليه الأعداءُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ؛ وحينئذٍ لَجَأَ إِلى رَبِّهِ وَمَدَّ يَدَيهِ وَدَعَا بِهذَا الدُّعاءِ العَظِيمِ حَيْثُ قَال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضعْفَ قُوتِي وَقِلَّةَ حِيلتِي وهَوانِي عَلى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ. أنتَ رَبُّ المُستضعفِين، وأنتَ رَبِّي، إِلى مَنْ تَكِلُنِي؟ إلى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي أَمْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِي. إِنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أُبَالِي، غَيرَ أَنَّ عَافيتَك أَوسعُ لِي، أعوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وصَلَحَ عَليه أَمْرُ الدُّنْيَا والآخرةِ أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بِي سَخطُكَ، لَكَ العُتْبَىٰ حتَّى تَرْضَى، ولاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِكَ»[1]. وقدْ سَمِعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ شَكْوَاهُ فَمَا أَتَمَّ حتَّى أَرْسَلَ إليه مَلكَ الجِبَالِ يَستأذنُه أَنْ يُطْبِقَ الأَخْشَبَيْنِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ ـ وَهُمَا الجَبَلاَنِ اللَّذَانِ هِي بَيْنَهُمَا ـ فقَالَ ﷺ: «بَلْ أَسْتَأْنِي بِهِم لَعَلَّ الله أَنْ يُخْرِجَ مِنْ أصلابِهم مَنْ يَعبدُه لاَ يُشرِكُ بِهِ شَيئًا»[2]. وبَقِيَ ﷺ أَيامًا فِي طَرِيقِه بينَ الطائفِ ومَكةَ. وقالَ لَهُ زَيدُ بنُ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنه: كيف تدخل على أهلِ مكةَ وقد أخرجوكَ؟ فقالَ ﷺ: «يا زَيدُ إِنَّ اللهَ جَاعِلٌ لِمَا تَرى فَرَجًا ومَخْرَجًا، وإِنَّ اللهَ نَاصِرٌ دِينهُ ومُظْهِرٌ

---

(١) أخرجه ابن عدي في الكامل (٦/ ١١١) وابن منده في ترجمة الطبراني (ص ٣٤٦) والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي (٢/ ٢٧٥) من حديث عبد الله بن جعفر. وانظر تاريخ الطبري (٢/ ٣٤٥) وسيرة ابن هشام (٢/ ٦٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣١) ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة بنحوه.

نَبِيَّهُ»(١). ثُمَّ انْتَهَىٰ إِلَى مكةَ ودَخلَهَا فِي جِوَارِ المُطعمِ بنِ عَدِيٍّ وَأَتَى البيتَ العَتِيقَ وَطَافَ بِهِ، والمطعمُ بنُ عَدِيٍّ وأولادُه مُحْدِقُونَ بِهِ وهُم مُدَجَّجُونَ بالسِّلَاحِ يَحرسونَه، حتَّى دَخلَ النَّبيُّ ﷺ بَيْتَهُ. وبعدَ ذلكَ قَيَّضَ اللهُ لَه الأنصارَ مِنْ أهلِ المَدينة فالتقَوا بِهِ في مَوسمِ الحَجِّ، فَآمنوا بِهِ وبَايعُوه عَلى أَنْ يَمنعُوه إِذَا قَدِمَ إِليهم فِي المَدينةِ مِمَّا يَمنعونَ مِنه نِسَاءَهم وأولادَهم، فَأَذِنَ اللهُ لِرسولِه بالهجرةِ إِليهم، فَهَاجَرَ فِي شَهرِ رَبيعِ الأولِ بعدَ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنةً مِنْ بِعْثَتِهِ، وَخَرَجَ بِصُحبتِه أَبُو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ، خَرَجَا مِنْ مكَّةَ خِفْيَةً لِحِرْصِ المُشركينَ على مَنْعِهِ مِنَ الهِجرةِ، واخْتَفَيَا فِي غَارِ ثَورٍ ثَلاثَةَ أَيامٍ والمشركونَ يَطلبونَهم مِن كلِّ وجهٍ، حتَّى وقفُوا على الغارِ الذِي اختفيَا بهِ فيقولُ أَبو بكرٍ للنَّبيِّ ﷺ: يَا رسولَ اللهِ، واللهِ لوْ نظرَ أحدهم إلى قدَمهِ لأبصرنَا. فيقُولُ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَا تحزن إن اللهَ معنَا»(٢). وقدْ سجَّلَ اللهُ ذلك في قولهِ سبحانهُ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: ٤٠].

فلمَّا سمعَ الأنصارُ بخروجهِ إليهمْ جعلُوا يخرجونَ كلَّ يومٍ إِلَى حَرةِ المدينةِ، ليستقبلُوا رسولَ اللهِ ﷺ، حتى يشتدَّ بهمْ حرُّ الظهيرَةِ فيرجعوا إلى بيوتهم، إلى أن حان اليومُ الذي أشرقت بهِ طلعةُ رسولِ اللهِ ﷺ عليهمْ ففرحُوا بهِ

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ١٢). وانظر زاد المعاد (٣/ ٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٢) وأطرافه في (٢٤٣٩، ٣٦١٥، ٣٩٠٨، ٣٩١٧، ٦٥٠٧)، ومسلم (٢٠٠٩) مختصرًا.

فرحاً شديداً، واجتمعُوا إليه يحيطونَ بهِ متقلِّدي السيوف، كلُّ واحدٍ منهمْ يأخذ بزمام ناقةِ الرسولِ ﷺ يريد منهُ أنْ ينزلَ عندهُ.

وهكذا جاء الفرجُ وحانَ النصرُ ووجدَ النبيُّ ﷺ والمهاجرونَ معهُ إخواناً لهمْ منَ الأنصارِ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩ ﴾ [الحشر: ٩].

ولمَّا وجدَ النبيُّ ﷺ الدارَ والمَنعَةَ والأنصارَ، شرعَ اللهُ لهُ جهادَ الكفارِ الذينَ يصدونَ عنْ سبيلِ اللهِ، فأظهره اللهُ عليهم، وأيدهُ بنصرهِ وبالمؤمنينَ، فمَا هي إلاَّ أعوامٌ قليلةٌ حتى عادَ إلى مكةَ التي أُخرجَ منهَا، فدخلهَا فاتحاً معززاً منصوراً، تحيطُ بهِ جيوشُ التوحيدِ وكتائبُ الإسلامِ، فدخلها من أعلاها مكبراً مهللاً، خاضعاً لربهِ، شاكراً لنعمتهِ، وطافَ بالبيتِ، ودخلَ الكعبةَ المشرفةَ، وحطمَ مَا حولهَا وما عليها مِنَ الأصنامِ، وقالَ لقريشٍ التي أخرجتهُ بالأمسِ: **«يا معشر قريش، ما ترونَ أنِّي فاعلٌ بكم؟»** قالوا: خيرًا، أخٌ كريمٌ وابنُ أخٍ كريمٍ. قالَ: **«فإنِّي أقولُ لكمْ ما قالَ يوسفُ لإخوتهِ: ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ اذهبُوا فأنتمُ الطلقاءُ»**(١). ثمَّ أرسلَ إلى اللاتِ والعُزَّى ومناةَ وغيرهَا منَ الأصنامِ منْ يهدمهَا.

أيُّها المسلمون: تذكرُوا هذهِ الهجرةَ العظيمةَ، وما فيها من العبرِ في كلِّ وقتٍ، فاقتدُوا بنَبيِّكُمْ ﷺ في الجهادِ والصبرِ والثباتِ على الدعوةِ إلى دينِ اللهِ، والأمرِ بالمعروفِ والنهيِ عنِ المنكرِ، وعدمِ اليأسِ. اقرَؤُوا سيرةَ نبيِّكم وأحداثهَا العظامَ، ليقوىٰ يقينُكُم، ويزيدَ إيمانكم، وتنمُو معلوماتكُم،

---

(١) أخرجه ابن جرير في تاريخه (٢/ ١٦١) والبيهقي في سننه (٩/ ١١٨)، عن قتادة مرسلا.

ولاَتكونُوا كالذينَ نسُوا هذه الذكرياتِ، فَلا يلتفتونَ إليهَا إلاَّ على رأسِ السَّنَةِ، حينَ يقيمونَ ما يسمونهُ بالاحتفالِ بذكرىٰ الهجرةِ النبويةِ. وهذا الاحتفالُ بدعةٌ، لمْ يفعلْهُ الرسولُ ﷺ ولاَ صحابتُهُ، ولو كان خيرًا لمْ يتركُوه.

إنَّ المطلوبَ منَ المسلمينَ أنْ يطلعُوا على سيرةِ نبيِّهِم، غيرَ متقيدينَ بوقتٍ أو احتفالٍ، وأنْ يعملُوا بمَا يعلمونَ منها، لأنَّ هَؤُلاَءِ الذينَ يقيمونَ الاحتفالَ بهذهِ الذكْرَىٰ، غالبهمْ لاَ يعملُ بسُنَّةِ الرسولِ ﷺ، ولاَ ينفذُ شرعهُ، ولاَ يقِيمُ دِينهُ، فهمْ والعياذُ باللهِ يقولونَ مَا لاَ يفعلونُ.

فعلينَا أنْ نتجنَّبَ هذِهِ الطريقةَ البدعيَّةَ، وأنْ ندرسَ سيرةَ نبينا كما كان يدرسُهَا سلفُنَا الصالحُ قولاً وعملاً، وفَّقَ اللهُ الجميعَ لذلكَ.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *

في قصةِ مُوسىٰ عليهِ السلامُ، وصيامِ يوم عاشُوراءَ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولاَ عدوانَ إلاَّ على الظالمينَ، والحمدُ للهِ الذي أرسلَ الرسلَ، وأنزلَ الكتبَ، ليحقَّ الحقَّ ويُبطلَ الباطلَ ولو كرهَ المجرمونَ. وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، من اعتصم بهِ حماهُ ووقاهُ، ومن أعرضَ عنهُ وعصاهُ أهلكهُ وأرداهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، بلغَ الرسالةَ، وأدى الأمانةَ، ونصحَ الأمَّة، وجاهدَ فِي اللهِ حقَّ جِهَادِهِ، فمنَ أطاعهُ دخلَ الجنةَ، ومن عصاهُ دخلَ النارَ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِهِ وأصْحابِهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ في قصصِ الأنبياءِ والمرسلينَ عبرةً لأُولِي الألبابِ ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١]. وإنَّ من أعظمِ قصصِ المرسلينَ مَا قصّهُ تعَالىٰ عنْ كليمهِ موسَىٰ بن عمرانَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، فقدْ ذكرَ سبحانَهُ قصتَهُ في مواضِعَ متعدِّدَةٍ، مبسوطةً تارةً، ومختصرَةً تارةً، وذلكَ أن ﴿فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص: ٤] وهم شعبُ بني إسرائيل، الذينَ هم من سُلالَةِ نبيِّ اللهِ يعقُوبَ بنِ إسحاقَ بنِ خليلِ اللهِ إبراهيم عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، وكانُوا إذ ذاكَ خِيارَ أهلِ الأرضِ، وقدْ تسلطَ عليهمْ هذا الظالمُ الغاشِمُ الكافرُ، يستعبدهم ويستخدمُهُم

في أخَسِّ الصنائعِ. ولمَّا بلَغهُ أنَّه سيخرجُ منْ ذُرِّيةِ إبراهيمَ مِنْ بَنِي إسرائيلَ غُلامٌ يكونُ هَلاَكُهُ على يدَيهِ، أَمَرَ عِندَ ذلكَ بِقتلِ أبناءِ بني إسرائيلَ، حذراً من وجودِ هذا الغُلامِ. ولنْ يغنيَ حذرٌ من قدرٍ! فاحترزَ كلَّ الاحترازِ ألاّ يوجدَ مُوسَىٰ، حتَّى جعلَ رِجالاً وقوابلَ يدورُونَ علَى النساءِ الحواملِ، ويعلمونَ ميقاتَ وضعِهِنَّ، فلاَ تلدُ امرأةٌ ذكراً إلاَّ ذبحَهُ من ساعتِهِ.

ولمَّا ولِدَ موسىٰ عليهِ السلامُ، ضاقتْ بِهِ أُمُّهُ ذرعًا، وخافتْ عليهِ، فألهمَهَا اللهُ أنِ اتَّخذَتْ لهُ تابوتًا أي صندوقًا وكانتْ دارُهَا مجاورَةً لنهرِ النيلِ، فوضعتْ موسىٰ في ذلِكَ التابوتِ، وألقتهُ في النهرِ، فحملَهُ الماءُ حتى مرَّ على دارِ فرعونَ ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٨] ولما فتحوا التابوتَ ووجدُوا فيهِ ذلِكَ الغلامَ، ووقعَ نظرُ امرأةِ فرعونَ عليه، أحبتْهُ حُبّاً شديداً، فلمَا جاءَ فرعونُ طلبتْ منهُ ألاّ يقتلهُ ودافعتْ عنهُ وقالتْ: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ﴾ [القصص: ٩] وقد أنالها اللهُ مَا رجتْ منهُ منَ النفعِ، فهداهَا اللهُ بسببِهِ وأسْكنهَا جنَّتَهُ، ولمَّا استقرَّ هذَا الغُلامُ في دارِ فرعونَ أرادُوا أنْ يغذُّوهُ بالرضاعِ، فَلمْ يقبلْ ثدياً، فحارُوا في أمرِهِ، واجتهدُوا عَلَى تغذيتِهِ بكلِّ مُمكِنٍ، فَلَمْ يقبلْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالىٰ: ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ [القصص: ١٢] فأرسلُوهُ معَ القوابلِ لعلهم يجدونَ منَ المراضعِ منْ يقبلُ ثديَهَا، فَرَأتهُ أُختُه ولمْ تظهرْ أنَّهَا تعرِفُهُ، بلْ قالتْ: ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [القصص: ١٢] ففرحُوا بذلكَ وذهبُوا معها إلى منزِلهمْ، فأخذتْهُ أُمُّهُ والتقمَ ثدْيَهَا وأَخذَ يمتصُّهُ ويرتضِعُه، وكانَ ذلِكَ بتقديرِ اللهِ وعنايَتِهِ، قَالَ تعالى: ﴿ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ [القصص: ١٣].

فلمَّا كبرَ موسَىٰ عليهِ السلامُ كانتْ لَهُ بديارِ مصرَ صَوْلةٌ، بسببِ نسْبَتِهِ إلى

تَبَنِّي فرعونَ لَه وتربيتِهِ في بَيْتِهِ، وكانَ يركبُ مراكبهُ ويلبَسُ مثلَ ما يلبَسُ، وفي يومٍ منَ الأَيَّامِ دخلَ المدينةَ في وقتِ غفلَةٍ من أهلِهَا، ووجدَ رجُلَيْنِ يتضارَبانِ أحدهُما منْ شيعةِ موسىٰ أيْ منْ بَنِي إسرائيلَ، والآخرُ منْ عدُوِّهِ، أيْ منْ جماعةِ فرعونَ، فضربَ موسَى الذِي منْ عدُوِّهِ فنتجَ عنْ ذلكَ وفاتُهُ، ونَدِمَ مُوسَىٰ علَى ذلِكَ، فَدَعَا اللهَ وَسَأَلَهُ المغفرَةَ فغفرَ لَهُ.

ثمُ فرَّ هارباً لمَّا سمِعَ أنَّ جماعةَ القتيلِ يريدُونَ قتلَهُ، فتوجَّهَ إلىٰ أرضِ مدْيَنَ ووصَلَ إليها وتزوَّجَ هناك، ومكثَ عشرَ سنينَ أو ثمَانِيَ سنِينَ يرعَىٰ الغنمَ، ثُمَّ رجَعَ بزوجتهِ يريدُ أرضَ مصرَ، وفي طَرِيقِهِ أكرمَهُ اللهُ برسالتِهِ، وأَوْحَىٰ إليهِ بوحْيِهِ، وخاطبهُ بكَلامِهِ العظِيمِ، وأرْسَلَهُ إلى فرعونَ بالآياتِ والسلطانِ المُبينِ، أرسَلَهُ إلى فرعونَ الذِي تكبَّرَ علَى المَلأِ وقَالَ: أَنَا ربُّكُمُ الأعلىٰ.

فدعاهُ إلى اللهِ، فأنكرَ فرعونُ وقَالَ: ﴿ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٣] فأجابَهُ موسَىٰ بِأَنَّهُ هُو ﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٤] ففي خلقِ السمواتِ والأرضِ ومَا بينهُمَا من الآياتِ مَا يوجبُ الإيقانَ بِأَنَّهُ هُو الرَّبُّ المستحقُّ للعبادةِ وحدَهُ، فقَالَ فرعونُ لمنْ حَولهُ مستهزئاً ساخِراً بموسَىٰ: ﴿ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٥] فذكَّره موسَىٰ بِأَصلِهِ، وأنَّهُ مخلوقٌ من عدَمٍ، ومتسلسلٌ من آباءٍ سبقُوهُ وهلكُوا، وأنَّ اللهَ هُو رَبُّ الجميعِ ﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٦] وحينئذٍ بُهتَ فرعَوْنُ وانقطعتْ حُجَّتُهُ، فلجأ إلى دعوىٰ أنَّ موسَىٰ مجنونٌ لاَ يُؤْخَذُ كَلاَمهُ، فردَّ عليهِ مُوسَىٰ بأنَّ الجنونَ هُو إنكارُ الرَّبِّ العظِيمِ ﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٨] فلمَّا عجزَ فرعونُ عنْ ردِّ الحقِّ لجأ إلى الإرهابِ، فتوعَّدَ بالسجن ﴿ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]،

وهكذا لم يملك حُجَّةً يرُدُّ بها الحقَّ إلاَّ التهديدَ.

فما زالَ موسَىٰ يأتِي بالآياتِ، كُلُّ آيةٍ أكبرُ من أختِهَا، فيحاولُ فرعونُ إخفاءهَا وردَّهَا، ويفتخِرُ بقوَّتِهِ وسلطانِهِ فيقولُ: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١﴾ [الزخرف: ٥١] ويحقرُ موسَىٰ فيقولُ: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢ فَلَوۡلَآ أُلۡقِيَ عَلَيۡهِ أَسۡوِرَةٞ مِّن ذَهَبٍ أَوۡ جَآءَ مَعَهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مُقۡتَرِنِينَ ۝٥٣ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ [الزخرف: ٥٢ ـ ٥٤] ولمَّا تمادوا في كفرِهِمْ وطُغْيَانِهِم، أوْحَى اللهُ تعَالىٰ إلى موسَىٰ أن يخرجَ بالمسلمينَ منْ أرضِ مصرَ ليْلاً، فخرجَ بهِمْ، فسَارُوا مستمرِّينَ قاصدينَ بلادَ الشام، فلمَّا علمَ فرعونُ بذهابِهِمْ غضِبَ عليهِمْ غضَباً شديدًا، وجمعَ جيشهُ وجنودهُ ليحلقهمْ ويمحقهمْ ﴿فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٧ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٥٨﴾ [الشعراء: ٥٣ ـ ٥٨] ليجعلهَا لموسَىٰ وقومِهِ منْ بعدهم، فركبَ في جنودِهِ طالباً موسَىٰ وقومَهُ، فأدركهُمْ عندَ شروقِ الشمسِ قريباً من البحرِ، وتراءىٰ الجمعانِ، ولمْ يبقَ إلاَّ المقاتلَةُ، فعندَ ذلِكَ ﴿قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١] وذلكَ لأنَّهمُ انْتهوا في طريقهمْ إلى البحرِ، فليسَ لهمْ طريقٌ ولاَ محيدٌ إلاَّ سلُوكهُ وخوضَهُ، وهذَا مَا لاَ يستطيعُهُ أحدٌ، والجبالُ عن يسْرَتِهمْ وعنْ أيمانِهمْ، وهي شاهقةٌ منيفَةٌ، وفرعونُ قد سدَّ عليهِمْ طَريقَ الرجعةِ في جُيوشِهِ وجنودِهِ، وقدْ عرفُوا منهُ البطشَ والفتكَ، فشكَوا إلى نَبيِّ اللهِ مُوسَىٰ مَا هُمْ فيهِ وقالُوا: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: ٦١].

فقَالَ لهمُ الرسولُ الصادِقُ المصدوقُ: ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢] فأوحَىٰ اللهُ إليهِ ﴿أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٦٣]،

فتقدمَ صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ إلى البحرِ وهُو يتلاطمُ بأمواجِهِ، فلمَّا ضربهُ انفلقَ وانفتحَ اثْنَيْ عشرَ طريقاً يابسةً لاَ وحلَ فيهَا، وصارَ الماءُ السيَّالُ بينَ هذِهِ الطرقِ كأطوادِ الجبالِ، فانحدرُوا فيهِ مسرعينَ مستبشرينَ مبادرينَ، ودخلَ فوعونُ وجنودُهُ في أَثرهم، فلما جاوزَهُ موسَىٰ وقومهُ وخرجَ آخِرهُمْ منهُ، وتكاملَ فرعونُ وقومهُ في داخلِ البحرِ، أطبقهُ اللهُ عليهمْ، وعادَ إلى حالتِهِ الأُولَىٰ، فأغرقهمْ أجمعينَ.

فانظروا ـ رحمكم اللهُ ـ إلى مَا في هذهِ القصةِ العظيمَةِ منَ العبر، وقدْ وقَعَ هذَا الحدَثُ العظيمُ والنصرُ المبينُ الذِي ظهرَ فيهِ الحقُّ علىٰ الباطلِ في يومِ عاشورَاءَ، أي: اليومُ العاشرُ من شهرِ المحرَّمِ، فقدْ رَوىٰ الإمَامُ البخاريُّ في صحيحهِ عَنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهمَا قالَ: قدِمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، واليهودُ تصُومُ يومَ عاشُوراءَ، فقَالَ: «**ما هذَا اليوم الذِي تصومُونَه؟**» فقالوا: هذا يومٌ ظَهَرَ فيهِ موسَىٰ على فرعونَ، قالَ النبيُّ ﷺ لأصحابِهِ: «**أَنتمْ أحقُّ بموسَىٰ منهمْ، فصوموا**»[1].

فيستحبُّ ـ يا عبادَ اللهِ ـ صيامُ هذا اليومِ شكرًا للهِ، فقدْ صَامَهُ كليمُ اللهِ موسَىٰ، شكرًا للهِ، وصامَهُ نبيُّنا محمدٌ ﷺ وأَمرَ بصيامهِ، وقالَ ﷺ: «**أحتسبُ على اللهِ أنْ يكفِّرَ السَّنَةَ التي قبْلَهُ**»[2].

وينبغِي للمسلمِ أنْ يصومَ اليومَ الذي قبْلَهُ، لتحصلَ مخالفَةُ اليهودِ بذلكَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٨٠)، وأطرافه في(٢٠٠٤، ٣٣٩٧، ٣٩٤٣، ٤٧٣٧)، ومسلم (١١٣٠).

(٢) أخرجه مسلم (١١٦٢) من حديث أبي قتادة، وفيه: «أحتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله».

فقدْ قالَ ﷺ: «لئنْ بقيتُ إلى قابلٍ لأصومَنَّ التاسِعَ»[1]، فصومُوا اليومَ التاسِعَ والعاشرَ، أو العاشرَ والحَادِي عشرَ».

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ١٥ ـ ٢٦].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم (١١٣٤/ ١٣٤) من حديث عبد الله بن عمير عن ابن عباس.

في إنكارِ بدعةِ الاحتفالِ بمناسبةِ مولدِ النَّبيِّ ﷺ

الحمْدُ للهِ الذي منَّ على المؤمنينَ إذْ بَعثَ فيهمْ رَسُولاً منْ أَنفسِهِمْ يتلُو عليهِمْ آيَاتِهِ ويزكيهِم ويعلمهمُ الكتَابَ والحكمةَ وإن كانُوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ. وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحده لاَ شريكَ له في عبادتهِ، كما أنَّه لاَ شريكَ لهُ في خلقِهِ وملكِهِ سبحانهُ وتعالىٰ عمَّا يشركونَ. وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ وأَمينهُ على وحيِهِ وخيرتهُ منْ خلقهِ المبعوثُ بالدِّينِ القويمِ، أرسلهُ رحمةً للعالمينَ وإماماً للمتقينَ وحجةً على الخلائقِ أجمعِينَ ﷺ وعلى آلِهِ وصحابتِهِ والتابعينَ لهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا النَّاسُ: اتقوا اللهَ واعلمُوا أنَّ أعظمَ نعمةٍ أنعمَ اللهُ بهَا على أهلِ الأرضِ بعثةُ محمدٍ خاتمِ النَّبيينَ، بعثهُ على حينِ فترةٍ من الرسلِ، فهدىٰ بهِ إلى أقومِ الطرقِ وأوضحِ السبلِ وافترَضَ على أهلِ الأرضِ طاعتهُ، فكانَ ﷺ دعوةَ أبيهِ إبراهيمَ حينَ قالَ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩] وكان بشرىٰ أخِيهِ عيسى ابن مريمَ حينَ قالَ: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وكانَ رُؤيا أُمِّهِ حينَ رأَتْ في المنَامِ قبلَ ولاَدَتهِ أنَّهُ خرجَ منهَا نورٌ أضاءَتْ لَهُ قصورُ الشامِ. لقدْ تحققتْ فيهِ هذِهِ الصفاتُ الثلاثُ، فكانَ إجابةً لدعوةِ الخليلِ

ومصداقًا لبشارةِ المسيحِ، وتعْبيرًا لرُؤيا أُمِّهِ. فقدْ جعلهُ اللهُ سراجًا منيرًا اسْتنارتْ بهِ الأرضُ بعدَ ظلمتهَا. واهتدَتْ بهِ البشريَّةُ بعدَ حيرتهَا، فكانَ النعمةَ العظمَىٰ والمنحةَ الكبرىٰ التي تفضلَ اللهُ بهَا على خلقِهِ، لقدْ ولِدَ ﷺ بمكة المشرفةِ عامَ الفيلِ في شهرِ رَبيعِ الأوَّلِ. وهُو العامُ الذي أغارَ فيهِ ملكُ الحبشةِ على الكعبةِ يريدُ هدمهَا فصدَّهُ اللهُ عنهَا وأنزَلَ بهِ وبجيشهِ أعظمَ عقوبةٍ، كما ذكرَ اللهُ في الكتابِ العزيزِ! فكانَ في ذلكَ حمايةً للبيتِ الحرامِ، وإرهاصاً لبعثةِ هذا النبيِّ عليهِ الصلاةُ والسلامُ.

شبَّ ﷺ على الأخلاقِ الفاضلةِ والسيرةِ الحسنةِ. وبعثهُ اللهُ برسالتهِ على رأْسِ الأربعينَ منْ عمُرِهِ، فبلَّغَ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ ونصحَ الأمَّةَ وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ حتَّى أنزلَ الله عليهِ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، قالَ ﷺ: «**تركتكُمْ على المحجَّةِ البيضاءِ**»[١] فأَعادَ للحنيفيَّةِ السمحةِ ملَّةِ إبراهيمَ صفاءهَا وضياءهَا، وأماطَ عنها ما علقَ بِهَا منْ أَوْضارِ الجاهليَّةِ وضلالاَتهَا، وجمعَ اللهُ بهِ الأُمَّةَ بعدَ شتاتِهَا. ثمَّ لحقَ بالرفيقِ الأعلىٰ ﷺ.

عبادَ اللهِ: وإنَّ واجبنَا نحوَ هذهِ النعمةِ العظيمةِ أنْ نشكرَ اللهَ عليهَا بالتمسُّكِ بهَا، والجهادِ في سبيلِهَا والمحافظةِ عليها. وذلكمْ باتباعِ هذا الرسولِ ﷺ والاقتداءِ بهِ وفعلِ مَا أمرَ بهِ وتركِ ما نهَىٰ عنهُ، وأنْ نحبَّهُ أكثرَ ممَّا نحبُّ أنفسنَا وأولاَدَنَا وآباءنَا وأُمَّهاتِنَا؛ لأنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ في اتباعهِ وطاعتهِ؛ قالَ تعَالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقالَ تعَالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد في مسنده (١٢٦/٤) وابن ماجه في سننه (٤٣)، بلفظ: «تركتكم على البيضاء».

تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقالَ تعالىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾ [القصص: ٥٠]. ومحبَّتُهُ ﷺ تقتضي طاعتَهُ واتباعهُ، وتركَ ما نهَىٰ عنهُ، فمتابعةُ هذا الرسولِ تتحقَّقُ بامتثالِ أوامرِهِ واجتنابِ مناهيهِ. فكُلُّ عملٍ منْ أعمالِ العبادةِ يجبُ أنْ يكونَ موافقاً لمَا شرعهُ هذا الرسولُ ﷺ، ومَا لمْ يشرعْهُ فهو بدعةٌ مردودةٌ قالَ ﷺ: «مَنْ عملَ عملاً ليسَ عليهِ أمرُنَا فهو ردٌّ»(١) ويقولُ: «وَإياكُمْ ومحدثاتِ الأُمورِ فإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلَالةٌ»(٢).

عبادَ اللهِ: والبدعُ التي أحدثها الجاهلونَ أو المغرضونَ كثيرةٌ منْهَا مَا يتكررُ كلَّ عامٍ في شهرِ رَبيعِ الأوَّلِ منْ إقامةِ محافلَ بمناسبةِ مولدِ الرسولِ وربَّمَا سمَّوا ذلكَ عيدَ المولدِ الشريفِ. وهذَا الاحتفالُ أوْ هذَا العيدُ بدعة منكَرةٌ ما أنزلَ اللهُ بهَا من سلطانٍ، إنْ يتَّبعُ أصْحَابُهَا ومُرَوِّجُوهَا إلاَّ الظَّنَّ وما تهْوَىٰ الأنفسُ؛ فهُو بدْعَةٌ لأنَّ الرسولَ ﷺ لمْ يفعلهُ ولمْ يكنْ منْ سُنَّتِهِ. ولمْ يفعلهُ أصحابُهُ رضيَ اللهُ عنهم وهم أسبقُ النَّاسِ إلى الخيرِ، ولمْ يُفعلْ في القرونِ المفضلةِ، وإنَّمَا حدثَ فعلهُ في القرنِ السادسِ للهجرةِ تقليدًا للنَّصَارىٰ الذينَ يحتفلونَ بمولدِ المسيحِ عليهِ السلامُ. وقد نهانا ﷺ عنِ التشبُّهِ بهم؛ فقالَ: «لا تُطرُونِي كما أطرتِ النصارىٰ ابنَ مريمَ»(٣) فهذا الاحتفالُ بدعةٌ وتشبُّهٌ بالكفارِ. أضفْ إلى ذلكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨/١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها. وأخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨/١٧) بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

(٢) أخرجه الدارمي (٩٥) بهذا اللفظ. وأخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره بلفظ: «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». وهو نفس حديث العرباض المتقدم.

(٣) أخرجه البخاري (٣٥٥٤) من حديث ابن عباس عن عمر بن الخطاب مرفوعا. وأعاده مطولا جدًا برقم(٦٨٣٠).

مَا يجرِي فيهِ منَ المنكرَاتِ التي أعظمهَا الشرْكُ الأكبرُ من دعاءِ الرسولِ وطلبِ الحاجَاتِ وتفرِيجِ الكرباتِ منهُ، وإنشادِ الأشعارِ الشركيَّةِ بمدحهِ، وكذا يحصلُ في هذه الاحتفالاتِ اختلاطُ النساءِ بالرجالِ مما يُغري بفعلِ الفواحشِ. مع ما يُنفقُ في هذه الاحتفالاتِ منْ أموالٍ باهظةٍ منْ أناسٍ ربما لاَ يؤدونَ الزكاةَ التي هي ركْنٌ من أركانِ الإسلامِ. ومنْ العجيبِ أنَّ هؤلاءِ الذينَ يحتفلونَ بمولدِ الرسولِ ﷺ هم في الغالبِ لا يعملونَ بسُنَّتِهِ ولاَ يحكمونَ بشريعتِهِ، بلْ ربما لاَ يصلونَ الصلواتِ الخمسَ التِي هي عمودُ الإسلامِ.

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ سبحانهُ لمْ ينوِّهْ في القرآنِ بولادةِ الرسولِ ﷺ وإنَّمَا نوَّهَ ببعثتِهِ، فقالَ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فبعثتُه هي التي تحققتْ بهَا المِنَّةُ الربانيَّةُ، ومنذُ بعثتهِ إلى وفاتهِ وكلُّ لحظَةٍ منْ حياتهِ الطَّيِّبةِ نعمةٌ على البشريةِ، فكلُّ حياتهِ بعدَ البعثةِ عبادةٌ وجهادٌ ونفعٌ للمسلمينَ، لاَ يختصُّ ذلكَ بيومٍ معيَّنٍ من حياتهِ، فيجبُ على المسلمينَ الاقتداءُ بهِ، والعملُ بشرعهِ، في جميعِ الأيَّامِ والساعاتِ، لاَ في يومٍ معيَّنٍ، ولاَ في شهرٍ معيَّنٍ.

وإذَا كانَ قصدُ هؤلاءِ المحتفلين بيومِ ولادةِ الرسولِ ﷺ إحيَاءَ ذكرهِ، والتنويهَ بشرفهِ ﷺ، وتذكُّرَ سيرتهِ، كمَا يقولونَ، فهذا مشروعٌ للمسلمِ في كلِّ وقتٍ، حسبمَا شرعهُ اللهُ، فاللهُ قدْ رفعَ لنبيِّهِ ذكرهُ في مناسباتٍ تتكرَّرُ في اليومِ والليلةِ، كالأذانِ والإقامةِ والخطبِ، فإذَا ذُكِرَ اللهُ في هذِهِ المواطِنِ ذكرَ بعدهُ الرسولُ ﷺ، يتكررُ هذا في اليومِ والليلةِ أبدَ الدهرِ، لاَ في يومٍ معيَّنٍ منَ السَّنَةِ، بلْ لاَ تصحُّ صلاَةُ فرضٍ أو نافلةٍ بدُونِ الصلاةِ عليهِ في التشهدِ الأخيرِ، عندَ جمعٍ من العُلماءِ، هذَا مَا شرعهُ اللهُ في حقِّ هذا الرسولِ، فيجِبُ إحياؤُهُ والعملُ بهِ،

وتركُ مَا شرعهُ الناسُ منَ البدعِ.

عبادَ اللهِ: إنَّمَا تناولنَا هذه المسألةَ بالتَّنبيهِ على إنكارهَا وبطلانهَا، لأنَّهَا تفعلُ في البلادِ المجاورَةِ لنَا، وتصِلُ إلينَا صورتُهَا الصَّوتيَّةُ في الإذاعاتِ، ويصلُ إلينَا ذكرُهَا في الجرائدِ والمجلاَّتِ، فربَّما يغترُّ بهَا بعضُ الجهَّالِ عندمَا يسمعُهَا، ويستحسنها فيحاولُ أنْ يفعلَ مثلهَا.

فليعلمِ الجميعُ أنَّ هذا منكرٌ وبدعةٌ، وإنْ كثرَ فاعلُوهُ ومروجُوهُ(١)، فلاَ تغترُّوا بهِ، وفقنَا اللهُ وإيَّاكُمْ للتمسكِ بكتابهِ وسنَّةِ نبيِّهِ، وإنْ رغبَ عنها الأكثرونَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران: ٣١ ـ ٣٢].

* * *

(١) الذينَ يُقِيمُونَ هَذِهِ البِدْعَةَ وَغيْرَهَا مِنَ البِدعِ ثلاَثةُ أصنافٍ:
الصِّنْفُ الأوَّلُ: جَهَلَةٌ مُقَلِّدُونَ، كَالذين قَالَ الله على لسانهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾.
الصِّنْفُ الثَّاني: مُرْتَزِقَةٌ فُسَّاقٌ يُرِيدونَ التَّأَكُّلَ بِهَا وإشْباعَ شهواتِهِمْ مِنْ وَرَائِهَا، بالأكْلِ والشُّرْبِ واللَّهْوِ واللعِبِ.
الصِّنْفُ الثَّالِثُ: ضُلاَّلٌ مُغرِضُونَ، يُرِيدُونَ الدَّسَّ عَلَى الإسْلاَمِ، وَصَرْفَ النَّاسِ عَنِ السُّنَنِ، وَإشْغَالَهمْ بِالْبِدَعِ.

في الحثِّ على مخالفةِ الكفارِ

الحمدُ للهِ الذي أمرنَا بالاقتداءِ بسيدِ الأبرارِ، ونهانَا عن التشبهِ بالمشركينَ والكفارِ، أحمدهُ على ما أَولانَا منَ النعمِ، وصرفَ عنَّا منَ النقمِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنْ محمدًا عبدهُ ورسولهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقوا اللهَ واعتزوا بدينكِمْ.

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ سبحانهُ قدْ أغنَى المسلمينَ، وأنعمَ عليهمْ بشريعةٍ كاملةٍ شاملةٍ لكلِّ مصالحِ الدِّينِ والدُّنْيَا، وعلقَ السعادةَ في الدُّنْيَا والآخرةِ على العملِ بهَا والتمسكِ بهديهَا، قالَ تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، وقالَ تعالىٰ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [البقرة: ٣٨]. وهذه الشرِيعةُ هي الصراطُ المستقيمُ، الذي هُو طريقُ المنعَمِ عليهمْ من النَّبيِّينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ، ومَا خالفها فهو طريقُ المغضوبِ عليهمْ والضَّالينَ من اليهودِ والنَّصارىٰ والمشركينَ.

وأنت ـ أيُّهَا المسلمُ ـ في كلِّ ركعةٍ من صلاتكَ تدعو ربكَ أنْ يهديكَ الصراطَ المستقيمَ، وأن يجنبكَ طريقَ المغضوبِ عليهمْ والضالينَ، حينما تقرأُ سورةَ الفاتحةِ التي قِرَاءتُهَا ركنٌ منْ أركانِ الصلاةِ في كلِّ ركعةٍ، فتأملْ هذا الدعاءَ ومقاصِدَهُ وثمارهُ، إنَّهُ يعنِي أوَّل مَا يعنِي: الاقتداءَ بالرسولِ ﷺ، والتمسكَ بشريعتهِ في العباداتِ وفي المعاملاتِ، وفي الآدابِ والأخلاقِ العامةِ

والخاصةِ. وإنَّهُ يعنِي: مخالفةَ الكفارِ فيمَا هُو منْ خصائصهمْ في العباداتِ والمعاملاتِ، وفي الآدابِ والأخلاقِ؛ لأنَّ التشبهَ بهمْ في الظاهِرِ يورثُ محبتهمْ في الباطِنِ، ولهذا تضافرَتِ الأدِلَّةُ منَ الكتابِ والسُّنَّةِ على الأمرِ بمخالفتهمْ والنهي عنِ التشبهِ بهمْ، إبعاداً للمسلمِ عمَّا فيهِ مضرَّتهُ، لأنَّ أعمالَ الكفارِ باطِلَةٌ، ومساعِيهِمْ ضالةٌ، ونهايتهمْ إلى الهلاكِ، فجميعُ أعمالِ الكافرِ وأُمورِهِ لاَ بدَّ فيها منْ خللٍ يمنعهَا أنْ تتمَّ لَهُ بهَا منفعةٌ، قالَ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٣٩]. وقالَ تعالىٰ: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍۖ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

أَيُّها المسلمونَ: ومعَ أنَّ اللهَ قدْ حذرنَا سبيلهمْ، فقضاؤهُ نافذٌ بما أخبرَ بهِ رسولُهُ ممَّا سبقَ في علمهِ تعالىٰ، حيثُ قالَ ﷺ فيما رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ عنْ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**لتتبعنَّ سننَ منْ كانَ قبلكمْ حذوَ القُذَّةِ بالقُذَّةِ، حتى لوْ دخلُوا جُحرَ ضبٍّ لدخلتُمُوهُ**» قالوا: يا رسولَ اللهِ، اليهودُ والنصارىٰ؟ قالَ: «**فَمَنْ**»[1]. أي: من القومُ إلاَّ هؤُلاءِ.

وروىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ: «**لا تقوم الساعةُ حتى تأخذ أُمتي مأخذَ القرونِ قبلها، شبرًا بشبرٍ، وذِرَاعًا بذراعٍ**» فقيلَ: يا رسولَ اللهِ، كفارسَ والرومِ؟ قال: «**ومن الناسُ إلاَّ أولئكَ**»[2].

فأخبرَ أنهُ سيكونُ في أمَّتهِ مضاهاةٌ لليهودِ والنَّصارىٰ، وهم أهلُ الكتابِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦، ٧٣٢٠) ومسلم (٢٦٦٩) بلفظ: «شبرا بشبر، وذراعاً بذراع». ولفظ «حذو القذة بالقذة» أخرجه أحمد (٤/ ١٢٥) من حديث شداد بن أوس.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣١٩).

ومضاهاةٌ لفارسَ والرومِ، وقدْ كانَ ﷺ ينْهَىٰ عن التشَبُّهِ بهؤلاءِ وهؤلاءِ، وليسَ إخبارهُ عن وقوعِ المضاهاةِ في الأمةِ للكفارِ إخباراً عنْ جميعِ الأمةِ، بلْ قدْ تواترَ عنهُ أنَّهُ قال: «**لاَ تزال طائفةٌ منْ أمتي ظاهرةً على الحقِّ حتى تقومَ الساعةُ**»[(١)]، وأخبرَ ﷺ أنَّ اللهَ لاَ يجمعُ هذهِ الأمَّةَ على ضلالةٍ[(٢)]، وأنَّ اللهَ لا يزالُ يغرسُ في هذا الدِّينِ غرسًا يستعملهمْ فيهِ بطاعتِهِ[(٣)].

فعُلمَ بخبرهِ الصادقِ أنَّه لاَ بُدَّ أنْ يكونَ في أمتهِ قومٌ يتمسكُونَ بهديهِ الذي هُو دِينُ الإسلامِ محْضاً، وقومٌ ينحرفونَ إلى شعبةٍ منْ شعبِ دينِ اليهودِ، أوْ إلى شعبةٍ من شعبِ دينِ النصارىٰ، وهذا الانحرافُ يزينُهُ الشيطانُ، فلذلكَ أُمرَ العبدُ بدوامِ دعاءِ اللهِ سبحانهُ بالهدايةِ إلى الاستقامةِ، التي لاَ يهوديةَ فيها ولاَ نصرانيةَ أصلاً.

والحكمةُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ في النهي عنِ التشبهِ بهمْ، والأمرِ بمخالفتهمْ ظاهرًا: ذلكَ أنَّ المشابهةَ لهمْ في الظاهرِ تورثُ تشبُّهًا بهمْ في الباطنِ، يقودُ إلى موافقتهِمْ في الأخلاقِ والأعمالِ، والمخالفةُ لهمْ في الظاهرِ توجبُ مخالفتهم في الباطنِ، ممَّا يوجبُ مفارقتهمْ مفارقةً توجِبُ الانقطاعَ عنْ موجباتِ الغضبِ وأسبابِ الضلالِ، والانعطافَ إلى أهلِ الهُدَى والرضوانِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٠، ٧٣١١، ٧٤٥٩) ومسلم (١٩٢١) من حديث المغيرة بن شعبة. وأخرجه البخاري (٧١، ٣١١٦، ٣٦٤١، ٧٣١٢، ٧٤٦٠) ومسلم (١٠٧٣) من حديث معاوية بن أبي سفيان. وفي الباب عن جمع من الصحابة انظر تخريجها في نظم المتناثر في الحديث المتواتر للكتاني برقم (١٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٧) من حديث ابن عمر. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن ماجه (٨)، وابن حبان (٣٢٦) من حديث أبي عنبة الخولاني. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٦٩٢).

أيها المسلمونَ: لقد كثرَ اليومَ في المسلمينَ التشبهُ بالكفارِ في كلامهمْ ولباسهمْ وهيئتهمْ، بينَ الرجالِ والنساءِ، ممَّا لستُ أُحصيهِ في مقامِي هذا.

منْ ذلكمْ: ما يفعلهُ الرجالُ منْ حلقِ لحاهمْ وتغذيةِ شواربهمْ، وإطالةِ شعورِ رؤوسهِمْ على شكلِ ما يفعلُ الكفارُ، وقدْ أَمَرَ النبيُّ ﷺ بجزِّ الشاربِ وإعفاءِ اللحيةِ وإكرامها وتوفيرهَا، ومخالفةِ المشركينَ الذينَ يحلقونَ لحاهمْ ويغذونَ شوارِبَهُمْ.

فقصُّ الشاربِ وإعفاءُ اللحيةِ، منْ خصالِ الفطرةِ وهدي الأنبياءِ، وهُو مخالفةٌ لأعداءِ اللهِ ورسولهِ، وهو كذلكَ عينُ المصلحةِ، فإنَّ قصَّ الشاربِ فيهِ النظافةُ والتحرزُ ممَّا يخرجُ منَ الأنفِ، ولأنَّهُ إذَا طالَ تدَلَّىٰ على الشفةِ، فينغمسُ فيما يتناولُهُ منْ مشروبٍ ومأكُولٍ، وفي ذلكَ مَا فيهِ منَ التقذرِ. كما أنَّ طولَ الشاربِ فيهِ تشويهٌ للمنظرِ، وإن استحسنَهُ منْ لاَ يعبأُ بهِ من النَّاسِ. وتوفِيرُ اللحيةِ. واعتبرَ ذلكَ منْ يعصي الرسولَ ﷺ، فيحلقها، كيفَ يبقىٰ وجههُ مشوهاً قدْ ذهبتْ محاسنهُ، ولكنَّ العوائدَ والتقليدَ الأعْمَى يوجبانِ استحسانَ القبيحِ واستقباحَ الحسنِ.

والذِي نقولُهُ لهؤلاءِ ـ هدانَا اللهُ وإياهُم ـ: الواجبُ عليكمُ التوبةُ والرجوعُ إلىٰ الصوابِ، فالرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ منَ التمادي في الباطلِ، وقدْ وضحتْ لكمْ سُنَّةُ رسولِ اللهِ ﷺ، وأنتمْ مأمورونَ باتباعهِ والاقتداءِ بهِ، قالَ تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فتمسكُوا بسُنَّتِهِ وَلاَ تغترُّوا بكثرةِ المخالفينَ.

ومن الأمورِ التي يجري فيها تقليدُ الكفارِ: التكلمُ بلغتهمْ من غيرِ حاجَةٍ، حتى بينَ العربِ الخُلصِ وفي بلادِ العربِ، فإنَّ الإنْسانَ إِذَا أكثرَ منَ التكلمِ بغيرِ

العربيةِ، اعتادَ ذلكَ وهجرَ اللسانَ العربيَّ، وهُو شعارُ الإسلامِ، فاللغاتُ منْ أعظمِ شعائرِ الأُممِ التِي بهَا يتميزونَ، ولهذا كانَ كثيرٌ منَ الفقهاءِ أو أكثرُهُمْ يكرهونَ في الأدعيةِ التي في الصلاةِ والذكرِ أنْ يدعىٰ اللهُ أو يذكرَ بغيرِ العربية، فإنَّ اللهَ قدِ اختارَ لسانَ العربِ، فأنزلَ بهِ كتابهُ العزيزَ، وجعلهُ لسانَ خاتمِ النبيينَ محمدٍ ﷺ، واعتيادُ الخِطابِ بغيرِ العربيةِ التِي هي شعارُ الإسلامِ ولغةُ القرآنِ، لاَ ريبَ أنَّهُ مكروهٌ، فإنَّه منَ التشبُّهِ بالأعاجم، ولأنَّهُ يفضي إلى هجرِ العربيةِ واستبدالها بغيرها. واللغةُ العربيةُ مِنَ الدينِ، وتعلُّمها فرضٌ واجبُ، لأن فهمَ الكتابِ والسنةِ فرضٌ، ولايُفهمانِ إلا بفهمِ العربيةِ، وما لا يتمُّ الواجب إلاَّ به فهو واجبٌ.

وَأَمَّا اللُّغَةُ الأَجْنَبِيَّةُ فَيَتَعَلَّمُهَا المُسْلِمُ، وَيَنْطِقُ بِهَا عِنْدَ الحَاجَةِ فَقَطْ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ حَاجَةٌ فيُكْرَهُ لَهُ أَنْ يَنْطِقَ بِهَا، لَكِنْ ـ مَعَ الأَسَفِ ـ ادْخُلْ فِي المُسْتَشْفَيَاتِ العَرَبِيَّةِ أَوِ المَطَارَاتِ، وَسَتَجِدُ التَّخَاطُبَ وَالكِتَابَةَ بِغَيْرِ العَرَبِيَّةِ، حَتَّى كَأَنَّكَ فِي أُورُوبَّا.

ومن الأمورِ التي يجري تقليدُ الكفارِ فيها: تقليدهم في أمورِ العباداتِ، كتقليدهمْ في الأمورِ الشركيةِ، منَ البناءِ على القبورِ، وتشييدِ المشاهدِ عليها والغلوِّ فيها، وقدْ قالَ ﷺ: «**لعنةُ اللهِ على اليهودِ والنصارىٰ، اتخذوا قبورَ أنبيائهمْ مساجدَ**»[1]، وأخبر أنهمْ إذَا ماتَ فيهمُ الرجلُ الصالحُ بنَوا على قبرِهِ مسجدًا، وصوَّرُوا فيهِ الصورَ، وأنَّهمْ شرارُ الخلقِ[2].

وقدْ وقعَ في هذِهِ الأمَّةِ منَ الشركِ الأكبرِ ـ بسببِ الغلوِّ في القبورِ ـ مَا هو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥، ٤٣٦)، ومسلم (٥٣١) من حديث عائشة وعبد الله بن عباس.
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧، ٤٣٤، ١٣٤١، ٣٨٧٣)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة.

معلومٌ لدى الخاصِّ والعامِّ، وسببُ ذلكَ تقليدُ اليهودِ والنصارىٰ، ومنْ ذلكَ تقليدهم في الأعيادِ الشركيةِ والبدعيةِ، كأعيادِ الموالدِ، وعيدِ مولدِ الرسولِ ﷺ، وأعيادِ موالدِ الرؤساءِ والملوكِ، وقدْ تسمَّىٰ هذِهِ الأعيادُ البدعيةُ أو الشركيةُ بالأيَّامِ أو الأسابيعِ، كاليومِ الوطني للبلادِ، ويومِ الأمِّ، وأسبوعِ النظافةِ، وغيرِ ذلكَ منَ الأعيادِ اليوميةِ والأسبوعيَّةِ، وكلهَا وافدَةٌ على المسلمينَ منَ الكفارِ، وإلاَّ فليسَ في الإسلامِ إلاَّ عِيدانِ عيدُ الفطرِ وعيدُ الأضحىٰ، ومَا عداهمَا فهو بدعةٌ وتقليدٌ للكفارِ.

فيجبُ على المسلمينَ أنْ يتنبهُوا لذلكَ، ولاَ يغتَرُّوا بكثرةِ منْ يفعلهُ ممنْ ينتسبُ إلىٰ الإسلامِ وهُو يجهلُ حقيقةَ الإسلامِ، فيقعُ في هذِه الأُمُورِ عنْ جهلٍ، أوْ لاَ يجهلُ حقيقةَ الإسلامِ ولكنَّهُ يتعمدُ هذِهِ الأمورَ فالمُصيبةُ حينئذٍ أشدُّ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *

في التحذيرِ منَ التَّشَبُّهِ بالكُفَّارِ في عَادَاتِهِمْ وتَقَالِيدِهِمْ

الحمدُ للهِ الذِي أكملَ لنَا الدِّينَ، وأتمَّ علينَا النعمةَ، ورضيَ لنَا الإسلامَ ديناً، وحذَّرنَا منْ تقليدِ الكفارِ، والركونِ إلى الأشرارِ، لنكونَ أُمَّةً واحدةً متماسكةً، لهَا مكانتُهَا وعزَّتُها. وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، لاَ ربَّ لنَا سِوَاهُ، وَلاَ نعبدُ إلاَّ إيَّاهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، أرسلهُ رحمةً للعالمينَ، فأغنى بهِ بعدَ عيلةٍ، وكثَّرَ بهِ بعدَ قلَّةٍ، وأعزَّ بهِ بعدَ ذِلةٍ، واستقامتْ ببعثتِهِ الملَّةُ، نَبيٌّ شرحَ اللهُ لهُ صدرهُ، ورفعَ لهُ ذِكْرَهُ، وجعلَ الذِّلَّةَ والصَّغارَ على من خالفَ أمرهُ ﷺ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومنْ تمسكَ بسُنَّتِهِ وسارَ على نهجهِ إلى يومِ الدِّينِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا المسلمونَ: اتقُوا اللهَ تعالى، يقولُ اللهُ لنبيهِ ﷺ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]، ويقولُ سبحانهُ لنبيهِ ﷺ: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف: ٤٣ ٤٤]، ويأمرُنَا سبحانه بمثلِ مَا أمرَ بهِ نبينَا فيقولُ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

أجلْ، إنَّ هذا الدِّينَ هُو صراطُ اللهِ المستقيمُ، منْ سارَ عليهْ نجا، ومن حادَ عنهُ هلكَ، وقدْ وفَّرَ اللهُ فِي هذَا الدِّينِ كُلَّ أسبابِ الفلاحِ والرُّقِيِّ والتقدمِ، فلوْ

تمسكنَا بهِ حقَّ التمسكِ لصرنا أرقى الناسِ، ولأصبحَ كُلُّ العالمِ يحتاجُ إلى مَا عندَنَا، ولسنَا بحاجَةٍ إلى أحدٍ غيرِ اللهِ، ولكنَّنا ضيعنَا دِيننَا فضعنَا، وصرنا نستوردُ منْ أعدائِنَا كلَّ عادَةٍ سَيِّئَةٍ، وكلَّ خُلُقٍ ذميمٍ، وكلَّ سُنَّةٍ جاهليَّةٍ، فننشرُ ذلكَ في مجتمعنا ونربِّي عليهِ أولادَنا ونساءَنا، دُون تفكيرٍ في عواقبهِ، وتقديرٍ لنتائجهِ، لنسايرَ ركبَ الحضارَةِ، ونمشي معَ الركبِ العالَمِيِّ، ولوْ كانَ يسيرُ إلى الهاويةِ، ولوْ كانَ يسعىٰ إلى الهلاكِ، والمُهمُّ ألا نتخَلَّفَ عنهُمْ!

وهمْ يخَطِّطُونَ لنَا أسبابَ هلاكِنَا، ونحنُ ننفذُهَا بكلِّ اعتزازٍ وافتخارٍ، وهُم يحاوِلُونَ القضاءَ عَلى دِينِنَا أو إبعادَنَا عنهُ، ونحنُ نساعدُهمْ على ذلكِ، ففي كلِّ يومٍ ندفنُ جُزْءًا منْ دِينِنَا، ونُحلُّ محلَّهُ عادةً غربيةً، أوْ سُنَّةً منْ سُننِ الجاهِليَّةِ، وصدقَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عَنْهُ حيثُ يقُولُ: «إنَّمَا تنقضُ عُرىٰ الإسلامِ عُرْوةً عُرْوةً إذَا نشَأَ في الإسلامِ مَنْ لاَ يَعْرِفُ الجاهِليَّةَ».

إن ديننا لا يُحرِّم علينا أن نستوردَ من الكفارِ المدفَعَ والدبابةَ وسلاحَ القتالِ بأنواعِهِ وأنْ نستفيدَ منْ خبراتهمْ في مجالِ التقنيةِ وخُططِ الصناعةِ، ودينَنَا لاَ يحرِّمُ علينَا التعاملَ معَ الكفارِ في مجَالِ التجارَةِ المباحةِ وتبادلَ المنافعِ المفيدةِ، إنَّمَا الذِي يحرِّمُهُ دِينُنَا التشبهَ بهمْ فيمَا هُو منْ خصائصهمْ، لمَا في ذلكَ منَ المفاسدِ العاجلةِ والآجلةِ، فلاَ نتشبهُ بهمْ في أعيادِهمْ وعاداتِهمْ، ولاَ نتشبَّهُ بهِمْ في لباسِهِمْ وهيْآتهِمْ.

ومن ذلكَ: مانسمعهُ دائماً منْ جعلِ أسبوعٍ للشجرةِ، وعامٍ للطفلِ، وأسبوعٍ للنظافةِ، وعيدٍ للأمِّ. ومَا إلى ذلكَ ممَّا يمليهِ أعداؤنَا، ويتلقفهُ سفهاؤنَا، لينشُروه بيننَا.

إن دِيننَا لاَ يخصص يوماً منَ الأيَّامِ لعملٍ منْ هذهِ الأعمالِ، فهُو يحثُّ على

غرسِ الأشْجارِ النافعةِ والزراعةِ المفيدَةِ في كلِّ وقتٍ مناسبٍ، ودِينُنا يحثُّ على تربيةِ الأطفالِ والعنايةِ بهمْ، والإحسانِ إلى الأيتامِ منهمْ، في كلِّ الأوقاتِ وفي جميعِ الساعاتِ، يقولُ ﷺ: «مُرُوا أولَادكُمْ بالصلاةِ لسبعٍ، واضربُوهمْ عليهَا لعشرٍ، وفرِّقُوا بينهمْ في المضاجعِ»(١)، ويقولُ ﷺ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢)، واللهُ تعالَىٰ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وإنَّ ديننا يأمُرُ بالنظافةِ في كُلِّ وقتٍ، ويحثُّ على التجملِ في الثيابِ والهيئةِ، ويرغبُ في استعمالِ الطيبِ، ويوجبُ الوضوءَ للصلاةِ، والاغتسالَ منَ الجنابَةِ، ويأمُرُ بتجنُّبِ الأنْجاسِ والقاذُورَاتِ. وديننا يأمُرُ بالإحسانِ إلى الوالدَيْنِ، وصلةِ الأرْحامِ، والإحسانِ إلى الفقراءِ والأيْتامِ، في كلِّ وَقْتٍ، وفي كُلِّ فرصةٍ، حسبَ الإمكانِ.

إنْ ديننا كمالٌ كُلُّهُ، وخيرٌ كلهُ، لوْ تمسكَ بهِ المسلمونَ ونفَّذُوه على وجْهِهِ الصحيحِ، لأصبَحَ العالمُ كُلُّهُ بحاجةٍ إليهِمْ، وليسُوا بحاجَةٍ إلَى أحَدٍ سوَىٰ اللهِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ۝١٣٩﴾ [آل عمران: ١٣٩]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ: ثمَّ إنَّ اللهَ شرعَ على لسانِ خاتمِ النبيينَ منَ الأعمالِ مَا فيهِ صلَاحُ الخلقِ، على أتمِّ الوجُوهِ، وهُو الكمالُ المذكورُ في قولهِ تعالَىٰ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، ولهذا أنزلَ اللهُ هذهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) أخرجه البخاري (٨٩٣)، ومسلم (١٨٢٩) من حديث ابن عمر.

الآيةَ في أعظمِ أعيادِ الأُمّةِ الحنيفيّةِ، فإنّهُ لاَ عيدَ أعظمَ منَ العيدِ الذِي يجتمعُ فيهِ شرفُ المكانِ والزَّمَانِ، وهُو عيدُ النَّحْرِ، وَلاَ عينَ منْ أعيانِ هذا النوعِ أعظمَ منْ يومٍ كانَ قدْ أقامهُ رسولُ اللهِ ﷺ بعامَّةِ المسلمينَ، وقدْ نفىٰ اللهُ الكفرَ وأهلهُ، والشرائعُ هِي غذاءُ القلوبِ وقوتهَا، كمَا قالَ ابْنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ ـ ويُرْوَى مرفوعًا ـ: «إنَّ كلَّ آدِبٍ يحبُّ أنْ تؤتىٰ مأدبتهُ، وإنَّ مأدبةَ اللهِ هي القرآنُ»[١].

ومنَ شأنِ الجسدِ إذا كانَ جائعاً، فأخذَ منْ طعامٍ حاجَتَهُ، استغْنَى عنْ طعامٍ آخرَ، فالعبدُ إذا أخذَ منْ غيرِ الأعمالِ المشرُوعةِ بعضَ حاجتِهِ، قلَّتْ رغبتُهُ في المشروعِ وانتفاعهِ بهِ، بقدرِ ما اعتاضَ عنهُ من غيرهِ بخلافِ منْ صرفَ نهمتَهُ وهمَّتَهُ إلى المشروعِ، فإنَّهُ تعظُمُ محبتُهُ له ومنفعتُهُ بِهِ، ويتمُّ دينُه بهِ ويكملُ إسلامُهُ، ولهذَا تجدُ منْ أكثَرَ من سماعِ الأغاني تنقُصُ رغبتُهُ في سماعِ القرآنِ، حتَّى رُبَّما يكرهُهُ، ومنْ أكثرَ من السفرِ إلى زيارَةِ المشاهدِ ونحوهَا لاَ يبقَى لحجِّ البيتِ المحرَّمِ في قلبهِ من المحبةِ والتعظيمِ مَا يكونُ في قلبِ منْ وسعتهُ السُّنَّةُ، ومنْ أدمنَ على أخذِ الحكمةِ والآدابِ منْ كلامِ حُكماءِ فارسَ والروم، لاَ يبقَىٰ لحِكْمَةِ الإسلامِ وآدابه في قلبهِ ذاكَ الموقعُ، ومنْ أدمنَ على قصصِ الملوكِ وسيرهمْ لاَ يبقىٰ لقصصِ الأنبياءِ وسيرِهمْ في قلبهِ ذاكَ الاهتمامُ، ونظائرُ هذا كثيرةٌ، ولهذَا جاءَ في الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ: «مَا ابتدَعَ قومٌ بدعةً إلاَّ نزعَ اللهُ عنهمْ من السُّنَّةِ مثلهَا» رواهُ الإمامُ أحمدُ[٢].

---

(١) الموقوف أخرجه الدارمي (٣٣٢١) وابن أبي عاصم في الزهد (ص ١٦٣). والمرفوع أخرجه البيهقي في الشعب (٢٠١٢) من حديث سمرة بن جندب، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٤٧).

(٢) المسند (٤/ ١٠٥)،وجود إسناده الحافظ في فتح الباري (١٣/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤).

إلى أنْ قالَ: فالمشابهةُ والمشاكلةُ توجِبُ مشابهةً ومشاكلةً في الأمورِ الباطنةِ، على وجهِ المسارقةِ والتدريجِ الخفِيِّ. والمشاركةُ في الهَدْيِ الظاهرِ توجِبُ أيضًا مناسبةً وائتلافًا وإنْ بَعدَ المكانُ والزمانُ. . فمشابهتُهُمْ في أعيادِهِمْ ولو القليلِ هي سببٌ لنوعٍ مَا مِنِ اكتسابِ أخلاقِهِم التِي هي ملعونَةٌ.

وقالَ ـ رحمهُ اللهُ ـ على قولِهِ ﷺ: «منْ تشبهَ بقومٍ فهو منهمْ»[1]: وهذا الحديثُ أقلُّ أحوالِهِ: أنَّهُ يقتضِي تحريمَ التشبهِ بهمْ، وإنْ كانَ ظاهرُهُ يقتضِي كفرَ المتشبهِ بهمْ، كمَا في قولِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وهو نظيرُ مَا سنذكُرهُ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرو أنه قالَ: «من بَنَى بأرضِ المشركينَ وصنعَ نيرُوزهُمْ ومهرجانهمْ وتشبَّهَ بهمْ حتَّى يموتَ حُشرَ معهمْ يومَ القيامَةِ»[2]. انتهى كلامُهُ رحمَهُ اللهُ.

فانتبهُوا لأنفسكُمْ أيُّهَا المسلمونَ. واشكرُوا اللهَ على مَا هدَاكُم إليهِ منْ هذَا الدِّينِ، وتمسَّكُوا بهِ، وَلاَتبتغُوا بهِ بَديلاً، إنْ كنتُم تُريدُونَ السعادةَ والنجاةَ في الدُّنْيَا والآخرَةِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ. . .﴾ [المائدة: ٥١] الآياتِ.

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣١) من حديث ابن عمر. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦١٤٩).

(٢) أخرجه البيهقي (٩/ ٢٣٤).

التحذيرُ مِنَ الثّقَةِ بالكُفّارِ

الحمدُ للهِ الذِي حذَّرنَا منَ الركُونِ إلى الكفارِ، لمَا فيهِ منَ الأضْرارِ، وأشهدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، يخلقُ مَا يشاءُ ويختارُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبْدُهُ ورَسُولُهُ، سيِّدُ الأبْرارِ، صَلى اللهُ عليْهِ وعَلى آلِهِ وأصحابهِ، المهاجرينَ منهمْ والأنصارِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا، مَا اختلفَ اللَّيْلُ والنَّهارُ.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا النَّاسُ: اتقوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعَالَى حذَّرَنا منَ الثِّقَةِ بالكُفَّارِ والاطمئنانِ إليهم، وبيَّنَ لنَا أنَّهُم لاَ يُريدونَ لنَا الخيرَ، وأنَّهُم يبغِضُونَنَا أشَدَّ البُغْضِ، ويحسُدُونَنَا أشدَّ الحسدِ، وأنَّهُم لاَ يألُونَ جُهْداً فِي إنْزالِ الضَّررِ بنَا، والقضاءِ على دِينِنَا، وإرجاعِنَا إلى الكفرِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ [النساء: ٨٩]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ۝٢ ﴾ [الممتحنة: ٢]، ، إلى غيرِ ذلكَ منَ الآياتِ التي تحذِّرُ منْ وضعِ الثقةِ بالكفارِ وتبيِّنُ مكائِدَهُم.

فَمَا زالَ الكفارُ منذُ بعثةِ رسُولِ اللهِ ﷺ ونُزُولِ القُرآنِ يخططونَ للقضاءِ على الإسلامِ والمسلمينَ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ [التوبة : ٣٢]، فهُم تارةً يحاولونَ القضاءَ على الإسلامِ بالغزوِ المسلحِ، وتارةً ببثِّ الدسائسِ في صفوفِ المسلمينَ، وتارةً بالمكرِ والخديعةِ وإظهارِ النصحِ والصداقة، وهكذا، كلما عجزوا من بابٍ جاءوا من بابٍ آخر، وإذا لم يتمكنوا من إنزالِ الضَّرر بجماعةِ المسلمينَ حاوَلُوا إنزالَهُ بأفرادِهِم، هذَا ودينُنَا واضحٌ كلَّ الوضوح ببيانِ مكائدِهِمْ وفضحِ دسائسِهِمْ، لكنْ قدْ يُصِيبُونَ منَ المسلمينَ غرةً، ويهتَبِلُونَ منهُم غفلةً، فيقذفونَ سُمُومهَمْ في جِسْمِ الأُمَّةِ الإسْلاميَّةِ، فإذَا تنبَّهَ المسلمونَ لهُمْ ورجعُوا إلى دينهِم، ردَّ اللهُ كيدَهُمْ في نُحُورِهِمْ، وكَفَى المسلمينَ شرَّهُم.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ كيدَ الكفارِ للمسلمينَ في هذا الزمانِ قدْ تزايَدَ، وتأثيرهم عليهِم قدْ تضاعفَ، نتيجةً لغفلةِ المسلمينَ عنهُم، وتساهُلِهِم في شَأْنِهِم، ووضعِ الثقةِ فيهِم، وهذَا مصْداقُ مَا أخبرَ بِهِ النَّبيُّ ﷺ بقولِهِ ﷺ: **«يوشكُ أنْ تتداعَى عليكُمُ الأُممُ كمَا تتداعَى الأَكَلةُ على قصعتِهَا»** قالوا: أَمِنْ قِلَّةٍ نحْنُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«لاَ، أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، ولَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»**[(١)].

ومنْ تمامِ الابتلاءِ: مَا أُعطِي الكفارُ في زمانِنَا هذا منْ مهارَةٍ في الاختراعِ، والصناعةِ، ومعرفةٍ بنظامِ الحياةِ الدُّنْيَا ممَّا حُرِمَ منهُ المسلمُونَ نتيجةً لتكاسُلِهِم وتفكُّكِهِم، معَ أنَّ الأجْدرَ أنْ يكونَ المسلمونَ هُمُ السابقينَ في كلِّ مجالٍ؛ لأنَّ دينهُم يأمُرُهُم بذلِكَ، ويريدُ منهُم أنْ يكونُوا هُم القادةَ، ويكونَ الكفارُ تابعينَ لهُمْ، كمَا كانَ أسلافُهُم كذلكَ.

لكنْ حينمَا تخلَّى المسلمونَ عنْ مكانتِهِم في العالمِ، وضيَّعوا دينهُم،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٢٩٧) من حديث ثوبان. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٨٣).

ضاعُوا وصارُوا عالةً على الكفارِ في كلِّ شيءٍ، فانتهزَ الكفارُ حاجةَ المسلمينَ إليهم، فصارُوا لاَ يعْطُونهُم شيئًا ممَّا بأيديهِم، إلاَّ بدفعِ الثمنِ غاليًا منْ دينهم وأموالِهِمْ وأَوطانِهِم، وصار المسلمونَ يدفعونَ أولادَهُمْ إلى بلادِ الكفارِ، ليكسبُوا منْ خبراتِهِم، ويتعلموا في مدارسِهِمْ ما بِهِ يدفعُونَ حاجةَ بلادِهِم في مجالِ الصناعةِ والتنظيمِ.

هذَا قصدُ المسلمينَ من إرسالِ أولادِهِم إلى الكفارِ، ولكنَّ الكفارَ لهُم مقصدٌ يخالفُ قصدَ المسلمينَ، وهُو: إفسادُ أَوْلادِ المسلمينَ، وسلخِهِم منْ دينهِمْ، وتلقينِهِم الإلْحادَ والزندقةَ، وإغراقِهم في الشهواتِ المحرَّمةِ، حتَّى يرجعَ كثيرٌ منهُم إلى بلادِهِم بِلاَ دِينٍ وَلاَ خُلُقٍ، وَبالتَّالي بِلاَ تعلُّمٍ مفيدٍ، وهذَا مَا يُرِيدُهُ الكفارُ بالمسلِمينَ، يُريدُونَ أنْ يبْقُوا بحاجَةٍ إليهِم دائماً، ويريدُونَ أنْ يفسدُوا أولادَ المسلمينَ، حتَّى يصبحُوا حَرْبَةً في نحُورِ المسلمينَ، وقدْ سنحتْ لهُمُ الفرصةُ، وصدقَ اللهُ العظِيمُ ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ ﴾ [آل عمران: ١١٨] كم أرسلَ المسلمونَ أولادَهُم الأفواجَ تِلوَ الأفْوَاجِ، فماذَا استفادُوا من تلكَ البعثاتِ؟ لقدْ خسِرُوا أولادَهُمْ، ولمْ تُسدَّ حاجتُهُم، ولمْ يستغنُوا عنِ الكفارِ! والأَدْهىٰ منْ ذلكَ أنَّ بعضَ المسلمينَ قدْ بلغَ منْ ثقتِهِم بالكُفارِ وإحسانِ الظَّنِّ بهِم أن استقدمُوا منهُم مربينَ ومربياتٍ لأَولاَدِهِمْ، وأدخَلُوهُمْ فِي بُيوتِهِمْ، وسلَّمُوهُم أولادَهُم الصغارَ، فانتهزَ هؤُلاءِ المربونَ الفرصةَ، ليُغَيِّروا فطْرتهُم، ويُنشِئُوهُم على دِينِ الكُفْرِ، أو يفسدُوا أخلاقهُم. وقدْ حصلتْ وقائعُ ومواقفُ لأُولئكَ المُربِّينَ معَ أولادِ المسلمينَ، يلقنونهُم دِينَ النصارىٰ، ويحذرونهمْ منْ دِينِ المسلمينَ، ويغرِسُونَ فيهمْ عقائدَ الإلحادِ.

وفريقٌ آخرُ من المسلمينَ يستقدمُونَ سائقِينَ منَ الكُفَّارِ لعوائلهم، يدخُلُونَ

بُيوتَهُم، ويخلُونَ بنسَائِهِمْ وأولادِهِم، فمَا ظَنُّكُم بنتائجِ هذَا العملِ، حينمَا مكَّنُوا أعدَاءهُم منْ أنفُسِهِم، وأطلعُوهُم على سرائرِهِمْ؟.

والفريقُ الآخرُ منَ المسلمينَ يستقدمُ الكفارَ للعملِ في متجرِهِ أوْ مؤسستِهِ، حتَّى كثرَ عددُ الكفارِ في بلَادِ المسلمينَ، مُصْطَحِبينَ معهُم عادَاتِهم وتقاليدَهُم الكفرية.

أَيُّهَا المسلمونَ: تنبهُوا لأنفسكُم، واتقُوا اللهَ في دينكُم وأوْلادِكُم وبِلَادِكُم، مَنِ اضطُرَّ إلى استقدامِ مُربِّياتٍ أوْ خادِماتٍ أو استقدامِ عُمَّالٍ، فليستقدِمْ مِنَ المسلمينَ الصَّالِحينَ، وهُم كثيرٌ، وخطرُهُم مأمُونٌ، وعندهُم منَ الخبرةِ والنُّصْحِ مَا ليسَ عندَ الكفارِ.

واعلموا: أنهُ لاَ يجوزُ استقدامُ النِّساءِ إلاَّ معَ محارِمِهِنَّ، ولاَ يجوزُ للمسلمِ أنْ يخلُو بامرأةٍ وهُو ليسَ محرماً لهَا، سواءٌ كانتْ خادِمةً أوْ غيرَ خادمةٍ. فلاَ تتساهلُوا في هذا الأمرِ، فإنَّهُ خطيرٌ على أنفسكُم وأولاَدِكُمْ، وكُفُّوا عنِ استقدامِ الأجانبِ إلاَّ بقدْرِ الضَّرُورَةِ، معَ الضَّوابطِ والضماناتِ التي تقِي المسلمينَ خطَرهُمْ وضرَرهُم.

واسمعُوا قولَ اللهِ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران: ١١٨].

* * *

فِي التَّحذِيرِ من مُخَالَطَةِ الأَشْرَارِ

الحمدُ للهِ الذي أمرَ بمصاحبةِ الأخيارِ، ونهىٰ عنْ مصاحبةِ الأشرارِ، فقَالَ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ، بيَّن لعبادِهِ طرقَ الخيرِ ليسْلكُوهَا، وبيَّنَ لهُمْ طرقَ الشرِّ ليجتَنِبُوها، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسُولهُ، رغَّبَ في اختيارِ الجَليسِ الصالحِ، وحذَّرَ منْ جليسِ السوءِ، صلَّى الله عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ ومنْ سارَ على نهجِه وتمسكَ بسُنَّتِه إلى يومِ الدِّينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

عبادَ اللهِ: اتَّقُوا اللهَ واعلمُوا أنَّ الإنسانَ في هذهِ الحياةِ لاَ يستطيعُ أنْ يعيشَ وحدَهُ في عزلةٍ تامَّةٍ عنِ الناسِ، فهو بحاجةٍ إلى مخالطتِهِمْ ومجَالستِهِمْ، وهذا الاختلاطُ لاَ بُدَّ أنْ تكونَ لهُ آثارٌ حسنةٌ أوْ قبيحةٌ، حسبَ نوعيةِ الجُلساءِ والخُلطاءِ، ومنْ هنا تضافرتْ نصوصُ الكتابِ والسُّنةِ على الحثِّ على اختيارِ الجليسِ الصالحِ، والابتعادِ عنِ الجَليسِ السَّيِّئِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، وقالَ ﷺ: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ إمَّا أَنْ يُحْذِيك، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ

الكِيرِ إمَّا أنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإمَّا أنْ تَجدَ مِنْهُ رِيحاً خَبِيثةً» متفقٌ عليهِ[1].

أَيُّهَا المُسْلِمُ: اجعلْ هذَا الحديثَ الشريفَ دائماً على بالكَ وأنتَ تخالطُ الناسَ في الأسواقِ والمجالسِ، وفي البيوتِ والمدارسِ، وفي المكاتبِ والدوائرِ، وفي كلِّ مجالٍ تخالطُ فيهِ الناسَ، فاخترْ لصحبتكَ ومجالستكَ ومشاركتِكَ في مزاولةِ أيِّ عملٍ، اختَر الصالحينَ منَ الناسِ، ليكونُوا لكَ جلساءَ وزملاءَ وشركاءَ وحاشيةً ومستشارينَ، فهذا الحديثُ الشريفُ يفيدُ أنَّ الجليسَ الصالحَ جميعُ أحوالِ صديقهِ معهُ خيرٌ وبركةٌ ونفعٌ ومغنمٌ، مثلُ حاملِ المسكِ الذي تنتفعُ بما معهُ، إمَّا بهبةٍ، أوْ ببيعٍ، أوْ أقلّ شيءٍ تكونُ مدةُ جلوسكَ معهُ قريرَ العينِ منشرحَ الصدرِ برائحةِ المسكِ؛ جليسكَ الصالحُ يأمركَ بالخيرِ، وينهاكَ عنِ الشرِّ، ويسمعكَ العلمَ النافعَ، والقولَ الصادقَ، والحكمةَ البالغةَ، ويعرفُكَ عيوبَ نفسكَ، ويشغلكَ عمَّا لاَ يعنيكَ، ويجهدُ نفسهُ في تعليمكَ وتفهيمكَ، وإصلاحكَ وتقويمكَ، إذَا غفلتَ ذكَّركَ، وإذا أهملتَ أوْ مللتَ بشَّركَ وأنذركَ، يحمي عرضكَ في مغيبكَ وحضرتِكَ، وأولئكَ القومُ لاَ يشقَىٰ بهمْ جليسهُمْ، تنزلُ عليهم الرحمةُ، فتشاركهُمْ فيها، وأقلُّ مَا تستفيدهُ منَ الجليسِ الصالحِ ـ وهي فائدةٌ لاَ يستهانُ بهَا ـ أنْ تنكفَّ بسببهِ عنِ السيئاتِ والمعاصِي، رعايةً للصحبةِ، ومنافسةً في الخيرِ، وترفعًا عنِ الشرِّ، وفوائدُ الأصحابِ الصالحينَ لاَ تعدُّ ولاَ تحصَى، وحسبُ المرءِ أنْ يعتبرَ بقرينهِ، وأنْ يكونَ على دِينِ خليلهِ.

وصُحْبَةُ الصَّالِحِينَ ينتفعُ بهَا حتَّى البهائمُ، كما حصلَ للكلبِ الذِي كانَ معَ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣٤) وفي (٢١٠١) نحوه، ومسلم (٢٦٢٩) من حديث أبي موسى الأشعري.

أصحابِ الكهفِ، فقدْ شملتْهُ بركتهُمْ، فأصابهُ مَا أصابهُمْ منَ النومِ على تلكَ الحَالِ العجيبَةِ، وصارَ لَهُ ذكرٌ وخبرٌ وشأنٌ.

وأَمَّا صُحْبَةُ الأَشْرَارِ فإنَّها السمُّ الناقعُ، والبلاءُ الواقعُ، فهمْ يشجعونَ على فعلِ المعاصِي والمنكراتِ، ويرغبونَ فيها، ويفتحونَ لمنْ جالسهُمْ وخالطهُمْ أبوابَ الشرُورِ، ويسهلونَ لهُ سبلَ المعاصِي، فقرينُ السوءِ إنْ لمْ تشاركْهُ في إساءتِهِ، أخذتَ بنصيبٍ وافرٍ من الرضَا بمَا يصنعُ، والسكوتِ على شرهِ، فهُوَ كنافخِ الكِيرِ على الفحمِ الملوثِ، وأنتَ جليسهُ القريبُ منهُ، يحرقُ بدنكَ وثيابكَ ويملأُ أنفكَ بالروائحِ الكريهةِ، وفي مجالسِ الشرِّ تقعُ الغيبةُ والنميمةُ، والكذبُ والشتمُ، والكلامُ الفاحشُ، ويقعُ اللهوُ واللعبُ، وممالأَةُ الفساقِ على الخوضِ في الباطلِ، فهيَ ضارةٌ منْ جميعِ الوجُوهِ لمنْ صاحبهُمْ، وشرٌّ على منْ خالطهُمْ، فكمْ هلكَ بسببهِمْ أقوامٌ، وكمْ قادُوا أصحابهُمْ إلى المهالكِ من حيثُ يشعرونَ ومنْ حيثُ لاَ يشعرونَ.

وَإِلَيْكُم واقعتينِ مأساتينِ، حصلتَا بسببِ صحبةِ الأشرارِ:

الواقعةُ الأُولىٰ: وردَ أنَّ عقبةَ بنَ أبِي معيطٍ كانَ يجلسُ معَ النبيِّ ﷺ بمكةَ ولاَ يؤذِيهِ، وكانَ بقيةُ قريشٍ إذَا جلسُوا معهُ يؤذونَهُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، وكانَ لابنِ أَبِي معيطٍ خليلٌ كافرٌ غائبٌ في الشامِ، فظنتْ قريشٌ أنَّ ابنَ أبِي معيطٍ قدْ أسلمَ، فلما قدِمَ خليلُهُ من الشامِ وبلغهُ ذلكَ غضبَ عليهِ غضبًا شديدًا، وأبَىٰ أنْ يكلمهُ حتى يؤذي النبيَّ ﷺ، فنفذ مَا طلبَ منهُ خليلُهُ الكافرُ، وآذى النبيَّ ﷺ، فكانتْ عاقبتُهُ أنْ قُتِلَ يومَ بدرٍ كافرًا، وأنزلَ اللهُ فيهِ قولَه تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ

أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1] [الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩]. وهي عامةٌ في كلِّ منْ صاحبَ الظلمةَ فأضلوهُ عنْ سبيلِ اللهِ، فإنه سيندمُ يومَ القيامةِ على مصاحبتهِمْ، وعلى الإعراضِ عن طريقِ الهدىٰ الذي جاءَ بِهِ الرسولُ ﷺ.

الواقعةُ الثانية: روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ عنْ سعيدِ بن المسيبِ عن أبيهِ قالَ: لمَّا حضرتْ أبَا طالبِ الوفاةُ جاءَهُ رسولُ اللهِ ﷺ وعندهُ عبدُ اللهِ بن أَبِي أُميَّةَ وأَبُو جهلٍ، فقالَ لهُ: «يا عمِّ قلْ: لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فَقَالاَ لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ مَا قالَ: هُو عَلَى مِلَّةِ عبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبى أَنْ يَقُولَ: لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ: «لأَسْتغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ... ﴾ [التوبة: ١١٣] الآية، وَأَنزلَ اللهُ في أَبِي طالبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾[2] [القصص: ٥٦].

ففِي هذهِ الواقعةِ التحذيرُ الشديدُ منْ مصاحبةِ الأشرارِ وجُلساءِ السوءِ، وفي يومِ القِيامَةِ يقولُ القرينُ لقرينهِ منْ هذَا الصنفِ: ﴿ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

ألا فانتبهُوا يا عبادَ اللهِ لأنفسكُمْ، وجالسُوا أهلَ البرِّ والتقوى، خالطُوا أهلَ الصلاحِ والاستقامةِ، وابتعدُوا وأبعدُوا أولادكُمْ عنْ مخالطةِ الأشرارِ ومصاحبةِ الفجارِ، خصوصاً في هذا الزمنِ الذي قلَّ فيهِ الصالحونَ، وتلاطمتْ فيهِ أمواجُ

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٧٣١) عن مقسم مولى ابن عباس والزهري بمعناه.
(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٠، ٣٨٨٤، ٤٦٧٥، ٤٧٧٢، ٦٦٨١) ومسلم (٢٤).

الفتنِ، فإنَّ الخطرَ عظيمٌ، والمتمسكُ بدينهِ غريبٌ بينَ الناسِ، وقدْ وقعَ ما أخبرَ بهِ النبيُّ ﷺ بقولِهِ: «بَدأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وسيعُودُ غريبًا كمَا بدأَ فطُوبَىٰ للغرباءِ»[1] قيلَ: ومنِ الغرباءُ يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «الذينَ يصلحونَ إِذَا فسدَ الناسُ» وفي روايةٍ «يصلحونَ مَا أفسدَ الناسُ»، وفي روايةٍ «هُمُ النُّزَّاعُ منَ القبائِلِ». فتنبهُوا لذلكَ، وفقكمُ اللهُ.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزخرف: ٦٦ ـ ٧٣].

* * *

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة.

التَّحذِيرُ مِنَ التَّشَبُّهِ بِالكُفَّارِ

الحمدُ للهِ الذي أكملَ لنَا الدينَ، وأتمَّ علينَا النعمةَ، ورضيَ لنَا الإسلامَ ديناً، وجعلنَا خيرَ أُمةٍ أخرجتْ للناسِ إنْ تمسكنَا بشرعهِ، وسرنَا على نهجهِ، وابتعدنَا عمَّا يخالفهُ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ في عبادتهِ، كمَا أنهُ ليسَ لهُ شريكٌ في ملكهِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسُولُه، حذرَ منَ التشبهِ بالكفارِ، لمَا فيهِ مِنَ الضررِ في الدِّين والدُّنيَا، فصلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ سارَ على نهجهِ وتمسكَ بسُنتهِ إلى يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعْدُ:

أيُّهَا المسلمونَ: اتقوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الواجبَ على المسلمِ أنْ يعتزَّ بإسلامِهِ، ويتشرفَ بدينهِ، لأنَّ دينهُ الإسلامُ الذِي يعلُو ولاَ يعلىٰ عليهِ، وقدْ أظهرَهُ اللهُ على الدِّينِ كُلِّهِ، تعاليمهُ رُشدٌ، وآدابهُ كمالٌ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] فلاَ بُدَّ أنْ يعرفَ المسلمُ نبيهُ حقَّ المعرفةِ، وما جاءَ بهِ، ويصدقهُ فيما أخبرَ بهِ، ويطيعَهُ فيمَا أمَرَ، فإنَّهُ لاَ سَبيلَ إلى السعادةِ والفلاحِ في الدنيا والآخرةِ إلاَّ على أيدِي الرسلِ، ولاَ سَبيلَ إلى معرفةِ الطيبِ منَ الخبيثِ على التفصيلِ إلاَّ منْ جهَتهمْ، ولاَ يُنالُ رِضَا اللهِ إلاَّ على أيديهمْ، فالطيبُ منَ الأعمالِ والأقوالِ والأخلاقِ. قالَ تعَالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فمَا بالُ أقوامٍ ينتسبونَ إلى هذَا الدِّينِ ثمَّ يخالفونهُ في أخلاقهمْ وعاداتهمْ،

فيتشبهونَ بالكفارِ في شتىٰ المجالاتِ عنْ عمدٍ وإصرَارٍ؟ وقدْ روىٰ أبُو داودَ عنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «منْ تشبهَ بقومٍ فهُو منهمْ»[1]، وفي سُنَنِ الترمذيِّ عنهُ ﷺ: «ليسَ منَّا منْ تشبَّهَ بقومٍ غيرنَا»[2].

إنَّ التشبهَ بالكفارِ في الظاهرِ يدلُّ على مودتهمْ في القلبِ، وذلكَ يُنافِي الإيمانَ، قالَ تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أَيُّها المسلمونَ: إنَّ ممَّا يندىٰ لهُ الجبينُ ويحزنُ لهُ القلبُ مَا تفشَّى في مجتمعنَا منْ أنواعِ التشبُّهِ بالكفارِ بينَ الرجالِ والنساءِ والشبابِ.

فمنْ أنواعِ التشبهِ بالكفارِ الفاشيةِ بينَ الرجالِ حلقُ اللحَىٰ وتوفيرُ الشواربِ، فرارًا من سنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ الثابتةِ عنهُ، فلقدْ كانَ منْ هديهِ الكاملِ وأخلاقهِ إعفاءُ اللحيةِ، وجزُّ الشاربِ أو قصه، قالَ جابرُ بنُ سمرةَ رضيَ اللهُ عنهُ: كانَ النبيُّ ﷺ كثيرَ شعرِ اللحيةِ[3]، لأنَّه ﷺ كانَ يعفِي لحيتَهُ، وكذلكَ الأنبياءُ الكرامُ قبلَهُ، فقدْ ذكرَ اللهُ تعالىٰ عنْ هارونَ أنَّهُ قالَ لموسَىٰ: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [طه: ٩٤]، وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ بتوفيرِ اللحيةِ وإحفاءِ الشواربِ، ففِي الصحيحينِ منْ حديثِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهمَا أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «وَفِّرُوا اللحىٰ وأحفُوا الشواربَ»[4] فتمسكُوا ـ أيُّهَا المسلمونَ ـ بهديِ نبيكُمْ ﷺ فهوَ خيرٌ لكمْ في الدنيا

---

(١) سنن أبي داود (٤٠٣١).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٩٦) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤٤/١٠٩).
(٤) أخرجه البخاري (٥٨٩٢، ٥٨٩٣) ومسلم (٢٥٩).

والآخرةِ.

يَا من تحلقونَ لِحاكُمْ، وتوفرونَ شواربكُمْ، اعلمُوا أنّكُمْ قدْ عصيتُمْ نبيكُمْ ﷺ، فبادِرُوا بالتوبةِ، فالرجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ منَ التمادي في الباطلِ. إنكُمْ ربمَا تنظرونَ إلى أناسٍ يحلقونَ لحاهُمْ فتريدُونَ مجَارَاتِهِم، وهذَا استسلامٌ للهوى، وضعفٌ في الإيمانِ، لأنَّ الذِي يجبُ الاقتداءُ بِهِ هُو رسولُ اللهِ ﷺ وهذِه سنتهُ في اللحيةِ واضحةٌ وضُوحَ الشمسِ، فلاَ عذرَ لمنْ ترَكَهَا. ربما يظنُّ بعضُ الناسِ أنَّ قضيةَ توفيرِ اللحيةِ أوْ حلقِها منَ الأمُورِ العاديةِ التي يُتبعُ فيهَا عادةُ الناسِ، وهذَا ظنٌّ باطلٌ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بتوفيرِ اللحىٰ، وأمرهُ واجبُ الامتثالِ وإنْ خالفهُ عاداتُ الناسِ، وإنَّ التمسكَ بالسُّنَّةِ معَ كثرةِ المخالفينَ لهَا دليلٌ على صدقِ الإيمانِ، وقوةِ العزيمةِ، وشهامةِ الرجولةِ، ومن استبانتْ لهُ سُنَّةُ الرسولِ ﷺ لمْ يكن لَهُ أنْ يدعها لأجلِ الناسِ.

ومنْ أنواعِ التشبهِ بالكفارِ: ما ابتليَ بهِ كثيرٌ منْ شبابِ المسلمينَ من إبقاءِ الشعورِ وإطالةِ الأظافرِ وغيرهَا تقليداً لسفلةِ العالمِ المسمينَ اللهيبيين والخنافسَ، وجماعةٌ منَ الشبابِ ابتلُوا بالميوعةِ، وتقليدِ النساءِ في النعومةِ، ولبسِ خواتم الذهبِ المحرمةِ، والتحلِّي بالسلاسلِ وغيرهَا.

فيَا شبابَ المسلمينَ: لاَ يجرفنكُمْ سيلُ المدنيَّةِ الحديثةِ الخبيثةِ، ولاَ يصرفنكُمُ الشيطانُ عنْ صِفاتِ الرجولةِ والشجاعةِ، لاَ تتشبهُوا بالنساءِ في تصفيفِ الشعورِ وتنسيقِ الثيابِ، إنَّهُ لاَ يبالغُ في الزينةِ والعنايةِ بجسمهِ وثوبهِ ومركوبهِ وفراشهِ إلاَّ مترفٌ لينٌ، لأنَّ الرجلَ خشنٌ بطبعهِ، وكلَّمَا تلينَ خفتْ رجولتُهُ، ونقصتْ ذكورتُهُ، وعجزَ عنِ الكفاحِ والقيامِ بمَا خلقَ لَهُ في معتركِ الحياةِ، فرجلُ العملِ لاَ يشغلُ وقتهُ بمَا أصيبَ بهِ كثيرٌ منْ شبابِ اليومِ كالذينَ

لاَ يخرجونَ إلى أعمالهمْ ـ إنْ كانتْ لهمْ أعمالٌ ـ إلاَّ بعدَ أنْ يمضِي ساعةً أمامَ المرآةِ، يُخلِي وجههُ من اللحيةِ، ويسرحُ شاربهُ وشعرَ رأسِهِ، فيالله! أينَ الرجولةُ والشهامةُ؟! وأينَ الدِّينُ والاستقامةُ؟ ومنْ لنَا بشبابِ الصحابةِ الذينَ همْ عبَّادٌ في الليلِ، أسودٌ في النهارِ؟

أيُّهَا الشبابُ، خلقتمْ لتخلفُوا آباءكمْ في الذَّودِ عنِ الدِّينِ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، والحفاظِ على المحارمِ، وحمايةِ الذمارِ، والدِّفاعِ عنِ الدِّيارِ، فكونُوا خيرَ خلفٍ لخيرِ سلفٍ، وتسلمُوا مسؤوليتكُمْ بقوةٍ، فلستمْ كشبابِ الكفارِ الضائعِ الذي لاَ دينَ لَهُ يدافعُ عنهُ ولاَ عرضَ لَهُ يصونُه، ولاَ كرامةَ يحافظُ عليها.

ومنْ أنواعِ التشبهِ بالكفارِ: ما ابتُلِيَ بهِ كثيرٌ منْ نساءِ المسلمينَ منَ التشبهِ بالكافراتِ في لباسهنَّ وسمتهنَّ، فيلبسنَ ثياباً لاَ تسترهُنَّ، إمَّا لقصرهَا بحيثُ تُظهرُ السيقانَ والأذرعَ والأعضاءَ والنحورَ والصدورَ، أوْ ثياباً ضيقةً تصفُ حجمَ الجسمِ وتقاطيعه وتظهرُ مفاتنَهُ. يضافُ إلى ذلكَ التساهُلُ في كشفِ الوجُوهِ، أَوْ سترهَا بساترٍ خفيفٍ لاَ يخفِي لونهَا ولاَ يسترُ جلدهَا، وكذلكَ مَا يفعلنَ برؤوسهِنَّ، منْ جمعِ شعورهنَّ وربطهَا من فوق متدَلِّيةً إلى القفَا! وقدْ ثبتَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**صنفانِ منْ أهلِ النارِ لمْ أرَهُما بعدُ: قومٌ معهمْ سياطٌ كأذنابِ البقرِ، يضربونُ بها الناسَ، ونساءٌ مائلاتٌ مميلاتٌ، رؤوسهنَ كأسنمةِ البختِ المائلةِ، لاَ يدخلنَ الجنةَ، ولاَ يجدنَ ريحَها، وإنَّ ريحهَا ليوجدُ منْ مسيرةِ كذَا وكذَا**»(١).

أَيُّهَا المسلمونَ: قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:

٣٤]، فقومُوا على نسائكمْ من زوجاتٍ وبناتٍ وأخواتٍ وسائرِ المولياتِ، امنعوهنَّ ممَّا حرَّمَ اللهُ، وألزموهُنَّ بما أمرَ اللهُ ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦].

أَيُّهَا المسلمونَ: تجنبُوا مشابهةَ الكفارِ، واقتدُوا بنبيكُمْ، فهو القدوةُ الحسنةُ، ولاَ تتساهلُوا في هذَا الأمرِ، ادرُسُوا سيرةَ نبيكُمْ ﷺ وقلدُوه فيها، فإنَّها طريقُ السعادةِ والرقيِّ والفلاحِ.

أعُوذُ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

* * *

خَطَرُ السَّفرِ إلَى بِلَادِ الكُفرِ

الحمدُ للهِ الذي أعزنَا بالإسلامِ، وأمرنَا بالتمسكِ بهِ حتَّى نصلَ إلى دارِ السلامِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، حذرنَا منْ كلِّ مَا يضرُّ بديننَا أوْ يمسُّ كرامتهُ منَ الأقوالِ والأفعالِ، ليكونَ لنَا هذَا الدِّينُ عِزًّا في الدُّنْيَا، وسعادةً في الآخرةِ، فصلَّى اللهُ وسلَّمَ على هذَا النبيِّ الكريمِ، الذي لمْ يتركْ خيراً إلاَّ دلَّ الأُمةَ عليهِ، ولاَ شرًّا إلاَّ حذرهَا منهُ، رحمةً بها ونصحًا لهَا، فجزاهُ اللهُ عنِ الإسلامِ والمسلمينَ خيرَ مَا يجزي بهِ نبيًّا عنْ أُمتهِ ودِينهِ.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ، واحتفظُوا بدينكم.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنكُمْ تعلمونَ اليومَ مَا تموجُ بهِ البلادُ الخارجيةُ الكافرةُ منْ كفرٍ وإلحادٍ، وانحطاطٍ في الأخلاقِ والسلوكِ، فالإلحادُ فيها ظاهرٌ، والفسادُ فيها منتشرٌ، فالخمورُ والزِّنَى والإباحيةُ وسائرُ المحرماتِ مبذولةٌ بِلاَ رادعٍ، ولاَ وازعٍ، وإذَا كان الحالُ كذلكَ وأكثرُ منهُ، فالسفرُ إلى هذهِ البلادِ فيهِ منَ الخُطُورَةِ على الدِّينِ مَا فيهِ، وأعزُّ شيءٍ لدىٰ المسلمِ دينهُ، فكيفَ يعرضهُ لهذَا الخطرِ الشديدِ؟!. إنَّ الإنسانَ لوْ كان معهُ مالٌ، وسمعَ أنهُ سيعترضهُ خطرٌ يهددهُ بضياعِ هذا المالِ لرأَيتهُ يعملُ أعظمَ الاحتياطاتِ لحفظهِ، فكيفَ يعظمُ في عينهِ المالُ ويهونُ عليهِ الدِّينُ؟!.

قالَ بعضُ السلفِ: إذَا عرضَ بلاءٌ فقدمْ مالكَ دونَ نفسكَ، فإنْ تجاوزَ

البلاءُ فقدِّمْ نفسكَ دونَ دينكَ[1]. نعمْ يجبُ تقديمُ النفسِ دونَ الدينِ، ولذلكَ شرعَ الجهادُ الذِي فيهِ القتلُ حفاظاً على الدِّينِ، لأنَّ الإنسانَ إذا فقدَ الدِّينَ فقدَ كلَّ شيءٍ، وإذا أُعطيَ الدِّينَ فقدْ أُعطِيَ السعادةَ والفلاحَ في الدُّنْيَا والآخرةِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ السفرَ إلى بلادِ الكفارِ، خصوصاً في هذا الزمانِ الذي عظمتْ فيهِ الفتنةُ وتنوعتْ، لاَ يجوزُ إلاَّ في حالاتٍ محدودةٍ، تصلُ إلى حدِّ الضرورَةِ، معَ التحفظِ والحذرِ والابتعادِ عنْ مواطِنِ الفسادِ، وتكونُ إقامةُ المسلمِ هناكَ بقدرِ الضرورةِ، معَ اعتزازه بدينهِ وإظهارِهِ، ومحافظتهِ على الصلَّواتِ في أوقاتِهَا، واعتزالِهِ عنْ مجمعاتِ الفسادِ، وجُلساءِ السوءِ. فاعتزازُ المسلم بدينهِ يزيدُهُ عزًّا ورفعةً، حتَّى في أعينِ الكفارِ، إنَّ المسلمَ يحملُ ديناً عظيماً، يشتملُ على كلِّ معانِي الخيرِ، وحميدِ الخصالِ، صحةً في الاعتقادِ ونزاهةً في العرضِ، واستقامةً في السلوكِ، وصدقاً في المعاملةِ، وترفعاً عنِ الدَّنايا، وكمالاً في الأخلاقِ. إنَّ المسلمَ يحملُ الدِّينَ الكاملَ الذِي اختارَهُ اللهُ لأهلِ الأرضِ كلهمْ إلى أنْ تقومَ الساعةُ. إنَّ المسلمَ هُو المثالُ الصحيحُ للكمالِ الإنسانيِّ، وإنَّ مَا عدَا الإسلامِ فهُو انحطاطٌ وهبوطٌ، ورجوعٌ بالإنسانيةِ إلى مهاوِي الرذيلةِ، ومواطنِ الهلاكِ.

فيجبُ على المسلمِ إذَا اضطرَّ إلى السفرِ إلى تلكَ البلادِ الكافرةِ أنْ يحملَ هذا الدِّينَ بقوةٍ، وأنْ يظهرهُ بشجاعةٍ أمامَ أعدائهِ والذينَ يجهلونَ حقيقتَه، بالمظهرِ اللائقِ، حتَّى يكونَ قدوةً صالحةً لغيرهِ. إنَّ كثيراً ممنْ يذهبونَ إلى تلكَ البلادِ يشوهونَ الإسلامَ بأفعالهمْ وتصرفاتِهمْ، يشوهونَهُ عندَ منْ لاَ يعرفُ

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٣١٥)، وفي الزهد (ص ٢٠٢) عن جندب بن عبد الله.

حقيقتَهُ، ويصدونَ عنهُ منْ يتطلعُ إليهِ ويريدُ الدخُولَ فيهِ، فحينمَا يرىٰ تصرفاتِ هؤلاءِ ينفرُ عن الإسلامِ، ظنًّا منهُ أنهمْ يمثلُونهُ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ بلادَ الكفارِ فيها منْ مظاهرِ الحضارةِ الزائفةِ ودواعِي الفتنةِ مَا يخدعُ ضعافَ الإيمانِ، فتعظُمُ تلكَ البلادُ وأهلُها في صدورهِمْ، وتهونُ في أنظارهِمْ بلادُ الإسلامِ، ويحتقرونَ المسلمينَ، لأنَّهمْ ينظرونَ إلى المظاهرِ، ولاَ ينظرونَ إلى الحقائقِ، فبلادُ الكفرِ وإنْ كانتْ تُكْسَى بالمظاهرِ البراقةِ الخادعةِ، إلاَّ أنَّ أهلهَا يفقدونَ أعزَّ شيءٍ، وهو الدِّينُ الصحيحُ الذِي بهِ تطمئنُّ قلوبهمْ، وتزكو بهِ نفوسهُمْ، وتصانُ بهِ أعراضُهُمْ، وتحقنُ بهِ دماؤهُم، وتحفظُ بهِ أموالهُمْ، إنَّهمُ يفقدُونَ كلَّ تلكَ المقوماتِ، فماذَا تفيدهُم تلكَ المظاهِرُ الخادعةُ؟ عقائدهمُ باطلةٌ، وأعراضهُم ضائعةٌ، وأسرهُم متفككةٌ، فماذا يفيدُ جمالُ البنيانِ معَ فسادِ الإنسانِ؟.

أيُّهَا المسلمونَ: إنَّ أعداءكمْ يخططونَ الخططَ لسلبِ أموالكُمْ، وإفسادِ دينكُمْ، والقضاءِ عليكم، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٠٥]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ [النساء: ٨٩]، إنَّكُمْ إذا سافرتمْ إليهمْ في بلادِهمْ تمكَّنُوا منْ إغوَائكمْ وإغرائِكُمْ بشتَّىٰ الوسائلِ، حتَّى يسلبوكُمْ دينكُمْ، أو يضعفُوهُ في نفوسِكُمْ، إنَّهُم بثُّوا دعوةً لشبابِ المسلمينَ في الصحفِ، أعلنُوا لهُمْ فيها عنْ تسهيلِ رحلاتٍ سياحيَّةٍ إلى

بلادِهم، ووعدُوهُم أنْ يبذُلوا لهمْ كثيراً منَ المغرياتِ، وغرضهُمْ منْ ذلكَ إفسادُ هؤلاءِ الشبابِ، وإغراقُهمْ في بحارِ الشهواتِ البهيميةِ، حتَّى يرجعُوا إلى بلادِ المسلمينَ معاولَ هدمٍ وتخريبٍ، فيتمكنَ هؤلاءِ الكفارُ منَ القضاءِ على المسلمينَ بأيدي أولادهِمْ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنه لمنَ المحزنِ أنْ أصبحَ السفرُ إلى بلادِ الكفارِ موضعَ افتخارِ بعضِ المخدوعينَ منَ المسلمينَ، فيفتخرُ أحدهُمْ بأنه ابتعثَ أو سيبتعثُ إلى أمريكَا، أوْ أنَّ لَهُ ولداً يدرسُ في أمريكا أو في لندنَ أو فرنسا، إنَّه يفتخرُ بذلكَ دونَ تفكيرٍ في العواقبِ أو تقديرٍ للنتائج، ودونَ تحسُّبٍ لتلكَ الأخطارِ التي تهددُ دينهُ.

وبعضُ المسلمينَ يسافرونَ بعوائلهمْ للمصيفِ هناكَ أو للسياحةِ، دونَ اعتبارٍ لحكمِ الشرعِ في ذلكَ السفرِ هلْ يجوزُ أو لا؟ ثمَّ إذا ذهبُوا هناكَ ذابتْ شخصيتهُمْ معَ الكفارِ، فلبسُوا لباسهُم، واقتدَوا بأخلاقهِمْ، حتى نساؤهم يخلعنَ لباسَ السِّترِ، ويلبسْنَ لباسَ الكافراتِ، وإذا كان هذا تحوُّل الظاهرِ فمَا بالكَ بتحولِ الباطنِ؟.

إنَّ المسلمَ مطلوبٌ منهُ أنْ يتقِي اللهَ في أيِّ مكانٍ، وأنْ يتمسكَ بدينهِ، ولاَ يخافَ في اللهِ لومةَ لائمٍ، لماذَا يعطِي الدنيَّةَ في دينهِ؟ إنَّهُ دِينُ العزةِ والكرامةِ والشرفِ في الدُّنيَا والآخرةِ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [المنافقون: ٨]، وإنَّ أخلاقَ الكفارِ وتقاليدهُمْ ذلةٌ ومهانةٌ ونقصٌ، فكيفَ يستبدلُ المسلمُ الذِي هُو أدنَى بالذِي هوُ خيرٌ؟ كيفَ يتنازلُ منْ عليائهِ إلى الحضيضِ؟.

ومن العجيب أنَّ الكفارَ إذا جاءُوا إلى بلادِ المسلمينَ لاَ يغيرونَ أزياءهُم،

ولاَ يتحولُونَ عمَّا همْ عليهِ، ونحنُ على العكسِ، إذَا ذهبنا إليهمْ فالكثيرُ منَّا يتحولُ إلى عادَاتهمْ في لِبَاسِهِمْ وغيرِهِ، والبعضُ يتعللُ بأنَّه لوْ لمْ يفعلْ ذلكَ لخَشيَ على نفسهِ أوْ مالِهِ أنْ يتعدىٰ عليهِ، وهذَا اعتذارٌ غيرُ مقبولٍ، لأنَّنَا نرىٰ الذينَ يبقونَ بلباسهِمْ، ويعتزونَ بدينهِمْ، يرجعونَ وهُمْ موفورُو الكرامةِ، لاَ ينالُهُمْ أيُّ أذى ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢﴾ [الطلاق: ٢]. ولئنْ قُبلت هذِه المعذرةُ منْ بعضِ الأفرادِ الذينَ لاَ يحسبُ لهمْ حسابٌ، فلنْ تقبلَ ممَّنْ هُم على مستوىٰ المسؤوليةِ، ومنْ يكونونَ محلَّ اهتمامِ الدولِ التِي يقدمونَ عليهَا، ومعَ هذَا يغيرونَ لباسهُمْ من غيرِ مبررٍ، إنَّهُ التقليدُ الأعمى، وعدمُ المبالاةِ، فلاَ حولَ ولاَ قوةَ إلاَّ باللهِ العليِّ العظيمِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ خطرَ السفرِ إلى بلادِ الكفارِ عظيمٌ، وضررهُ جسيمٌ، وإنَّ منْ سافرَ إلى تلكَ البلادِ منْ غيرِ ضرورةٍ، بلْ بدافعِ الهوىٰ وميلِ النفسِ الأمارةِ بالسوءِ، واقتداءً بمنْ لاَ يصلحُونَ للقدوَةِ، فهذَا حرِيٌّ أنْ يعاقبَ وأنْ يصابَ في دِينهِ. وبعضُ الناسِ يرسلُ أولادَهُ الصغارَ ـ أو بعضهمْ ـ أو يسمحُ بابتعاثهمْ إلى بلادِ الكفارِ، ليتعلمُوا اللغةَ أوْ غيرهَا هناكَ، دُونَ تفكيرٍ في العواقِبِ، ولاَ تقديرٍ للنتائجِ، ودُونَ خوفٍ منَ اللهِ الذِي حملهُ مسؤوليةَ هؤلاءِ الأولادِ.

وإذا كانَ الأولاَدُ الصغارُ على خطرٍ وهمْ في بلادِنَا وبينَ المسلمينَ، فكيفَ إذا أرسلُوا إلى بلادٍ كافرةٍ منحلةٍ، وعاشُوا في أوكارِ الفسادِ، ومواطنِ الإلحادِ؟ إنَّ الشابَّ منْ أولادِنَا المبتعثينَ يُغمسُ في وسطِ عائلةٍ كافرةٍ، ليعيشَ معهُم طيلةَ بقائهِ هناك، فماذا تتصورُونَ من شابٍّ غريبٍ في وسطٍ كافرٍ منحلٍّ؟ ماذا سيبقىٰ معهُ من الدِّينِ والخلقِ؟.

فاتقوا اللهَ في أولادكُمْ، لاَ تهلكوهُمْ بحجةِ أنهمْ سيتعلمونَ، إنَّ التعلمَ

ميسورٌ هنا، فاللغة يمكنُ تعلمها هنا بدونِ مخاطرةٍ، وبقيةُ التخصصاتِ لاَ يبتعثُ لها إلاَّ كبار السن، ومن رسختْ عقيدتهُمْ، وقويتْ عقليتُهم معَ الرقابةِ الشديدةِ عليهمْ، فالدِّينُ رأسُ المالِ، وماذا بعدَ ذهابِ الدِّينِ؟.

واتقُوا اللهَ أَيُّهَا المسلمونَ، واشكروهُ على مَا أعطاكُمْ من النعمِ العظيمةِ التي أجلهَا نعمةُ الإسلامِ، فلاَ تعرضُوا هذِه النعمةَ للزوالِ، حافظُوا على دينكُم الذِي هُو عصْمةُ أمرِكُمْ ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝٨ ﴾ [المائدة: ٨].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝١١٣ ﴾ [هود: ١١٣].

* * *

فِي تَرْبِيَةِ الأَوْلَادِ

الحمدُ للهِ الذي يمنُّ على منْ يشاءُ بالأولادِ، ويجعلهُمْ فتنةً يتبينُ بهَا الشاكرُ الذي يقومُ بحقهمْ ويصونهُم عنِ الفسادِ، والمهملُ الذي يضيعهُمْ ويتهاونُ بمسؤوليتهِمْ، فيكونونَ عليهِ نقمةً وحسرةً في الدُّنْيَا ويومَ يقومُ الأشهادُ. وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لهُ، لَهُ الحكمةُ البالغةُ والحجةُ القائمةُ على العبادِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، حمَّلَ الآباء مسؤوليةَ أولادهِمْ، فقالَ: «مُرُوا أولادكُمْ بالصلاةِ لسبعٍ، واضربُوهُمْ عليهَا لعشْرٍ، وفرِّقُوا بينهُم في المضاجعِ»[1] صلى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦].

روىٰ ابنُ جريرٍ عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنهمَا قالَ في معنى الآيةِ: اعملُوا بطاعةِ اللهِ، واتقُوا معاصِيَ اللهِ، ومرُوا أولادكُمْ بامتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النواهِي، فذلكُمْ وقايتُهُمْ منَ النارِ[2]. وعنْ عليٍّ قالَ في معناهَا: علمُوا أنفسكُمْ وأهليكُم الخيرَ وأدبوهُمْ[3]. فالآيةُ تدلُّ على أنَّهُ مطلوبٌ من الإنسانِ أنْ يعملَ بمَا يبعدُهُ ويبعدُ أهلهُ منَ النارِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٨/ ١٦٥، ١٦٦).
(٣) المصدر السابق (٢٨/ ١٦٦).

عبادَ اللهِ، إنَّ مهمةَ الأولادِ مهمةٌ عظيمةٌ، يجبُ على الآباءِ أنْ يحسبُوا لهَا حسابهَا، ويعدُّوا العدةَ لمواجهتِهَا، خصوصاً في هذا الزمانِ الذي تلاطمت فيهِ أمواجُ الفتنِ، واشتدتْ غربةُ الدِّينِ، وكثرتْ فيهِ دواعي الفسادِ، حتَّى صارَ الأبُ مع أولادِهِ بمثابةِ راعِي الغنمِ في أرضِ السباعِ الضاريةِ، إنْ غفلَ عنها أكلتهَا الذئابُ.

إنَّ عنايةَ الإسلام بتربيةِ الأولادِ واستصلاحِهِمْ تبدُو واضحةً في وقتٍ مبكرٍ، حيثُ يشرعُ للرجلِ أنْ يختارَ الزوجةَ الصالحةَ ذاتَ الدِّينِ والأخلاقِ الفاضلةِ، لأنَّها بمنزلةِ التربةِ التِي تلقىٰ بها البذورُ، ولأنَّها إذا كانتْ صالحةً صارتْ عوناً للأَبِ على تربيةِ الأولادِ، كمَا أنهُ يشرعُ للزوجِ عندَ اتصالِهِ بزوجتهِ أنْ يدعُو فيقولَ: بسمِ اللهِ، اللهمَّ جنبنا الشيطان، وجنبِ الشيطانَ ما رزقتنَا[١].

فإذا رُزقَ مولودًا استحبَّ لَهُ أنْ يؤذنَ فِي أُذنهِ اليمنى، ويقيمَ الصلاةَ في أُذُنِه اليسرى، كمَا وردتْ بذلكَ أحاديثُ عنِ النبيِّ ﷺ في سننِ أبي داودَ والترمذيِّ وغيرِهِمَا[٢]. والحكمةُ في ذلِكَ ـ واللهُ أعلمُ ـ ليكونَ أولَ مَا يسمعُ المولودُ كلماتِ الأذانِ، وتكونَ دعوةُ المولودِ إلى دينِ الإسلامِ سابقةً على دعوةِ الشيطانِ.

ويختارُ الأبُ لولدهِ الاسمَ الحسنَ، فقدْ أمرَ ﷺ بتحسين الأسماءِ[٣]، ثمَّ يختنهُ بإزالةِ القلفةِ، لمَا في إزالتِهَا من التحسينِ والتنظيفِ، والختانُ من أظهرِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤) من حديث ابن عباس.
(٢) من ذلك: ما رواه أبو داود (٥٠١٥)، والترمذي (١٥١٤) من حديث أبي رافع.
(٣) أخرج ذلك أبو داود (٤٩٤٨) من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم».

الشعائرِ التِي يفرقُ بها بينَ المسلمِ والنصرانيِّ، وهُو منْ خصالِ الفطرةِ. ويعقُّ عنه، بأنْ يذبحَ عنِ الذَّكرِ شاتينِ وعنِ الجاريةِ شاةً، والحكمةُ في ذلكَ أنَّها قربانٌ يتقربُ بهَا إلى اللهِ عنِ المولودِ في أوَّلِ خروجهِ إلى الدنْيَا، وهي أيضاً فديةٌ يُفدى بهَا المولودُ، كمَا فدىٰ اللهُ إسماعيلَ بالكبشِ، كلُّ ذلكَ ممَّا يدلُّ على الاعتناءِ بالمولُودِ.

عِبادَ اللهِ: كمَا أنَّ للأبِ حقًّا على ولدِهِ، فللولدِ حقٌّ على أبيهِ، قالَ بعضُ العلماءِ: إنَّ اللهَ سبحانهُ يسألُ الوالدَ عن ولدهِ يوم القيامةِ، قبلَ أنْ يسألَ الولدَ عنْ والدِهِ. وقدْ قالَ اللهُ تعَالَىٰ: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]، وقالَ النبيُّ ﷺ: «**اعدلُوا بينَ أولادِكُمْ**»[١]، فوصيةُ اللهِ للآباءِ بالأولادِ سابقةٌ على وصيةِ الأولادِ بآبائهمْ، فمنْ أهملَ تعليمَ ولدِه مَا ينفعُهُ وتركَهُ سدى، فقدْ أساءَ إليهِ غايةَ الإساءةِ، وأكثرُ الأولادِ إنَّمَا جاءهمُ الفسادُ بسببِ إهمالِ الآباءِ، وتركِ تعليمِهِمْ فرائضَ الدِّينِ وسُنَنَهُ، فأضاعوهُمْ صغاراً، فلمْ ينفعُوا أنفسهُمْ ولمْ ينفعُوا آباءَهُم كباراً، عاتبَ بعضهُمْ ولدهُ على العقوقِ فقالَ: يَا أبتِ، إنكَ عققتني صغيرًا فعققتُكَ كبيرًا، وأضعتنِي وليدًا فأضعتكَ شيخًا.

فالطفلُ ينشأُ على ما عوَّدهُ المربِّي، فيجبُ على وليهِ أنْ يجنبهُ مجالسَ اللهوِ والباطلِ والغناءِ، وسماعَ الفحشِ والبدعَ ومنطقَ السوءِ، ويجنبه الخيانةَ والكذبَ والكسلَ والبطالةَ والدعةَ والراحةَ، فإنَّ الكسلَ والبطالةَ لهُمَا عواقِبُ سوءٍ ومغبةٌ وندمٌ، وللتعبِ والجدِّ عواقبُ حميدةٌ. ويجنبهُ الشهواتِ الضارةَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣/ ١٣) من حديث النعمان بن بشير.

فإنَّ تمكينَهُ منها يفسدُهُ فساداً يصعبُ إصلاحُهُ، فبعضُ الآباءِ يغدِقُ على ولدِهِ العطاءَ ويمدُّهُ بالمالِ الذي يتمكنُ بهِ منْ شهواتِهِ، ويزعمُ أنَّهُ يكرمهُ بذلكَ وهُو قدْ أهانَهُ، ويزعمُ أنَّهُ قدْ رحمهُ وهو قدْ ظلمهُ.

وكذلكَ يجبُ على الوالدِ أنْ يمنعَ ولدهُ من قرناءِ السوءِ ومخالطةِ أهلِ الفسادِ، وبعضُ الآباءِ يشترِي لولدِهِ سيارةً أوْ دراجةً، يستخدمُها الولدُ لأغراضٍ سيئةٍ، ويتمكنُ بها منَ الوصولِ إلى المجامعِ الفاسدةِ وإنْ كانتْ بعيدةً. وعلاوةً على ذلكَ يؤذي بهَا الجيرانَ، وقدْ تكونُ سبباً لوقوعِ الحوادثِ التي تذهبُ بحياتِهِ أوْ حياةِ غيرِه.

وبعضُ الناسِ لاَ يربِّي ولدهُ إلاَّ التربيةَ الحيوانيةَ، فيأتِي لهُ بالطعامِ والشرابِ والكسوةِ، ويتركُ تربيتهُ على الدِّينِ والأخلاقِ الفاضلةِ، فلاَ يعلمُهُ مَا ينفعُهُ، ولاَ يهتمُّ بأمرِ دِينهِ، فلاَ ينفذُ أمرَ الرسولِ ﷺ فيهِ، حيثُ يقولُ: «**مروا أولادكُمْ بالصلاةِ لسبعٍ، واضربوهمْ عليها لعشرٍ، وفرِّقوا بينهُمْ في المضاجِعِ**»[1].

أيُّهَا الآبَاءُ، إنَّ الرسولَ ﷺ حملكُمْ بهذا الحديثِ مسؤوليةَ أولادكُمْ وأمركُمْ بتربيتهِمْ على أداءِ الصلواتِ، علموهُم كيفَ يتطهرونَ، وكيفَ يصلونَ، واسلكُوا معهمْ مسلكَ التدرجِ بهم حسبَ سنيهِمْ وتحملهِمْ؛ أولاً: بالأمرِ في سنِّ السابعةِ، ثمَّ بالضربِ في سنِّ العاشرةِ.

كمَا أمركُمْ أنْ تباعدوهُمْ عن أسبابِ الفسادِ الخلقِي، فتفرِّقوا بينهُم في مراقدِهِمْ، فَلاَ ينامُ بعضهُمْ إلى جانبِ بعض، خشيةَ الوقوعِ في المحذورِ، فصرتمْ مسؤولينَ عنهمْ حتَّى في مراقدِهِمْ، كمَا أنكُمْ مسؤولونَ عنهُمْ في حالِ يقظَتهِمْ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٧)، وأبو داود (٤٩٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

كذلكُمْ أيُّها الآباءُ أنتُمْ مسؤولونَ عن توجيهِ أولادكُمْ الوجهةَ الصالحةَ، فلاَ تتركوهُم يقرؤُونَ منَ الكتبِ والجرائدِ والمجلاَّتِ ما هبَّ ودبَّ، فإنَّ في كثيرٍ منهَا السمَّ القاتِلَ، فأرشدُوهُمْ إلى قراءَةِ الكتبِ النافعةِ والمجلاتِ المفيدةِ، ووفرُوهَا لهمْ، وإذَا كنتمْ لاَ تعرفُونَ المفيدَ منهَا، فاسألُوا أهلَ العلمِ، واطلُبُوا منهُم أنْ يختارُوا لكم المفيدَ النافعَ، ووفرُوهُ لأولادكُمْ.

أيُّهَا الآباءُ، ادعُوا اللهَ أنْ يصلحَ أولادكُمْ، كمَا دعا إبراهيمُ الخليلُ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، حيثُ قالَ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ۝٣٥﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقالَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠﴾ [الصافات: ١٠٠]، وقالَ: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقالَ هُو وإسماعيلُ: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وكمَا دعا زكريا عليهِ السلامُ، حيثُ قالَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: ٣٨]. هذهِ دعواتُ الأنبياءِ لأولادهِمْ، فاقتدُوا بهِم في ذلكَ.

أيُّها الآباءُ، إنَّ الولدَ الصالحَ ينفعُ والدَهُ حيّاً وميتاً، قالَ ﷺ: **«إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاَّ منْ ثلاثٍ: صدقَةٍ جَاريةٍ، أوْ علمٍ ينتفعُ بهِ، أوْ ولدٍ صالحٍ يدعُو لَهُ»**[1].

إنَّ الأولادَ إمَّا أنْ يكونُوا نعمةً على والديهِمْ أوْ نقمةً، ولذلكَ أسبابٌ، أهمُّهَا: التربيةُ، كمَا أنَّ الوالدَ قدْ يكونُ سبباً لسعادةِ الولدِ أوْ شقاوتِهِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

[الكهف: ٨٢].

وقالَ ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفطرةِ، فأبواهُ يهودانِهِ، أو ينصرَانِهِ أوْ يمجسَانِهِ»(١) فليكنْ ذلكَ منكُمْ على بالٍ.

أَيُّهَا الآبَاءُ، إنكُم تحرصونَ أشدَّ الحرصِ على ذهابِ أولادكُم للمدارسِ بدافعِ الطمعِ الدنيويِّ، ولاَ ترضونَ بتخلفهِمْ عنها يوماً واحداً، فما بالكُمْ لاَ تهتمُّونَ بحضُورهِمْ في المساجدِ، وهُو خيرٌ وأبقىٰ، إنَّ حضورهُمْ في المساجدِ يفيدُهُمْ آداباً حسنةً، وأخلاقاً فاضلَةً، ومحبةً للخيرِ، وبعدًا عنِ الشرِّ.

حضورُهم في المساجدِ ينشئهُمْ على الطاعةِ ومخالطةِ الصالحينَ، وفيهِ مصالحُ كثيرةٌ، فلِمَ لاَ تهتمونَ بهِ؟ لماذَا تتركونَ أولادكُم في أوقاتِ الصلواتِ يجوبونَ الشوارعَ، أوْ يختفونَ في البيوتِ، ولاَ يقيمونَ للصلاةِ وزنًا؟ هلْ كانتِ المدرسةُ أهمَّ عندكُم منَ المسجدِ؟ هل كانتِ الدراسةُ أعظمَ منَ الصلاةِ؟ هل الدُّنْيَا أحبُّ إليكُمْ منَ الآخرةِ؟ ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، فاتقُو اللهَ أَيُّهَا المؤمنونَ لعلكُمْ تفلحون.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ بسم الله الرحمن الرحيمِ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ...﴾ الآيات [لقمان: ١٣].

* * *

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٥) وأطرافه في (١٣٥٨، ١٣٥٩، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩) ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة.

حفظُ الأمَانةِ

الحمدُ للهِ الذي وعدَ منْ حفظَ الأمانةَ ورعاهَا أجراً جزيلاً، وتوعدَ منْ أضاعهَا وأعدَّ لهُ عذاباً وبيلاً، أحمدهُ على جزيل نعمِهِ، وأشكرُهُ على تتابع إحسانِهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنْ محمداً عبدهُ ورسولُه، حثَّ على أدَاءِ الأمانَةِ، وحذرَ منَ الخيانةِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحبهِ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ حملَ الأمانةِ ثقيلٌ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

الأمانة لغةً: مأخوذةٌ من الأمانِ، وهو طمأنيةُ النفسِ وذهابُ الخوفِ عنهَا، وهي عبارَةٌ عنْ كلِّ مَا استحفظَ عليهِ منْ حقوقٍ، سواءٌ كانتْ للهِ تعالىٰ أوْ لخلقِهِ، وقدِ اتفقتْ أقوالُ المفسرينَ على أنَّ المرادَ بالأمانةِ المذكورَةِ في الآيةِ جميعُ التكاليفِ الشرعيَّةِ، فمنْ قامَ بهَا أثيبَ، ومنْ تركَها عوقبَ. وقدْ ذكرَ جلَّ وعلاَ في هذِه الآيةِ الكريمةِ أنَّه عرَضَهَا ومَا يتبعُهَا منْ ثوابٍ وعقابٍ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ، وأنهنَّ أبينَ أنْ يحْمِلْنَها وأشفقنَ، أيْ خفنَ من عواقبِ حملِهَا؛ لِمَا ينشأُ عنِ التساهلِ بهَا منْ عذابِ اللهِ وسخطِهِ، وإيثاراً للعافيةِ، وبعداً عن التبعةِ.

وحملهَا الإنسانُ بمَا فيهَا منْ مسؤوليةٍ عظيمةٍ وخطورةٍ بالغةٍ، فانقسمَ الناسُ

بعدَ هذَا التحملِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

قسمٍ التزمَ بهَا ظاهراً، وضيَّعها باطناً: وهمُ المنافقونَ والمنفقاتُ، الذينَ يظهرونَ الإيمانَ خوفاً من أهلِهِ، ويبطنونَ الكُفرَ متابعةً لأهلِهِ.

وقسمٍ ضيعَ هذهِ الأمانةَ ظاهراً وباطناً: وهمُ المشرِكونُ والمشركاتُ، الذينَ ظاهرهمْ وباطِنهُمْ على الشركِ باللهِ ومخالفةِ رسلهِ.

وقسمٍ حفظُوا هذهِ الأمانةَ ظاهراً وباطناً، وهمُ المؤمنونَ والمؤمناتُ، الذينَ اتصفُوا بالإيمانِ ظاهراً وباطناً.

فالقسمانِ الأولاَنِ معذبانِ، والقسمُ الثالثُ مرحومٌ، قالَ تعالىٰ: ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا﴾ [الأحزاب: ٧٣].

إنَّ الأمانةَ تشملُ كلَّ مَا أوجبهُ اللهُ على عبادهِ، فالصلاةُ أمانةٌ، والزكاةُ أمانةٌ، والصيامُ أمانةٌ، والحجُّ أمانةٌ، والطهارةُ للصلاة أمانةٌ، وكلُّ واجباتِ الدِّينِ أمانةٌ، يجبُ الوفاءُ بهَا.

وتركُ المحرماتِ أمانةٌ، والودائعُ والعوارِي التي عندكَ للناسِ أمانةٌ، والسِّرُّ الذِي بينكَ وبينَ أخيكَ أمانةٌ، ونائبُ السلطانِ يتحملُ أمانةً، والقاضي ومنْ في حكمهِ يتحملُ أمانةً، والمدرسُ يتحملُ أمانةً، والتاجرُ في متجرهِ يتحملُ أمانةَ النصحِ في المعاملاتِ، وعدمِ الغشِّ والخداعِ، وتجنُّبِ المكاسبِ المحرمةِ، والموظفُ يتحملُ أمانةً، والرجلُ في بيتهِ يتحملُ أمانةً، وكلٌّ سيسألُ عنْ أمانتِه، فيثابُ إنْ حفظَها، ويعذبُ إنْ ضيعَها.

إنَّ اللهَ أمرَ بأداءِ الأمانةِ، قالَ سبحانهُ: ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، وقالَ تعالىٰ: ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن

تُؤَدُّوا ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، وقالَ ﷺ: «أدِّ الأمانةَ إلى منِ ائتمَنَكَ ولاَ تخُنْ منْ خانَك»[١] وقالَ ﷺ: «علَى اليدِ مَا أخذَتْ حتَّى تؤدِّيه»[٢].

فهذِهِ الأوامرُ تدلُّ علَى أنَّ أدَاءَ الأمانةِ واجبٌ حتمٌ لاَ يجوزُ التساهلُ فيهِ، فيجبُ على الولي أنْ ينصَحَ لرعيتهِ، ويجبُ على القاضِي أنْ يعدلَ في حكمهِ، ويجبُ على المدرسِ أنْ يخلصَ في تدريسهِ، ويكونَ قدوةً حسنةً لطلابهِ في جميعِ تصرفاتِهِ، ويجبُ على الموظفِ أنْ يؤَدِّي العملَ الذِي أُنيطَ بهِ، فيحفظُ وقتهُ ويرتبُ أعمالهُ، ويستقبلُ المراجعينَ، وينهِي طلباتِهِمْ، ويستمِعُ إلى شكاوَاهُم، ولاَ يحابِي قريباً أوْ صديقاً أَوْ يقدِّمُ أحداً على أحدٍ بغيرِ حقٍّ، أوْ يضيعُ وقتَ الدوامِ في غيرِ عملِهِ، وأعظمُ منْ ذلكَ إذا امتنعَ منْ إنجازِ بعضِ المعاملاتِ حتَّى يدفعَ لهُ المراجعُ شيئاً من المالِ، إنَّه بهذا يجمعُ بينَ جريمتينِ عظيمتينِ: الخيانةِ في العملِ، وأكلِ المالِ الحرامِ، وقدْ كثرَ هذَا بينَ منْ لاَ دِينَ لهُم ولاَ حياءَ، فصارُوا يبيعونَ الأعمالَ بيعاً، ويؤذونَ عبادَ اللهِ.

إنَّ اللهَ كمَا أمرَ بأداءِ الأمانةِ، فقدْ نهىٰ عنِ الخيانةِ فيهَا، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال: ٢٧]، وأخبرَ أنَّ الخيانةَ في الأمانةِ منْ صفاتِ اليهودِ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، كمَا أخبرَ ﷺ أنَّ الخيانةَ في الأمانةِ منْ صفاتِ المنافقينَ، حيثُ يقولُ: «آيةُ المنافقِ

---

(١) أخرجه أبو داود(٢٥٣٥) والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أبو داود (٢٥٣٤) عن رجل من الصحابة. والحديث صححه الألباني في صحيح الجامع (٢٤٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٦١) والترمذي (١٢٦٦) والنسائي في الكبرى (٥٧٨٣) وابن ماجه (٢٤٠٠) من حديث سمرة بن جندب.

ثلاثٌ: إذا حدثَ كذبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا اؤتُمِنَ خانَ»(١).

إنَّ الخيانةَ في الأمانةِ ظلمٌ، وإنَّ الظالمَ نادمٌ عمَّا قليلٍ، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٢﴾ [يوسف: ٥٢]، قالَ ﷺ: «لتؤَدُنَّ الحقوقَ إلى أهلهَا يومَ القيامةِ، حتَّى يقادَ للشاةِ الجَلْحاءِ منَ الشاةِ القرْنَاءِ»(٢)، وروىٰ ابنُ جريرٍ بسندهِ عنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «القتلُ في سبيلِ اللهِ يكفرُ الذنُوبَ كلَّهَا ـ أوْ قالَ: يكفرُ كلَّ شيءٍ ـ إلاَّ الأمانةَ، يؤتَي بصاحِبِ الأَمَانَةِ فيقالُ لَهُ: أدِّ أمانتكَ، فيقولُ: أنَّى يا ربِّ، وقدْ ذهبتِ الدُّنْيَا؟ فيقالُ لَهُ: أدِّ أمانتكَ، فيقولُ: أنَّى يا رَبِّ، وقدْ ذهبت الدُّنْيَا؟ فيقالُ: أدِّ أمانتكَ، فيقولُ: أنَّى يَارَبِّ، وقدْ ذهبتِ الدُّنْيَا؟ فيقولُ: اذهبُوا بِهِ إلى أُمِّهِ الهاويَةِ، فيذهبُ بِهِ إلى الهاويَةِ، فيهْوي فيها حتَّىٰ ينتهِي إلى قعْرِهَا، فيجدُها هُنالِكَ كهيئتهَا، فيحملُهَا فيضعُهَا على عاتقِهِ، فيصعدُ بهَا إلى شفيرِ جهنَّمَ، حتَّى إذَا رأى أنَّه قدْ خرَجَ هَوَتْ فهوَى في أثرِهَا أبدَ الآبِدينَ»، قال: «والأمانةُ في الصلاةِ، والأمانةُ في الصومِ، والأمانةُ في الوضُوءِ، والأمانةُ في الحديثِ، وأشدُّ ذلكَ الودائعُ»(٣).

إنَّ رعايةَ الأماناتِ منْ صفاتِ المؤمنينَ الذينَ وعدهُم اللهِ وِرَاثَةَ الفردوسِ، والإكرامَ في الجناتِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: ١٠ ـ ١١].

عبادَ اللهِ، إنَّ الأمانةَ ترفعُ في آخرِ الزمانِ، فقدْ روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ عنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/٥٦) وفي آخره: «قال زاذان: فلقيت البراء فقلت: ألا تسمع إلى ما يقول أخوك عبد الله! فقال: صدق».

حذيفةَ بنِ اليمانِ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: حدثنَا رسولُ اللهِ ﷺ حديثينِ، قدْ رأيتُ أحدَهُمَا وأنَا أنتظِرُ الآخرَ، حدثنا أنَّ الأمانةَ نزلتْ في جذرِ قلوبِ الرجالِ، ثُمَّ نزلَ القرآنُ، فعلمُوا منَ القُرآنِ، وعلمُوا منَ السُّنَّةِ. ثمَّ حدثنَا عن رفعِ الأمانةِ فقالَ: «ينامُ الرجلُ النومةَ فتقبضُ الأمانةُ منْ قلبِهِ، فيظلُّ أثرُها مثلَ الوكْتِ، ثمَّ ينامُ النومةَ فتقبضُ الأمانةُ منْ قلبِهِ، فيظلُّ أثرُها مثلَ أثرِ المجْلِ، كجمرٍ دحرجتَهُ على رجْلِكَ فنفطَ، فتراهُ منتبراً وليسَ فيهِ شيءٌ ثمَّ أخذَ حصَاةً فدحرجهَا على رجلِهِ ـ فيصبحُ الناسُ يتبايعونَ، فلَا يكادُ أحدٌ يؤدي الأمانةَ، حتَّى يقالَ: إنَّ في بَنِي فُلَانٍ رجلًا أمينًا، حتَّى يقالَ للرجلِ: مَا أجلدَهُ! مَا أظرفه؛ مَا أعقلهُ! ومَا في قلبهِ مثقالُ حبةٍ من خردلٍ من إيمان»[1].

ومعنَى الحديثِ: أنَّ الأمانَةَ كانتْ موجودةً في الناسِ عنْ طريقِ الفطرةِ والوحيِ، ثمَّ تقبضُ منهمْ لسوءِ أفعالهِمْ، قالَ اللهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: ١١]، فتزولُ الأمانةُ من القلوبِ شيئاً فشيئاً، فإذَا زالَ أولُ جزءٍ منها زالَ نورهُ وخلفهُ ظلمةٌ، ثمَّ إذا زالَ الجزءُ الثانِي خلفهُ ظلمةٌ أشدُّ من الظلمةِ التِي قبلَها، ويصبحُ الأمينُ بعدَ ذلكَ غريباً في الناسِ، حتَّى يُمدحَ منْ لاَ خيرَ فيهِ ولاَ إيمانَ.

فاتقُوا اللهَ أيُّهَا المسلمونَ في أماناتكمْ، روىٰ البخاريُّ ومسلمٌ عنْ عمرانَ ابنِ حصينٍ رضيَ اللهُ عنهما عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «خيركُم قرنِي، ثمَّ الذينَ يلونهُمْ، ثمَّ الذينَ يلونهُم، ثمَّ يكونُ بعدهُمْ أقوامٌ يشهدونَ ولاَ يستشهدونَ، ويخونونَ ولا يؤتمنُون، وينذرُونَ ولا يوفُونَ، ويظهرُ فيهمُ السِّمنُ»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩٧، ٧٠٨٦) ومسلم (١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠)، ٦٦٩)، ومسلم (٢٥٣٥).

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ : ﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ ﴾ [النساء : ٥٨] .

* * *

فِي معنىٰ قولِهِ ﷺ: «بادِرُوا بالأَعْمَالِ»

الحمدُ للهِ الذي أمرنا بالمسارعةِ والمسابقةِ إلى الخيراتِ، وحذَّرنَا من التكاسلِ والتشاغلِ بهذِه الدُّنْيَا عمَّا خلقنَا لأجلهِ، وأمرَنَا بالاستعدادِ لَهُ، يومَ لقائِهِ والوقوفِ بينَ يديهِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، إليهِ المصيرُ، وإليهِ ترجعُ الأمورُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُه، حثَّ على المبادرَةِ بالأعمالِ قبلَ حلولِ الآجالِ، واغتنامِ الأوقاتِ قبلَ هجومِ الآفاتِ، وكانَ أولَ المبادرينَ إلى الطاعاتِ، والسابقينَ إلى الخيراتِ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وأتباعِهِ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الفرصَ تفوتُ، وأنَّ أجلَ الإنسانِ موقوتٌ، وإقامتهُ في هذِه الدُّنْيَا محدودةٌ، وأيامهُ فيها معدودةٌ، وأنَّ الآخرةَ هِي دارُ القرارِ، والمصيرَ فيها إلى الجنَّةِ أوِ النارِ، إنَّ سعادتكَ أو شقاوتكَ ـ أيُّهَا الإنسانُ ـ تتركزُ على هذِه الأيَّامِ التي تقيمهَا في الدُّنْيَا، وعلى نوعيَّةِ العملِ الذِي تقدمهُ لنفسكَ في خلالِ هذِه الأيَّامِ، فإما أنْ تكونَ منَ الذينَ يقالُ لهمْ غداً: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]. وإمَّا أَن تقُولَ هُنَاكَ: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦].

إنَّ ربنا سبحانَه وتعالىٰ يحثنَا على المبادرةِ بالأعمالِ الصالحةِ قبلَ فواتِ

وقتهَا، ويعرضُ علينا أغلى وأعلى السِّلعِ بأيسرِ الأسعارِ، فيقولُ سبحانَه: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢١﴾ [الحديد: ٢١]، هذِه هي الإعلاناتُ الربانيةُ في الآياتِ القرآنيةِ، عنِ المساهمةِ في التجارةِ الرابحةِ في الدارِ الباقيةِ والجنةِ العاليةِ، إنَّه إعلانٌ من أصدقِ القائلينَ، إعلانٌ ممنْ لاَ يضيعُ لديهِ عملُ عاملٍ، إعلانٌ عن مساهمةٍ تربحُ أضعافاً مضاعفةً، تكونُ الحسنةُ فيها بعشرِ أمثالِهَا إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٦١﴾ [البقرة: ٢٦١].

أرأيتمُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ لو أُعلنَ عنْ مساهمةٍ دنيويةٍ في شركةٍ يحتملُ أنْ تربحَ، ويحتملُ أنْ تخسرَ، ألستُمْ ترونَ الناسَ يتزاحمونَ على تقديمِ مَا لديهِمْ منْ أموالٍ فيها رجاءَ ربحهَا؟ معَ أنهُ ربحٌ مظنونٌ، وشرُّهُ غيرُ مأمونٍ، في حينِ أنَّ المتقدمَ للمساهمةِ التي يعلنُ عنها رَبُّ العالمينَ قليلٌ من الناسِ، ومَا ذاكَ إلاَّ لضعفِ اليقينِ، وإيثارِ الدُّنْيَا على الدِّينِ.

إنَّ الناسَ يسارعُون إلى طلبِ الدُّنْيَا، لأنهمْ يعلمونَ أنهَا لاَ تحصلُ إلاَّ ببذلِ الأسبابِ، وارتكابِ الصعابِ، فمَا بالهُمْ لاَ يطلبونَ الجنَّةَ ببذلِ الأسبابِ الموصلةِ إليهَا؟ يقولُ ﷺ: **«منْ خافَ أدلجَ، ومن أدلجَ بلغَ المنزلَ، ألاَ إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألاَ إنَّ سلعةَ اللهِ الجنَّةُ»**(١)، ويقولُ ﷺ: **«الكيسُ من دانَ نفسهُ** (أي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٢٢).

حاسبها) وعملَ لِمَا بعدَ الموتِ، والعاجزُ منْ أتبعَ نفسهُ هواهَا وتمنَّى على اللهِ الأماني»(١). ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

عبادَ اللهِ: إنَّ لكلِّ عاملٍ جزاءً، ولكلِّ مفرطٍ ندامةً، ولكلِّ شَيءٍ في هذهِ الدُّنْيَا نهايةً. وكلُّ مَا هُو آتٍ قريبٌ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ، وقدْ أعطيتَ ـ يا ابنَ آدمَ ـ إمكانيَّاتٍ تستطيعُ بهَا أنْ تعملَ لنفسكَ في دُنياكَ مَا ينفعكَ في آخرتِكَ، وإنَّ هذِه الإمكانياتِ يوشكُ أنْ تسلبَ منكَ عمَّا قريبٍ، فلاَ تستطيعُ حينئذٍ العملَ، فاحذر من التسويفِ والجريِ وراءَ الأمانِي الكاذبةِ والآمالِ الخادعةِ، وانتهزْ ساعتكَ التِي أنتَ فيهَا للعملِ للآخرةِ، قالَ ﷺ: «بادِرُوا بالأعمَالِ سبعاً: هلْ تنتظرونَ إلاَّ فقراً منسياً، أوْ غنى مطغيًا، أوْ مرضًا مفسدًا، أوْ هرمًا مفندًا أوْ موتًا مجهزًا، أَوِ الدجالَ فشرُّ غائبٍ ينتظرُ، أَوِ الساعةَ فالساعةُ أدْهَىٰ وأمر» رواهُ الترمذيُّ(٢).

إنها كلماتٌ جامعةٌ، ووصايا نافعةٌ، كلُّ كلمةٍ منها تحملُ نذَارَةً وتحذيرًا منْ خطرٍ محقق، إنْ لمْ يتدارَكْهُ الإنسانُ وقعَ فيهِ.

إِنَّهُ ﷺ في هذَا الحديثِ يأمرنَا بالمبادرةِ بالعملِ الصالحِ قبلَ أنْ تحولَ بيننَا وبينهُ القواطعُ المانعةُ، وهي قواطعُ وموانعُ كثيرةٌ، إنْ سلِمَ الإنسانُ منْ واحدةٍ منهَا، لمْ يسلمْ منْ بقيتهَا، لأنَّه في هذِه الدُّنْيَا معرضٌ للآفاتِ.

الآفةُ الأُولىٰ: إمَّا أنْ يصابَ بالفقرِ الذي ينسيهِ العملَ، لأنَّ الفقرَ يجلبُ الغمَّ والهمَّ، الذي يشغلُ النفسَ ويكدِّرُ البالَ، فينشأُ عنْ ذلكَ نسيانُ العملِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٠٦) من حديث أبي هريرة.

الآفةُ الثانية: وإمَّا أنْ يصابَ بغنى وفيضٍ من المالِ، يحملهُ على الطغيانِ، فيشغلُهُ بتحصيلِ ملذَّاتهِ، ويتلهَّى بهِ في جميعِ أوقاتهِ، بحيثُ لاَ يبقَى عندَه وقتٌ للعملِ للآخرةِ، أو يرىٰ أنَّه ليسَ بحاجةٍ إلى العبادةِ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧].

وهذِه هي آفةُ كثيرٍ منَ الناسِ في عالمنَا المعاصرِ، فإنَّ اللهَ أفاضَ عليهِم الأموالَ، وأدرَّ عليهم النعمَ، فاستكبرُوا عنْ طاعةِ اللهِ ـ إلاَّ منْ قلَّ ـ وأترفُوا في أنفسهم، وصارَ همهُمْ تزويقَ المساكِنِ، وتفخيمَ المراكبِ، وتنويعَ المآكلِ والمشاربِ، وإعطاءَ النفسِ مشتهياتِهَا ولَو منَ الحرامِ، وأعرضُوا عنِ الطاعةِ، فهجرُوا المساجدَ، وثقلتْ عليهمُ العبادةُ، وقلَّ خوفُ اللهِ في قلوبهِمْ، وصارُوا عبيداً للدُّنْيا والشهواتِ، وغرتْهُم الدُّنْيَا بزهرتِها، قدْ هانَ عليهِمْ دينُهُمْ، وضعفَ بالآخرةِ يقينهُمْ. هذا مَا يحصلُ منْ جرَّاءِ الغنَى والفقرِ.

والآفةُ الثالثةُ: أنْ يصابَ الإنسانُ بمرضٍ مفسدٍ، يفسدُ عليهِ عقلهُ أو بدنهُ، فإنْ فسدَ عقلُهُ لمْ يبقَ عندهُ شعورٌ بالعبادةِ، وإنْ فسدَ بدنُهُ لمْ يبقَ عندَهُ استطاعةٌ للقيامِ بهَا، وقدْ قالَ ﷺ: «نعمتانِ مغبونٌ فيهمَا كثيرٌ منَ الناسِ، الصحةُ والفراغُ»[(١)]، فاغتنِمْ أيُّهَا المسلمُ صحتكَ قبلَ مرضِكَ.

الآفةُ الرابعةُ: لو سلمَ الإنسانُ من المرضِ ومتِّعَ بالصحةِ، فإنَّهُ معرضٌ لموتٍ مجهزٍ، والمجهزُ هو السريعُ، الذي يأخذُه بغتة وهُو في حالِ الصحةِ وعنفوانِ الشبابِ، ومَا أكثرَ ما نشاهدُ هجماتِ الموتِ على الأفرادِ والجماعاتِ في حالاتِ أمنهِمْ وغفلتِهِمْ، وسرورِهِمْ واغترارِهِمْ بصحتِهِمْ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢) والترمذي (٢٣٠٤) من حديث ابن عباس.

والآفةُ الخامسةُ: إذَا سلمَ الإنسانُ من الموتِ المبكرِ ومدَّ في عمرِهِ، لمْ يسلمْ منَ الهَرَمِ المفنِّدِ، أي الذي يفضِي بصاحِبِهِ إلى حدِّ التخريفِ والهذيَانِ، فلاَ يعقلُ شيئاً منْ أمرِهِ، قالَ تعالىٰ: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٍ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النحل: ٧٠].

والآفةُ السادسة: إنَّ الإنسانَ ماَ دامَ على قيدِ الحياةِ فهوَ معرَّضٌ لفتنةٍ عظيمةٍ، لا ينجُو منهَا إذَا وقعتْ إلاَّ قليلٌ منَ الناسِ، ألاَ وهي فتنةُ المسيحِ الدَّجَّالِ الذِي يظهرُ على الناسِ في آخرِ الزمانِ، ويجري على يدِيهِ محنٌ عظيمةٌ وفتنٌ شدِيدةٌ، ولذلكَ حذرتْ منهُ الأنبياءُ أُممهَا، وأشدُّهمْ تحذيراً منهُ لأُمتهِ نبيُّنا محمدٌ ﷺ، وقدْ شرعَ لنَا أنْ نستعيذَ من فتنتِهِ في آخرِ كلِّ صلاةٍ، وقدْ أصبحَ ظهورُهُ قريباً بالعلاماتِ الواضحَةِ، أعاذَنَا اللهُ وإيَّاكُمْ منْ فتنتِهِ، وثبتنَا على ديننا.

الآفةُ السابعةُ: وهِي أشدُّ الآفاتِ، وأعظمُ البليَّاتِ، قيامُ الساعةِ، ذلكَ الحدثُ الذي فيه ﴿تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ﴾ ـ منْ هولهِ ـ ﴿كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج: ٢].

عبادَ اللهِ: أيليقُ بنَا أنْ نتكاسلَ عنِ العملِ الصالحِ ونحنُ معرضونَ لهذِه المخاطرِ؟ ونضيِّعَ الفرصَ، ونهدرَ الإمكانياتِ، ونفتحَ لأنفسنا أبوابَ الأمَلِ والأمانِي، ونطمعَ بالنجاةِ منْ غيرِ بذلٍ لأسبابهَا؟ لقدْ ظلمنَا أنفسنَا، فلنتبْ إلى اللهِ قبلَ فواتِ الأوانِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ [التكاثر: ١، ٢] إلى آخر السورة.

في فَضلِ الشُّكرِ

الحمدُ للهِ الذي أنعمَ علينَا بنعمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، لاَ نُحصي ثناءً عليهِ، هُو كمَا أثنَى على نفسهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه البشيرُ النذيرُ، والسراجُ المنيرُ، أرسلَهُ رحمةً للعالمينَ، وحجةً على الخلقِ أجمعينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، ومنْ سارَ على نهجهِ وتمسكَ بسُنَّتهِ إلى يومِ الدِّينِ، وسلمَ تسليماً كثيراً.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ: اتقُوا اللهَ، يقولُ اللهُ تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [فاطر: ٣].

عبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ قدْ أسبغَ عليكمْ نعمهُ، وأمركُمْ بشكرِهِ، ووعدكُمْ إذَا شكرتُموهُ أنْ يزيدَكُمْ، وتوعدكُم إذا لمْ تشكُروهُ بالعذابِ الشديدِ، فانظُروا موقفكُم معَ نعمِ اللهِ، وتأمَّلُوا في أحوالِ منْ قبلكُم، وأحوالِ منْ حولكُمْ، ممنْ تَنكَّرُوا لنعمِ اللهِ، واستكبروا في الأرضِ، كيفَ دهمَهُم أمرُ اللهِ، فبُدِّلوا بالنعمةِ نقمةً، وبالأمنِ خوفاً، وبالغنَى والشبعِ فقراً وجوعاً؟ فاحذرُوا أنْ يحلَّ بكُمْ مثلَ مَا حلَّ بهِمْ، فلقدْ أنعمَ اللهُ عليكُم بنعمٍ لمْ تكنْ موجودةً عندَهُمْ، منْ سعةٍ في الأرزاقِ، ورفاهيةٍ في الملابسِ والمساكِنِ والمراكبِ، وصحةٍ في الأبدانِ، وأمنٍ في البلدانِ، وأعلى من ذلكَ وأغلى: أن اصطفَى لكُم الدِّينَ الحنيفَ، وأقامَكُمْ على المحجةِ البيضاءِ، والملةِ السمحاءِ، فاشكرُوا له ولاَ تكفرُوه،

واذكُروهُ ولاَ تنسَوهُ، وأطيعُوهُ وَلاَ تعصُوهُ، ولاَ تكونُوا كالذينَ ﴿ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ۝٢٩ ﴾ [إبراهيم: ٢٩]، ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ۝٥٣ ﴾ [الأنفال: ٥٣].

عبادَ اللهِ: إنَّ حقيقةَ الشكرِ هي: الثناءُ على المحسنِ بمَا أولاَهُ منَ المعروفِ. وشكرُ العبدِ لربِّهِ يدُورُ على ثلاثةِ أركانٍ، لاَ يكونُ العبدُ شكُوراً إلاَّ بمجموعِهَا:

أحدُهَا: اعترافهُ بنعمةِ اللهِ عليهِ في قرارةِ قلبهِ، بأنْ يعترفَ بأنَّ هذِه النِّعمَ واصلةٌ إليهِ منَ اللهِ سبحانَهُ، تفضلاً منهُ وإحساناً، لاَ بحولهِ ولاَ بقوتِهِ.

الثاني: التحدثُ بهذِه النعمِ ظاهراً، فيثنِي على اللهِ ويحمدُهُ ويشكُرُه، فلاَ ينسبُ النعمَ إلى غيرِ اللهِ، كمَا قالَ قارُونَ لمَّا نصحهُ قومُهُ، وقَالوا لَهُ: ﴿ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٧٧ ﴾ [القصص: ٧٦، ٧٧]، فكانَ جوابهُ إنكارَ فضلِ اللهِ عليهِ، وأنَّ هذِه الكنوزَ وهذِه الأموالَ التِي بيدِه إنَّمَا حصلتْ لَهُ بسببِ علمِهِ وخبرتِهِ أوِ استحقاقِه لَهَا ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ ﴾ [القصص: ٧٨] فماذا كانتِ النتيجةُ؟ كانتْ أسوأَ النتائجِ؛ حيثُ خسفَ اللهُ بهِ وبدارِهِ الأرضَ، فهُوَ يتجلجلُ فيهَا إلى يومِ القيامةِ، نعوذُ باللهِ منْ غضبهِ وأليمِ عقابِهِ.

الركنُ الثالثُ ـ منْ أركانِ شكرِ النعمةِ ـ: الاستعانةُ بهَا على مرضاةِ اللهِ، فيستعملُها في طاعةِ اللهِ، وأمَّا إذا استعملَ نعمةَ اللهِ في معصيتهِ فقدْ كفرَ نعمةَ اللهِ

عليهِ، فالذي يستعملُ قوى جسمِهِ وصحَّته وينفقُ أمواله في معصية اللهِ، قد كفرَ نعمةَ اللهِ عليه واستحقَّ عقوبتهُ.

عبادَ اللهِ: إنَّ رُسُلَ اللهِ ـ عليهم الصلاةُ والسلامُ ـ هم القدوةُ الكاملةُ للخلقِ، وهمْ أكملُ الناسِ شكراً للهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ أثنى اللهُ على نوحٍ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولَ رُسُلِهِ بأنه كان عبداً شكُورًا.

وذكرَ سبحانهُ عن نبيهِ داودَ وسليمانَ أنه آتاهُما علماً، فقالاَ عندَ ذلكَ اعترافاً بنعمةِ اللهِ عليهمَا: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل: ١٥]، فشكرَا ربهمَا على مَا أعطاهُمْ من العلمِ.

ثمَّ أخبرَ عن سُليمانَ عليهِ السلامُ أنَّه أثنَى على ربِّهِ، واعترفَ بفضلِهِ، حينما أورثهُ النبوةَ عنْ أبيهِ، وعلَّمَهُ منطق الطيرِ، وآتاهُ منْ كلِّ شيءٍ ممَّا يحتاجُه الملوكُ، قالَ سبحانَه: ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل: ١٦]، ولمَّا حُشرَ لهُ جنودُهُ من الجنِّ والإنسِ والطيرِ، وسمعَ كلامَ النملةِ حينمَا مرَّ بهَا معَ تلكَ الجنودِ الهائلةِ، قالَ معترفاً بفضل اللهِ عليهِ: ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل: ١٩]، ولمَّا تَمَّ لَهُ مطلبُهُ منْ إحضارِ عرشِ بلقيسَ لديهِ، واستقرارِهِ، عندهُ في أسرعِ وقتٍ، اعترفَ أنَّ هذَا ليسَ بحولِهِ ولاَ بقوتِهِ، وإنَّمَا هُو تفضلٌ من اللهِ عليهِ: ﴿ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [النمل: ٤٠].

وهذَا نبيُّ اللهِ يوسفُ بنُ يعقوبَ ـ عليهمَا السلامُ ـ حينمَا منَّ اللهُ عليهِ بالملكِ والعلمِ وجمعَ لهُ الشملَ بوالدَيهِ وإخوتِهِ، رأىٰ أنهَا قدْ تمت عليهِ النعمةُ فشكرَ

لربِّهِ وسأَلهُ حُسنَ الخاتمةِ وقالَ: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف: ١٠١].

وهذَ خاتمُ النبيِّين وسيِّدُ المرسلينَ نبينَا محمدٌ عليهِ الصلاةُ والسلامُ، قامَ على قدَميهِ في الصلاةِ حتَّى تفطَّرَتا من طولِ القيامِ، فقالتْ لَه أُمُّ المؤمنينَ عائِشَةُ رضيَ اللهُ عنهَا: يَا رسولَ اللهِ، لِمَ تفعلُ هذَا وقد غفرَ اللهُ لكَ مَا تقدَّمَ منْ ذنبكَ ومَا تأخَّرَ؟ فقالَ: «يا عائشةُ، أفَلَا أكونُ عبداً شكُورًا؟»[١].

عِبادَ اللهِ: هؤلاءِ هُمُ القدوةُ الأخيارُ، فاقتدُوا بهِمْ، واشكرُوا نعمةَ اللهِ عليكُمْ بقلُوبكُمْ وألسنتكُمْ وأعمالكُمْ، فإنَّه لاَ يكفِي أنْ تتلفظَ بالحمدِ والشكرِ بلسَانِكَ، وقلبكَ غافِلٌ معرِضٌ، أو جاحدٌ مستكبرٌ، وأفعالكَ بخلافِ مَا يُرْضِي اللهَ، فالشكرُ يتعلَّقُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، فالقلبُ للمعرفةِ والمحبَّةِ، واللِّسانُ للثَّنَاءِ والحمد، والجوارحُ لاستعمالِهَا فِي طاعةِ المشكُورِ، وكفِّهَا عنْ معَاصِيهِ.

عبادَ اللهِ: لقد قصَّ اللهُ علينَا في القرآنِ الكريمِ مَا حلَّ بالأُممِ التي كفرتْ بأنعُمِ اللهِ، منْ قصمِ الأعمارِ، وخرابِ الدِّيارِ، ما تقشعرُّ منهُ الجلودُ.

منْ ذلِكَ: ما قصَّهُ عنْ بنِي إسرائيلَ في مواضِعَ منْ كتابهِ الكريمِ: ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧].

ومن ذلِكَ: مَا قصَّهُ عن قبيلَةِ سبأ التي أنعمَ عليهَا بالجنتينِ، وقالَ لهُمْ: ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥]، فأعرضُوا عنِ الشكرِ، وكذَّبُوا الأنبياءَ، فأرسلَ اللهُ عليهمْ سيلَ العرمِ، وهُو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٧) ومسلم (٢٨٢٠) من حديث عائشة.

الوادِي الممتلئ بالماءِ الغزيرِ، الذي أغرقَ ديارَهُم، وأهلكَ حرثَهُم وأشجارَهُمْ، فبُدِّلوا بالغِنَى فقراً، والنعمةِ نقمةً، والاجتماعِ تفرقاً وتشتتاً في البلادِ، قالَ تعَالىٰ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ: ١٩]، حتَّى صارَ يضربُ المثلُ بتفرُّقِهم وتشتتِهِمْ، فيقالُ للقومِ إذَا تفرَّقُوا: «تفرقُوا أيدي سبأ» أي كما تفرقتْ سبأٌ.

ومِمَّا ضربهُ اللهُ لنَا: مثلُ القريةِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢]، أيْ جعلَ اللهُ هذِه القريةَ مثلاً لمن أنعمَ اللهُ عليهِ فكفرَ بالنعمةِ، فأنزلَ اللهُ عليهِ النقمةَ، حيثُ وفَّرَ اللهُ لأهلِ هذِه القريةِ الأمانَ والاطمئنانَ، والرزقَ الرَّغدَ الذِي يجلبُ إليهَا منْ جميعِ النواحِي، فلمَّا لمْ يشكُروا هذِه النعمَ تحولتْ إلى أضدادِهَا، فبُدِّلُوا بالرزقِ جوعاً، وبالأمنِ والاطمئنانِ خوفاً وقلقاً.

فاتقُوا اللهَ عبادَ الله: واشكرُوا نعمَ اللهِ التي أسبغَها عليكُمْ، وأدُّوا ما أوجبَ اللهُ عليكُم، وتجنَّبوا ما حرَّمَ اللهُ عليكُمْ، حافِظُوا على الصلواتِ، واحضرُوا الجُمعَ والجماعاتِ، وأدُّوا زكاةَ أموالِكُمْ، تجنَّبُوا المعاملاتِ المحرمةَ، والمكاسبَ الخبيثَةَ، طهِّروا بيوتكُمْ منْ آلاتِ اللهوِ ومنَ الصورِ ومنَ سائرِ المحرماتِ، خذُوا على أيدي سُفهائِكُم، امنعُوا نساءَكُم من التبرجِ والسفورِ، واتخاذِ الملابسِ التي تغضبُ اللهَ ورسولَهُ، ربُّوا أولادكُمْ بتربيةِ الإسلامِ، وعلمُوهُمُ القرآنَ، وجنِّبُوهُمْ مواطِنَ الفسادِ وقُرنَاءَ السُّوءِ، وأدِّبُوهُمْ إذَا رأيتُمْ منهُمْ مَا يستوجبُ التأدِيبَ، وخذُوهُمْ بالحزمِ والحكمةِ، فكُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُم مسؤُولٌ عنْ رَعِيَّتِهِ.

اللهُمَّ أصلِحْ لنَا دينَنَا الذِي هُو عصمةُ أمرِنَا، وأصلحْ لنَا دُنيانَا التي فيهَا معاشُنا، وأصلحْ لنَا آخرَتنَا التي إليهَا معادُنا.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: ١ ـ ٨].

* * *

فِي فَضْلِ الجِهَادِ فِي سَبيلِ اللهِ

الحمدُ للهِ الذي أمرَ بالجهادِ، لتطهيرِ الأرضِ منَ الكفرِ والفسادِ، ووعدَ المجاهِدينَ بعظيمِ الأجرِ والثوابِ، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولهُ، جاهدَ في اللهِ حقَّ جِهادِهِ بالقلبِ واللسانِ، والدعوةِ والبيانِ، وبالسيفِ والسنانِ، فكانَ كلُّ عمرِهِ في الجهادِ، وكلُّ ساعاتِهِ صلاحٌ ورشادٌ، صلَّى اللهُ عليهِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، الذينَ بذَلُوا نُفُوسَهُمْ وأموالَهُمْ في الجِهَادِ في سبيلِ اللهِ، طاعةً للهِ، وطلباً لثوابِهِ، وسلم تسليماً كثيراً.

أَمَّا بعدُ:

عِبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ ـ بحكمتهِ البالغةِ ـ يمتحنُ عبادَهُ المؤمنينَ فيبتليهِمْ بأهلِ الكفرِ والنفاقِ، ليُظْهِرَ بذلكَ صدقَ المؤمنينَ في إيمانِهِم، وتُرفعَ درجاتُهم، وإلاَّ فهو سبحانهُ قادرٌ أن ينتقمَ مِنَ الكفارِ فيُهلكَهُم عنَ آخرِهِم في لحظةٍ واحدةٍ، قالَ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾ [محمد: ٤ ـ ٨].

أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ: إنَّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ ذُروَةُ سنامِ الإسلامِ، ومنازِلُ أهلِهِ أعلىٰ المنازِلِ في الجنَّةِ، كمَا أنَّ لهُم الرِّفعةَ في الدُّنْيا، قالَ تعالىٰ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى

ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ ﴾ [٩٥، ٩٦].

وقدْ أمَرَ اللهُ بجهادِ الكفارِ والمنافقِينَ، وجهادُ هؤُلاءِ على أربعِ مراتبَ: بالقلبِ، واللِّسانِ، والمالِ، والنفسِ؛ فجهادُ الكفارِ بالمالِ والسلاحِ، وجهادُ المنافِقينَ بالحُجَّةِ والجِدالِ، وقدْ شرَعَ اللهُ الجهادَ لإعلاءِ كلمةِ اللهِ حتَّى يُعبدَ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، وشرعَ الجهادَ لقمعِ الكفارِ والمشركينَ، وكفِّ أذَاهُمْ عنِ المسلمينَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [النساء: ٧٦].

قالَ الإمامُ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: والتحقيقُ أنَّ جنسَ الجهادِ فرضُ عينٍ: إمَّا بالقلبِ، وإمَّا باللسانِ، وإمَّا بالمالِ، وإمَّا باليدِ، فعَلَى كلِّ مسلم أن يجاهدَ بنوعٍ منْ هذِه الأنواعِ. وذكرَ الإمامُ أحمدُ عنه ﷺ أنَّ رجلاً قالَ لَهُ: أوْصِني، فقالَ: **«أُوصيكَ بتقوىٰ اللهِ، فإنَّهُ رأسُ كلِّ شيءٍ، وعليكَ بالجِهادِ، فإنَّهُ رهبانيَّةُ الإسلامِ، وعليكَ بذكرِ اللهِ وتلاوَةِ القرآنِ، فإنَّهُ رُوحُكَ في السماءِ، وذكرٌ لكَ في الأرضِ»**[1]، وقالَ ﷺ: **«ذُرْوَةُ سنامِ الإسلامِ الجهادُ»**[2]، وقالَ: **«ثلاثةٌ حقٌّ على اللهِ عونُهُم: المجاهدُ في سبيلِ اللهِ، والمكاتَبُ الذِي يريدُ الأداءَ، والنَّاكحُ الذي**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٣/ ٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٥٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٥٣٢) والطبراني (٧٨٨٥) من حديث معاذ بن جبل.

يريدُ العفافَ»(١)، وقالَ ﷺ: «منْ ماتَ ولمْ يغزُ، ولمْ يحدِّثْ نفسهُ بغزوٍ، ماتَ على شعبةٍ منْ نفاقٍ»(٢)، وذكرَ أبُو داودَ عنهُ ﷺ: «منْ لمْ يغزُ، أو يجهزْ غازيًا، أَوْ يخلُفْ غازياً في أهلِهِ بخيرٍ، أصابَهُ اللهُ بقارعةٍ قبلَ يومِ القِيامَةِ»(٣)، وقالَ ﷺ: «إذا ضَنَّ الناسُ ـ أيْ بخِلُوا ـ بالدِّينارِ والدِّرْهَمِ، وتبايعُوا بالعينةِ ـ وهي نوعٌ من الرِّبَا ـ واتبعُوا أذنابَ البقرِ، وتركُوا الجهادَ في سبيلِ اللهِ ـ أنزلَ اللهُ بهِم بلاءً، فلمْ يرفعْهُ عنهُم حتَّى يُرَاجِعُوا دِينهُم»(٤)، وذكرَ ابنُ ماجه عنهُ ﷺ: «منْ لَقِيَ اللهَ عزَّ وجَلَّ وليسَ لَهُ أثرٌ في سبيلِ اللهِ، لَقِيَ اللهَ وفيهِ ثُلْمَةٌ»(٥).

عبادَ اللهِ: والجهادُ في سبيلِ اللهِ يكونُ بالمالِ ويكونُ بالنفسِ، وقدَ جاءَ الحثُّ على الجهادِ بالمالِ مقدَّماً على الجهادِ بالنفسِ فِي آياتٍ كثيرةٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [التوبة: ٤١]، وعلَّقَ سبحانهُ النجاةَ منَ النارِ ومغفرةَ الذنوبِ ودخولَ الجنَّةِ على الجهادِ بالأموالِ والأنفسِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف: ١٠ـ١٢]،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٦٥٥) والنسائي (٦/ ٦١) وابن ماجه (٢٥١٨) وابن حبان (٤٠٣٠) من حديث أبي هريرة. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٠٣) وابن ماجه (٢٧٦٢) من حديث أبي أمامة.

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٨) من حديث ابن عمر، وأبو دادود (٣٤٦٢) نحوه. وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع (٦٨٥).

(٥) أخرجه ابن ماجه (٢٧٦٣)، والحديث في سنن الترمذي أيضا برقم (١٦٦٦).

وأخبرَ سبحانَهُ أنَّه اشترىٰ من المؤمنينَ أنفسهُم وأموالهُمْ بأنَّ لهُم الجنَّةَ.

وقالَ ﷺ: «ومنْ أنفقَ زوجينِ في سبيلِ اللهِ دعاهُ خزنةُ الجنَّةِ، كلُّ خزنةِ بابٍ: أيْ هلُمَّ»[(١)]. وقالَ ﷺ: «منْ أنفقَ نفقةً فاضلةً في سبيلِ اللهِ فبسبعمائَةٍ»[(٢)]، وذكرَ ابنُ ماجه عنهُ ﷺ: «مَنْ أَرسلَ بِنفقةٍ في سبيلِ اللهِ، وأَقامَ في بَيتِهِ، فَلَهُ بكلِّ دِرهَمٍ سبعمائَةِ دِرهَمٍ»[(٣)]، وقالَ ﷺ: «منْ أعانَ مجاهداً في سبيلِ اللهِ، أَوْ غارِماً في غُرْمِهِ، أَوْ مكاتباً في رقَبتِهِ، أظلَّهُ اللهُ في ظِلِّهِ يومَ لاَ ظلَّ إلاَّ ظِلُّهُ»[(٤)].

عبادَ اللهِ: فالجهادُ بالمالِ معناهُ أنْ تدفعَ مالاً يستعينُ بهِ المجاهدونَ في سبيلِ اللهِ في نفقتهِمْ ونفقةِ عِيالِهِمْ، وفي شراءِ الأسلحةِ وغيرهَا منْ معدَّاتِ الجهادِ، وفي ذلكَ فضلٌ عظِيمٌ، لأنَّ اللهَ ذكرهُ في القرآنِ مقدَّماً على الجهادِ بالنفسِ، ممَّا يدلُّ على أهميتِهِ ومكانتِهِ عندَ اللهِ، والمسلمونَ كالجسدِ الواحدِ، إِذَا اشتكَىٰ منهُ عضوٌ تداعَى لَهُ سائرُ الجسدِ بالسهرِ والحُمى.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٤ ـ ٢٤٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٠) وأطرافه في (١٨٩٧، ٣٢١٦، ٣٦٦٦). ومسلم (١٠٢٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١٦٩٢) مطولا وفيه قصة. ورواه الترمذي (١٦٢٥) نحوه من حديث أبي عبيدة بن الجراح.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٧٦١) من حديث جماعة من الصحابة كلهم حدث عن رسول الله ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٥٤١٧، ١٥٤١٨) من حديث سهل بن حنيف. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٥٥٥).

فِي فَضْلِ العُلَمَاءِ العَامِلينَ، وَالحَثّ عَلَى التّعَلُّمِ مِنهُمْ

الحمدُ للهِ الذي امتنَّ على العبادِ، بأنْ جعلَ في كلِّ زمانٍ فترةٍ من الرُّسُلِ بقايَا منْ أهلِ العلمِ، يدعونَ منْ ضلَّ إلى الهُدىٰ، ويصبرونَ منهم على الأذَى، ويحيونَ بكتابِ اللهِ أهلَ العمَىٰ، كمْ منْ قتيلٍ لإبليسَ قدْ أحيَوهُ، وضالٍّ تائِهٍ قدْ هدَوهُ. وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ، يمنُّ بفضلِهِ على من يشاءُ منْ عبادِهِ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، حثَّ على تعلُّمِ العلمِ وتعليمِهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعَلَى آلِهِ وأصحابهِ، وسلمَ تسليماً كثيراً.

أَمَّا بعدُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَىٰ عظَّمَ شأنَ العُلَمَاءِ من عبادِهِ، فقالَ سبحانَه وتعالَىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وقالَ ﷺ: **«وإنَّ العالمَ ليستغفرُ لهُ منْ في السمواتِ والأرضِ، حتَّى الحيتانُ في الماءِ، فضلُ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العُلَمَاءَ ورثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لمْ يُورثُوا ديناراً ولاَ درهماً، وإنَّمَا وَرَّثُوا العلمَ، فمنْ أخذَهُ أخذَ بحظٍّ وافرٍ»**[1]، والنصوصُ في هذا المعنىٰ كثيرةٌ.

وفي هذا حثٌّ على تعلُّمِ العلمِ النافعِ، والحرصِ عليهِ، بلْ لقدْ أمرَ اللهُ بتعلُّمِ العلمِ قبلَ القولِ والعملِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٣)، وابن ماجه (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٩٧).

لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩]، قالَ الإمامُ البخاريُّ رحمهُ اللهُ في صحيحِهِ: «بابٌ: العلمُ قبلَ القولِ والعملِ» وأوردَ هذِهِ الآيةَ.

ويحرمُ الخوضُ في مسائِلِ الدِّينِ بدونِ علمٍ، وقدْ جعَلَ اللهُ القولَ عليهِ بدُونِ علمٍ عديلَ الشركِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وأمَرَ سبحانهُ منْ ليسَ عندهُ علمٌ أنْ يسألَ العُلماءَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣]، وأنكرَ ﷺ على قومٍ أفتوا بغيرِ علمٍ فقالَ: «ألا سألُوا إذْ لمْ يعلمُوا»[١].

عبادَ اللهِ: وتعلُّمُ العلمِ على نوعين:

النوعُ الأولُ: واجبٌ على كلِّ مسلمٍ، لاَ يُعذرُ أحدٌ بتركِهِ، وهُو تعلُّمُ مَا يستقيمُ بِهِ دينُهُ، كأحكامِ العقيدَةِ والطهارَةِ والصلاةِ والزكاةِ والصومِ والحجِّ، على الوجهِ الذي يتمكنُ بِهِ منْ أدَاءِ هذِهِ العبادَاتِ عَلَى وجهِهَا الصحيحِ، فتعلُّمُ هذِه الأُمُورِ واجبٌ على الأعيانِ، لاَ يعذرُ أحدٌ بجهالتِهِ.

والنوعُ الثانِي: مَا زادَ عنْ ذلكَ منْ تعلمِ بقيَّةِ أحكامِ الشريعةِ في المعاملاتِ والوصايا والمواريثِ والأنكحةِ والجناياتِ والقضاءِ، فهذا واجبٌ على الكفايةِ، إذَا قامَ بهِ منْ يكفِي منَ المسلمينَ سقطَ الإثمُ عنِ الباقينَ، وإنْ تركهُ الكلُّ أثمُوا، والاشتغالُ بتعلمِ هذا النوعِ أفضلُ من الاشتغالِ بنوافلِ العباداتِ منْ صلاةٍ وصومٍ وحجٍّ وغيرِ ذلكَ.

عبادَ اللهِ: والعلمُ إنَّمَا يُتلقَّىٰ ويُؤْخذُ عنِ العلماءِ الثقاتِ؛ قالَ ﷺ: «يحملُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٣٦) من حديث جابر بن عبد الله. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٦٢).

هذَا العلمَ منْ كلِّ خلفٍ عُدُولُهُ»[(١)]، وقال ﷺ: **«وإن العلماء ورثةُ الأنبياء»**[(٢)] فالعلماء يقومون مقامَ الأنبياءِ بتعليم العلمِ وتبليغِهِ للناسِ، ويجبُ على الناسِ أنْ يتعلموا منهُم ويتقبَّلُوا إرشاداتهِمْ وتعليماتهِمْ. وإنَّنَا ـ معَ الأسفِ الشديدِ ـ في هذا الزمانِ نرىٰ أُناسًا ـ خصوصًا الشباب ـ قدِ اعتزلُوا العلماءَ الثقات منْ علماءِ البلادِ، ونفرُوا منهُم، وأخذُوا يتعلمونَ على أيدِي جهَّالٍ لاَ يدركونَ منَ العلمِ شيئًا، أوْ ربَّمَا يتعلَّمُونَ على أيدِي أُنَاسٍ لاَ يُعْرَفُونَ بالثقةِ والأصالةِ في المعتقدِ، وربَّمَا يكونونَ ضُلاَّلاً يلقنونهُمْ الضَّلاَلاَتِ والبدعَ، وهذَا فيهِ خطُورةٌ عظيمةٌ على الدِّينِ وعلى المجتمعِ، وقالَ بعضُ السلفِ: «إنَّ هذا العلمَ دينٌ، فانظُرُوا عمَّنْ تأخذُونَ دينكُم»[(٣)]، وعنْ أَبِي أميَّةَ الجُمَحِيِّ رضي اللهُ عنهُ: أنَّ رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ عنِ الساعةِ فقالَ: **«من أشراطهَا ثلاثٌ: إحداهُن التماسُ العلمِ عندَ الأصاغرِ»** رواه الطبرانيُّ[(٤)].

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: «لاَ يزالُ الناسُ مشتملينَ بخيرٍ، مَا أتاهُمُ العلمُ منْ أصحابِ محمدٍ ﷺ ومنْ أكابرِهِمْ، فإذا أتاهُم العلمُ منْ قِبَلِ أصاغِرِهِم، وتفرَّقتْ أهواؤُهُم، هَلَكُوا»[(٥)]، وفي روايةٍ، «لا يزالُ الناسُ بخيرٍ مَا أَتَاهُم العلمُ منْ عُلمائِهِم وكُبَرَائِهِم وذَوي أسنانِهِم، فإذا أَتاهُم العلمُ عنْ

---

(١) أخرجه البيهقي في سننه (١٠/٢٠٩) من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، وصححه الألباني في تعليقه على «مشكاة المصابيح» (٣٤٨).

(٢) ورد عن غير واحد من الصحابة من ذلك حديث أبي الدرداء المتقدم ص ٢١٢.

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح عن ابن سيرين.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢/٣٦٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦٩٥) وفي صحيح الجامع (٢٢٠٧).

(٥) أخرجه أبو عبيد ويعقوب بن شيبة كما في فتح الباري (١٣/٢٤٧).

صغَارِهِم وسُفَهَائِهِم، فقدْ هَلَكُوا»(١).

فالواجبُ على المتعلمينَ أنْ يرتبطُوا بالعُلماءِ الثقاتِ المعروفينَ بالعلمِ وسلامةِ المعتقدِ، فيتلقَّوا عنهُم العلمَ والدِّينَ، حتَّى تتصلَ السلسلةُ والسندُ بالنبيِّ ﷺ، فيتلقَّوا عنهُ العلمَ النافعَ الصافِيَ بواسطةِ هؤُلاءِ العُلمَاءِ الثقاتِ، فيكُونُوا على بصيرَةٍ منْ دِينهِمْ، وبيِّنَةٍ منْ ربِّهِمْ، وصلةٍ بنبيِّهِمْ.

ومنَ المتعلِّمينَ منْ يقتصرُ على مطالعةِ الكتبِ، ويزعُمُ أنَّهُ بذلكَ يستغنِي عنِ العلماءِ، وهذا خطأٌ عظيمٌ، ويترتبُ عليهِ خطرٌ لأنَّ الكتبَ مَا عدَا كتابَ اللهِ وسُنَّةَ رسولِهِ فيهَا الخطأُ والصوابُ، وفيهَا الغثُّ والسَّمينُ، وفي بعضهَا الدَّسُّ والسُّمُّ الزُّعافُ، والمتعلِّمُ المبتدئُ لاَ يميزُ بينَ الضَّارِّ والنافعِ، فَلاَ بُدَّ منْ معلمٍ بصيرٍ يفحصُ لَهُ هذِه الكتبَ، ويضعُ يدَهُ على مَا فيهَا منْ صوابٍ نافعٍ، ومنْ خطأٍ ضارٍّ، ويشرحُ لَهُ عِبارَاتِهَا، ويُبيِّنُ لَهُ غامِضَهَا.

ولوْ كانَ العلمُ يتلقَّى منَ الكتُبِ لمَا تكلَّف أسلافُنَا الأسفارَ، وتعرَّضُوا للأخطارِ، فسافرُوا المسافاتِ الطويلةَ، ليلتقُوا بعلماءِ الأقطارِ النَّائيَةِ، ويتعلَّمُوا منهُم، فهذَا نَبِيُّ اللهِ وكليمُهُ موسَى عليهِ السلامُ، لمَّا أخبَرَهُ اللهُ أَنَّ عبداً منْ عبادِهِ عندَهُ علمٌ اختَصَّهُ بهِ، سارَ موسَى عليهِ السلامُ إليهِ، كمَا قصَّ اللهُ علينَا ذلكَ بقولِهِ تعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكهف: ٦٠]. يعني سنين عديدة، ولما لقيه ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦﴾ [الكهف: ٦٦].

وقدْ رحلَ أبُو أيُّوبَ الأنصاريُّ رضيَ اللهُ عنهُ منَ المدينةِ إلى مصرَ للقاءِ رجلٍ

---

(١) أخرجه ابن منده في مسند إبراهيم بن أدهم ص(٣٤).

منَ الصحابةِ، ليَرْوِيَ عنهُ حديثاً واحداً عنْ رسولِ اللهِ ﷺ لمْ يكنْ يعلمُه[1].
ورحلَ الإمامُ أحمدُ منَ العراقِ إلى اليمنِ، وإلى الحجازِ، وغيرهَا منَ الأقطارِ، لتلقِّي العلمِ عنِ العلماءِ. ورحلَ غيرُهُ من الأئمَّةِ، كالشَّافِعي والبخاريِّ، إلى أقطارٍ بعيدةٍ، ليتعلَّمُوا من علماءِ وقتِهِم.

ولَو كانَ العلمُ يتلقى منَ الكتبِ، لَجَلَسَ هؤُلاءِ في بُلْدَانِهِمْ، وقرءُوا الكتبَ، وتركُوا عناءَ السفرِ، إنَّهُ بإمكانِ أَيِّ إنسانٍ أن يشترِيَ كمِّيَّةً من الكُتبِ ويقرأَها، لكنَّ ذلكَ لاَ يُفِيدُ شيئًا، إنَّهُ يضُرُّ أكثرَ ممَّا يفيدُ.

ولنضربْ لذلكَ مثلاً: هلْ أنتَ إِذَا أحسستَ بمرضٍ، تذهبُ إلى الصيدليَّةِ وتأخذُ أيَّ دواءٍ منها؟ أَوْ لاَ بُدَّ من الذهابِ إلى الطبيبِ، ليعرفَ نوعية المرضِ، ويحددَ الدواءَ المناسبَ؟ كلُّ ذلكَ خشيةَ أنْ تأخذَ دواءً ضارًّا غيرَ مناسبٍ، يقضي عليكَ أوْ يضرُّكَ. كذلكَ العلمُ لاَ بُدَّ أنْ تذهبَ إلى المختصِّينَ فيه، وتتلقَّاهُ عنهُمْ، ولاَ تقتصرَ على الكتبِ، خشيةَ أنْ تقعَ في الضَّلاَلةِ، وتتأثَّرَ بمَا في بعضهَا منَ الشُّبُهَاتِ والدَّسِّ على الإسلامِ.

ومِنَ النَّاسِ منْ ظهرَ أخيراً يقولُ: لاَ ترجِعُوا إلى العُلماءِ، ولاَ إلى الكتبِ، بلِ ارجعُوا إلى القُرآنِ والسُّنَّةِ، وخذُوا منهُمَا العلمَ رأساً، إنَّهُم يقولُونَ هذَا وهُمْ لاَ يحسنونَ قراءَةَ القُرآنِ، فضلاً عنْ معرفةِ معانيهِ، وهذَا الصنفُ أخطرُ منَ الذِي قبْلَه، لأنَّه لاَ يعرِفُ قواعدَ الاستدلالِ؛ لأنَّ نصوصَ الكتابِ والسُّنَّةِ فيهَا الناسخُ والمنسوخُ، وفيها المطلقُ والمقيَّدُ، وفيهَا الخاصُّ والعامُّ، ثُمَّ الأحاديثُ المرويَّةُ فيها الصحيحُ والحسنُ والضعيفُ والموضوعُ، وكلُّ هذهِ أُمورٌ لاَ يعرفهَا

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «الرحلة في طلب الحديث» (٣٤).

إلاَّ الرَّاسخُونَ في العلمِ، وهُم خواصُّ العلماءِ، لا كلُّ العُلماءِ، فكيفَ بهؤُلاءِ العوامِّ المساكينِ؟.

إنَّ هؤُلاءِ يشكِّلُونَ خطَراً عظيماً على الأُمَّةِ، إنْ لمْ يؤخذْ على أيدِيهِمْ، فيجبُ على المسلمينَ أنْ يتنبهُوا لأنفُسِهِمْ ويعرِفُوا واقِعَهِمْ، إنَّه يجبُ على المسلمينَ أنْ يُقبِلُوا على تعلُّمِ العلمِ النافعِ منْ عُلمائِهِمْ، كلٌّ على حسبِ استطاعتِهِ، حتَّى يبقَى العلمُ النافعُ في الناسِ، ولاَ يذهبَ بذهابِ العُلماءِ، فقدْ قالَ ﷺ: **«إنَّ اللهَ لاَ يقبضُ العلمَ انتزَاعاً ينتزِعُهُ منْ صدُورِ الرِّجالِ، ولكنْ يذهبُ العُلماءُ، فإذا لمْ يبقَ عالمٌ اتَّخذَ الناسُ رؤوساً جُهَّالاً، فسُئلُوا فأفْتَوا بغيرِ علمٍ، فضلُّوا وأضلُّوا»**[1].

نسألُ الله لنَا ولكُم العلمَ النافعَ، والعملَ الصالحَ، والثباتَ على دِينِ الإسلامِ.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران: ١٦٤].

* * *

(١) أخرجه البخاري (١٠٠، ٧٣٠٧) ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو.

فِي مَرَضِ القَلْبِ وَعِلاَجِهِ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ، وفضَّلَهُ على كثيرٍ ممنْ خلقَ تفضيلاً، ووهبَ لَهُ العقلَ الذي امتازَ بِهِ عنِ البهائمِ، ليعرفَ بهِ رَبَّهُ، ويدركَ بهِ مصالحَهُ، فإنْ أحسنَ العملَ في هذِهِ الدُّنْيَا كانَ تكريمُهُ موْصُولاً في الدُّنيَا والآخرَةِ ﴿ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء: ٢١].

وإن أساء العمل وألغى عقله ردَّه الله أسفلَ سافلين ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].

أحمدهُ على نعمِهِ التي لاَ تُحصَى، وأشكُرُه، وحقُّهُ أنْ يطاعَ فلاَ يعْصَى، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لَهُ، لَهُ الملكُ ولَهُ الحمدُ وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ، كانَ يكثِرُ أنْ يقُولَ: «**يا مقلِّبَ القُلُوبِ ثبِّتْ قلبِي على دِينكَ**»[1] صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابِهِ، ومنْ سارَ على نهْجِهِ وتمَسَّكَ بسُنَّتِهِ إلى يومِ الدِّينِ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

عبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ تعالىٰ، هُو الذِي خلقَكُمْ وصوَّرَكُم فأَحسنَ صُورَكُمْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨]، نعمْ، إنكَ أيُّهَا الإنسانُ مركَّبٌ منْ أعضاءٍ، وكلُّ عضوٍ منكَ خلقَ لعملٍ خاصٍّ، فإذا مَرِضَ ذلكَ العضوُ تعطَّلَ عملُه أوِ اختلَّ، فإذا مرضت اليدُ تعذَّرَ منهَا البطشُ، وإذا مرضتِ العيْنُ تعذَّرَ منهَا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديث أنس. وأخرجه الترمذي (٣٥٢٢) من حديث أم سلمة. وانظر تخريجه في الصحيحة للألباني (٢٠٩١).

الإبصارُ، وإذَا مرضَ القلبُ بالمعاصِي تعذَّرَ منهُ فعلُه الخاصُّ الذي خلقَ منْ أجلِهِ، وهُو العلمُ والحكمةُ والمعرفةُ، وحُبُّ اللهِ وعبادتُهُ.

ومرضُ القلبِ هُو الدَّاءُ العُضالُ، وهو مرضٌ خفيٌّ قدْ لاَ يعرفهُ صاحبُهُ، فلذلكَ يغفلُ عنهُ، وإنْ عرفَه صعُبَ عليهِ الصبرُ على مرارةِ دوائِه، لأنَّ دواءَهُ مُخَالفَةُ الهوَى.

إنَّ القلبَ هُو ملكُ الأعضاءِ، ومصدرُ سعادتهَا أوْ شقائِهَا، ومصدرُ صلاحِهَا أو فسادِهَا، قالَ ﷺ: «**ألاَ وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّهُ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّهُ ألاَ وهي القلبُ**»[1]، ففي هذا الحديثِ دليلٌ على أنَّ صلاحَ أعمالِ العبدِ بحسبِ صلاحِ قلبهِ، وأنَّ فسادَ أعمالِ العبدِ بحسبِ فسادِ قلبهِ، فالقلبُ الصالحُ هُو القلبُ السليمُ الذي لاَ ينفعُ عندَ اللهِ غيرُهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] فالقلوبُ على ثلاثةِ أنواعٍ:

النوعُ الأوَّلُ: **قلبٌ سليمٌ**، وهو السَّالِمُ منَ الآفاتِ والمكروهاتِ كلِّهَا، وهو القلبُ الذي ليسَ فيهِ سوىٰ محبَّةِ اللهِ وخشيتِهِ، وخشيةِ مَا يباعِدُ عنْهُ.

النوعُ الثانِي: **القلبُ الميِّتُ**، الذي لاَ حياةَ بهِ، فهو لاَ يعرفُ رَبَّهُ ولاَ يعبُدُه، فهو واقِفٌ معَ شهواتهِ ولذَّاتهِ، ولوْ كانَ فيهَا سخط رَبِّهِ وغضبه فَلاَ يستجيبُ للنَّاصحِ، بلْ يتبعُ كلَّ شيطانٍ مريدٍ.

النوعُ الثالثُ: **القلبُ المريضُ**، وهو قلبٌ لَهُ حياةٌ، وبهِ علَّةٌ.

فالقلبُ الأوَّلُ قلبٌ مخبتٌ واعٍ ليِّنٌ حيٌّ، والقلبُ الثانِي قلبٌ يابسٌ ميِّتٌ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير.

والقلبُ الثالثُ قلبٌ مريضٌ؛ فإمَّا إلى السلامةِ أدنَى، وإمَّا إلى العطبِ أدْنَى.

عبادَ اللهِ: ولحياةِ القلوبِ وموتهَا ومرضِهَا أسبابٌ يفعلُهَا الإنسانُ، فمنْ أسبابِ حياتِهَا:

الإقبالُ على اللهِ، وتلاوةُ كتابهِ وتدبُّره، والاشتغالُ بذكرِه، قالَ تعالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الحديد: ١٦].

ومن أسبابِ حياةِ القلوبِ مجالسةُ الصالحِينَ ومخالطتُهم، والاقتداءُ بهم.

ومن أسبابِ حياةِ القلوبِ الاستماعُ إلى المواعِظِ والتَّذكِيرِ، والمحافظَةِ على صلاةِ الجُمُعَةِ والجماعَةِ.

ومن أسبابِ حياةِ القلوبِ النظرُ والتَّفكُّرُ في مخلوقاتِ اللهِ، وما فيهَا منَ الحِكَمِ، قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤]. وقالَ تعالَىٰ: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

أمَّا أسبابُ موتِ القلوبِ، فمنهَا: إعراضُها عنْ قبولِ الحقِّ بعدَ معرفتِها

لَهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٢٧﴾ [التوبة: ١٢٧]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤].

والقلبُ الميِّتُ يكونُ صاحِبهُ أحطَّ منَ البهائِمِ، ويكونُ مآلُهُ إلى جهنَّمَ، قالَ تعالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فيصبحُ هذا القلبُ مطمُوسًا منكُوسًا مختُومًا عليهِ، لاَ ينتفعُ بهِ صاحبُهُ بسببِ أنَّهُ أعرضَ عنِ الحقِّ ورضيَ بالباطلِ، فصارَ الباطلُ غِذَاءَه، والضلاَلُ طريقَهُ، والجحيمُ مصيرَهُ، نعوذُ باللهِ منَ الخذلانِ.

وأمَّا أسبابُ مرضِ القلوبِ، فمنهَا: أكلُ الحرامِ، فإنَّ المطعمَ الخبيثَ يُغَذِّي تغذيةً خبيثةً، قالَ ﷺ: في الذي «يطيلُ السفرَ، أشعثَ أغبرَ، يمدُّ يديهِ إلى السماءِ يارَبِّ، يارَبِّ، ومطعَمُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِّي بالحرامِ، فأنَّى يستجابُ لذلِكَ»(١)، وما أكثرَ أكلَ الحرامِ في وقتِنَا هذَا، ممَّا سبَّبَ مرضَ القلوبِ، وفسادَ التصرُّفاتِ، وانحطاطَ الأخلاقِ، كَمَا تَرونَ ذلِكَ ظاهِراً في مجتمعِنَا.

ومنْ أسبابِ مرضِ القلوبِ فعلُ المعاصِي، فإنَّ المعاصِيَ تؤثرُ في القلوبِ وتُمْرِضُها، قالَ تعالَىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]،

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة.

وقدْ ورَدَ في الحدِيثِ: «أنَّ العبدَ إذا أذنَبَ ذَنْباً نُكِتَ في قلبِهِ نُكتة سوداء، فإنْ تابَ صُقِلتْ تلكَ النُّكْتةُ، وإلاَّ تزايدَتْ وعَظُمَ خطرُهَا على القلبِ»[1].

ومنْ أسبابِ مرضِ القلوبِ استماعُ مَا لاَ يجوزُ استماعُهُ منَ الكلاَمِ المحَرَّمِ، واستماعُ الملاَهِي منَ الأغانِي والمزامِيرِ، وقدْ كَثُرَ هذَا البَلاءُ في هذَا الزمانِ، وتنوعتْ مفاسدُهُ، وتعددتْ طرقُ ترويجهِ بيننَا في الإذاعاتِ والتلفازِ والأشرطةِ، فظهرَ أثرُ هذَا السماعِ المحرَّمِ، فأفسدَ سُلُوكَ كثيرٍ منَ النِّساءِ والصبيانِ، بلْ وكثيرٍ منَ الرجالِ، فالأغانِي منْ أكبَرِ ما تطرَّقَ بِهِ إبليسُ إلى فسادِ القلُوبِ، وقدْ فُسِّرَ قولُهُ تعالَىٰ لإبليسَ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤]، بأنَّ المرادَ بصوتِهِ: الغناءُ.

ومفاسدُ الغناءِ كثيرةٌ، لاَ يتسعُ هذَا المقامُ لشرحِهَا وقدْ بينهَا العُلماءُ في كُتُبِهِمْ، وشخَّصُوهَا، فعلى المسلمِ أنْ يراجِعَ تلكَ الكتبَ، خصُوصاً ما كتبهُ شمسُ الدينِ ابنُ القيمِ في إغاثَةِ اللهفانِ، ليعرفَ إلي أيِّ مدى تنتهي تلكَ الأغانِي بأصحابِهَا.

ومنْ أسبابِ مرضِ القلوبِ النظرُ المحرمُ، قالَ ﷺ: «النظرَةُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليسَ»[2]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]، فالنظرةُ المحرَّمةُ تورثُ شهوةً في القلبِ تمرضهُ.

---

(١) ورد معناه من حديث حذيفة، أخرجه مسلم (١٤٤).
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٣٦٢).

ومن أسبابِ مرضِ القلوبِ مطالعةُ الكتبِ الفاسِدَةِ، التي انتشرتْ في هذَا الزمانِ، فشغلتْ كثيراً من الناسِ عنْ مطالعةِ الكتبِ النافعةِ، وكذلكَ مطالعةُ الصحفِ والمجلاتِ الخليعَةِ، ومَا أكثرَهَا في أسواقِنَا وبيوتنَا ومكاتبِنَا! وقدْ رتعَ فيها الناسُ رجالاً ونساءً وأطفالاً، فلاَ حولَ ولاَ قوَّةَ إلاَّ باللهِ العَلِيِّ العظِيم.

عبادَ اللهِ: إنَّه لاَ شفاءَ لأمراضِ القلوبِ إلاَّ بالدواءِ الذي أنزلَهُ الله في كِتَابهِ وسُنَّةِ نبيِّهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، و﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤]، فأقبِلُوا على كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، لتُداووا قلوبَكُمْ بهمَا، ففيهمَا الشفاءُ والرحمةُ، وفيهمَا النورُ والهدايةُ، وفيهمَا الرُّوحُ والحياةُ، وفيهمَا العصمةُ منَ الشيطانِ ووساوسِهِ، وليأخُذْ كلٌّ منَّا نفسه فيُبعِدُها عنْ مواطنِ الفتنِ، ويقطعُ عنهَا وسائلَ الشرِّ. وكذلكَ أبعدُوا أولاَدَكُمْ وبُيوتَكُمْ عنْ وسائلِ الشرِّ، ودواعِي الفسادِ، إنْ كُنتُمْ تُرِيدُونَ الشفاءَ لقلُوبِكُمْ، والخيرَ لمجتمَعِكُم، وأكثرُوا منْ هذا الدعاءِ الذي كانَ يدْعُو بهِ النَّبيُّ ﷺ: «يا مقلبَ القلُوبِ، ثبتْ قُلُوبنَا على طاعَتِكَ»[1].

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٢، ٥٣].

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦٠٢) من حديث عائشة نحوه. وتقدم بمعناه في ص٢١٨.

فِي فَضْلِ الاسْتِغْفَارِ

الحمدُ للهِ العزيزِ الغفَّارِ، يبسطُ يدَهُ بالنَّهَارِ ليَتُوبَ مُسِيءُ الليلِ، ويبسطُ يدَهُ بالليلِ ليتوبَ مسيءُ النهارِ، أحمدُهُ على نعمِهِ الغِزارِ، وأشْكُرُهُ على فَضْلِهِ المِدرارِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسُولُهُ، حثَّ على الاستغفارِ، صَلَّى اللهُ علَيْهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ البرَرَةِ الأطهارِ، وسلمَ تسليماً كثيراً مَا اختلفَ اللَّيْلُ والنهارُ.

أَمَّا بعدُ:

عِبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ تعَالَىٰ، واعلمُوا أنَّ اللهَ قدْ أمَرَنَا بالتَّوْبَةِ إليْهِ، والاستغفارِ منْ ذُنوبِنَا، في آياتٍ كثيرةٍ منْ كتابهِ الكريمِ، وسمَّى ووصفَ نفسَهُ بالغفارِ والغفورِ وغافرِ الذنوبِ وذي المغفرَةِ، وأثْنَى على المستغفِرينَ، ووعدَهُمْ بجزيلِ الثَّوابِ، وكلُّ ذلكُمْ يدُلُّنَا على أهمِّيَّةِ الاستغفارِ وفضيلتِهِ وحاجتِنَا إليهِ.

وقدْ قصَّ اللهُ علينَا عنْ أنبيائِهِ أنهُم يستغفرُونَ ربَّهُمْ ويتوبونَ إليهِ، فذكرَ عنِ الأبوينِ عليهما السلامُ أنَّهُما قالاَ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، وذكرَ لنَا عنْ نوحٍ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هُود: ٤٧]، وقالَ أيضاً: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [نوح: ٢٨]، وذكرَ عنْ موسَى عليهِ السلامُ أنَّه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]، وقال عنْ نبيِّهِ داودَ عليهِ السلامُ: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]، وذكرَ عنْ نَبِيِّهِ سليمانَ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ

لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، وأمرَ خاتمَ رسُلِهِ نبينا محمداً ﷺ بقولِهِ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأمرنَا بالاستغفارِ فقالَ: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وفي الحديثِ القُدسيِّ يقولُ سبحانَهُ: «يا عبادِيَ، إنَّكُمْ تخطئَونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنَ أغفرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستغفِرُونِي أغفِرْ لكُمْ»(١).

عِبادَ اللهِ: وللاستغفارِ فوائدُ عظيمةٌ، منهَا: أَنَّهُ سببٌ لمغفرَةِ الذُّنوبِ، وتكفيرِ السيئَاتِ، كمَا في الحديثِ: «فاستغفروني أغْفِرْ لكُم»، وكَمَا قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١١٠﴾ [النساء: ١١٠]، وفي الحديثِ: «قالَ اللهُ تعالَىٰ: يَا ابنَ آدمَ، إنَّكَ ما دعوتَنِي ورجَوْتَنِي غفرتُ لكَ مَا كانَ مِنْكَ ولاَ أُبالِي، يَا ابنَ آدَمَ لَوْ بلغَتْ ذُنُوبكَ عنانَ السماءِ، ثمَّ استغفرْتَنِي، غفرتُ لكَ»(٢).

ومنْ فوائدِ الاستغفارِ: أنه يدفعُ العقوبَةَ، ويدفعُ العذابَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣].

ومنْ فوائدِ الاستغفارِ: أنه سببٌ لتفريجِ الهمومِ، وجلبِ الأرزاقِ، والخروجِ منَ المضايقِ، ففي سُنَنِ أَبِي داودَ وابنِ ماجه عنِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ لزِمَ الاستغفارَ، جعلَ اللهُ لَهُ منْ كلِّ ضيقٍ مخرجًا، ومنْ كلِّ همٍّ فرجًا، ورزَقَهُ منْ حيثُ لاَ يحتسبُ»(٣).

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) من حديث أنس. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٣٣٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٥١٨)، وابن ماجه (٣٨١٩) من حديث ابن عباس. وضعفه الألباني في الضعيفة (٧٠٥).

ومنْ فوائدِ الاستغفارِ: أنه سببٌ لنزولِ الغيثِ، والإمدادِ بالأموالِ والبنينَ، ونباتِ الأشجارِ، وتوفُّرِ المياهِ، قالَ تعالَىٰ عنْ نبيِّه نوحٍ عليهِ السلامُ أنهُ قالَ لقومِهِ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ١٠ ـ ١٢]، وقالَ عنْ هُودٍ عليهِ السلامُ أنهُ قالَ لقومِهِ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

عِبادَ اللهِ: والاستغفارُ مشروعٌ في كلِّ وقتٍ، وهناكَ أوقاتٌ وأحوالٌ مخصُوصَةٌ يكونُ للاستغفارِ فيهَا مزيدُ فضلٍ، فيستحبُّ الاستغفارُ بعدَ الفراغِ من أداءِ العبادَاتِ، ليكُونَ كفارةً لمَا يقعُ فيهَا من خللٍ أوْ تقصيرٍ، كمَا شُرعَ بعدَ الفراغِ منَ الصَّلوَاتِ الخمسِ، فقدْ كَانَ النبيُّ ﷺ إذَا سلَّمَ منَ الصلاةِ المفروضةِ يستغفرُ اللهَ ثلاثاً، لأنَّ العبدَ عُرضةٌ لأنْ يقعَ منْهُ نقصٌ في صلاتِهِ، بسببِ غفلةٍ أوْ سهوٍ.

كمَا شُرعَ الاستغفارُ في ختامِ صلاةِ الليلِ، قالَ تعَالى عنِ المتَّقينَ: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقالَ تعَالَىٰ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧].

وشُرعَ الاستغفارُ بعدَ الإفاضةِ من عرفة، والفراغِ منَ الوقُوفِ بهَا، قالَ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة: ١٩٩].

وشُرعَ الاستغفارُ في ختامِ المجالسِ، حيثُ أمرَ النبيُّ ﷺ عندَما يقومُ الإنسانُ من المجلسِ أنْ يقُولَ: «سبحانكَ اللهمَّ وبحمدِكَ، أستغفرُكَ وأتوبُ

إليكَ»[١] فإنْ كانَ مجلسَ خيرٍ كانَ كالطابعِ عليهِ، وإنْ كانَ غير ذلكَ كانَ كفارةً لهُ.

وشُرِعَ الاستغفارُ في ختامِ العمرِ، وفي حالةِ الكِبَرِ، فقدْ قالَ اللهُ تعالَى لنبيِّهِ ﷺ عندَ اقترابِ أجلِهِ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ـ٣]، فقدْ جعلَ اللهُ فتحَ مكَّةَ ودخُولَ الناسِ في دينِ اللهِ أفواجاً، علامةً على قُربِ نهايةِ أجلِ النبيِّ ﷺ، وأمرَهُ عندَ ذلكَ بالاستغفارِ.

فينبغي لكُمْ ـ أيُّهَا المسلمونَ ـ ملازمةُ الاستغفارِ في كلِّ وقتٍ، والإكثارُ منهُ في هذِهِ الأوقاتِ والأحوالِ المذكُورةِ، لتحوزُوا هذهِ الفضائلَ، وتنالُوا هذِهِ الخيراتِ، فقدْ كانَ نبيُّنا ﷺ يكثرُ منَ الاستغفارِ؛ فقدْ روىٰ الإمامُ أحمدُ وأصحابُ السُّننِ منْ حديثِ ابنِ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهُمَا: إنَّا لنعُدُّ لرسولِ اللهِ ﷺ في المجلسِ الواحدِ مائةَ مرَّةٍ يقُولُ: **«ربِّ اغفرْ لِي وتُبْ عليَّ إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرحيمُ»**[٢]، وفي سننِ ابنِ ماجَه بسندٍ جيِّدٍ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنه قالَ: **«طُوبَى لمنْ وجدَ في صحِيفتِهِ استغفارًا كثيرًا»**[٣].

عِبادَ اللهِ: والاستغفارُ معناهُ طلبُ المغفرةِ منَ اللهِ، بمحوِ الذنوبِ، وسترِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٣٣) من حديث أبي هريرة، وأخرجه أبو داود (٤٨٥٩) من حديث أبي برزة الأسلمي من فعل النبي ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤٧١٢)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤).

(٣) سنن ابن ماجه (٣٨١٨) من حديث عبد الله بن بسر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٩٣٠).

العُيوبِ، ولاَ بُدَّ أنْ يصحَبَهُ إقلاعٌ وابتعادٌ عنِ الذُّنُوبِ والمعَاصِي. وأمَّا الذِي يقولُ: أستغِفرُ اللهَ، بلسَانِهِ، وهُو مقيمٌ على المعاصِي بأفعالِهِ، فَهُو كذابٌ لاَ ينفعُهُ الاستغفارُ، قالَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رحِمَهُ اللهُ: «استغفارٌ بلاَ إقلاعٍ توبةُ الكذابينَ». وقالَ آخرُ: «استغفارُنَا يحتاجُ إلى استغفارٍ»! يعنِي أنَّ منِ استغفَرَ ولَمْ يترُكِ المعصِيَةَ، فاستغفارُهُ ذنبٌ يحتاجُ إلى استغفارٍ. فلننظُرْ في حقيقَةِ استغفارِنَا، لئلاَّ نكُونَ منَ الكذّابينَ الذِينَ يستغفرُونَ بألسْنتِهِمْ وهُمْ مقيمُونَ على معاصِيهِم.

عِبَادَ اللهِ: هناكَ ألفاظٌ للاستغفارِ وردَتْ عنِ النبيِّ ﷺ ينبغِي للمسلمِ أنْ يقُولهَا، منهَا: قولهُ ﷺ: «رَبِّ اغفِرْ لِي وتُبْ عليَّ إنكَ أنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»[1]، وقولُهُ: «أستغفِرُ اللهَ الذي لاَ إلهَ إلاَّ هو الحيُّ القيُّومُ وأتُوبُ إليهِ»[2]، وقالَ ﷺ: «سيِّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللَّهُمَّ أنتَ رَبِّي، لاَ إلهَ إلاَّ أنتَ، خلقتَنِي وأنَا عبدُكَ، وأنَا على عهدِكَ ووعدِكَ مَا استطعتُ، أعوذُ بكَ منْ شرِّ مَا صنعتُ، أبُوءُ لكَ بنعمتِكَ عليَّ، وأبُوءُ بذنْبِي، فاغفِرْ لِي، فإنَّهُ لاَ يغفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ أنتَ. منْ قالهَا من النهارِ مُوقِناً بِهَا، فماتَ منْ يَومِهِ قبلَ أنْ يُمْسِيَ، فهُو منْ أهلِ الجنَّةِ، ومنْ قالهَا منَ اللَّيْلِ وهُو مُوقِنٌ بِهَا، فماتَ قبلَ أنْ يصبحَ، فهُو منْ أهلِ الجنَّةِ» رواهُ البخاريُّ[3].

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ـ ١٣٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٤٧١٢)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤).
(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٧) من حديث زيد رضي الله عنه مولى النبي ﷺ.
(٣) صحيح البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس.

فِي الحَثِّ عَلَى لُزُومِ الصِّدْقِ

الحمدُ للهِ الذي أمرَ بالصِّدقِ في كتابِهِ المُبينِ، وأثْنى على الصَّادقينَ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، أحمدُهُ على نعمِهِ الظَّاهرَةِ والباطنَةِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حَثَّ على الصِّدقِ ورغَّبَ فيهِ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا المسلمونَ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الصِّدقَ صفةٌ حميدةٌ، قدْ أَثْنَى اللهُ على أهلِهَا، ووعدَهُمْ بجزيلِ الثَّوابِ. والصِّدقُ يكُونُ معَ اللهِ، ويكونُ معَ الناسِ، ويكونُ بينَ العبدِ وبينَ نفسِهِ، فقدْ صحَّ فِي الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**عليكُمْ بالصِّدقِ، فإنَّ الصِّدقَ يهْدِي إلى البرِّ، وَإِنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّةِ، ولاَ يزالُ الرجلُ يصْدقُ ويتحرَّىٰ الصِّدقَ، حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ صِدِّيقاً. وإيَّاكُم والكذِبَ، فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفجُورَ يهدي إلى النارِ، ولاَ يزالُ الرجلُ يكذِبُ ويتحرَّىٰ الكذِبَ، حتَّى يُكْتبَ عندَ اللهِ كذّابًا**»(١).

وإنَّمَا حثَّ النبيُّ ﷺ على الصِّدقِ، لأنهُ مقدِّمةُ الأخلاقِ الجميلةِ والدَّاعِي إليهَا، كمَا نصَّ على ذلكَ الرَّسولُ ﷺ في هذَا الحَديثِ بقولِهِ: «**فإنَّ الصِّدقَ يهدِي إلى البرِّ**» والبِرُّ اسمٌ جامعٌ لكلِّ خيرٍ وطاعةٍ للهِ وإحسانٍ إلى الخلقِ، والصِّدقُ عنوانُ الإسلامِ، وميزانُ الإيمانِ، وأساسُ الدِّينِ، وعلامةٌ على كمالِ المتَّصِفِ بِهِ، ولهُ المقامُ الأعلىٰ في الدِّينِ والدُّنْيَا.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧) من حديث ابن مسعود، واللفظ لمسلم.

وبالصِّدقِ يصلُ العبدُ إلى منازلِ الأبرارِ، وبهِ تحصلُ النَّجاةُ منْ جميعِ الشُّرُورِ، وإنَّ البرَكَةَ مقرُونَةٌ بالصِّدقِ، قالَ ﷺ: «**البيِّعانِ بالخيارِ مَا لمْ يتفرَّقا، فإنْ صدَقا وبيَّنا بُورِكَ لهُمَا في بيعِهمَا، وإنْ كذبَا وكتَما مُحِقتْ بركةُ بيعِهما**» متفقٌ عليهِ[1].

والمشاهدةُ أكبرُ شاهدٍ على ذلكَ، فإنَّكَ لاَ تجدُ صادِقاً في معاملتِهِ إلاَّ وجدْتَ رِزقَهُ رغداً، وقدْ حازَ معَ ذلكَ الشَّرفَ وحُسنَ السُّمعةِ، ويتسابقُ النَّاسُ إلى معاملتِهِ، وبذلِكَ تتمُّ لَهُ سعادةُ الدُّنْيَا والآخرةِ، لاَ ترىٰ صادِقًا إلاَّ وهو مرمُوقٌ بينَ الناسِ بالمحبَّةِ والثَّناءِ والتَّعظيمِ، فالصَّادقُ يطمئنُّ إلى قولِهِ العَدُوُّ والصَّديقُ، والكاذِبُ لاَ يثِقُ بهِ الصَّدِيقُ والقريب. ما أحلىٰ أحاديث الصادقين! وما أقبح أقوال الكاذبين! الصادق الأمينُ مؤتمنٌ على الأموالِ والحقوقِ والأسرارِ، ومتى حصلَ منهُ كبوةٌ أو عثرةٌ فصدقُهُ شفيعٌ مقبولٌ، والكاذبُ لاَ يؤمنُ على مثقالِ ذرَّةٍ، ولوَ قُدِّرَ صدقُهُ أحياناً لمْ يكنْ لذلِكَ موقعٌ، ولاَ حصلَ بهِ ثقةٌ ولاَ طمأنينةٌ.

بالصِّدقِ تُبرمُ العهُودُ الوثيقةُ، وتطمئِنُّ لَهُ القلُوبُ على الحقيقةِ، منْ صدقَ فِي حدِيثِهِ مخاطِباً ومجيباً، وآمِرًا وناهِياً، وتالِياً وذاكِرًا، ومعْطِياً وآخِذًا ـ كانَ عندَ اللهِ وعندَ الناسِ صادِقًا محبوبًا مُكرَّمًا موثوقًا به، شهادتُهُ بِرٌّ، وحكمُهُ عدلٌ، ومُعاملتُهُ نفعٌ، ومجالستُهُ بركةٌ.

وَمَنْ صدَقَ في عمَلِهِ بَعُدَ منَ الرِّيَاءِ والسُّمعةِ، لاَ يريدُ بفعلِهِ وترْكِهِ إلاَّ اللهَ عزَّ وجلَّ، صلاتُهُ وزكاتُهُ، وصوْمُهُ وحجُّهُ، ووصلُهُ وهجْرُهُ، وصمتُهُ ونُطقُهُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢١١٠) وأطرافه في (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨، ٢١١٤) ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام.

وحركتُهُ وسُكونُهُ ـ للهِ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لاَ يريدُ بإحسانِهِ غِشًّا ولاَ خدِيعةً، ولاَ يطلُبُ بهِ منْ أحدٍ غيرَ اللهِ جزاءً ولاَ شكُوراً، يقُولُ الحقَّ ولوْ كانَ مُرًّا، لاَ تأخذُه في الصِّدقِ لَوْمَةُ لائِمٍ، ولاَ يخالطُهُ أحدٌ إلاَّ وثِقَ بهِ وأمنهُ على نفسِهِ وأهلِهِ ومالِهِ فهوُ مؤتمنٌ على الأحياءِ، ووصِيٌّ على الأمواتِ، وناظِرُ الأوقافِ، وحافِظُ الودائِعِ، ومؤدِّي الحقوق إلى مستحِقِّيها.

والمؤمِنُ المتخلِّقُ بالصدقِ لاَ يكذِبُ ولاَ يقُولُ إلاَّ خيراً، وَقَدْ جاءَ في الصِّدقِ والحَثِّ عليهِ آياتٌ وأحادِيثُ كثيرةٌ، كقولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، وقولِهِ تعالَىٰ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤]، وقالَ تعالَى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩].

وقالَ ﷺ: «دعْ ماَ يريبكَ إلى مَا لاَ يَريبُكَ، فإنَّ الصِّدقَ طُمأنينةٌ، والكذِبَ رِيبةٌ»[1]، وقالَ تعالَى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾ [محمد: ٢١]، وقالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: والإيمانُ أساسُهُ الصِّدْقُ، والنِّفاقُ أساسُهُ الكذِبُ، فَلاَ يجتمعُ كذِبٌ وإيمانٌ إلاَّ وأحدُهُما محاربٌ للآخرِ. وأخبرَ سبحانَهُ أنَّه في يومِ القيامةِ لاَ ينفعُ العبدَ ويُنْجيهِ منْ عذابِهِ إلاَّ صِدْقُهُ، قالَ تعالَى: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ [المائدة: ١١٩]، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٣]، فالذِي جاءَ بالصِّدقِ هُو مَنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٨) من حديث الحسين بن علي،وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣٧٨).

شأنُهُ الصِّدقُ في قولِهِ وعملِهِ وحالِهِ، فالصِّدقُ يكونُ فِي هذِه الثَّلاثةِ.

وقدْ أمرَ اللهُ تعالَى رسُولَهُ أنْ يسألهُ أنْ يجعلَ مُدخَلَهُ ومخرَجَهُ على الصِّدْقِ، فقالَ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ الإسراء: ٨٠]، وأخبرَ عنْ خليلِهِ إبراهيمَ أنَّه سألهُ أنْ يهبَ لهُ لسَانَ صِدْقٍ في الآخرينَ فقالَ: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤]، وبشَّرَ عِبادَهُ بأنَّ لهُمْ عندهُ قدمَ صِدقٍ ومقعدَ صِدقٍ، فقالَ تعَالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥]، فهذِهِ خمسةُ أشياء: مُدخلُ الصِّدقِ، ومُخرجُ الصِّدقِ، ولِسانُ الصِّدقِ، وقدَمُ الصِّدْقِ، ومقعدُ الصِّدقِ.

وحقِيقَةُ الصِّدقِ في هذِه الأشياءِ هُو: الحقُّ الثَّابتُ المتَّصلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ، وهُو مَا كانَ بهِ ولَهُ منَ الأقوالِ والأعمالِ، وجزاءُ ذلكَ في الدُّنْيَا والآخرَةِ.

وقدْ أخبرَ تعَالَى عن أهلِ البرِّ، وأثْنَى عليهِم بأحسنِ أعمالِهِمْ منَ الإيمانِ والإسلامِ والصَّدقةِ والصَّبرِ، بأنَّهمْ أهْلُ الصِّدقِ، فقالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]. وهذا صريحٌ في أن الصدقَ بالأعمالِ الظاهرةِ، وأن الصدقَ هو مقامُ الإسلامِ والإيمانِ.

والصِّدقُ أنواعٌ: أحدُهَا: الصِّدقُ في القولِ، فحقٌّ على كلِّ عبدٍ أنْ يحفظَ ألفاظَهُ ولاَ يتكلَّمَ إلاَّ بالصِّدقِ.

الثانِي: الصِّدقُ في الإرادةِ والنِّيَّةِ، وذلكَ يرجعُ إلى الإخلاصِ في الأعمالِ،

فإنَّهَا إذَا دخَلهَا مقصدٌ لغيرِ اللهِ بطلتْ.

الثالثُ: الصِّدقُ في المعاملاتِ التي تجرِي بينَ الناسِ، من بيعٍ وشراءٍ ومُدَاينَاتٍ ومُشاركاتٍ وغيرِ ذلكَ.

فمطلُوبٌ منَ المسلمِ أنْ يتَّسمَ بالصِّدقِ في جميعِ المجالاتِ، وفِي كلِّ الأحوالِ، حتَّى يكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقاً، وينالَ ثوابَ الصَّادِقينَ.

عبادَ اللهِ: وضِدُّ الصِّدقِ الكذبُ، وهُو منَ الكبائِرِ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران: ٦١]، وقالَ تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ [الذاريات: ١٠]، أي: الكاذبُونَ، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ۝٢٨﴾ [غافر: ٢٨]، والكذِبُ منْ علاماتِ النِّفاقِ، ففي الحديثِ: «آيَةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حدثَ كذَبَ، وإذَا وعدَ أخلفَ، وإذَا اؤْتُمِنَ خانَ»[1] والكذبُ يهدِي إلى الفُجُورِ، والفجُورُ يهدِي إلى النَّارِ، فخطرُ الكذِبِ عظيمٌ، والوعيدُ عليهِ شدِيدٌ.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ: والزمُوا الصِّدقَ في أقوالِكُم وأعمالِكُم ومعاملاتِكُمْ، وتجنَّبُوا الكذِبَ، لتفُوزُوا بثَوابِ الصَّادقِينَ، وتنجُوا منْ عذَابِ الكاذِبينَ.

أعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝٣٣ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٣٥﴾ [الزمر: ٣٢ـ٣٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة.

فِي التَّذَكُّــــرِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلْفَةً لمنْ أرادَ أنْ يذَّكَّرَ أَوْ أرادَ شُكُوراً، يُجرِي على عبادِهِ فيهِمَا أنواعاً منَ الابتِلاَءِ والامتحانِ، فمنهُمْ منْ يستيقِظُ ويستدركُ مَا فَرطَ منهُ بالتَّوبةِ والاستغفارِ، فيكونُ مَا جرَى عليهِ سببَ خيرٍ لهُ، ومنهُم منْ لاَ يستيقظُ ولاَ يتدبَّرُ مَا يَجرِي عليهِ، فيكونُ كَالبهيمةِ تُحبسُ وتُطلقُ، ولاَ تدرِي لماذَا حُبستْ ولماذَا أُطلِقتْ. أحمدُهُ على نعمِهِ الظاهرةِ والباطنةِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسُولُه، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليماً كثيراً.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، واعتَبِرُوا بما جرَى حولكُم منْ تغيُّرِ الأحوالِ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ للناسِ فيمَا يَجرِي في معترَكِ الحياةِ لعبرةً وذكْرى لمنْ يعتبرُ، كمَا جعلَ اللهُ نارَ الدُّنْيَا وآلامَهَا وغُمُومهَا وأحزانَها تذِكرَةً بنارِ جهنَّمَ، قالَ تعالَى في هذِه النارِ: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً ﴾ [الواقعة: ٧٣] أيْ تُذَكِّرُ بالنارِ الكُبْرى، وعنْ أَبِي هُريرَةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«إنَّ ناركُم هذِه جزءٌ منْ سبعينَ جُزءاً من نارِ جهنَّمَ، وضُربتْ بالبحرِ مرَّتينِ، ولولاَ ذلكَ مَا جعلَ اللهُ فيها منفعةً لأحدٍ»** رواهُ الإمامُ أحمدُ في مسندهِ(١).

---

(١) المسند (٧٢٨٣) من حديث أبي هريرة. والحديث في صحيح البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣) دون قوله: «وضربت بالبحر...» إلى آخر الحديث.

وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ شدَّةَ الحرِّ والبردِ منْ أنفاسِ جهنَّمَ[(١)]، ولمَّا قالَ المنافقُونَ: ﴿لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾، قالَ اللهُ تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٨١﴾ [التوبة: ٨١].

كمَا أنَّ اللهَ سبحانهُ يُري عبادَهُ في هذِه الدَّارِ آثاراً منْ آثارِ الجنَّةِ، وأُنموذجًا منهَا، كالرَّائحةِ الطيبةِ، واللَّذَّاتِ المُشتهاةِ، والمناظرِ البهيَّةِ، والفاكهةِ الحسنةِ، والنعيمِ والسرورِ وقرَّةِ العينِ، قالَ ﷺ: «يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ للجنَّةِ: طِيبِي لأهلِكِ، فتَزْدادُ طِيباً، فذلكَ البردُ الذي يجِدهُ النَّاسُ بالسَّحَرِ من ذلك» رواهُ أبو نُعَيمٍ[(٢)].

كُلُّ ما في الدُّنيا من المسَرَّاتِ والملَذَّاتِ النَّافعةِ وأصنافِ النِّعمِ، فإنه يُذكِّرُ بما في الجنَّةِ، فاللهُ سبحانَهُ يُذكِّرُ الإنسانَ بالأحوالِ التي تمرُّ عليه في هذه الدنيا، بنظيرِها مما سيجري عليه في الدار الآخرةِ، ليتذكر ويتَّعِظ ويستيقظَ لنفسهِ، فقد ذكّرَ الإنسانَ حينمَا يركبُ عَلى الفُلكِ والأنعام للسفرِ الدنيويِّ، رُكُوبَهُ على النَّعشِ للسفرِ إلى الآخرةِ، فقالَ تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف: ١٢ ـ ١٤] أيْ: لصائرونَ إليهِ بعدَ مماتنَا، وإليهِ سَيرُنَا الأكبرُ. وهذَا من بابِ التَّنبيهِ بسيرِ الدُّنيا على سيرِ الآخرةِ.

كمَا نبَّهَ سبحانهُ بأخذِ الزادِ الدنيوي لسفرِ الدنيا على أخذِ الزَّادِ الأُخرويّ لسفرِ الآخرةِ، في قولهِ سبحانهُ ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧، ٣٢٦٠)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة.

(٢) وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الصغير (ص٣٢). وانظر: فيض القدير للمناوي (٢/ ٥٩٣).

فالتقوى هي زادُ السفرِ إلى الآخرةِ، ليسَ لَهُ زادٌ غيرها، والتَّقوىٰ فعلُ أمرِ الله، وتركُ مناهِيهِ.

كمَا نبَّهَ سبحانهُ باللِّباسِ الدُّنيويِّ على اللِّباسِ الأُخرويِّ، في قولهِ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فهناكَ تَلازُمٌ بينَ أمرِ اللهِ باللباسِ الحِسِّيِّ لسترِ العوراتِ وللزِّينةِ، وبينَ أمرِ اللهِ بالتقوىٰ، كِلاهُما لباسٌ؛ هذا يستُرُ عوراتِ الجسمِ ويزينهُ، وهذا يسترُ عوراتِ القلبِ ويزينُهُ.

فيَا منْ تُعِدُّ الطعامَ والشرابَ لسفرِ الدُّنْيَا، تذكَّر السفرَ إلى الدَّارِ الآخرةِ، الذي لاَ تدْرِي أيَّ لحظةٍ يحينُ موعِدُهُ! فأعِدَّ لهُ زادًا يكفِي، إنَّ زادهُ ليسَ الطعامَ والشرابَ، ولكنهُ التقوىٰ، فاتَّقِ اللهَ، وأكثرْ منَ الأعمالِ الصالحةِ، وتجنَّبْ مَا يُفسدُهَا أوْ يتلفُهَا منَ الظُّلمِ والمعاصِي.

يا منْ تركبُ المراكبَ الفاخرةَ المريحةَ، تذكَّرْ نعمة اللهِ عليكَ حيثُ سخَّرهَا لكَ فَلاَ تعصِهِ، وتذكرْ ركوبَ النَّعشِ إلى القبورِ، الذي لاَ تدري في أيِّ ساعةٍ تُحملُ عليهِ، فَأَعِدَّ لذلكَ عُدَّتَهُ، واحسبْ لهُ حسابَهُ، ولاَ يغبْ عنْ بالكَ.

يَا منْ يلبسُ اللِّباسَ الجميلَ منَ الثيابِ، تذكَّرْ أنَّ هناكَ لباسًا أجملَ منهُ، وأنتَ أحوجُ إليهِ، ومَا لمْ تلبسهُ فأنتَ عُريانٌ! ذلكَ هُو لباسُ التَّقوىٰ، فاحرِصْ على تحصيلِ هذا اللِّباسِ، وهُو يسيرُ الحصُولِ لمنْ يسَّرهُ اللهُ عليهِ «تعبدُ اللهَ لاَ تشركُ بهِ شيئًا وتجتنبُ مَا نهاكَ عنهُ».

أَيُّهَا الإخوةُ: إنَّ كثيرًا منَ الناسِ ينتظرونَ الاختبارَ الدِّراسِيَّ، الذي شغلَ أفكارَهُمْ، واستغرقَ الاستعدادُ له كثيرًا منْ أوقاتِهِم، فالطُّلاَّبُ يستذكِرُونَ

دُرُوسهُم، ويستعرضُونَهَا بدقَّةٍ، ويتحرَّونَ مواقعَ الأسئلةِ فيها، ويقدرُونَ الإجابةَ المطابقةَ عليهَا، حتَّى استغرقَ ذلكَ كثيرًا منْ أوقاتِهم، بلْ ربَّمَا حالَ بينهُم وبينَ النَّومِ والتَّلذُّذِ بالطعامِ والشرابِ، وتجاوزَ الأمرُ إلى آبائِهم فحملُوا الهمَّ؛ خوفًا عليهِم من الرُّسوبِ، وصارُوا يستحِثُّونهُم على المذاكرةِ والاستعدَادِ، كلُّ هذا يجري خوفاً من اختبارِ الدُّنْيَا الذِي لاَ يترتَّبُ عليهِ سعادةٌ أو شقاوةٌ، ولاَ موتٌ ولاَ حياةٌ، ولاَ رِزقٌ ولاَ حرمانٌ. كيفَ لاَ نتذكَّر بهِ اختبارَ الآخرةِ الذي تكونُ نتيجتُهُ إمَّا سعادةَ الأبدِ، أوْ شقاوةَ الأبدِ؟ كيفَ لاَ نتذكرُ بهِ سُؤالَ الملكينِ في القبرِ والجوابَ عليهِ، ومَا ينتجُ عنْ ذلكَ منْ عذابِ القبرِ أوْ نعيمِهِ؟ كيفَ لاَ نتذكَّرُ بنتيجتِهِ تطايُرَ الصُّحفِ وأخذِهَا باليمينِ أوِ الشمالِ، ومَا يترتَّبُ على ذلكَ منْ سُرورٍ أوْ حُزنٍ؟ قالَ تعَالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧ـ١٢].

كيفَ لاَ نتذكَّرُ بهِ وزنَ الأعمالِ وما يترتَّبُ عليهِ منْ فلاحٍ أوْ خسارةٍ؟ واللهُ تعالَىٰ يقولُ: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: ٨، ٩]. لماذَا لاَ نتذكَّرُ بِمَا يعقبُ هذا الامتحانَ الدُّنيويَّ من فرحٍ وسرورٍ أوْ غمٍّ وحزنٍ، مَا يعقبُ الحسابَ يومَ القيامةِ منِ انقسامِ الناسِ إلى قسمينِ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ [عبس: ٣٨ـ٤١].

نحنُ عَلِمنَا أنَّ امتحانَ الدُّنيا يحتاجُ إلى استعدادٍ، فجنَّدنَا إمكانيَّاتِنا لهُ، فلماذَا ننسى امتحانَ الآخرَةِ؟ إنَّ اللهَ تعالَى يخبرُنَا عنْ حالِ قومٍ استعدُّوا لهذَا

اليومِ، وتأهَّبُوا لهُ، ماذا يصِيرُ إليهِ حالهُم، فيقولُ سبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩]. ويخبرُنَا سبحانهُ عن قومٍ غفلُوا عنْ هذا اليومِ فلمْ يستعدُّوا لهُ ماذَا يصيرُ إليهِ حالُهم، فيقولُ سبحانهُ: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١، ٣٢].

عبادَ اللهِ: إنَّ السلفَ الصالحَ يتذكَّرونَ بمَا يجري بينَ أيديهِم في هذِه الدُّنْيَا أحوالَ الآخرةِ، فيكسبهُمْ ذلكَ رغبةً ورهبةً، دخلَ ابنُ وهبٍ الحمَّامَ فسمعَ تاليًا يتلُو: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧] فغشِي عليهِ. وتزوجَ صِلةُ بنُ أشيم، فدخل الحمامَ، ثمَّ دخلَ على زوجتِهِ، فقامَ يُصلِّي حتى أصبحَ، قالَ: دخلتُ بالأمسِ بيتًا أذكرَنِي النارَ، ودخلتُ اللَّيلةَ بيتًا ذكرتُ بهِ الجنَّةَ، فلمْ يزلْ فِكـرِي فيهمَا حتَّـى أصبحتُ. وصبَّ بعضُ الصالحينَ على رأسهِ ماءً فوجدَهُ حارًّا فبكَى، وقالَ: ذكرتُ قولهُ تعالَى: ﴿ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴾ [الحج: ١٩].

وخرَّجَ الطبرانِيُّ بإسنادِهِ، أنَّ رجُلاً في عهدِ النبيِّ ﷺ نزعَ ثيابهُ، ثمَّ تمرَّغَ في الرَّمضاءِ، وهُوَ يقولُ لنفسهِ: ذُوقِي، نارُ جهنَّمَ أشدُّ حرًّا، جيفةٌ باللَّيلِ وبطالةٌ بالنَّهارِ! فرآهُ النبيُّ ﷺ، فقالَ: يَا رسولَ اللهِ غلبتنِي نفسِي، فقالَ النبيُّ ﷺ: «لقدْ

فتحتْ لكَ أبوابُ السماءِ، وباهَى اللهُ بكَ الملائكةَ»[١].

مرَّ ابنُ مسعودٍ بالحدَّادينَ، وقدْ أخرجُوا حديدًا منَ النَّارِ، فوقفَ ينظُرُ إليهِ ويبكِي.

وقالَ الحسنُ: كانَ عُمرُ رضيَ اللهُ عنهُ رُبَّمَا توقدُ لهُ النَّارُ، ثمَّ يُدنِي يدهُ منهَا، ثمَّ يقولُ: يَا بْنَ الخطابِ، هلْ لكَ على هذَا صبرٌ؟.

وكانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يَجِيءُ إلى المصباحِ فيضعُ أُصْبعَيْهِ فيهِ ويقُولُ: حسنٌ! ثمَّ يعاتبُ نفسهُ على ذُنُوبِهِ.

وكانَ ابن عُمرَ أو غيرُهُ منَ السلفِ، إذَا شَرِبُوا ماءً بارِدًا بَكَوا، وذكَروا أُمنيةَ أهلِ النارِ، وأنَّهُمْ يشتهُونَ الماءَ البارِدَ، وقدْ حيلَ بينهُم وبينَ مَا يشتهونَ، ويقُولُونَ لأهلِ الجنَّةِ: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ فيقولونَ لهمْ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠﴾ [الأعراف: ٥٠].

أيُّهَا المؤمنونَ.. استمعُوا لِنداءِ رَبِّكُم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ...﴾ [الحشر: ١٨] الآياتِ إلى آخرِ السورةِ.

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» من حديث طلحة بن عبيد الله كما في كنز العمال (٤٨٩٧).

فِي جملةِ عِظَـاتٍ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ الدُّنيَا مزرعةً للآخرةِ، وميدانًا يتسابقُ فيهِ الموفَّقُونَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ، أحمدُهُ وحمدِي لَهُ من نعمِهِ، وأشكرُهُ على جزيلِ مَنِّهِ وكرمِهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، حثَّ على اغتنامِ المُهلةِ، والتَّزوُّدِ بالأعمالِ الصَّالحةِ قبلَ النقلَةِ، فقالَ سبحانهُ وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولهُ، حذَّرَ منْ تضييعِ الأوقاتِ في الغفلاتِ، فقالَ: «منْ خافَ أَدلجَ، ومنْ أَدلجَ بلغَ المنزلَ، ألاَ إنَّ سلعةَ اللهِ غاليةٌ، ألاَ إن سلعة اللهِ الجنَّةُ»[1]، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

فيَا عِبادَ اللهِ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الدُّنْيَا دارُ ممرٍّ، وأنَّ الآخرةَ هِيَ دارُ المقرِّ، فخذُوا منْ ممرِّكُم لِمَقرِّكُم، وتأهَّبُوا ليومِ حسابكُم وعرضِكُم على ربّكُم، قالَ النبيُّ ﷺ: «الكيِّسُ (أي العاقلُ الفطنُ) من دانَ نفسهُ (يعنِي حاسبَهَا) وعملَ لمَا بعدَ الموتِ، والعاجزُ منْ أتْبعَ نفسهُ هوَاهَا، وتمنَّى على اللهِ الأمانِي»[2]، وقالَ أميرُ المؤمنينَ عُمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنهُ: «حاسِبُوا أنفسكُمْ قبلَ أنْ تحاسبُوا، وزنُوهَا قبلَ أَنْ تُوزَنُوا، وتأَهبُوا للعرضِ الأكبرِ على اللهِ»، ﴿يَوْمَئِذٍ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٢٤٥٩) وابن ماجه (٤٢٦٠) من حديث شداد بن أوس.

تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾[1] [الحاقة: ١٨].

ووعظَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ أصحابهُ فقالَ: «إنَّكُم في ممرِّ اللَّيلِ والنَّهارِ، في آجالٍ منقُوصَةٍ، وأعمالٍ محفوظةٍ، والموتُ يأتي بغتَةً، فمنْ زرعَ خيراً يوشِكُ أنْ يحصُدَ رغبةً، ومنْ زَرَعَ شرًّا فيُوشكُ أنْ يحصُدَ ندامةً، ولكلِّ زارعٍ مَا زرَعَ، لاَ يسبقُ بطيءٌ بحظِّهِ، ولاَ يُدركُ حَريصٌ مَا لَمْ يقدَّرْ لَهُ، منْ أُعطِيَ خيرًا فاللهُ أعطاهُ، ومنْ وُقِيَ شرًّا فاللهُ وقاهُ، فإنَّ كلَّ مَا هُو آتٍ قريبٌ، ألاَ وإنَّ البعيدَ مَا ليسَ آتياً، أَلاَ وإنَّ السَّعيدَ منْ وُعظَ بغيرِهِ، ومَا قلَّ وكَفَى خيرٌ ممَّا كثرَ وأَلْهَى، ونفسٌ تُنجيهَا خيرٌ منْ إمارةٍ لاَ تُحصِيهَا، وشرُّ المعذِرَةِ حينَ يحضُرُ الموتُ، وشرُّ النَّدامةِ ندامةُ يومِ القيامةِ، وشرُّ الضَّلالِ الضَّلالةُ بعدَ الهُدىٰ، وخيرُ الغِنَى غنَى النَّفسِ، وخيرُ الزَّادِ التَّقوى، وخيرُ مَا أُلقِيَ في القلبِ اليقِينُ، والرَّيبُ منَ الكفرِ، وشرُّ العمَى عمى القلبِ، ومنَ الناسِ مَنْ لاَ يأتِي الجمعةِ إلاَّ دُبُرًا، ولاَ يذكُرُ اللهَ إلاَّ هجرًا. وشرُّ المكاسِبِ الرِّبا، وشرُّ المآكلِ مالُ اليتيمِ. وإنَّمَا يكفِي أحدَكُمْ مَا قنعَتْ بهِ نفسُهُ، وإنَّمَا يصيرُ إلى أربعةِ أذرُعٍ، والأمرُ إلى الآخرةِ، وملاكُ العملِ خواتمُهُ، وأشرفُ الموتِ قتلُ الشهداءِ. ومنْ يستكبرْ يضعْهُ اللهُ، ومن يعصِ اللهَ يُطعِ الشيطانَ.

ينبغي لحاملِ القُرآنِ أنْ يُعرفَ بليلِهِ إذ الناسُ نائمونَ، وبنهَارِهِ إذ النَّاسُ مفطِرُونَ، وبحزْنِهِ إذ النَّاسُ بالدُّنْيَا يفرحُونَ، وببُكائِهِ منْ خشيةِ اللهِ إذ الناسُ يضحكُونَ، وبصمتِهِ إذَ الناسُ يخُوضُونَ، وبخُشُوعِهِ إذ الناسُ يختالُونَ. وينبغي لحاملِ القُرآنِ أنْ يكونَ حكيمًا حليمًا سكينًا، ولاَ ينبغِي لحاملِ القُرآنِ أنْ يكونَ

---

(١) أخرجه الترمذي نحوه عقب الحديث السابق وهو في سنن الترمذي برقم (٢٤٥٩).

جافِيًا، ولاَ غافِلاً، ولاَ صخَّابًا، ولاَ صيَّاحًا، ولاَ حديدًا، منْ تطاولَ تعظُّمًا حطَّهُ اللهُ، ومنْ تواضعَ تخشُّعًا رفعهُ اللهُ.

وإنَّ للملَكِ لمَّةً وللشيطانِ لمَّةً؛ فَلمَّةُ المَلَكِ إيعادٌ بالخيرِ، وتصديقٌ بالحقِّ، فإذا رأيتُم ذلكَ فاحمدُوا اللهَ. ولمَّةُ الشيطانِ إيعادٌ بالشرِّ وتكذيبٌ بالحقِّ، فإذا رأيتُم ذلكَ فتعوَّذُوا باللهِ.

إنَّ الناسَ قدْ أحسنُوا القولَ، فمنْ وافقَ قولُهُ فعلَهُ فذلك الذي أصابَ حظَّهُ، ومن خالفَ قولُهُ فعلَهُ فذاكَ إنَّما يُوبِّخَ نفسهُ. لاَ أُلْفِيَنَّ أحدَكُم جيفةَ ليلٍ، قطربَ نهارٍ، منْ لمْ تأمرْهُ الصلاةُ بالمعروفِ وتنهَهُ عن المنكرِ لمْ يزددْ بِهَا منَ اللهِ إلاَّ بعدًا، ما دُمتَ في صلاةٍ فأنتْ تقرعُ بابَ الملكِ، ومنَ يقرعُ بابَ الملكِ يفتحُ لَهُ. إنَّكُم ترونَ الكافرَ منْ أصحِّ الناسِ جسمًا وأمرضِهِم قلبًا، وتلقونَ المؤمنَ منْ أصحِّ الناسِ قلبًا وأمرضِهِم جسمًا، وايمُ اللهِ لوْ مرضتْ قُلوبُكُم وصحّتْ أجسامُكُم، لكنتُم أهونَ على اللهِ منَ الجُعلانِ.

مَا كانَ منْ نظرةٍ فإنَّ للشيطانِ فيها مطمعًا، مع كلِّ فرحةٍ ترحةٍ، ومَا مُلِئَ بيتٌ حبرةً إلاَّ مُلِئَ عبرةً، ومَا مِنكُمْ إلاَّ ضيفٌ، ومالُهُ عاريةٌ، فالضَّيفُ مرتحلٌ، والعاريَّةُ مؤدَّاةٌ إلى أهلِهَا.

يكونُ في آخرِ الزَّمانِ أقوامٌ أفضلُ أعمالِهِم التَّلاومُ بينهُم، وإذا أحبَّ الرَّجلُ أنْ ينصفَ منْ نفسِهِ فليأتِ إلى الناسِ الذي يُحبُّ أنْ يُؤتَى إليه. الحقُّ ثقيلٌ مرِيءٌ، والباطلُ خفيفٌ وَبِيءٌ، رُبَّ شهوةٍ تُورِثُ حزنًا طويلاً. مَا على وجهِ الأرضِ شيءٌ أحوجُ إلى طولِ سجنٍ منْ لسانٍ.

منِ استطاعَ منكُم أنْ يجعلَ كنزَهُ في السماءِ حيثُ لاَ يأكُلُهُ السُّوسُ وينالُهُ السُّرَّاقُ، فَلْيفعل، فإنَّ قلبَ الرجلِ معَ كنزِهِ. لاَ يقلِّدن أحدُكُم دينَهُ رجُلاً؛ فإنْ

آمنَ آمنَ، وإنْ كفرَ كفرَ، وإنْ كُنتُم لاَ بُدَّ مقتدينَ فاقتدُوا بالميِّتِ، فإنَّ الحيَّ لاَ تؤمنُ عليه الفتنةُ. لاَ يكنْ أحدُكُم إمَّعةً يقولُ: أنا معَ الناسِ، إن اهتدَوا اهتديتُ، وإنْ ضلُّوا ضللتُ، ألاَ ليُوطن أحدُكُم نفسهُ على أنَّهُ إنْ كفرَ الناسُ لاَ يكفُرُ».

انتهَى كلامُه رضي اللهُ عنهُ.

وقالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: «منْ لم ينتفِعْ بعينهِ لمْ ينتفع بأُذُنهِ، للعبدِ سترٌ بينهُ وبينَ اللهِ، وسترٌ بينهُ وبينَ الناسِ، فمنْ هتكَ السترَ الذي بينهُ وبينَ اللهِ، هتكَ اللهُ السترَ الذي بينهُ وبينَ الناسِ. للعبدِ رَبٌّ هو مُلاقِيهِ، وبيتٌ هو ساكِنُهُ، فينبغِي لهُ أنْ يسترضِي ربَّهُ قبلَ لقائِهِ، ويعمُر بيتَهُ قبلَ انتقالِهِ إليهِ. إضاعةُ الوقتِ أشدُّ من الموتِ؛ لأنَّ إضاعةَ الوقتِ تقطعكَ عنِ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ، والموتُ يقطعكَ عنِ الدُّنْيَا وأهلِهَا. الدُّنيَا منْ أوَّلِهَا إلى آخرهَا لاَ تُساوي غمَّ ساعةٍ، فكيفَ بغمِّ العُمرِ؟ محبوبُ اليومِ يعقبُ المكرُوه غدًا، ومكرُوهُ اليومِ يعقبُ المحبوبَ غدًا. أعظمُ الرِّبحِ في الدِّينِ أنْ تشغلَ نفسكَ كلَّ وقتٍ بمَا هُو أَولَى بهَا وأنفعُ لهَا في معادِهَا. كيفَ يكونُ عاقِلاً من باعَ الجنَّةَ بمَا فيهَا بشهوةِ ساعةٍ؟!

اشترِ نفسكَ اليومَ، فإنَّ السوقَ قائمةٌ، والثمنَ موجودٌ، والبضائعَ رخيصةٌ، وسيأتِي على تلكَ السوقِ والبضائعِ يومٌ لاَ تصلُ فيهِ إلى قليلٍ ولاَ كثيرٍ، ذلكَ يومُ التَّغابُنِ، يومَ يعضُّ الظَّالمُ على يديهِ. السَّنةُ شجرةٌ، والشهورُ فُروعُها، والأيَّامُ أغصانُها، والساعاتُ أوراقُهَا، والأنفاسُ ثمَرُها، فمن كانت أنفاسُهُ في طاعةٍ فثمرةُ شجرتِهِ طيبةٌ، ومنْ كانتْ في معصيةٍ فثمَرَتهُ حنظلٌ، وإنَّمَا يكونُ الجذَاذُ يومَ المعادِ، فعندَ الجذاذِ يتبيَّنُ حلو الثِّمارِ منْ مرِّهَا. والإخلاصُ والتَّوحيدُ شجرةٌ في القلبِ، فُروعُها الأعمالُ، وثمرُها طيبُ الحياةِ في الدُّنْيَا والنَّعيمُ المقيمُ في الآخرةِ. وَكَما أنَّ ثمارَ الجنَّةِ لاَ مقطوعةٌ ولاَ ممنوعةٌ، فثمرَةُ التَّوحيدِ

والإخلاصِ في الدُّنْيَا كذلكَ. والشركُ والكذبُ والرِّياءُ شجرةٌ في القلبِ، ثمرُهَا في الدُّنيا الخوف والهمُّ والغمُّ وضيقُ الصَّدرِ وظُلمةُ القلبِ، وثمرهَا في الآخرةِ الزَّقُّومُ والعذابُ المُقِيمُ.

في يومِ القيامةِ يُوَبَّخُ المُفرِّطونَ على ما ضيَّعُوا منْ أعمارِهِم في هذِه الدُّنْيَا، يقالُ لهُمْ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]، قالَ ابنُ عباسٍ والمُحققونَ: معناهُ: أوَ لمْ نُعمِّركُم ستينَ سنةً؟ ويُؤيِّدهُ حديثُ أبِي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «أعذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أخَّرَ أجلَهُ حتَّى بلغَ ستِّينَ سنةً» رواه البخاري[1]، قالَ العُلماءُ: معناهُ: لمْ يتركْ لهُ عُذرًا إذ أمهلهُ هذهِ المدةَ. وقيلَ: معناهُ: ثمانِ عشرةَ سنةً، وقيلَ: أربعينَ سنةً. ونُقلَ عنْ أهلِ المدينةِ: كانُوا إذا بلغَ أحدُهُم أربعينَ سنةً تفرَّغَ للعبادةِ. وقولُهُ تعالَى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧] قال ابن عباسٍ والجُمهورُ: هو النبيُّ ﷺ. وقيلَ: الشَّيبُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرَّجيمِ: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ ...﴾ الآيات إلى قولهِ: ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة: ١٣ـ ٣٧].

* * *

(١) صحيح البخاري (٦٤١٩).

في جُملـةِ مَوَاعِـظَ

الحمدُ للهِ القائلِ في كتابهِ المُبينِ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥]، وأشهدُ أنْ لاَ إِله إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، بلّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَحَ الأمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جِهَادِهِ، ﷺ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ سَارَ على نهجِهِ وتمسك بسُنَّتهِ إلى يومِ الدِّينِ.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ وتذكَّرُوا، فإنَّ اللهَ سبحانهَ أثْنَىٰ على الذينَ يتذكَّرُون بآياتِهِ، ويتَّعظُونَ بمَا يرونَ ومَا يسمعُونَ منْ أيَّامِهِ، فقالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ [الرعد: ١٩]، وقالَ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ۝١٣﴾ [غافر: ١٣]، كمَا وصفهُم بأنَّهُم أهلُ خَشيَتِهِ، فقالَ: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى: ٩، ١٠]، وإلى جانبِ ذلك وصفَ الذينَ لاَ يُؤثِّرُ فيهِم التَّذكيرُ بأحطِّ الصِّفاتِ فقالَ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۝١٢ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ۝١٣﴾ [الصفات: ١٢، ١٣]، وقالَ: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾ [الأعلى: ١١ـ١٥]، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢].

عِبادَ اللهِ: إنَّ العِظاتِ كثيرةٌ، وأعظمُها كتابُ اللهِ العظيمِ، فيهِ خبرُ ما قبلكُمْ، ونبأُ مَا بعدكُمْ، قالَ تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق: ٤٥]، فإذا أردتَ الانتفاعَ بالقرآنِ فأحضِرْ قلبكَ عندَ تلاوتهِ، وسماعهِ، واحضرْ حُضورَ منْ

يخاطبهُ منْ تكلَّمَ بهِ سبحانهُ؛ فإنَّه خطابٌ منهُ لكَ على لسانِ رسُولهِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧]، فقولهُ: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ يُرادُ بهِ القلبُ الحيُّ الذي يعقلُ عنِ اللهِ، كمَا قالَ تعالىَ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أي حيّ القلبِ، وقولهُ: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجّهَ سمعَهُ، وأصغَى حاسَّة سمعهِ إلى مَا يقالُ لهُ. وقولهُ: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ أيْ: شاهدُ القلبِ، حاضرٌ غيرُ غائبٍ. فإذا حصلَ المؤثرُ وهو القرآنُ، والمحِلُّ القابلُ؛ وهو الإصغاءُ، وانتفىٰ المانعُ وهُو اشتغالُ القلبِ وذُهُولُهُ عنْ معانِي الخطابِ، وانصرافهُ عنهُ إلى شيءٍ آخر ـ حصلَ الأثرُ وهُو الانتفاعُ والتَّذكُّرُ.

ومن العِظاتِ البالغة: الموتُ؛ قالَ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، والآياتُ في التَّذكيرِ بالموتِ كثيرةٌ، وكذا الأحاديثُ، ومنهَا قولهُ ﷺ: **«أكثرُوا من ذكرِ هادمِ اللَّذَّاتِ (الموتِ)»**[(١)]، وعنْ أُبيِّ بنِ كعبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ: إذا ذهبَ ثُلثُ الليلِ قامَ فقالَ: **«يأيُّهَا الناس، اذكُروا الله، جاءَت الرَّاجفةُ، تتبعُهَا الرَّادفةُ، جاءَ الموتُ بمَا فيهِ، جاءَ الموتُ بمَا فيهِ»**[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧) وابن ماجه (٤٢٥٨) من حديث أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٩) من حديث أبي بن كعب. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٦٣).

خطب عمرُ بنُ عبدِ العزيز رحمه الله فقال: أمَّا بعدُ، فإن الله عز وجل لم يخلقكم عبثًا، ولم يدعْ شيئًا من أمرِكم سُدًى، وإن لكم معاداً ينزلُ الله عز وجل فيه للحكمِ والقضاءِ بينكم، فخاب وخسر مَنْ خرج من رحمة الله، وحُرم الجنةَ التي عرضُها السمواتُ والأرضُ، واشترى قليلاً بكثيرٍ، وفانيًا بباقٍ، وخوفًا بأمنٍ، ألا ترون أنكم في أسلابِ الهالكين، وسيخلفكم بعدكم الباقون، كذلك حتى تردّوا إلى خيرِ الوارثين.

في كلِّ يومٍ وليلةٍ تُشيعونَ غادِيًا ورائحًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، قدْ قضى نحبَهُ، وانقضَى أجلُهُ، حتَّى تُغيبوهُ في صدعٍ من الأرضِ، غيرِ ممهَّدٍ ولاَ مُوسَّدٍ، قدْ خلعَ الأسبابَ، وفارقَ الأحبابَ، وسكنَ التُّرابَ، وواجه الحسابَ، مرتهنًا بعملهِ، فقيرًا إلى مَا قدَّمَ، غنيًّا عمَّا تركَ، فاتقُوا اللهَ قبلَ نُزولِ الموتِ بكمْ، كأنَّ الموتَ فيهَا على غيرِكُمْ قدْ كُتبَ، وكأنَّ الحقَّ فيهَا على غيرِكُم قدْ وجبَ، وكأنَّ الذِي تُشيِّعونَ منَ الأمواتِ سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إليكُم راجعونَ، تُبوِّئُونهُم أجداثَهُم، وتأكُلُونَ تُراثهُم، كأنكُم مخلدونَ بعدهُم، تنسونَ كلَّ واعظةٍ، وتأمنونَ كلَّ حادثةٍ، وكأنكُم لاَ تعقِلُونَ».

عنْ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ بمنكِبِي فقالَ: «**كُن في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ**» وكان ابنُ عمرَ يقولُ: «إذ أمسيتَ فلاَ تنتظِرِ الصباحَ، وإذا أصبحتَ فلاَ تنتظِرِ المساءَ، وخُذ منْ صحَّتِكَ لمرضكَ، ومنْ حياتكَ لموتكَ» رواه البخاريُّ[1]. قالَ جماعةٌ منَ العُلماءِ في معنَى هذا الحديثِ: لاَ تركَنْ إلى الدُّنيا، ولاَ تتَّخِذها وطنًا، ولاَ تُحدِّث نفسكَ بطولِ البقاءِ

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٦).

فيها، ولاَ بالاعتناءِ بها، ولاَ تغترَّ بها، فإنَّها غرَّارةٌ خدَّاعةٌ، ولاَ تتعلَّق منها بمَا لاَ يتعلّقُ بهِ الغريبُ في غيرِ وطنِهِ، ولاَ تشتغل فيها بمَا لا يشتغلُ به الغريبُ الذي يريدُ الذَّهابَ إلى أهلِهِ، وباللهِ فاستعِنْ.

ومنَ العجبِ كلِّ العجبِ أنَّ العبدَ يُصدِّقُ بدارِ الخلودِ، وهو يسعَى لدارِ الغرورِ! سرورُ الدنيا كأحلامِ نومٍ، أو كظلٍّ زائلٍ، إنْ أضحكتْ قليلاً أبكت كثيرًا، وإنْ سرَّت يومًا أو أيامًا ساءتْ أشهُرًا وأعوامًا، وإن مَتَّعَتْ قليلاً منعتْ طويلاً، وما حصلَ العبدُ فيها سروراً، إلاَّ خبَّأت له أضعافَ ذلكَ شُرُورًا، قالَ ابنُ مسعودٍ: «لكلِّ فرحةٍ ترحةٌ، وما مُلئَ بيتٌ فرحًا إلاَّ مُلِئَ ترحًا»[1].

قالَ ﷺ: **«ما مَثَلِي ومثلُ الدنيا إلاَّ كراكبٍ سارَ في يومِ صيفٍ، فاستظلَّ تحتَ شجرةٍ ساعةً منْ نهارٍ، ثمَّ راحَ وتركهَا»**[2].

خطبَ بعضُ العُلماءِ فقالَ: أمَّا بعدُ، فإنَّ الدنيا دارُ ممرٍّ، والآخرةَ دارُ مقرٍّ، فخُذوا منْ ممرِّكم لمقرِّكُم، ولاَ تهتِكُوا أستاركُم عندَ منَ لاَ تخفَى عليهِ أسرارُكُم، وأخرجُوا الدنيا منْ قلوبكُم قبلَ أنْ تخرجَ منها أبدانُكُم. وختمَ خُطبتهُ.

مرَّ سليمانُ بنُ داودَ، عليهمَا السلامُ في موكبِهِ والطيرُ تُظِلهُ، والجنُّ والإنسُ عنْ يمينِهِ وشمالِهِ، فمرَّ عابدٌ من عبَّادِ بني إسرائيلَ فقالَ: واللهِ يا ابنَ داودَ، لقد آتاكَ اللهُ مُلكًا عظيمًا، فسمعَ سليمانُ كلمتَهُ فقالَ: تسبيحةٌ في صحيفةِ مؤمنٍ خيرٌ مِمَّا أُعطِيَ ابنُ داودَ، وما أُعطِيَ ابنُ داودَ يَذهبُ والتسبيحةُ تبقَى، منْ تفكَّرَ في الدنيا علمَ أنَّها دارُ رحلة، فجمعَ للسَّفرِ رَحْله، ويعلمُ أنَّ مبدأ السَّفرِ من ظُهورِ

---

(١) تخريجه في السلسلة الضعيفة (١٨٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) من حديث ابن مسعود.

الآباءِ إلى بطونِ الأمَّهاتِ، ثمَّ إلى القبرِ، ثمَّ إلى الحشرِ، ثمَّ إلى دارِ الإقامةِ الأبديةِ، فدارُ الإقامةِ هي دارُ السلامِ منْ جميعِ الآفاتِ إنْ كانَ منْ أهلِ الجنَّةِ، أو دارُ العذابِ الأبديِّ إنْ كانَ منْ أهلِ النارِ.

واسمعُوا هذِه القصَّةَ العجيبةَ: روى الإمامُ أحمدُ عنْ يزيدَ بنِ ميسرةَ قالَ: كانَ رجلٌ ممَّن مضَى جمعَ مالاً فأوعَى (يعني: كانَ لاَ ينفقُ منهُ) ثمَّ أقبلَ على نفسهِ وهُو فِي أهلِهِ فقالَ: أَنْعَمُ سِنينَ. فأتاهُ ملكُ الموتِ فقرعَ البابَ في صورةِ مسكينٍ، فخرجُوا إليه فقالَ: ادعُوا لِي صاحبَ الدَّارِ، فقالُوا: يخرجُ سيِّدُنا إلى مثلِكَ؟ ثمَّ مكثَ قليلاً ثمَّ عادَ فقرعَ الدَّارَ وصنعَ مثلَ ذلكَ، وقالَ: أخبرُوهُ أنِّي ملكُ الموتِ، فلمَّا سمعهُ سيِّدُهم قعدَ فزعاً وقالَ: ليِّنُوا له الكلامَ، قالوا: ما تُريدُ غيرَ سيِّدنَا باركَ اللهُ فيكَ؟ قالَ: لاَ، فدخلَ عليهِ فقالَ: قُمْ فأوصِ مَا كُنتَ مُوصِيًا فإنِّي قابضٌ نفسكَ قبلَ أنْ أخرجَ، قالَ: فصرخَ أهلُهُ وبكَوا، ثمَّ قالَ: افتحُوا الصَّنادِيقَ وافتحُوا أوعِيةَ المالِ، ففتحُوهَا جمِيعًا، فأقبلَ على المالِ يلعنُهُ ويسبُّهُ، يقولُ: لُعِنْتَ من مالٍ، أنتَ الذي أنْسَيْتَنِي رَبِّي، وشغلتنى عن العملِ لآخرتِي حتى بلغنِي أجلِي، فتكلمَ المالُ فقالَ: لاَ تَسُبَّنِي، ألمْ تكُن وضِيعًا في أعينِ الناسِ فرفعتُكَ؟ ألمْ يُرَ عليكَ منْ أثرِي، وكنتَ تحضرُ سُددَ الملوكِ والسادةِ فتدخُلُ، ويحضرُ عبادُ اللهِ الصالحونَ فلاَ يدْخُلُونَ؟ ألَمْ تكُن تخطبُ بناتِ الملوكِ والسادةِ فتَزَوَّجُ، ويخطبُ عبادُ اللهِ الصالحونَ فلا يُزوَّجونَ؟ ألمْ تكُنْ تُنفِقُنِي في سبيلِ الخُبثِ فلا أتَعاصى؟ ولو أنْفَقْتَنِي في سبيلِ اللهِ لمْ أتعاصَ عليكَ، وأنتَ ألومُ مِنِّي، إنّما خُلِقتُ أنا وأنتُم يا بَنِي آدمَ منْ ترابٍ، فمنطلقٌ ببرٍّ ومنطلقٌ بإثمٍ.

فهكذا يقولُ المالُ فاحذرُوا[(١)].

أيُّها المسلمونَ: إنكُم وسَّعْتُم المساكنَ، وزخرفتُم الفللَ، وكدَّستُمُ الأموالَ، فاحذَرُوا العاقبةَ، تذكَّرُوا ظُلمةَ اللُّحودِ، وضِيقَ القبورِ، وأهوالَ يومِ القيامةِ، والمنصرف منَ المحشرِ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النارِ، واسمعُوا نداءَ ربِّكُم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٥ ـ ٨].

إذا أردتَ أنْ تعرِفَ انصراف الناسِ عنْ عملِ الآخرةِ، فانظر إلى كثرةِ منْ يذهبُ إلى الأسواقِ، وقلَّةِ منْ يذهبُ إلى المساجِدِ.

ابنَ آدمَ، أُوتِيتَ صحَّةً في الجسمِ وبسطةً في الرزقِ، وفسحةً من الوقتِ، فماذا قدَّمتَ لآخرتِكَ؟ إنَّ كثيرًا من الناسِ يقولُ: كمْ قيمةُ السِّلعةِ الفُلانيةِ؟ ولاَ يقُولُ: كمْ قيمةُ الساعةِ منَ العُمرِ؟ كمْ قدَّمتُ منَ الحسناتِ؟ بأيِّ عملٍ ألقَى ربِّي؟

فاتقُوا اللهَ أيُّها الناسُ، واسمعُوا إلى هذا الإعلانِ الرَّبانِيِّ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

* * *

---

(١) وأخرجه أيضاً أبو نعيم في الحلية (٥/ ٢٤٠ـ ٢٤١).

في الحثّ على الاعتبَارِ بِمَا يجرِي منَ الحَوادِثِ

الحمدُ للهِ القائلِ: ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم: ٥] يُعَجِّلُ العقوبةَ بمَا كسبتْ أيدِي الناسِ، ليذيقَهُم بعضَ الذي عملُوا لعلَّهُم يرجعونَ، أحمدُهُ على نعمِهِ، وأسألُه المزيدَ منْ فضلِهِ، وأشهدُ أنْ لا إلَهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الله سبحانهُ أمركُم أنْ تعتبروا بما ترونَ ومَا تسمعونَ ممَّا يجرِي من الحوداثِ والعقوباتِ، في الأُممِ الماضيةِ والأُممِ الحاضرةِ، فالسعيدُ منْ وُعِظَ بغيرِهِ، قالَ تعَالَى: ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [محمد: ١٠]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ [الحشر: ٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٠٠]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، يأمُرُنا اللهُ فيها بالاعتبارِ بمَا حلَّ ويحلُّ بالظَّلمةِ والمجرمينَ منْ قبلِنَا ومنْ حولِنَا، حتى نتجنّبَ طريقهُم، لئلا يحلَّ بنا ما حلَّ بهِم، وهذا منْ رحمتِهِ سبحانهُ وتعالَى بعبادِهِ ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل: ٩٠].

عِبادَ اللهِ: لو نظرنَا في أحوالِنَا وما يجرِي حولَنا، لأدركنَا أنَّنا في حالةِ خطرٍ شديدٍ إنْ لمْ نستدرِك أمرَنَا، ونُصلحْ ما فسَدَ منْ أحوالِنَا، فإنَّنا لاَ نزالُ نسمعُ ما

يجرِي حولَنا فيما يجاورُنا من البلادِ من العقوباتِ المُتتابعةِ، زلازلُ تجتاحُ المدنَ العامرةَ فتهدِمُ المبانِيَ، وتُهلِكُ آلافَ النفوسِ، وتُشرِّدُ ألوفًا آخرينَ، فيبقونَ بلا مأوى ولا أقواتٍ، ولايزالُ يحلُّ بالعالمِ أعاصيرُ مدمرةٌ، وفيضاناتٌ غامرةٌ، تتلفُ الأموالَ الوفيرةَ، وتقضِي على المحاصيلِ الزراعيةِ الكثيرةِ، وحروبٌ طاحنةٌ تلتهِمُ الأخضرَ واليابسَ، ويعيشُ الناسُ فيها تحتَ أمطارِ القذائفِ وأزيز المدافعِ، تحصُدُ النفوسَ حصدًا، وتقضُّ المضاجعَ، وتُرمِّلُ النساء، وتُيتِّمُ الأطفالَ، ويُسلِّطُ اللهُ الظَّلَمَةَ بعضَهُم على بعضٍ، فلاَ يقِرُّ لهُم قرارٌ. بينمَا أحدُهُم زعيمٌ أو رئيسٌ يأمُرُ وينهَى، إذا بهِ في أسرعِ وقتٍ قد صارَ أذَلَّ ذليلٍ في قبضةِ أعدائِهِ، فإمَّا أنْ يقتُلُوهُ شرَّ قتلةٍ، أوْ يُبقُوهُ يعيشُ تحتَ وطأةِ العذابِ والهوان. أحزابٌ متناحرةٌ وفتنةٌ مشتعلةٌ وقودُها جثث وهام. هذا والدول الكافرة الكُبرَى تُوقِدُ هذِه الفتنَ، وتُحرِّشُ بينَ القادةِ، وتضربُ بعضَهُم ببعضٍ، وكلُّ هذا ـ يا عِبادَ اللهِ ـ بسببِ الابتعادِ عن الإسلامِ، والتنكُّرِ لدينِ اللهِ بعدَ معرفتِهِ، والإعراضِ عنْ شريعةِ اللهِ، واستبدالِها بأنظمةِ الكفرِ منْ شيوعيةٍ ورأسماليةٍ وغيرِها.

قالَ العلاَّمةُ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: لمَّا أعرضَ الناسُ عنْ تحكيمِ الكتابِ والسُّنَّةِ والمحاكمةِ إليهمَا واعتقدُوا عدمَ الاكتفاءِ بهمَا، عرضَ لهُم منْ ذلكَ فسادٌ في فِطرِهِم، وظُلمةٌ في قُلوبهِم، وكَدرٌ في أفهامِهِم، ومحقٌ في عقولِهِم، وعمتهُم هذهِ الأمور وغلبتْ عليهِم، حتَّى رُبِّي عليها الصغيرُ، وهرِمَ عليها الكبيرُ، فلمْ يروهَا منكرًا، فجاءتهُم دولةٌ أُخرى قامتْ فيها البدعُ مقامَ السُّننِ، والهَوى مقامَ الرُّشدِ، والضلالُ مقامَ الهُدَى، والمُنكرُ مقامَ المعروفِ، والجهلُ مقامَ العِلمِ، والرياءُ مقامَ الإخلاصِ، والباطِلُ مقامَ الحقِّ، والكذِبُ مقامَ

الصِّدقِ، والمُداهنة مقامَ النَّصيحةِ، والظُّلمُ مقامَ العدلِ، فصارت الغلبةُ لهذِه الأمورِ. فإذا رأيتَ هذِه الأمورَ قد أقبلتْ، وراياتِها قد نُصِبتْ، فبطنُ الأرضِ ـ واللهِ ـ خيرٌ منْ ظهرِهَا، وقُللُ الجبالِ خيرٌ من السهولِ، ومخالطةُ الوحشِ أسلمُ منْ مخالطةِ الناسِ! اقشعرَّتِ الأرضُ، وأظلمتِ السماءُ، وظهرَ الفسادُ في البرِّ والبحرِ، منْ ظُلمِ الفجرَةِ، وذهبتِ البركاتُ، وقلَّتِ الخيراتُ، وهُزلتِ الوحوشُ، وتكدَّرتِ الحياةُ، منْ فسقِ الظَّلمةِ، وبكَى ضوءُ النهارِ وظُلمةُ الليلِ منَ الأعمالِ الخبيثةِ، والأفعالِ الفظيعةِ، وشكَا الكرامُ الكاتبونَ والمعقباتُ إلى ربهم، من كثرةِ الفواحشِ، وغلبةِ المنكراتِ والقبائحِ. وهذا ـ واللهِ ـ مُنذرٌ بسيلِ عذابٍ قد انعقدَ غمامُهُ، ومُؤذِّنٌ بليلِ بلاءٍ قد ادْلهَمَّ ظَلامُهُ، فاعزِلُوا عن طريقِ هذا السبيلِ بتوبةٍ نصوحٍ، ما دامتِ التوبةُ ممكِنةً وبابُها مفتوحٌ، وكأنَّكُم بالبابِ وقدْ أُغلِقَ، وبالرَّهنِ وقد غُلق، وبالجناحِ وقدْ علِّق ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

عِبادَ اللهِ: إن الأمرَ قد زاد في وقتنا عما وصف الإمامُ ابن القيمِ، فأصبح الإسلامُ غريبًا في بلادِهِ، فقد اكتفىٰ الأكثرُ من المتسمِّين به بمجردِ التسمِّي به، والانتساب إليه من غيرِ عملٍ بأحكامِه، فعقائدُهم قد داخلها الشركُ، ومحاكمهُم تحكمُ بالقوانين بدل الشريعةِ، وأموالهُم تجمع بالتعاملِ المحرمِ، من ربا وغيره.

عباد الله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[الروم: ٤١]، إنَّ جورَ الوُلاَةِ وولايةَ الطُّغاةِ بسبب جُرمِ الرَّعايا؛ قالَ تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾ [الأنعام: ١٢٩]، وفي الأثرِ: «كيفما تكُونُوا يُولَّى عليكُم». إنَّهُ ظهرَ الفسادُ،

وانتشرَ الإلحاد، وتجاهرَ الناسُ بالذُّنوبِ، فغيرُ عزيزٍ على اللهِ أنْ يخسِفَ بهِم الأرضَ، أوْ يُرسلَ عليهِم حاصبًا، أو يُهلِكَهُم بالأمراضِ والحروبِ، أو يسلِّطَ عليهِم الوُلاةَ الكفرةَ، والطُّغاةَ الجبابرة، والأحزابَ الغاشمةَ، فيسُومُونهُم سوءَ العذابِ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

إنَّهُ لاَ نجاةَ للمسلمينَ ممَّا وقعوا فيهِ اليومَ إلاَّ بالرُّجوعِ إلى دِينِ الإسلامِ منْ جديدٍ، الرُّجوعِ الصَّحيحِ، الذِي تُطبّقُ بهِ تعاليمهُ، وتنفذُ بهِ أحكامهُ، قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، ومَا نزلَ بَلاءٌ إلاَّ بذنبٍ، ومَا رُفعَ إلاَّ بتوبةٍ، فيجبُ علينَا معشرَ المسلمينَ الرُّجوعُ إلى اللهِ، بإصلاحِ أوضاعنَا وفقَ شريعةِ الإسلامِ، فلنْ يُصْلِحَ آخرَ هذِه الأُمةِ إلاَّ مَا أصلحَ أوَّلهَا.

وكلُّ مسلمٍ عليهِ منْ مسؤوليةِ الإصلاحِ ما يقدرُ عليهِ، فعلَى ولاةِ الأمُورِ مسؤُولِيتُهُم، وعلى كلِّ فردٍ منْ أفرادِ الرَّعيَّةِ مسؤُوليتُهُ، وَ «كلُّكم راعٍ وكلُّكُم مسؤُولٌ عن رعيَّتهِ»، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة: ٢]، فمَا لمْ تتضافرْ جُهودُ المسلمينَ على الإصلاحِ، ومنعِ المفسدِينَ منَ الفسادِ، فلنْ يتمَّ المطلُوبُ.

والمسلمُ أينمَا كان فهُو على ثغْرٍ من ثغُورِ الإسلامِ، إذا تخلّى عنه دخل منه العدوُّ، فالحاكمُ على كرسيِّ حكمِهِ على ثغرٍ من ثُغورِ الإسلامِ؛ فلاَ يجوزُ له أنْ يسمحَ للفسادِ أنْ يدخُلَ مملكتَهُ، والوزيرُ على ثغرٍ منْ ثُغُورِ الإسلامِ؛ فلاَ يجوزُ لهُ أنْ يتركَ الفسادَ يتسرَّبُ إلى أجهزَةِ وزارتهِ، ومديرُ المكتبِ أوِ المدرسةِ على ثغرٍ من ثغُورِ الإسلامِ، فلاَ يسمحُ للفسادِ أن ينتشرَ في صُفُوفِ منسوبيهِ أوْ

تلاميذِهِ، والرجلُ في بيتهِ ومعَ أفرادِ عائلتهِ على ثغرٍ منْ ثُغورِ الإسلامِ، فلاَ يتركُ الفسادَ يدخلُ بيتَه؛ فالمسؤوليةُ على جميع المسلمين أفرادًا وجماعاتٍ، والمؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضهُ بعضًا. لكن متَى تخلَّينَا عن مسؤوليَّتِنا وألقينَا باللاَّئمَةِ على غيرنا، دَبَّ إلينَا الفسادُ، وتمكَّنَ منَّا الأعداءُ، وحقّتْ علينَا العقُوبةُ، وليسَ ببعيدٍ مِنّا مَا حلَّ بالدولِ المجاورةِ.

أعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ فِي تَقَلُّبِهِمۡ فَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوۡ يَأۡخُذَهُمۡ عَلَىٰ تَخَوُّفٖ فَإِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل: ٤٥ـ٤٧].

* * *

فِي مُرَاقَبَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

الحمدُ للهِ الذي وسعَ كلَّ شيءٍ علمًا، وقهرَ كلَّ مخلوقٍ عزَّةً وحُكمًا، ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ لهُ، وكفَى باللهِ حسيبًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُه، بلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانَةَ، ونصحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جِهَادِهِ، صَلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ تبعهُ وتمسكَ بسُنتهِ إلى يوم الدِّينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، إنكُم لمْ تُخلَقُوا عبثًا ولن تُتركُوا سُدى، البِرُّ لاَ يَبْلَى، والذَّنبُ لاَ يُنسَى، والدَّيانُ لاَ يموتُ، فرَاقِبُوا اللهَ حقَّ مراقبتِهِ، فإنَّهُ رقيبٌ عليكُم، ومطَّلِعٌ على أعمالِكُم، وسيتولَّى جزاءَكُم؛ ففي الحديثِ أنَّ جبريلَ عليهِ السلامُ سألَ النبيَّ ﷺ فقالَ: أخبرني عن الإحسانِ؟ قالَ ﷺ: **«الإحسانُ: أن تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ، فإن لمْ تكُنْ تراهُ فإنَّه يراكَ»**(١).

ومقتضَى هذا الحديثِ أنْ يكونَ العبدُ دائمًا على هذه الصفةِ، وهي استحضارُ قُربهِ سبحانَهُ منهُ، وأنَّ العبدَ بينَ يديهِ سبحانهُ يراهُ في جميعِ أحوالِهِ، وذلِكَ يوجِبُ الخشيةَ والخوفَ والهيبةَ والتَّعظيمَ، كمَا يدلُّ هذَا الحديثُ على وجُوبِ الإخلاصِ في العبادةِ وتحسينِهَا وإتمامهَا وإكمالِهَا، وقدْ وصَّى النبيُّ ﷺ جماعةً منْ أصحابِهِ بهذِهِ الوصِيَّةِ، قالَ أبُو ذرٍّ رضيَ اللهُ عنهُ: «أَوصانِي خليلِي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٨) وهو جزء من حديث عمر بن الخطاب الطويل في مراتب الدين.

أنْ أخشَى اللهَ كأنِّي أراهُ، فإنْ لمْ أكُنْ أراهُ فإنَّهُ يرانِي»[١]، وقالَ ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما: أخذَ رسولُ اللهِ ﷺ ببعضِ جسدي فقالَ: «اعْبُدِ اللهَ كأنكَ تراهُ»[٢]، وقالَ رجلٌ للنبيِّ ﷺ: حدِّثني بحديثٍ واجعلهُ موجزًا، فقالَ ﷺ: «صلِّ صلاةَ مودِّعٍ، فإنكَ إنْ كنتَ لاَ تراهُ فإنَّهُ يراكَ»[٣]، ووصَّى ﷺ رجُلاً فقالَ: «استحِ منَ اللهِ استحياءَكَ منْ رجلينِ من صالِحِي عشيرتكَ لاَ يُفَارقانِكَ»[٤].

وقدْ دلّ القرآنُ على هذا المعنَى في مواضعَ متعددةٍ؛ كقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقولِهِ تعالَى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [المجادلة: ٧]، وقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦].

فمنْ حاسبَ نفسهُ في الدُّنيا خفَّ في القيامةِ حسابُهُ، وحَسُنَ منقلبُهُ ومآبُهُ، ومنْ أهملَ الحِسابَ في الدُّنيا كثُرتْ عثراتُهُ، ودامتْ حسراتُهُ، قالَ الحسن البصري: «وإنَّما يثقُلُ الحسابُ يومَ القيامةِ على قومٍ جازفُوا الأمُورَ، فوجدُوا اللهَ

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (ص٣٥ـ٣٦).

(٢) جزء من حديث ابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب»، وانظر تخريجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (١٤٧٣).

(٣) أخرجه ابن النجار من حديث ابن عمر كما في صحيح الجامع (٣٧٧٦). وأخرج نحوه ابن ماجه (٤١٧١) من حديث أبي الدرداء. وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٩١٤).

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل (٢/١٣٦) من حديث أبي أمامة، وهو حديث ضعيف جدًا. انظر: تخريجه في السلسلة الضعيفة (١٥٠٠).

قدْ أحصَى عليهِم مثَاقِيلَ الذَّرِّ»(١).

أيُّهَا المسلمونَ: أديمُوا مُراقبةَ اللهِ سبحانَهُ وتعالَى؛ فإنَّه رقيبٌ عليكُم، قالَ اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١]. ومراقبةُ اللهِ هي دوامُ علمِ العبدِ وتيقُّنِهِ باطلاعِ اللهِ تعالى على ظاهرِهِ وباطنِهِ، وأنه ناظِرٌ إليهِ، سامعٌ لقولِهِ، ومعَ ذلكَ قدْ وكَّلَ بعبادِهِ ملائكةً يكتبُونَ أقوالَهُم وأعمالَهُم ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾ [ق: ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢]، وفي يومِ القيامةِ سيقرأُ العبدُ كلَّ مَا كتبتهُ الحفظَةُ منْ أقوالِهِ وأعمالِهِ ويحاسبُ على ذلكَ ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقالَ تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ الآيات [الإسراء: ١٣، ١٤].

ومعَ ذلكَ كلِّهِ، تشهدُ على العبدِ أعضاؤُهُ وجلدُهُ؛ قالَ تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: ٦٥]، وقالَ تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: ٢٤]، وقالَ تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٩ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٠﴾ [فصلت: ١٩، ٢٠].

وكذلكَ الأرضُ تشهدُ يومَ القيامةِ على العبدِ بمَا عملَهُ على ظهرِهَا منْ خيرٍ

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٢٨١).

أوْ شرٍّ، قالَ تعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ ﴾ [الزلزلة: ٤]، قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّ أخبارها أنْ تشهدَ على كلِّ عبدٍ وأمَةٍ بما عمِلَ على ظهرِهَا، أن تقولَ: عمِلَ كذَا وكذَا، في يوم كذَا وكذَا»[١]، رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيح.

فاللهُ تعالَى يُشْهِدُ علَى العبادِ الحفظةَ، والأنبياءَ، والأمكنةَ التِي عمِلُوا عليها الخيرَ والشرَّ، والجلودَ التي عصوهُ بِهَا.

إنَّ المؤمِنَ إذَا تذكَّرَ هذا نظرَ في أعمالِهِ، فأكثرَ من الطَّاعاتِ، وتابَ منَ المعَاصِي، ولكنَّهُ حينمَا ينْسَى هذا، فإنَّه يترك الاستعدادَ لَهُ، ويُفرِّطُ في طاعةِ اللهِ، ويُضيِّعُ عمرهُ فيما يضرُّهُ، إنَّ مراقبةَ اللهِ سبحانهُ تحجزُ الإنسانَ عنِ المعاصِي، إنَّ مراقبةَ اللهِ وخشيته هِي التِي منعتْ نبيَّ اللهِ يوسفَ عليهِ السلامُ المعصيَةِ عندَمَا راودته ﴿ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝ ﴾ [يوسف: ٢٣].

وإنَّ مراقبةَ اللهِ سبحانهُ هي التِي منعتْ ذلكُم الرجلَ الذِي رَاودَ بنتَ عمهِ على الفاحِشةِ، فلمَّا تمكَّن منهَا قالتْ لهُ: اتَّقِ اللهَ تعَالَى، ولاَ تفُضَّ الخاتمَ إلاَّ بحقهِ، فقَامَ وتركَهَا وتركَ المالَ الذِي أعطاهَا؛ خوفًا منَ اللهِ تعالَى[٢].

وإنَّ مراقبةَ اللهِ تعالَى هي التي منعت المرأَةَ التِي سمعهَا عمرُ رضِيَ اللهُ عنهُ، حينمَا أمرَتهَا أُمُّهَا أنْ تغُشَّ اللَّبنَ الذِي تُرِيدُ بيعهُ للنَّاسِ، فقالت: يَا أُمَّاهُ، ألاَ تخافِينَ منْ عُمرَ؟ فقالتْ لهَا أُمُّهَا: إنَّ عمرَ لاَ يرانَا، فقالت البنت: إنْ كانَ عمرُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٩)، ٣٣٥٣) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٢١٥، ٢٢٧٢، ٢٣٣٣، ٥٩٧٤) ومسلم (٢٧٤٣) من حديث ابن عمر.

لاَ يرانَا فرَبُّ عُمرَ يرانَا . فأُعجِبَ بِهَا عمرُ رضِيَ اللهُ عنهُ، وسألَ عنها، ثمَّ زَوَّجَهَا أحدَ أبنائِهِ، فكانَ منْ نسلِهَا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الخليفةُ الرَّاشِدُ رضيَ اللهُ عنهُ.

أَيُّها المسلمونَ: راقِبُوا الله في جميعِ أحوالكُم، وفي جميعِ أعمالكُم وتصرُّفاتِكُم، فإنَّهُ معكُم أينمَا كُنتُم، وهُو رقيبٌ عليكُم، يُحصِي عليكُمْ، ويقُولُ لكُمْ: «يا عبادِي إنَّما هِي أعمالُكُم، أُحصيهَا لكُم، ثمَّ أُوَفِّيكُم إيَّاهَا، فمنْ وجدَ خيرًا فليحمدِ اللهَ، ومنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلاَ يلومَنَّ إلاَّ نفسهُ»[١].

أعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٌ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٍۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحشر: ١٨].

* * *

---

(١) جزء من حديث قدسي أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

فِي فَضْلِ التَّوْبَةِ والاستِغفَارِ

الحمدُ للهِ القائلِ في كتابهِ المُبينِ: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور: ٣١]، أحمدُه إذ فتحَ لعبادِهِ بابَ التَّوبةِ، ودعاهُم إليها، ووعدهُم أنْ يتقبَّلَهَا منهُم، ويمحُو بهَا سيِّئَاتهِم. وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لاَ رَبَّ لنَا سواهُ، ولاَ نعبدُ إلاَّ إياهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، وسلمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، إنَّ ابنَ آدمَ مخلوقٌ ضعيفٌ، وقد حَفَّ بِه أعداءٌ كثيرونَ منْ شياطينِ الجِنِّ والإنسِ، يُحَسِّنونَ لهُ القبيح، ويُقَبِّحونَ في نظرِهِ الحسنَ، ومعَ هؤلاءِ الأعداءِ نفسهُ الأمَّارةُ بالسوءِ، تدعُوهُ إلى تناولِ الشَّهواتِ المحرَّمةِ، فهوَ معرَّضٌ للخطرِ من كُلِّ جانبٍ، لكنْ معَ هذَا كُلِّهِ قد جعلَ اللهُ لَه حصناً حصِينًا، إذا أوى إليهِ رجعتْ هذِه الأعداءُ كُلُّها خاسِئَةً مدحورةً، وذلكُم الحصنُ هُو توبتُهُ إلى رَبِّهِ، والاستعانةُ بهِ، واللَّهجُ بذِكرِهِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٨]، فمنْ بدرتْ منهُ خطيئةٌ، أو ارتكبَ معصيةً، فبادرَ بالتوبةِ والاستغفارِ، وأتبعهَا بالحسنَةِ التي تمحُوهَا كَفَّرَهَا اللهُ عنهُ ووقاهُ خطرَهَا، يقُولُ اللهُ تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾ [النساء: ١١٠].

إنَّ التَّوبةَ الصَّادقةَ تمحُو الخطِيئةَ مهمَا عظُمتْ؛ كمَا قالَ تعالَى: ﴿ قُلْ

لِلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، لقدْ عرضَ اللهُ التَّوبةَ على الذِينَ هُمْ أشدُّ الناسِ جُرمًا، الذينَ يقتُلُون أنبياءَهُ، ويقولُونَ: (إن الله ثالث ثلاثة)، ويقولونَ: (إن الله هو المسيح ابن مريم)، لقدْ دَعا هؤُلاءِ إلى التَّوبةِ، فقالَ سبحانهُ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤].

إنَّ اللهَ سبحانهُ فتحَ بابهُ للتَّائبينَ ليلاً ونهارًا «يبسطُ يدهُ في اللَّيلِ ليتُوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويبسُطُ يدهُ في النهارِ ليتُوبَ مُسيءُ اللَّيلِ»[1]، يتلطَّفُ سبحانهُ بعبادِهِ الذينَ كَثُرَتْ سيئاتُهمْ، وعَظُمَتْ خطاياهُم، فينهَاهُم عنْ أنْ تحملهُم كثرةُ ذنوبِهِم على القُنوطِ من رحمةِ اللهِ، وتركِ التَّوبة منهَا، فيقولُ سبحانهُ: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤].

إنَّ الذنبَ مهما عظُمَ، فعفوُ اللهِ أعظمُ، وإنَّ منْ يظن أنَّ ذنبًا لاَ يتَّسعُ لَهُ عفو اللهِ ومغفِرَتهُ فقدْ ظنَّ بربهِ ظنَّ السَّوءِ؛ لأنَّ القُنوط من رحمةِ اللهِ من أعظمِ كبائرِ الذُّنُوبِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٧].

ولكنْ ليسَ معنَى هذَا أنْ يعتمدَ العبد على سعةِ عفوِ اللهِ ورحمتِهِ، ويتمادَى في المعاصِي والذُّنُوبِ، وينْسَى العُقُوبَةَ والانتقامَ منَ العُصَاة؛ لأنَّ هذَا معناهُ الأمنُ منْ مكرِ اللهِ، والأمنُ منْ مكرِ اللهِ منْ كبائرِ الذُّنُوبِ، كالقُنوطِ؛ قالَ تعالَى:

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣١)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل: ٤٥ ـ ٤٧].

فيجبُ على العبدِ أنْ يعترفَ بذنبِهِ، ويطلبَ منْ ربهِ مغفرتهُ، ويُبادرَ بالتَّوبة منهُ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

إنَّهُ يجبُ على العبدِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوبةِ، فإنَّهُ لاَ يدري متَى يحضُرُهُ الأجلُ، فيُحالُ بينهُ وبينَ التَّوبة، وتفوتُه الفرصةُ، فيندمُ حينَ لاَ ينفعُهُ النَّدمُ، وينتقِلُ إلى الدَّارِ الآخرةِ مثقلاً بالذُّنُوبِ، حاملاً للأوزارِ، إنَّ الله سبحانهُ حذَّرَ منْ ذلكَ، فقالَ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء: ١٧، ١٨]، وقالَ ﷺ: «إنَّ اللهَ يقبلُ توبةَ العبدِ مَا لمْ يغرغر»[1] أي: مَا لمْ تحضرْهُ الوفاةُ. ومن يدري متَى يمُوت؟ إنَّه لاَ يعلمُ أحدٌ منَّا متَى نهَايةُ أجلِه؛ لأنَّ الموتَ يُمْكِنُ حُضُورهُ في كُلِّ لحظةٍ ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤].

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّ التَّوبةَ ليستْ مجرَّدَ لفظٍ يتردَّد على اللِّسانِ، منْ غيرِ التزامٍ لمدْلُولهَا، إنَّ مدلولَ التَّوبةِ هو الرُّجوعُ من المعصيةِ إلى الطَّاعةِ، وذلكَ لاَ يكونُ إلاَّ بتوفُّرِ شروطِ التَّوبةِ، التي هِي:

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسى.

أولاً: الإقلاعُ عنِ الذَّنبِ؛ أي: تركهُ والابتعادُ عنهُ وعنْ أسبابهِ الموصلةِ إليهِ.

ثانيًا: النَّدمُ على ارتكابهِ؛ بأنْ يحزنَهُ ويسُوءَهُ مَا وقعَ منهُ منَ المعصِيَةِ، ويستحِي منْ رَبِّهِ.

ثالثًا: أنْ يعزمَ عزمًا جازمًا على ألا يعودَ إلى هذا الذَّنبِ مرةً أُخرَى طُولَ حياتهِ.

رابعًا: وإذَا كانَ الذَّنبُ الذِي تابَ منهُ يتعلَّقُ بحقِّ المخلوقِ، فلاَ بُدَّ أنْ يتحلَّلَ منهُ، ويطلبَ منهُ المسامحةَ، فإنْ كانَ هذَا الحقُّ مالاً قدْ أخذَهُ منهُ بغيرِ حقٍّ اغتصابًا أوْ سرقةً أوْ خيانةً في معاملةٍ أوْ ودِيعةٍ أَوْ عاريةٍ وجب رَدُّه إليهِ إنْ كانَ باقيًا، أوْ رَدُّ قيمتِهِ إنْ كانَ تالفًا.

وإنْ كانَ الحقُّ غيرَ ماليٍّ، كأنِ استطالَ في عرضِهِ بغيبةٍ أو نميمةٍ، أو سب أو شتمٍ، وجبَ عليهِ أنْ يستسمحهُ إنْ أمكن، أو يدعُو لهُ ويثْنِي عليهِ إذا لمْ يمُكِنْ التَّحَلُّلُ منهُ، أَوْ خافَ من إخبارهِ بذلكَ ضررًا أكبرَ.

وإنْ تعدَّى عليهِ في بدنِهِ بضربٍ أوْ قطعِ طرفٍ أوْ جِراحةٍ، وجبَ عليهِ أنْ يمكِّنَهُ منَ الاقتصاصِ منهُ بقدرِ مظلمتِهِ، إنْ شاء صاحبُ الحقِّ الاقتصاصَ، أوْ يعفُو عنهُ إنْ شاءَ العفوَ.

وإنْ كانَ الحقُّ حدَّ قذفٍ ونحوَهُ، مكَّنهُ منهُ، أوْ طلبَ عفوَهُ.

روىٰ البخاريُّ في صحيحهِ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«منْ كانتْ عندهُ مظلمةٌ لأخيهِ منْ عرضِهِ أوْ منْ شيءٍ، فليتحلَّلْهُ منهُ اليومَ، قبلَ ألا يكونَ دينارٌ ولاَ دِرهَمٌ، إنْ كانَ لهُ عملٌ صالحٌ أُخذِ منهُ بقدرِ مظلمتهِ، وإنْ لمْ يكُن**

لهُ حسناتٌ أُخذَ منْ سيِّئاتِ صاحبِهِ فحملَ عليهِ»[١].

ورَوَى مسلمٌ عنهُ أيضًا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «أتدْرونَ منِ المُفلسُ؟» قالوا: المفلِسُ فينا منْ لاَ دِرهَمَ لهُ ولاَ متاع، فقالَ: «إن المفلسَ منْ أُمَّتِى منْ يأْتِي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأْتِي وقدْ شتمَ هذَا، وقذفَ هذَا، وأكلَ مالَ هذَا وسفكَ دمَ هذَا، وضربَ هذَا، فيُعْطَى هذا منْ حسناتِهِ، وهذَا من حسناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حسناتُهُ قبلَ أنْ يقضِيَ مَا عليهِ، أُخذَ منْ خطايَاهِم فطُرِحتْ عليهِ، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ»[٢].

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وبادرُوا بالتَّوبةِ قبلَ فواتِ أوانِهَا، فإنَّ الأعمارَ محدودةٌ، والمهلةَ مقدَّرةٌ، ولكلِّ أجلٍ كتابٌ، وكلُّ مَا هُو آتٍ قريبٌ، وفَّقَنِي اللهُ وإيَّاكُمْ لِلتَّوبةِ النَّصُوحِ والعملِ الصَّالحِ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

* * *

---

(١) صحيح البخاري حديث (٢٤٤٩)، وأعاده في (٦٥٣٤) باختلاف يسير.
(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة.

فِي الأُخُوَّةِ الدِّينِيَّةِ

الحمدُ للهِ الذِي جعلَ المؤمنينَ إخوةً، وشرعَ بمُوجب هذِه الأُخوةِ لبعضِهِم على بعضٍ حقُوقًا واجبةً ومُستحبَّةً، ونَهَى عنْ كلِّ مَا يُضعِفُ هذِه الأُخوَّةَ أوْ يقطعُهَا منَ الأقوالِ الذميمة، أحمده على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لاَ شرِيكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُه، بيَّنَ مَا يجِبُ للمسلمِ على أخِيهِ المسلمِ، وأوصَى بالتزامِ ذلكَ، لمَا يترتَّبُ عليهِ منْ مصالحِ الدُّنْيَا والآخرةِ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، الذينَ ضربُوا أروَعَ الأمثِلَةِ للأُخُوَّةِ الصَّادِقَةِ، فَكَانُوا كالجَسَدِ الواحِدِ، وكالبُنْيانِ الواحِدِ يشُدُّ بعضُهُ بعضًا، وسلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، وامتثِلُوا أمرَ ربِّكُم، يقولُ اللهُ سبحانهُ وتعالَىٰ: ﴿ **وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴿٢﴾ ﴾ [المائدة: ٢]، ويقولُ تعالَىٰ: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة: ٧١]، ويقولُ تعالَىٰ: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ** ﴾ [الحجرات: ١٠]، ويقولُ النبيُّ ﷺ: «**المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنيانِ، يشُدُّ بعضهُ بعضًا**» وشبَّكَ بينَ أَصابعه(١).

منْ هذِه النُّصوصِ يا عبادَ اللهِ: نُدركُ مَا ينبغِي أنْ يكونَ عليهِ المسلمُ نحوَ أخِيهِ المسلمِ، إنَّها أُخوَّةٌ أعظمُ منْ أُخوَّةِ النَّسبِ، أُخوَّةٌ تجمعُ بينَ المسلمينَ وإنْ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥) من حديث أبي موسى.

تباعدَتْ أقطارُهُمْ ونَأَتْ ديَارُهُمْ، أُخُوَّةٌ تُوجِبُ التَّنَاصُحَ والتَّناصُرَ والتَّواصِيَ بالحقِّ والصَّبر عليهِ، أُخُوَّةٌ تمنعُ المسلمَ أنْ يغشَّ أخاهُ المسلمَ، أوْ يخدَعَهُ، أوْ يخذُلَهُ، أوْ يؤذِيه بأيِّ أذى في دمهِ أو مالهِ أوْ عرضِهِ، فقدْ قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

إنَّ اللهَ سبحانهُ قدْ رسمَ لهذِهِ الأُخوَّةِ طَريقًا تسيرُ عليهِ يُثبتُ قواعِدَهَا، ويُنَمِّي ثمرَاتِهَا، ويدفعُ كُلَّ مَا يتنافَى معها، أو يَقِفُ فِي طرِيقِهَا. وفِي سورةِ الحُجُراتِ مَا يُوضِّحُ هذَا النَّهجَ الربَّانِيَّ، فهُو سبحانهُ قدْ أمرَنَا بالتَّثبُّتِ حينمَا ينقلُ إلينَا خبرٌ سيئٌ عنْ فردٍ أوْ جماعةٍ منَ المسلمينَ، فلاَ نتعجَّل بقبُولِهِ حتَّى نعلمَ مدَى صحَّتِهِ، بقولهِ تعالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦].

ثمَّ يأمرُنا سبحانَهُ بحسمِ النِّزاعِ وتلافِي الفُرقَة بينَ المُتنَازعينَ منَ المسلمينَ، خُصُوصًا عندمَا يكُونُ النِّزاعُ مُسلَّحًا، لئلاَّ تذهب فيهِ أرواحٌ بريئةٌ، وتُراق فيهِ دماءٌ معصُومةٌ، وإنَّ مثلَ هذَا النِّزاعِ يُحسَمُ بأحدِ أمرينِ: الإصلاحِ أولاً، بالقضاءِ على أسبابِهِ وإزالةِ آثارِهِ، أو التأدِيبِ للفِئَةِ المُعتديةِ التِي لاَ تقبلُ الصُّلحَ، والوُقوفِ بجانبِ الفِئَةِ المُعْتدَىٰ عليهَا، يقولُ تعالَى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠].

ثمَّ إنهُ سبحانهُ ينهَى المسلمَ أنْ يسخرَ ويحط من قدرِ المسلمِ، وقدرُ المُسلمِ عندَ اللهِ عظيـمٌ، إنَّ السُّخريـةَ تُوجبُ النفـرةَ بينَ الأخويـنِ المسلمينِ، ثـمَّ

ما يُدْرِيكَ: لعلَّ هذا الذي سخرْتَ منهُ خيرٌ منكَ عندَ اللهِ، فتكون قدْ حقَّرتَ مَا عظَّمَ اللهُ، قالَ تعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾ [الحجرات: ١١]، فالسُّخريةُ لاَ تقعُ إلاَّ منْ قلبٍ مُمْتَلِئٍ من مساوئِ الأخلاقِ، ولهذَا قالَ النبيُّ ﷺ: «بحسب امرئٍ من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(١). ثم نهى سبحانه عن تلمُّس العُيوبِ للمسلمِ، وإعلانهَا على النَّاسِ، ونهَى سبحانهُ عنْ تعييرِ المسلمِ بلقبٍ يكرهُهُ؛ لأنَّ ذلكَ ممّا يُسِيءُ إلى المسلمِ ويُورِثُ العَدَاوةَ، ورُبَّما يُسبِّبُ الرَّدَّ بالمثلِ، فيكُون الإنسانُ قدْ جنَىٰ على أخيهِ وجنَى على نفسهِ، قالَ تعَالَى: ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ ﴾ [الحجرات: ١١]، واعتبرَ ذلكَ فُسوقًا وظُلمًا ممَّنْ لمْ يتُب منهُ، فقالَ: ﴿ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجرات: ١١].

ثمَّ نهَىٰ سبحانهُ عنْ سُوءِ الظَّنِّ بالمسلمِ، مَا لمْ يتبيَّنْ منه ما يُوجبُ ذلكَ، فإنَّ الأصلَ في المسلمِ العدالةُ والخيريَّةُ، وسُوءُ الظَّنِّ به يُسبِّبُ الابتعادَ عنهُ، وعداواتهُ وبُغضهُ، وهذَا يتنافى معَ الأخوَّةِ الإيمانيةِ، قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

ونهَى سبحانهُ عن البحثِ عن عوراتِ المسلمِ، وتطلُّبِ عثراتِهِ التي قد سترهَا اللهُ عليهِ؛ لأنَّ في البحثِ عنهَا إشاعةً للمُنكَرِ، وتشويهًا للمجتمعِ المسلمِ، وزعزعةً للثِّقةِ بينَ المسلمينَ، فقالَ تعالَى: ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [الحجرات: ١٢].

كمَا نهى سبحانهُ عنِ الغِيبةِ، وهي ذكرُكَ أخاكَ بمَا يكرهُ في حالِ غيبتِهِ؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة.

في ذلكَ انتهاكًا لحرمتهِ، وتدنيسًا لعرضِهِ، وخيانةً لهُ في غيبتِهِ.

ثمَّ ذكرَ سبحانهُ مثلاً مُنَفِّرًا عنِ الغِيبَةِ، وذلكَ بأنْ شَبَّهَ الذي يغتابُ أخاهُ المسلمَ بالذِي يأكلُ لحمهُ وهُو ميِّتٌ، وذلكَ مكروهٌ للنفُوسِ غايةَ الكراهةِ، مُنفِّرٌ للطِّباعِ، فالذِي يغتابُ أخاه كالذِي يأكلُ لحمهُ وهُو ميِّتٌ، قالَ تعالَى: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾ [الحجرات: ١٢]، فكيفَ يكرهُ أكل لحمهِ ميِّتًا ويأكل لحمه حيًّا؟!

عبادَ اللهِ: هذا نموذجٌ ممّا رسمَهُ اللهُ لمسار الأخوة بين المسلمينَ، ومَا ينبغِي أنْ يكونَ عليهِ مجتمعُهُم، وكم في كتابِ اللهِ وفِي سُنَّةِ رسُولِهِ حولَ هذَا الموضُوعِ، منَ الأوامِرِ والنَّواهِي، التِي لَو راعَاهَا المسلمونَ وعَمِلوا بمُقتضَاهَا في عصرنَا هذَا، لسادُوا العالمَ كُلَّهُ وقادُوه، كمَا سادَهُ وقادهُ صدرُ هذِهِ الأُمَّةِ، كمَا قالَ تعَالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِۗ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

عِبادَ اللهِ: إنَّهُ لاَ يَكمُلُ إيمانُ المرءِ حتَّى يُحبَّ لأخيهِ مَا يُحِبُّ لنفسهِ، وأقلُّ درجاتِ الأُخُوَّةِ أن يُعاملَ أخاه بمَا يُحِب أنْ يعامِلَهُ به، ولاَ شكَّ أنَّكَ تنتظرُ من أخيكَ أنْ يسترَ عورَتَكَ وأنْ يسكُتَ عنْ مساوِيكَ؛ فيكفَ تنتظرُ منهُ مَا لاَ تفعلُهُ معهُ؟ إنَّكَ لاَ ترضَى أنْ يصدرَ منْ أخيكَ أدنَى إساءَةٍ في حقِّكَ، فكيفَ ترضى أنْ تُسيءَ إليهِ؟ إنك تنتظرُ من أخيكَ أنْ يصدُقَ معكَ في المُعاملةِ ولاَ يخدَعَكَ ولاَ يغشَّكَ، فيكفَ تُعاملُهُ بضِدِّ ذلكَ؟ إنَّكَ إذا طلبتَ من إخوانِكَ أنْ يُنصِفُوكَ من أنفُسِهِم، وأنتَ لاَ تُنصِفُهُم من نفسِكَ، دخلْتَ في قولِهِ تعالَى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ ﴾ [المطففين: ١ ـ ٣].

إنَّ دينَ الإسلامِ يحرِّمُ المضارَّةَ بالمسلمِ، والتَّعدِّي على حقوقِهِ، ففي مجالِ بيعِهِ وشرَائِهِ: يُحرِّمُ النَّجشَ عليهِ، وهُو أنْ يزيدَ عليهِ في السَّومِ منْ لاَ يُرِيدُ شِرَاءَ السِّلْعَةِ، بلْ يُرِيدُ رفعَ قِيمتِها عليهِ. ويحرِّمُ البيعَ على بيعِهِ، فإذا باعَ سلعة فلاَ يجوزُ لآخرَ أنْ يقُولَ للمُشترِي منهُ: اتركْها، وأنا أبيعُكَ مِثلَها بثمنٍ أقلَّ. ويحرِّمُ الإسلامُ الخِطبةَ على خِطبةِ المسلمِ، فإذا خطبَ امرأةً فلاَ يجوزُ لآخرَ أنْ يخطبَ تلكَ المرأةَ حتَّى يترُكَهَا الخاطبُ الأولُ أوْ يُرَدَّ. ويحرِّمُ الإسلامُ تخبِيبَ المرأةِ على زوجِهَا ـ أي إفسادَها عليهِ ـ حتَّى تطمحَ عنهُ، أو تنفِرَ منهُ، وحتَّى تُسِيءَ خُلُقَهَا فيُطَلِّقَها.

اسمَعُوا إلى هذِه الأحاديثِ: عنْ أبِي هُريرَةَ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لاَ تحاسَدُوا، ولاَ تناجشُوا، ولاَ تباغَضُوا، ولاَ تدَابرُوا، ولاَ يبعْ بعضُكُم على بيعِ بعضٍ، وكُونُوا عبادَ اللهِ إخوانًا» رواه مسلم[1]. وعنهُ رضِيَ اللهُ عنهُ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ليسَ منَّا منْ خبَّبَ امرأةً على زوجِهَا أَوْ عبدًا على سيِّدِهِ»[2]، رواهُ أبُو داودَ والنَّسائِيُّ وابن حبان في صحيحه. وعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أيما امرأةٍ سألت زوجهَا طلاقَها من غيرِ مَا بأسٍ فحرامٌ عليهَا رائحَةُ الجنَّةِ»[3]. وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: «نهى رسولُ اللهِ ﷺ أن يبيع حاضِر لبادٍ، ولاَ تناجشُوا، ولاَ يبع الرجلُ على بيعِ أخيهِ، ولاَ يخطب

---

(١) هو نفس حديث أبي هريرة السابق، أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٢١٧٥) والنسائي في الكبرى (٩٢١٤) وابن حبان (٥٥٦٠). واللفظ لأبي داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٧).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٢٢٦) والترمذي (١١٨٧).

على خطبةِ أخيهِ، ولاَ تسأل المرأةُ طلاقَ أُختِهَا لتكفأَ مَا فِي إنائِهَا» متفقٌ عليهِ[١].

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وراعُوا إخوانكُمْ، واحفظوا حُقُوقهُم.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ الآيات، إلى قولهِ: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢ـ١٠٥].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٠) ومسلم (١٤١٣) من حديث أبي هريرة.

فِي الاستِقَامةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أَمرَ بالاستقامةِ، ورَتَّبَ عليهَا جزيلَ الثَّوابِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ العزيزُ الوهَّابُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وسلمَ وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ، الذينَ تَمَسَّكُوا بسُنَّتِهِ واستقامُوا على دينِهِ، وسلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا الله، واعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانَهُ أَمرَ بالاستقامةِ عبادَهُ عُمُومًا، وأمَرَ نَبيَّهُ ﷺ بِهَا خُصُوصًا؛ قالَ تعَالَى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦]، وقالَ لنَبيِّهِ ﷺ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هُود: ١١٢]، ووعدَ المُستقِيمينَ بجزيلِ الثَّوابِ؛ قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

والاستقامةُ كلمةٌ جامعةٌ، وهي القيامُ بينَ يدَي اللهِ على حقيقةِ الصِّدقِ، والوفاءِ بالعهدِ، وهي تتعلَّقُ بالأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ والنِّياتِ، فهِي منْ جوامعِ الكلمِ؛ ولهذَا لمَّا جاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ وقالَ لهُ: يَا رسُولَ اللهِ، قلْ لِي في الإسلامِ قولاً لاَ أسأَلُ عنهُ أحدًا غيرَكَ، قالَ لَه: «قُلْ: آمنتُ باللهِ، ثمَّ استقم» رواهُ مسلمٌ(١).

فالاستقامةُ هي سُلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ من غيرِ تعوُّجٍ عنهُ يمنةً ولاَ يسرةً،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٨) من حديث سفيان بن عبدِ الثقفي.

بحيثُ لاَ يزيدُ عليهِ ولاَ ينقصُ منهُ، فلاَ يُشدِّدُ ولاَ يتساهلُ، فإنَّ الشيطانَ يشَمُّ قلبَ العبدِ ويختبرُهُ: فإنْ رأى فيهِ إعراضًا عنِ الدِّينِ أَوْ تكاسُلاً عنِ الطَّاعةِ، رغَّبهُ في التساهلِ والتَّكاسُلِ، حتَّى يتحلَّلَ منَ الدِّينِ، فيترُكَ الواجباتِ، ويفعلَ المحرَّماتِ، ولاَ يزالُ يُغرِيهِ حتَّى يقطعَ صلتَهُ بالدِّينِ، ويترُكَهُ في متاهاتِ الهلاكِ.

وإنْ رَأَى منَ العبدِ حِرصًا على الدِّينِ، فلمْ يتمكَّنْ منْ صَدِّهِ عنهُ، أَمرَهُ بالاجتهادِ والجورِ عَلى النَّفسِ، ومُجاوَزَةِ حدِّ الاعتدالِ قَائِلاً له: إنَّ هذا خيرٌ وطاعةٌ، والزيادةُ والاجتهادُ فيها أكملُ، فلا تفترْ معَ أهلِ الفُتُورِ، ولاَ تنم معَ أهلِ النَّومِ. فَلاَ يزالُ يحُثُّهُ ويُحرِّضهُ حتى يُخرِجَهُ عنِ الاستقامةِ، وهذَا كحالِ الخَوَارجِ الذينَ يحقرُ أهلُ الاستقامةِ صلاتَهُم معَ صلاتِهِم، وصِيَامَهُم معَ صيامِهِم، وقرَاءَتَهُم معَ قراءَتِهِم، وهُم يمرُقُونَ منَ الدِّينِ كمَا يمرُقُ السَّهْمُ منَ الرَّمِيَّةِ.

وكلاَ الطَّرفينِ ذَميمٌ: طرفُ التَّساهُلِ، وطرفُ الغلوِّ، كلاهُما خُروجٌ عنِ السُّنةِ والاستقامةِ، فالأوَّلُ: خروجٌ إلى بدعةِ التَّفريطِ والإضاعةِ، والثانِي: خروجٌ إلى بدعةِ المُجَاوزَةِ والإسرافِ.

قالَ بعضُ السَّلفِ: مَا أمَرَ اللهُ بأمرٍ إلاَّ وللشَّيطَانِ فِيهِ نزعتَانِ: إمَّا إلى تفريطٍ، وإمَّا إلى مجاوزةٍ، وهِيَ الإفراطُ، ولاَ يُبَالِي بأيِّهِمَا ظَفرَ، زيادةً أوْ نقصانًا. فكُلُّ الخيرِ في الاجتهادِ المقرُونِ بالاعتدالِ والسَّيرِ على السُّنةِ، وكلُّ الشَّرِّ في الخرُوجِ عنِ السُّنةِ عنْ طرِيقِ التَّساهُلِ، أَوْ عنْ طرِيقِ الغُلُوِّ.

عبادَ اللهِ: بعضُ النَّاسِ يقُولُ: آمنَّا باللهِ، لكنَّهُ لاَ يكونُ مستقِيمًا على دِينِ اللهِ، بلْ يَكتفِي بمُجَردِ القولِ، وفِي هؤُلاءِ يقُولُ اللهُ تعالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ

ﵟءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِﵞ [العنكبوت: ١٠]، فهو ينحرفُ عندَ أدنَى محنةٍ، ويضِلُّ عندَ أدنى شُبهةٍ أوْ شهوةٍ، أولئكَ الذِينَ يقولُونَ مَا لاَ يفعلُونَ، دِينُهُم مَا تَهوَاهُ أنفسُهمْ، ومَا يُوافِقُ رغباتِهِم، لاَ يعرفُونَ معرُوفًا، ولاَ يُنكِرونَ منكَرًا، لاَ يلتزمُونَ بما يعنيه قولُهُم ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: منْ طلب الاستقامة على مدلولِ هذِه الكلمةِ، منْ فعلِ الطاعاتِ، وتركِ المحرماتِ، والإخلاص للمعبودِ، والإحسان إلى العبيدِ، إنَّ كلمةَ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ تمرُّ على ألسنتِهِم وكأنَّها لاَ معنى لهَا، فلاَ تُؤثِّر على سُلوكِهِم، ولاَ تُغيِّرُ من تصرُّفاتِهِم.

إنَّ النَّجاةَ منَ النَّارِ والفوزَ بالجنَّةِ لاَ يحصلانِ إلاَّ بمجموعِ الأمرينِ: قول هذِهِ الكلمَةِ، والاستقامة على معنَاهَا، قالَ تعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤]، وقالَ ﷺ: «قلْ: آمنتُ باللهِ، ثمَّ استقِم»، ولوْ كانَ القولُ المُجَردُ يكفِي وينفعُ صاحِبَهُ، لنفعَ المنافِقينَ الذينَ يُردِّدُونَ كلمةَ ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، واللهُ يُكذِّبُهُم ويقُولُ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ٨، ٩] لماذَا؟ لأنَّهم لاَ يستقِيمُونَ على قولِهِم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾.

عِبادَ اللهِ، وإنَّ الاستقامةَ الكاملةَ بحيثُ لاَ يقعُ تقصيرٌ منَ العبدِ في طاعةِ اللهِ، أمرٌ غيرُ مستطاعٍ، فالعبدُ محلُّ التَّقصيرِ، ومعرضٌ للخطأِ، لكنْ منْ فضلِ اللهِ عليهِ أنْ شرعَ لهُ الاستغفارَ، ليجبُرَ ذلكَ التَّقصِيرَ في الاستقامةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ [فصلت: ٦]، ففي الآيةِ الكريمةِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لاَ بُدَّ منْ تقصيرٍ في الاستقامةِ المأمور بها فيَجبر ذلك الاستغفارُ، وقد أخبر النبي ﷺ أن الناس لايستطيعون الاستقامة الكاملةَ، فقد رَوَى الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه

منْ حديثِ ثوبان رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**اسْتقِيمُوا ولنْ تُحصُوا، واعلمُوا أنَّ خيرَ أعمالكُم الصَّلاةُ، ولاَ يُحافظُ على الوضُوءِ إلاَّ مُؤْمنٌ**»(١)، وفي روايةٍ للإمام أحمدَ: «**سدِّدُوا وقاربُوا، ولاَ يُحافِظُ على الصَّلاةِ إلاَّ مؤمِنٌ**»(٢)، وفي الصحيحينِ عنْ أَبِي هُريرةَ رضي اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**سدِّدُوا وقارِبُوا**»(٣).

فَالسَّدادُ هو حقيقةُ الاستقامةِ الكاملةِ، وهو الإصابةُ في جميعِ الأقوالِ والأعمالِ والمقاصدِ، كالذي يَرمِي إلى هدفٍ فيُصِيبُهُ.

والمقاربة أنْ يصيبَ ما قرُبَ من الهدفَ إذا لمْ يُصِبِ الهدفَ نفسهُ، لكنَّهُ مصَمِّمٌ وقاصدٌ إصابةَ الغرضِ.

فالمطلوبُ من العبدِ الاستقامةُ، وهي السدادُ، فإنْ لمْ يقدرْ عليها فالمقاربةُ، فإنْ لمْ يحصلْ منه سدادٌ ولا مقاربةٌ، فهو مُفَرِّطٌ مضيِّعٌ، فالحمدُ للهِ الذي لم يُكلِّفْنَا ما لا نُطِيقُ، وشرعَ لنا ما يجبرُ تقصيرَنا ويكملُ نقصَنَا ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥] ويضاعفُ الحسناتِ؛ فضلاً منه وتكرُّمًا.

عِبادَ اللهِ، مَا أحْسَنَ طريقَ الاستقامةِ، ومَا أحْسنَ الاعتدالَ بينَ طَرَفَي الأُمُورِ، فَلاَ انحِلاَلَ ولاَ إخلالَ، ولاَ انحِطَاطَ عنْ مرتبَةِ الدِّينِ الذِي شرَّفَ اللهُ بهِ الإنسانيَّةَ، وكرَّمَ بهِ البشريَّةَ، ولاَ غُلُوَّ ولاَ تشدِيدَ ولاَ تنطُّعَ في الدِّينِ، بحيثُ تُجعلُ السُّنَنُ كالفَرَائِضِ، والمكرُوهَاتُ كالمحرَّماتِ، وتُحْرمُ النُّفوسُ ممَّا

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٨٧٣) وابن ماجه (٢٧٧).
(٢) مسند أحمد (٢١٩٢٧).
(٣) أخرجه البخاري (٣٩، ٥٦٧٣، ٦٤٦٣) ومسلم (٧٦/٢٨١٦).

أباحَ اللهُ لهَا منْ زِينةِ اللهِ التِي أخرَج لِعبادِهِ والطَّيباتِ منَ الرِّزقِ، عنْ أَنسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: جاءَ ثلاثةُ رهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، يسأَلُونَ عنْ عبادةِ النبيِّ ﷺ فلمَّا أُخبِرُوا كأنَّهُم تقَالُّوهَا، وقالُوا: أَيْنَ نحنُ منَ النبيِّ ﷺ؟ قدْ غُفرَ لَهُ مَا تقدَّمَ منْ ذنبهِ ومَا تَأخَّر، قالَ أحدُهُم: أمَّا أنَا فأُصلِّي اللَّيلَ أبدًا، وقالَ الآخرُ: وأنَا أصُومُ الدَّهرَ ولاَ أُفطرُ، وقالَ الآخرُ: وأَنا أعتزِلُ النِّساءَ فَلاَ أتزَوجُ أبدًا. فجاءَ رسُولُ اللهِ ﷺ فقالَ: «**أنتم الذين قُلتُمْ كذَا وكذَا، أَمَا واللهِ إنِّي لأَخشاكُمْ للهِ وأتقَاكُمْ لهُ، لكنِّي أَصُومُ وأُفطِرُ، وأُصَلِّي وأرْقُدُ، وأَتزَوَّجُ النِّساءَ، فمنَ رغِبَ عنْ سُنَّتِي فليسَ مِنِّي**» متفقٌ عليهِ[1].

رزَقنَا اللهُ وإيَّاكُم الاستقامةَ على الدِّينِ، واتِّباعَ سُنَّة سيِّدِ المرسلينَ.

أَعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾ الآيات [فصلت: ٣٠].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) ومسلم (١٤٠١).

فِي الحَثِّ عَلَى النَّصِيحَةِ

الحمدُ للهِ، أمرَ بالتَّعاونِ على البِرِّ والتَّقوى، وحَثَّ على الاستمسَاكِ بالعُروَةِ الوثقَى، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، وإليهِ المآبُ والرُّجعَى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسُولُهُ، حَثَّ على التَّعاونِ على الخيرِ، والنُّصحِ لكُلِّ مسلمٍ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ تَبِعَهُمْ بإحسانٍ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى وأطِيعُوهُ، واعلمُوا أنَّ بذْلَ النَّصِيحةِ فيمَا بينكُم منْ أهمِّ مَا يجِبُ عليكُم، فقدْ رَوى الإمامُ مسلمٌ في صحيحهِ عنْ أبي رُقيَّةَ تَمِيمِ بنِ أَوْسٍ الدَّارِيِّ رضيَ اللهُ عنهُ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: **«الدِّينُ النَّصيحةُ» (ثلاثًا)** قُلنَا: لمنْ يَا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: **«للهِ عزَّ وجلَّ، ولكتابهِ، ولرسولِهِ، ولأئمَّةِ المسلمينَ، وعامَّتِهِمْ»**[1].

عبَادَ اللهِ: إنَّ معنى النَّصِيحةِ في اللُّغةِ: الخُلُوصُ، فالشَّيءُ الخالصُ منَ الشوائبِ يُسمَّى نَاصِحًا. والمرادُ بهَا هُنا هو عنايةُ القلبِ للمنصُوحِ لهُ، وخُلُوصُهُ من الغِشِّ، وَهِي كمَا سَمِعْتُم فِي الحديثِ أنَّ الدِّينَ النَّصِيحةُ، فهِي تشملُ خِصَالَ الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ؛ لأنَّ الدِّينَ يشملُ هذِهِ الأنواعِ الثَّلاثةَ، فهُو منْ جوامعِ كلمِهِ ﷺ.

وقدْ وردتْ بمعناهُ أحادِيثُ، مِنها قولهُ ﷺ: «منْ لاَ يهتمُّ بأمرِ المسلمينَ

---

(١) صحيح مسلم (٥٥).

فليسَ منهُم، ومنْ لمْ يُمسِ ويُصبِحْ ناصِحًا للهِ ولرَسُولِهِ ولِكِتابِهِ ولإمامِهِ ولعامَّةِ المسلمينَ فليسَ منهُم»(١)، وقدْ وردَ فِي أحادِيثَ كثيرةٍ طلبُ النُّصحِ للمُسْلِمِينَ عمُومًا، وفِي بعضِهَا طلبُ النُّصحِ لِوُلاةِ أُمُورِهِم، وفِي بعضِهَا نُصحُ ولاةِ الأُمُورِ لرعاياهُمْ.

وقدْ ذكرَ اللهُ فِي كتابِهِ الكريمِ أنَّ الأنبياءَ عليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ قدْ نَصَحُوا لأُممِهِم، قالَ عنْ نُوحٍ عليهِ السَّلامُ أنَّه قالَ لقومِهِ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ الآية [الأعراف: ٦٢]، وقالَ عن هُودٍ عليهِ السلامُ أنَّه قالَ لقومِهِ: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقالَ عن صالحٍ عليهِ السلامُ أنَّهُ قالَ لقومِهِ: ﴿ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقدْ بيَّنَ النبيُّ ﷺ فِي هذَا الحديثِ مواضِعَ النَّصِيحَةِ: أنَّها تكونُ للهِ عزَّ وجلَّ، بمعنَى أنَّ العبدَ يقومُ بأداءِ مَا أَوجبَهُ عليهِ منَ العِبادَاتِ، ويتقرَّبُ إليهِ بنوافِلِ الطَّاعاتِ، ويترُكُ مَا نَهى اللهُ عنهُ من المحرَّماتِ والمكرُوهاتِ، وأنْ يكونَ كلُّ عملِهِ خَالصًا لوجههِ. قالَ الحوارِيُّونَ لعِيسَى عليهِ السلامُ: مَا الخالِصُ منَ العملِ؟ قالَ: مَا لاَ تُحِبُّ أنْ يحمدَكَ النَّاسُ عليهِ. قالُوا: فمَا النُّصحُ للهِ؟ قالَ: أنْ تبدأَ بحقِّ اللهِ تعالَى قبلَ حقِّ النَّاسِ، وإنْ عَرَضَ لكَ أمرانِ أحدُهُما للهِ والآخرُ للدُّنيا، بدأْتَ بِحقِّ اللهِ تعالَى.

ومعنى النصِيحةِ لكتابِ اللهِ: الإيمانُ بهِ ومحبَّتُهُ، واتِّباعُ مَا جاءَ فيهِ، وتعظيمهُ وإجْلالُهُ، وتعلُّمُهُ وتعليمه، وتفهُّمُهُ وتدبُّرهُ، ومُداومةُ تلاوَتِهِ. فيجبُ

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٤٧٣) وفي الصغير (٩٠٧) من حديث حذيفة ابن اليمان.

على المسلِمِينَ والمدارِسِ والبُيوتِ أنْ يَجعلوا لهُ المكانَةَ الأُولَى فِي المناهِجِ الدِّراسِيَّةِ، والصَّدارَة في الحصَصِ اليوميَّةِ، وأنْ يشعُرَ الطُّلاَّبُ بأهميَّتِهِ، بأنْ يُختبروا فِيهِ اختبارًا دقيقًا منْ حيثُ تِلاَوتُه وفهمُ معانِيهِ والعملُ بآدَابهِ.

لكنَّ الواقعَ اليومَ بخلافِ هذَا، فالاهتمامُ بالدُّرُوسِ الدُّنيويَّةِ فِي المدارِسِ والبُيوتِ، والاختباراتُ الدَّقِيقةُ إِنَّما تكونُ فيهَا، أَمَّا كتابُ اللهِ فحِصصُهُ في المنهجِ قليلةٌ، والعِنايةُ بهِ ضعِيفةٌ أوْ مفقُودَةٌ، والاختبارُ فيهِ سهلٌ، بلْ شاعَ في أوْساطِ الطُّلاَّبِ بأنَّ القرآنَ لاَ يرسُبُ فيهِ أحدٌ، وأعظمُ من ذلكَ أنَّهُ لاَ يُختارُ مدرِّسٌ متقنٌ للقراءةِ، بلْ ربَّما يكونُ مُدرِّسُ القرآنِ أضعفَ مستوى في القرآنِ منَ الطُّلاَّبِ!

فكانَ هذَا التَّصرفُ سببًا في الانصرَافِ عنْ كتابِ اللهِ منَ الدَّارِسينَ وأولياءِ أُمُورِهِمْ، حتَّى إنَّكَ لتجد أنَّ وليَّ الطَّالِبِ يأتِي لهُ بمُدرِّسٍ في البيتِ يُدرِّسُهُ اللُّغةَ الإنجليزيَّةَ أوِ العلومَ الرِّياضيَّةَ، ولاَ يهتمُّ بالقُرآنِ؛ لأنَّ المدرسةَ لاَ تهتمُّ بهِ، فلاَ يخشَى على ولدِهِ منَ الرُّسُوبِ فيهِ، فأَينَ النَّصِيحَةُ لكتابِ اللهِ أيُّهَا المسلمونَ؟ إنَّكُم ستُسألونَ عنْ ذلِكَ، فاتقُوا اللهَ في كتابِ ربِّكُمْ.

ومعنىٰ النَّصيحةِ لرسولِ اللهِ ﷺ فِي حياتِهِ: بذلُ الجُهدِ في طاعتِهِ ونُصرتِهِ ومُعاونتِهِ بالنَّفسِ والمالِ، وبعدَ وفاتِهِ بالعنايةِ بطلبِ سُنَّتِهِ، ودراسةِ سِيرتهِ، للاقتدَاءِ بهِ، والتَّخلُّقِ بأخلاقِهِ، وتعظِيمِ أمرِهِ ونهيِهِ، وتركِ مُخالفتِهِ، وبغضِ منْ خالفَ سُنَّتَهُ، وأنْ يُحبَّ الرَّسولَ ﷺ أعظمَ منْ محبَّتِهِ لنفسِهِ وولدِهِ ووالده والناسِ أجمعينَ، وكذلكَ محبَّةُ قَرابةِ النَّبيِّ ﷺ وصحابتِهِ، وطاعتُهُ فِيما أمرَ، وتصديقُهُ فِيما أخبرَ، واجتِنابُ مَا عنهُ نهىٰ وزجرَ، وألاَّ يُعبدَ اللهُ إلاَّ بمَا شرَعَ.

ومعنى النَّصِيحة لأئِمَّةِ المسلمينَ ـ والمرادُ بهم ولاةُ الأُمُورِ ـ: حُبُّ

صلاَحِهِم واستقامتِهِم، وحُبُّ اجتماعِ كلمتِهِم على الحقِّ، وطاعتُهُم بالمعرُوفِ، وإعانتُهُم على الخيرِ، وعدمُ معصيَتِهِم والخُروجِ عليهِم، مَا لمْ يحصلْ منهُم كُفرٌ بواحٌ، وقدْ أَمرَ اللهُ ورسُولهُ بطاعةِ وُلاةِ الأُمُورِ، مَا لمْ يأمُروا بمعصِيةِ اللهِ، وحرَّمَ اللهُ ورسُولهُ معصِيتَهُم وشقَّ عَصَا الطَّاعةِ، وتفريقَ الكلمةِ، وأمَرَ بالضَّربِ على يدِ منْ حاوَلَ ذلِكَ، فطاعةُ وُلاةِ الأُمُورِ واجِبةٌ، وإنْ جَارُوا وإنْ ظَلمُوا، مَا لمْ يخرجُوا عنْ دائِرَةِ الإسلامِ.

ومن النَّصِيحةِ لهُم إسْدَاءُ المشُورةِ النَّافعةِ لهُم، ودعوَتُهُم إلى الخيرِ، وَتنبِيهُهُم على الخطأِ بطريقِ المُشافهَةِ أَو المُكاتبةِ، مهما أمكنَ ذلكَ.

ومنَ النَّصِيحةِ لِوُلاةِ أُمُورِ المسلمينَ: الدُّعاءُ لهُم بالصَّلاحِ والإصلاحِ والاستقامةِ والتسدِيدِ في الأُمُورِ، فإنَّ الدُّعاءَ لهُم منْ أعظَمِ النَّصِيحةِ، وهُو دَأبُ السَّلفِ الصَّالحِ، فمنْ أُصُولِ أهْلِ السُّنَّةِ والجماعةِ طاعةُ وُلاةِ الأمُورِ ونصِيحتُهُم والدُّعاءُ لهُمْ.

ومِنَ النَّصيحةِ لأئمَّةِ المسلمينَ التَّعاونُ معهُم بالقِيامِ بالأمُورِ التِي يُسندُونَهَا إلى مُوظَّفِيهِم، فيجِبُ على من ولاَّهُ وليُّ الأمرِ وظِيفةً منَ الوظَائفِ أنْ يقُومَ بِهَا خيرَ قيامٍ، ولاَ يتساهلَ بشأنِهَا، أَوْ يُضيِّعَ شيئًا منْ أعمالِهَا، فإنَّ ذلكَ منَ الخِيانةِ التِي حرَّمهَا اللهُ ورسُولُه، فإنَّ هذِهِ الوظِيفةَ أمانةٌ ائتمنَكَ عليهَا وليُّ الأمرِ، فإنْ قصرتَ فيهَا فقدْ خُنْتَ الأَمانَةَ ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۝٥٢﴾ [يوسف: ٥٢].

وأَمَّا النَّصِيحةُ لعامةِ المسلمينَ فمعناهَا: أنْ يُحِبَّ لهُم مَا يُحِبُّ لنفسِهِ، ويكرهَ لهُم مَا يكرهُ لنفسِهِ، ويُشفِقَ عليهِم، ويرحمَ صغِيرَهُم، ويُوَقِّرَ كَبيرَهُم، ويُرشِدَ ضَالَّهُم، ويُعلِّمَ جاهِلَهُم، ويأمرَهُم بالمعروفِ، ويناهُم عنِ المنكَرِ،

وألاَ يغُشَّهُم إذا استشارُوهُ فِي أَمر، ولاَ يغُشَّهُم فِي البيعِ والشِّراءِ وسائِرِ المُعَاملاتِ، وإذا تولّى شيئًا منْ أُمُورِهِم قامَ بهِ خيرَ قِيامٍ، ونظَرَ فِي مصالِحِهِم، ودفع المضارَّ عنهُم، فلاَ يخونهُم إذا ائتمنُوهُ، ولاَ يغدرُ بهِم إذا عاهَدُوهُ، لاَ يَنمُّ ولاَ يغتابُ، ولاَ يغُشُّ ولاَ يخدعُ ولاَ يُحَابِي في حُكْمِهِ، ولاَ يَبخسُ النَّاسَ حُقُوقَهُم.

لكنْ معَ الأسفِ الشَّديدِ، النَّصيحةُ لعامَّةِ المسلمينَ فِي هذا الزَّمانِ قدْ قَلَّتْ أَوْ فُقِدَتْ، وحلَّتْ محلَّهَا الأنانيةُ والأثرةُ في مجتمعاتِ المسلمينَ، فالمُعاملاتُ التِّجاريةُ دخلهَا الغِشُّ والمكرُ والخدِيعةُ والتَّدْلِيسُ والأيمانُ الكاذِبةُ، والخُصُوماتُ دخلَهَا الكذِبُ والفُجُورُ وشهادَاتُ الزُّورِ.

والوظائفُ دخلَهَا التَّسَاهُلُ بالمسؤولِيَّاتِ، وتضييعُ أعمالِهَا، وتعاطِي الرِّشْوةِ، وحرْمانُ المُستحقِّ، وتقديمُ غيرِ المُستحِقِّ.

والتِّجارةُ يغلبُ فيها جشعُ التُّجارِ، والنَّظرةُ المَادِّية، دُونَ مُبالاةٍ بنوعِيَّةِ الكسبِ وطُرُقِ الكسبِ، ثمَّ المُماطَلَةُ بالحقوقِ الواجبةِ في أموالِهِم لغيرِهِم، أَو جحدُها ومنعُهَا بالكُلِّيَّةِ إن قَدَرُوا على ذلكَ.

ثمَّ واقعُ المسلمينَ فِيمَا بينَهُمْ يغلبُ عليهِ التَّقَاطُعُ والتَّدابرُ، والحسَدُ، وتكبُّرُ القَوِيِّ على الضَّعيفِ، والغَنِيِّ على الفَقِيرِ، إنَّها حالةٌ مُؤْسِفَةٌ وواقعٌ مُؤلِمٌ!

أَيُّهَا المسلمونَ: يجبُ أنْ يكونَ المسلمُ قدوَة صالِحَةً لغيرِهِ في كلِّ تصرُّفاتِهِ، قالَ الحسنُ رحمَهُ اللهُ: قالَ بعضُ أصحابِ النبيِّ ﷺ: والذِي نفسِي بيدِهِ، إنْ شئتُم، لأقسِمَنَّ لكمْ باللهِ أنَّ أحبَّ عبادِ اللهِ إلى اللهِ الذينَ يُحبِّبُونَ اللهَ إلى عبادِهِ، ويُحَبِّبُون عِبادَ اللهِ إلَى اللهِ، ويسعونَ في الأرضِ

بالنَّصِيحةِ[١]

أعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠] إِلَى آخرِ السُّورَةِ.

* * *

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (ص٨١).

فِي طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ

الحمدُ للهِ الذي رضيَ لنَا الإسلامَ دِينًا، وأنزلَ علينا في كتابهِ نُورًا مُبينًا، أَحمدهُ على جزيلِ نعمِهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ في رُبُوبيتهِ وإلٰهيَّتهِ وأسمائِهِ وصفاتِهِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولهُ، أرسلَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ، فهدَى بهِ منَ الضَّلاَلةِ، وبَصَّرَ بهِ منَ العمَىٰ، وأتَمَّ بهِ النِّعمةَ، صلَّىٰ اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحَابهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ.

أيُّهَا المسلمونَ، إن اللهَ قدْ بعثَ محمدًا ﷺ بالدِّينِ القويمِ، والمنهجِ المستقِيمِ، وأرسلَهُ رحمةً للعالمينَ، وإمامًا للمُتَّقِينَ، وحُجَّةً على الخلائِقِ أجمعِينَ، أَرسَلَهُ على حِينِ فترَةٍ منَ الرُّسُلِ، فهدَى بهِ إلى أقومِ الطُّرُقِ وأَوضَحِ السُّبلِ، وافترضَ على العِبادِ طَاعَتَهُ وتعزِيرَهُ وتوقِيرهُ، ومحبَّتهُ والقِيامَ بحُقوقِهِ، وسدَّ دُونَ جَنَّتِهِ الطُّرُقَ فلمْ تُفتحْ لأحدٍ إلاَّ من طريقهِ، فشرحَ لهَ صدرَهُ، ورفعَ لهُ ذكرهُ، ووضعَ عنهُ وزرَهُ، وجعلَ الذِّلَّةَ والصَّغارَ على من خالفَ أمرَهُ.

رَوَى الإمامُ أحمدُ عنْ عبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رَضيَ اللهُ عنهُما قال: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: **«بُعِثتُ بِالسَّيفِ بينَ يدَي السَّاعةِ، حتَّى يُعبدَ اللهُ وحدَه لاَ شرِيكَ لَهُ، وجُعِلَ رِزْقِي تحتَ ظلِّ رُمحِي، وجُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغَارُ على منْ خالفَ أمْري، ومَن تشبَّه بِقَومٍ فهُو منهُم»**(١)، وكمَا أنَّ الذِّلَّة مضْرُوبةٌ على منْ خالفَ أمرَهُ، فَالعِزَّةُ لأهلِ

---

(١) مسند أحمد (٥٠٩٣). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٨٣١).

طاعتِهِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي: اللهُ وحدهُ كافيكَ وكافِي أتْباعِكَ، فلاَ تحتاجُونَ معهُ إلى أحدٍ.

أيُّهَا المُسْلِمُونَ، إنَّ طاعةَ الرَّسُولِ طاعةٌ للهِ، كمَا قالَ تعالىٰ: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، فأيُّ مسلمٍ بلغتْهُ سُنّةُ الرَّسُولِ وَجَبَ عليهِ اتّباعُهَا، وافقَتْ هَوَاهُ أوْ خالفَتْهُ، قالَ ﷺ: «**لاَ يُؤمِنُ أحدُكُمْ حتَّىٰ يكونَ هواهُ تبعًا لمَا جِئْتُ بِهِ**»[1]. وإنَّ إنسانًا يزعُمُ أنّهُ متّبعٌ لهذَا الرَّسولِ، ولكنَّهُ عندمَا تبلُغهُ سُنّتُهُ لاَ يأخُذُ منهَا إلاَّ مَا وَافقَ هَوَاهُ، فإنَّهُ كاذِبٌ فِي زعمِهِ، وإنَّما هو مُتّبعٌ لِهوَاهُ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]، وقدْ عابَ اللهُ على بَنِي إسرَائيلَ هذَا الصَّنِيعَ معَ أنبيائِهِمْ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: ٨٧].

فَبِحسَبِ مُتابعةِ الرَّسولِ تكونُ العزَّةُ والكفايةُ مِنَ اللهِ والنُّصرةُ، كمَا أنَّه بحَسَبِ مُتابعتهِ تكونُ الهِدايةُ والصَّلاحُ والنَّجاحُ، فاللهُ تعالَى علَّقَ سعادَةَ الدَّارينِ بمُتابعتِهِ، وجعلَ شقاوَةَ الدَّارينِ في مخالفتِهِ، فلأتباعِهِ الهُدىٰ والأمنُ والفلاحُ وطِيبُ العيشِ في الدُّنيَا والآخرةِ، ولِمُخالفِيهِ الذِّلةُ والصَّغارُ والخوفُ والضَّلالُ والخِذلانُ والشَّقاءُ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقدْ أقسمَ اللهُ سبحانَهُ بأنَّهُ لاَ يُؤمنُ منْ لاَ يُحَكِّمُ هذَا الرَّسُولَ في كلِّ مَا تنازَعَ

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥) من حديث عبد الله بن عمرو.

فِيهِ هُوَ وغيرُهُ، ثُمَّ يَرْضىٰ بحُكمِهِ، ولاَ يَجدُ فِي نفسهِ حرجًا ممَّا حكمَ بهِ، ثُمَّ يُسلِّمُ لَهُ تسلِيمًا، وينقادُ لُه انقِيادًا، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطعَ سبحانهُ وتعالَىٰ التَّخْيير بينَ أَمرِهِ وأمرِ رسُولِهِ وبين أمر غيرهما، فليسَ لمُؤمنٍ أنْ يختارَ شيئًا غيرَ أَمرِهِ ﷺ؛ لأنَّهُ إذا أمرَ فأَمرُهُ حتمٌ.

ولقـد رَأى ﷺ رجُلاً يأكُـلُ بشمالِـهِ فقالَ لـهُ ﷺ: «كُلْ بيمِينِـكَ» فقالَ: لاَ أستطيعُ، فقالَ لهُ النبيُّ ﷺ: «لاَ استطعتَ! مَا منعَهُ إلاَّ الكِبرُ» قالَ: فمَا رفَعهَا إلى فِيهِ.[1] فهذَا رجلٌ أَبَى أنْ يمتثلَ أَمرَ الرَّسُولِ ﷺ تكبُّرًا عنهُ، فدعا عليهِ، فتعطَّلتْ يدُهُ ويبستْ، فَلمْ ينتفِعْ بِهَا.

وإنَّنَا ـ يَا عِبادَ اللهِ ـ تبلُغُنَا أَوامِرُ ونواهٍ كثيرةٌ عنِ النبيِّ ﷺ، فنترُكُ العملَ بِهَا أَو نتساهلُ بِهَا، مُتابعةً لأَهوائِنا أو مُجاراةً للنَّاسِ، فنُعَرِّضُ أنفُسَنَا لعُقُوبةِ اللهِ، معَ مَا يفُوتُنا مِمَّا في مُتابعتِهِ ﷺ مِنَ الخَيرِ عَاجِلاً وآجلاً، إنَّ شهادةَ أنَّه رسولُ اللهِ تقتضِي مِنَّا طَاعَتَهُ فِيمَا أَمرَ، وتصديقَهُ فِيمَا أخبرَ، واجتِنابَ مَا نهَىٰ عنهُ وزجرَ، وألا نعبُدَ اللهَ إلاَّ بِمَا شرعَهُ لنَا، فمَنْ أَخلَّ بشيءٍ منْ هذهِ الأمورِ، فقدْ أخلَّ بهذهِ الشَّهادةِ بمقدارِ مَا أَخلَّ بِهِ منْ هذِه الأُمورِ.

إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالى توعَّدَ الذِينَ يُخالِفُونَ عنْ أَمرِهِ أنْ تُصِيبَهُم فِتنةٌ أَو يُصِيبَهُم عذابٌ أليمٌ، كمَا حتَّمَ علينَا طاعتَهُ فِيمَا أَمرَ ونهَى، حيثُ يقُولُ سبحانَهُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧]، قالَ الإمامُ ابنُ القيِّمِ عندَ قولِهِ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٢١) من حديث سملة بن الأكوع.

ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]: فتضمَّنتْ هذِه الآيةُ أُمورًا: أحدهَا: أنَّ الحياةَ النَّافعةَ إنَّمَا تحصلُ بالاستجابةِ للهِ ولرسُولِه، فمنْ لمْ تَحصُلْ له هذِه الاستجابَة فلاَ حياةَ لهُ، وإنْ كانت لهُ حياةٌ بَهيميَّةٌ مشتركةٌ بينهُ وبينَ أَرذلِ الحيواناتِ، فالحياةُ الحقيقيَّةُ الطَّيِّبةُ هِي حياةُ مَنِ استجابَ للهِ والرَّسُولِ ظاهِرًا وباطنًا، فكمَا أنَّهُ لاَ حياةَ لَهُ حتَّى ينفُخَ فِيهِ الملكُ الذِي هُو رَسُولُ اللهِ منْ رُوحِهِ، فكذلكِ لاَ حياةَ لِرُوحِهِ وقلبِهِ حتَّى ينفخَ فِيهِ الرَّسُولُ البَشَرِيُّ ﷺ منَ الرُّوحِ الذِي أُلقيَ إليهِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، فمنْ أصابهُ نفخُ الرَّسولِ الملكيِّ، ونفخُ الرَّسولِ البشريِّ، حصلتْ لهُ الحياتَانِ، ومنْ حصَلَ لهُ نفخُ الملكِ دُونَ نفخِ الرَّسولِ البَشرِيِّ، حصلتْ لهُ إحدى الحياتينِ وفاتتهُ الأُخرى.

عِبادَ اللهِ: رَوَى الإمامُ مسلمٌ رحمهُ اللهُ، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**بدَأَ الإسلامُ غرِيبًا، وسيعودُ غرِيبًا كمَا بدأَ، فطُوبَى للغُربَاءِ**»[1] وجاء في رِوَاياتٍ أُخَرَ وصفُ هؤُلاءِ الغُرباء بأنَّهُم «**الذينَ يَصْلُحُونَ إذَا فسدَ النَّاسُ**»[2]، وفِي بعضِهَا: «**أنَّهُم الذينَ يُصلِحُونَ مَا أَفسَدَ النَّاسُ**»[3]، وفي بعضِهَا: «**أنَّهم ناسٌ صالِحُونَ قلِيلٌ، في ناسِ سُوءٍ كثيرٍ، منْ يعصِيهم أكثرُ ممنْ يُطِيعُهُم**»[4]. وفي بعضِهَا «**أنَّهم الذينَ يُمْسكُونَ بكتابِ اللهِ حينَ يُتركُ، ويعملُونَ بالسُّنَّةِ حينَ تُطفأُ**».

فَفِي هذِهِ الرِّواياتِ عنِ الرَّسولِ ﷺ إخبارٌ عنْ قلَّةِ المتمسِّكِينَ بالسُّنةِ في آخِرِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٥) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (١٦٢٤٩) من حديث عبد الرحمن بن سَنَّة الأسلمي.
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٣٠) من حديث عمرو بن عوف.
(٤) أخرجه أحمد في المسند (٦٦١٢، ٧٠٣٢) من حديث عبد الله بن عمرو.

الزَّمانِ، وكثرة المخالِفينَ لهَا، وفِيهَا الحثُّ على التَّمسُّكِ بِهَا عندَ ذلِكَ والصَّبر عليهَا.

ولقد اشتدَّت غُربةُ الإسلامِ فِي بُلدانِ الإسلامِ، وأخذَت السُّنَّةُ تُطمسُ معالِمُهَا، وتُطاردُ في كلِّ مكانٍ، وحَلَّ محلَّهَا الضَّلالُ والبدعُ والكفرُ والفسوقُ. إنَّ الرَّسولَ ﷺ يحُثُّنا على أنْ نتَمَسَّك بِسُنَّتِهِ ولو تركَهَا النَّاسُ، ونُغَلِّيهَا ولو أرخَصُوهَا، ونُدافِعَ عنهَا ونصبر على الأذىٰ فِي ذلِكَ، فإنَّ ذلِكَ سَبيلُ النَّبِيينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداء والصَّالِحينَ.

عِبادَ اللهِ، لقد قالُوا: إنَّ التَّمسُّكَ بالسُّنةِ جُمُودٌ ورجعِيةٌ وتأخُّرٌ، فلاَ تهُولنَّكُم هذه الألقابُ، فقدْ قيلَ فِيمَن هُو أَجلُّ منكُم، أعظمُ منْ ذلكَ، فصبرُوا على دِينِهم، ومَا ضعُفُوا ومَا استكانُوا ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦].

ومَا عرفَ هؤُلاءِ المخدُوعونَ أنَّ الجُمُودَ هُو عدمُ قبُولِ الحَقِّ، فإنَّ الذِي لاَ يقبلُ الحقَّ قد تَحَجَّرَ قلبُهُ وطُبعَ وخُتمَ عليهِ، فصَارَ غُلفًا لاَ يصِلُ إليهِ نُورٌ، وأنَّ الرَّجعيَّةَ معناهَا الرُّجوعُ إلى الباطِلِ، وأنَّ التَّأخُّرَ هو التأَخُّرُ عنِ الخيرِ إلى الشَّرِّ، وكلُّ هذِه الأوْصافِ موجُودةٌ فِيهِم. وَأَمَّا المُتمسِّكُ بالسُّنةِ فهُو ـ بحمدِ اللهِ ـ طيب القلبِ، سَليمُ التَّفكِيرِ، سبَّاقٌ إلى الخيرِ، ومتقدِّمٌ في كلِّ مجالٍ طيِّبٍ، ليس جامِدًا ولاَ رجعِيًا ولاَ مُتأَخِّرًا.

عِبادَ اللهِ، إنَّ مَا حلَّ بالمسلمينَ اليومَ منْ ضعفٍ وتفكُّكٍ ومصائب، إنَّمَا سببُهُ تفريطُهُم في التَّمسُّكِ بدِينِهِم، والتماسُ الهُدىٰ من غيرِهِ، فلمَّا أَعرضُوا عنْ تحكِيمِ الكتابِ والسُّنةِ والمُحاكمةِ إِليهِمَا، واعتقدُوا عدمَ الاكتِفَاءِ بِهِمَا، عرضَ لهُمْ مِنْ ذلِكَ فسادٌ فِي فِطَرِهِمْ، وَظُلْمَةٌ فِي قُلوبهِم، وَكَدَر في أَفهامِهِم، ومَحَقٌ فِي عُقُولِهِم، وعَمَّتْهُمْ هذِه الأمُورُ، وغلبتْ عليهِم حتَّى شبَّ عليهَا الصَّغِيرُ وهَرِمَ

عليهَا الكبيرُ، لمْ يَرَوها منكرًا، ولَنْ تَذهَبَ عنهُم هذهِ الآفاتُ حتَّى يرجِعُوا إلى دِينِهم، فاللهُ تعالَىٰ: ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١].

إنَّ المُعرِضَ عن الحقِّ بعدَ معرفتِهِ يُعاقَبُ بفسادِ قلبِهِ وزيغِهِ، فَلاَ يقبَلُ الحَقَّ بعدَ ذلكَ، ولاَ يرجِعُ إلى الهُدَىٰ، كَحَالِ المنافقِينَ الذينَ قالَ اللهُ فِيهِم: ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: ١١٠]، هذهِ عُقوبتُهُ فِي الدُّنيا. وأمَّا عُقوبتُهُ فِي الآخرةِ فاسمَعُوا قولَهُ تعالَى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [طه: ١٢٤ ـ ١٢٧]، وقالَ ﷺ: «مَنْ يعِش مِنكُم فسيرَى اختلافًا كثيرًا، فعلَيْكُم بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاءِ الرَّاشدِينَ المهدِيينَ، عَضُّوا عليهَا بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومحدَثَاتِ الأُمُورِ، فإنَّ كلَّ بِدْعَةٍ ضلَالةٌ»[1].

أَعُوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ... ﴾ الآيات [التوبة: ١٢٨].

* * *

---

(١) جزء من حديث العرباض بن سارية أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٢٦) وابن ماجه في سننه (٤٣)، بلفظ: «تركتكم على البيضاء».

فِي التَّذْكِيـــرِ

الحمدُ للهِ، أَمرَ بالتَّذكِيرِ في مُحكمِ كتابِهِ، ووَعدَ المُتذكِّرينَ بجزيلِ ثَوَابِهِ، وتوَعَّدَ المُعرِضينَ عنِ التَّذكِرَةِ بِأليمِ عِقَابهِ، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شرِيكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُه، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى وتذكَّرُوا مَا أمامكُم منَ الأَهوالِ، فاستعِدُّوا لهَا بصالِحِ الأعمالِ، تذَكَّرُوا الموتَ وسكراتهِ وغمرَاتِهِ، فمَا أسرعَ الموتَ، ومَا أَبعدَ الفَوتَ، قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝١٠٢ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، وقالَ تعالَى: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ۝٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ۝٢٧ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وقد أمرَ اللهُ بِالاستعدادِ قبلَ نُزُولِ الموتِ، فقالَ سبحانهُ وتعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ۝١١ ﴾ [المنافقون: ٩ ـ ١١].

إِنَّكَ أَيُّهَا الإنسانُ لاَ تَدْرِي أيَّ ساعةٍ وفِي أَيِّ أَرْضٍ تمُوتُ؟ وفِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «مَا حَقُّ امرِئٍ مسلمٍ لهُ شَيءٌ يُوصِي فِيهِ، يَبيتُ ليْلَتَينِ إلاَّ ووصيَّتُهُ عندَ

رأسِهِ»[١] وفي الأثر: «إذَا أَمسيتَ فلاَ تنتظِرِ الصَّباحَ، وإذَا أصبحتَ فَلاَ تنتظِرِ المساءَ»[٢] يعني: لاَ تُمَدِّدِ الأملَ، وتُؤَخِّرِ العملَ، إلى أَجلٍ لاَ تدرِي أَتُدرِكُهُ أَمْ لاَ.

فاتَّقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، وبادِرُوا بالأعمال الصَّالحَة قبلَ فَوَاتِهَا، فإنَّكُم تَرَونَ فعلَ الموتِ بإخوانِكُم وَجِيرَانكم قبلَ سَابِقِ إنذَارٍ، وسيُلحِقكُم بِهِم عن قَرِيبٍ في ليْلٍ أَو نهارٍ.

أَيُّهَا الشَّابُّ، لاَ تغترَّ بشَبَابِكَ، فَكَمْ أخذَ الموتُ منْ أتْرَابِكَ.

أيُّها القَوِيُّ، لاَ تغتَرَّ بِصِحَّتِكَ، فكَمْ أَخَذَ الموتُ منْ هُوَ أَقوَى مِنْك.

عِبَاد اللهَ، تأَهَّبُوا للموتِ الذِي مَا طلبَ أحدًا فأعجزَهُ، ولاَ تحصَّنَ منهُ مُتحصِّنٌ إلاَّ أخرَجهُ وأَبرَزَهُ. أَيُّ عيشٍ صَفَا ومَا كَدَّرَه؟ أَيُّ غُصْنٍ علاَ ومَا كَسَّرَهُ؟ وأَيُّ بِناءٍ شُيِّدَ ومَا دَمَّرَهُ؟ أَمَا أخذَ الآباءَ والأجدادَ؟ أَمَا مَلأَ القُبورَ والألحاد؟ أَمَا رَمَّلَ النِّساءَ ويَتَّمَ الأولادَ؟ قالَ النبيُّ ﷺ: **«أَكثِرُوا ذِكرَ هاذمِ اللَّذاتِ»**[٣] يعنِي الموتَ. رواهُ الترمذِيُّ وقالَ: حَدِيثٌ حسنٌ.

أَيُّهَا المسلِمُونَ، وبعدَ الموتِ وسكراتِهِ، تذكَّرُوا القبرَ وظُلُماتِهِ، فإنَّهُ أوَّلُ منازِلِ الآخرةِ، وهُو إمَّا رَوضةٌ منْ رِيَاضِ الجنَّةِ، أَوْ حُفرَةٌ منْ حُفرِ النَّارِ، رَوَى الإمامُ أحمدُ عنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: خرجنَا مع رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي جنازةِ رجلٍ منَ الأنصَارِ، فَانتَهَينَا إلى القبرِ وَلَمَّا يُلحَدْ، فجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣٨) ومسلم (١٦٢٧) من حديث عبد الله بن عمر.

(٢) صحيح البخاري (٦٤١٦).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٠٧) وابن ماجه (٤٢٥٨) من حديث أبي هريرة. وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٢١٠).

وجلَسْنَا حَولَهُ كأَنَّ على رُؤُوسِنَا الطَّيرَ، وفي يَدِهِ عُودٌ ينكتُ بهِ الأرضَ، فرَفَع رَأْسَهُ فقالَ: «استعيذُوا باللهِ منْ عَذَابِ القبرِ» مرَّتينِ أو ثلاثًا، ثمَّ قالَ: «إنَّ العبدَ المؤمنَ إذَا كانَ في انقطاعٍ منَ الدُّنيا، وإقبالٍ منَ الآخِرةِ، نزَلَ إليهِ مَلاَئِكةٌ منَ السَّماءِ بيضُ الوُجُوه، كأَنَّ وجُوهَهُم الشَّمسُ، معَهَم كفنٌ منْ أكفانِ الجنَّةِ، وحنُوطٌ منْ حَنُوطِ الجنَّةِ، حتى يجلسُوا منهُ مدَّ البصرِ، ثم يَجِيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلِسَ عندَ رأسِهِ فيقُولُ: أَيَّتهَا النَّفسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجِي إلى مغفِرَةٍ منَ اللهِ ورِضوانٍ. قالَ: فتخرُجُ تسِيلُ كمَا تَسيلُ القطرةُ منْ فِي السِّقاءِ، فيأخُذُهَا، فإذا أخذَهَا لمْ يَدَعُوهَا فِي يدِهِ طرفةَ عينٍ، حتَّى يأخُذُوها فيجعلُوهَا في ذلكَ الكفَنِ، وفِي ذلكَ الحنوطِ، ويخرجُ منهَا كأطيبِ نفحةِ مسكٍ وُجدتْ على وجهِ الأرضِ، فيصْعَدُونَ بِهَا فَلاَ يَمُرُّونَ بِهَا علَى ملأ منَ الملائِكَةِ إلاَّ قالُوا: مَا هذِهِ الرُّوحُ الطَّيِّبةُ؟ فيقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلَانٍ، بأحسنِ أَسمائِهِ التِي كانُوا يُسمُّونهُ بها في الدُّنيا، حتَّى ينتهُوا بهِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، فَيستفتِحُونَ لَهُ، فيُفتحُ لَهُ، فيُشيِّعُهُ من كلِّ سماءٍ مُقَرَّبُوهَا إلى السَّماءِ التي تلِيهَا، حتى يُنتهىٰ بهَا إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيقُولُ اللهُ: اكتُبوا كتابَ عبدِي فِي عِلِّيينَ، وأعِيدُوهُ إلى الأرضِ، فإنِّي منها خلقتُهُم، وفِيهَا أُعِيدُهُم، ومِنهَا أُخرِجُهُم تارةً أُخرَىٰ.

قالَ: فتُعادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فيأتِيهِ ملكانِ فيُجلسانهِ فيقُولاَنِ لهُ: من ربُّكَ؟ فيقول: ربِّي اللهُ، فيقُولاَنِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فيقول: دِينيَ الإسلامُ، فيقُولانِ له: مَا هذا الرَّجلُ الذي بُعثَ فِيكُم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللهِ، فيقولاَنِ له: ومَا عِلمُكَ؟ فيقولُ: قرَأتُ كتابَ اللهِ، فآمنتُ بِهِ وصدَّقتُ. فيُنادِي مُنادٍ منَ السَّماءِ: أن صدَقَ عبدِي، فأفرِشُوهُ منَ الجنَّةِ، وألبِسُوهُ منَ الجنَّةِ، وافتحُوا له بابًا إلى الجنَّةِ. قالَ: فيأتِيهِ منْ رَوحِهَا وطيبِهَا ويُفسَحُ لهُ فِي قبْرِهِ مدَّ بصَرِهِ، ويأتِيهِ رجلٌ حسنُ الوجهِ،

حسنُ الثِّيابِ، طيِّبُ الرِّيحِ، فيقُولُ: أبشِرْ بالذِي يسُرُّكَ، هذَا يومُكَ الذِي كُنتَ تُوعدُ، فيقُولُ لهُ: منْ أنتَ؟ فوجهكَ الذي يأتِي بالخيرِ، فيقُولُ: أَنا عملُكَ الصَّالِحُ، فيقُولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعة، رَبِّ أقِمِ السَّاعَةَ، حتى أرجِعَ إلى أهْلِي ومَالِي.

وقالَ: إنَّ العبدَ الكافِرَ إذَا كانَ في انقِطَاعٍ منَ الدُّنيا، وإقبالٍ منَ الآخِرَةِ، نزلَ إليهِ ملائكةٌ من السَّماءِ، سُودُ الوجُوهِ، معهُم المسُوحُ، فجَلسُوا منهُ مدَّ البصرِ، ثمُ يَجِيءُ ملكُ الموتِ فيجلِسُ عندَ رَأْسِهِ، فيقُول: أَيَّتهَا النَّفسُ الخَبِيثَةُ، اخرُجِي إلى سخطٍ منَ اللهِ وغضبٍ، قالَ: فتُفرَّقُ في جَسدِهِ، فينتزِعُهَا كمَا يُنتزَعُ السفُّودُ منَ الصُّوفِ المبلُولِ، فيأخُذها، فإذا أخذَهَا لمْ يدعُوهَا فِي يَدِهِ طرفةَ عينٍ حتَّى يجعلُوها في تلكَ المُسُوحِ، فيخرجُ منهَا كأنْتنِ جِيفةٍ وجدتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بِها، فَلَا يمُرُّونَ بهَا على مَلإٍ من الملائِكةِ إلاَّ قالُوا: مَا هذهِ الرُّوحُ الخبيثَةُ؟ فيقُولُونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ، بأقبحِ أسْمَائِهِ التِي كانَ يُسمَّى بِهَا فِي الدُّنيا، حتى يُنتهَىٰ بهَا إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتحُ لهُ فلَا يفتحُ لهُ». ثم قرأَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. «فيقولُ اللهُ: اكتُبُوا كتابَهُ في سِجِّينٍ، فِي الأرضِ السُّفلَىٰ. فتُطْرَحُ رُوحهُ طرحًا». ثم قرأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١]، «فتعادُ رُوحهُ في جَسدِهِ ويأتِيهِ ملكانِ فيُجلسانِهِ ويقُولانِ لهُ: منْ ربُّكَ؟ فيقُولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أدرِي، فيقُولانِ لهُ: مَا دِينُكَ؟ فيقولُ: هَاهْ هَاهْ لاَ أدرِي، فيقولانِ له: مَا هذَا الرجلُ الذي بُعِثَ فيكُم؟ فيقُول: هَاهْ هَاهْ لاَ أدرِي. فيُنادِي مُنَادٍ منَ السَّمَاءِ: أنْ كذبَ عبدِي، فأفرِشُوهُ منَ النَّارِ، وافتحُوا لهُ بابا إلى النَّارِ، فيأتِيهِ من حرِّهَا وسمومِهَا، ويُضيَّقُ عليهِ قبرُهُ حتَّى

تختلِفَ أضلاَعُهُ، ويأتِيهِ رجلٌ قَبِيحُ الوجهِ قَبِيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقُولُ: أبْشِر بالذي يَسُوؤُكَ، هذَا يومكَ الذي كنت تُوعدُ، فيقولُ: ومنْ أنتَ؟ فوجهُكَ الوجهُ يَجِيءُ بالشَّرِّ، فيقولُ: أنَا عملُكَ الخَبِيثُ، فيقولُ: رَبِّ لاَ تُقِمِ السَّاعةَ»[1]. رواهُ أبو داودَ وابنُ ماجه. وقالَ الحافظُ المُنذِريُّ: هذا الحدِيثُ حديث حسنٌ رُواتُهُ مُحتَجٌّ بهِم فِي الصَّحِيحِ، ورواهُ البيهقِيُّ منْ طرِيقِ المنهالِ بنحوِ رِوَايَةِ أحمدَ، ثم قالَ: هذَا حدِيثٌ صحِيحُ الإسناد.

هذا وصفُ الاحتضارِ وحالةِ الميِّتِ في قبرِهِ إلى يوم القيامةِ، وقد قالَ اللهُ في كتابهِ الكريمِ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ۝١٩ ...﴾ الآيات إلى قوله: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ۝٢٢﴾ [ق: ١٩ ـ ٢٢].

* * *

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) وابن ماجه (٤٢٦٧) من حديث البراء بن عازب.

فِي الحَثِّ عَلَى ذِكْرِ اللهِ

الحمدُ للهِ الذي أَعدَّ للذاكرينَ اللهَ كَثِيرًا والذَّكِرَاتِ مغفِرَة وأجرًا عظِيمًا، وتوعّدَ منْ لَهَا عن ذِكرِهِ - بالمالِ والولدِ - بالخسارةِ والوبالِ، وأحمدُهُ وأشكُرُهُ، وأَستَعِينهُ وأستغفِرُهُ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لَهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورَسُولُه صلى الله عليه وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسْلِيمًا كَثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُو اللهَ، واذْكُرُوهُ يذكُركم.

أَيُّها المسلمونَ، إنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالىٰ قدْ أمرَ بِذِكرِهِ، وعلّقَ الفلاحَ باستدامتِهِ والإكثارِ منهُ، قالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤١ - ٤٣]، وقالَ تعالَىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥]، كما أَثْنَى سبحانهُ على أهلِ ذِكْرِهِ، ووعدهُم أحسنَ الجزاءِ، فقالَ سبحانهُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥]، كما توعَّدَ سبحانهُ منْ لَهَا عنْ ذكرِهِ بأشدِّ الوعيدِ، حيثُ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

أَيُّهَا المسلمُونَ، إنَّ ذكرَ اللهِ أكبرُ منْ كُلِّ شيءٍ؛ قالَ تعَالَى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فهُو أفضلُ الطَّاعاتِ؛ لأنَّ المقصُودَ بالطاعاتِ كُلِّهَا إقامةُ ذكرِهِ، فهُو سِرُّ الطَّاعاتِ ورُوحُها، إنَّ الذَّاكِرِينَ اللهَ هُم أهلُ الانتِفاعِ بآيَاتِهِ، وَهُم أُولُو الألبابِ والعُقُولِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩١].

إنَّ ذِكرَ اللهِ مُصاحِبٌ لجمِيعِ الأَعمالِ، ومُقترِنٌ بِهَا، بلْ هو رُوحُهَا، فإنَّهُ سبحانهُ قَرَنهُ بالصَّلاةِ، كقولِهِ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ [طه: ١٤] وقَرَنَهُ بالصِّيامِ والحجِّ ومناسِكِهِ، بلْ هُو رُوحُ الحجِّ ومقصُودُهُ ولُبُّهُ، كمَا قالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إنَّما جُعِلَ الطَّوَافُ بالبيتِ والسَّعْيِ بينَ الصَّفَا والمروَةِ ورَمْيِ الجِمَارِ لإقامةِ ذِكرِ اللهِ»[1]، كمَا قرنهُ بالجهادِ، وأمرَ بذكْرِهِ عندَ مُلاقاةِ الأقْرانِ ومُكافحةِ الأعداءِ، فقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنفال: ٤٥].

إنَّ ذِكرَ اللهِ هُو خِتَامُ الأعمالِ الصَّالِحَةِ، فهو ختامُ الصِّيامِ، قالَ تعَالَى: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهُو ختامُ الحجِّ؛ قالَ

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٨٨) والترمذي (٩٠٢) من حديث عائشة، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٥٦).

تعالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهُو ختامُ الصَّلاةِ، قالَ تَعالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، وهو ختامُ الجُمعةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة: ١٠]، بلْ هُو ختامُ الدُّنْيا؛ فعنْ مُعاذِ بنِ جبلٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ كانَ آخِرُ كلامِهِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، دخلَ الجنَّةَ»(١)، رواه أبو داودَ، والحاكمُ، وقالَ: صحيحُ الإسنادِ. وروَىٰ مسلمٌ عنْ أَبِي سعيدِ الخُدريِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لقِّنُوا موتَاكُم لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»(٢).

الذاكرونَ اللهَ هُم أهلُ السَّبقِ، كمَا رَوَى مسلمٌ في صحِيحهِ منْ حديثِ العَلاءِ عنْ أَبيهِ عن أَبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يسيرُ في طريقِ مكةَ، فمرَّ على جبلٍ يُقالُ لهُ جُمدَانُ، فقالَ: «سِيرُوا، هذَا جُمدَانُ، سبقَ المفرِّدُونَ»، قالُوا: ومَا المُفرِّدُونَ يَا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِرَاتُ»(٣).

ويكفِي في شرفِ الذكرِ أنَّ الله يُباهِي ملائِكَتَهُ بأهلِهِ؛ رَوىٰ مسلمٌ عنْ مُعاويةَ رضيَ اللهُ عنهُ، أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ خرجَ على حلقةٍ منْ أصحابِهِ، فقالَ: «مَا أجلسَكُمْ؟»، قالُوا: جلسنَا نذكُرُ اللهَ ونحمدُهُ علَى مَا هدَانَا للإسلامِ ومَنَّ بهِ علينَا، قالَ: «آللهِ، مَا أَجلسَكُم إلاَّ ذلكَ؟» قالُوا: آللهِ، مَا أَجلسنَا إلاَّ ذلكَ، قالَ: «أَمَا إِنِّي لمْ أَستحلِفْكُم تُهمةً لكمْ، ولكِنْ أَتَانِي جبرِيلُ فأَخبرنِي أَنَّ اللهَ يُباهِي بكُم

---

(١) أخرجه أبو داود (٣١١٦) والحاكم في المستدرك (١/ ٥٠٣).
(٢) أخرجه مسلم (٩١٦).
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

المَلاَئِكَةَ»[١].

ويَكْفِي شرفًا للذِّكْر: أنَّ البيتَ الذي يُذكَرُ اللهُ فيهِ بمنزلَةِ الحَيِّ، والبيتُ الذي لاَ يُذكَرُ اللهُ فيهِ بمنزلةِ الميِّتِ؛ فَفِي الصَّحيحينِ منْ حدِيثِ أَبِي مُوسَى رضيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ: **«مثلُ الذِي يذكُرُ رَبَّهُ، والذِي لاَ يذكُرُهُ، مثلُ الحَيِّ والميِّتِ»**[٢] ولفظُ مسلمٍ: **«مثلُ البيتِ الذي يُذْكَرُ اللهُ فيهِ، والبيتُ الذي لاَ يذكرُ اللهُ فيهِ، مثلُ الحيِّ والميِّتِ»**[٣]، فتضمَّنَ اللَّفظانِ أنَّ القلبَ الذاكر كالحَيِّ في بُيوتِ الأحياءِ، والقلبَ الغافِلَ كالميِّتِ في بُيوتِ الأمواتِ.

ذكرُ اللهِ تعالَى هُو غِرَاسُ الجنَّةِ؛ كمَا رَوَىٰ الترمذِيُّ عن ابنِ مسعُودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«لَقِيتُ إبراهيمَ ﷺ ليلةَ أُسرِيَ بِي، فقالَ: يَا محمدُ، أَقْرِئْ أُمَّتكَ مِنِّي السلام، وأَخبرهُم أَنَّ الجنَّةَ طيِّبةُ التُّربَةِ، عذْبةُ الماءِ، وأَنَّها قِيعَانٌ، وأَنَّ غِرَاسَها: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، ولاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ»**[٤]. قالَ الترمذِيُّ: حديثٌ حسنٌ.

ذِكرُ اللهِ سبحانَه يملأُ ميزانَ العبدِ يومَ القيامةِ؛ فعنْ أَبِي مالِكٍ الأشعرِيِّ رضِيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: **«الطُّهُورُ شطرُ الإيمانِ، و«الحمدُ للهِ» تمْلأُ الميزانَ، و«سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ» تملآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بينَ السَّمواتِ والأرضِ»**[٥]. رَواهُ مسلمٌ.

ذكرُ اللهِ سبحانهُ حِصْنٌ حصِين يحرزُ بهِ العبدُ نفسهُ منَ الشَّيطانِ؛ فقدْ قالَ ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).
(٣) صحيح مسلم (٧٧٩).
(٤) سنن الترمذي (٣٤٥٨).
(٥) صحيح مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

في الحديثِ الذي رَواهُ الإمامُ أحمدُ والتِّرمذيُّ: «**وآمركُم أنْ تَذكُروا اللهَ تعالَى، فإنَّ مثلَ ذلكَ مثلُ رجُلٍ خرجَ العدُوُّ في أَثَرِهِ سِرَاعًا، حتَّى إذَا أتَىٰ على حِصنٍ حصِينٍ فأَحرزَ نفسَهُ منهُم، كذلِكَ العبدُ لاَ يُحرزُ نفسهُ منَ الشيطانِ إلاَّ بذكرِ اللهِ**»(١)، فلَو لمْ يكُن في الذِّكرِ إلاَّ هذهِ الخصلَةُ الواحدةُ، لكانَ حقِيقًا ألاَّ يفترَ لِسانُهُ منْ ذِكرِ اللهِ تعالَى، وألا يَزالَ لهجًا بذِكرهِ، فإنَّهُ لاَ يحرزُ نفسهُ منْ عَدُوِّهِ إلاَّ بالذِّكرِ، ولاَ يدخُلُ عليهِ العدُوُّ إلاَّ منْ بَابِ الغفلَةِ، فهُو يرصُدُهُ، فإذا غفلَ وثبَ عليهِ وافترسهُ، وإذَا ذكرَ الله تعالَى انخنَسَ عدوُّ اللهِ وتصاغرَ وانقمعَ، ولهَذَا سُمِّيَ: (الوسواس الخناس)؛ أَي: يوسوسُ في الصُّدُورِ، فإذا ذُكرَ اللهُ تعالَى خَنَسَ؛ أَيْ: كَفَّ وانقبضَ.

وقد أمرَ اللهُ بالإكثارِ منْ ذِكرهِ، لشدَّةِ حاجةِ العبدِ إليهِ، وعدَمِ استغنائِهِ عنهُ طرفَةَ عينٍ، فأيُّ لحظةٍ خلاَ فِيهَا العبدُ عن ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ كانتْ عليهِ لاَ له، وكانَ خُسرانُهُ فيها أعظمَ مِمَّا ربِحَ في غفلتِهِ عن ذكرِ اللهِ. ولاَ رَيبَ أنَّ القلبَ يصدَأُ كمَا يصدأُ النُّحاسُ والحديدُ وغيرهُما، وَجلاؤُه بالذِّكرِ، فإنَّهُ يجلُوهُ حتَّى يدَعهُ كالمِرآةِ البيضاء، فإذا تركَ صَدِئ وإذَا ذكرَ العبدُ ربَّهُ جلاَ عنْ قلبِهِ ذلكَ الصَّدَأ.

وصدَأُ القلبِ بأمرينِ: بالغفلةِ، والذَّنبِ، وجلاَؤُهُ بشيئَينِ: بالاستغفارِ، والذِّكرِ. فمن كانت الغفلةُ أغلب أوقاتِهِ، كانَ الصَّدأُ مُتراكِمًا على قلبهِ، وصدؤه بحسب غفلته وإذا صَدِئ القلب لم تنطبعْ فيه صورُ المعلوماتِ على ما هي عليه؛ فيرى الباطلَ في صُورةِ الحقِّ، والحقَّ فِي صُورةِ الباطلِ؛ لأنَّهُ لمَّا تراكمَ عليهِ الصَّدأُ أَظلمَ، فلْم تظهرْ فِيه صُورُ الحقائِقِ كمَا هِيَ عليهِ، فإذَا تراكمَ عليهِ الصَّدأُ

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٧١٨، ١٧٣٤٤)، والترمذي (٢٨٦٣) من حديث الحارث الأشعري.

واسودَّ وركبهُ الرَّانُ، فسدَ تصوُّرُهُ وإدراكهُ، فَلاَ يقبلُ حقًّا، ولاَ يذكرُ باطِلاً، وهذَا أعظمُ عُقوباتِ القلبِ.

ومن أَعظمِ مَا يُحيي ذكرَ اللهِ فِي القُلُوبِ حُضورُ المساجِدِ، وانتظارُ الصلاةِ فِيهَا، وقراءَةُ القُرآنِ واستماعُهُ، وإقامةُ الصَّلواتِ، وحُضورُ مجالسِ الذِّكرِ.

ومنْ أعظَمِ مَا يصُدُّ عن ذِكرِ اللهِ الابتعادُ عنِ المساجِدِ، والتكاسُلُ عن الطَّاعاتِ، وهجرُ القرآنِ، وكثرةُ الاشتغالِ بالدُّنيا وطلب المالِ، واستماعُ المَلاَهِي والنَّظَرُ إليهَا، والقِيلُ والقالُ، وكثرةُ الضَّحكِ، وأعظَمُ من ذلكَ أكلُ الحرامِ.

فاتقُوا اللهَ أَيُّهَا المسلمونَ، ولاَزِمُوا ذِكرَ اللهِ، وأكثرُوا منهُ لعلَّكُم تُفلِحونَ.

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ ﴾ [المنافقون: ٩].

بارِكَ اللهُ لِي ولكُم في القُرآنِ العظِيمِ، ونفعنَا بمَا فيهِ منَ الآياتِ والذِّكرِ الحكِيمِ، أقُولُ قولِي هذا، وأسْتغفِرُ اللهَ العظِيمَ الجليلَ لِي ولكُمْ ولجميعِ المسلمينَ.

الخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فِي بيانِ موَاضِعَ يُشرَعُ ذِكْرُ اللهِ فِيهَا:

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ، والعاقبَةُ للمتَّقِينَ، ولاَ عُدوانَ إلاَّ على الظَّالِمينَ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ في رُبُوبيتهِ وإِلٰهِيَّتِهِ وأسمائهِ وصفاتِهِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسُوله، كانَ أكملَ الخلقِ ذِكرًا للهِ عزَّ وجلَّ، بلْ كانَ كلُّ كلامِهِ ذِكرًا للهِ ومَا والاهُ، فكانَ ذَاكرًا للهِ في كلِّ أحيانِهِ، وعلى جميعِ أحوالِهِ، وكانَ ذِكرُهُ للهِ يجرِي معَ أنفاسهِ، قائِمًا وقاعدًا وعلى جنْبِهِ، وفِي مشيِهِ ورُكُوبهِ،

ومسيرِهِ وَنُزُولِهِ، وظَعنِهِ وإقامتِهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ مُلازمَةَ ذِكرِ اللهِ دائِمًا هي أفضلُ مَا شغلَ العبدُ بهِ نفسهُ في الجملةِ، يدُلُّ علَى ذلكَ حديثُ أبِي الدَّرْداءِ رضِيَ اللهُ عنهُ عنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: **«أَلاَ أُنبِئُكُمْ بخيرِ أعمالِكُم، وأزْكاهَا عندَ مليكِكُم، وأَرفعِهَا في درجاتِكُم، وخير لكم منْ إعطاءِ الذَّهب والوَرِقِ، ومنْ أنْ تلقوا عدُوَّكُم، فتضرِبُوا أعنقاهَم ويضرِبُوا أعناقكُم؟!»** قالُوا: بلَى يا رسولَ اللهِ، قالَ: **«ذكرُ اللهِ»** رواه الترمذي[1].

وأَقلُّ قدرٍ منَ الذِّكرِ يُلازمُهُ الإنسانُ الأذكارُ المُؤقَّتةُ؛ أي المُخصَّصَةُ بأوقاتٍ مُعيَّنةٍ، كالأذكارِ التي تُقالُ في أوَّلِ النَّهارِ، والأذكارِ التي تقالُ في آخرِهِ، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ أخذ المضجعِ للنَّومِ، والأذكار التي تقال عند الاستيقاظ من المنام، والأذكار التي تقال في أدبار الصلوات، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ الأَكلِ والشُّربِ واللِّباسِ، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ دُخُولِ المنزلِ والخُرُوجِ منهُ، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ دُخُولِ المسجِدِ والخُرُوجِ منهُ، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ دُخُولِ الخلاءِ والخُرُوجِ منهُ، والأذكارُ التي تُقالُ عندَ نُزُولِ المطرِ، وعندَ سماعِ صوتِ الرَّعدِ، وهُبُوبِ الرِّياحِ، والأذكارِ التي تُقالُ عندَ الرُّكُوبِ، وعندَ السَّفرِ والقُدُومِ منهُ، وقدْ أُلِّفَتْ في ذلكَ كُتُبٌ مختصرَةٌ بإمكانِ المسلمِ أنْ يقتنِيهَا وينظرَ فيها، مثلُ كتابِ «الأذكارِ» للنَّوويِّ، وكِتابِ «الوَابلِ الصَّيِّبِ» لابنِ القيِّمِ،

---

(١) سنن الترمذي (٣٣٧٧).

وغيرِهِمَا منَ الكُتُبِ المسمَّاةِ بعملِ اليومِ واللَّيلةِ.

ثمَّ إنَّه ينبغِي للمسلمِ أنْ يُلازمَ الذِّكرِ المُطلقَ، الذِي لاَ يتخصَّصُ بوقتٍ، مثلَ: سُبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ، واللهُ أكبرُ، ولاَ حولَ ولاَ قوَّةَ إلاَّ باللهِ. وأفضلُ الذِّكرِ: «لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ» فأكثِرُوا منْ ذكرِ اللهِ لعلَّكُم تُفلِحُونَ.

ثمَّ اعلمُوا أيُّهَا المسلمونَ، أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وخيرَ الهَدْيِ هديُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأمُورِ محدثَاتُهَا، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وعليكُم بالجماعةِ، فإنَّ يدَ اللهِ مَعَ الجماعةِ، ومنْ شذَّ شَذَّ في النَّارِ.

ثمَّ اعلمُوا أنَّ اللهَ سبحانهُ قدْ أمرَكُم بأمرٍ بدأَ فيهِ بنفسِهِ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]، اللَّهُمَّ صلِّ وسلمْ على نبيِّنَا محمدٍ، صَاحِبِ الوجهِ الأنورِ والجَبينِ الأزهرِ، وارضَ اللَّهُمَّ عن خُلفائِهِ الرَّاشِدِينَ أَبِي بكرٍ وعُمرَ وعُثمانَ وعليٍّ، وارضَ اللَّهُمَّ عنْ بقيَّةِ أصحابِ نبيِّكَ أجمعِينَ، وعنِ التَّابعينَ وتابِعِي التَّابعِينَ، والتَّابعِينَ لهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ.

اللهُمَّ أعزَّ الإسلامَ والمسلمينَ، وأذِلَّ الشِّركَ والمُشرِكينَ، ودَمِّر أعداءَ الدِّينِ، وانصُر عِبَادَكَ المُوحِّدينَ، اللهُمَّ انصر دينكَ وكِتَابَكَ وسُنَّةَ نبيِّكَ وعبادكَ المُؤمنينَ، اللَّهُمَّ أبْرِم لهذِهِ الأُمَّةِ أَمرَ رُشدٍ، يعزُّ فيهِ أهلُ طاعتِكَ، ويُذلُّ فيهِ أهلُ معصِيتكَ، ويُؤمرُ فيهِ بالمعرُوفِ، ويُنهَى فيهِ عنِ المُنكَرِ، يَا سَمِيعَ الدُّعاءِ.

اللهُمَّ وَلِّ علَى المسلمينَ خيارَهُم، وَاكفِهِم شرَّ شِرَارِهِمْ، واهدِ ضالَّهُمْ، واشفِ مرضاهُم، وجَلِّلْ برحمتِكَ أحياءَهُم وأمواتهُم. رَبَّنَا اغفِرْ لنَا ولإخوانِنَا الذينَ سبقُونَا بالإيمانِ، ولاَ تجعلْ في قُلُوبنا غلاً للذينَ آمنُوا، ربَّنَا إنَّكَ رؤُوفٌ رحيمٌ. ربَّنَا آتِنَا في الدُّنيَا حسنةً، وفي الآخرةِ حسنةً، وقِنَا عذابَ النارِ.

عِبادَ اللهِ: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩٠، ٩١]، فاذكُروا اللهَ العظِيمَ الجليلَ يذكُركُم، واشكُرُوهُ على نعمِهِ يزِدكُم ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: ٤٥].

* * *

فِي الحَثِّ عَلَى الأَكْلِ مِمَّا أحلَّ اللهُ

الحمدُ للهِ القائلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣]. وأشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لاَ حلالَ إلاَّ مَا أَحلَّهُ، ولاَ حرَامَ إلاَّ مَا حرَّمهُ، ولاَ دينَ إلاَّ مَا شرعَهُ. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورَسُولُهُ، حَثَّ عَلَى الأكلِ منَ الحلاَلِ وحذَّرَ من الأكلِ منَ الحرام، فقالَ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إنَّ اللهَ طيبٌ لاَ يقبلُ إلاَّ طيِّبًا، وإنَّ اللهَ أمرَ المؤمنينَ بِمَا أمرَ بِهِ المُرسَلِينَ، فقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾** [المؤمنون: ٥١]، **وقالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكرَ الرَّجلَ «**يُطيلُ السَّفرَ، أَشعثَ أَغبرَ، يمُدُّ يديهِ إلى السَّماءِ: يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، ومطعَمُهُ حرامٌ، ومشربُهُ حرامٌ، وملبسُهُ حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرامِ، فأنَّى يُستجابُ لذلكَ**» رواهُ مسلمٌ[1]. فصلَّى اللهُ على هذَا النَّبِيِّ الكريمِ، الذِي لمْ يدعْ خيرًا إلاَّ دلَّ الأُمَّةَ عليهِ، ولاَ شرًّا إلاَّ حذَّرهَا منهُ، وسلَّم تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ: أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ لإطابَةِ المطعَمِ أثرًا بالغًا على الإنسانِ فِي سُلُوكِهِ وحياةِ قلبِهِ، واستنارَةِ بصيرَتِهِ، وقبُولِ دُعائِهِ، وأَنَّ لِخُبثِ المطعَمِ أثرًا سيئًا على الإنسانِ، ولَوْ لمْ يكُن منْ ذلكَ إلاَّ عدم قبُولِ دُعائِهِ لكفَى

---

(١) صحيح مسلم (١٠١٥) من حديث أبي هريرة.

ذلكَ زاجرًا، فإنَّ العبدَ ليسَ لهُ غِنًى عنْ دُعاءِ ربِّهِ طرفةَ عينٍ.

إنَّ المُحرَّمَ إمَّا أنْ يكونَ تحريمهُ لخُبثِهِ في ذاتِهِ، لكونِهِ يُغذِّي تغذيةً خبيثةً، كالميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزيرِ. وإمَّا أنْ يكونَ محرَّمًا لحقِّ اللهِ أوْ حقِّ عبادِهِ كالمكاسِبِ المحرَّمةِ، من الرِّبَا والقمَارِ والسَّرقةِ، والغِشِّ في البيعِ والشِّراءِ، والغش في العملِ الذي استُؤجرَ عليهِ، ومَا أُخذَ بطريقِ الرِّشوةِ أو الخِيانةِ في العملِ الذي أُسندَ إليهِ.

إنَّ اللهَ قدْ أغنَى المُؤمنَ بحلاَلِهِ عنْ حرَامِهِ، وبفضلِهِ عمَّنْ سِوَاهُ، فمَا حرَّمَ عليهِ شيئًا منَ الخبائِثِ إلاَّ وقدْ أباحَ لهُ من الطَّيِّباتِ مَا هو خيرٌ منهُ وأضعافُ أضعافِهِ. إنَّ منهجَ الإسلامِ في الأطعمةِ كمنهجِهِ في جميعِ المجالاتِ، منهجُ السَّماحةِ والحِفَاظِ على سلامةِ الأروَاحِ والأبدانِ والعُقُولِ، فَيبيح الطَّيِّباتِ منَ الأطعمةِ النَّافعةِ للأبدانِ والعُقُولِ، ويُحرِّمُ الخبائِثَ الضَّارَّةَ للأبْدانِ والعُقُولِ. أمَرَ اللهُ سبحانهُ عبادهُ أنْ يأكُلُوا منْ طيِّباتِ مَا رزقَهُمْ، وأنْ يشكُرُوهُ على ذلكَ، فقالَ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٢].

وشُكرُ النِّعمةِ يكونُ باعترافِ القلبِ أنَّهَا منَ اللهِ وحدهُ، وتحدُّثِ اللِّسانِ بذلكَ، والاستعانةِ بهَا على طاعةِ اللهِ، وإذا تحقَّقَ الشُّكرُ انتفى الأَشرُ والبَطَرُ، وصارتْ هذِه النِّعمُ قوامًا للحياةِ السَّعيدةِ، وعونًا على الطَّاعةِ. وَإذَا لمْ يتحقَّقِ الشُّكرُ صارتْ هذه النِّعمُ استِدرَاجًا لِلخلقِ، حتَّى يَحِيقَ بهِم الهلاكُ والدَّمارُ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

إنَّ اللهَ سبحانهُ يُريدُ من عبادِهِ أنْ يترفَّعُوا عنِ التَّغذِّي بالخبائِثِ؛ لأنَّ الغذاءَ

الخَبيثَ يغذِّي تغذيةً خبيثةً، تُؤثِّرُ على القُلوبِ والطِّباعِ، وتحجُبُ العبدَ عنْ رَبِّهِ، فلاَ يُرفعُ لَهُ دُعاءٌ.

إنَّ اللهَ تعالَى أَنزلَ على نبيِّهِ الكتابَ، وبيَّنَ فيهِ للأُمَّةِ مَا تحتاجُ إليهِ منْ حلالٍ وحرامٍ، كمَا قالَ تعَالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ووكَّلَ سبحانهُ بيانَ مَا أشكلَ منَ التَّنزيلِ إلى الرَّسولِ ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وما قبض رسول الله ﷺ حتَّى أكملَ اللهُ لَهُ ولأُمَّتهِ الدِّينَ، فعنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ تعالَى عنهُما قالَ: سَمعتُ رسولَ اللهَ ﷺ يقُولُ: «**إنَّ الحلالَ بيِّنٌ، وإنَّ الحرَامَ بَيِّنٌ، وبينهُما أُمُورٌ مشتبهاتٌ لاَ يعلمُهنَّ كثيرٌ من النَّاسِ، فمنِ اتَّقى الشُّبهاتِ فقدِ استبرأَ لدِينِهِ وعرضِهِ، ومنْ وقعَ في الشُّبُهاتِ وقعَ في الحرامِ، كالرَّاعِي يرعىٰ حولَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أنْ يرتعَ فِيهِ، ألاَ وإنَّ لِكُلِّ ملكٍ حِمى، ألاَ وإنَّ حِمَى اللهِ محارمُهُ، ألاَ وإنَّ في الجسدِ مُضغةً إذا صَلَحتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّهُ، وإذا فسدَتْ فسدَ الجسدُ كُلُّهُ، ألا وهي القلبُ**» رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ[1].

ومعناه: أنَّ الحلالَ الخالِصَ بيِّنٌ لاَ اشتِباهَ فيهِ، مثل أكلِ الطَّيِّباتِ، وكذلكَ الحرامُ الخالصُ ـ مثلُ الخبائِثِ منَ الأعيانِ والمكاسِبِ ـ بيِّنٌ لاَ اشتِباهَ فيهِ. وبَيْنَ الأمرينِ أُمورٌ تشتبهُ على كثيرٍ منَ الناسِ، هلْ هي منَ الحلالِ أو الحرامِ، وأمَّا الرَّاسِخُونَ في العلمِ فلاَ تشتبِهُ عليهِم، ويعلمُونَ من أيِّ القسمينِ هِي.

وموقفُ المسلمِ منْ هذِه الأقسامِ الثلاثةِ: أنْ يأخُذَ الحلالَ، ويترُكَ الحرامَ، ويتوقَّفَ في المُشْتبِهِ، حتَّى يتبيَّنَ لهُ حُكمهُ؛ احتياطاً لدينِهِ وعِرضِهِ؛ لأنَّ تناوُلَ

---

(١) صحيح البخاري (٥٢، ٢٠٥١)، وصحيح مسلم (١٥٨٨).

المُشتَبهِ يجُرُّ إلى تناوُلِ الحرام بالتَّدريجِ، لأنَّ ارتكابَهُ للشُّبهةِ ذريعةٌ إلى ارتكابهِ الحرام، ومنْ تهاونَ بالصَّغائرِ يُوشِكُ أنْ يُخالطَ الكبائِرَ. وفي هذا الحديثِ دلالةٌ واضحةٌ على خطورةِ الحرام منْ ناحيتينِ:

الناحيةُ الأُولى: طلبُهُ ﷺ ترك المشْتَبهِ خشيةَ الوقُوعِ في المُحرَّمِ.

النَّاحِيةُ الثَّانِيَةُ: إخبارُهُ ﷺ أنَّ المحارِمَ هِي حِمَى اللهِ الذِي لاَ تجُوزُ استِباحَتُهُ، فاللهُ سُبحانهُ وتعالَىٰ حمَى هذِه المحرَّماتِ، ومنعَ عبادَهُ منْ قُربانِهَا، وسمَّاهَا حُدودَهُ، فقالَ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة: ١٨٧].

وروَى الحافِظُ ابنُ مردويهِ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: تَلوتُ هذِه الآيةَ عندَ النبيِّ ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨] فقامَ سعدُ بنُ أَبِي وقاصٍ فقالَ: يَا رسول اللهِ، ادعُ اللهَ أنْ يجعلَنِي مستجابَ الدَّعوةِ، فقالَ: **«يا سعدُ، أطِبْ مطعمكَ تكُن مُستجابَ الدَّعوةِ، والذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، إنَّ الرجلَ ليقذِف اللُّقمَةَ الحرامَ في جوفِهِ مَا يُتقبَّلُ منهُ أربعِينَ يومًا، وأَيُّمَا عبدٍ نبتَ لحمهُ منَ السُّحت والرِّبَا، فالنَّارُ أَولَى بهِ»**[١].

وروى البُخاريُّ في صحيحِهِ عنْ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنهَا قالتْ: كانَ لأَبِي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ غُلامٌ يخرجُ لَهُ الخَرَاجَ، وكانَ أَبُو بكرٍ يأكُلُ منْ خراجِهِ، فجاء يومًا بِشيءٍ، فأكلَ منهُ أَبُو بكرٍ، فقالَ لهُ الغُلامُ: تدرِي مَا هذَا؟ فقالَ أَبُو بكرٍ: ومَا هو؟ فقالَ: كُنتُ تكهَّنتُ لإنسانٍ في الجاهِليَّةِ، ومَا أُحسنُ الكهانَةَ، إلاَّ أني خدعتُهُ، فلقِيَنِي فأعطانِي لذلكَ هذا الذي أكلتَ منهُ، فأدخلَ أَبُو بكرٍ يدَهُ فقاءَ كلَّ شيءٍ في بطنِهِ[٢].

---

(١) تخريجه في الضعيفة (١٨١٢).

(٢) صحيح البخاري (٣٨٤٢).

وروى الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ منْ حدِيثِ ابنِ مسعودٍ رضِيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «ولاَ يَكسِبُ عبدٌ مالاً حرامًا فيتصدَّق بهِ فيُقبلُ منهُ، ولاَ ينفقُ منهُ فيُبارِكُ لهُ فيهِ، ولاَ يتركُهُ خلفَ ظهرِهِ إلاَّ كانَ زَادَه إلى النَّارِ. إنَّ اللهَ تعالَى لاَ يمحُو السَّيِّئَ بالسَّيِّئِ، ولكِن يمحُو السَّيِّئَ بالحسنِ، إنَّ الخَبيثَ لاَ يمحُو الخَبيثَ»[١].

وعنْ أَبِي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «يأتِي على الناسِ زمانٌ لاَ يُبالي المرءُ مَا أخذَ أَمِنَ الحلالِ أَمْ منَ الحرام»[٢]. رواهُ البخاريُّ.

عِبادَ اللهِ: إنَّ المكاسِبَ المحرَّمةَ شر وفتْنةٌ، وتعبٌ في الدُّنْيَا، ونارٌ وعذابٌ في الآخرةِ، وقدْ صحَّ في الحديثِ عنْ رسُول اللهِ ﷺ أَنَّ العبدَ يُسألُ يومَ القيامةِ عن مَالِهِ: منْ أينَ اكتسبَهُ؟ وفيمَ أنفقَهُ[٣]؟ وإنَّ المكاسِبَ المحرَّمةَ قدْ كثُرتْ في هذَا الزَّمانِ، وصارَ كثيرٌ من النَّاسِ ـ بِدافعِ حُبِّ المالِ ـ لاَيُبالِي منْ أينَ اكتسبَ المالَ، وبدافعِ شهوةِ نفسهِ لاَ يُبالِي فيمَ أنفقَ المالَ، لاَ يُفكِّرُ في العاقبةِ، ولاَ يخافُ منَ المسؤوليَّةِ، فهُو يأخُذُ المالَ بطريقِ الغِشِّ والخديعةِ في المُعاملاَتِ، يأخُذُ المالَ بطريقِ الخيانةِ فِيمَا وَلِيَ منْ أعمالٍ، فالمُوظَّفُ يخُونُ في وظِيفتهِ، ويتساهلُ في أداءِ عملِهِ، والمُقاولُ يخُونُ في مُقاولتِهِ، ولاَ يُتمِّمُ المواصفاتِ المطلُوبةَ منهُ، ولاَ يتقِنُ العملَ، والتَّاجرُ يزيدُ في السِّعرِ منْ غيرِ مُبرِّرٍ، ويكتُمُ مَا في السِّلعةِ منْ عُيوبٍ، ويبخسُ الكيلَ والوزنَ، أَوْ يَبِيعُ موادَّ محرَّمةً، كآلاتِ اللَّهوِ والدُّخانِ، أو يتعاملُ بِالرِّبَا، والأجِيرُ يبخسُ العملَ الذي استُؤجِرَ لهُ ويأخُذُ

---

(١) مسند أحمد (٣٦٦٣).

(٢) صحيح البخاري (٢٠٥٩، ٢٠٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٣٠٠).

الأُجرةَ كاملة، والموظفُ يأخُذُ الرِّشوةَ أوْ يغُلُّ منَ المالِ الذِي جُعلَ في يدِهِ لمصالحِ المسلمينَ. إنَّها جرائمُ يندىٰ لها الجبينُ، ويتوقَّفُ القلمُ واللِّسانُ عنْ تعدَادِهَا استحياءً!

فاتقُوا اللهَ أيُّها المسلمونَ، وتذكَّرُوا الوقوفَ بينَ يديِ اللهِ في يومٍ لاَ ينفعُ فيهِ مالٌ ولاَ بنُونَ، إلاَّ منْ أتَى الله بقلبٍ سليمٍ.

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾ [النساء: ٢٩، ٣٠].

بَارَكَ اللهُ لِي ولكُم

* * *

فِي تحرِيمِ شُربِ الدُّخانِ

الحمدُ للهِ الذِي أَحلَّ لنَا الطَّيِّباتِ، وحرَّمَ علينَا الخبائِثَ، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، نهَىٰ عبادَهُ عمَّا يضُرُّ أبدانَهُم وينقص أديانَهُم، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، نهَى أُمَّتهُ عن كلِّ مُسكرٍ ومُفترٍ، حِفاظًا على صِحَّتِها وحرصًا على سلامتهَا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابهِ، وسلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ: اتقُوا اللهَ واشكُرُوهُ، إنَّ اللهَ سبحانهُ قدْ أغناكُم بحلالِهِ عنْ حرامِهِ، وأَباحَ لكُمْ منَ الطَّيِّباتِ مَا تقُومُ بهِ مصالِحُكُم الدِّينيَّةُ والبدنِيَّةُ، وحرَّمَ عليكُم الخبائِثَ، لأنَّهَا تضُرُّكُم، فالتَّغذِّي بالطَّيِّباتِ يكُونُ لهُ أثرٌ حميدٌ في صحَّةِ الإنسانِ وسُلُوكِهِ؛ لأنَّهَا تُغذِّي تغذِيةً طيبةً، والتَّغذِّي بالخبائِثِ يكونُ لهُ أثرٌ خبيثٌ في الأبدانِ والسُّلوكِ؛ لأَنَّهَا تُغذِّي تغذيةً خبيثَةً.

ألاَ وإنَّ منَ الخبائِثِ التِي ابتُلِيَ بِهَا مجتمعُ المسلمينَ اليومَ هذَا الدُّخانُ الخبِيثُ، الذي فَشَا شُرْبُهُ فِي الصِّغارِ والكبارِ، وصارَ شُرَّابُهُ يُضايقُونَ بهِ الناسَ، ويؤذونَ بهِ الأبرياءَ، منْ غيرِ خجلٍ ولاَ حياءٍ، بحيثُ إنَّ أحدَهُم يملأُ فمَهُ منهُ، ثم ينفُثُهُ في وجُوهِ الحاضِرِينَ، منْ غيرِ احترامٍ لهُمْ ولاَ مُبالاةٍ بحقِّهم، لأنَّهُ يتَضايقُ منهُ، فيريدُ التَّخلُّصَ منهُ ولو آذىٰ بهِ الآخرينَ، فتُخيِّمُ على الحاضِرينَ حولهُ سحابةٌ قاتمةٌ منَ الدُّخانِ الخانقِ المُلوَّثِ بالرِّيقِ القذرِ والرَّائحةِ الكريهةِ، ومصدرُ ذلكَ كُلِّهُ فمُ المُدخِّنِ البَذِيء الذِي لاَ يُراعِي لمُجالسِيهِ حُرمةً، ولاَ يُفكِّرُ في وخِيمِ فعلِهِ، ولو أنَّ إنسانًا تنفَّسَ في وجهِ هذا المُدخِّنِ، أو بصقَ، أوِ امتخطَ

أمامهُ، كمْ يكونُ تألُّمهُ وتضرُّرُهُ واستنكارُهُ لهذا الفعلِ؟ وهُو يفعلُ أقبحَ منْ ذلِكَ بمُجالِسيهِ، فَمَجُّ الدُّخانِ في وجُوهِهِم أعظمُ منْ ذلكَ بأضعافٍ، ولكنَّ الأمرَ كمَا جاءَ في الحديثِ الشَّريفِ: «إذَا لمْ تستحِ فاصنعْ مَا شِئتَ»[1].

عِبادَ اللهِ: كمْ تعالت الأصواتُ في إنكارِ شُربِ الدُّخانِ؟ وكمْ صدرَتْ التَّحذِيراتُ الطِّبيَّةُ منْ أضرارِهِ؟ وكمْ صدرَ منَ الفتاوى الشَّرعيَّةِ بتحريمهِ، وكمْ أُلِّفَ منَ الكُتُبِ والرَّسائِلِ ببيانِ مفاسِدِهِ، ومعَ هذَا كُلِّهِ فشاربُوهُ لاَ يُجيبُونَ داعِيًا، ولاَ يُصغُونَ لِناصِحٍ؛ لأنَّهُ قدْ أسرَهُم، وأحكمَ أسرَهُم، فلاَ يستطيعُونَ منهُ خلاصًا، إلاَّ بالإيمانِ وصدقِ العزيمةِ وشهامةِ الرُّجولةِ، وهذِه صفاتٌ يفقدُهَا كثيرٌ من النَّاسِ.

والكُفَّارُ يدفعُونَ هذَا الدُّخانَ إليْنَا، ويُروِّجُونَهُ في أسواقِنَا، لعِلمِهِم أنَّهُ سلاحٌ قاتِلٌ يهدمُ الأجسامَ ويقضِي على الصِّحَّةِ، ويجْنِي على أخلاقِ الشَّبابِ، وبالتالي يستنزفُونَ بهِ ثرواتِ بلادِنَا، ومَا يُدرِيكُم أَنَّ مزارِعَ الدُّخانِ ومصانِعَهُ إنَّمَا تقُومُ على تلكَ المبالغِ الطَّائلةِ التي يدفعُهَا السُّذَّجُ في سبيلِ الحصولِ عليهِ، وبئسَ مَا اشترَوا لأنفُسِهِم.

أَيُّهَا المُسلِمُونَ: إنَّ شُربَ الدُّخانِ ضارٌّ للبدنِ والدِّينِ والمالِ والمجتمعِ، ومعلومٌ أنَّ نوعًا واحِدًا من هذِهِ المضارِّ يقتضِي تحريمه والابتعادَ عنه، فكيفَ إذا اجتمعتْ فيهِ تلكَ المضارُّ؟ وإليكُم بيانَ تِلكَ المضارِّ واحدةً واحِدَةً..

أَمَّا ضرَرُهُ فِي البدَنِ:

فلأَنَّهُ يضعِفُهُ بوجهٍ عام ويضعفُ القلبَ، ويحدِثُ مرضَ السَّرطانِ، ومرضَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠) من حديث أبي مسعود البدري.

السُّلِّ، ومرضَ السُّعالِ في الصَّدرِ، ويُسوِّدُ الأسنانَ، ويُسبِّبُ بلاءَهَا وتحطُّمَها وتآكُلَهَا بالسُّوسِ، ويُسبِّبُ انهيارَ الفمِ والبُلعُوم ومداخلِ الطَّعامِ والشَّرَابِ، حتَّى يجعلهَا كالفحمِ المُنهارِ المحترقِ. واسأَلُوا عنْ ذلكَ كلِّهِ المُتخصِّصينَ منَ الأطبَّاءِ واقرؤُوا نشراتِهِم الطِّبِّية حولَهُ.

وأمَّا ضررُهُ في الدِّينِ: فإنَّهُ يُثقلُ على العبدِ العبادَاتِ، والقيامَ بالطَّاعاتِ، خُصُوصًا الصِّيامَ، والجُلُوسَ في المساجدِ، وحُضُور مجالِسِ العلمِ. ومَا كَرَّهُ العبدَ للخيرِ فإنَّهُ شرٌّ. وكذلكَ هُو يدعُو متعاطِيه إلى مُخالَطَة الأرذالِ والسُّفهاءِ، والابتعَادِ عنِ الأخيارِ، وإذَا سرَى تعَاطِي الدُّخانِ في الشَّبابِ سَقَطُوا بالمرَّةِ، ودخَلُوا في مدَاخِلَ قبيحةٍ، فتهوَّرَتْ أخلاقُهُم، وتحطَّمتْ معنويَّاتُهُم، ونشَئُوا نشأةً سيِّئَةً.

وأمَّا ضررُهُ فِي المالِ:

فَاسألْ منْ يتعاطَاهُ كمْ يُنفِقُ فِيهِ كلَّ يومٍ منَ الرِّيالاتِ؟ وقدْ يكونُ فقِيرًا ليسَ عندَهُ قُوتُ يومِهِ وليلتِهِ، ومعَ هذَا يقدِّمُ الدُّخانَ على شراءِ غيرِهِ من الضَّرُورِيَّاتِ، ولو ركِبتهُ الدُّيونُ الكثيرةُ، فيحرمُ نفسهُ ـ ورُبَّمَا يحرِمُ أولادَهُ ـ التَّمتُّعَ بالطَّيِّباتِ، ويستبدِلُ بذلِكَ التَّمتُّعَ بالدُّخانِ، الذِي لاَ يُسمِنُ ولاَ يُغنِي من جوعٍ. هذَا حالُ الفقِيرِ.

وأمَّا الغنيُّ فإنَّه يُبذِّرُ المالَ الكثِيرَ في شِرَاءِ هذا الدُّخانِ، ومعلومٌ أنَّ الإسراف حرامٌ، وأنَّ المُبذِّرِينَ إخوانُ الشَّياطينِ.

وأمَّا ضررُ شُربِ الدخانِ في المجتمعِ:

فإنَّ شَارِبَ الدُّخانِ يُسِيءُ إلى مُجتَمعِهِ، ويُسِيءُ إلى كلِّ منْ جالسَهُ وصاحبَهُ، بحيثُ ينفُخُ الدُّخانَ في وجُوهِ النَّاسِ، فيَخْنقُ أنفاسَهُم، ويُضايقُهُم

برائحتِهِ الكريهةِ، حتَّى يفسُدَ الجوُّ منْ حولِهم، وامتدَّ هذا الأذىٰ فصارَ يُلاحقُ الناسَ في المكاتِب والمتاجِرِ، وحالَ رُكُوبِهِم في السَّيَّاراتِ والطَّائِرَاتِ، وقدْ ورَدَ في الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «**منْ آذَىٰ مُسلِمًا فقدْ آذانِي، ومنْ آذانِي فقدْ آذى اللهَ**»[١] رواه الطَّبرانِيُّ بإسنادٍ حسنٍ.

بلْ إنَّ ذلكَ يؤذِي الملائكةَ الكرامَ؛ ففِي الصَّحيحينِ عنْ جابرٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «**إنَّ الملائكةَ تتأذَّىٰ ممَّا تتأذَّىٰ منهُ الناسُ**»[٢].

ومنْ مضارِّ الدُّخانِ الاجتماعيةِ: أنهُ يستنزِفُ ثروةَ الأُمَّةِ وينقلهَا إلى أيدِي أعدائِهَا منَ الشَّركاتِ التِي تصدِّرُ هذَا الأذَى الخَبيثَ إليهِم.

ومنْ مضارِّ الدُّخانِ الاجتماعيَّةِ: أنَّهُ يُسببُ الحرائِقَ المُروِّعةَ، التي تذهبُ بالأموالِ وتُخرِّبُ البُيوتَ، فكمْ حصلَ بسببِ أعقابِ السَّجائِرِ التي تُلقَىٰ وهِي مُشْتعِلةٌ منْ إضرامِ حريقٍ أتَىٰ على الأخضرِ واليابِسِ، وأتلفَ أموالاً وأنفُسًا بغيرِ حقٍّ، تولَّى كِبْرهَا ذلكَ المُدَخِّنُ الذِي قذفَ بسجارَتهِ دُونَ مُبالاةٍ، ورُبَّمَا تلقَّفَهَا طفلٌ عبثَ بهَا وامتصَّهَا، فألِفَ شُربهَا ووقعَ في فَخِّهَا، فانضَمَّ إلى صُفُوفِ المُدَخِّنينَ، فانهدَمَ جِسمُهُ وفسدَ خُلُقهُ، ونشأَ نشأةً سيِّئةً.

هذِه بعضُ أضرارِ تعاطِي الدُّخانِ الاجتماعيَّةِ والبدنِيَّةِ والدِّينيَّةِ والماليَّةِ، فهلْ يستطيعُ المُدخِّنُونَ أنْ يذكُرُوا لنَا فائدَةً واحِدَةً أو بعضَ فائدَةٍ في شُربِ الدُّخانِ، تُقابلُ هذه المضارَّ؟ فيَا آسفاهُ، كيفَ غابَتْ عقُولُهُم وسفهَت أحلامُهُم!

فيَا من ابتُلِيتَ بشُربِ الدُّخانِ، نسألُ اللهَ لنَا ولكَ العافيةَ، إنَّنا ندعُوكَ ـ بدافعِ النَّصيحةِ الخالصةِ ـ أنْ تُبادِرَ بالتَّوبةِ منهُ، وأنْ تترُكَهُ طاعةً لرَبِّكَ، وحِفَاظًا على

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٣٦٠٧) من حديث أنس.
(٢) أخرجه مسلم (٥٦٤).

صحَّتِكَ، ومنْ تَركَ شيئًا للهِ عوضهُ اللهُ خيرًا. ثم لاَ تنسَ ـ أَيُّهَا المدَّخنُ ـ أنَّكَ ستكُونُ قدوةً سيِّئةً لأولادِكَ إنْ كُنتَ والِدًا، ولتلاميذِكَ إنْ كنتَ مدرِّسًا، قدوةً سيئةً لأصحابِكَ ومُخالِطيكَ، فتكون قدْ جنيتَ على نفسكَ وعلى غيرِكَ، وإذا تركتهُ وتُبتَ منهُ صِرتَ قُدوةً حسنةً لغيرِكَ، فكُن قُدوةً في الخيرِ، ولاَ تكُن قُدوةً في الشَّرِّ.

والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ منَ التَّمادِي في الباطِلِ، ولاَ يحمِلنَّكَ التَّقليدُ الأعمَى والمُجاملةُ الخادِعةُ أنْ تتعاطَى هذا الدُّخانَ وقدْ عافاكَ اللهُ منهُ، أوْ تستمرَّ فيهِ وقدْ عرفتَ أضرَارَهُ، وأمامكَ بابُ التَّوبةِ مفتوحٌ، فبادِرهُ قبلَ أنْ يُغلَقَ.

أَيُّهَا المسلمونَ، وكمَا يُحرَّمُ شُربُ الدُّخانِ، يُحرَّمُ بيعُهُ والاتِّجارُ بهِ واستيرَادُهُ، فثَمَنُهُ سُحتٌ، والاتِّجارُ بهِ مقتٌ، وقدْ قالَ النَّبيُّ ﷺ: **«إنَّ اللهَ إذا حرَّمَ على قوم أكلَ شَيءٍ حرَّمَ عليهِم ثمنَهُ»**[1]، رواهُ الإمامُ أحمدُ وأَبُو داودَ، فالذِي يَبيعُ هذَا الدُّخانَ قد ارتكبَ جريمتينِ عظِيمَتينِ:

الجرِيمة الأُولى: أنَّه عملَ على ترويجهِ بينَ المسلمينَ فجلبَ إليهِم مادَّةَ فسادٍ.

والجريمة الثانيةُ: أنَّ بائِعَ الدُّخانِ يأكُلُ منْ ثمنِهِ مالاً حرامًا، ويجمعُ ثروةً محرَّمةً، والإنسانُ يومَ القِيَامةِ مسؤُولٌ عمَّا يأكُلُ وعمَّا يجمعُ.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وانظُرُوا في العواقِبِ، وفي الحلالِ غُنْيَةٌ عنِ الحرامِ **﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾** [الطلاق: ٢، ٣].

باركَ اللهُ لِي ولكُم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢٢، ٢٦٧٣، ٢٩٥٦) وأبو داود (٣٤٨٨) من حديث ابن عباس.

فِي الحَثِّ عَلَى العَمَلِ الصَّالِحِ

الحمدُ للهِ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ٢]، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لاَ تنفعُهُ طاعةُ المُطِيعِ، ولاَ تضُرُّهُ معصِيَةُ العَاصِي، لأنَّهُ الغَنِيُّ الحميدُ، يُحْصِي أعمالَ عبادِهِ، ليُجازَيهم عليهَا، فمنْ وجدَ خيرًا فليحمدِ اللهَ، ومنْ وجدَ غيرَ ذلكَ فلاَ يلومَنَّ إلاَّ نفسهُ. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، حَثَّ أُمتهُ على العملِ الصَّالِحِ ورغَّبهَا فيهِ، وحذَّرَهَا منَ العملِ السَّيِّئ، نُصحًا لهَا وحِرْصًا على مَا ينفعُهَا، فصَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلم تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ، وبادِرُوا بالعملِ الصَّالحِ، فإنَّهُ لاَ نجاةَ لكُم إلاَّ بهِ، ولاَ ينفعُكُم سِواهُ، وهو زَادُكُم في الآخرةِ، وطريقُكُم إلى الجنَّةِ، وهو الذِي خُلقتُم منْ أجلِهِ، وأُعطِيتمُ المُهلَةَ والصِّحَّةَ والغِنَى والفراغَ لتحقيقِهِ، فكم من مضيِّعٍ للعملِ الصَّالحِ يقُولُ عندَ الوفاةِ: ﴿ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾، فيُقالُ لهُ: ﴿ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠] وهيهات.

إنَّ اللهَ سبحانهُ حثَّ على العملِ الصَّالحِ في كتابهِ الكريمِ في آياتٍ كثيرةٍ، وبأساليبَ مُتنوِّعة، فتارةً يأمُرُ بهِ ويُوجِّهُ إليهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

[التوبة: ١٠٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

وتارةً يَعِدُ بالثَّوابِ الجزيلِ عليهِ، حيثُ يقُولُ: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف: ١٠٧]، ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥]، ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء: ٩]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ [يونس: ٩].

وتارةً يُخبِرُ خبرًا مؤكَّدًا بالقسمِ عن خسارةِ جميعِ النَّوعِ البشرِي، إلاَّ الذينَ آمنُوا وعملُوا الصَّالِحاتِ، كمَا في قولهِ تعالَى ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر: ١ـ٣]، ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٤ـ٦].

وتارةً يُخبِرُ أنَّه خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، والموتَ والحياةَ، وجعلَ مَا على الأرضِ زينةً لهَا، لِيبْلُو العِبادَ أيُّهم أحسنُ عملاً، قالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ [الكهف: ٧]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ومتَى يكونُ العملُ حسنًا؟ إنَّه لاَ يكونُ العملُ حسنًا ـ بلْ لاَ يكونُ مقبُولاً عندَ

اللهِ ـ إلاَّ إذا توفَّرَ فيهِ شرطانِ أساسيَّانِ:

الشَّرطُ الأَوَّلُ: أنْ يكونَ خالِصًا لوجهِ اللهِ منْ كلِّ شائِبَةِ شركٍ أكبرَ أوْ أصغر.

والشرطُ الثاني: أنْ يكونَ على وَفقِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، خاليا منَ البِدعِ والمُحدثاتِ. وقدْ دلَّ على هذينِ الشَّرطينِ آياتٌ كثيرةٌ منْ كتابِ اللهِ، كمَا في قولِهِ تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾، أيْ: أخلصَ عملَه لهُ ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أَيْ: مُتَّبعٌ للرسولِ ﷺ ﴿فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾، [البقرة: ١١٢]، فالعملُ الذي يخلُو منْ هذينِ الشَّرطينِ، أو أحدِهما، يكونُ وبالاً على صاحبِهِ، وتعباً بلا فائدةٍ، قالَ تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾﴾ الآيات [الغاشية: ٢ـ٤].

وتارةً يُخْبِرُ تعالَى أنَّهُ ما خلقَ الجنَّ والإنسَ إلاَّ لعبادتهِ المتمثلةِ في العمل الصالحِ، فيقولُ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، ثم بيَّنَ أنّه سبحانهُ ليسَ بحاجةٍ إلى خلقِهِ، بلْ هُم المحتاجونَ إليهِ، فقالَ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾ [الذاريات: ٥٧].

عِبادَ اللهِ: إنَّ اللهَ سبحانهُ أخبرَ أنَّ أعمالنَا تُحصَى وتُحفظُ وتُكتبُ، قالَ تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٧، ١٨]، ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ـ١٢]، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩]، ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [يس: ١٢].

ويُخبِرُ تعالَى أَنَّ كُلَّ إنسانٍ منَّا سيقِفُ على حَصِيلةِ عملِهِ، ويُؤْتَى كِتَابَهُ يومَ القِيامَةِ، إمَّا بيمِينِهِ أوْ بِشمالِهِ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا

عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، وقالَ تعالَى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

إنَّ مَصيرَ الإنسانِ ـ شقاوَةً أو سعادةً ـ يترتَّبُ على نوعيَّةِ عملِهِ صَلاحًا أو فسادًا؛ قالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤ ـ ١٦]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٦ـ٨].

عِبادَ اللهِ، إنَّ أعمالنَا تُوزنُ يومَ القِيامةِ بميزانِ عدلٍ وقِسطَاسٍ مستقيمٍ ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف: ٨ ـ ٩]، إنَّ رُجْحانَ إحدى الكِفَّتينِ يترتَّبُ عليهِ السَّعادةُ الأبديَّةُ، أو الشَّقَاوَةُ الأبديَّةُ.

والإنسانُ لاَ ينفعُهُ إلاَّ عملُهُ الذي قدَّمَهُ لِنفسِهِ: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النجم: ٣٩ـ٤١]، ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]، فَلاَ يعتمدُ الإنسانُ على صلاحِ أبيهِ، أوْ صلاحِ قريبِهِ، أو شرفِهِ أو شرَفِ آبائِهِ، فمنْ بطَّأ بهِ عملُهُ لمْ يُسْرِعْ بهِ نسبُهُ.

عِبَادَ اللهِ، إنَّ اللهَ يُخْبِرُنا في كثيرٍ منَ الآياتِ أنه يُراقِبُ أعمالَنَا ويطَّلعُ عليهَا، حيثُ يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٧٤﴾ [البقرة: ٧٤]، بلْ إنَّهُ سبحانهُ يطَّلعُ على مَا في قُلُوبِنا من النِّيَّاتِ، فهُو ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾ [آل عمران: ١١٩]، ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ﴾ [ق: ١٦].

فيجبُ علينا أنْ نُصلحَ نِيَّاتِنا وأعمالَنا، ونُراقبَ اللهَ في كلِّ مَا نأتِي ومَا نذرُ، ثم إنَّ مُهلةَ الإنسانِ في هذه الدُّنْيَا قصِيرَةٌ، ومُدَّتَهُ محدُودَةٌ، وأجلَهُ مقدَّرٌ، والإنسانُ فِي هذِه الدُّنْيَا معرَّضٌ لِعَوَارِضَ تعُوقُه عَنِ العملِ، فيجِبُ علينَا أنْ ننتهزَ فُرصَةَ الإمكانِ قبلَ فوَاتِهَا، يقُولُ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٢١].

ويقُولُ ﷺ: «**بَادِرُوا بالأعمالِ سبعًا، هلْ تنتظِرُونَ إلاَّ فقرًا مُنسِيًا، أَو غِنًى مُطغِيًا، أَو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مُفَنِّدًا، أَوْ موتًا مُجْهِزًا، أَو الدَّجَّالَ فشرُّ غائبٌ يُنتظرُ، أَوِ السَّاعةَ فالسَّاعةُ أَدْهَى وأَمرُّ**»[1]، ويقولُ ﷺ: «**بَادِرُوا بالأعمالِ الصَّالِحةِ، فَسَتكُونُ فِتَنٌ كَقِطعِ اللَّيلِ المُظلمِ، يُصبحُ الرَّجلُ مُؤمِنًا ويُمسِي كافِرًا، ويُمسِي مُؤمِنًا ويُصبحُ كافِرًا، يبيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ من الدُّنْيا**»[2] رواه مسلمٌ.

جعلَني اللهُ وإيَّاكُم منَ المُؤمنِينَ الذينَ يعملُونَ الصَّالِحاتِ، ويُبادِرُون إلى الخيرَاتِ قبلَ الفواتِ.

---

(١) سنن الترمذي (٢٣٠٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١١٨) من حديث أبي هريرة.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ. . . ﴾ [الحشر : ١٨]. الآيات .

أقُولُ قَولِي هذا وأسْتغْفِرُ الله لِي ولكُم ولجَمِيعِ المُسلِمِينَ .

* * *

فِي الحَثِّ عَلَى مُلَازَمَةِ ذِكْرِ اللهِ

الحمدُ للهِ القائِلِ فِي كتابِهِ الكرِيمِ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢]، وأشهدُ أنْ لاَ إِلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ له، وعدَ الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتِ أجرًا عظِيمًا وثوابًا جزيلاً، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُهُ، كانَ يذكُرُ اللهَ على كُلِّ أحيانِهِ، بجوارِحِهِ وبقلبِهِ ولِسانِهِ، ويحُثُّ على ذِكرِ اللهِ، تعظِيمًا لِشَانِهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه وأعوانِهِ، وسلَّم تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ ولاَزِمُوا ذِكرهُ، رَوَى الإمامُ أحمدُ عنْ عبدِ اللهِ بنِ بشرٍ قالَ: أَتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ شرائِعَ الإسلام قدْ كثُرتْ عليَّ فبابٌ نَتمسَّكُ بهِ جامعٌ، قالَ: «**لاَ يزالُ لسانُكَ رَطْبًا من ذِكرِ اللهِ**»(١). هكذَا يُجيبُ النبيُّ ﷺ بهذِهِ الكلمةِ الوجيزةِ الجامعةِ، هذا السَّائل الذي بيَّنَ أنَّهُ يشُقُّ عليهِ تتبعُ طُرقِ الخيرِ لكِثرَتِهَا، أجابهُ بأنْ يُلازِمَ ذِكرَ اللهِ تعالى ويشغلَ لِسَانَه بهِ.

وقد أمرَ اللهُ المُؤمنينَ بأنْ يذكُروه ذِكرًا كثيرًا، وأنْ يذكُرُوه قِيامًا وقُعُودًا وعلى جُنُوبهِم، وأخبرَ أنَّ القُلُوبَ تطمئِنُّ بذِكرِهِ، ويحصلُ بِهِ الفلاحُ العاجلُ والآجلُ، وأنَّهُ أعدَّ للذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِرَاتِ مغفرَةً وأجرًا عظِيمًا.

وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ ذِكرَ اللهِ غرَاسُ الجنَّةِ، وقالَ ﷺ: «**منْ أحبَّ أن يرتَعَ فِي**

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٢٧)، ١٧٢٤٥). وأخرجه أيضا الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣).

رِياضِ الجنَّةِ فليُكثِرْ ذِكرَ اللهِ»[1]، وقالَ: «استكثِرُوا منَ الباقِياتِ الصَّالِحاتِ» قيلَ: ومَا هي يَا رسُولَ اللهِ؟ قالَ: «التَّكبِيرُ والتسبِيحُ والتَّهليلُ والحمدُ للهِ ولاَ حولَ ولاَ قوَّةَ إلاَّ باللهِ»[2].

وقدْ فرضَ اللهُ على المسلمينَ أنْ يذكُرُوه كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مراتٍ بإقامةِ الصَّلواتِ في مواقِيتِهَا المُؤقَّتةِ، وشرَعَ لهُم معَ هذِه الفرائِض الخمسِ أنْ يذكُروه ذكرًا يكونُ لهُم نافِلةً؛ أَيْ زائِدًا عنِ الصَّلواتِ الخمسِ، وهُو نوعانِ:

أحدُهُما: مَا هو منْ جِنسِ الصَّلواتِ، فشرَعَ لهُم أنْ يُصَلُّوا معَ الصَّلواتِ الخمسِ قبلَها أوْ بعدَها، أو قبلَهَا وبعدَهَا، سُننًا تكونُ زِيادةً على الفرِيضَةِ، فإنْ كانَ في الفرِيضةِ نقصٌ جُبِرَ نقصُها بهذه النَّوافِلِ، وإلاَّ كانت النَّوافِلُ زيادةً على الفرائِضِ. ولمَّا كانَ بينَ صَلاةِ العِشاءِ وصَلاَةِ الفجرِ، وبينَ صلاةِ الفجرِ وصلاةِ الظُّهرِ، وقتٌ طويلٌ، شرَعَ سبحانَهُ صلاةَ الوترِ وقيام اللَّيلِ، وشرَعَ صلاةَ الضُّحَى؛ لئلاَّ يطُولَ وقتُ الغفلةِ عن ذِكرِ اللهِ.

والنَّوعُ الثَّانِي: ذكرُ الله باللِّسانِ، وهُو مشروعٌ في جميعِ الأوقاتِ، ويتأكَّدُ عقيب الصلواتِ المفرُوضاتِ بأنْ يذكُرَ اللهَ عقِبَ كلِّ صَلاةٍ منهَا مائةَ مرَّةٍ، مَا بينَ تَسْبيحٍ وتحمِيدٍ وتكبيرٍ وتهلِيلٍ، ويُستحبُّ ذكر اللهِ بعدَ الصَّلاَتينِ اللَّتينِ يُنهَى عنِ التَّطوُّعِ بالصَّلاةِ بعدَهُما، وهما الفجرُ والعصرُ، فُيشرَعُ الذِّكرُ بعدَ صلاةِ الفجرِ إلى أنْ تطلُعَ الشَّمسُ، وبعدَ العصرِ حتَّى تغرُبَ، وقدْ أمَرَ اللهُ بذِكرِهِ في هذينِ الوقتينِ في مَوَاضِعَ كثيرةٍ، قالَ تعالَى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الأحزاب: ٤٢]، ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإنسان: ٢٥]، ﴿وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ

---

(١) أخرج معناه الترمذي (٣٥١٠) من حديث أنس.
(٢) أخرجه أحمد (١١٣١٦) وابن حبان (٨٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري.

وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾ [آل عمران: ٤١]، ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم: ١٧]، ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩].

ويُستحبُّ ذكرُ اللهِ في غيرِ هذينِ الوقتينِ منْ آناءِ اللَّيلِ وآناءِ النَّهارِ، ويذكُرُ المسلمُ ربهُ إذَا أوىٰ إلى فِراشهِ، ويذكرُ الله كُلما تقلَّبَ في نومهِ قالَ ﷺ: «منْ تعارَّ منَ اللَّيلِ فقالَ: لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدَهُ لاَ شريكَ له، له الملكُ ولهُ الحمدُ، وهُو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، سبحانَ اللهِ، والحمدُ للهِ ولاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولاَ حولَ ولاَ قوةَ إلاَّ باللهِ، ثم قالَ: رَبِّ اغفرْ لِي، ثمَّ دعَا استجِيبَ لهُ، فإنْ عزمَ فتوضَّأَ قُبلتْ صلاتُهُ»[1].

وثبتَ عنهُ ﷺ: أنَّهُ كانَ إذَا استيقظَ منْ منامِهِ يقولُ: «الحمدُ للهِ الذي أحيانِي بعدَ مَا أَماتَنِي وإليهِ النُّشُورُ»[2].

وهكذَا ينبغِي للمسلمِ أنْ يستصحبَ ذكرَ اللهِ إلى أن ينامَ، ثم يبدأ بذِكرِ اللهِ عندَمَا يستيقِظُ، ويذكُرُ اللهَ على أفعالِ دينِهِ ودُنياهُ، فيذكُرُ اسمَ اللهِ ويحمدُهُ على أكلِهِ وشُربهِ ولِباسهِ، ودُخُولِ منزِله وخُرُوجهِ منهُ، وعندَ دخولِ الخلاءِ وعندَ الخُروجِ منهُ، وعندَ رُكُوبهِ دَابَّته أو غيرهَا منَ المركباتِ، ويذكُرُ اسم اللهِ على ذَبيحتِهِ منْ نُسكٍ وغيرِهِ، ويحمدُ اللهَ على عُطاسِهِ، ويحمدُ اللهَ عندَ تجدُّدِ النِّعمِ واندفاعِ النِّقَمِ، ويذكُرُ اللهَ عندَ دُخُولِ السُّوقِ، وعندَ سماعِ أصواتِ الدِّيكةِ،

---

(١) أخرجه البخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤، ٧٣٩٤) من حديث حذيفة. وفي (٦٣٢٥، ٧٣٩٥) من حديث أبي ذر. ومسلم (٢٧١١) من حديث البراء.

وعندَ سماعِ الرَّعدِ، وعندَ نُزولِ المطرِ، وعندَ اشتدادِ هُبُوبِ الرِّياحِ، وعندَ رُؤيةِ الهِلالِ.

ويُشرَعُ ذكرُ اللهِ ودُعاؤُهُ عندَ نزولِ الكربِ وحُدُوثِ المصائِبِ، وعندَ الخُروجِ للسفرِ وعندَ الرُّجوعِ منهُ، وعندَ نزولِ المنزلِ في السفرِ والحضرِ.

ويَجِبُ ذكرُ اللهِ والتَّوبةُ والاستغفارُ من الذُّنُوبِ جميعِهَا، كمَا قالَ تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ويُستحبُّ ذِكرُ اللهِ عندَ إقبالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وأوقاتِ الأسحارِ، فمنْ حافظَ على ذلكَ لمْ يزلْ لِسَانهُ رطبًا منْ ذكرِ اللهِ في كلِّ أحوالِهِ.

عِبادَ اللهِ، والذكرُ المطلقُ يدخُلُ فيهِ الصَّلاةُ، وتلاوةُ القرآنِ وتعلُّمُهُ وتعلِيمهُ، وتعلُّمُ العلمِ النَّافعِ وتعلِيمهُ، ويدخلُ فيهِ التَّسبيحُ والتَّهليلُ والتكبيرُ.

والإكثار من ذكرِ الله تعالى براءَةٌ من النِّفاقِ، فقدْ وصفَ اللهُ المنافِقينَ بأنَّهم لاَ يذكُرُونَ اللهَ إلاَّ قلِيلاً، فمنْ أكثرَ منْ ذِكرِ اللهِ فقدْ خالفهُم، ولهذَا خُتِمتْ سُورةُ المُنافقينَ بالأمرِ بذكرِ اللهِ، وألا يُلهِي المُؤمنَ عنْ ذلكَ مالٌ وولدٌ، وأنَّ منْ ألهَاهُ ذلكَ عنْ ذِكرِ اللهِ فهو منَ الخاسِرينَ.

وقدْ صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه كانَ يذكُرُ اللهَ على كلِّ أحيانِهِ[1]، في حالِ قيامِهِ ومشيِهِ وقُعُودهِ واضطِجاعِهِ، سواء كانَ على طهارَةٍ أو على حدَثٍ.

والإكثارُ من ذِكرِ اللهِ حصنٌ منَ الشيطانِ، فإنَّ العبدَ لاَ يُحرزُ نفسهُ منهُ إلاَّ بذِكرِ اللهِ، ولاَ يدخُلُ عليهِ الشيطانُ إلاَّ منْ بابِ الغفلةِ عن ذِكرِ اللهِ، فهُو يرصُدُه،

---

(١) أخرجه مسلم (٣٧٣) من حديث عائشة. وعلقه البخاري في صحيحه في أكثر من موضع مجزومًا به.

فإن غفلَ وثبَ عليهِ وافترسَهُ، وإذَا ذكرَ الله خنَسَ، ولهذَا سُمِّي الوسواسَ الخنَّاسَ؛ أَيْ: يُوسوِسُ في الصُّدُورِ، فإذَا ذُكِرَ اللهُ تعالَى خنَسَ؛ أَيْ: كفَّ وانقبَضَ.

والإكثارُ من ذكرِ اللهِ تحيا به القلوبُ وتطمئِنُّ، قالَ تعالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝٢٨﴾ [الرعد: ٢٨]، وقالَ ﷺ: «مثلُ الذي يذكُرُ ربَّهُ والذي لاَ يذكُرُ ربَّهُ مثل الحَيِّ والميت»(١).

ومنْ ذَكرَ اللهَ ذكرهُ اللهُ تعالى، قال تعالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي الصَّحِيحين عن أَبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «يقُولُ اللهُ تباركَ وتعالَى: «أَنا عند ظَنِّ عبدِي بِي، وأَنَا معهُ إِذَا ذكَرَني، فإنْ ذكَرَني في نفسِهِ ذَكَرْتهُ في نفسِي، وإنْ ذكَرَني في مَلإٍ ذكَرْتُه في مَلإٍ خيرٍ منهُم»(٢).

وذكرُ اللهِ يحبسُ اللِّسانِ عنِ الغِيبة والنَّميمَةِ والكذبِ والفُحشِ والباطلِ ولهوِ الحديثِ، فإنَّ العبدَ لاَ بُدَّ لَهُ أنْ يتكلَّمَ، فإنْ لمْ يتكلَّم بذِكْرِ اللهِ تكلَّمَ بهذِهِ المحرَّماتِ، أوْ بعضِهَا، فمنْ عَوَّدَ لِسَانَهُ ذِكرَ الله صَانهُ عن اللَّغوِ والباطِلِ.

والذِّكرُ أيسرُ العباداتِ، وهو منْ أجلِّهَا وأفضلِهَا، فإنَّ حركةَ اللِّسانِ أخفُّ حركاتِ الأعضاءِ وأيسرُهَا، فإنَّ الأعضاءَ تتعبُ معَ الحركةِ، واللِّسان لاَ يتعبُ مهمَا أكثرَ الإنسانُ من تحرِيكهِ، فينبغِي أنْ يُكثرَ من تحرِيكهِ بذكرِ اللهِ تعالى.

أعوذُ باللهِ منَ الشيطانِ الرجيم: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآيات منْ آخرِ سورة آل عمرانَ إلى قولهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝١٩٤﴾ [آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٧).
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥).

تِلَاوَةُ القُرآنِ

الحمدُ للهِ الكريمِ المنَّانِ، الذي أكرمنَا بالقُرآنِ، والمعجزةِ المستمرَّةِ على تعاقُبِ الأزمانِ، وجعلهُ رَبيعًا لقُلُوبِ أهلِ البصائِرِ والعِرْفانِ، لاَ يخلقُ على كثرةِ الرَّدِّ وتغايُرِ الأحيانِ، ويسَّرَهُ للذِّكرِ حتَّى استظهرَهُ صغارُ الولدانِ، وضمنَ حفظَهُ فهُو محفُوظ يحفظهُ اللهُ من الزيادَةِ والتَّبديلِ والنُّقصانِ، أحمدُهُ على ذلكَ، وعلى غيرِهِ منْ نِعمِهِ التي لاَ تُحصَى وخُصُوصًا نِعمَةَ الإيمانِ. وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شَريكَ لهُ، شهادَةً ننال بِهَا الغُفرَانَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُه، حثَّ على تعَلُّم القُرآنِ وتعلِيمهِ، والتَّفكُّرِ فيهِ وتفهِيمِه، والعملِ بأحكامِهِ، والوقُوفِ عندَ حُدُودِه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، واهتمُّوا بكتابِ اللهِ، قالَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، وروى البخاريُّ في صحِيحهِ عنْ عثمانَ بنِ عفَّانٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**خيرُكُم من تعلَّمَ القُرآنَ وعلَّمهُ**»[1]، وعنْ عائشةَ رضيَ اللهُ عنهَا قالت: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**الذي يقرَأُ القُرآن وهُو ماهِرٌ بِهِ معَ السَّفرةِ الكرامِ البررةِ، والذي يقرأُ القُرآن وهُو يَتَتَعْتَعُ فيهِ**

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧، ٥٠٢٨) من حديث عثمان.

وهُو عليهِ شاقٌّ لهُ أجرانِ»[١]، رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ، وروى مسلمٌ عنْ أَبِي أُمامةَ الباهليِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**اقرَؤوا القُرآنَ، فإنَّهُ يأتِي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِهِ»**[٢]، وعنْ أَبِي هريرةَ رضِيَ اللهُ عنهُ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَا اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بُيوتِ اللهِ تعالى، يتلُونَ كِتابَ اللهِ ويتدارَسُونَه بينهُم، إلاَّ نزلتْ عليهِمُ السَّكِينةُ، وغشِيتهُم الرَّحمةُ، وحفَّتهُم الملائكةُ، وذكرَهُم اللهُ فيمن عندَه»**[٣] رواه مسلمٌ.

عِبادَ اللهِ، هذه نصوصٌ سمِعتُمُوهَا من كتابِ ربِّكُم وسُنَّةِ نبِيِّكُم، تحثُّكُم على تعلُّمِ كتابِ اللهِ وتلاوتهِ والعملِ بهِ؛ لأنَّهُ مناطُ سعادتِكُم، وهو المخرجُ من الفِتنِ، فيهِ نبأُ مَا قبلكُم، وخبرُ مَا بعدَكُم، وحُكمُ مَا بينكُم، هُو الفصلُ ليسَ بالهزلِ، من تركهُ من جبَّارٍ قصمهُ اللهُ، ومن ابتغَى الهُدَى من غيرِهِ أضلَّهُ اللهُ، وهو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصِّراطُ المستقِيمُ، وهو الذي لا تزيغُ بهِ الأهواءُ، ولاَ تلتبسُ بهِ الألسنةُ، ولاَ تشبعُ منهُ العُلماءُ، ولاَ يخلقُ عن كثرةِ الرَّدِّ، ولاَ تنقضِي عجائِبهُ، من قالَ بهِ صدقَ، ومن عملَ بهِ أُجرَ، ومنْ حَكَم بهِ عَدَلَ، ومن دَعَا إليهِ هُدِيَ إلى صراطٍ مستقيمٍ.

فأقبلُوا على تعلُّمهِ وتلاوتهِ والتَّفكُّرِ فيهِ، وعلِّمُوه أولاَدكُم، ونشِّؤُوهُم على تلاوتهِ وحُبِّهِ، حتَّى يألفُوهُ ويتَّصِلُوا بهِ، فيُطهِّر أخلاقهُم، ويُزكِّي نفُوسهُم، ويكُونُوا من حملةِ القرآنِ وأهلِهِ، لأنَّ الصَّبِيَّ إذَا تعلَّمَ القرآنَ بلغَ وهو يعرفُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٤) من حديث عائشة. وهو نحو هذا اللفظ في صحيح البخاري (٤٩٣٧) وصحيح مسلم ((٧٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤) من حديث أبي هريرة.
(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة.

مَا يقرَأُ في صلاتِهِ، وحفظُ القرآنِ في الصِّغرِ أَولَى منْ حفظِهِ في الكِبرَ، وأشدُّ عُلوقًا بالذَّاكرَةِ وأرسخُ وأثبتُ؛ لأنَّ التَّعلُّمَ في الصِّغرِ كالنَّقشِ في الحجرِ.

عِبادَ اللهِ، إنَّ أكثرَ الناسِ اليومَ انشغلُوا عن تعلُّمِ القرآنِ، فالكِبارُ انشغلُوا بالدُّنيَا، والصِّغارُ انشغلُوا بالدراسةِ النِّظاميَّةِ في المدارسِ التي لاَ تُعطي لتعليمِ القرآنِ وقتًا كافيًا، ولاَ عنايةً لائقةً، ولاَ مُدرِّسينَ يقومونَ بالواجِب نحوهُ. وبقيَّةُ وقتِ الأولادِ مُضيَّعٌ في اللَّعِبِ في الشوارعِ، ممَّا أدَّى إلى جهلِهم بالقُرآنِ وابتِعادِهِم عنهُ، حتَّى تجِدَ أحدهُم يحمِلُ أكبَرَ الشَّهادَاتِ الدِّراسيَّةِ وهو لاَ يُحسنُ أنْ يقرأَ آيةً من كتابِ اللهِ على الوجهِ الصَّحِيحِ، وحتَّى آلَ الأمرُ إلى خُلوِّ كثيرٍ منَ المساجدِ منَ الأئمةِ، لثقلِ تلاوةِ القُرآنِ على غالبِ النَّاسِ.

والسَّببُ في كلِّ ذلكَ بالدَّرجةِ الأُولَى إهمالُ الآباءِ لأبنائِهم، وعدمُ اهتمامِهم بهذهِ النَّاحِيةِ، فلاَ يدري أحدُهُم مَا حالةُ ابنِهِ معَ القُرآنِ؟ وحتَّىٰ صارَ القرآنُ مهجُورًا بينَ غالبِ المسلمينَ، وهذا مَا شكَا أو يشكُو منهُ الرسولُ ﷺ بقولهِ: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝٣٠﴾ [الفرقان: ٣٠]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحمهُ اللهُ: تركُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ من هجرانِهِ، وتركُ العملِ بهِ وامتثالِ أوامرِهِ واجتنابِ زواجِرهِ من هجرانِهِ، والعدلُ عنهُ إلى غَيرهِ منْ شعرٍ أوْ قولٍ أوْ غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخُوذةٍ منْ غيرِهِ، من هجرانِهِ.

وقالَ ابنُ القيمِ رحمهُ اللهُ: هجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُهَا: هجرُ سماعِهِ والإيمانِ بهِ والإصغاءِ إليه.

والثانِي: هجرُ العملِ بهِ، والوقُوفِ عندَ حلاَلِهِ وحرَامهِ، وإنْ قرأَهُ وآمنَ بهِ.

والثالثُ: هجرُ تحكِيمهِ والتَّحاكُم إليهِ في أصولِ الدِّينِ وفُرُوعِهِ، واعتقادُ أنَّهُ لاَ يُفِيدُ اليقِينَ.

والرَّابعُ: هجرُ تدبُّرِه وتفهُّمِهِ ومعرفةِ مَا أرادَ المُتكلِّمُ بِهِ منهُ.

والخامسُ: هجرُ الاستشفاءِ والتَّدَاوِي بهِ في جميعِ أمراضِ القُلُوبِ وأدوائِهَا، فيَطلُبُ شفاءَ دائِهِ منْ غيرِه، ويهجُرُ التَّدَاويَ بهِ.

وكلُّ هذا دَاخِلٌ في قولهِ: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ ﴾ [الفرقان: ٣٠]، وإن كانَ بعضُ الهجرِ أهونَ من بعضٍ، وقد ورَدَ في الحَدِيثِ: **«يَأْتِي على الناسِ زمانٌ لاَ يبقىٰ من الإسلامِ إلاَّ اسمُهُ، ولاَ من القُرآنِ إلاَّ رسمُهُ»**(١).

عبَادَ اللهِ، إنَّهُ لاَ بُدَّ من تلقِّي القرآن وتعلُّمِهِ عن مُعَلِّمينَ يُجِيدُونَ قراءَتَهُ، لاَ يكفِي أنْ يتهجَّاهُ الإنسانُ من المُصحفِ، فإنَّ تلقِّيَ القرآنِ من فم المُلقِّنِ أحسنُ وأضبطُ، لأنَّ الكتابةَ لاَ تدُلُّ على الأدلة، كَمَا أنَّ المُشاهدَ من كثيرٍ ممَّن تلقَّاهُ من الكتابةِ فقط أنَّه يكثُرُ تصحِيفُهُ وغلطُهُ، فَلاَ بُدَّ منْ مُعلِّمٍ متقِنٍ يُوقِفُهُ على ألفاظِ القُرآنِ، فيجبُ على منْ أرادَ أنْ يتعلَّمَ القُرآنَ أو يُعلِّمهُ أولادَهُ أن يختارَ المُقرئَ المُجِيد، ليأخُذُوا القرآنَ عن إتقانٍ، ويتعلَّمُوهُ عن جودة، فإنَّ الاهتمامَ بكتابِ اللهِ من أهمِّ المُهِمَّاتِ.

عِبادَ اللهِ، ومن تعلَّمَ كتابَ اللهِ فليُحافِظْ عليهِ، وليكثِر من تِلاوتِهِ بِتدَبُّرٍ وتفهُّمٍ وخُشوعٍ وحضُورِ قلبٍ، قالَ ﷺ: **«من قرأ حرفًا من كتابِ اللهِ تعالى فلهُ حسنةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِهَا، لاَ أقولُ: الٓم حرفٌ، ولكنْ ألفٌ حرفٌ، ولامٌ حرفٌ، وميمٌ حرفٌ»**(٢)، رواهُ الترمذِيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٩٠٨) من حديث علي بن أبي طالب.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث ابن مسعود. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٦٩).

قالَ ابنُ القيِّم رحمهُ اللهُ: تأمَّلْ خِطابَ القُرآنِ تجدْ مَلِكًا لهُ الملكُ كلُّهُ، ولهُ الحمدُ كُلُّهُ، أَزِمَّةُ الأُمُورِ كلهَا بيدِهِ، ينصحُ عِبادهُ، ويدُلُّهُم على مَا فيهِ سعادتهم وفَلَاحهم، ويُرَغِّبُهُم فيهِ، ويُحَذِّرُهُم مِمَّا فيهِ هلاَكُهُم، ويتعرَّفُ إليهِم بأسمائِهِ وصفاتِهِ، ويتحَبَّبُ إليهِم بنعمِهِ وآلائِهِ، فيُذكِّرُهُم بنعمِهِ عليهِم، ويأمرُهُم بِمَا يستوجِبُونَ بهِ تمَامَهَا، ويُذكِّرهُم بِمَا أعدَّ لهم منَ الكرامةِ إنْ أطاعُوهُ، ومَا أَعدَّ لهُم منَ العُقوبةِ إنْ عصوهُ، ويخبرُهمُ بصُنعِهِ في أَولِيائِهِ وأعدائِهِ، وكيفَ كانتْ عاقبةُ هؤُلاءِ وهؤُلاءِ، ويضربُ الأمثالَ، ويُنوِّعُ الأدِلةَ والبراهِينَ، يدعُو إلى دَارِ السلامِ، ويذكرُ أوصافهَا وحُسْنَها، ويُحذِّرُ منْ دَارِ البَوَارِ، ويذكُرُ عذابهَا وقُبحَهَا، ويُذكِّرُ عبادَهُ فقرهُم إليهِ، وأنَّهم لاَ غنَى لهُم عنهُ طرفةَ عينٍ، فإذا شهدتِ القُلُوبُ من القُرآنِ ملِكًا عظِيمًا رحِيمًا جوادًا جمِيلاً، هذَا شأنُه، فكيفَ لاَ تُحِبُّهُ وتتنافس في القربِ منهُ؟

فالقُرآنُ مذكِّرٌ باللهِ، مُقربٌ إليهِ، فينبغِي للمسلمِ أنْ يُعنىٰ بتعلُّمِهِ ويُكْثِرَ من تلاوتِهِ؛ لأنَّهُ النُّورُ والشِّفاءُ والرَّحمةُ والرُّوحُ والهُدى والفُرقانُ والذِّكرُ الحكيمُ والبُرهانُ.

عِبادَ اللهِ، أكثرُوا من تلاوةِ القرآنِ في شهرِ رمضانَ المُباركِ، فإنَّ تِلاَوَتهُ في هذَا الشَّهرِ لهَا مزيةٌ وفضِيلةٌ على تِلاوَتهِ في غيرِهِ من الأَوقاتِ؛ لأنَّهُ أُنزِلَ فيهِ، كمَا قالَ تعالَىٰ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾، [القدر: ١]، ولأنَّ الحسناتِ في هذَا الشَّهرِ تُضاعفُ أكثرَ منْ مُضاعَفتِهَا في غيرِهِ، ولأنَّ القلب يُقبلُ على تدبُّرِ القُرآنِ في هذَا الشَّهرِ أكثرَ من غيرِهِ، ولذلكَ كانَ جِبريلُ عليهِ السَّلامُ يُدارِسُ نبيَّنَا محمدًا ﷺ القُرآنَ في هذَا الشَّهرِ كلَّ ليلةٍ، وكانَ السَّلفُ يُقبِلُونَ على تلاوَةِ القرآنِ فيهِ،

ويتفرَّغُونَ من دراسةِ الحديثِ وطلبِ العلمِ، ليقبلُوا على تِلاَوَتِهِ.

عِبَادَ الله، ومطلوبٌ منَ المسلمِ أنْ يتلُو القرآنَ على حسبِ حالِهِ، وفي حُدُودِ استطاعتِهِ، فإنْ كانَ يُجِيدُ القراءةَ فهذَا أفضلُ وأكملُ، وإنْ كانَ لاَ يُجِيدُهَا فإنَّهُ يقرَؤُهُ على حسبِ حالِهِ، فقد ورَدَ في الحديثِ: «إنَّ الذي يقرأُ القرآن وهو ماهِرٌ به معَ السَّفرةِ الكِرامِ البررةِ، والذي يقرؤهُ ويَتَتَعْتَعُ فيهِ وهُو عليهِ شاقٌّ لهُ أجرانِ»[1]، وينبغِي لهذَا أنْ يجتهِدَ في إصلاحِ قِراءتِهِ على يدِ من هُو أحسنُ منهُ قِراءةً، كمَا أنَّ المسلمَ يتلُو ما تيسَّرَ لهُ منَ القُرآنِ، فإنْ كانَ يقرؤُهُ كلَّهُ فهذا أكملُ وأحسنُ، وإلاَّ قرأَ مَا يمكِنهُ من سُورِهِ، ليحُوزَ الأجرَ والفضِيلةَ، ولاَ يتوقَّفُ عن التِّلاوةِ بحُجةِ أنَّه لاَ يُحسنُ قِراءَةَ القُرآنِ كُلِّهِ، فيحرمَ نفسَهُ الأَجرَ، ويُفَوِّتَ عليهَا الفُرصةَ.

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ . . .﴾ الآيتين، إلى قولِهِ: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٢٩ ـ ٣٠].

* * *

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٠٤) من حديث عائشة. وهو نحو هذا اللفظ في صحيح البخاري (٤٩٣٧) وصحيح مسلم ((٧٩٨).

فِي مَعْنَىٰ قولِهِ ﷺ
«اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنتَ...» الحدِيث

الحمدُ للهِ الذي أرسلَ رسولهُ بالهدَى ودِينِ الحقِّ لِيُظهرهُ على الدِّينِ كلِّهِ، وكفَى باللهِ شهِيدًا، وأشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ إقرَارًا بهِ وتوحِيدًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسُولُهُ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلَى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسلِيمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ واعلمُوا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ بعثَ نبيَّهُ محمدًا ﷺ بجوامعِ الكلمِ، وخصَّهُ ببدَائِعِ الحِكَمِ، فرُبَّمَا جمعَ أشتاتَ الحِكَم والعُلُومِ في كلمةٍ أوْ شطرِ كلمةٍ، منْ ذلكُم قولُه ﷺ: **«اتَّقِ اللهَ حيثُما كُنتَ، وأتبعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُهَا، وخالقِ الناسَ بخلُقٍ حَسنٍ»**[1]، رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ.

فهذَا حديثٌ عظِيمٌ، وجِيزُ الألفاظِ، جمعَ فيهِ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ حقِّ اللهِ وحُقُوقِ العبادِ:

أَمَّا حقُّ اللهِ: فهُو أنْ يُتَّقَى حقَّ تقاتِهِ، واللهُ قد أَوصَى الأوَّلِينَ والآخِرِينَ بتقواهُ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، ومعنَى التَّقوىٰ أنْ يجعلَ العبدُ بينهُ وبينَ مَا يخافهُ ويحذرهُ وقايةً تقيهِ منهُ، وتقوى العبدِ لربهِ: أنْ يجعلَ بينهُ وبينَ مَا يَخشاهُ منْ غضبهِ وسخطِهِ وعقابِهِ وقايةً تقيهِ من ذلكَ، بفعلِ طاعتِهِ، واجتِنَابِ معاصِيهِ. فاللهُ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وأحمد (٢٠٨٤٧، ٢٠٨٩٤، ٢١٠٢٦) من حديث أبي ذر.

سبحانهُ تارةً يأمُرُ بتقواهُ، فهُو أهلٌ أنْ يُخْشَى ويُهابَ ويُجَلَّ ويُعظَّمَ في صُدُورِ عبادِهِ، حتَّى يعبُدُوهُ ويُطِيعُوهُ. وتارةً يأمرُ سُبحانهُ بِاتِّقاءِ النَّارِ، كمَا في قولِهِ تعالَىٰ: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٤]. وتارةً يأمرُ سبحانهُ باتِّقاءِ يومِ القيامةِ، كمَا في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٨١]، ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [البقرة: ٤٨].

وإليكُم ـ يا عِبادَ اللهِ ـ بعضَ عِبارَاتِ السَّلفِ في توضِيحِ معنَى التَّقوىٰ:

قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: المُتَّقُون الذينَ يحذرُونَ منَ اللهِ وعُقُوبتِهِ.

وقالَ الحسنُ: المتَّقُونَ اتَّقوا مَا حرَّمَ اللهُ عليهِم، وأدَّوا مَا افترضَ اللهُ عليهِم.

وقالَ عُمرُ بن عبد العزيزِ: ليسَ تقوى اللهِ بصيامِ النَّهارِ، ولاَ بِقيامِ اللَّيلِ، معَ التَّخليطِ فيمَا بينَ ذلكَ، ولكنَّ تقوى اللهِ تركُ مَا حرَّمَ اللهُ، وأداءُ مَا افترضَ اللهُ، فمنْ رُزِقَ بعدَ ذلكَ خيرًا فهُو خيرٌ إلى خيرٍ.

وقال طلقُ بنُ حبِيبٍ: التَّقوىٰ هي أنْ تعملَ بطاعةِ اللهِ، على نُورٍ منَ اللهِ، ترجُو ثوابَ اللهِ، وأنْ تترُكَ معصِيَةَ اللهِ، على نُورٍ منَ اللهِ، تخافُ عقابَ اللهِ.

وقالَ ميمُونُ بنُ مِهران: المُتَّقِي أشدُّ محاسبةً لنفسهِ من الشَّرِيكِ الشَّحِيحِ لِشَرِيكِهِ.

وقالَ ابنُ مسعودٍ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قال: أنْ يُطاعَ فلاَ يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسَىٰ، وأنْ يُشكرَ فلاَ يُكفرَ.

فالتقوىٰ وصيةُ اللهِ لجميعِ خلقِهِ، ووصِيَّةُ رسولهِ لأُمَّتهِ، فقد كانَ ﷺ إذا بعثَ أَمِيرًا على سرِيَّةٍ أوصاهُ في خاصَّةِ نفسِهِ بتقوىٰ اللهِ، وبمنْ معهُ منَ المسلمينَ

خيرًا[1]، ولمَّا خطَبَ في حَجَّةِ الوداعِ يوم النَّحرِ وصَّى الناسَ بتقوى اللهِ، ولمْ يزلِ السَّلفُ الصَّالحُ يتواصَونَ بِهَا.

وقولهُ ﷺ: «اتَّقِ اللهَ حيثُمَا كُنتَ» أيْ: في السِّرِّ والعلانيةِ، حيثُ يراهُ الناسُ، وحيثُ لاَ يرونَهُ. ومن علِمَ أنَّ اللهُ مطَّلِعٌ عليهِ حيثُمَا كانَ، يرىٰ باطنهُ وظاهِرهُ، وسِرَّهُ وعلانِيَتهُ، واستحضرَ ذلكَ في خلوَاتِهِ ـ أَوجبَ لهُ ذلكَ تركَ المعَاصِي في السِّرِّ، قالَ تعَالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: ١].

كتبَ بعضُ الصَّالِحينَ إلى أَخٍ لهُ في اللهِ تعالىٰ: أمَّا بعدُ: أُوصِيكَ بتقوى اللهِ الذي هو نجيُّكَ في سَريرَتِكَ، ورَقيبُكَ في علانيتِكَ، فاجعل اللهَ منْ بالكَ على كلِّ حالٍ، في ليلِكَ ونهارِكَ، وخَفِ اللهَ بقدرِ قُربِهِ منكَ وقُدرَتِهِ عليكَ، واعلَمْ أنَّك بعينِهِ، لاَ تخرجُ من سُلطانِهِ إلى سُلطانِ غيرهِ، ولاَ من مُلكِهِ إلى مُلكِ غيرِه، فليَعظُم منهُ حذرُكَ، وليكثرْ منهُ وجلكَ، والسَّلامُ.

ودَخَلَ بعضُهُم في غيضةٍ ذاتِ شجرٍ فقالَ: لو خلَوتُ ههُنا بمعصِيةٍ، مَنْ كانَ يَرَانِي؟ فسمعَ هاتِفًا بصوتٍ ملأَ الغيضةَ: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك: ١٤].

فاتقُوا اللهَ، أَيُّهَا المسلمونَ، في جميعِ أحوالكُم، وفي جميعِ تصرُّفاتِكُم، اتَّقِ اللهَ أَيُّهَا المسلمُ في نفسِكَ، وفي أهلِ بيتِكَ وأولاَدِكَ، واتَّقِ اللهَ في عبادةِ رَبِّكِ، فأدِّهَا كمَا أَوجَبَهَا عليكَ، واتقِ اللهَ في مُعاملتِكَ ومتجرِكَ، فخذِ الحلالَ، واتركِ الحرامَ، واتَّقِ اللهَ في وظيفتكَ، فأدِّ العملَ الذي كُلِّفتَ بهِ على الوجهِ المطلُوبِ.

---

(١) أخرجه مسلم(١٧٣١) من حديث بريدة.

ثمَّ لمَا كانَ العبدُ لاَ بُدَّ أنْ يحصلَ منهُ تقصِيرٌ في حُقُوقِ التَّقوىٰ وواجِباتِها، أَمرَ ﷺ بمَا يدفعُ ذلكَ ويمحُوهُ وهو أنْ يُتبعَ السَّيِّئَةَ الحسنةَ، قالَ تعالىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [هُود: ١١٤]، والحسنةُ اسمٌ جامع لكلِّ مَا يُقرِّبُ إلى اللهِ تعالَى، وأعظمُ الحسناتِ الماحيةِ للسَّيِّئَاتِ: التَّوبةُ النَّصُوحُ والاستغفارُ، والإنابةُ إلى اللهِ بذِكرهِ وحُبِّهِ وخوفِهِ ورجائِهِ، وقدْ وصفَ اللهُ المؤمنينَ في كتابِهِ بمثلِ مَا وصَّىٰ بهِ النبيُّ ﷺ في هذَا الحديثِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ومعنىٰ قولِهِ: ﴿ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ ذكَرُوا عظمتهُ، وشدَّةَ بطشهِ وانتقامِهِ، وعِقَابَهُ على المعصِيَةِ، فأوجبَ ذلكَ لهُمُ الرُّجُوعَ فِي الحالِ، والاستغفارَ، وتركَ المعاصِي.

وفي قولِهِ ﷺ: «أتبعِ السَّيِّئَةَ الحسنة» إشارةٌ إلى طلبِ المُبادَرةِ بالتَّوبةِ، وعدمِ تأخِيرِهَا؛ لأنَّ قبولَ التَّوبة مشرُوطٌ بأن يكونَ قبلَ حُلُولِ الموتِ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ ﴾ [النساء: ١٧، ١٨]، ولاَ أحدَ يدرِي في أيِّ وقتٍ وأيِّ أرضٍ وعلىٰ أيِّ حالٍ يكونُ أجلُهُ، قالَ تعالَىٰ: ﴿ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ ﴾ [لقمان: ٣٤].

ثم قال ﷺ: «وخالقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»، وهذا من خصالِ التَّقوىٰ،

ولاَ تتمُّ التَّقوىٰ إلاَّ بهِ، وأَفْردَه ﷺ للحاجةِ إلى بيانهِ، فإنَّ كثيراً من الناس يظُنُّ أنَّ التَّقوىٰ هى القِيامُ بحقِّ اللهِ دونَ حقوقِ عبادِه، فأمر بإحسانِ العشرةِ للناسِ، وأوَّلُ الخُلُقِ الحسنِ أنْ تكُفَّ عن الناسِ أذاكَ، وتعفُوَ عن مساوِئِهم وأذَّيتِهم لكَ، ثمَّ تُعامِلُهُم بالإحسانِ القوليِّ والإحسانِ الفعلِي من بشاشةِ الوَجهِ ولطفِ الكلامِ، وأنْ تُعامِلَ كُلَّ أحدٍ بمَا يليقُ بهِ ويُناسبُ حالهُ، من صغيرٍ وكبيرٍ، وعاقلٍ وأحمقَ، وعالمٍ وجاهلٍ، وقدْ عَدَّ اللهُ في كتابهِ مخالقةَ الناسِ بخُلُقٍ حسنٍ من خصَالِ التَّقوىٰ، قالَ تعَالَى في الجنَّةِ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

أَيُّهَا الإخوةُ، كمْ علَّقَ اللهُ على التَّقوىٰ من خيرٍ في الدُّنيا والآخرةِ فأخبرَ أنَّ الجنَّةَ أُعدَّتْ للمتَّقينَ، ورتَّبَ على التَّقوىٰ حُصُولَ العلمِ النَّافعِ، فقالَ تعَالىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق: ٤]، ولمْ يزلِ السَّلفُ يتواصَونَ بالتَّقوىٰ في خُطَبِهم ومُكاتَباتِهم ووصايَاهُم عندَ الوفاةِ، كتَبَ عُمرُ إلى ابنِهِ عبدِ اللهِ: أمَّا بعدُ، فإنِّي أوصِيكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه من اتَّقاهُ وقاهُ، ومنْ أقرَضَهُ جزاهُ، ومنَ شَكَرَهُ زادَهُ.

وأوصَىٰ عليٌّ رجُلاً فقالَ: أُوصِيكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، الذِي لاَ بُدَّ لكَ منْ لِقائِهِ، ولاَ مُنتَهى لكَ دُونهُ، وهو يملكُ الدُّنيا والآخرة.

وكتبَ عمرُ بنُ عبد العزيزِ إلى رجُلٍ فقالَ: أُوصِيكَ بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ،

الذي لاَ يقبلُ غيرَهَا، ولاَ يرحَمُ إلاَّ أهلَهَا، ولاَ يُثِيب إلاَّ عليهَا، فإنَّ الواعِظِينَ بِهَا كثيرٌ، والعامِلينَ بها قليلٌ.

جعلنَا اللهُ وإيَّاكُم منَ المتَّقِينَ.

أعوذ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ. . . ﴾ الآيات، إلى قولهِ تعالَى: ﴿ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦].

* * *

فِي تَغْلِيظِ شَهَادَةِ الزُّورِ

الحمدُ للهِ، القائِلِ في كتابِهِ المُبينِ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، أحمدُهُ وهُو الغفُورُ الشَّكُورُ، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ لهُ، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ، وهُو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولهُ، حذَّرَ من شهادَةِ الزُّورِ غايةَ التَّحْذِيرِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلىٰ آلِهِ وأصحابهِ، صَلاَةً وسلامًا دائِمينِ إلى يومِ البعثِ والنُّشُورِ.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ، وتحرَّزُوا منْ آفاتِ ألسنتِكُم، فإنَّها وخِيمَةٌ، واجتنبُوا شَهادَةَ الزُّورِ، فإنَّ عُقُوبَتَها عظيمةٌ، فقدْ قرنَهَا اللهُ بالشركِ في قولِهِ تعَالىٰ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾ [الحج: ٣٠]، روى الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ: أن رسولَ اللهِ ﷺ قامَ خطِيبًا فقالَ: «**أَيُّهَا الناسُ، عدلَتْ شهادةُ الزُّورِ إشراكًا باللهِ**» ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم قرأَ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠﴾[1] [الحج: ٣٠].

وفي الصَّحيحينِ عنْ أَبِي بكرٍ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أَلاَ أُنبِّئُكم بأكبرِ الكبائرِ؟**» قُلنَا: بَلَى يَا رسولَ اللهِ، قالَ: «**الإِشراكُ باللهِ، وعُقُوقُ الوالدين**» وكانَ مُتَّكِئًا فجلسَ فقالَ: «**أَلاَ وقولُ الزُّورِ، أَلاَ وشهادةُ الزُّورِ**» فمَا زالَ يُكرِّرُها حتَّى

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٩)، والترمذي (٢٣٠٠) وابن ماجه (٢٣٧٢) من حديث خريم ابن فاتك.

قُلنَا: ليتَهُ سكتَ[(١)].

وروى ابنُ ماجه والحاكمُ ـ وقالَ: صحيحُ الإسناد ـ من حديثِ ابنِ عُمر، رضي اللهُ عنهُما، عن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ: «**لنْ تزُولَ قدمَا شاهِدِ الزُّورِ يومَ القِيامةِ، حتَّى تَجِبَ لَهُ النَّارُ**»[(٢)].

عِبادَ اللهِ، وشهادةُ الزُّورِ هي الشهادةُ الكاذبةُ، التي ليسَ لهَا أساسٌ من الصِّحَّةِ، بِأَنْ يشهدَ الإنسانُ بِمَا ليسَ لهُ بهِ علمٌ، إمَّا بدافعِ الحميَّةِ لِمُناصرةِ المشهودِ لهُ بالباطلِ، وإمَّا بدافعِ الطَّمعِ بمَا يُعطِيهِ المشهُودُ لهُ منْ مُكافأَةٍ ماليَّةٍ أو غيرِهَا، دُونَ التَّفكيرِ في العاقبةِ الوَخِيمَةِ، ودُونَ خوفٍ منَ اللهِ. إنَّ الشهادةَ يَجبُ أنْ تكُونَ عن علمٍ بالمشهودِ بهِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أي يعلمُونَ بقُلُوبِهِم مَا تشهدُ بِهِ ألسنتُهُم، فلاَ يجُوزُ للإنسانِ أنْ يشهدَ إلاَّ بِمَا يتحقَّقُهُ، إمَّا بُرؤْيةٍ أَوْ سماعٍ منَ المشهودِ عليهِ، ونحوِ ذلكَ ممَّا يُفيدُ العلمَ لدى الشَّاهِدِ. ومَا لاَ يعلمُهُ لاَ يجوزُ له أنْ يشهدَ بهِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٦].

فتحفَّظُوا ـ يا عبادَ اللهِ ـ في شهادَتِكُم، وتحرَّزُوا ممَّا تنطِقُ بهِ ألسنتُكُم؛ فإنَّ شاهِدَ الزُّورِ قد ارتكبَ أُمُورًا خطِيرَةً، منِهَا الكذِبُ والافتراءُ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [النحل: ١٠٥]، وقالَ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [غافر: ٢٨].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣، ٦٢٧٤، ٦٩١٩) ومسلم (٨٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٣٧٣) من حديث ابن عمر.

ومن المحاذيرِ التي ارتكبها شاهدُ الزُّورِ: أنَّهُ ظلمَ الذي شهدَ عليهِ، فاستُبِيحَ بشهادتِهِ عليهِ دمُهُ أو مالُهُ أوْ عرضُهُ.

ومن المخاطرِ التي ارتكبهَا شاهدُ الزُّورِ أنَّه ظلمَ المشهُودَ لهُ، حيثُ ساقَ إليهِ بمُوجَبِ شهادتِهِ حقَّ غيرهِ ظُلمًا وعُدوانًا، فباعَ دِينهُ بدنْيَا غيرِهِ، وظَلَمَ الناسَ للناسِ.

ومنَ المخاطرِ التي وقعَ فيها شاهدُ الزُّورِ: أنَّهُ استباحَ مَا حرَّمَ اللهُ منَ الكذِبِ وأموَالِ الناس ودمائِهم وأعراضِهِم، فاستباحَ محرَّماتٍ كثيرةً.

يَا شاهِد الزُّورِ، لقد ظلمتَ نفسكَ، وظلمتَ الناسَ للناسِ، وبعتَ دِينكَ بدنيا غيرِكَ. إنَّ شاهِدَ الزُّورِ من الذينَ يُفسدُونَ في الأرضِ ولاَ يصلحونَ، شاهِدُ الزُّورِ خائنٌ يقلبُ بشهادتهِ الحقَّ باطِلاً والباطلَ حقًّا، شاهِدُ الزُّورِ يُغرِّرُ بالحُكَّامِ، ويُفسدُ الأحكامَ، ويُساعدُ أهلَ الإجرامِ، كمْ خرَّبتْ شهادةُ الزُّورِ منْ بُيوتٍ عامرةٍ، وضيَّعتْ حقوقًا واضحة، وأزهقتْ أرواحًا بريئةً، كم فرقتْ بينَ المرءِ وزوجِهِ، كم منعتْ صاحِبَ الحقِّ من حقِّهِ، وجرَّأت المفسدِينَ على الفسادِ.

عِبادَ اللهِ، وفي وقتِنَا هذا قدْ كثُرَ التَّساهلُ في الشَّهادةِ، خُصُوصًا في مجالِ التَّزكياتِ، فإذا طُلبَ تزكِية شخصٍ يُبادرُ الكثيرُ إلى تزكِيتهِ، دُونَ علمٍ منهُم بحالِهِ وسُلوكهِ، ودُونَ اعتبارٍ لمَا يترتَّبُ على هذِه التَّزكِيةِ من مخاطِرَ، فقد يتولَّىٰ هذَا الشَّخصُ المُزَكَّى منصبًا يُسِيءُ فيهِ إلى المسلمينَ، أو يستغلُّ هذِه التَّزكِيةَ للتَّغريرِ بالمُسلمينَ وأخذِ مَا لاَ يستحقُّ.

ومن التَّساهلُ في الشَّهادةِ الشهادةُ لشخصٍ أنه يستحقُّ من مالِ الدولةِ كذَا وكذَا، والواقعُ خِلافُ ذلكَ، كمَا إذَا وضعتِ الحُكُومةُ مُساعَداتٍ للفقراءِ

والمحتاجِينَ، وهو مَا يُعرفُ بالضَّمانِ الاجتماعي، فشهدَ شاهِدٌ أنَّ هذَا الشَّخصَ محتاجٌ ومستحقٌّ، وهو ليسَ كذلكَ، فهذهِ الشهاداتُ منَ الزُّورِ الذي حرَّمهُ اللهُ ورسُولهُ.

عِبادَ اللهِ، إنَّ شهادةَ الزُّورِ تُفسدُ المُجتمعات، وتحُولُ دُونَ تنفيذِ أحكامِ اللهِ، وتُغَرِّرُ بالقُضاةِ والمُفتينَ، وتُفسدُ الدُّنيا والدِّينَ، فيجبُ على وُلاةِ الأُمُورِ أنْ يُعَاقِبُوا شاهدَ الزُّورِ بالعُقوبةِ الرَّادِعةِ، ويُشهِرُوا أمرَهُ حتَّى يعرِفهُ الناسُ ويحذرُوهُ ولاَ يثقُوا بهِ.

عِبادَ اللهِ، ومن كانت عِندهُ لأخِيهِ شهادةٌ بحقٍّ، وَجَبَ عليهِ أداؤُها عندَ الحاجةِ إليهَا، قالَ تعَالَى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، أَيْ إذا دُعِيتُم إلى إقامتها، فَلاَ تخفُوها، بلْ أظهِروُها، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: شهادةُ الزُّورِ منْ أكبرِ الكبائرِ، وكتمانُهَا كذلكَ. وقدْ قالَ تعالَى ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، أَيْ فاجِرٌ قلبُهُ. وقد قِيلَ: مَا أَوْعَدَ اللهُ على شَيءٍ كإيعادِهِ على كِتمانِ الشهادةِ، قالَ: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾﴾ [البقرة: ٢٨٣]، أرَادَ بهِ مسخَ القلبِ، وخصَّ القلبَ، لأَنَّه موضِعُ العلمِ والشهادةِ، وقالَ تعالىٰ: ﴿وَلَا نَكْتُمُ شَهَـٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْـَٔاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [المائدة: ١٠٦]، فقد أضافَ الشهادةَ إلى اللهِ تشرِيفًا لها وتعظِيمًا لأَمرِهَا، لأنَّها تُفرزُ الحقُوقَ، وتُبيِّنُ الحقَّ من الباطلِ.

عِبادَ اللهِ، ولاَ يجوزُ للإنسانِ أنْ يتحمَّلَ شهادةً على جَوْرٍ أوْ أمرٍ محرَّمٍ، قالَ تعالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾ [المائدة: ٨]، أَيْ: كُونُوا قوَّامِينَ بِالحقِّ للهِ عزَّ وجلَّ، لاَ لأَجلِ الرِّياءِ والسُّمعةِ، وكُونُوا

﴿شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾، أيْ بِالعدلِ لاَ بالجورِ.

وقدْ ثبتَ في الصَّحِيحينِ عنِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّه قالَ: نحَلَنِي أَبِي نَحْلاً، فقالتْ أُمي عمرةُ بنتُ رواحَةَ: لاَ أرضَى حتَّى تُشهِدَ عليهِ رسُولَ اللهِ ﷺ، فجاءَهُ ليُشهِدهُ على صدقَتِي، فقالَ: «أكلَّ ولدِكَ نحلتَ مِثلَه؟» قالَ: لاَ، فقالَ: «اتقُوا اللهَ، واعدِلُوا بينَ أولاَدِكُم» وقالَ: «إنِّي لاَ أَشهدُ على جَورٍ»، قال: فرجعَ أَبِي، فَرَدَّ الصَّدقة[1].

فهذَا دليلٌ على أن الإنسانَ لاَ يجوزُ لهُ أنْ يشهدَ على الجورِ، لأنَّ شهادتهُ ستكونُ وسيلةً لثبُوتِهِ، فيكونُ مُعِينًا على الجورِ، وقدْ لعنَ النبيُّ ﷺ آكلَ الرِّبا وشاهديهِ وكاتِبه[2]؛ لأنَّ كتابةَ عُقودِ الرِّبا والشهادةَ عليهَا، وسيلةٌ لإثباتِهَا، وإعانةٌ على تعاطِيهَا.

عِبادَ الله، ويجبُ على الإنسانِ أنْ يشهدَ بالحقِّ ولو على نفْسِهِ أوْ أقربِ الناسِ إليه، لاَ تأْخذُهُ في ذلكَ لومَةُ لاَئِمٍ، ولاَ يصرِفهُ عن ذلكَ طمعٌ أوْ خوفٌ أوْ مُحاباةٌ، قالَ تعالَىٰ: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥]، اشهدْ بالحقِّ ولوْ عادَ ضررُ ذلكَ عليكَ، وإذا سُئِلتَ عنِ الأمرِ فقُلِ الحقَّ فيهِ ولو عادَتْ مضرَّتُهُ عليكَ، فإنَّ الله سيجعلُ لمنْ أطاعَهُ فرجًا ومخرجًا من كلِّ أَمرٍ يضِيقُ عليهِ، وإنْ كانتِ الشهادةُ على والديكَ وقرَابَتِكَ، فَلاَ تراعِهِم فيهَا، فإنَّ الحقَّ حاكِمٌ على كلِّ أحدٍ، ولاَ تُراعِ غنيًّا لِغناهُ ولاَ فقِيرًا لِفقرِهِ في أمرِ الشَّهادةِ، فاللهُ أَوْلَى بِهِما منكَ، وأعلمُ بِمَا فيهِ صَلاحهمَا، فاللهُ أرحمُ بعبادِهِ منكُم، فقد تظُنُّونَ أنَّ في الشهادةِ عليهم مضرَّةً،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٧) ومسلم (١٦٢٣/ ١٣) من حديث النعمان بن بشير أيضا.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٧) من حديث ابن مسعود، وفي (١٥٩٨) من حديث جابر.

وفي الحقيقَةِ أنَّ الشَّهادَةَ عليهِم فِيهَا رحمةٌ بِهِمْ، ومصلحةٌ في تخلِيصِهِم منَ المظالِمِ، وتطهِيرِهِم منَ المَآثِمِ.

عِبادَ الله، إنَّ الشَّهادةَ ليستْ مُجرَّدَ قولٍ باللِّسانِ، ولكِنَّهَا كلمةٌ يتَرتَّبُ عليهَا عدلٌ أوْ جورٌ، وتُبْنَى عليهَا الأحكامُ، وتُنزَعُ بِهَا حقوقٌ، وتُسفكُ بِهَا دِماءٌ، ويُفرَّقُ بِهَا بينَ زوجينِ، فاتقُوا اللهَ فيمَنْ تشهدُونَ عليهِ، وفِيمَنْ تشهدُونَ لَهُ، وتثبَّتُوا فِيمَا تنطِقُونَ بهِ.

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ اللهِ الرحمن الرحيمِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

* * *

التَّحذيرُ مِنَ التَّسَاهُلِ في اليَمِينِ

الحمدُ للهِ الذي أَمَرَ أهلَ الإيمانِ بحفظِ الأيمانِ، وتوعَّدَ الذينَ يشترُونَ بِعهْدِ اللهِ وأيمانِهِم ثمنًا قليلاً بالعذابِ الأليمِ والخُسْرانِ، وأشهدُ أنْ لاَ إِلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شَرِيكَ لهُ، يحُثُّ عبادَهُ على التزامِ الصِّدقِ، ويعدُهُم عليهِ الثوابَ الجزيلَ ودُخُولَ الجنانِ، وأشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، الصَّادقُ الأمينُ، صَلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ والتَّابِعينَ لهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدِّينِ، وسلمَّ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ واعلمُوا أَنَّ شأنَ اليمينِ عندَ اللهِ عظيمٌ، وخطرَ التَّساهُلِ بِهَا جَسيمٌ، فليستِ اليمينُ مُجرَّدَ كلمةٍ تمُرُّ على اللِّسانِ، ولكنَّهَا عهدٌ وميثاقٌ يُنْتهىٰ عندْ حدِّه، ويجبُ أنْ يُوَفَّى حقَّهُ، قالَ ﷺ: **«منَ حلفَ باللهِ فليصدُقْ، ومنْ حُلِفَ لهُ باللهِ فليرضَ، ومنْ لمْ يَرضَ فليسَ منَ اللهِ»**(١)، واللهُ تعالَىٰ يقُولُ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: يُرِيد: لاَ تحلِفُوا. فيكونُ معنَى الآيةِ على هذَا هو: النَّهي عنِ الحلفِ، فلاَ ينبغِي للإنسانِ التَّسرُّعُ إلى اليمِينِ إلاَّ عندَ الحاجةِ، فإنَّ كثرةَ الحلفِ تدلُّ على الاستِخفافِ بالمحلُوفِ بهِ، وعدمِ تعظِيمهِ، وكثرةُ الحلفِ منْ صِفاتِ الكُفَّارِ والمُنافقينَ، قالَ اللهُ تعالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠﴾ [القلم: ١٠]، فنَهَىٰ نبيَّهُ عن طاعةِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٠١) من حديث ابن عمر. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧١٤٧).

الحلَّاف، وهُو كثيرُ الحلِفِ، وقالَ عنِ المُنافِقينَ: ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المجادلة: ١٤]، وقالَ عنهُم: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المجادلة: ١٦]، أَيْ جعلُوا الأيمانَ وقايةً يتَوَقَّونَ بِهَا مَا يكرهُونَ، ويخدعونَ بِهَا المُؤمِنينَ. ومن قبلِهِم حلفَ إبليسُ لآدَمَ وَزوجِهِ، ليخْدَعَهُما باليمينِ، قالَ اللهُ تعالىٰ عنهُ: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف: ٢١]، أَيْ أَقسمَ لهُمَا أنَّهُ يُرِيدُ لهُمَا النُّصْحَ والمصلَحَةَ، ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ [الأعراف: ٢٢] أَيْ خدعهُما بذلكَ القسمِ، وأَوقعهُما في المعصيةِ والمُصِيبةِ.

أيُّهَا المسلمونَ، ومن الاستخفافِ باليمينِ أنْ تُتَّخذ وسيلةً لِترويجِ السِّلعِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**الحلفُ منفقةٌ للسِّلعِ، ممحقةٌ للكسبِ**»(١)، رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ. ومعناهُ: أنْ يحلِفَ صاحِبُ السِّلعةِ أنَّه أُعطِيَ فِيهَا كذَا وكذَا، أو أنَّه اشتراهَا بكذَا وكذَا، وهو كاذِبٌ في ذلكَ، وإنَّمَا يُريدُ التَّغريرَ بالمُشتَري، ليُصدِّقهُ بموجَبِ اليَمِينِ، فيكُونُ هذا الحالِفُ عاصِيًا للهِ، آخذًا للزِّيادةِ بغيرِ حقٍّ، فيُعاقبهُ اللهُ بمحقِ البركةِ منْ كسبِهِ، ورُبَّما يتْلِفُ اللهُ مالهُ كُلَّهُ.

وقالَ ﷺ: «**ثلاثةٌ لاَ يُكلِّمُهُم اللهُ، ولاَ يُزَكِّيهِم، ولهُم عذابٌ أَلِيمٌ: أُشيمطٌ زانٍ، وعائِلٌ مُستكبرٌ، ورجلٌ جعلَ اللهَ بضاعتَهُ؛ لاَ يشتري إلاَّ بيمِينهِ، ولاَ يبِيعُ إلاَّ بيمِينهِ**»(٢)، رَواهُ الطَّبرانِيُّ بسندٍ صحيحٍ، ومعنىٰ «جعلَ اللهَ بضاعتَهُ» أيْ: جعلَ الحلِفَ باللهِ وسيلةً لترويجِ بضائِعِهِ، فيُكثرُ منَ الأيمانِ لِيخدعَ الناسَ، فيشترُوا منهُ اعتمادًا على يَمِينِهِ الكاذِبةِ، فكانَ جزاؤُهُ إعراضَ اللهِ عنهُ يومَ القيامةِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٨٧) ومسلم (١٦٠٦) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الطبراني في معاجمه الثلاثة والبيهقي في الشعب وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٧٢) من حديث سلمان.

فلاَ يُكلِّمهُ ولاَ يُزكِّيهِ ولهُ عذابٌ أليمٌ. وانظُر كيفَ قرنَهُ بالزَّانِي والمستكبِرِ؛ ممَّا يدُلُّ على عِظمِ جرِيمتهِ، نعُوذُ باللهِ من غضبهِ وعِقابهِ.

أَيُّهَا المسلمونَ، وقد يتساهلُ بعضُ الناسِ ـ أوْ كثيرٌ منهُم ـ بالأيمانِ في مجالِ الخُصُوماتِ والتَّقاضِي، فيحلِفُ الخصمُ ليكسبَ القضيَّةَ ويتغلَّبَ على خصمِهِ بالباطلِ، دُونَ مُبالاَةٍ بحُرْمةِ اليمينِ، والجُرْأَةِ على رَبِّ العالمِينَ.. واسمعوا ماوردَ في حقِّ هذا منَ الوعيدِ الشديدِ، قالَ الله تعالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٧].

وروى الإمامُ أحمدُ والنسائي: أن رجُلاً من كِنْدَةَ، يقالُ له امرؤُ القيسِ، خاصَمَ رجُلاً من حضرموت إلى رسولِ اللهِ ﷺ في أرضٍ، فقضَى على الحضرميِّ بالبيِّنةِ، فلمْ يكنْ له بيِّنةٌ، فقضَى على امرئ القيسِ باليمينِ، فقالَ الحضرميُّ: أَمَكَّنْتَهُ من اليمينِ يا رسولَ اللهِ؟ ذهبتْ وربِّ الكعبةِ أرْضِي، فقالَ النبيُّ ﷺ: «مَنْ حلفَ على يمينٍ كاذبةٍ ليقتطعَ بها مالَ أحدٍ لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو عليهِ غضبانُ». وتلا رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا... ﴾[١] الآية [آل عمران: ٧٧].

وروى الإمامُ مسلمٌ في صحيحِهِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «من اقتطعَ حقَّ امرئٍ مسلمٍ بيمينِهِ، فقدْ أوجَبَ اللهُ له النارَ، وحرَّمَ عليهِ الجنَّة» فقالَ له رجلٌ: وإن كانَ شيئًا يسيرًا يا رسولَ اللهِ؟ قال: «وإن كانَ قضيبًا من أراكٍ»[٢]، وروَى

(١) أخرجه أحمد (١٧٢٦٣) والنسائي في الكبرى (٥٩٩٥) من حديث عدي بن عميرة.
(٢) أخرجه مسلم (١٣٧) من حديث أبي أمامة.

البخاريُّ في صحيحهِ: أنَّ أعرابيًّا جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا رسولَ اللهِ، ما الكبائرُ؟ قال: «الإشراكُ باللهِ» قالَ: ثم ماذا قالَ: «اليمينُ الغموسُ» قُلتُ: وما اليمينُ الغموسُ؟ قالَ: «الذي يقطعُ مالَ امرئٍ مسلمٍ» يعني بيمينٍ هو فيها كاذبٌ[1].

عِبادَ اللهِ، ومنَ الأيمانِ المنْهي عنها: اليمينُ التي يحلفُ بها المسلمُ ليمتنعَ بها من فعلِ الخيرِ، قالَ تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النور: ٢٢]، أي لاَ تحلفُوا ألا تصِلُوا قراباتِكُم، وتصدَّقُوا على المساكينِ والمحتاجينَ، وإذا حلَفَ الإنسانُ على ألا يفعلَ الخيرَ فإنَّهُ يُشْرعُ لهُ أنْ ينقضَ يمينَهُ، ويفعل ما حلَفَ على ترْكِهِ، ويُكفِّر عن يمينِهِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢٢٤]، أيْ: لاَ تجعلُوا أيمانكُم باللهِ مانعةً لكُم من البرِّ وصلةِ الرحمِ، إذا حلفتُمْ على تركِهَا، وذلكَ بأنْ يُدْعَى أحدُكُمْ إلى صلةِ رحمِهِ أو عملِ برٍّ، فيمتنعُ ويقولُ: حَلفْتُ ألا أفْعلهُ، وتكونُ اليمينُ مانعةً له من فعلِ الخيرِ، بلْ يكَفِّرُ عنْ يمينِهِ، ويفعلُ الخيرَ.

وفي الصحيحينِ عن النبيِّ ﷺ: «إنِّي واللهِ ـ إنْ شاءَ اللهُ ـ لاَ أحلِفُ على يمينٍ، فأرى غيرَهَا خيرًا منها، إلاَّ أتَيْتُ الذي هو خيرٌ، وكَفَّرتُ عنْ يمينِي»[2].

وإذا حلفَ على تركِ مباحٍ، كلبسِ ثوبٍ أو ركوبِ دابةٍ، أو أكلِ طعامٍ ونحو ذلكَ، فإنَّه يُخَيَّرُ بينَ الاستمرارِ على يمينِهِ وترْكِ المحلوفِ عليهِ، أو استعمالِهِ والتكفيرِ عن يمينِهِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْۚ ﴾ [التحريم: ٢] أي: شرع

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٢٠) من حديث عبد الله بن عمرو.

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٣، ٦٦٢٣) من حديث أبي موسى الأشعري.

تحليلها بالكفارةِ، وهو ما ذكرهُ في سورةِ المائدةِ في قولِهِ تعالَى: ﴿فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، فكفارةُ اليمينِ فيها تخييرٌ وترتيبٌ؛ تخييرٌ بينَ الإطعامِ والكسوةِ والعتقِ، والترتيبُ فيها بينَ ذلكَ وبين الصيامِ، فمنْ لزِمَتْهُ كفارةُ يمينٍ فهوَ مخيَّر: إن شاءَ أطعمَ عشرةَ مساكينَ، وإنْ شاءَ كساهُم، وإنْ شاءَ أعتقَ رقبةً، أيَّ هذِهِ الخِصالِ الثلاثِ فعلَ أجزأَهُ، فإنْ عجز عن الطعامِ أو الكسوةِ أو العِتْقِ، فلمْ يستطع واحدًا مِنْها لزِمَهُ صيامُ ثلاثة أيامٍ متتابعاتٍ.

عِبَادَ الله، ومن الأيمانِ المحرمةِ: الحلفُ بغيرِ اللهِ، فالحلفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ، قالَ ﷺ: «مَنْ حلَفَ بغيرِ اللهِ فقدْ كفَرَ أو أَشْركَ»[1]، رواه الترمذيُّ وحسَّنهُ وصحَّحهُ الحاكمُ، وقالَ ﷺ: «منْ كانَ حالِفًا فلْيحلِفْ باللهِ أو لِيصمتْ»[2] متفقٌ عليهِ، وقالَ ﷺ: «منْ حلفَ بالأمانةِ فليسَ مِنَّا»[3]، حديثٌ صحيحٌ رواهُ أبو دوادَ بإسنادٍ صحيحٍ.

فالحلفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ؛ لأنَّ الحلفَ بالشيءِ تعظيمٌ له، والتعظيم الذي مِنْ هذا النوعِ حقٌّ للهِ، فالحلفُ بغيرِهِ من اتخاذِ الأندادِ له، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، قالَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما: هو أنْ تقولَ: وحياتِكَ وحياتِي.

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وأبو داود (٣٢٥١) وأحمد (٦٠٣٦) من حديث ابن عمر وصححه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٧٩، ٦٦٤٦) ومسلم (١٦٤٦) من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٢٥٣) من حديث بريدة. وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٢٠٣).

وقدْ كَثُرَ في هذا الزمانِ منْ يحلفُ بالشرفِ، أوْ يحلفُ بالنبيِّ أو بالأمانةِ، وكلُّ هذا ممَّا نَهَى عنه اللهُ ورسولهُ، فيجبُ على منْ صدَرَ منه شيءٌ من ذلكَ أن يتوبَ إلى اللهِ تعالَى، ولا يحلفَ إلاَّ باللهِ عزَّ وجلَّ، ليسلمَ من الشِّركِ.

قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ وغيرُهُ: لأَنْ أحلفَ باللهِ كاذبًا أَحبُّ إليَّ مِنْ أنْ أحلفَ بغيرِهِ صادِقًا، وذلكَ لأنَّ الحلفَ باللهِ على الكذبِ محرَّمٌ، لكنَّ الحلفَ بغيرِ اللهِ أشدُّ تحريمًا، لكونِهِ من الشِّركِ، وسيئةُ الكذبِ أخفُّ من سيئةِ الشِّركِ.

فاتقُوا اللهَ، عِبادَ اللهِ، وعظِّموا اليمينَ باللهِ، ولا تتساهَلُوا في شأنِها، واحذَرُوا من الحلفِ بغيرِ اللهِ، لتسلمَ عقيدتكُم، وتصلحَ أحوالكُم.

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٨٩﴾ [المائدة: ٨٩].

* * *

النَّهي عنِ الإسبالِ في اللباسِ

الحمدُ للهِ الذي امْتَنَّ على عبادِهِ بلباسٍ يُوارِي سوءاتِهِم، ويجمِّلُ هيئاتِهِم، وحثَّ على لباسِ التَّقوى، وأخبرَ أنَّهُ خيرُ لباسٍ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ له، لهُ ملكُ السمواتِ والأرضِ، وإليهِ المصيرُ يومَ العرضِ. وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، ما تَرَكَ خيرًا إلاَّ دَلَّ أُمَّتَهُ عليهِ، ولاَ شرًّا إلا حذَّرهَا منه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، ومنْ سَارَ على نهجِهِ وتمسَّكَ بِسُنَّتِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ تعَالَى، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، يَمْتَنُّ تعالَى على عبادِهِ بما جعلَ لهم من اللباسِ والريشِ، واللباسُ المرادُ به سترُ العوراتِ وهي السوءاتُ، والريشُ هو ما يُتجَمَّلُ به ظاهرًا. فاللباسُ من الضرورياتِ، والريشُ من التكميلياتِ.

روَى الإمامُ أحمدُ قالَ: لبسَ أبو أمامةَ ثوبًا جديدًا، فلمَّا بلغَ ترقوتَهُ قالَ: الحمدُ للهِ الذِي كسانِي ما أُوارِي به عَوْرتِي، وأتجملُ به في حياتِي. ثُمَّ قالَ: سمعتُ عمرَ بنَ الخطابِ يقولُ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«مَن استجدَّ ثوباً فلبِسَهُ، فقالَ حينَ يبلغُ ترقوتَهُ: الحمدُ للهِ الذي كسانِي ما أواري به عورَتِي، وأتجملُ به في حياتِي، ثمَّ عمدَ إلى الثوبِ الخلقِ فتصدَّقَ به ـ كانَ في ذمَّةِ اللهِ، وفي جوارِ**

اللهِ، وفي كنفِ اللهِ، حيًّا وميتًا»[١].

ولمَّا امتنَّ سبحانهُ باللباسِ الحسيِّ الذي يُتَّخَذُ لِسترِ العورةِ وتدفئة الجسم وتجميل الهيئة، نبَّه على لباسٍ أحسنَ منه وأكثر فائدة؛ وهو لباسُ التَّقوى الذي هو التَّحَلِّي بالفضائلِ، والتَّخَلِّي عن الرذائلِ، ولباسُ التَّقوى هو الغايةُ وهو المقصودُ، ولباسُ الثيابِ معونةٌ عليهِ، ومنْ فقدَ لباسَ التَّقْوى لم ينفعهُ لباسُ الثيابِ؛

إذا المرءُ لم يلبسْ ثيابًا مِنَ التُّقَى تقَلَّبَ عُرْيَانًا وإنْ كانَ كاسِيًا

ولباسُ التَّقوى يستمرُّ معَ العبدِ، لاَ يَبْلَى ولاَ يَبيدُ، وهو جمالُ القلبِ والروحِ، ولباسُ الثيابِ إنَّما يستُرُ العورةَ الظاهرةَ في وقتٍ من الأوقاتِ، ثُمَّ يَبْلَىٰ ويَبيدُ، وقولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦﴾ [الأعراف: ٢٦]، أيْ ذلكَ المذكورُ لكُمْ من اللِّباسِ ممَّا تتذكرونَ به نِعمةَ اللهِ عليكُم فتشكرونهُ، وتتذكرونَ بحاجتِكُم إلى اللباسِ الظاهرِ حاجتَكُم إلى اللباسِ الباطنِ، وتعرفونَ من فوائِدِ اللباسِ الظاهرِ ما هو أعظمُ منها من فوائِدِ اللباس الباطن، الذي هو لباس التقوى.

عِبادَ اللهِ، إنَّ اللباس منْ نِعم اللهِ على عبادِهِ، التي يجبُ شكرُهَا والثناءُ عليهِ بها، وإنَّ اللباسَ له أحكامٌ شرعيةٌ تجبُ معرفتُها والتقيد بها، فالرجالُ لهم لباسٌ يختصُّ بهِم في نوعِهِ وكيفيتهِ، وللنساءِ لباسٌ يختصُّ بهنَّ في نوعِهِ وكيفتِهِ، ولاَ يجوزُ لأحدِ الجنسينِ أنْ يشاركَ الآخرَ في لباسهِ، فقد لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ المتشبهينَ من الرجالِ بالنساءِ، والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجالِ[٢]، وقالَ ﷺ:

---

(١) أخرجه أحمد (٣٠٧) عن أبي العلاء الشامي عن أبي أمامة.
(٢) أخرجه البخاري (٥٨٨٥) من حديث ابن عباس. وفي معناه أحاديث في الصحيحين.

«لَعَنَ اللهُ المرأةَ تلبَسُ لِبْسةَ الرجُلِ، والرجُلَ يلبَسُ لِبْسةَ المرأةِ»[١]، رواهُ أحمدُ وأبو داودَ.

ويحرمُ على الرجالِ إسبالُ الإزارِ والثوبِ والبشْتِ والسراويلِ، وهو من الكبائرِ، والإسبالُ هو نزولُ الملبوسِ عن الكعبينِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾ [لقمان: ١٨]، وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «منْ جَرَّ ثوبَهُ خيلاءَ لمْ ينظُرِ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ»[٢]، رواهُ البخاريُّ وغيرُهُ، وعنِ ابنِ عمرَ عنِ النبيِّ ﷺ: قالَ: «الإسبالُ في الإزارِ والقميصِ والعمامةِ، ومنْ جَرَّ شيئًا خيلاءَ لم ينظرِ اللهُ إليهِ يومَ القيامةِ»[٣]، رواهُ أبو داودَ والنسائيُّ وابنُ ماجه، وعنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «لاَ ينْظُرُ اللهُ إلى منْ جَرَّ إزارَهُ بَطَرًا»[٤]، متفقٌ عليهِ، ولأحمدَ والبخاريِّ: «ما أسفلَ من الكعبينِ من الإزارِ في النارِ»[٥]، وقالَ عليه الصلاةُ والسلامُ: «ثلاثةٌ لاَ يكلِّمُهُم اللهُ يومَ القيامةِ، ولاَ ينظرُ إليهِم، ولاَ يزكيهِم، ولهم عذابٌ أليمٌ: المسبلُ، والمنانُ، والمنفِقُ سلعتَهُ بالحَلفِ الكاذبِ»[٦].

عِبَادَ اللهِ، معَ هذا الوعيدِ العظيمِ الواردِ في حقِّ المُسْبلِ، نرى بعضَ المسلمينَ لاَ يَهتمُّ بهذا الأمرِ، فيتركُ ثوبَهُ أو بشتَهُ أو سراويلَهُ تنزلُ عن الكعبينِ، وربما تلامِسُ الأرضَ، وهذا مُنكرٌ ظاهرٌ، ومحرمٌ شنيعٌ وكبيرةٌ من كبائرِ

---

(١) أخرجه أحمد (٨١١٠) وأبو داود (٤٠٩٨) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٦٥، ٥٧٨٣، ٥٧٩١) ومسلم (٢٠٨٥) من حديث ابن عمر.
(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٤) والنسائي (٥٣٣٤) وابن ماجه (٣٥٧٦) من حديث ابن عمر.
(٤) أخرجه البخاري (٥٧٨٨) ومسلم (٢٠٨٧) من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه أحمد (٧٤١٧)، ٩٦١٨) والبخاري (٥٧٨٧) من حديث أبي هريرة.
(٦) أخرجه مسلم (١٠٦) والترمذي (١٢١١) من حديث أبي ذر. واللفظ للترمذي.

الذنوبِ، فيجبُ على من فعلَ ذلكَ أن يتوبَ إلى اللهِ، ويرْفعَ ثيابَهُ على الصفةِ المشروعةِ، قالَ عليهِ الصلاةُ والسلامُ: «**أُزْرَةُ المؤمنِ إلى نصفِ ساقَيْهِ، ولا حرجَ عليهِ فيما بينَهُ وبينَ الكعبينِ، مَا كانَ أسفل من الكعبينِ فهوَ في النارِ**»(١).

وبجانبِ أولئكَ المسبلينَ فريقٌ من المستهترينَ، الذينَ يرفعونَ لباسَهُم فوقَ الركبتينِ، فتبدُو أفخاذُهُم أو بعضُها، كما يفعلُهُ بعضُ الفرقِ الرياضيةِ في الملاعبِ، ويفعلُهُ بعضُ العمالِ، والفخذانِ من العورةِ التي يجبُ سترُهَا ويحرمُ كشفُهَا؛ عن عليٍّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لاَ تُبْرِزْ فخذَكَ، ولاَ تنظُرْ إلى فخذِ حيٍّ ولا ميتٍ**»(٢) رواهُ أبو داودَ وابنُ ماجه.

عبادَ اللهِ، وممّا يحرمُ على الرجالِ لبسُهُ: الحريرُ؛ ففي الصحيحينِ: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**منْ لبسَ الحريرَ في الدنيا لمْ يلبسْهُ في الآخرةِ**»(٣) وهذا وعيدٌ شديدٌ يدلُّ على شدَّةِ تحريمِ لبسِ الحريرِ في حقِّ الرجالِ، وأنَّ منْ لَبِسَهُ منهُم في الدُّنيا، حُرِمَ لُبسَهُ في الآخرةِ، حينَمَا يلبَسُهُ أهلُ الجنَّةِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝﴾ [الحج: ٢٣]، وعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُمَا قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّما يلبسُ الحريرَ في الدُّنيا مَنْ لاَ خلاقَ لَهُ في الآخرةِ**»(٤)، متفقٌ عليهِ.

ويحرمُ على الرجالِ لبسُ الذَّهبِ، أو شيءٍ فيه ذهبٌ، سواءٌ كانَ خاتمًا أو حِزامًا أو سلسلةً أو النظارتينِ أو الساعةَ، عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٧٧٩٧) وغيره من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٥٢) وأبو داود (٣١٤٠)، وابن ماجه (١٤٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣٢) ومسلم (٢٠٧٣) من حديث أنس. وهو في صحيح البخاري وصحيح مسلم عن غير واحد من الصحابة.
(٤) أخرجه البخاري (٦٠٨١) ومسلم (٢٠٦٨) من حديث ابن عمر.

رسولَ اللهِ ﷺ رأى خاتمًا من ذهبٍ في يدِ رجلٍ، فنزعَهُ فطرَحَهُ وقالَ: «**يَعْمِدُ أحدُكُم إلى جمرةٍ من نارٍ فيجعلُهَا في يدِهِ!**» فقيلَ للرَّجُلُ بعدَ ما ذهبَ رسولُ اللهِ ﷺ: خذْ خاتمَكَ، وانتفعْ بهِ. قالَ: لا واللهِ، لا آخذُهُ أبدًا وقد طَرَحَهُ رسولُ اللهِ ﷺ(١).

وقد صارَ بعضُ المسلمينَ يتساهلُ في هذا الأمرِ الخطيرِ، فيلبسُ خاتمَ الذَّهبِ ولاَ يُبَالِي أنَّه بفعلِهِ هذا قد عَصَى اللهَ وسولَهُ، وحملَ في يدِهِ جمرةً من النارِ طيلَةَ لبسِهِ لهذا الخاتمِ، نعم لاَ يُبالِي بذلكِ ما دامَ أنَّه أَتْبَعَ نفسهُ هواهَا، وقلَّدَ من لاَ خلاقَ لهم منْ أوباشِ الناسِ وطَغَامِهِم، وبعضُ الشبابِ يتحلَّونَ بسلاسلِ الذهبِ، تقليدًا للنساءِ، وإغراقًا في الميوعَةِ، متجاهلينَ مَا في ذلكَ من فقدِ الرجولةِ، وتعريضِ أنفسِهم للوعيدِ الشديدِ بالعذابِ الأليمِ لمنْ فعلَ ذلكَ.

عبادَ اللهِ، إنَّ الرسولَ ﷺ إنَّما حذَّرنا من هذه الأشياء: الإسبالِ في اللباسِ، والتشَبُّهِ بالنساءِ، ولبسِ الحريرِ، والتحلِّي بالذهبِ ـ إنَّما نهَانَا عن هذِه الأشياءِ، لنَتَخَلَّقَ بكلِّ معاني الرجولةِ، ونتَّصِفَ بكاملِ المروءةِ، إذِ العادةُ أنَّه لاَ يبالغُ في الزينةِ والعنايةِ بجسمِهِ وثوبِهِ ومركوبِهِ وفراشِهِ وأثاثِهِ، إلى درجةِ الإفراطِ، إلاَّ مترفٌ لَيِّنٌ، والرجلُ خشنٌ بطبعِهِ وكلما تليَّنَ خَفَّتْ رجولتُهُ ونقصتْ ذكورتُهُ، وعجزَ عن الكفاحِ والكدِّ وما خُلِقَ له في معتركِ الحياةِ.

وقد كانَ النبيُّ ﷺ يلبسُ البردَ الغليظَ الحاشية، ويفترشُ الحصيرَ، ويتوسَّدُ الجلدَ حشوُهُ الليفُ، ويركبُ البعيرَ والفرسَ والحمارَ والبغلةَ، مرةً بسرجٍ، ومرةً بلا سرجٍ، ويردِفُ خلفَهُ وبينَ يديهِ، ويمشي المسافةَ الطويلةَ على رجليْهِ، ويأكلُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٩٠).

ما تيسَّرَ من الطعام، ويأتدِمُ بما تيسَّرَ من الإدام، وقدْ قالَ اللهُ تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

نَفعنِي اللهُ وإياكُم بِهَدي كتابهِ، وجعلنَا من الذينَ يستمعونَ القولَ فيتَّبعُونَ أحسنَهُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر: ٧].

* * *

فِي التحذِيرِ مِنَ النِّفاقِ

الحمدُ للهِ الذي حذَّر من النفاقِ، وأمرَ بمكارمِ الأخلاقِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، شهادةً تُنْجِي منْ قالَها وعملَ بها من شرِّ يومِ التَّلاقِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بعثهُ ليتمَّ مكارِمَ الأخلاقِ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ، يقولُ النبيُّ ﷺ: «أَرْبَعٌ منْ كُنَّ فيهِ كانَ منافقًا خالصًا، ومَنْ كانت فيهِ خصْلةٌ منهُنَّ كانتْ فيهِ خصْلةٌ من النفاقِ حتى يَدعَهَا: إذا حدَّثَ كذبَ، وإذا وعَدَ أخْلَفَ، وإذا خاصم فجرَ، وإذا عاهدَ غَدَرَ»[1]، رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

النفاقُ مرضٌ خطيرٌ، وداءٌ وبيلٌ، وموجبٌ لِمَقتِ اللهِ وعقوبتهِ، فيجبُ على كلِّ مسلمٍ أنْ يزنَ نفسَهُ بميزانِ هذا الحديثِ، لِيرَى هلْ هو سالمٌ منهُ أو واقعٌ فيهِ.

والنفاقُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ بتعريفِهِ الجامعِ هو: إظهارُ الخيرِ، وإبطانُ الشَّرِّ، وينقسمُ إلى قسمينِ:

نفاقٌ أكبرُ، وهو النفاقُ الاعتقاديُّ، بأنْ يُظهِرَ الإنسانُ أنَّه يؤمنُ باللهِ وملائكتهِ وكتبِهِ ورسلهِ واليومِ الآخرِ، ويُبطِنُ في قلبهِ الكفرَ بذلكَ أو بعضِهِ، وهذا هو النفاقُ الذي نزلَ القرآنُ بذمِّ أهلِهِ وتكفيرِهِم، وأخبرَ أنَّهم في الدركِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨) ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عمرو.

الأسفلِ من النارِ، وقد وصفَ اللهُ هؤلاءِ المنافقينَ بصفاتِ الشرِّ كُلِّها، من الكفرِ وعدمِ الإيمانِ، والاستهزاءِ بالدينِ وأهلِهِ، وميلِهم إلى أعداءِ الدينِ لمشاركتِهِم لهم في عداوةِ الإسلامِ والمسلمينَ، وهؤلاءِ يسعونَ في إغراءِ العداوةِ بينَ المسلمينَ.

ومن صفاتِهِم الذميمةِ: أنَّهُم بخلاءُ أذِلاَّءُ سفهاءُ، ظواهرُهُم جميلةٌ، بِسِمَنِ أبدانِهِم، ونظافةِ ثيابِهِم، وحلاوةِ حديثِهِم، وبواطنُهُم قبيحةٌ، ممتلئةٌ بالكِبرِ والحسدِ والرياءِ، وسائرِ الأمراضِ النفسيةِ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤﴾ [المنافقون: ٤]، قد فضحَهُم اللهُ وهتكَ أستارَهُم في سورةِ براءة وغيرِها من سورِ القرآنِ الكريمِ، ليعرفَ المسلمونَ حقيقتَهُم، ويحذرُوهُم، ويجاهدُوهُم مع الكفارِ والمشركينَ. ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٧٣﴾ [التوبة: ٧٣].

عِبادَ اللهِ، هذا هو النوعُ الأولُ من نوعي النفاقِ، وهذه بعضُ صفاتِ أهلِهِ.

والنوعُ الثاني: **النفاقُ الأصغرُ**، وهو النفاقُ العمليُّ، بأنْ يُظْهِرَ الإنسانُ علانيةً صالحةً، ويُبطِنَ ما يخالفُهَا من الغدرِ والخيانةِ، وهو المذكورُ في الحديثِ الذي سمعتُمُوهُ قريبًا، وهذا النوعُ وإنْ كانَ لاَ يُخرجُ من الدينِ بالكليةِ، لكنَّهُ طريقٌ إلى النفاقِ الأكبرِ، فقد يُوصِلُ إلى الكفرِ ويجُرُّ إلى الشَّرِّ، وأصولُ هذا النفاقِ ترجِعُ إلى الخصالِ المذكورةِ في هذا الحديثِ، التي أحدُهَا: الكذِبُ في الحديثِ: «إذا حدَّثَ كذبَ».

والكذِبُ في الحديثِ يشملُ الحديثَ عن اللهِ ورسولِهِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [الصف: ٧]، وقال ﷺ: «من كذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا فليَتَبَوَّأْ مقعدَه

من النارِ»[١]، ومِنَ الكذِب على اللهِ ورسولِهِ: أنْ يقولَ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، من غيرِ دليلٍ. ويشملُ ذلكَ أيضًا الكذِبَ فيما يُخْبِرُ به منَ الأخبارِ، ويُحَدِّثُ به الناسَ، فمنْ كانَ هذا شأنَهُ فقد هبطَ عنْ رتبةِ الصادقينَ إلى دركِ الكاذبينَ، وسيجُرُّهُ كذبُهُ هذا إلى الفجورِ، وسيجُرُّهُ الفجورُ إلى النارِ. فلا تتساهَلُوا في شأنِ الكذبِ ـ أَيُّهَا المسلمونَ ـ فإنَّ قليلَهُ يَجُرُّ إلى كثيرِهِ، ومَنْ أكثرَ مِنْ شيءٍ عُرِفَ بهِ، والزَمُوا الصِّدقَ، فإنَّ منْ لَزِمَ الصدقَ نجا، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقالَ تعَالَى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ [المائدة: ١١٩].

الخصْلةُ الثانيةُ من خِصالِ المنافقِ: أنَّهُ «إذا اؤْتُمِنَ خانَ» أي: إذا كانتْ عندَهُ أمانةٌ من الأموالِ أو الحقوقِ أو الأسرارِ، أضاعَهَا ولم يحفظْها، فأكلَ الوديعةَ أو جَحَدَهَا، أو أهدَرَ الحقوقَ وأفشَى الأسرارَ، وإذا وُلي عملاً من أعمالِ المسلمينَ، تلاعبَ فيهِ بالمحاباة وأخذِ الرشوةِ، وعطَّلَ مصالحَ المسلمينَ.

الخصلةُ الثالثةُ من خصالِ المنافقِ: أنَّهُ «إذا عاهَدَ غَدَرَ» فهو ينكثُ العهودَ التي بينَهُ وبينَ اللهِ والعهودَ التي بينَهُ وبينَ الخلقِ، فلاَ يَفِي بالعهدِ الذي أمَرَ اللهُ بالوفاءِ بهِ في قولهِ تعالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٤] وقولِهِ: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل: ٩١] والغدرُ بالعهودِ حرامٌ حتى ولو كانتِ المعاهدةُ مع الكفارِ، فقد أَمَرَ اللهُ بالوفاءِ بعهودِهِم إذا

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩١) ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة. والبخاري (١١٠) ومسلم (٣) من حديث أبي هريرة. وقد جمع غير واحد من العلماء طرق هذا الحديث منهم الإمام الطبراني في جزء «طرق حديث من كذب علي» وابن الجوزي في مقدمة الموضوعات.

استقاموا عليها، ولمْ يَنْقُصُوا منها شيئًا، فما بالُكَ بالعهودِ معَ المسلمينَ، ومن أعظمِهَا عهدُ الإمامِ، وكذلكَ جميعُ العقودِ الجاريةِ بين المسلمينَ في المبايعاتِ والإجاراتِ، وفي الصحيحين أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «لِكُلِّ غادرٍ لواءٌ يومَ القيامةِ، فيُقالُ: هذه غُدرَةُ فلانٍ»[(١)].

ومنْ صفاتِ المنافقِ: أنَّه «إذا خاصَمَ فجرَ» فلا يتورعُ عن أموالِ الخلقِ وحقوقِهِم، فيُخاصِمُ بالباطلِ، ليستَوْلِي على حقِّ غيرِهِ، ويُضلِّلُ الحاكمَ بشهادةِ الزورِ والأيمانِ الكاذبةِ والوثائقِ المُصطَنعَةِ، فإذا كانَ ذا قُدرَةٍ عندَ الخصومةِ، فإنهُ يَنتصِرُ للباطلِ، ويُخيِّلُ للسامعِ أنَّه حقٌّ، ويُخرِجُ الحقَّ في صورةِ الباطلِ، وهذا من أقبحِ المحرماتِ، وأخبثِ خصالِ النفاقِ.

عبادَ اللهِ، منْ تجَمَّعتْ فيهِ هذِه الصفاتُ القبيحةُ: الكذِبُ في الحديثِ، والخيانةُ في الأمانةِ، والغدرُ في العهودِ، والفجورُ في الخصوماتِ ـ لمْ يَبقَ معهُ من الإيمانِ شيءٌ، وصار منافِقًا خالِصًا، فهي بمنزلةِ الأمراضِ الخطيرةِ التي متى تجمَّعتْ في جسمٍ أفسدتهُ، وقضَتْ عليهِ، ومنْ كانتْ فيه خصلةٌ واحدةٌ منها فقد اتَّصفَ المؤمنُ بصفةٍ من صفاتِ المنافقينَ، فقد صارَ فيه إيمانٌ ونفاقٌ، فإن استمرَّتْ فيه هذِه الخصلةُ الذميمة، فهي حَرِيَّةٌ أنْ تَقْضِيَ على ما معَهُ من الإيمانِ، لأنَّهَا بمنزلةِ الميكروب الخبيثِ الذي يحِلُّ بالجسمِ، فإنْ لمْ يسعَ في علاجهِ وإزالتِهِ، قَضَى على الجسمِ، وإنْ تابَ إلى اللهِ وتَرَكَ هذه الخصلةَ الذميمةَ، واتَّصفَ بِضِدِّها من صفاتِ الإيمانِ، بَرِئَ من النفاقِ وتكاملَ إيمانهُ، وهذا شأنُ المسلمِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٧) ومسلم (١٧٣٥) من حديث ابن عمر.

فالحديثُ فيهِ الحثُّ على التوبةِ من النفاقِ ومن صفاتِ المنافقينَ، والاتِّصافِ بصفاتِ المؤمنينَ الصادقينَ؛ لأنَّه يجبُ على المؤمنِ أن يَتطابَقَ ظاهرُهُ معَ باطنِهِ، على الإخلاصِ والصِّدقِ في الأقوالِ والأفعالِ، في جميعِ الأحوالِ، وفي جميعِ المواقفِ، فيكونَ قدوةً حسنةً ومثالاً صادقًا للمؤمنِ الذي يعتَزُّ بإيمانهِ، ويحافظُ على دينِهِ، فيصْدقَ في حديثِهِ، ويرعى أمانتَهُ، ويَفِي بعهدِهِ، ويصدُقَ في وعدِهِ، ويعدِلَ في خُصُومتهِ.

عِبادَ اللهِ، إن النفاقَ الأكبرَ إنَّما يُوجدُ في حالِ قوةِ المسلمينَ، ويتقمَّصُهُ أناسٌ يريدونَ أنْ يعيشُوا معَ المسلمينَ، فيأمنُوا على دمائِهم وأموالِهم، فيُظهرونَ الإسلامَ معَ بقائِهم على الكُفرِ باطنًا، ويتربصونَ بالمؤمنينَ الدوائِرَ، ويعمَلُونَ ضِدَّ المسلمينَ في خَفَاءٍ، وهذا النوعُ منَ النفاقِ لا يقعُ من مسلمٍ.

أما النفاقُ الأصغرُ فإنَّه مستمر في كلِّ وقتٍ، يقعُ منْ بعضِ المسلمينَ الذينَ ضَعُفَ إيمانُهُم، وهو الذي كانَ الصحابةُ يخافونَهُ على أنفُسِهم، كانَ عمرُ بنُ الخطابِ يسألُ حذيفةَ بنَ اليمانِ عن نفسِهِ: هلْ عدَّهُ الرسولُ منَ المنافقينَ، قالَ البخاريُّ في صحيحِهِ: قالَ ابنُ أبِي مُلَيْكَةَ: أدركْتُ ثلاثينَ من أصحابِ النبيِّ ﷺ كُلُّهُم يخافُ النفاقَ على نفسِهِ، ويُذكرُ عنِ الحسنِ قالَ: ما خافهُ إلاَّ مؤمِنٌ ولا أمِنَهُ إلاَّ منافقٌ[1].

عِبادَ اللهِ، هكذا كانَ السلفُ يخافونَ النفاقَ الأصغرَ على أنفُسِهم، لأنَّهُ وسيلةُ النفاقِ الأكبرِ، كما أنَّ المعاصيَ بريدُ الكفرِ، وكما يخشَى على منْ أصرَّ على خصالِ النفاقِ أنْ يُسلبَ الإيمانَ، فيصِيرَ منافقًا خالصًا.

---

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان، باب: خوف المؤمن من أن يحبط عمله، قبل الحديث رقم (٤٨).

فاتقُوا اللهَ في جميعِ أحوالِكُم، والزَمُوا الصِّدقَ في جميعِ تصرفاتِكُم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

أعُوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧].

* * *

فِي التحذيرِ مِنْ تضييعِ الأوقاتِ
بمُنَاسَبَةِ العُطْلَةِ الصَّيفِيَّةِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ الليلَ والنهارَ خِلْفةً لِمَنْ أرادَ أنْ يذَّكرَ أو أرادَ شُكُورًا، وأشهدُ أنْ لاَ إلٰهَ إلاَّ اللهُ وحدهُ لاَ شريكَ له، سبحانه وتعالَى عمَّا يقولُ الظالمونَ عُلُوًّا كبيرًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدهُ ورسولُه، بعثهُ بينَ يَدَيِ الساعةِ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذنِهِ وسراجًا منيرًا، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا النَّاسُ، اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ الوقتَ الذي تعيشونهُ في هذِه الدنيا لاَ يُقدَّرُ بالأثمانِ، فاحفظُوه فيما ينفعُكُم في دُنياكُم وآخرتِكُم، ولاَ تُضَيِّعُوهُ باللهوِ واللعبِ والغفلةِ، فتخسروا الدُّنيا والآخرةَ.

فهذا العمرُ الذي تَعيشُهُ ـ أَيُّهَا العبدُ ـ هو مزرعتُكَ التي تَجْنِي ثمارَهَا في الدارِ الآخرةِ، فإنْ زرعتَهُ بخيرٍ وعملٍ صالحٍ، جنيتَ السعادةَ والفلاحَ، وكُنتَ معَ الذينَ يُنادَى عليهِم في الدارِ الباقيةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقة: ٢٤]، وإنْ ضيَّعتَهُ في الغفلاتِ، وزرعتَهُ بالمعاصِي والمخالفاتِ، ندِمتَ يومَ لا تنفعُكَ الندامةُ، وتمَنَّيتَ الرجوعَ إلى الدُّنيا يومَ القيامةِ، فيُقالُ لكَ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ۝٣٧﴾ [فاطر: ٣٧].

أَيُّهَا المسلمونَ، صحَّ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنَّه قالَ: «لا تَزُولُ قدمَا عبدٍ يومَ

القيامةِ حتَّى يُسأَلَ عنْ أربعٍ: عن عمرِهِ: فيمَ أفناهُ؟ وعنْ جِسمِهِ: فيمَ أبلاهُ؟ وعن مالِهِ: مِنْ أينَ اكتسَبَهُ؟ وفيمَ أنفقَهُ؟ وعن عِلمِهِ: ما عمِلَ به؟»[١].

فهذاَ العمرُ هو أَعزُّ شيءٍ لديكُم، فَلَا تضيِّعُوهُ ولا تفرِّطُوا فيهِ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالَى جعلَ في كلِّ يوم وظائِفَ لعبادِهِ من وظائِفِ طاعَتِهِ، فمِنْها ما هُوَ فَرضٌ كالصلواتِ الخمسِ، ومنها ما هو نافلةٌ كنوافلِ الصلواتِ والذِّكرِ وغيرِ ذلكَ. وجعلَ سبحانهُ للشهورِ وظائفَ، كالصيامِ والزكاةِ والحجِ، ومنْ هذه العباداتِ مَا هو فرضٌ، وما هو نافلةٌ. وجعلَ سبحانهُ لبعضِ الأوقاتِ فضلاً على بعضٍ في مضاعفةِ الحسناتِ وإجابةِ الدعواتِ، كالأشهُرِ الحُرُمِ، وشهرِ رمضانَ، وعشرِ ذي الحجةِ، وليلةِ القدرِ، ويومِ عرفةَ، ويومِ الجمعةِ، وما مِنْ موسمٍ من هذِه المواسمِ إلاَّ وللهِ نفحةٌ من نفحاتِهِ، يصيبُ بها منْ يشاءُ بفضلِهِ ورحمتِهِ، فالسعيدُ من اغتنمَ مواسمَ الشهورِ والأيامِ والساعاتِ، وتقرب فيها إلى اللهِ بأنواعِ الطاعاتِ، فعَسَى أنْ تُدرِكَهُ نفحةٌ من تلكَ النفحاتِ، فيسعدُ سعادةً لاَ يشقَى بعدَها أبدًا.

رَوَى الإمامُ أحمدُ بسندِهِ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «ليسَ من عمَلِ يوم إلاَّ ويُختمُ عليهِ»[٢]، ورَوَى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن مجاهدٍ قالَ: مَا منْ يومٍ إلاَّ يقولُ: ابنَ آدمَ، قد دخلْتُ عليكَ اليومَ، ولنْ أرجعَ إليكَ إلى يومِ القيامةِ، فانظُرْ ماذا تعملُ فِيَّ؟ فإذا انقَضَى طواهُ، ثم يُختمُ عليهِ، فلاَ يُفَكُّ حتى يكونَ اللهُ هو الذي يَفُكُّ ذلكَ الخاتمَ يومَ القيامةِ، ويقولُ اليومُ حينَ ينقضي:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) من حديث أبي برزة الأسلمي. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨٣٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٦٨٦٥). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٤٣٢).

الحمدُ للهِ الذي أَراحَنِي من الدُّنيا وأهلِهَا. ولاَ ليلةٌ تَدخُلُ على الناسِ إلاَّ قالتْ كذلكَ.

وقد كانَ عيسى عليهِ السلامُ يقولُ: إنَّ الليلَ والنهارَ خزانتانِ، فانظُرُوا ماذا تضَعُونَ فيهِمَا؟ وكانَ عليهِ السلامُ يقولُ: اعمَلُوا الليلَ لمَا خُلِقَ له، واعملوا النهارَ لما خُلِقَ له.

وعنِ الحسنِ رضيَ اللهُ عنه أنَّهُ قالَ: ليسَ يومٌ يأتي منْ أيامِ الدنيا إلاَّ يتكلَّمُ يقولُ: يا أيُّها الناسُ، إنِّي يومٌ جديدٌ، وإنِّي على ما يُعملُ فيَّ شهيدٌ، وإنِّي لو قد غَربتِ الشمسُ لمْ أرجِعْ إليكُم إلى يومِ القيامةِ. وعنهُ أنَّهُ قالَ: اليومُ ضيفُكَ، والضيفُ مُرتحِلٌ؛ ويحمدُكَ أو يذمُّكَ.

أَيُّها المسلمونَ، إنَّ اللهَ سبحانهُ قد أَمَرَ بشغلِ الأوقاتِ بذِكرِهِ وطاعتِهِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١ ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ۝٢٠٥ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ۝١٧ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ۝١٨ ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

أَيُّها المسلمونَ، إننا بمناسبةِ بدايةِ العطلةِ الصيفيةِ التي سيكونُ في أثنائِها شهرٌ هو أعظمُ الشهورِ، وهو شهرُ رمضانَ المبارك، وإنَّنا بهذِه المناسبةِ نُوصيكُم بتَقوى اللهِ تعالَى، وحِفظِ أوقاتِ هذهِ العُطلةِ فيما ينفعُكُم في الدنيا والآخرةِ، وإعطاءِ الجسمِ فيها قِسطًا من الراحةِ الخاليةِ من الإثمِ، وعليكُم بملاحظةِ أولادِكُم، وتوجيهِهِم إلى استغلالِ هذهِ العطلةِ فيما يعودُ عليهِم بالنَّفعِ، فالناسُ في العطلةِ ينقسمونَ إلى أقسامٍ، فمنهُم الرابحُ فيها، ومنهُم الخاسرُ، «وكلُّ

الناسِ يغدو، فبائعٌ نفسَهُ فمُعتقُهَا، أو مُوبِقُهَا»[١].

فمِنهُم: من يُقيمُ في بلدِهِ، يقضِيهَا بتعليمِ أولادِهِ القرآنَ الكريمَ، ويُحضِرُهُم إلى المساجدِ لتلقِّي القرآن، ويراقبُ حُضُورَهُم وغيابَهُم، ويتعاهَدُ حِفظَهُم وتحصِيلهُم، ويُلزِمُهُم بأداءِ الصلواتِ الخمسِ معَ الجماعةِ، فهذا قد نصحَ أولادَهُ، وحفِظَ أمانة الله فيهم، وسعَى في إصلاحِهِم، ليكونُوا عونًا له في الحياةِ، وخلفًا وذُخرًا له بعدَ المَمَاتِ، قد قامَ بالواجبِ، وبَذَلَ الأسبابَ، واللهُ لاَ يُضَيِّعُ أجرَ منْ أحسنَ عملاً.

والبعضُ: يقضِي العطلةَ بالسفرِ لزيارةِ المسجدِ الحرامِ والمسجدِ النبويِّ، فيقضِي أوقاتَهُ في الحرمينِ الشريفينِ بأنواعِ الطاعاتِ، والصلاةُ الواحدةُ في المسجدِ الحرامِ بمائةِ ألفِ صلاةٍ، وفي المسجدِ النبويِّ بألفِ صلاةٍ. فهذا قد عَرَفَ قيمةَ الوقتِ وَوُفِّقَ لاستغلالِهِ.

والبعضُ الآخرُ: يسافرُ لزيارةِ أقاربِهِ وصلةِ أرحامهِ، ويقْضِي العطلةَ معهُم وعندَهُم، لتقَرَّ أعيُنُهُم به، ويُؤَدِّي حقَّهُم عليه، فهذا مأجورٌ، وقد استفادَ من وقتهِ، وأدَّى ما عليه.

والبعضُ الآخرُ: يسافرُ للنزهةِ في داخلِ البلادِ وبينَ أظهُر المسلمينَ في أرجاءِ المملكةِ، يقضِي وقتَهُ في ناحيةٍ من نواحِيها، محافظًا على دينِهِ. فعملُهُ هذا مباحٌ لا لومَ عليهِ فيهِ.

والبعضُ الآخرُ: يقضِي العطلةَ في اللهوِ واللعبِ، وتركِ الواجباتِ، وفعلِ المحرمات، أو يسافرُ إلى البلادِ الكافرةِ، بلادِ الكُفرِ والفجورِ، والعُهرِ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) من حديث أبي مالك الأشعري.

والخمورِ، لينغَمِسَ في أوْحالِ الضلالةِ، ويتربَّى في أوكارِ السفالةِ، يقضي وقتهُ بينَ لهوٍ ومزمارٍ، ولعبِ مَيْسرٍ ومسرحٍ وحانةِ خمَّارٍ، ورُبَّما يستصحِبُ معه نساءَهُ وأولادهُ، ليأخُذوا حظَّهُم من الشقاءِ، فتخلعُ المرأةُ لباسَ السترِ، وتلبسُ لباسَ ذواتِ الكُفرِ. فهذا الذي قد ضيَّعَ الزمانَ، وباءَ بالإثمِ والخسرانِ، وسوفَ يندمُ عن قريبٍ، إنْ لمْ يتُبْ إلى ربهِ.

أَيُّهَا المسلمونَ، قد وُجِدَ في هذا الزمانِ سلاحٌ يُستعملُ لقتلِ الأخلاقِ، والقضاءِ على الفضيلةِ، حتى تحِلَّ مكانَهَا الرذيلة، سلاحٌ صنعَهُ الكفارُ، ورمونَا به في بلادِنَا، حتى تَسلَّلَ إلى كثيرٍ من بيوتِ المسلمينَ، وصارَ في مُتناوَلِ النساءِ والأطفال وسفلة الرجال، ألا وهو جهاز الفيديو، ذلكم الجهاز الخبيث الذي تُعرضُ على شاشتِهِ أفلامُ الدعارةِ والمجونِ، أفلامُ الزِّنَا واللواطِ، وأفلامُ الرقصِ والاختلاطِ، والأفلامُ التي تُعلِّمُ السرقةَ والخيانةَ وممارسةَ الجريمةِ، إنَّ هذا الفيديو الخبيثَ يقْضِي على الغيرةِ والحياءِ، ويُجَرِّئُ على ارتكابِ الفحشاءِ.

فيا منَ عافاكَ اللهُ منه، احمدِ اللهَ، واحذرْ أنْ يدخُلَ بيتَكَ.

ويا من ابتُلِيتَ بِه تُبْ إلى اللهِ، وأخرِجهُ من بيتِكَ، لاَ تُفسِدْ به أخلاقَ نسائِكَ وأولادِكَ وجيرانِكَ، فتكونَ معَ الذينَ يحملونَ أوزارَهُم كاملةً يومَ القيامةِ، ومن أوزارِ الذينَ يُضِلُّونهُم بغيرِ عِلْمٍ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٧] الآيات.

* * *

في التحذير من آفات اللّسان

الحمدُ للهِ، خلَقَ الإنسانَ، علَّمَهُ البيانَ، ونهاهُ عن الغيبةِ والنميمةِ والكذبِ والبهتانِ، أحمدُهُ على ما أوْلاَهُ من الفضلِ والإحسانِ، وأشهدُ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لاَ شريكَ لهُ، شهادةً أرجُو بها دخولَ الجِنَانِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، المُؤَيَّدُ بالمعجزاتِ والبرهانِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أهلِ الصدقِ والإيمانِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، وتحفَّظُوا من ألسنتِكُم، فإنَّ كلامَكُم محفوظٌ عليكُم، قالَ تعالَى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقالَ تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝١٥﴾ [النور: ١٥]، وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ بالصَّمتِ، إلاَّ إذا كانَ الكلامُ خيرًا، قالَ ﷺ: «**ومَنْ كانَ يؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ فليقُلْ خيرًا أو لِيصمتْ**»[١]، وقالَ تعالَى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١١٤﴾ [النساء: ١١٤]. وقال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: دُلَّنِي على عملٍ يُدخِلُنِي الجنةَ، قالَ ﷺ: «**أمسِكْ هذا**» وأشارَ إلى لسانِهِ، فأعادَ عليهِ، فقالَ: «**ثكِلَتْكَ أمكَ، هل يَكُبُّ الناسَ على مناخِرِهِم في النارِ إلا حصائِدُ ألسنتِهِم**»[٢]. والمرادُ بحصائِدِ الألسنةِ: جزاء

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠١٨، ٦١٣٦، ٦١٣٨، ٦٤٧٥) ومسلم (٤٧) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) من حديث معاذ بن جبل.

الكلام المحرم وعقوباتهُ؛ فإنَّ الإنسانَ يَزْرعُ بقولِهِ وعملِهِ الحسناتِ والسيئاتِ، ثمَّ يحصُدُ يومَ القيامةِ ما زَرعَ، فمنْ زرعَ خيرًا من قولٍ أو عملٍ حصَدَ الكرامةَ، ومنْ زَرعَ شَرًّا من قولٍ أو عملٍ حصَدَ الندامةَ.

ومعصيةُ القولِ باللسانِ يدخُلُ فيها الشركُ، وهو أعظَمُ الذنوبِ عند الله، ويدخلُ فيها القولُ على الله بلا علمٍ، وهو قرينُ الشركِ، ويدخلُ فيها شهادةُ الزورِ التي عادلت الإشراكَ باللهِ، ويدُخلُ فيهاالسِّحْرُ والقذفُ، ويدخلُ فيها الكذبُ والغيبةُ والنميمةُ، وفي الصحيحينِ عنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ مَا يتَبَيَّنُ فيها يزل بها في النارِ أبعدَ مِمَّا بينَ المشرقِ والمغربِ»**(١)، وأخرجهُ الترمذيُّ ولفظُهُ: **«إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ لاَ يَرَى بها بأسًا، يهوي بها سبعينَ خريفًا في النارِ»**(٢).

أَيُّهَا المسلمونَ، لقد كانَ خوفُ السلفِ الصالحِ من آفاتِ اللسانِ عظيمًا، كانَ أبو بكرٍ رضيَ اللهُ عنه يُمْسِكُ لسانَهُ ويقولُ: هذا الذي أَوْرَدَنِي المواردَ.

وكانَ ابنُ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما يأخذُ بلسانِهِ وهو يقولُ: وَيْحَكَ! قُلْ خيرًا تغنَمْ، أو اسكُتْ عن سوءٍ تسْلمْ، وإلاَّ فاعلمْ أنَّكَ ستندَمُ، فقيلَ له: يا ابنَ عباسٍ، لِمَ تقولُ هذا؟ قالَ: إنَّهُ بَلَغَنِي أنَّ الإنسانَ ليسَ على شيءٍ من جَسدِهِ أشدَّ حنقًا أو غيظًا منه على لسانِهِ، إلاَّ من قالَ به خيرًا، أو أملى به خيرًا.

وكانَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ يحلِفُ باللهِ الذي لا إلٰهَ إلاَّ هو: ما على الأرضِ شيءٌ أحوجُ إلى طولِ سِجنٍ من لسانٍ.

وقالَ الحسنُ: اللسانُ أميرُ البدنِ، فإذا جنى على الأعضاءِ شيئًا جَنَتْ، وإذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٧٧، ٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨).

(٢) سنن الترمذي (٢٣١٤).

عَفَّ عَفَّتْ.

أَيُّهَا المسلمونَ، إنَّ الإكثارَ من الكلامِ الذي لاَ حاجةَ إليهِ يُوجِبُ قساوةَ القلبِ، كما روى الترمذيُّ من حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعًا: **«لا تُكْثِروا الكلامَ بغيرِ ذِكرِ اللهِ، فإنَّ كثرةَ الكلامِ بغَيرِ ذِكرِ اللهِ قسوةٌ للقلْبِ، وإنَّ أبعدَ الناسِ عن اللهِ القلبُ القاسِي»**[1].

وقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه: مَنْ كَثُرَ كلامُهُ كثُرَ سقطُهُ، ومن كَثُرَ سقطُهُ كَثُرتْ ذُنوبُهُ، ومنْ كثُرتْ ذنوبُهُ، كانتِ النارُ أوْلَى به.

وقالَ محمدُ بنُ عجلانَ: إنَّما الكلامُ أربعةٌ: أنْ تَذْكُرَ اللهَ، وتقرَأَ القرآنَ، وتَسألَ عنْ علمٍ فتُخبَرَ به، أو تَكَلَّمَ فيما يعنيكَ منْ أمْرِ دُنياكَ.

فليسَ الكلامُ مأمورًا به على الإطلاقِ، ولا السكوت مأمورًا به على الإطلاقِ، بلْ لا بُدَّ من الكلامِ في الخيرِ العاجلِ والآجلِ، والسكوتِ عن الشرِّ الآجلِ والعاجلِ.

واللسانُ ترجمانُ القلبِ والمُعَبِّرُ عنه، وقد أُمِرنَا باستقامةِ القلبِ واللسانِ، قالَ ﷺ: **«لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُهُ، ولا يستقيمُ قلبُهُ حتى يستقيمَ لسانُهُ»**[2]، رواهُ الإمامُ أحمدُ في مسندِهِ، ورَوَى الترمذي: **«إذا أصبحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كُلَّهَا تدين اللسانَ، فتقولُ: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنَّما نحنُ بِكَ، فإنِ استقمْتَ استقمْنَا، وإنِ اعوجَجْتَ اعوجَجْنَا»**[3].

أَيُّهَا المسلمونَ، إنَّ آفاتِ اللسانِ كثيرةٌ ومتنوعةٌ:

---

(١) سنن الترمذي (٢٤١١).
(٢) أخرجه أحمد (١٢٦٣٦) من حديث أنس. وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٤١).
(٣) سنن الترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد. وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٥١).

فالآفةُ الأُولَى: الكلامُ فيما لايَعْنِي، وفي الحديثِ الصحيحِ: «منْ حُسنِ إسلامِ المَرءِ تركُهُ مَا لاَ يَعْنِيهِ»..

الآفةُ الثانيةُ: الخوضُ في الباطلِ، وهو الكلامُ في المعاصِي، والتَّحَدُّثُ عنها بِما يُرَوِّجُها بينَ الناسِ ويُشِيعُ الفاحشةَ بينهُمْ، ومِنْ ذلكَ: مَا يقعُ في المجتمعِ من المُخالفَاتِ التي يرتكِبُها بعضُ الأفرادِ، فإنَّ التَّحَدُّثَ عنها في المجالسِ يُفرِحُ الأشرارَ والمنافقينَ، ويُشِيعُ الفاحشةَ في المؤمنينَ، وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النور: ١٩].

والواجبُ على منْ علِمَ من أخيهِ زَلّةً أنْ يسْتُرَ عليهِ ويُناصِحَهُ، أو يرفعَ أَمْرَهُ إلى وَلِيِّ الأَمرِ إذا اقتضَتِ المصلحةُ ذلكَ، أمَّا أنْ يتَّخِذَ من زلَّتِهِ موضوعًا يتحدَّثُ عنه في المجالسِ، فإنَّ ذلكَ من أقبحِ الخصالِ، وذميمِ الفعالِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «لا تُؤذُوا عبادَ اللهِ، ولا تُعَيِّرُوهُم، ولا تطلُبوا عوراتِهِم، فإنَّه من طلبَ عورَةَ أخيهِ المسلمِ طلَبَ اللهُ عورَتَهُ حتى يَفضَحَهُ في بيتِهِ»[١]، رواهُ الإمامُ أحمدُ.

الآفةُ الثالثةُ: التَّكَلُّمُ بالفحشِ والسَّبِّ والبذاءةِ والشَّتمِ، فإنَّ بعضَ الناسِ يعتادُ النُّطقَ بِلَعنِ الأشخاصِ والأماكنِ والدوابِّ، فيكونُ النطقُ باللعنةِ أسهلَ الألفاظِ عليهِ، ورُبَّما يواجِهُ بها صديقَهُ وصاحبَهُ العزيزَ عليهِ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ: «لَعْنُ المسلمِ كَقَتلِهِ»[٢]، وقالَ عليه الصلاةُ السلامُ: «ليسَ المؤمنُ بالطعَّانِ واللَّعَّانِ ولا الفاحشِ ولا البذيءِ»[٣]، وقد لعَنَتِ امرأةٌ ناقةً لها فأمَرَ النبيُّ ﷺ

---

(١) مسند أحمد (٢١٨٩٦) من حديث ثوبان.
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٤٧، ٦١٠٥، ٦٦٥٢) ومسلم (١١٠) من حديث ثابت بن الضحاك.
(٣) أخرجه الترمذي (١٩٧٧) من حديث ابن مسعود. وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٨١).

بأخذِ مَا عليها وتركهَا، وقالَ: «**لا تَصْحَبُنَا ناقةٌ ملعونةٌ**»[١].

وبعضُ الناس حينما يكونُ بينَهُ وبينَ أخيهِ المسلمِ منازعةٌ أو مشادةٌ، فإنَّه يُطلِقُ لسانَهُ عليهِ بالسَّبِّ والشتمِ والتعييرِ، ورمْيِهِ بِمَا ليسَ فيهِ منْ قبيحِ الخِصالِ، ولا يدْرِي هذا المسكينُ أنَّه إنَّما يَجْنِي على نَفْسِهِ، ويُحَمِّلُهَا أوزَارَ مَا يقولُ، واللهُ تعالَى قد أَمَرَ مَنْ وُجِّهَ إليهِ شيءٌ من الشتائمِ والسِّبابِ أنْ يَدْفَعَ ذلكَ بالكلامِ الحَسَنِ، قالَ تعَالَى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، فإذا كانَ المُعْتَدى عليهِ بالكلامِ السَّيئ مأمورًا بدفعِهِ بكلامٍ حسنٍ، ابتعادًا عن النُّطقِ بالفحشِ ولو قصاصًا، فكيفَ الذي يَبْدَأُ بالفحشِ ويَتفَوَّهُ بالإثمِ؟.

الآفة الرابعةُ: من آفاتِ اللسانِ: كثرةُ المزاحِ، فإنَّ الإفراطَ في المزاحِ والمداومةِ عليهِ مَنهِيٌّ عنهما، لأنَّه يُسقِطُ الوقارَ، ويُوجِبُ الضغائنَ والأحقادَ، أمَّا المزاحُ اليسيرُ النزيهُ، فإنَّهُ لا بأسَ بهِ، لأنَّ فيه انبساطًا وطِيبَ نفسٍ، وكانَ النبيُّ ﷺ يَمزَحُ ولا يقولُ إلاَّ حقا[٢].

الآفةُ الخامسةُ: من آفاتِ اللسانِ: الاستهزاءُ والسخريةُ بالناسِ، وَتَتبُّعُ عثراتِهِم، والبحثُ عن عوراتِهِم، والتَّنَدُّرُ بذلكَ، وانتقاصُهم والضحكُ مِنهُم، قالَ تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، يعني: الذي يزْدَري الناسَ وينتقِصُهُم، قيل: الهمزُ بالقولِ، واللَّمزُ بالفِعلِ. وتوعَّدَهُ اللهُ بالويلِ، وهي كملةُ عذابٍ، أو وادٍ في جَهنَّمَ، نعوذُ باللهِ من ذلكَ.

الآفةُ السادسةُ والسابعة من آفاتِ اللسانِ: الغيبةُ والنميمةُ، وهما من كبائرِ الذنوبِ، والغيبةُ: ذِكركَ أخاكَ حالَ غيبتِهِ بِمَا يكْرَهُ، والنميمةُ: نقلُ الحديثِ بينَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٦) من حديث أبي برزة.
(٢) ورد معناه من حديث أبي هريرة عند الترمذي (١٩٩٠).

الناسِ على وجْهِ الإفسادِ، وقد شبّهَ اللهُ المغتابَ بآكلِ الميتةِ، وفي الحديثِ: «**إياكُم والغيبةَ، فإنَّ الغيبةَ أشَدُّ من الزِّنَا، إنَّ الرجلَ قد يَزْنِي ويتوبُ ويتوبُ اللهُ عليهِ، وإنَّ صاحبَ الغيبةِ لا يُغْفرُ له حتى يَغفِر له صاحِبُهُ**»(١)، وأخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ النمَّامَ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ(٢)، وأخبرَ أنَّ النمَّامَ لا يدخُلُ الجنَّةَ يومَ القيامةِ، فقد رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**لا يدخلُ الجنَّةُ نمَّامٌ**»(٣)، والنمَّامُ يُفسِدُ بينَ الناسِ، ويزرَعُ في القلوبِ الأحقادَ والأضغانَ، ويهدِمُ البيوتَ ويُخرِّبُ الأوطانَ، وقد قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢﴾ [القلم: ١٠ ـ ١٢].

أيُّهَا المسلمونَ، تحفَّظُوا من ألسِنَتكُم، وزِنُوا أقوالَكُم، فإنَّ الإنسانَ قبلَ أنْ يتكلَّمَ يملِكُ كلامَهُ، وإذا تكلَّمَ ملَكهُ كلامُهُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

* * *

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة وأبو الشيخ في التوبيخ. كذا في الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) أخرجه البخاري (٢١٦) ومسلم (٢٩٢) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٥٦) ومسلم (١٠٥) من حديث حذيفة، واللفظ لمسلم.

في التحذير من الاغترار بالدُّنيا

الحمدُ للهِ الذي حَذَّرَ عبادَهُ من الاغترارِ بهذه الدار، ورَغَّبهُم في الاستعدادِ لدارِ القرارِ، أحمدُه على نِعمِهِ الغزارِ، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يجودُ على عبادِهِ بكرمِهِ المدرارِ، فَيَدُهُ سحَّاءُ الليلَ والنهارَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، سيِّدُ الأبرارِ صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ البررةِ الأطهارِ، المهاجرينَ منهم والأنصارِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا. أمَّا بعدُ:

أيُّهَا المسلمونَ، اتقوا اللهَ، واسمعوا نداءَ ربِّكُم عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٥، ٦]، يُنادِيكُم ربُّكُم، ويؤَكِّدُ لكم أنَّه لا بُدَّ من وقوعِ ما وعَدَكُم به من البعثِ والنشورِ، والجزاءِ على أعمالِكُم بالثوابِ أو العقابِ، ويُحذِّرُكُم من فتنتينِ تصدانِ العبدَ عن الاستعدادِ للقاء هذا الوعدِ الحقِّ، هُما فتنةُ الدُّنيا وفتنةُ الشيطانِ.

وكَمْ في كتابِ اللهِ من التحذيرِ من الاغترارِ بهذه الدنيا وذَمِّها، وبيانِ سُرعةِ زوالِها، وضربِ الأمثالِ لها؛ ما يكفِي بعضُهُ زاجرًا لِمَنْ كانَ له قلبٌ أو ألقَى السمعَ وهو شهيدٌ.

وإنَّ الدنيا في الحقيقةِ لا تُذَمُّ لِذَاتِها، فهي قَنْطَرةٌ أو معْبَرٌ إلى الجنَّةِ أو إلى النارِ، وإنَّما يُذَمُّ فعلُ العبدِ فيها من اشتغالِهِ بالشهواتِ والغفلةِ والإعراضِ عن اللهِ والدارِ الآخرةِ، وإلاَّ فالدنيا مَبنَى الآخرةِ ومزرَعتُهَا، ومنها يُؤْخذُ زادُ الجنةِ، وخيرُ عيشٍ نالَهُ أهلُ الجنةِ إنَّما كان بِما زَرَعُوهُ في الدنيا.

قالَ بعض السلفِ: ذَمَّ رجلٌ الدنيا عند عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه فقال

عليٌّ: الدنيا دارُ صِدْقٍ لِمَن صدَقَهَا، ودارُ عافيةٍ لِمَن فَهِمَ عنها، ومَطلبُ نُجْحٍ لِمَن سالَمَ، فيها مساجدُ أنبياءِ اللهِ، ومهبِطُ وحْيِهِ، ومُصَلَّى ملائِكتِهِ، ومتجَرُ أوليائِهِ، فيها اكتسَبُوا الرحمةَ، وربحُوا فيها العافيةَ، فمَنْ ذا يذُمُّهَا، وقد آذَنَتْ بَبَيِنها ونعت نفسَها وأهلَها؟ فتمثَّلَتْ ببلائِها، وشَوَّقَتْ بسُرورِهَا إلى السرورِ، تخويفًا وتحذيرًا وترغيبًا، فَذَمَّها قومٌ غداة الندامةِ، وحَمدَهَا آخرونَ ذكَّرَتهُم فتَذَكَّروا، ووعظَتْهُم فاتَّعظُوا. فيا أيُّها الذَّامُّ للدنيا، المغترُّ بتغريرِهَا، متى استذمَّت إليكَ؟ بَلْ متى غَرَّتكَ؟ أبِمنازلِ آبائِكَ في الثَّرى؟ أم بمضَاجِعِ أمهاتِكَ في البلاَ؟ كَم رأيتَ موروثًا؟ كمْ عللتَ بِكَفَّيكَ عليلاً؟ كَم مرّضتَ مريضًا بيديكَ تبتَغِي له الشفاءَ، وتستوصِفُ له الأطباءَ، ثُمَّ لمْ تنفَعهُ شفاعتُكَ، ولمْ تُسعِفهُ طلبتك؟ مَثَّلَتْ لك الدنيا غداةَ مصرَعِهِ مصرَعَكَ، وبمضجعِهِ مضجعَكَ. ثم انصرف إلى القبورِ فقال: يا أهلَ القبورِ، يا أهلَ الضِّيقِ والوَحدةِ، يا أَهلَ الغربةِ والوحشةِ، أمَّا الدُّورُ فقد سُكنتْ، وأَمَّا الأموالُ فقد قُسِّمتْ، وأمَّا الأزواجُ فقد نُكِحَتْ، فهذا خبرُ ما عندنا، فهاتوا خبرَ ما عندَكُم. ثم التفتَ إلينا فقالَ: أَما لَو أُذِنَ لهُم لأخبرُوكُم: «إنّ خيرَ الزادِ التَّقوى».

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ: والمقصودُ: أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى خلَقَ الغِنَى والفقرَ مطيتينِ للابتلاءِ والامتحانِ، ولمْ يُنزِل المالَ لمُجَرَّدِ الاستمتاعِ به، كما في المُسْنِدِ عنه ﷺ قالَ: **«يقولُ اللهُ تعالى: إنَّا نزَّلنا المالَ لإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، ولو كانَ لابنِ آدمَ وادٍ من مالٍ لابتغَى إليهِ ثانيًا، ولو كانَ له ثانٍ لابتغَى له ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلاَّ الترابُ»**[1]، فأخبرَ سبحانهُ أنَّه أنزلَ المالَ

لِيُستعانَ به على إقامةِ حَقِّهِ بالصلاةِ، وإقامةِ حقِّ عبادِهِ بالزكاةِ، لا للاستمتاعِ والتلذُّذِ كما تأكُلُ الأنعامُ.

عبادَ الله، كيفَ آثرتُم الحياةَ الدنيا على ما عِندَ اللهِ؟ كيفَ شغلتكُم أموالُكُم وأولادُكُم عن ذِكرِ اللهِ؟ مهما عِشتَ ـ أيُّها الإنسانُ ـ وجمعتَ من المالِ، فإنَّكَ راحلٌ، وما في يدَيكَ زائلٌ، ولاَ يبقى لكَ إلا عملُكَ، إنَّكَ خرجتَ إلى الدنيا ليسَ معكَ شيءٌ، وستخرج منها ليسَ معكَ منها إلا العملُ، قالَ تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩٤]. إنَّكَ مررتَ بالدنيا في طريقِكَ إلى الآخرةِ، وأُتيحَتْ لكَ الفرصةُ لِتأخُذَ منها زادًا لسفَرِكَ، فأنتَ بمنزلِ المسافرِ الذي هبَطَ إلى السوقِ ليأخُذَ منه زادًا يُبلِّغُهُ في مسِيرهِ، فليسَ لك من هذِه الدنيا إلا ما تَزَوَّدتَ به للآخرةِ.

عِبادَ اللهِ، حلالُ هذِه الدنيا حسابٌ، وحرامُهَا عِقابٌ، ومصيرُهَا إلى الخرابِ، ولا يركَنُ إليها إلا منَ فقدَ الرُّشدَ والصوابَ، كم من ذهابٍ بلا إيابٍ، وكم من حبيبٍ قد فارقَ الأحبابَ، وتركَ الأهلَ والأصحابَ، وصارَ إلى ثوابٍ أو عِقابٍ، إنَّها رحلاتٌ متتابعةٌ إلى الدارِ الآخرةِ لا تفترُ، يذهبُ فيها أفرادٌ وجماعاتٌ، وآباءٌ وأمهاتٌ، وملوكٌ ومماليكُ، وأغنياءُ وصعاليكُ، ومؤمنونَ وكُفار، وأبرارٌ وفُجَّارٌ، كلُّهُم يذهبونَ إلى الآخرةِ ويُودَعُونَ في القبورِ، ينتظرونَ البعثَ والنشورَ، والنفخَ في الصُّورِ ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المعارج: ٤٣: ٤٤].

عِبادَ اللهِ، إنَّ اللهَ سبحانهُ ذَمَّ الذينَ يُؤثِرونَ الدنيا على الآخرةِ في كثيرٍ من الآياتِ، قالَ تعالَى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ٨٦]، وقالَ تعالَى: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾

وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان: ٢٧]، وقالَ تعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧]، وقالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ـ٣٩].

إيثارُ الدُّنيا على الآخِرةِ يظهرُ جَليًّا على تصرفاتِ الناسِ، والناسُ يزدحمونَ على أبوابِ المتاجرِ، ولا يزدحمونَ على أبوابِ المساجدِ، والناسُ يزدحمونَ على طَلَبِ الدنيا، ولا يزدحمونَ على العلمِ النافعِ، الناسُ يصبرونَ على تحمُّلِ المشاقِّ الصعبةِ في طَلَبِ الدنيا، ولا يصبِرونَ على أدْنَى مشقَّةٍ في طاعةِ اللهِ، الناسُ يغضبونَ إذا انتقصَ شيءٌ من دُنياهُم، ولايغضبونَ إذا انتقصَ شيءٌ من دينِهم، كثيرٌ من الناس ـ لشدَّةِ حُبِّهِ للدنيا ـ لا يقنعُ بما أباحَ اللهُ له من المكاسبِ، فيذهبُ يتعاملُ بالمعاملاتِ المُحرَّمةِ، والمكاسبِ الخبيثةِ، من الرِّبا والرشوةِ والغشِّ في البيعِ والشراءِ، بل يفجُرُ في خصومَتِهِ، فيحلِفُ بالله كاذبًا أو يُقيمُ شهادةَ زورٍ؛ لِيسْتَولِيَ على مالِ غيرِهِ بغيرِ حقٍّ، وهو يسمعُ قولَ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقولَ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [البقرة: ١٨٨]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [آل عمران: ٧٧].

كثيرٌ من الناسِ استولَى عليه حُبُّ الدنيا وإيثارُهَا على الآخرةِ، حتى شَغَلَ كلَّ أوقاتِهِ بِجَمعِهَا، ولمْ يُبْقِ وقتًا لآخرتِهِ، فالصلواتُ المفروضةُ يُؤَخِّرُها عن أوقاتِهَا، أو لا يحضرُهَا معَ الجماعةِ، وحتى في أثناءِ صلاتهِ يكونُ قلبُهُ مُنصرِفًا

إلى الدنيا، يُفكِّرُ فيها، ويُعدِّدُ مالَهُ، ويتفقَّدُ حسابَهُ، ويتذكَّرُ ما نَسِيَ من معاملاتِهِ في صلاتِهِ.

كثيرٌ من الناسِ حمَلَهُ إيثارُ الدنيا على الآخرةِ على البُخْلِ والشُّحِّ بالنفقاتِ الواجبةِ والمُستَحَبةِ، حتى بَخِلَ بالزكاةِ التى هي ركنٌ من أركانِ الإسلامِ، واسمعُوا إلى هذِه القصةِ في هذا الجنسِ من الناسِ:

رَوَى ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ: أنَّ ثعلبةَ بنَ حاطبٍ الأنصاريَّ، قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ ادعُ اللهَ أنْ يرزُقَنِي مالاً، قالَ: فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ويحكَ يا ثعلبةُ، قليلٌ تُؤَدِّي شُكرَهُ خيرٌ من كثيرٍ لا تُطِيقُهُ»** قالَ: ثم قال مرةً أُخرى، فقالَ: **«أمَا تَرْضَى أن تكونَ مثلَ نبيِّ اللهِ، فوالذي نفسِي بيدِهِ لو شِئتُ أن تسيرَ الجبالُ معي ذهبًا وفضةً لسارت»** قالَ: والذي بعثَكَ بالحقِّ لئن دعوتَ اللهَ فرزقَنِي مالاً لأعْطِينَّ كُلَّ ذي حقَّهُ. فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«اللهُمَّ ارزقْ ثعلبة مالاً»**، قالَ: فاتَّخذَ غنَمًا، فنَمَتْ كما ينمو الدودُ، فضاقتْ عليهِ المدينةُ فتنَحَّى عنها فنزلَ واديًا من أوديتِهَا، حتى جعَلَ يُصلِّي الظهرَ والعصرَ في جماعةٍ، ويتركُ ما سواهُمَا، ثُمَّ نمَتْ وكثُرت فتَنَحَّى حتى تركَ الصلواتِ إلا الجمعةَ، وهي تنمو كما ينمو الدود، حتى ترَكَ الجمعةَ، فَطَفِقَ يَتلقَّى الركبانَ يومَ الجمعةِ ليَسألهُم عن الأخبارِ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ **«ما فعلَ ثعلبةُ؟»** فقالوا: يارسولَ اللهِ، اتَّخذَ غنمًا فضاقَتْ عليهِ المدينةُ، فأخبروهُ بأمرِهِ فقالَ: **«ويح ثعلبةَ، يا ويحَ ثعلبةَ، يا ويحَ ثعلبةَ»** وأنزلَ اللهُ جَلَّ ثناؤهُ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً...﴾ الآية [التوبة: ١٠٣]، ونزلت فرائضُ الصدقَةِ، فبعَثَ رسولُ اللهِ ﷺ رجُلينِ على الصدقةِ من المسلمينَ، رُجلاً من جهينةَ ورجُلاً من سُلَيمٍ، وكتبَ لهما كيفَ يأخذانِ الصدقةَ من المسلمينَ، وقالَ لهما: **«مُرَّا بثعلبةَ وبفلانٍ ـ رجلٍ من بني سُلَيمٍ ـ فخُذَا صدقاتِهِمَا»** فخرَجَا حتى أتَيا

ثعلبةَ فسأَلاهُ الصدقةَ وأقْرَآه كتابَ رسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: ما هذا إلاَّ جزيةٌ، ما هذِه إلاَّ أختُ الجزيةِ، ما أدري ما هذِه، انطَلِقَا حتى تفرغَا ثُم عُودَا إليَّ. فانطلقَا وسَمِعَ بهما السلميُّ، فنظرَ إلى خيارِ أسنانِ إبلِهِ فعزَلَها للصَّدقةِ، ثُم استقبلهُما بها، فلمَّا رأوهَا قالوا: ما يجبُ عليكَ هذا، وما نريدُ أنْ نأخذَ هذا منكَ، فقالَ: بَلَى، فخذُوها، فإنَّ نفسِي بذلكَ طيبةٌ، وإنما هي للهِ. فأخذاها منه، ومَرَّا على الناسِ فأخذا الصدقاتِ، ثُم رَجَعَا إلى ثعلبةَ فقالَ: أَرُونِي كتابَكُمَا، فقرأهُ فقالَ: ما هذِه إلاَّ جِزيةٌ، ما هذِه إلاَّ أختُ الجِزْيةِ، انطلِقَا حتى أَرَى رأيِي. فانطلقَا حتى أَتَيا النبيَّ ﷺ فلمَّا رآهُما قالَ: «يا ويحَ ثعلبةَ» قبلَ أنْ يُكلِّمَهُما، ودَعَا للسُّلمِيِّ بالبركةِ، فأخبرَاهُ الذي صنعَ ثعلبةُ، والذي صنعَ السُّلَمِيُّ، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ . . . ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]، قالَ: وعِندَ رسولِ اللهِ ﷺ رجُلٌ منْ أقاربِ ثعلبةَ، فسمِعَ ذلكَ فخرجَ حتى أَتاهُ فقالَ: ويحَكَ يا ثعلبةُ! قد أنزل الله فيك كذا وكذا! فخرج ثعلبة حتى أتى النبيَّ ﷺ فسأله فقالَ: «إنَّ اللهَ مَنَعَنِي أنْ أقبَلَ منكَ صدَقَتَكَ» فجعلَ يحثُو الترابَ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هذا عملُكَ، قد أمرْتُكَ فلَمْ تُطِعْنِي» فقُبِضَ النبيُّ ﷺ ولَمْ يقبَلْ منه شيئًا، وامتَنَع الخلفاءُ الراشدونَ مِن قبُولِ صدقتِهِ، وهلكَ في خلافةِ عثمانَ على هذِه الحالِ[١].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ . . . ﴾ [الليل: ١] إلى آخرِ السورةِ.

* * *

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره (١٠/ ١٨٩ـ ١٩٠) من حديث أبي أمامة.

فِي التحذِيرِ مِنَ الاغترارِ بالدُّنيا

الحمدُ للهِ الذي حذَّرنا من دارِ الغرورِ، وأمَرَنَا بالاستعدادِ ليوم البعثِ والنشورِ، أحمدُه وهو الغفورُ الشكورُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، له المُلْكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قديرٌ، وأشهدُ إنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، البشيرُ النذيرُ والسراجُ المنيرُ، وصلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، أهْلِ الجدِّ والتشميرِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ، اتقوا اللهَ حقَّ تُقاتِهِ، كثيرٌ منا اليومَ قد صارت الدنيا أكبرَ همِّهِم، ومنتهى أملِهِم، أفنَوْا أعمارَهُم، وشغَلُوا أوقاتَهُم، وأبْلَوْا أجسامَهُم بجَمعِهَا، يبنونَ ما لا يسكنونَ، ويجمعونَ ما لا يأكُلُونَ، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢﴾ [الأنبياء: ١، ٢]، لا تمُرُّ الآخرةُ لهم على بالٍ، ولم يتفكروا فيما أمامَهُم من الأهوالِ، كأنَّهم لم يسمعوا قولَ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

أَيُّها المسلمونَ، إنَّ نبيَّ اللهِ ﷺ قد حذَّرَ من الاغترارِ بالدنيا غايةَ التحذيرِ، وأخبرَ أنَّها لو ساوتْ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ما سَقَى كافرًا منها شربَةَ ماءٍ، وأنَّها أهونُ على اللهِ من السخلة الميتةِ على أهلِهَا، وأنَّ مثَلَها في الآخرةِ كَمَثَلِ ما يعلقُ بإصبعٍ من أدخلَ أصبَعَهُ في البحرِ، وأنَّها سِجنُ المؤمنينَ، وجنَّةُ الكافرينَ، وأَمرَ العبدَ أنْ يكونَ فيها كأنَّهُ غريبٌ أو عابرُ

سبيلٍ، وَأَنْ يَعُدَّ نفسَهُ من أهْلِ القُبورِ، وإذا أصبحَ فلا ينتَظِرُ المساءَ، وإذا أمسى فلا ينتظِرُ الصباحَ، وأخبرَ أنَّها حلوةٌ خضرةٌ، تأخُذُ العيونَ بخُضرَتِهَا، والقلوبَ بحلاوتِها، وأَمَرَ باتقائِهَا والحذَر منها، وأخبرَ ﷺ أنَّه ليسَ لأحدٍ من هذِه الدنيا سوى بيتٍ يسكُنُهُ، وثوبٍ يلبسُهُ، وقوتٍ يُقيمُ صُلبَهُ[١]، وأخبَرَ أنَّهُ يتبعُ الميتَ أهلُهُ ومالُهُ وعملُهُ، فيرجعُ أهلُهُ ومالُهُ، ويبقى عملُه[٢]، وأخبرَ أنَّه ليسَ لابنِ آدمَ من مالِهِ إلاَّ ما أَكلَ فأفنَى أو لَبِسَ فأبلَى، أو تصدقَ فأمضى[٣]، وأخبرَ أنَّ غِنَى العبدِ من غِنَى نفسِهِ، لا كثرةِ مالِهِ[٤].

وأخبرَ أنَّ من كانت الدُّنيا همَّهُ جعلَ اللهُ فقرَهُ بينَ عينيهِ، وشتَّتَ عليهِ شملَهُ، ولَمْ يأتِهِ من الدُّنيا إلا ما كُتِبَ له[٥]، وأخبرَ ﷺ أنَّ نجاةَ أوَّلِ هذِه الأُمَّةِ بالزهدِ واليقينِ، وهلَكَة آخِرهَا بالبُخلِ وطولِ الأملِ[٦]، وكانَ يقولُ: **«لبَّيْكَ، لا عيشَ إلا عيشُ الآخرةِ»**[٧] وكانَ يقولُ: **«الزهدُ في الدُّنيا يُريحُ القلبَ والبدنَ، والرغبةُ في الدُّنيا تطيلُ الهمومَ والحزنَ»**[٨].

عبادَ اللهِ، لقد كانَ الصحابةُ ـ رضيَ اللهُ عنهم ـ يحذَّرونَ من التنعُّمِ في الدُّنيا،

---

(١) أخرج أحمد معناه في (٤٤٢) من حديث عثمان بن عفان.
(٢) أخرجه البخاري (٦٥١٤) ومسلم (٢٩٦٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبد الله بن الشخير.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة.
(٥) أخرجه الترمذي (٢٤٥٦) من حديث أنس.
(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٧٦٥٠) والبيهقي في الشعب (١٠٥٢٦) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص.
(٧) أخرجه البخاري (٢٨٣٥) ومسلم(١٨٠٥) وأحمد (١٢٨٤٦) من حديث أنس واللفظ لأحمد.
(٨) أخرجه البيهقي في الشعب (١٠٥٣٦) عن طاوس مرسلا.

ويخافونَ أن تُعَجَّلَ لهم بذلكَ حسناتُهُم، ففي الصحيحينِ عن خبابِ بنِ الأرتِّ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: هاجرنَا معَ رسولِ اللهِ ﷺ نلتمسُ وجهَ اللهِ، فوقعَ أجرُنا على اللهِ، فمنَّا من ماتَ ولمْ يأكلْ من أجرِهِ شيئًا، منهم مصعبُ بن عميرٍ رضيَ اللهُ عنهُ، قُتِلَ يومَ أُحدٍ، وتركَ بُردَةً، فكُنَّا إذا غطَّينا بها رأسَهُ بدَتْ رِجلاهُ، وإذا غطَّينا رجليهِ بدا رأسُهُ، فأمَرَنَا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نُغَطِّي رأسَهُ، ونجعل على رِجليهِ شيئًا من الإذخِرِ. ومنَّا من أينعتْ له ثمرتُهُ فهو يَهْدِبُها[١].

وفي صحيحِ البخاريِّ عن إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنِ بن عوفٍ قالَ: أُتِيَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ رضيَ اللهُ عنهُ بطعامٍ وكانَ صائمًا، فقالَ: قُتِلَ مصعبُ بنُ عميرٍ، وهو خيرٌ مِنِّي، وكُفِّنَ في بُردَةٍ: إنْ غُطِّيَ رأسُهُ بدتْ رِجْلاهُ، وإنْ غُطي رجلاهُ بدا رأسُهُ، وقُتِلَ حمزةُ رضيَ اللهُ عنهُ، وهو خيرٌ مِنِّي، فلمْ يُوجد له كفنٌ إلاَّ بُردةٌ، ثم بُسِطَ لنا من الدُّنيا ما بُسِطَ ـ أو قالَ: أُعطِينا من الدُّنيا ما أُعْطِينا ـ وقد خَشِيتُ أن تكونَ عُجِّلتْ لنا طيباتُنا في حياتِنا الدُّنيا. ثُمَّ جَعلَ يَبكِي حتى تَركَ الطعامَ[٢].

أَيُّهَا المسلمونَ، تأمَّلوا حالَكُم، وما بُسِطَ عليكُم من الدُّنيا، كَم تأكلونَ من أصنافِ الطعامِ؟! كَم يُعرضُ أمامَكُم من أنواعِ الفواكِهِ؟! كَم تلبسونَ من فاخرِ الثيابِ؟! كَم تركبونَ من السياراتِ الفخمةِ؟! وماذا تسكنونُ من القصورِ المشيدةِ؟! وماذا ترقدونُ عليهِ من الفُرُشِ الوثيرةِ؟! وماذا تجلسونَ عليهِ من المقاعدِ الناعمةِ، وتتكئونَ عليهِ من الأرائكِ اللينةِ؟! ماذا ترصدونَ من الأموالِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٦) وأطرافه في (٣٨٩٧، ٣٩١٣، ٣١٤، ٤٠٤٧، ٤٠٨٢، ٦٤٣٢، ٦٤٤٨)، ومسلم (٩٤٠).

(٢) صحيح البخاري (١٢٧٤، ١٢٧٥، ٤٠٤٥).

الضخمةِ؟ ثم انظُروا: ماذا تقدمونَ للآخرةِ؟

إنَّ ما بُسِطَ على هؤلاءِ الصحابةِ الذينَ سمعتُمْ كلامَهُم من الدُّنيا قليلٌ جدًّا بالنسبةِ إلى ما بُسِطَ عليكُم منها، وما قدمُوهُ للآخرةِ من الأعمالِ الجليلةِ ليسَ عندَكُم منه إلاَّ أقلُّ القليلِ، إنْ كانَ عندَكُم منه شيء، ومعَ هذا خافُوا هذا الخوفَ أنْ تكونَ حسناتُهُم عجلتْ لهم، فبكوا حتى تركُوا الطعامَ، فجمعُوا بينَ إحسانِ العملِ والخوفِ من اللهِ. ونحنُ جَمَعنا بينَ الإساءَةِ وعدمِ الخوفِ من اللهِ، نتمتَّعُ بِنِعَمِ اللهِ، ونبارزُ اللهَ بالمعاصِي، كأنَّنا لم نسمعْ قولَ اللهِ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

كَمْ نرى الناسَ يتراكضونَ لطلبِ الدُّنيا مسرعينَ، يخافونَ أنْ تفوتَهُم؟ ونراهُم يقعدونَ ويتأخرونَ عن حضورِ المساجدِ لأداءِ الصلواتِ الخَمسِ التي هي عمودُ الدينِ؟ كَم نراهُم يجلسونَ في الشوارعِ والدكاكينِ الساعاتِ الطويلةَ، وقد يقاسونَ شِدَّةَ الحرِّ والقَرِّ لطلبِ الدنيا، بينما لا نراهُم يصبرونَ على الجلوسِ دقائقَ معدودةً في المساجدِ لأداءِ الصلاةِ، أو تلاوةِ القرآنِ؟ كَم نرى كثيرًا من شبابِ المسلمينَ يتسابقونَ إلى ملاعبِ الكرةِ، ويدفعونَ الدراهمَ للحصولِ على تذاكرِ الدخولِ، ثم يحتشدونَ فيها أُلوفًا مُؤَلَّفةً، ورُبَّما يَقضُونَ النهارَ، ويسهرونَ الليلَ، واقفينَ على أقدامِهِم، شاخصةً أبصارُهُم، ناصبةً أبدانُهُم، مبحوحةً أصواتُهُم، يشاهدونَ اللاعبينَ لِمن تكونُ الغلبةُ منهم؟ يتحملونَ كُلَّ هذهِ المتاعبِ في سبيلِ الشيطانِ، وإذا دُعُوا إلى حضورِ الصلواتِ في المساجدِ بـ«حيَّ على الصلاةِ، حيَّ على الفلاحِ» عَمُوا وصَمُّوا ووَلَّوا وأعرَضُوا، كأنَّ المُؤذِّنَ يدعوهُم إلى سِجنٍ، أو كأنهُ يطلُبُ منهُم مَذَمَّةً ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا

يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [المرسلات: ٤٨، ٤٩]، ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

أَيُّها المسلمونَ، هذه حالةُ الكثيرِ مِنَّا اليومَ: إقبالٌ على الدُّنيا، وإدبارٌ عن الآخرةِ، لا نعتَبِرُ بِمَن سبقَنَا، ولا نَنظُرُ إلى مَنْ حولنَا، لا نتأَثَّرُ بموعظةٍ، ولا ننتفعُ بذكرَى، فإنَّا للهِ وإنا إليه راجعون!.

ونسألُ اللهَ أنْ يَمُنَّ علينا بالتوبةِ، ويُوقظَ قلوبنا من الغفلةِ إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٤ـ٣٩].

* * *

عقوباتُ المعاصِي

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حذَّرَ من الذنوبِ والمعاصِي، وبيَّنَ أضرارَها ومفاسِدَها؛ لِيتجَنَّبَها العبادُ، وأرشدَ إلى الطاعاتِ وعملِ الصالحاتِ، وبيَّنَ فوائِدَها وثمراتِها؛ ليُكْثِرَ منها الموفقونَ، ويتزَوَّدَ بها المؤمنونَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أحمدُه على فضلِه وإحسانِه، وأشكرُه على توفيقِه وامتنانِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، البشير النذير، والسراج المُنير، حذَّرَ من المعاصِي، وحثَّ على التَّزَوُّدِ من الطاعاتِ، وقالَ في خُطْبتِه: **«أيُّها الناسُ، قدِّمُوا لأنفُسِكُم، تعْلَمُنَّ واللهِ ليَصعَقَنَّ أحدُكُم، ثم لَيَدَعنَّ غنمَهُ ليسَ لها راعٍ، ثم ليَقُولَنَّ له ربُّهُ ليسَ له ترجمان ولا حاجبٌ يحجبُهُ دونَهُ: ألم يأْتِكَ رسولٌ فبلَّغَكَ؟ وآتيتُكَ مالاً وأفضَلْتُ عليكَ، فما قدَّمتَ لنفسِكَ؟ فلينظُرَنَّ يمينًا وشمالاً فلا يَرى شيئًا، ثم لينظُرنَّ قُدَّامَهُ فلا يَرَى غيرَ جهنَّمَ، فمن استطاعَ أنْ يتَّقِي بوجهِهِ من النارِ ولو بشقِّ تمرةٍ فليَفعَل، ومَن لمْ يجِد فبكلمةٍ طيبةٍ، فإنَّها تُجزِئ، الحسنة بِعَشرِ أمثالِها إلى سبعمائَةِ ضعفٍ»**[1]. صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِه، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقوا اللهَ، واعلموا أنَّ المعاصِيَ لها عقوباتٌ عاجلةٌ وآجلةٌ، ولها آثارٌ سيئةٌ على العبادِ والبلادِ، فكَم أهلَكَت من أُمَّةٍ، وكم دَمَّرتْ من بلادٍ،

---

(١) أخرجه هناد في «الزهد» (٤٩٢) عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف.

فما في الدُّنيا والآخرةِ من شُرورٍ وداءٍ وبلاءٍ إلاَّ بسببِ الذُّنوبِ والمعاصي، فما الذي أخرَجَ الأبوينِ مِنَ الجنَّةِ دارِ اللذَّةِ والنعيمِ والبهجةِ والسرورِ إلى دارِ الآلامِ والأحزانِ والمصائبِ؟ وما الذي أخرَجَ إبليسَ من مَلَكُوتِ السماءِ، وطرَدَهُ ولَعَنهُ ومَسخَ ظاهِرَهُ وباطنَهُ، فجُعِلتْ صورتُه أقبَحَ صورةٍ وأشنَعَها؟ وبُدِّلَ بالقُرْبِ بُعدًا، وبالرحمةِ لعنةً، وبالجمالِ قُبْحًا، وبالجنَّةِ نارًا تَلَظَّى، وبالإيمانِ كُفْرًا، وحَلَّ عليه غَضَبُ الربِّ ومقْتُه؟

وما الذي أغْرَقَ أهلَ الأرضِ كُلَّهم حتى علا الماءُ فوقَ الجبالِ؟ وما الذي سلَّطَ الريحَ العقيمَ على قومِ عادٍ حتى ألقَتهُم مَوتى على وجْهِ الأرضِ كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ، ودمرتْ ما مرَّت عليه من ديارِهم وحروثِهم وزروعِهم ودوابِّهم، حتى صاروا عبرةً للأُممِ إلى يومِ القيامةِ؟ وما الذي أرسلَ على ثمودَ الصيحةَ حتى قطعتْ قلوبَهُم في أجوافِهم وماتوا عَنْ آخرِهم؟ وما الذي رَفَعَ قُرى اللوطيةِ حتى سَمِعَت الملائكةُ نباحَ كلابِهِم ثم قَلَبَها عليها، فجَعلَ عالِيها سافِلها، فأهلكهُم جميعًا ثم أتْبعَهُم حجارةً من سجيل، أمطرَهَا عليهِم، فجَمَعَ عليهِم من العقوبةِ ما لَمْ يجمعْهُ على أُمَّةٍ غيرِهِم، ولإخوانِهم أمثالُها ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٣].

وما الذي أرسلَ على قومِ شعيب سحابَ العذابِ كالظُّللِ، فلمَّا صارَ فوقَ رؤوسِهم أمطرَ عليهِم نارًا تَلَظَّى؟ وما الذي أغرقَ فرعونَ وقومَهُ في البحرِ، ثم نقِلت أرواحُهم إلى جهنَّم؟ فالأجسادُ للغرقِ، والأرواحُ للحرقِ. وما الذي خَسفَ بقارونَ ودارِه ومالِه وأهلِه؟ وما الذي أهلكَ القرونَ من بعد نوحٍ بأنواعِ العقوباتِ ودمرَها تدمِيرًا؟ وما الذي بعَثَ على بني إسرائيلَ قومًا أُولِي بأسٍ شديدٍ، فجاسُوا خلالَ الديارِ، وقتلوا الرجالَ، وسبوا الذَّرارِي والنساءَ،

وأحرقوا الديارَ ونهبُوا الأموالَ؟ ثم بعَثَهُم عليهم مرةً ثانيةً فأهْلكُوا ما قدرُوا عليهِ وتبَّرُوا ما علَوْا تتبيرا؟ وما الذي سلَّطَ عليهِم أنواعَ العذابِ والعقوباتِ، مرةً بالقتلِ والسَّبيِ وخرابِ الديارِ، ومرةً بجَورِ الملوكِ، ومرةً بمسخِهم قردةً وخنازيرَ، وأقسَمَ الربُّ ليَبْعَثَنَّ عليهِم إلى يومِ القيامةِ مَنْ يسومُهُم سوءَ العذابِ؟ إنَّها الذنوبُ والمعاصي، فالذنوبُ ـ يا عبادَ اللهِ ـ سببُ كُلِّ شرٍّ وفتنةٍ.

عبادَ اللهِ، هذه عقوباتُ المعاصِي العاجلة: غرق وحريق وريح عقيمٌ ما تَذَرُ من شيءٍ أَتَتْ عليهِ إلاَّ جَعَلَتهُ كالرَّميمِ، وصيحةٌ واحدةٌ تجعَلُ العصاةَ كالهشيمِ، وخسفٌ مُرَوِّعٌ يجعَلُ عالِيَ الأرضِ سافِلَهَا، ومطرٌ بالحجارةِ من السماءِ، وسحابٌ يمطرُ نارًا تلَظَّى، ولعَذابُ الآخرةِ أشدُّ وأبْقَى، أَفَلا يعتبرُ اللاحقونَ بالماضينَ؟ ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾ [المرسلات: ١٦ ـ ١٩].

عِبادَ اللهِ، إنَّ من آثارِ الذّنوبِ والمعاصِي: أنَّها تُحدِثُ في الأرض أنواعًا من الفسادِ في المياهِ، في الهواءِ، في الثمارِ، في المساكنِ، في الأبدانِ، قالَ تعالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١] فمِن تأثيرِ المعاصي في الأرضِ: ما يَحِلُّ بها من الخسفِ والزلازلِ، وأنتم تسمعونَ عما يَحِلُّ بأرجاءِ العالمِ اليومَ من الزلازلِ والفيضاناتِ، والأعاصيرِ المُدَمِّرةِ، التي تجتاحُ الألوفَ من السكانِ، وتهلكُ المبالغَ الطائلةَ من الأموالِ، وتدمِّرُ الكثيرَ والكثيرَ من المساكنِ.

ومن آثارِ الذنوبِ في الثمارِ: ما يظهرُ فيها من الآفاتِ التي تَقضِي عليها، أو تُنقِصُ محاصيلَها.

ومن آثارِ المعاصِي في المياهِ: ما ترونَ من حبسِ الأمطارِ، وغورِ المياهِ،

وهلاكِ الحروثِ والأشجارِ.

ومن آثار المعاصي في الأبدانِ: ما ترون من حدوثِ الأمراضِ الفتاكةِ، والآفاتِ القاتلةِ، والحوادثِ المروعةِ، التي يهلكُ فيها الجماعاتُ من الناسِ.

ومن آثارِ المعاصِي في المجتمعاتِ: ما يحدُثُ فيها من الفوضَى وتسليطِ الظَّلَمَة، والانقسامِ إلى شِيَعٍ وأحزابٍ يموجُ بعضُها في بعضٍ، واختراعِ الأسلحةِ الناريةِ، والقنابلِ المدمِّرةِ الفتاكةِ، التي تُدَمرُ الواحدةُ منها مدينةً بأكملِها، أو أكثرَ من ذلكَ، وصدقَ اللهُ حيثُ يقولُ: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

ومن أعظمِ عقوباتِ المعاصِي: أنَّها تُطفِئ نورَ القلبِ، وتقتلُ الغيرةَ فيهِ، فتُقوي فيهِ إرادةَ المعصيةِ، وتُضعِفُ فيه إرادةَ التوبةِ شيئًا فشيئًا، إلى أنْ تَنعَدِمَ من قلبِه بالكليةِ، فلو ماتَ نصفُهُ لما تابَ إلى اللهِ، وقد يأتِي بالاستغفارِ وتوبةِ الكذابينَ باللسانِ، وقلبُهُ ممتلئ بالمعصيةِ مُصِرٌّ عليها، عازمٌ على فِعْلِهَا متى أمكنَهُ، وينعدِمُ من قلبِهِ الفرقانُ بينَ الحقِّ والباطلِ، فيرَى المعروفَ مُنكرًا، والمُنكرَ معروفًا، وهذا من أعظمِ العقوباتِ.

عبادَ الله، إنَّ المعاصيَ في مجتمعاتِنا المعاصرةِ قد تكاثرَتْ وتنوعتْ بشكلٍ يخيفُ، بَلْ لا نكونُ مبالغينَ، إذا قُلْنا: إنَّه قد حدَثَ في مجتمعاتِنا معاصٍ لمْ تكُنْ معروفةً مِنْ قَبْلُ، بسببِ ما مكَّنَ اللهُ لهذا الجيلِ من تسخيرِ ما في الكونِ من أسرارٍ، وتفجيرِ ما في الأرضِ من خيراتٍ، واختلاطِ العالمِ بعضِهِ ببعضٍ، بسببِ سهولةِ المواصلاتِ.

وإنَّه ـ يا عبادَ اللهِ ـ يُخشَى علينا من العقوبةِ المُهْلِكَةِ، فعلينا أن نتنبهَ لأنفُسِنا

ونرجعَ إلى ربِّنا لِنَتداركَ أمْرَنا.

لقد كَثُرَ في مُجتمعِنا تضييعُ الصلواتِ، وتركُ الجُمعِ والجماعاتِ، لقد كَثُرَ أَكلُ الحرامِ من الرِّبا والرشوةِ والغشِّ في المعاملاتِ، وأكلُ أموالِ الناسِ بالباطلِ بأنواعِ الحِيَلِ وشهادةِ الزورِ والأيمانِ الفاجرةِ في الخصوماتِ، لقد ارتفعَتْ أصواتُ المعازفِ والمزاميرِ والمغنياتِ في البيوتِ والدكاكينِ والسياراتِ، لقد تبرَّجَتِ النساءُ في الأسواقِ، وزاحمَتِ الرجالَ، كاسياتٍ عارياتٍ مائلاتٍ مميلاتٍ.

لقد ضاعَ كثيرٌ من شبابِ المسلمينَ ونشئوا على الأخلاقِ الرذيلةِ، والعاداتِ السيئةِ، والجهلِ بأمورِ دينِهِم، وصارَ همُّ الكثيرِ منهُم تقليدَ الكفارِ في شعورِه ولباسِه وكلامِه ومشيتِه، فَحَلقُوا لحَاهُم، وأرسلُوا شوارِبهُم ورؤوسَهُم، وأطالُوا أظافيرَهُم وأسبَلُوا لباسَهُم، وتخَتَّمُوا بخواتم الذهبِ، لقد ضيَّعُوا أوقاتَهُم، وصرفُوا كُلَّ طاقاتِهِم، فيما لا يُفيدُ لا في الدينِ ولا في الدُّنيا، فأصبحَ الكثيرُ منهم لا صلةَ له بالقرآنِ، لا صلةَ له بالمسجدِ، لا صلةَ له بأهلِ الخيرِ، لا صلةَ له بوالديهِ، لا يَعرِفُ إلا النَّوادِيَ الرياضيةَ والمقاهيَ وقُرناءَ السوءِ.

فيا عبادَ اللهِ، انتبِهُوا لأولادِكُم، فهم أمانةٌ في أعناقِكُم، ورعيةٌ تحتَ أيديكُم، قد يقولُ البعضُ منكُم: أنا لا أستطيعُ السيطرةَ على ابنِي؛ لأنَّهُ خرَجَ عن طاعَتِي، فنقولُ له: إنَّك ضيعْتَهُ صغيرًا، فلم تُنشِّئهُ على الخيرِ، لمْ تُجَنبهُ قُرناءَ السوءِ، ولم تراقبْهُ في تصرفاتِه، فلمَّا كَبِرَ تمرَّدَ عليكَ، وعَتَا عن أمْرِكَ، ضيَّعْتَهُ صغيرًا فعَصَاكَ كبيرًا.

فانتبهُوا يا عبادَ اللهِ ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٩٤ـ٩٩].

* * *

فِي التحذِيرِ مِن استماعِ الأَغَانِي

الحمدُ للهِ الذي خلَقَ الخلْقَ ليعبدُوهُ، وأمرهُم بالإكثارِ من ذكرِهِ في جميعِ الأوقاتِ، ونهاهُم عمَّا يَصدُّهُم عن ذكرِهِ وعن الصلاةِ، أحمدُه أنْ بينَ لعبادِهِ طريقَ الخيرِ ليسلكُوهُ، وحذَّرَهُم من طريقِ الشرِّ لِيتَجنبُوهُ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، بلَّغَ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في اللهِ حقَّ جهادِهِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومَنْ تمسَّكَ بِسُنَّتِهِ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ من أعظَم ما يَصُدُّ عن ذِكرِ اللهِ، ويشغلُ العبادَ عن طاعتِه: استماع الأغانِي والمعازِف، على اختلافِ أنواعِها، وتعدُّدِ أشكالِها، تلكُم الأغَانِي والمعازف التي احْتلَّت غالبَ بيوتِ المسلمينَ اليومَ، وحاصرت البيوتَ التي لمْ تستطع احتلالَها حصارًا شديدًا، تُحاولُ الدخولَ فيها، والتَّغَلغلَ إلى ساكِنِيها، لقد فُتِنَ بها كثيرٌ من الرجالِ والنساءِ الذينَ ضعفَ إيمانُهُم، وخَفَّت عُقُولُهُم، واقتَدى بهم شبابُ الأُمَّةِ من بنينَ وبناتٍ، فشغلُوا أوقاتهم، وملئوا أرجاءَ بيوتِهِم بأصواتِ المغنينَ والمغنياتِ، التي تَبُثُّها الإذاعاتُ، أو تُسجَّلُ في أشرطةٍ تباعُ في الأسواق. ومن وراءِ ذلك الصحفُ والمجلاتُ الماجنةُ، التي تُنوِّهُ بشأنِ هؤلاءِ المطرِبينَ، وتنشُرُ أسماءَهُم وصورَهُم على صفحاتِها؛ لتعريفِ الناسِ بهِم، وترويجِ بضاعتِهِم المنتنةِ الخبيثةِ، حتى لقد أصبحَ كثيرٌ من الشبابِ يعرفُ عن هؤلاءِ المغنينَ والمغنياتِ

وأغنياتِهم كُلَّ دقيقٍ وجليلٍ، ويعرفُ مواقيتَ بَثِّ تلكَ الأغانِي آناءَ النهارِ والليلِ، ولو سألتَهُ عن معنَى «لا إلهَ إلا اللهُ» لقالَ: هاه هاه لا أدْري! ولو سألتَهُ عن مواقيتِ الصلاةِ قالَ: لا أدْري! وكيفَ يدْري؟ ومِنْ أينَ له أنْ يدْرِيَ؟ وهمَّتُهُ متجهةٌ لضِدِّ ذلكَ، ووسائلُ الإعلامِ تلقِّنُه أغنية فلانٍ وفلانة، وتعلنُ له مواعيدَ بَثِّهَا في كُلِّ ساعةٍ، وهذه الأغانِي تشغلُ معظمَ برامجِ الإذاعةِ، وما يفوتُهُ سماعهُ من المذياعِ، يَجدُهُ مسجَّلاً على أشرطةٍ تُهدَى له أو تُباعُ؟!

عِبادَ اللهِ، من كانَ في شكٍّ من تحريمِ الأغانِي والموسيقَى والمعازفِ، فَليُزلِ الشَّكَّ باليقينِ، من قَولِ ربِّ العالمينَ، والرسولِ الأمينِ، في تحريمِها وبيانِ أضرارِها، فهُناكَ النصوصُ الكثيرةُ من الكتابِ والسُّنَّةِ تدُلُّ على تحريمِ الأغانِي والوعيدِ لِمَن استحلَّ ذلكَ أو أصرَّ عليه، والمؤمنُ يكفيهِ دليلٌ واحدٌ من كتابِ اللهِ أو صحيحِ سُنَّةِ رسولِ اللهِ، فيكفَ إذا تكاثرَتِ الأدلةُ على ذلكَ؟ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فاسمعُوا ـ وفَّقَكُمُ اللهُ ـ قولَ ربِّكُم عزَّ وجلَّ في تحريمِ الأغانِي وتحذِيرِكُم منها، ووعيدِ منِ استعمَلَها أو استمَعَ إليها، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ [لقمان: ٦، ٧] قال أكثرُ المفسرينَ: المرادُ بِلَهوِ الحديثِ في هذِه الآيةِ: الغِناءُ، وحَلفَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ ثلاثَ مراتٍ على أنَّ المُرادَ بلهوِ الحديثِ في هذِه الآيةِ الغناءُ.

واسمعُوا قولَ نبيِّكُم ﷺ في تَحريمِ الغناءِ والمعازفِ؛ رَوَى البخاريُّ في

صحيحهِ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «ليكُونَنَّ في أُمَّتِي أقوامٌ يستَحِلُّونَ الحِرَ والحريرَ والخمرَ والمعازفَ»(١)، والمعازفُ هي آلاتُ اللهوِ بجميعِ أنواعِها، فَذَمَّهُم النبيُّ ﷺ على استِحلالِها، وقَرنَ ذلكَ باستِحلالِ الحِرِ، وهو الفرجُ، يعنِي استحلالَ الزِّنا، وباستحلالِ الحريرِ والخمرِ وتوعَّدَهُم بالخسفِ والمسخِ، ممَّا يدلُّ على شناعةِ استباحةِ المعازفِ، وقد وردَتْ أحاديث أُخرَى كثيرةٌ في السُّننِ والمسانيدِ تدُل على تحريمِ الغناءِ والمعازف. مَنْ أرادَ الاطلاعَ عليها وعلى كلامِ أهلِ العِلمِ في تحريمِ الغناءِ وآلاتِ اللهوِ، فليُطالِعْ كتابَ «إغاثةِ اللهفانِ من مصائِدِ الشطيانِ»، لابن القيِّمِ، وكتابَ تلبيسِ إبليسَ، لابنِ الجَوزِيِّ، وغيرَهما، فقد أُلِّفَ في تحريمِ الغناءِ واستماعِهِ مؤلفاتٌ كثيرةٌ مشهورةٌ.

عِبادَ اللهِ إنَّ مفاسدَ استماعِ الأغانِي كثيرةٌ، وآفاتِهِ خطيرةٌ:

منها: أنَّهُ يفسدُ القلبَ ويُنبِتُ النفاقَ فيه، كما قالَهُ غيرُ واحدٍ من السلفِ.

ومنها: أنَّه يمحُو من القلبِ محبةَ القرآنِ الكريمِ، فإنَّه لا يجتمعُ في القلبِ محبةُ القرآنِ ومحبةُ الألحانِ؛ لأنَّ القرآنَ وحي الرحمنِ، والغناءُ وَحيُ الشيطانِ، ولا يجتمعُ وحْيُ الرحمنِ ووحيُ الشيطانِ في مكانٍ إلاَّ أَخرَجَ أحدُهُما الآخرَ.

ومن مضارِّ الغناءِ: أنه يُسْخِطُ اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّهُ يَصُدُّ عن ذِكرِهِ وطاعتِهِ.

ومن مضارِّ استماعِ الأغانِي: أنَّه سببٌ لأنواعِ العقوباتِ في الدُّنيا والآخرةِ، قالَ ابنُ القيِّمِ رحِمَهُ اللهُ: والذي شاهَدْناهُ نحنُ وغيرُنا وعرفناهُ بالتجاربِ، أنه ما ظَهَرتِ المعازفُ وآلاتُ اللهوِ في قومٍ وفشتْ فيهِم واشتغَلوا بها، إلاَّ سلَّطَ اللهُ عليهِمُ العدُوَّ، وبُلُوا بالقَحطِ والجدْبِ ووُلاةِ السوءِ. انتهَى كلامُهُ رحمهُ اللهُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٩) من حديث أبي مالك أو أبي عامر الأشعري.

ومن مضارِّ استماعِ الأغانِي: أنَّه مَجْلَبةٌ للشياطينِ فهم قُرناءُ المغنينَ والمستمعينَ، وما كانَ مجلبةً للشياطينِ فهُو مطرَدَةٌ للملائكةِ لأنهما ضِدَّانِ لا يجتمعانِ، فالبيتُ الذي ترتفِعُ فيه أصواتُ الأغانِي تجتمِعُ فيه الشياطينُ، وتبتعِدُ عنه الملائكةُ، فماذا تكونُ حالُ أهلِ البيتِ الذينَ يخالطونَ الشياطينَ في بيوتِهِم؟ فيا أسفَاهُ على بيوتٍ خلتْ من ذِكرِ اللهِ، وخلتْ من ملائكةِ الرحمنِ، وعمرتْ بالأغانِي، وامتَلأَتْ بالشياطينِ، إنها أصبحَتْ مدارسَ يتخرَّجُ منا الأشقياءُ، نعوذُ باللهِ مِنها ومن أهلِها.

ومن مفاسدِ استماعِ الأغانِي: الترغيبُ في الزِّنا، والدعوةُ إليه، وقد جاءَ في الحديثِ: «الغناءُ رقية الزِّنا» ولهذا يحرصُ المغنونَ على إسماعِ الناسِ الأغانِي التي فيها وصفُ محاسنِ النساءِ، وقصصُ الغرامِ والعِشقِ والمُجون، وأشعارُ الغَزَلِ، ووصفُ الخدودِ والقُدودِ، والثغورِ، والنحورِ، وما في معنى ذلكَ، ممَّا يُثيرُ الوجدَ والهَوَى، لاسيَّمَا وقد قُرِنتْ بأصواتِ المعازفِ، وأُرسِلَت على أمواجِ الأثيرِ، تغزُو كلَّ بيتٍ، وتدخُلُ كُلَّ غرفةٍ، ويستمعُ إليها كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ، وذكرٍ وأُنثَى، إلاَّ من عَصَمَ اللهُ.

عِبادَ الله، طَهِّرُوا بيوتَكُم من هذِه الأنجاسِ، واقطَعُوا عنها هذِه الأصواتَ الملعونَةَ، واعمُرُوها بذِكرِ اللهِ وتلاوةِ القرآنِ، لعلَّكُم تُفلِحونَ.

ويا من تبيعُ هذِه الأشرطةَ التي قد سجلتَ عليها هذِه الأغانِي: اعلمْ أنَّكَ تبيعُ حرامًا، وتنشرُ فسادًا، وكَسبُكَ خبيثٌ، فتُبْ إلى اللهِ، واستبدِل بيعَ هذِه الأشرطةِ ببيعِ أشرطةٍ قد سُجِّل فيها الكَلِمُ الطيِّبُ النافعُ من كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، والمواعظِ النافعةِ، والخُطَبِ والمحاضراتِ المفيدةِ، وهيَ والحمدُ للهِ كثيرةٌ ووفيرةٌ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ومنْ تركَ شيئًا للهِ عوَّضهُ اللهُ خيرًا منهُ.

عِبادَ اللهِ، إنَّنا لا نُلحِقُ اللومَ ونُحمِّلُ المسؤولية على الإذاعاتِ التي تَبُثُّ من دولٍ كافرةٍ، لأنَّه ليسَ بعدَ الكفرِ ذنبٌ، ولا يُرتَجَى من الكافرِ خيرٌ، لكنَّنا نُحَمِّلُ المسؤوليةَ في ذلكَ للمسلمينَ الذين يغارونَ على دينِهم وأخلاقِهم ونسائِهم وذرياتِهم، فكيفَ يليقُ بهؤلاءِ أنْ يرتكِبُوا ما حرَّمَ اللهُ؟ وكيفَ يليقُ بالمسلمينَ الذينَ اعتُدِيَ علي دينِهم وبلادِهم، وشُرِّدَ إخوانهُم في أقطارِ الأرضِ على أيدِي الكفارِ، والحروبُ تشتعلُ في أطرافِهم، كيفَ يليقُ بهِم معَ ذلكَ أنْ يلهوا ويُغَنُّوا ويطرَبُوا، وهم جرحى مهددونَ بالأخطارِ؟ إن اللائِقَ بهم والواجبَ عليهِم أن يَجِدُّوا ويجتَهِدُوا في حمايةِ دينِهم وبلادِهِم؛ ويحفظُوا أوقاتهم فيما يعودُ عليهم بالنَّفعِ في دينِهم ودنياهُم، من عبادةِ اللهِ، وتعلُّمِ العلومِ النافعةِ، والجهادِ في سبيلِ اللهِ، ونشرِ دعوةِ الإسلامِ في الأرضِ، وإذا فَعلوا ذلكَ لمْ يَبقَ وقتٌ لِلَّهو واللعبِ.

وفَّقَ اللهُ المسلمينَ للتمسُّكِ بدينِهم، والبصيرةِ في أمرِهم، إنَّه قريبٌ مجيبٌ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ، بسمِ الله الرحمنِ الرحيم، ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ . . . ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾[لقمان: ١ـ٧].

* * *

في التحذيرِ من التصويرِ واستعمالِهِ

الحمدُ للهِ الخلاَّقِ العليمِ، ألا يعلمُ من خلقَ وهو اللطيفُ الخبيرُ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يُحيي ويميتُ، وهو على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حذَّرَ من مُضَاهاةِ خلقِ اللهِ بالتصويرِ غايةَ التحذيرِ، صلّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه ومنْ تَبِعهمْ بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ، اتقُو اللهَ، واجتنِبُوا ما نهاكُم عنه.

عِبادَ اللهِ، سيكونُ حديثُنا معكُم عن جريمةٍ شديدةِ الإثمِ، ألاَ وهي جريمةُ التصويرِ واستِعمَالُهُ، فقد انهَمكَ الناسُ في هذِه المعصيةِ، حتى أصبحَتْ مهنةً منَ المِهَنِ، وموردًا من المواردِ التي تُستغلُّ لاكتسابِ المالِ، فهُيِّئَتْ لها المحلاتُ في الأسواقِ، وكُتِبتْ عليها اللافتاتُ بالخطوطِ العريضةِ، فقلَّ أنْ تَجِدَ شارعًا من الشوارعِ إلاَّ وفيهِ محلاتٌ للتصويرِ، بَلْ ويكثُرُ أنْ تجِدَ الصورَ معروضةً للبيعِ كعرضِ السِّلَعِ المباحةِ، وكُلُّ هذا محادَّةٌ للهِ ولرسولِه، وتجشُّمٌ لكبيرةٍ من كبائرِ الذنوبِ دونَ مبالاةٍ ولا خوفٍ من اللهِ تعالَى.

وها أنا أورِدُ لكُم نصوصًا صحيحةً صريحةً عن رسولِ اللهِ ﷺ في تحريمِ التصويرِ، وتحريمِ استعمالِ الصُّورِ، والوعيدِ على ذلكَ بألوانٍ من الوعيدِ: ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

عنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ الذينَ يصنعونَ هذِه**

الصُّورَ يُعذَّبونَ يومَ القيامةِ، يقالُ لهُم: أَحْيُوا ما خلقتُم»[١]. متفقٌ عليهِ.

وعن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالتْ: قدِمَ رسولُ اللهِ ﷺ مِن سَفرٍ، وقد سترتُ سهوةً لي بقرامٍ فيه تماثيلُ، فلمَّا رآهُ رسولُ اللهِ ﷺ تلوَّنَ وجهُهُ وقالَ: **«يا عائشةُ، أشدُّ الناسِ عذابًا عندَ اللهِ يومَ القيامةِ الذينَ يضاهونَ بِخَلْقِ اللهِ»** قالتْ: فقَطَّعْنَاهُ، فجعَلنا منه وسادةً أو وسادتينِ[٢]. متفقٌ عليهِ.

وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُمَا قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«كُلُّ مُصَوِّرٍ في النارِ، يُجعلُ له بكُلِّ صورةٍ صوَّرَها نفسٌ، فيعذِّبُهُ في جهنَّم»** قالَ ابنُ عباسٍ: فإن كُنتَ لا بُدَّ فاعلاً، فاصنعِ الشجرَ وما لا روحَ فيهِ[٣]. متفقٌ عليهِ.
وعنه قالَ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«من صورَ صورةً في الدُّنيا، كُلِّفَ أنْ ينفُخَ فيها الروحَ يومَ القيامةِ، وليسَ بنافخٍ»**[٤] متفقٌ عليهِ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«إنَّ أشدَّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ المصورونَ»**[٥] متفقٌ عليهِ. وعنْ أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«قالَ اللهُ تعالَى: ومنْ أظلمُ ممَّن ذهبَ يخلُقُ كخَلقِي، فَليخْلقُوا ذرةً، أو ليخلقُوا حبةً، أو ليخلقُوا شعيرةً»**[٦] متفقٌ عليهِ.

وعنْ أبي طلحةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: **«لا تدخُلُ الملائكةُ بيتًا**

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٥١، ٧٥٥٨) ومسلم (٢١٠٨) من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٤) ومسلم (٢١٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (٢٢٢٥، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢) ومسلم (٢١١) واللفظ لمسلم.
(٤) أخرجه البخاري (٥٩٦٣) (٢١١٠/ ١٠٠).
(٥) أخرجه البخاري (٥٩٥٠) ومسلم (٢١٠٩).
(٦) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) ومسلم (٢١١١).

فيهِ كلبٌ ولا صورةٌ»[١] متفقٌ عليهِ.

وعنْ أبي الهياجِ حيان بنِ حصينٍ قالَ: قالَ لِي عليٌّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ: ألاَ أبْعثُكَ على ما بَعَثني عليهِ رسولُ اللهِ ﷺ؟ أنْ لا تَدع صورةً إلا طَمستَها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سَوَّيْته[٢]. رواهُ مسلمٌ.

أيُّها المسلمونَ، هذا بعضٌ منَ النصوصِ الواردةِ في التحذيرِ من التصويرِ واستعمالِ الصُّورِ، وهي تدلُّ على مسائلَ:

المسألةُ الأولى: أنَّ تصويرَ ذواتِ الأرواحِ مِنَ الآدميينَ والبهائمِ والطيورِ وغيرِها حرامٌ شديدُ التحريمِ، وكبيرةٌ من كبائرِ الذنوبِ، للوعيدِ عليهِ بالنارِ، وأنَّهُ منْ أعظمِ الظُّلمِ.

المسألةُ الثانيةُ: أنَّ المصوِّرَ منْ أشدِّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ، وأنَّه يُكلَّفُ يومَ القيامةِ أنْ ينفُخَ الروحَ في كُلِّ صورةٍ صوَّرَها، وهو لا يستطيعُ نفخَ الروحِ؛ لأنَّ الروحَ منْ أمرِ اللهِ تعالَى، ولكِنَّهُ يُكلَّفُ ذلكَ زيادةَ تعذيبٍ وتوبيخٍ له، وأنَّ هذه الصُّورَ التي صوَّرَها في الدُّنيا تُحضرُ كُلُّها يومَ القيامةِ، ويُجعلُ في كلِّ صورةٍ منها نفسٌ تُعذِّبهُ في جهنَّمَ.

المسألةُ الثالثةُ: أن وجودَ الصورةِ في البيتِ يمنعُ من دخولِ ملائكةِ الرحمةِ فيه، وفي عدمِ دخولِ ملائكةِ الرحمةِ في البيتِ خسارةٌ عظيمةٌ لأهلِهِ، وذلكَ عقوبةٌ لهم.

المسألة الرابعة: تحريمُ تعليقِ الصورِ على الجدرانِ، سواءٌ عُلقت الصورةُ وحدَها أو كانت في ستارةٍ، وبعضُ الناسِ يعلقونَ صورَ الملوكِ والرؤساءِ في

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٢٥) ومسلم (٢١٠٦) من حديث أبي طلحة.

(٢) أخرجه مسلم (٩٦٩).

بيوتِهِم، أو في مكاتِبِهِم، وهذا من أعظمِ الظُّلمِ والمُحادةِ للهِ ولرسولهِ، فقد سمعتم أنَّ الرسولَ ﷺ امتنعَ من دُخولِ البيتِ، وغضَبِ غضبًا شديدًا لمَّا رأى الصور في السترِ الذي علَّقتهُ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها، وكذلكَ بعضُ الناسِ يُعلِّقُ صُورةَ نَفْسهِ أو صُورَ أولادِه أو أصدقائِه في بيتهِ أو دكانهِ، ويقولُ: هذه صُورٌ تذكاريةٌ، وبعضُ الناسِ يُزَيِّنُ جدرانَ بيتهِ بالصُّورِ، فيكسوها بالمصوراتِ، وكُلُّ ذلكَ مما نَهى اللهُ عنه ورسولُه، بَلْ ذلكَ أشدُّ أنواعِ استعمالِ الصُّورِ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى الشِّركِ، وهو يُشبِهُ فعلَ النصارى في كنائِسِهِم، حيثُ يُصَوِّرونَ في جدرانِها التصاويرَ، وأوَّلُ شِركٍ حدثَ في الأرضِ كانَ بسببِ التصويرِ وتعليقِ الصُّورِ، فقد رَوَى البخاريُّ وغيرُه: أنَّه كانَ في قومِ نوحٍ رجالٌ صالحونَ، فماتوا في عامٍ واحدٍ، فَحزِنَ عليهِم قومُهُم أشدَّ الحزنِ، فجاءَهُم الشيطانُ وقالَ لهم: صَوِّروا صُورَهُم، وانصبُوها على مجالِسِهِم، حتى إذا رأيتُم صُورَهُم تذكُرونهُم، وتنشَطونَ على العبادةِ، فَفَعَلوا ما أشارَ عليهِم به من نَصْبِ صُوَرِ أولئكَ الصالحينَ، واستمرَّت تلكَ الصُّورُ منصوبةً مدةً من الزمانِ، حتى جاءَ جيلٌ متأخِّرٌ فقالَ لهم الشيطانُ: إنَّ آباءَكُم ما نصَبُوا هذِه الصُّورَ إلاَّ ليعبُدُوها، وأشارَ عليهِم بعبادتِهِم، فقَبِلُوا مشورَتَهُ، وعبدُوها من دونِ اللهِ، فحَدَثَ الشِّرْكُ باللهِ من ذلكَ الحينِ، فبعَثَ اللهُ نبيَّهُ نوحًا عليهِ السلامُ ينهاهُم عن هذا الشِّركِ، لكنَّهم استمرُّوا على عبادةِ هذه الصُّورِ ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] [نوح: ٢٢، ٢٣].

المسألةُ الخامسةُ: مِمَّا دلَّت عليه هذِه الأحاديثُ: أنَّ تَصويرَ غَيرِ ذوات

---

(١) أخرج ذلك البخاري في صحيحه (٤٩٢٠) من حديث ابن عباس بمعناه.

الأرواحِ لا بأسَ به، فيجوزُ تصويرُ المباني والأشجارِ والجبالِ والأنهارِ والبحارِ، وسائرِ المناظرِ والآلاتِ، سواء صَوَّرها على أوراقٍ أو على حيطانٍ أو غيرِ ذلكَ؛ لأنَّ ابنَ عباسٍ قالَ: صَوِّرِ الشجرَ وما لا روحَ فيه[١].

المسألةُ السادسةُ: أنَّه يجوزُ استعمالُ ما فيه صورةٌ إذا كانت الصورةُ مُمتَهَنةً، تُداسُ، أو يُجلَسُ، أو يُنامُ عليها، كالصُّورِ التي في البُسُطِ والوسائدِ ونحوِهَا؛ لأنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها هتكَتِ السترَ الذي فيه تماثيلُ وجَعَلَتهُ وسائدَ، وكذلكَ استعمالُ النقودِ التي فيها صورٌ، كُلُّ هذا جائزٌ، ويكونُ الإثمُ على واضعِ الصورةِ لا على المستعملِ.

عِبادَ اللهِ، ومن عمومِ النصوصِ السابقةِ وغيرِها نُدرِكُ تحريمَ التصويرِ، وتحريمَ استعمالِه بجميعِ أشكالِه، سواء كان تماثيلَ لها أَجرامٌ، أو رُسوما على أوراقٍ، أو على خِرقٍ، أو حيطانٍ، وسواء رُسِمتْ باليدِ أو صُوِّرت بالآلةِ المُسَمَّاةِ بالكاميرا، كُلُّ ذلكَ مُحرَّمٌ داخلٌ في عمومِ الوعيدِ الشديدِ والنَّهيِ الأكيدِ، فعلى المسلمِ أنْ يتَجَنَّبَهُ، ويحذر منه، ويُخلِي بيتَهُ ومكتبَهُ منه، ويطمِس ما يستطيعُ طَمسَهُ منها.

وإنَّ من أشدِّ أنواعِ التصويرِ خَطَرًا على الأخلاقِ والأعراضِ: تصويرُ النساءِ، لاسيَّما الفتياتُ الجميلاتُ، وعَرض صُورِهِنَّ على صفحاتِ الجرائدِ والمجلاتِ، أو تعلِيقها على الجدرانِ وغيرِها، ومن ذلكَ: ما يفعَلُهُ بعضُ من ماتتْ غيرتُهم وتبلَّدتْ حواسُّهُم من تصويرِ العروسينِ ليلةَ الزفافِ، فإنَّ هذا معَ كونِه انتهاكًا لِمَا حرَّمَ اللهُ من التصويرِ، هو معَ ذلكَ منافٍ للخُلُقِ والغيرةِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٥، ٥٩٦٣، ٧٠٤٢) ومسلم (٢١١) واللفظ لمسلم.

الإسلاميةِ، وفيه تَشبهٌ بالكفارِ في عاداتِهم السخيفةِ.

هذا ورُبَّما يسألُ سائلٌ فيقولُ: إذا كانَ التصويرُ بهذهِ المنزلةِ من التحريمِ والإثمِ، فما حُكمُ التصويرِ لأجلِ جوازِ السفرِ والتابعيةِ، والانتظامِ في سلكِ الدراسةِ، وغيرِ ذلكَ مما يلزمُ النظامُ بالتصويرِ من أجلهِ؟ فالجوابُ: أنَّ التصويرَ حرامٌ بجميعِ أنواعِهِ، ولأيِّ غرضٍ كانَ، لكنَّ المسلمَ قد يكونُ معذورًا في ارتكابِ بعضِ المنهياتِ، لسببٍ من الأسبابِ، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦]، فإذا حِيلَ بينَ المسلمِ وبينَ غرضِهِ الصحيحِ الذي يَتضرَّرُ بتركِهِ، وألزمَهُ النظامُ بالتصويرِ من أجلِ تحصيلِ ذلكَ الغرضِ الذي لا بُدَّ له منه، فحينئذٍ لعلَّهُ يكونُ المسلمُ معذورًا بأن يصوِّر نفسَه، دفعًا لتلكَ الضرورةِ، معَ كراهتِهِ لذلكَ وعدمِ استباحتِهِ.

فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، وعظِّموا أمرهُ ونهيه، ولا تتعدوا حدوده.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

* * *

في ردِّ مُحاولةِ تسويةِ المَرأةِ بالرَّجُلِ

الحمدُ للهِ الذي خلقَ الزوجينِ الذكرَ والأنثَى، من نطفةٍ إذا تُمْنَى، وفاوتَ بينَهُم في الخِلْقَةِ فليسَ الذكرُ كالأنْثَى، أحمدُه على نعمِهِ التي لا تُحْصَى، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في ربوبيتِهِ وإلَهيتِه وأسمائِه الحُسنَى، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أسرَى اللهُ به ليلاً من المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى، ليُريه من آياتِه الكُبرى، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ أُولِي الفضلِ والنُّهىٰ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى.

يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾ [النساء: ١]، ويقولُ النبي ﷺ: «**واستوْصُوا بالنساءِ خيرًا**» ويقولُ: «**ما تركتُ بَعدِي فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساءِ**»[(١)].

فاتقُوا اللهَ أيُّها المسلمونَ في نسائِكمْ، ونفِّذوا وصيةَ اللهِ ووصية نبيِّهِ فيهنَّ، فاحفظُوهُنَّ بالسترِ والصيانةِ، فقد جعلَكُمُ اللهُ قوَّامينَ عليهِنَّ؛ لأنَّ المرأةَ ناقصةٌ عن الرجلِ نقصًا خِلقيًّا، وضعيفةٌ ضعفًا طبيعيًّا، فهي بحاجةٍ إلى قوامتهِ عليها؛ لأنَّ العقلَ الصحيحَ الذي يدركُ الحِكَمَ والأسرارَ، يقضِي بأنَّ الناقصَ الضعيفَ بخِلقَتِه وطبيعتِه يَلزمُ أنْ يكونَ تحتَ نظرِ الكاملِ في خِلقَتِه القويِّ بطبيعتِه،

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد.

ليَجلِبَ له ما لا يقدرُ على جلبِه من النفعِ، ويدفعَ عنه ما لا يقدرُ على دفعِهِ من الضُّرِّ، فالرجلُ ملزمٌ بالإنفاقِ على نسائِه، والقيامِ بما يلزَمُهُنَّ في الحياةِ، لتبقَى المرأةُ مصونةً في بيتِها، متفرغةً لتربيةِ أولادِها وتنظيمِ شؤونِ بيتِها.

فلكُلٍّ من الرجلِ والمرأةِ عَملُهُ اللائقُ بخِلقَتِه، فالرجلُ يعملُ خارجَ البيتِ، والمرأةُ تعملُ داخلَ البيتِ، وبهذا يتمُّ التعاونُ بينهُما على الحياةِ، وكما أنَّ اللهَ فاوَتَ بينَ الرجلِ والمرأةِ في الخِلقَةِ، فجعلَ لكلٍّ منهما خِلقةً تناسبُ مسؤوليتَه في الحياةِ، فقد وردَ النَّهيُ الأكيدُ عن تَشبُّهِ أحدِهما بالآخرِ فقد ثَبَتَ في صحيحِ البخاريِّ عن ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: «لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ المتشبهينَ من الرجالِ بالنساءِ، والمتشبهاتِ من النساءِ بالرجالِ»[1]، ومعلومٌ أنَّ من لَعَنَهُ رسولُ اللهِ ﷺ فُهوَ ملعونٌ في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأن اللهَ يقولُ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فلا يجوزُ للرجلِ أنْ يتشبَّهَ بالمرأةِ فيما هو من خصائِصِهَا، ولا يجوزُ للمرأةِ أن تتشبَّهَ بالرجلِ فيما هو من خصائِصِهِ، فالرجلُ الذي يحاولُ مُشابَهَةَ المرأةِ في نُعومتِهَا وليونتِهَا، والمرأةُ التي تحاولُ مشابهةَ الرجلِ في تولِّي أعمالِهِ، كُلٌّ منهُما بذلكَ يحاولُ تغييرَ خلقِ اللهِ، وكُلٌّ منهما ملعونٌ على لسانِ رسولِ اللهِ، ومعلونٌ في كتابِ اللهِ: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾ [النساء: ٥٢].

أَيُّها المسلمونَ، من بينِنا اليومَ قوم من جلدتِنَا، يتكلمونَ بألسنتِنا، ينادونَ بتسويةِ المرأةِ بالرجلِ في تولِّي الأعمالِ الوظيفيةِ، لِتَجْلِسَ المرأةُ إلى جانبِ الرجلِ في المكتبِ والمتجرِ، وتشاركَ الرجالَ في إقامةِ الندواتِ والمؤتمراتِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٨٥، ٥٨٨٦، ٦٨٣٤).

وتَمْثُلَ أمامَ الرجالِ لإلقاءِ المحاضراتِ. . ولا نزالُ نقرأُ في صحُفِنَا اليوميةِ نداءاتٍ متكررةً تنطلقُ من أفواهٍ مشئومة مسمومةٍ، وتكتبُهَا أيدٍ مشلولةٌ، تحاولُ إهدارَ كرامةِ المرأةِ، ونبذَ أوامرِ اللهِ ورسولِه في المحافظةِ على النساءِ وصيانتِهِنَّ. إنَّ تلكَ الأصواتَ المشبوهةَ والدعايةَ المسمومةَ، تريدُ أنْ تكونَ المرأةُ المسلمةُ مِثلَ المرأةِ الكافرةِ، تخرجُ إلى العملِ مع الرجلِ الأجنبيِّ جنبًا إلى جنبٍ، وهي حاسرةُ الرأسِ والوجهِ، قد كشفتْ عن ساقيهَا وذراعيْهَا وربَّما فخذَيهَا وعضُدَيهَا.

إنهُم يقولونَ: إنَّ نصفَ المجتمعِ معطلٌ عن العملِ، ونحنُ نريدُ أن يعملَ كُلُّ أفرادِ المجتمعِ. هكذا يقولونَ، وكأنَّهم بهذا يتصورونَ أن المرأةَ في المجتمعِ الإسلاميِّ معدودةٌ من سقطِ المتاعِ، أو أنَّها خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ لا يستفادُ منها، وعمِيتْ بصائرُهُم عما تؤدِّيهِ المرأةُ في بيتِهَا من عملٍ جليلٍ، يتناسبُ معَ خِلقَتِها، ويتمَشَّى معَ طبيعَتِها؛ لأنَّ اللهَ بِحِكمَتِه جعلَ الأنثى بصفاتِها الخاصةِ بها صالحةً لأنواعٍ من المشاركةِ في بناءِ المجتمعِ الإنسانيِّ، تؤدِّي عملاً لا يؤدِّيه غيرُها، كالحَمْلِ والوضعِ والإرضاعِ، وتربيةِ الأطفالِ، وخدمةِ البيتِ، والقيامِ بشؤونِه من طبخٍ وكنسٍ وغيرِ ذلكَ.

وهذِه الخدماتُ التي تقومُ بها داخلَ البيتِ في سترٍ وصيانةٍ وعفافٍ، ومحافظةٍ على الشرفِ والفضيلةِ والقيمِ الإنسانيةِ، هذه الخدماتُ لا تقِلُّ عن خدمةِ الرجالِ في الاكتسابِ، فلو خرجتِ المرأةُ من بيتِها لتشاركَ الرجالَ في أعمالِهِم ـ كما يطالبُ به هؤلاءِ ـ لتعطَّلتْ أعمالُها في البيتِ، فَخَسِرَ المجتمعُ الإنسانيُّ جانبًا عظيمًا من مقوماتِه، فتبقى خدماتُ البيوتِ كُلُّها ضائعةً، وإذا

استُؤجرَ إنسانٌ يقومُ مقامَ المرأةِ في عملِ البيتِ، خَسِرَ المجتمعُ عملَ ذلكَ الإنسانِ المستأجرِ خارجَ البيتِ، فيعودُ نصفُ المجتمعِ مُعطَّلاً من العملِ خارجَ البيوتِ، فوقَعُوا في نظيرِ ما فَرُّوا منه، علاوةً على ما في خروجِ المرأةِ إلى ميدانِ الرجالِ من الفسادِ؛ لأنَّها تُصبِحُ عرضةً للأعيُنِ الخائنةِ والأيدِي المُفسِدةِ، فتكونُ مائدةً مكشوفةً أمامَ الخونةِ من أصحابِ القلوبِ المريضةِ، وهل يَرضَى من فيهِ أدنَى شيءٍ من الرجولةِ ـ فضلاً عن الإيمانِ ـ أنْ تَبقَى بِنتُه أو زوجَتُه أو أختُه مرتعًا لأنظارِ الفَسَقَةِ ومَلمَسًا لأيدِي الخونةِ؟

أما يكفِي زاجِرًا ما وقعتْ فيه المجتمعاتُ التي تخلّت عن تعاليمِ الإسلامِ، من تَرَدٍّ في مَهَاوي الرذيلةِ، حينما تركَت نساؤها الصيانةَ، فصِرنَ يخرُجنَ متبرجاتٍ عارياتِ الأجسامِ، وقد نَزَعَ اللهُ من رجالِها صِفَةَ الرجولةِ والغيرةِ على حريمِهم، فصارتْ مجتمعاتٍ بهيميةً.

إنَّ هذِه الطُّغمةَ التي تدعُو بهذِه الدعوى الجاهليةِ يجبُ الأخذُ على يَدِها، وإسكاتُ أصواتِها، وتحطيمُ أقلامِها؛ لأنَّنا والحمدُ للهِ على بصيرةٍ من أمرِنا، وعلى ثِقةٍ بدينِنا، لا تَستخِفُّنا دعواتُ المضللينَ وأهواءُ المغرضينَ، ولنا في تجربةِ الآخرينَ خيرُ عبرةٍ.

أيُّها المسلمونَ، إنَّ اللهَ سبحانَه خالقَ هذا الكونِ، ومُدَبِّرَ شُئُونِه، العالمَ بِخَفَايا أُمُورِه، وبكُلِّ ما كانَ وما سيكُونُ ـ قد وضَعَ في كتابِه الكريمِ سياجاتٍ منيعةً لحمايةِ المسلمينَ وصيانةِ محارِمِهم، فأَمَرَ بغضِّ البصرِ عما لا يَحِلُّ، فقالَ تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]، الآية. ونَهَى المرأةَ أنْ تضرِبَ بِرِجلِها لتُسمِعَ

الرجالَ صوتَ خلخَالِها، فقالَ: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]، ونهاهُنَّ عن لينِ الكلامِ لئلا يطمعَ أهلُ الخُبْثِ فيهن فقالَ تعالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ونَهَى المرأةَ أنْ تسافرَ إلاَّ معَ ذي مَحرَمٍ، ونَهَى عن خلوةِ الرجلِ بالمرأةِ الأجنبيةِ، ونَهَى النساءَ عن التَّبرُّجِ بالزينةِ، وفَضَّل صلاةَ المرأةِ في بيتِها على صلاتِها في المسجدِ، كُلُّ ذلكَ محافظةً عليها وصيانةً لها، وتطهيرًا للمجتمعِ الإسلاميِّ من الأخلاقِ الفاسدةِ.

فحينما تَتَمَسَّكُ الأمةُ بهذِه التعاليمِ الإلهيةِ، تَسعدُ في بناءِ مجتمعٍ قويٍّ متماسكٍ نزيهٍ، وحينما تَتَخَلَّى أو تُخِلُّ بهذِه التعاليمِ، فإنَّها تَتَرَدَّى وتسقُطُ في مهاوِي الرذيلةِ، وتفقِدُ كرامتَها ومكانتَها بينَ الأُممِ.

وإنَّ هؤلاءِ السفهاءَ الذينَ يكتبونَ في الصحفِ هذِه المقالاتِ المشؤومةَ التي تُنادي بِتخَلِّي المرأةِ عن مكانتِها الإسلاميةِ، إنَّهم بذلكَ ينادونَ بتحطيمِ مجتمعِهِم، وقد سَبَقَهُم إلى هذِه الدعوةِ الخبيثةِ أقوامٌ صارَ مآلُهُم إلى الخَسارِ والبَوارِ، وسَيَلقَى هؤلاءِ نفسَ المصيرِ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وإنَّ المسلمينَ ـ بحولِ اللهِ ـ سيظلونُ متمسكينَ بتعاليمِ دينِهم، لا يضرُّهُم من خَذَلَهُم، ولا من خالَفَهُم، حتى يأتي أمرُ اللهِ وهم على ذلكَ، كما أَخبرَ بذلكَ الصادقُ المصدوقُ ﷺ. وكما في المَثَلِ: لن يضُرَّ السحابَ نبحُ الكلابِ . . .

نسألُ اللهَ أنْ يَنصُرَ دينَهُ، ويُعْلِي كَلِمَتَهُ، وأنْ يحفَظَ إمامَ المسلمينَ، ويَنصُرَ به الدينَ . .

* * *

في التّحذيرِ مِنَ الزّنَا وأَسبَابِه

الحمدُ للهِ الذي حَرَّمَ الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطَنَ، وحذَّرَ من قُربانِها والأسبابِ الموصلةِ إليها، رحمةً بعبادهِ، وصيانةً لهم عمَّا يضُرُّهُم في دينِهم ودنياهُم، أحمدُه على إحسانِهِ، وأشكرُه على لطفِه وامتنانهِ، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له في رُبوبيتِهِ وإلهيتِه وأسمائِه وصفاتِه، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، لا خيرَ إلاَّ دلَّ الأُمَّةَ عليهِ، ولا شرَّ إلاَّ حذَّرَهَا منهُ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلمُوا أنَّ من أعظَمِ الفواحشِ التي حرَّمَها اللهُ في كتابهِ وعلى لسانِ رسولِه فاحشةَ الزِّنا، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فمفسدةُ الزِّنا من أعظَمِ المفاسدِ، وهي منافيةٌ لمصلحةِ نظامِ العالم في حفظ الأنساب وحماية الفروج وصيانة الحرمات وتوقي ما يوقع أعظم العداوةِ والبغضاءِ بينَ الناسِ، من إفسادِ كُلٍّ منهم امرأةَ صاحبِهِ وبنتَهُ وأُختَهُ وأُمَّهُ، وفي ذلكَ خرابُ العالمِ، وكانتْ مفسدةُ الزِّنا تَلِي مفسدةَ القتلِ في الكِبَرِ، ولهذا قُرِنَت جريمةُ الزِّنا بجريمةِ القتلِ في الكتابِ والسُّنَّةِ، قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ﴾ [الفرقان: ٦٨]، فَقَرنَ الزِّنا بالشِّركِ وقتلِ النفسِ، وجَعلَ جزاءَ ذلكَ: العذابَ المُضاعفَ المهينَ، ما لمْ يَتُبِ العبدُ من ذلكَ ويعمل صالحًا.

وقالَ سبحانَهُ: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢]، فأخبرَ عنْ فُحشْهِ في نفسِهِ، والفاحشُ هو القبيحُ الذي قد تَناهَى قُبحُه حتى استقَرَّ فحشُه في العقولِ. ثم أخبرَ عنْ عاقبتِه في المجتمعِ البشريِّ بأنَّه ساءَ سبيلاً، فإنَّه سبيلُ هلكةٍ وبوارٍ وافتقارٍ في الدُّنيا، وسبيلُ عذابٍ في الآخرةِ وخزيٍ ونكالٍ، ومما يَدُلُّ على فحشِهِ وشناعتِه: ما رتَّبَ اللهُ عليهِ من الحدِّ الصارمِ، قالَ تعالَى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، وهذا حَدُّ الزانِي البِكرِ الذي لم يتزوجْ. أمَّا حَدُّ الزانِي الثَّيِّبِ، وهو الذي قد تَزَوَّجَ ووطِئَ زوجتَه ولو مرةً في العمرِ، فإنَّه يُرجَمُ بالحجارةِ حتى يموتَ.

وقد علَّقَ سبحانَه فلاحَ العبدِ على حفظِ فرجِهِ من الزِّنا، فلا سبيلَ إلى الفلاحِ بدونه، قالَ تعالَى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٧] فهذه الآياتُ تتضمنُ ثلاثةَ أُمورٍ:

الأمرُ الأولُ: أنَّ مَنْ لمْ يحفَظْ فرجَه لمْ يكنْ من المفلحينَ.

الأمرُ الثانِي: أنَّ مَنْ لمْ يحفَظْ فرجَه فهُو من الملومينَ.

الأمرُ الثالثُ: أنَّ مَنْ لمْ يحفَظْ فرجَه فهو من العادينَ. ففاتَه الفلاحُ، ووقعَ في اللومِ، واتَّصَفَ بالعدوانِ.

عبادَ اللهِ، إنَّ اللهَ كما بيَّنَ شناعةَ الزِّنا، وسوءَ عاقبتِهِ في الدُّنيا والآخرةِ، فقد وضعَ السدودَ المنيعةَ التي تحولُ بينَ العبادِ وبينَ تلكَ الجريمةِ الشنعاءِ، وتقيهِم شَرَّ مخاطرِها، متى التزمُوا بإقامةِ هذِه السدودِ والحواجزِ، وهذه الحواجزُ هي:

أولاً: إقامةُ الحدِّ على الزَّانِي بجلدِ البِكرِ وتغريبِه؛ أي: نَفْيِهِ من البلدِ لمدةِ عامٍ كاملٍ، ورجمِ الثَّيِّبِ بالحجارةِ حتى يموتَ، وقد حَثَّ سبحانَهُ على الصرامةِ في إقامةِ حَدِّ الزِّنا، وعدمِ الرأفةِ في أَخذِ الفاعلينِ بجرمِهِما، وعدمِ تعطيلِ الحَدِّ، أو التَّرَفُّقِ في إقامتِه تراخيًا في دينِ اللهِ، وأَمَرَ بإقامتِه في مشهدٍ عامٍّ يحضُرُهُ طائفةٌ من المؤمنينَ، فيكون أوجَعَ وأوقَعَ في نفوسِ الفاعلينِ ونفوسِ المشاهدينَ.

ثانيًا: أمرَ سبحانَهُ بِغضِّ البصرِ، فقالَ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١]، فلمّا كانَ مبدأُ الوقوعِ في جريمةِ الزِّنا من قِبَلِ البَصَرِ، جعلَ سبحانَه الأمرَ بِغَضِّهِ مُقَدَّمًا على الأمرِ بحفظِ الفروجِ، فإنَّ كُلَّ الحوادثِ مبدؤها من النظرِ، كما أنَّ معظمَ النارِ مَبْدؤها من مستصغرِ الشررِ؛ تكونُ نظرةٌ ثم خَطْرةٌ ثم خُطوةٌ ثم خطيئةٌ، فمَن أطلقَ نَظَرهُ إلى ما حرَّمَ اللهُ أوردَ نفسَه مواردَ الهلاكِ، وقد قالَ ﷺ: «**يا عليُّ، لا تُتبِعِ النظرةَ النظرةَ، فإنَّما لكَ الأُولى، وليسَ لكَ الثانيةُ**»[1] يعني: النظرةُ الأُولى التي وقعَت بدونِ قَصدٍ، وقالَ ﷺ: «**النظرةُ سهمٌ مسمومٌ من سهامِ إبليسَ**»[2] رواهُ الإمامُ أحمدُ، ومَنْ غَضَّ بَصَرَهُ أوْرثَ اللهُ قلبَه حلاوةَ العبادةِ إلى يومِ القيامةِ[3]، كما جاءَ في الحديثِ، وكما أشارتْ إليه الآيةُ الكريمةُ: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ثالثًا: كماأَمرَ اللهُ نساءَ المسلمينَ بالحجابِ، وهو سترُ وجوهِهِنَّ وأجسامِهِنَّ عن الرجالِ، صيانةً لهُنَّ وللرجالِ من الوقوعِ في الفاحشةِ، قالَ تعالَى

---

(١) أخرجه أبو داود (٢١٤٩) والترمذي (٢٧٧٧).
(٢) أخرجه الطبراني والحاكم كما في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٣).
(٣) جزء من الحديث السابق.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ الآية [النور: ٣١]، وقالَ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وقالتْ أمُّ المؤمنينَ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: كُنَّا معَ النبيِّ ﷺ مُحرِمَاتٍ، فإذا مَرَّ بنا الرجالُ سَدَلَتْ إحدَانا خمارَها على وجهِها، فإذا جاوزُونا كشفناهُ[1].

عِبادَ اللهِ، إنَّ دعاةَ السفورِ اليومَ ينادونَ بهدمِ هذا السدِّ، وأنْ تخرجَ المرأةُ إلى المجتمعِ بلا حجابٍ، محادِّينَ للهِ ولرسولِه، يريدونَ للمجتمعِ السقوطَ في مستنقعاتِ الرذيلةِ؛ لأنَّهم يستوردونَ تشريعَهُم من كفرةِ الغربِ، لا مِنْ وحيِ اللهِ؛ ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ۝﴾ [الكهف: ٥٠]. وإنَّ المرأةَ التي هَتَكَت الحجابَ استجابةً لهذِه الدعايةِ قد استبدَلَت طاعةَ اللهِ بمعصيتهِ، ورضَاهُ بسخَطِه، وثوابَهُ بعقابِه، فأساءَتْ إلى نفسِها، وأساءَتْ إلى مجتمعِها، وأطاعتِ المخلوقَ في معصيةِ الخالقِ.

رابعًا: ومَنَع الإسلامُ خلوةَ الرجلِ بالمرأةِ التي ليستْ من محارمِهِ؛ لأنَّ ذلكَ مدعاةٌ إلى إغراءِ الشيطانِ لهما بالفاحشةِ، مهما بلغا من التَّقوى والدينِ، ففي الصحيحينِ عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لا يخلونَّ أحدُكُم بامرأةٍ إلاَّ معَ ذي مَحرمٍ**»[2]، فمَنْ خلا بامرأةٍ لا تحِلُّ له فقد عصَى اللهَ رسولَهُ، وعَرَّضَ نفسَهُ للفتنةِ، سواء خلا بها في بيتٍ أو مكتبٍ، كما يفعلُ تلاميذُ الغربِ ومُقَلِّدُوهم، من تشغيلِ المرأةِ معَ الرجلِ، وخلوتِه بها في العملِ في

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١).

المكتبِ والمتجرِ، وكذا ركوبُ المرأةِ مع الرجلِ الأجنبيِّ في السيارةِ خاليين، كما يفعلُ بعضُ أصحابِ سياراتِ الأُجرةِ، وبعضُ أصحابِ الثروةِ والترفِ الذينَ يجعلونَ لنسائِهم سواقينَ أجانبَ، تركبُ إحداهُنَّ مع السائقِ وحدَها، ويذهبُ بها حيثُ شاءَت، وكذا ما يفعلُ بعضُهُم من جعلِ خادمٍ في البيتِ من الرجالِ الأجانبِ يخلُو مع المرأةِ.

وقد قالَ ﷺ في الحديثِ الثابتِ في الصحيحينِ: «**إياكُم والدخولَ على النساءِ**» فقالَ رجُلٌ من الأنصارِ: أفرأيتَ الحَمو؟ قال: «**الحَمْو الموتُ**»[1]، والحَمُو هو قريبُ الزوجِ؛ كأَخِيهِ وابنِ أَخيهِ وابنِ عمِّه، فإذا كانَ قريبُ الزوجِ ممنوعًا من الدخولِ على امرأتِه، معَ أنَّه قد يكونُ ذا غيرةٍ عليها وعلى فراشِ قريبِه، فكيفَ بالأجنبيِّ الذي يدخُلُ على المرأةِ بصفةِ خادمٍ أو سائقٍ، ولا يغارُ على حرمةِ صاحبِ البيتِ؟!

خامسًا: وحرَّم الإسلامُ سفرَ المرأةِ بدونِ مَحرمٍ؛ لأنَّ في ذلكَ ضياعًا لها، وغيابًا عن الرقيبِ من أوليائِها والغيورينَ عليها، وهي المرأةُ الضعيفةُ التي سرعانَ ما تخضعُ لافتراسِ الذئابِ البشريّةِ رغبةً أو رهبةً، وفي الصحيحينِ عَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**لا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ تسافرُ مسيرةَ يومٍ وليلةٍ إلاَّ معَ ذي محرمٍ عليها**»[2]، وفي الصحيحينِ أيضًا عنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما أنَّه سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**لايخلونَّ رجل بامرأةٍ إلاَّ ومعَها ذو محرمٍ، ولا تسافرُ المرأةُ إلاَّ معَ ذِي محرمٍ**» فقالَ له رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، إنَّ امرأتِي خَرَجَت حاجَّةً، وإنِّي اكْتُتِبْتُ في غزوة كذا وكذا، قالَ:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢) من حديث عقبة بن عامر.

(٢) أخرجه البخاري (١٠٨٨) ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة.

«انطلِق فحُجَّ معَ امرأتِكَ»(١).

إن المرأةَ التي تُسافِرُ وحدَها اليومَ إلى الأقطارِ النائيةِ، للدراسةِ أو التدريسِ، أو لزيارةِ أهلِهَا أو للاجتماعِ بزوجِها، أو غيرِ ذلكَ من الأغراضِ، قد خَرَجَتْ على هذِه التعاليمِ النبويةِ، ولم تكُن تؤمنُ باللهِ واليومِ الآخرِ الإيمانَ الذي يَردَعُها عن مخالفةِ الرسولِ ويحثُّها على اتباعِ ما جاء به، رضِيَ أدعياءُ المدنيةِ الغربيةِ أمْ سَخطُوا.

سادسًا: وحرَّمَ الإسلامُ تَبرُّجَ النساءِ، وهو خروجُهُنَّ بثيابِ الزينةِ والطِّيبِ؛ لأنَّ ذلكَ مدعاةٌ لصرفِ الأنظارِ المُريبةِ إليها، ووسيلةٌ إلى وقوعِ الفاحشةِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقد خالفَ كثيرٌ من نساءِ المسلمينَ اليومَ هذِه الآيةَ الكريمةَ، فَصِرنَ يَلْبَسنَ أفخَرَ ثيابِ الزينةِ، ويَتَطَيَّبنَ بأفخرِ الطيبِ عندَ الخروجِ إلى الأسواقِ أو غيرِها، وكفى بذلكَ إثمًا مبينًا، وإذا كانَ خروجُ المرأةِ إلى المسجدِ للعبادةِ مشروطًا بِتَرْكِ الزينةِ والطِّيبِ، فكيفَ بخروجِها إلى غيرِ المسجدِ، فعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «لا تَمنَعُوا إماءَ اللهِ مساجدَ اللهِ، ولكِنْ لِيَخرُجنَ تفلاتٍ»(٢)، رواه أحمدُ وأبوُ داودَ والشافعيُّ. وتفلات يعني غيرَ متزيناتٍ.

وروى مسلمٌ في صحيحِهِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «صِنفانِ من أهلِ النارِ لمْ أرَهُمَا: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يَضربونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مميلاتٌ، رُؤوسُهُنَّ كأسنمةِ البُخْتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٣٣) ومسلم (١٣٤١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٦٥) من حديث أبي هريرة.

المائلةِ، لا يَدْخُلنَ الجنةَ ولا يَجِدنَ ريحَها»[(١)]. قالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميةَ: كاسياتٌ بلباسٍ يَصِفُ البشرةَ، ويُبدي بعضَ تقاطيعِ أبدانِهنَّ، كالعَضُدِ والعجيزةِ، فهُنَّ كاسياتٌ بلباسٍ، عارياتٌ حقيقةً.

عِبادَ اللهِ، ومن دواعِي الزِّنا سماعُ الأغانِي، وقد كَثُرت وتنوعتْ وسهلَ الحصولُ عليها في هذا الزمانِ، وامتلأَ بها كثيرٌ من بيوتِ المسلمينَ وسياراتِهِم، وافتتنَ بسماعِها كثيرٌ من الرجالِ والنساءِ والأطفالِ، وقد وردَ عن كثيرٍ من السلفِ تسميةُ الغناء «رقيةَ الزِّنا» قالَ الإمامُ ابن القيِّم: فلعمرُ اللهِ كَم من حُرةٍ صارتْ بالغِناء من البغايا؟ وكَم من حُرٍّ أصبحَ به عبدًا للصبيانِ أو الصبايا؟ وكَم من غيورٍ تبدلَ به اسمًا قبيحًا بينَ البرايا؟ وكَم من ذِي غِنًى وثروةٍ أصبحَ بسببِه على الأرضِ بينَ المطارفِ والحشايا؟ وكم من مُعافًى تَعَرَّضَ له فأمسَى وقد حلَّت به أنواعُ البلايا؟ وكَم جَرَّعَ من غصَّةٍ، وأزالَ من نِعمةٍ، وجلَبَ من نقمةٍ؟ وكم خَبَّأَ لأهلِهِ من آلامٍ منتظرةٍ، وغمومٍ متوقعةٍ، وهمومٍ مستقبلةٍ؟

فاتقُوا اللهَ أيَّها المسلمونَ، وتجنَّبوا الوسائلَ المؤديةَ إلى هذِه الجريمةِ القبيحةِ، واستمعُوا وامتثِلُوا قولَ ربِّكم: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ الآيتين إلى قوله: ﴿تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

* * *

---

(١) صحيح مسلم (٢١٢٨).

في الحثِّ على تسهيلِ الزواجِ

الحمدُ للهِ القائلِ في كتابِه المبينِ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١]، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، حَكَمَ فقدَّرَ، وشرعَ فيسَّرَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثَّ على الزواجِ، ورغَّبَ في تيسيرِهِ وتسهيلِهِ؛ لِمَا فيه من المصالحِ الدينيةِ والدنيويةِ والعواقبِ الحميدةِ، وقالَ: «**يسِّروا ولا تُعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفِّروا**»[1]، فصلَّى اللهُ وسلَّم على هذا النبيِّ الكريمِ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ: أيُّها الناسُ: اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ في الزواجِ مصالحَ كثيرةً:

منها: إعفافُ المتزوجينَ وحمايتهم من الوقوعِ في الفاحشةِ، يقولُ ﷺ: «**يا معشر الشبابِ، من استطاعَ منكُمُ الباءةَ فَليتزوَّج، فإنَّه أغضُّ للبصرِ، وأحصنُ للفرجِ...**»[2] الحديث.

ومنها: حصولُ النسلِ الذي يكثُرُ به عددُ الأمةِ، وتَقْوى به جماعتُها، قالَ ﷺ: «**تزوَّجُوا الودودَ الولودَ، فإنِّي مكاثرٌ بكُم الأمَمَ**»[3] رواهُ أحمدُ وابنُ حبان وصحَّحَه.

ومن فوائدِ الزواجِ: حصولُ التعاونِ بينَ الرجلِ والمرأةِ على مهماتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩، ٦١٢٥) ومسلم (١٧٣٤) من حديث أنس بن مالك.
(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٥)، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود.
(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٥٠) من حديث معقل بن يسار.

الحياةِ، فالمرأةُ تَجِدُ في الرجلِ القَوَامةَ عليها بطلبِ الرزقِ لها والإنفاقِ عليها، وتَوَلِّي شؤونِها التي لا تستطيعُ القيامَ بها بحُكم أنوثتِها وضعفِها، والرجلُ يَجدُ في المرأةِ ما يكفيهِ متاعبَ البيتِ وتربيةِ الأطفالِ.

وبالجملة: فليسَ المقصودُ بالزواجِ قضاءَ الشهوةِ فحَسبُ، بَلْ هو أسْمى من ذلكَ، فهو علاقةُ حُبٍّ ومودَّةٍ وأُنْسٍ، علاقةُ تآلُفٍ بينَ القلوبِ، علاقةُ بناءٍ للأسرةِ، بل بناءٍ للمجتمعِ بأسرِهِ، إنَّه هدفٌ جليلٌ، ومقصدٌ نبيلٌ.

أَيُّها المسلمونَ، مِن أجلِ هذِه المصالحِ وغيرِها رَغَّبَ الشرعُ في الزواجِ، وحَثَّ على تيسيرِه وتسهيلِ طريقِه، ونَهَى عن كُلِّ ما يقفُ في طريقِه، أو يعوق مسيرتَه، أو يُعكِّرُ صفوَه، ولكنَّ الناسَ بتصرفاتِهم السيئةِ وبِمَا تمليهِ عليهم شياطينُ الإنسِ والجنِّ، وضعَوا في طريقِ الزواجِ عراقيلَ ومعوقاتٍ كثيرةً، حتى أصبحَ في زمانِنا هذا من أصعبِ الأمورِ، بلْ هو أصعبُ الأمورِ، ومِن هذه المعوقاتِ:

أولاً: عَضْلُ النساءِ؛ أي: منعُ المرأةِ من الزواجِ بِكُفئها، فإذا تقدَّمَ لها خاطِبٌ كُفءٌ مُنِعَت منه، إمَّا من قِبَلِ وليِّها، أو لِتدَخُّلِ قصارِ النظرِ من النساءِ والسفهاءِ، بِحُجَجٍ فاسدةٍ، كأنْ يقولوا: هذا كبيرُ السنِّ، هذا فقيرٌ، هذا متديِّنٌ متشدِّدٌ، إلى غيرِ ذلكَ. وما آفتُهُ عندَهُم في الحقيقةِ إلاَّ أنَّه لا يوافقُ مزاجَ هؤلاءِ السفهاءِ، ويومَ يَتَولَّى السفهاءُ زمامَ أمرِ النساءِ تضيعُ المسؤوليةُ، وتُهدَرُ المصالحُ، ويفسُدُ الأمرُ. إنَّه يجبُ على وَلِيِّ المرأةِ الرشيدِ الحازمِ، إذا اقتنعَ من صلاحيةِ الخاطبِ، ورَضِيَتهُ المخطوبة، أنْ يُقدِمَ على التزويجِ، ولا يَدَعَ فرصةً للعابثينَ والمفسدينَ، قالَ ﷺ: **«إذا أتاكُم من ترضونَ دينَه وخُلُقَه فأنكِحُوهُ، إلاَّ**

تفعَلوهُ تكُن فتنةٌ في الأرضِ وفسادٌ كبيرٌ»[١].

وفي مَنعِ المرأةِ من التزويجِ بكُفئِها ثلاثُ جناياتٍ: جنايةُ الولِيِّ على نفسِهِ بمعصيةِ اللهِ ورسولِه، وجنايةٌ على المرأةِ؛ حيثُ منعَها من كُفئِها، وفوَّتَ عليها فرصة الزواجِ الذي هو عينُ مصحلتِها، وجنايةٌ على الخاطبِ؛ حيثُ منعَهُ من حَقٍّ أَمرَ الشارعُ بإعطائِه إيَّاهُ، ومِثلُ هذا الولِيِّ تسقطُ ولايتُه على المرأةِ، وتنتقِلُ إلى مَن هو أصلَحُ منه ولايةً عليها من بقيةِ أوليائِها، بَلْ إذا تكرَّرَ منه العضلُ صارَ فاسِقًا ناقصَ الإيمانِ والدينِ، لا تُقْبَلُ شهادتُه عندَ جمعٍ من العلماءِ.

ثانيًا: ومن معوقاتِ الزواجِ: رَفعُ المهورِ، وجَعْلُها محلاًّ للمفاخرةِ والمتاجرةِ، لا لشيءٍ إلاَّ لملءِ المجالسِ بالتَّحدثِ عن ضخامةِ هذا المَهرِ، دونَ تفكيرٍ في عواقب ذلكَ، ولا يعلمونَ أنَّهم قد سَنُّوا في الإسلامِ سُنَّةً سيِّئةً، عليهِم وزْرُها ووِزْرُ منْ عمِلَ بها، لا ينقصُ ذلكَ من أوْزارِهِم شيئًا، وأنَّهم حمَّلوا الناسَ عنتًا ومشقةً، يُوجِبَانِ سخطَهُم عليهِم وسخرِيتَهُم منهم، وأنَّ ضَخامةَ المهرِ مِمَّا يُسببُ كراهةَ الزوجِ لزوجتِه، وتَبَرُّمَه منها عندَ أدْنَى سببٍ، وأنَّ سهولةَ المَهرِ مما يُسَبِّبُ الوفاقَ والمحبةَ بينَ الزوجينِ، وممَّا يُوجِدُ البركةَ في الزواجِ، قالَ ﷺ: **«إنَّ أعظَمَ النكاحِ بركةً أيْسَرُهُ مؤنةً»**[٢] رواه الإمامُ أحمدُ، وقالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ رضيَ اللهُ عنه: «لا تغلوا في صُدُقِ النساءِ، فإنَّها لو كانتْ مكرمةً في الدنيا، أو تقوى في الآخرةِ، كانَ أوْلاكُم بها النبيُّ ﷺ»[٣]، وقالَ ابنُ القيِّمِ: تَضَمَّنتِ الأحاديثُ: أنَّ الصَّداقَ لا يتقدَّرُ أقلُّه، وأنَّ قبضةَ السويقِ وخاتمَ الحديدِ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٨٤) من حديث أبي هريرة. وفي (١٠٨٥) من حديث أبي حاتم المزني.

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٠٠٨) من حديث عائشة.

(٣) أخرجه أحمد (٢٨٧، ٣٤٢) والنسائي (٣٣٤٢).

والنعلين يصحُّ تسمِيتُها مهرًا، وتَحِلُّ بها الزوجةُ، وتَضَمَّنَتْ: أنَّ المغالاةَ في المهرِ مكروهةٌ في النكاحِ، وأنَّها من قلَّةِ بركتِه وعُسْرِه.

ثالثًا: ومن مُعوِّقاتِ الزواجِ: تكاليفُ ابتدعَها الناسُ وتمادوا فيها حتى أَثْقَلَت كاهلَ الزوجِ، ونَفَّرَت عن الزواجِ، من ذلك: الإسرافُ في شراءِ الأقمشةِ المرتفعةِ الأثمانِ، وشراءِ المصاغاتِ الطائلةِ الباهظةِ الثَّمنِ، والمبالغةُ في تأثيثِ غرفةِ الزوجةِ، والإسرافُ والتبذيرُ في إقامةِ الولائمِ، وإفساد الطعامِ واللحومِ، وكلفِ الزياراتِ المتبادلةِ بينَ أسرةِ الزوجينِ. وكُلُّ هذه الأمورِ تُثقلُ كاهلَ الزوجِ، وليستْ هي في صالحِ الزوجةِ، إنَّما تستفيدُ منها جيوبُ أصحابِ الدكاكينِ والمعارضِ، إنَّها أموالٌ تذهبُ هدرًا، وتضاعُ سُدى، وتسدُّ طريقَ المسلمينَ إلى الزواجِ الذي هو من ضرورياتِهِم.

أضف إلى ذلكَ: أنَّ بعضَ الهَمَجِ والرعَاعِ جلبُوا إلى المسلمينَ عاداتٍ سيئةً وأفعالاً مُحرَّمةً، جعلوها من إجراءاتِ الزواجِ، من ذلكَ: إقامةُ السهراتِ والحفلاتِ في الفنادقِ وغيرِها، واستقدامُ المطربينَ والمطرباتِ ليرْفَعُوا أصواتَهُم بواسطةِ مكبراتِ الصوتِ بالألحانِ والمزاميرِ، وفي حشودٍ مختلطةٍ من الرجالِ والنساءِ، ويُؤْتَى بالعروسينِ أمامَ الناسِ، لتؤْخَذَ لهما الصورُ المحرمةُ، ورُبَّما تكونُ العروسُ سافرةً على هيئةِ النساءِ الخليعاتِ، فقد انقلبَ هذا الزواجُ إلى بؤرةِ فسادٍ، تُعْلَنُ فيه محادةُ اللهِ ورسولِهِ بارتكابِ المعاصِي، ويتبعُ ذلكَ أنَّ الزوجَ يسافرُ بزوجَتِه على إثرِ الزواجِ لقضاءِ ما يسمُّونَه بشهرِ العسلِ، في بلادٍ خليعةٍ من البلادِ الخارجيةِ، ليخلَعَا هناكَ جلبابَ الحياءِ والحشمةِ، ويعودا إلينا يحملانِ كلَّ فكرةٍ سيئةٍ وتنكُّرٍ لدينِهم وبلادِهِم، إنَّها مخازٍ يندىٰ لها الجبينُ، وتستغيثُ منها الكرامةُ، ولكنْ: ما لجرحٍ بميتٍ إيلامُ!

عِبادَ اللهِ، إنَّ عرقلةَ الزواجِ بهذِه الأمورِ وبغيرِها يترتبُ عليها مفاسدُ عظيمةٌ:

منها: قلةُ الزواجِ، بسببِ العجزِ عن كلفه مما يُفضِي إلى الفسادِ بممارسةِ الفاحشةِ بينَ الرجالِ والنساءِ؛ لأنَّ منعَ المشروعِ يُفْضِي إلى غيرِ المشروعِ، فكلُّ شيءٍ جاوزَ حدَّهُ انقلبَ إلى ضِدِّهِ.

ومنها: حصولُ الإسرافِ والتبذيرِ المحرمينِ شرعًا في نصوصٍ كثيرةٍ من الكتابِ والسُّنَّةِ.

ومنها: غشُّ الوَلِيِّ لمَوْلِيَّتِهِ، بامتناعِه من تزويجِها بالكُفءِ الصالحِ، الذي يَظُنُّ أنَّه لا يدفَعُ له صداقًا كثيرًا، أو لا يبذلُ هذه الكلف الطائلةَ، فيعدِلُ عنه إلى تزويجِ منْ يبذلُ هذِه الأشياء ولو كان غير مرضي من جهة دينه وخلقه، ولا يرجىٰ للمرأة الهناء عنده، وهذا هو العضلُ الذي يُعتَبَرُ منْ تكرَّرَ منه فاسقًا ناقصَ الدينِ ساقطَ العدالةِ، حتى يتوبَ إلى اللهِ.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وتنبَهوا لهذَا الأمرِ، وأعطُوه ما يستحِقُّ من أهميةٍ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٣٢ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢، ٣٣].

الخطبةُ الثانيةُ:

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والعاقبةُ للمتقينَ، ولا عدوانَ إلاَّ على الظالمينَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وَعَدَ بَعْدَ العُسرِ يُسرًا، وبعدَ الشدةِ فرجًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، ما خُيِّرَ بينَ أمرينِ إلاَّ اختارَ أيسرَهُما ما لمْ يكُن إثمًا، صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الذينَ تمسَّكُوا بسُنَّتِهِ، ونفذوا تعاليمَه، ففازُوا بِخيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

عباد الله، إذا كانَ المَهرُ مشروعًا في الزواجِ، فإنَّه ينبَغي أنْ يكونَ مقدارُهُ بالمعروفِ، طبقًا لحالِ الزوجِ وحالِ المرأةِ؛ لأنَّ المقصودَ بالزواجِ تحصيلُ زوجٍ للمرأةِ تتوفرُ فيه القوامةُ عليها، ليسَ المقصود من التزويجِ تحصيل المهرِ، فالمَهْرُ وسيلةٌ لاَ غايةٌ، فيجبُ أنْ يكونَ في حدودِ المعقولِ وحسبِ الاستطاعةِ، ولو كانَ خاتمًا من حديدٍ، ولو كان دينًا في ذمَّةِ الزوجِ، فلا تكونُ قلةُ المَهرِ أو عدمُ حضورِه حائلاً بينَ الكُفْءِ وبينَ الزواجِ.

عِبادَ اللهِ، وإذا كانَ إعدادُ الوليمةِ سُنَّةً في مناسبةِ الزواجِ، فيجبُ أنْ تكونَ في حدودِ المعقولِ، فيُختَارُ لها الوقتُ المناسبُ، والقَدر المناسبُ، بحيثُ لا تصلُ إلى حدِّ الإسرافِ الزائدِ عن الحاجةِ، أو تُقَامُ في وقتٍ غيرِ مناسبٍ فتبقى أكوامُ الطعامِ واللحومِ لا مصرفَ لها إلاَّ أن تُلْقَى في المزابلِ، وهذا أمرٌ يُحَرِّمُهُ الدينُ، وينفرُ منه العقلُ، ولا يرْضَاه اللهُ ورسُولُه.

عِبادَ اللهِ، وإذا كانَ إعلانُ النكاحِ مشروعًا، فإنَّ ذلكَ يكونُ بما بيَّنَهُ الرسولُ ﷺ مِنْ ضَرْبِ الدُّفِّ[1]، ويتولَّى ذلكَ النساءُ منفرداتٍ عن الرجالِ. أمَّا أنْ يُسْتَبْدَلَ ذلكَ بإقامةِ حفلاتِ الرقصِ والطربِ المختلِطَةِ من الرجالِ والنساءِ، وتُستغَلَّ هذه المناسبةُ لإحضارِ المطربينَ والمصورينَ، والمجاهرةِ بالمعاصِي ـ فذلكَ مِمَّا يُغْضِبُ اللهَ، ويَنتجُ عنه آثارٌ سيئةٌ، ومفاسدُ وخيمةٌ.

فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، واعلمُوا أنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللهِ.. إلخ.

---

(١) أخرج الترمذي (١٠٨٨) وغيره من حديث محمد بن حاطب قال: قال رسول الله ﷺ: «فصل ما بين الحرام والحلال الدف والصوت».

في التحذيرِ مِنَ الاغترارِ بالحياةِ الدُّنيا

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حذَّرنَا من الاغترارِ بهذِه الدارِ، وأَمَرنا بالاستعدادِ لدارِ القرارِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الواحدُ القهارُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المصطفى المختار، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه البررةِ الأطهارِ، المهاجرينَ منهم والأنصارِ.

أَمَّا بعْدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا الله، ولا تَغْتَرُّوا بدنياكُم، فقد حذَّرنا اللهُ ورسولُه من الاغترارِ بالحياةِ الدنيا غاية التحذيرِ، فالآياتُ الواردةُ في القرآنِ العزيزِ في التحذيرِ من الاغترارِ بها، والتزهيدِ فيها، وضربِ الأمثالِ لها، كثيرةٌ؛ كقولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥﴾ [فاطر: ٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقالَ تعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

وروى الإمامُ البخاريُّ عن ابنِ عمر رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: أخذَ النبيُّ ﷺ بمنكبِي فقالَ: «**كُنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ**» وكان ابنُ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما يقولُ: «إذا أمْسَيتَ فلا تنتظر الصباحَ وإذا أصبحتَ فلا تنتظر المساءَ، وخُذ من صحتِكَ لمرضِكَ، ومنْ حياتِكَ لموتِكَ»[١]

ففي هذا الحديث الحثُّ على تقصيرِ الأملِ في الدنيا، فإنَّ المؤمنَ لا ينبغي

---

(١) صحيح البخاري (٦٤١٦).

له أنْ يَتَّخِذَ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئِن فيها، ولكنْ ينبغي أن يكونَ فيها كأنَّه على جناحِ سَفَرٍ، همُّهُ جمعُ جهازِهِ للرحيلِ، وقدِ اتفقتْ على ذلكَ وصايا الأنبياءِ وأتباعِهِم؛ قالَ تعالَى حاكيًا عن مؤمنِ آل فرعونَ: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر: ٣٩]، وكان النبيُّ ﷺ يقولُ: «ما لِي وللدنيا؟! إنَّما مَثَلِي ومَثَلُ الدنيا كَمثَلِ راكبٍ قالَ في ظِلِّ شجرةٍ ثم راحَ وتركَها»[١]، ومِنْ وصايا المسيحِ عليه السلامُ لأصحابِه أنَّه قالَ لهم: «اعبرُوها ولا تعمروها»، وروي عنه أنه قال: «من ذا الذي يبني على موج البحر دارًا، تلكم الدنيا فلا تَتَّخِذُوها قرارًا».

وروى ابنُ أبي الدُّنيا بسندِه عَنِ الحسنِ قالَ: بلغَنِي قومٌ سلكُوا مفازةً غبراءَ، حتى إذا لمْ يدْرُوا: ما سلكُوا منها أكثرُ أمْ ما بَقِي؟ أنفدوا الزادَ وحسرُوا الظهرَ، وبقوا بين ظهراني المفازةِ لا زادَ ولا حمولةَ، فأيقنوا بالهلكةِ، فبينَما هم كذلكَ إذ خرجَ عليهِم رجُلٌ في حلةٍ يقطُر رأسُه، فقالوا: إنَّ هذا قريبُ عهدٍ بريف، وما جاءَكم هذا إلاَّ من قريبٍ، فلمَّا انتهى إليهِم قالَ: يا هؤلاءِ، علامَ أنتُم؟ قالوا: على ما تَرَى، قالَ: أرأيتُم إنْ هديتُكُم إلى ماءٍ ورياضٍ خضرٍ، ما تجعلونَ لي؟ قالوا: لا نعصِيكَ شيئًا، قالَ: أَعطُوني عهودَكُم ومواثيقَكُم باللهِ، قالَ: فأعطوهُ عهودَهُم ومواثيقَهُم باللهِ لا يعْصُونَه شيئًا قالَ: فأوردَهُم ماءً ورياضًا خضرًا، قالَ: فمكَثَ فيهِم ما شاءَ اللهُ، ثمَّ قالَ: يا هؤلاءِ، الرحيل، قالوا: إلى أينَ؟ قالَ: إلى ماءٍ ليسَ كمائِكُم ورياضٍ ليستْ كرياضِكُم، قالَ: فقالَ جُلُّ القومِ - وهُم أكثرُهُم -: واللهِ ما وجدنا هذا حتى ظننا أنْ لنْ نجِدَه؛ وما نصنعُ بعيشٍ هو

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩) من حديث ابن مسعود.

خيرٌ من هذا؟ قال: وقالتْ طائفةٌ ـ وهُم أقلُّهمُ ـ: ألم تُعطُوا هذا الرجلَ عهودَكُم ومواثيقَكُم باللهِ لا تعصُونه شيئًا؟ وقد صدَقكُم في أوَّلِ حديثِه، فواللهِ ليَصْدُقَنَّكُم في آخرِه. فراحَ بِمَنِ اتَّبعَه، وتخلَّفَ بقيتُهُم فبادَرَهُم عدوُّهُم فأصبحوا بينَ أسيرٍ وقتيلٍ»[1] وخرَّجَه الإمامُ أحمدُ بمعناهُ مختصرًا.

عِبادَ اللهِ، فهذا المَثلُ في غايةِ المطابقةِ بحالِ النبيِّ ﷺ معَ أمَّتهِ، فإنَّه أتاهُم والعربُ إذْ ذاكَ أذلُّ الناسِ وأقلُّهُم، وأسوؤُهُم عيشًا في الدُّنيا والآخرةِ، فدعاهُم إلى سلوكِ طريقِ النجاةِ، وظَهَرَ لهم من براهينِ صدقِه كما ظهرَ من صدقِ أمرِ الذي جاءَ إلى القومِ الذينَ في المفازةِ، وقد نَفِدَ ماؤُهُم وهلكَ ظهرهُم، فدلَّهُم على الماءِ والرياضِ المعشبةِ، فاستدلوا بهيئتِه وجمالِه وحالِه على صِدقِ مقالتِه فاتّبعُوهُ، ووعدَ من اتَّبعُوهُ بفتحِ بلادِ فارسَ والرومِ وأَخْذِ كنوزِهِما، وحذَّرَهُم من الاغترارِ بذلكَ والوقوفِ معهُ، وأمَرَهُم بالاجتزاءِ من الدُّنيا بالبلاغِ، والجدِّ والاجتهادِ في طلبِ الآخرةِ، والاستعدادِ لها، فوجدُوا ما وعَدَهُم به كلَّه حقًّا.

فلمَّا فُتحَت عليهِم الدُّنيا كما وعَدَهُم، اشتغلَ أكثرُ الناسِ بجمعِها واكتنازِها، والمنافسةِ فيها، ورضوا بالإقامةِ فيها والتَّمتُّعِ بشهواتِها، وتركوا الاستعدادَ للآخرةِ التي أَمَرَهُم بالجدِّ والاجتهادِ في طلبِها. وقد قَبِلَ قليلٌ من الناسِ وصيَّتَهُ في الجدِّ في طلبِ الآخرةِ والاستعدادِ لها، فهذه الطائفةُ القليلةُ نَجَت ولحِقتْ نبيَّها ﷺ في الآخرةِ، حيثُ سَلَكَتْ طريقَتَه في الدُّنيا وقَبِلَت وصيَّتَهُ، ففعَلَت ما أَمَرَ به. وأمَّا أكثرُ الناسِ فلمْ يزالوا في سَكرةِ الدُّنيا والتكاثُرِ فيها، فشغَلَهُم ذلكَ عن الآخرةِ، حتى فاجأَهُم الموتُ بغتةً على غِرَّةٍ، فهلكُوا

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ص٣٨١. وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٥٠٧).

وأصبحُوا ما بينَ قتيلٍ وأسيرٍ.

ومِنْ أبلغِ الأمثلةِ للحياةِ الدُّنيا: ما مثَّلَها به النبيُّ ﷺ في الحديثِ المتفقِ على صحتِه من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قامَ رسولُ اللهِ ﷺ فخطبَ الناسَ فقالَ: «لا واللهِ ما أخْشَى عليكُم إلاَّ ما يُخْرِجُ اللهُ لكم من زهرةِ الدُّنيا» فقالَ رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أَوَ يأتِي الخيرُ بالشرِّ؟! فصَمَتَ رسولُ اللهِ ﷺ ثمَّ قالَ: «كيفَ قُلتَ؟» قالَ: يا رسولَ اللهِ، أَوَ يأْتِي الخيرُ بالشرِّ؟ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ الخيرَ لا يأتِي إلاَّ بالخيرِ، وإنَّ مِمَّا يُنبِتُ الربيعُ ما يَقتلُ حَبَطًا أو يُلمُّ، إلاَّ آكلةَ الخَضِرِ، أكَلَتْ حتى إذا امتلأَتْ خاصِرتاها استقبلتِ الشمسَ، فَثَلَطَتْ أَوْ بالَتْ، ثم اجتَرَّت فعادت فأكَلَت. فمَن أَخذَ مالاً بحقِّهِ بورِكَ له فيه، ومن أخذَ مالاً بغيرِ حقِّه فَمثلُه كَمَثلِ الذي يأكلُ ولا يشبعُ»[1].

فأخبرَ ﷺ: أنَّه إنَّما يخافُ عليهِم الدُّنيا، وسمَّاها: زهرةً، تشبيهًا بالزهرِ في طيبِ رائحتِه، وحُسنِ منظرِه، وقلةِ بقائِه، وأنَّ وراءَهُ ثمرًا خيرًا وأبقَى منه.

وقولُه ﷺ: «إن مِمَّا ينبِتُ الربيع ما يقتُلُ حَبطاً أو يُلِمُّ» تحذيرٌ من الدنيا والانهماكِ في جمعِها والمَسَرَّةِ بها، كالمَاشيةِ التي يروقُها نَبتُ الربيعِ فتأكلُ منه، فينتفخُ بطنُها فتهلكُ، وكذلكَ الشَّرِهُ في المالِ يقتلُه شرهُهُ وحِرصُه.

ثم مثَّلَ ﷺ الذي يأخذُ منَ الدُّنيا قدرَ حاجتِه، بالشاةِ التي تأكلُ من خضرِ الربيعِ بقدرِ حاجتِها، ولمَّا امتلأت بطنُها تركَتِ الرعْيَ واستبقلتْ عينَ الشمسِ، فثلطَتْ (يعني: ألقتِ الروثَ) وبالت، فهي تركت ما يضرها من الرعيِ الكثيرِ، واستقبلتِ الشمسَ، ليحصلَ لها بِحرارتِها إنضاجُ ما أَكَلَتهُ وإخراجُه،

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٥، ٢٨٤٢، ٤٢٧) ومسلم (١٠٥٢).

واستفرغَت ما في بطنِها بالروثِ والبولِ، فاستراحتْ منه، ولو بقيَ فيها لقتلَهَا. كذلكَ جامعُ المالِ مصلحتُه أن يفعلَ به كما فَعلَت هذِه الشاةُ؛ يأخذُ من الدُّنيا قَدرَ ما يحتاجُ إليهِ، ثم يُقبِلُ على الاستمتاعِ به، ويتخلصُ من أذَاهُ، بإنفاقِه في وجوهِ الخيرِ.

عِبادَ اللهِ، إنَّ الدنيا لا تُذَمُّ لذاتِها، وإنَّما يُذَمُّ فِعلُ العبدِ فيها، فالدُّنيا قنطرةٌ أو معبرٌ إلى الجنة أو إلى النار؛ فهي مزرعة الآخرة، ومنها زاد الجنة، وخير عيشٍ ناله أهل الجنةِ في الجنةِ إنَّما كان بسببِ ما زرعُوهُ في الدنيا، قالَ تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة: ٢٤]، قالَ أميرُ المؤمنينَ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه: الدنيا دارُ صدقٍ لِمَنْ صدَقَها، ودارُ العافيةِ لِمَن فَهِمَ عنها، فيها مساجدُ أنبياءِ اللهِ، ومهبطُ وحيِهِ، ومُصَلَّى ملائِكتِه، ومتجرُ أوليائِه، فيها اكتسبوا الرحمةَ وربحِوا العافيةَ. ذَمَّها قومٌ غداةَ الندامةِ، وحمدَها آخرونَ؛ ذكَّرتهم فذَكَروا، ووعَظَتهُم فاتَّعظُوا. فيا أيُّها الذام للدنيا المغتر بتغريرها متى استذمت إليك؟ بل متى غرتك؟ أبمنازل آبائك في الثَّرى؟ أم بمضاجعِ أمهاتِك في البَلا؟ كَم رأيتَ موروثًا؟ كَم عللتَ بكفيكَ عليلاً؟ كَم مرَّضتَ مريضًا بيديكَ، تبتغي له الشفاءَ، وتستوصفُ له الأطباء؟ ثُمَّ لم تنفَعه شفاعتُكَ ولم تسعفه طلبتكَ. مثلتْ لك الدنيا غداةَ مصرعِه مصرعَكَ، وبمضجِعِه في الترابِ مضجعَكَ.

عِبادَ اللهِ، إنَّ الذمَّ والوعيدَ إنَّما وردَ في حقِّ من آثرَ الدُّنيا على الآخرةِ، فصارت الدنيا أكبرَ همِّه ومبلغَ عِلمِه، قالَ تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ـ٣٩]، وقالَ تعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]،

والآياتُ في هذا كثيرةٌ.

وأمَّا من أخذَ من الدنيا ما أباحَ اللهُ له، واستعانَ به على طاعةِ اللهِ، وتمتَّعَ بنعَمِ اللهِ، وأدَّى شُكرَهَا، فهذا محمودٌ، قالَ تعالَى: ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [القصص: ٧٧]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

ونصوصٌ كثيرةٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ توجِّهُ إلى طلبِ الرزقِ، مع ربطِ ذلكَ بتقوى اللهِ والعملِ الصالحِ، قالَ تعالَى: ﴿ فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقالَ تعالَى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقالَ ﷺ: «**احرصْ على ما ينفعُك، واستعنْ باللهِ ولا تعجزْ**»[1] فالمطلوبُ من العبدِ الاعتدالُ في العملِ للدنيا والآخرةِ، لا يشتغلُ بالدنيا ويتركُ الآخرةَ، ولا يتخلَّى عن الدُّنيا ويتركُها بالكليةِ، فيضرُّ بنفسِه وبمَن يُمونُ، أو يصبحُ عالةً على غيرِهِ.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، في دنياكُم وآخرَتِكُم، لعلَّكُم تفحلونَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ . . . ﴾ إلى قولِهِ تعالَى: ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ [يونس: ٢٤ـ٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة.

فِي تحريمِ أذيةِ المسلمين

الحمدُ للهِ الذي حرَّم أذيةَ المسلمينَ، وأمرنا بأنْ نكونَ إخوةً متحابينَ، أحمدُه على نِعَمِه التي لا تُحصَى، وأجلُّهَا نعمةُ الإسلامِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ الملكُ العلاَّمُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثَّنا على التآخِي في الدينِ، وحذَّرنَا من أذيةِ المسلمينَ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وصحابتِه، الذينَ ضَربُوا أروعَ الأمثلةِ في الأخوةِ الصادقةِ، فكانُوا غرةً في جبينِ الزمانِ، وقدوةً لأهلِ الإيمانِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٨]، وفي هذِه الآيةِ الكريمةِ تحريمُ أذيةِ المسلمينَ، وفيها الوعيدُ عليها، فقد عَظَّمَ اللهُ حُرْمَةَ المسلمِ، وحَرَّمَ أذيَّتَهُ بالقولِ أو بالفعلِ، كأنْ يُنسبَ إليه ما هو بريءٌ منه، وذلكَ هو البهتانُ، أو يُساءَ إليهِ بأيِّ نوعٍ من الإساءةِ التي يتأذَّى بها، والمؤمنونَ عُرْضَةٌ للأَذَى في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ على أيدِي أعدائِهم من الكافرينَ والمنافقينَ والفاسقينَ، بنشرِ قالةِ السوءِ عنهُم، وتدبيرِ المؤامراتِ ضِدَّهُم، لكنَّ اللهَ سبحانه يَتولَّى عنهم الردَّ، وينتقمُ مِمنْ آذاهُم، قالَ ﷺ: **«إنَّ اللهَ تعالَى قالَ: مَنْ عادَى لِي وَلِيًّا فقدْ آذنتُه بالحربِ»**[1]، وقالَ ﷺ: **«المسلمُ أخو المسلمِ لا يظلِمُهُ ولا يُسلِمُهُ، ولا يَحقِرُهُ ولا يَخذلُه، بِحَسْبِ امرِئٍ من الشرِّ أن يَحقِرَ أخاه المسلمَ،**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة.

كُلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ؛ دمُهُ ومالُه وعِرضُه»[١].

هكذا حَرَّمَ اللهُ أذيةَ المسلمينَ، ومضايقَتَهُم في طرقاتِهِم، وفي بيوتِهِم، وفي معاملاتِهِم، وغيرِ ذلكَ، فقد رغَّبَ النبيُّ ﷺ في إماطةِ الأَذَى عن الطريقِ، وقالَ ﷺ: «الإيمانُ بضعٌ وسبعونَ أو بضعٌ وستونَ شبعةً، فأفضَلُها قولُ: لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ، والحياءُ من الإيمانِ»[٢]، وقالَ ﷺ: «لقد رأيتُ رجلًا يتقلبُ في الجنَّةِ في شجرةٍ قطعَها من ظهرِ الطريقِ كانتْ تُؤذِي المسلمينَ»[٣]، وقالَ ﷺ: «مَنْ مرَّ في شيءٍ من مساجدِنَا أو أسواقِنَا ومعَه نبلٌ (نوعٌ من السلاحِ) فَلْيُمسِك أو ليقبِض على نصالِها بكَفِّهِ، أنْ يُصيبَ أحدًا من المسلمينَ منها بشيءٍ»[٤].

أَيُّها المسلمونَ، إنَّ الطرقاتِ حقٌّ مشتركٌ للمارةِ، وينبغِي إفساحُها وإزالةُ الأَذَى والعراقيل عنها، لكنْ ـ معَ الأسفِ ـ نرى العكسَ من ذلكَ، فقد صارتْ طرقاتُ المسلمين مجمعاتٍ للقاذوراتِ والنجاساتِ والمستنقعاتِ المؤذية، الكُلُّ يُلقِي فيها ما عندَه من زبالةٍ وقمامةٍ، بَلْ إنَّ بعض الناسِ إذا ماتتْ عندَه دابةٌ فأفضلُ مكانٍ يُلقِي فيه جيفتَها هو طريقُ المسلمينَ، وإذا أرادَ أحدُهُم أن يُقيمَ بنايةً استولى على طريقِ المسلمينَ، فوضعَ فيه الحجارة وأكوامَ الترابِ والحديدِ، وعَمَّقَ فيهِ الحفرَ، ومنعَ المسلمينَ من طريقِهِم الذي جعله اللهُ حقًّا لهم على حدٍّ سواءٍ، لا يمنعُهُم منه إلا ظالمٌ مستحقٌّ لِلَعْنَتِهِم. ومَن يفعل ذلكَ لا يُبالِي،

---

(١) حديث طويل أوله: «لا تحاسدوا..» أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٩) ومسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤/١٢٩) من حديث أبي هريرة، واللفظ لمسلم.

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٢، ٧٠٧٥) من حديث أبي موسى الأشعري.

أو يَظُنُّ أنَّ البلديةَ إذا سمحَتْ له، أو تساهلَتْ معه، أو تصالَحَ معَ بعضِ المسؤولينَ فيها بطريقٍ غيرِ مشروعةٍ ـ يظنُّ أنَّ ذلكَ يُسقطُ حقَّ المسلمينَ عنه؛ إنَّ حقَّ المسلمِ لا يسقطُ إلاَّ إذا سمحَ هو به، ولو سمعتَ دعاءَ المارَّةِ وتَسَخُّطَهُم على مَنْ سدَّ عليهِم طريقهم، لأفزعَكَ ما تسمعُ، وهذه الدعواتُ لا تذهبُ سُدى؛ لأنَّها دعواتُ المظلومينَ، ودعوةُ المظلومِ مستجابةٌ.

وإذا تركْنَا أصحابَ البناياتِ إلى أصحابِ السياراتِ وجدْنا جماعاتٍ كالوحوشِ الضاريةِ، هَمُّهَا إزعاج المسلمينَ وإلحاقُ الضررِ بهم، فهذا يُوقِفُ سيارتَه في ممرِّ الناسِ، فيسدُّ الطريقَ على هذا، ويعرِّضُ الآخرَ للاصطدام بها، وفريقٌ آخرُ من أصحابِ السياراتِ يروقُ لهم أنْ يرفعوا أصواتَ أبواقِ السياراتِ فيُزْعِجُوا من حولَهُم من المارةِ وأصحابِ البيوتِ، ورُبَّما يصادفُ غافلاً فيصيحُ به بغتةً، فيتأثَّرُ وقد يُصابُ في عقله. وفريقٌ آخرُ من أصحابِ السياراتِ تبلُغُ بِهِ السفاهةُ أنْ يجعلَ سيارَتهُ أداةً للعَبثِ، فيأخُذُها في اللفِّ والدورانِ، والتفحيطِ في الشوارعِ، وإيذاءِ المسلمينَ في مساجدِهِم وبيوتِهم، وتعريضِهِم وتعريضِ أولادِهِم للخطرِ. إنَّ مثلَ هذا العابثِ الهابطِ سفيهٌ طائشُ العقلِ مُلْحَقٌ بالمجانين، فيجبُ الأخذُ على يَدِهِ، ونَزْعِ السيارةِ من تصرفِه، وتأديبُه التأديبَ الرادعَ حتى يرجعَ إليه عقلُهُ، ويذوقَ وبالَ أمرِه. وإنْ كانَ الذي مكَّنَهُ من السيارةِ وَلِيُّهُ فيجبُ أنْ يُؤَدَّبَ وليُّه معهُ، لأنَّه لا يَقِلُّ جُرمًا عنه حتى يعلَمَ الجميعُ أنَّ للمسلمينَ حرمةً، وأنَّ للعابثينَ عقوبةً، وأنَّ لِكُلِّ مُجرمٍ جزاءً، وأنَّ هناك سلطةً عادلةً تنتصرُ للمظلومِ من الظالمِ.

وفريقٌ آخرُ من أصحابِ السياراتِ إذا سارَ في الطريقِ، لا يرى لغيرِه حقًّا فيه، فيهاجمُ المارةَ، ويحاولُ الاستيلاءَ على الطريقِ، ليدركَ منْ سَبَقَهُ، ويسُدُّهُ

على مَنْ خَلفَه، ويعطِي لسيارتِه الحريةَ وأقصَى حَدٍّ في السرعةِ، ولو تَرتَّبَ على ذلكَ إزهاقُ أرواحٍ بريئةٍ، وإتلافُ أموالٍ محترمةٍ.

ما هكذا ـ يا أيُّها المسلمونَ ـ تكونُ معاملةُ المسلمِ لأخيهِ المسلمِ، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لما دفع من عرفة إلى مزدلفة، ومعَهُ الجمعُ العظيمُ من المسلمينَ، جعلَ يقولُ: «السكينةَ، السكينةَ» وشنقَ الزمامَ لراحلتِه، حتى كادَ رأسُها يلامسُ رحلَه[1]، خشيةَ أنْ يشقَّ على المسلمينَ في سيرهم ويضايقهُم في طريقهِم، وهو أفضلُ الخلقِ على الإطلاقِ، ولو شاءَ أنْ يُفسحَ له الطريقُ حتى يمُرَّ وحدَه لفَعلَ، ولكنَّه كما وصفَهُ اللهُ: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقد أمَرَهُ اللهُ أن يخفضَ جناحَهُ للمؤمنينَ، فاقتدُوا بهِ، أيُّها المسلمون، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

عِبادَ اللهِ، ومنْ أذيةِ المسلمينَ محاولةُ الاطِّلاع على عوراتِهم، وإلقاءُ النظرِ عليهِم في بيوتِهِم، من خلالِ شقوقِ الجدرانِ، أو الإطلالُ عليهِم من الشُّرَفِ، أَوْ من فتحاتِ الطِّيقان، أو من خلالِ الناظورِ المكبِّرِ، كما يفعلُ بعضُ الوقحينَ السفلةِ. وقد أعطى النبيُّ ﷺ لصاحبِ البيتِ في هذِه الحالةِ أنْ يَدفعَ هذا الصائلَ الخائنَ، ولو أدّى ذلكَ إلى فقءِ عينهِ وإتلافِها[2]، ولاضمانَ عليه في ذلكَ.

فانظرُوا يا عبادَ اللهِ، العينُ التي إذا جُنِيَ عليها بِغيرِ حقٍّ، وجَبَ فيها القصاصُ أو نصفُ الديةِ، تذهبُ هدرًا إذا تعدَّت في النَّظَرِ إلى حُرُماتِ الآخرينَ؛ لأنَّها آثمةٌ ظالمةٌ، مما يدلُّكم على عِظَمِ حُرْمَةِ المسلمِ.

---

(١) جزء من حديث جابر الطويل في صفة حجة النبي ﷺ، أخرجه مسلم (١٢١٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٠٧) من حديث أبي ذر.

ومثلُ النظرِ: الاستماعُ، فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يستمعَ إلى أسرارِ الناسِ التي يُسِرُّونَها فيما بينَهُم، ولم يُبَيِّتوا فيها أذيةً لأحدٍ أو ظُلمًا لمسلمٍ.

عِبادَ اللهِ، ومِنْ أذيةِ المسلمينَ: خديعتُهُم في معاملاتِهِم وغشُّهم في بيعِهِم وشرائِهِم، فمِن حقِّ المسلمِ على المسلمِ أنْ يصدُقَه، وينصحَ له إذا استنصَحَهُ، وأن يُحِبَّ له ما يُحِبُّ لنَفسِهِ، وليسَ من الدِّينِ في شيءٍ غشُّ المسلمينَ وخيانتُهُم، قالَ ﷺ: «مَنْ غَشَّ فليسَ مِنَّا»[1]، لكنْ مع الأسفِ صارَ الغشُّ اليومَ عندَ كثيرٍ من الناسِ هو التجارةَ الرابحةَ والطريقةَ الناجحةَ، حتَّى إنَّ الذي لا يحسِنُ الغشَّ ولا يُتقِنُ المكرَ، لا يصلحُ للبيعِ والشراءِ في هذا الزمانِ، وكأنَّ البيعَ والشراءَ أصبحَ وسيلةً لسلبِ أموالِ الناسِ ونهبِها، فبدَلَ أنْ كانت تُسلبُ الأموالُ بالقوةِ والقهرِ، صارتِ الآنَ تُسلبُ بالحيلةِ وتحتَ شعارِ المعاملةِ، فالمعيبُ يباعُ بثمنِ السليمِ، والرخيصُ يباعُ بثمنِ الغالِي، والرديءُ يباعُ بثمنِ الجيدِ، والناقصُ في مقدارِه يباعُ بصورةِ الوافي.

وإذا أرادَ المشتري أنْ يستوثِقَ لنفسِهِ فالبائعُ لا يجدُ حرجًا في أنْ يحلِفَ باللهِ وهو كاذبٌ، ولا أنْ يتفوَّهُ بكلماتِ الدِّينِ والأخوةِ، وكُلِّ ما يُغَرِّرُ بالسامعِ ويزيلُ الشكَّ من نفسِه، فلدى البائعِ رصيدٌ كبيرٌ من الكلماتِ المعسولةِ، والتَّسَتُّرِ باسمِ الدينِ، وما يسحرُ به سمعَ المشتري وبصَره، حتَّى يُخيلَ إليهِ أنَّه أمامَ أرحمِ الناسِ به وأصدقِهم له، فإذا أفرغَ ما في جيبِهِ من النقودِ، وذهبَ بسلعتهِ المهزولةِ، وتكشَّفَت له الخديعةُ بعدَ ذلكَ، وبانَت له الحقيقةُ، وانقشعَ عنه ضبابُ الكذبِ والدَّجلِ - وجدَ نفسَهُ أمامَ سرابٍ خادعٍ، فحينئذٍ لا تسألْ عن ندامتِهِ، وكيفَ يكونُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٢) والترمذي (١٣١٥) من حديث أبي هريرة. واللفظ للترمذي.

شعورُه نحوَ هذا الظالمِ الذي سلَبَ مالَه بغيرِ سيفٍ ولا رمحٍ. إنَّه حينئذٍ أصبحَ مظلومًا لا يملكُ إلاَّ أنْ يرفعَ يديهِ إلى مَن ينتصرُ للمظلومِ من الظالمِ، يجأرُ إلى ربِّه بالدعواتِ الصارخةِ التي هي أشدُّ من القذائفِ المدمرةِ، والتي لا بُدَّ أنْ تصيبَ هذا الظالمَ إمَّا عاجِلاً وإمَّا آجلاً.

فاتقُوا اللهَ، وكونوا عبادَ اللهِ إخوانًا، كما أمرَكُم اللهُ، فراعوا لهذِه الأخوَّةِ حقُوقَها، وارعوا لها حرمَاتِها ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج: ٣٠].

أعوذُ باللهِ من الشطيانِ الرجيم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

* * *

في التحذيرِ من الفِتَنِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، يَبْتَلِي عبادَه بالخيرِ والشرِّ، ليتميَّزَ الصابرُ الشاكرُ مِنَ المنافقِ الكافرِ. أحمدُه وحمْدِي له من نِعَمِهِ، وأشكُرهُ على جزيلِ منِّهِ وكرمِه، وأشهدُ أنْ لا إله لا اللهُ له الخلقُ والأمرُ، وإليهِ المصيرُ يومَ الحشرِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أخبرَ عن وقُوعِ الفتنِ، وبيَّنَ أنَّ النجاةَ منها تكونُ بالاعتصامِ بالكتابِ والسُّنَّةِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ، واعلموا أنَّ الدنيا دارُ ابتلاءٍ وامتحانٍ، وميدانُ جهادٍ ومصابرةٍ، وما زالَ الصراعُ مستمرًّا بينَ الحقِّ والباطلِ، منذُ هبطَ آدمُ عليهِ السلامُ إلى الأرضِ، وسيستمرُّ إلى ما شاءَ اللهُ، فالباطلُ يحمِلُهُ الشيطانُ وجنودُه من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، مستخدمينَ لترويجِه كُلَّ وسائلِ الدعايةِ والمغرياتِ، كما قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ ﴾ [الإسراء: ٦٤] فهوَ يدعُو إلى الباطلِ بأنواعِ المكرِ والحيلِ والخداعِ: ﴿ يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾ [فاطر: ٦]، يُحَسِّنُ القبيحَ، ويُقَبِّح الحسنَ، ويخدعُ به أكثرَ الخلقِ، لنيلِ حظوظٍ عاجلةٍ، وشهوةٍ حاضرةٍ، مع الغفلةِ عن المصيرِ والنهايةِ.

أما الحقُّ فيحملُه الرسلُ وأتباعُهُم من العلماءِ والمصلحينَ، يوضحونَهُ

للناسِ، ويبصِّرونَهُم به، ويكشفونَ عنه الشُّبَه، ويجاهدونَ في سبيلِه، فيهتدي على أيديهِم من شاءَ اللهُ هدايتَهُ منْ ذوي البصائرِ النافذةِ، والعقولِ الراجحةِ، الذين يُمَيِّزونَ بينَ الضارِّ والنافعِ، وينظرونَ في عواقبِ الأمورِ؛ ويصبرونَ على مجاهَدةِ الهَوى والنَّفسِ والشيطانِ، ومجاهدةِ الكفارِ والمنافقينَ، فيتقربونَ إلى اللهِ بالجهادِ في سبيلِه، والثباتِ على دينِه، عندَ تلاطُم أمواجِ الفِتَنِ، واشتدادِ أذى الكفارِ ﴿ذَٰلِكَۚ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ [محمد: ٤].

عِبادَ اللهِ، إنَّنا اليومَ في مُعترَكِ فِتَنٍ عظيمةٍ، فِتنٍ كقطعِ الليلِ المظلمِ، فتن متنوعةٍ، فالمالُ فتنةٌ، وقد فاضَ اليومَ بأيدِي الناسِ، والأولادُ فتنةٌ، وقد استعصَى أمرُهُم على كثيرٍ من أولياءِ أمورهِم، ومخالطةُ الأشرارِ من الكفارِ والمنافقينَ فتنةٌ، وقدِ امتلأَتْ بهم بلادُ المسلمينَ، والنساءُ فتنةٌ، وقد عظُمَ خَطَرُهُنَّ اليومَ، واستفحلَ أمرُهُنَّ، والدعايةُ إلى الباطلِ والتنفيرُ من الحقِّ فتنةٌ، وقد تعاظمَ اليومَ خطرُها، وتطايرَ شررُهَا، وتنوعتْ أساليبُها.

لقد أصبحَ العالمُ كُلُّهُ من أقصاهُ إلى أقصَاهُ كبلدٍ واحدٍ، بسببِ تطوُّر وسائلِ النقلِ ووسائلِ الإعلامِ، فما يُقالُ أو يُفعلُ في أقصى الأرضِ من كَذِبٍ وفجورٍ، وعُتُوٍّ ونفورٍ، يصلُ إلى أقصاها بواسطةِ الإذاعةِ المسموعةِ في الراديو، والإذاعةِ المرئيةِ في التلفزيونَ، بأسرعِ وقتٍ، وأقربِ طريقٍ، وأخدعِ أسلوبٍ. لقد أصبحَ صوتُ الباطلِ في هذِه الأجهزةِ واضحًا وجهوريًّا، وصوتُ الحقِّ فيها خافتًا وخَفِيًّا، فغالبُ الإذاعاتِ العالميةِ لا يُسمعُ فيها صوتُ الحقِّ أبدًا، وإنَّما ديدَنُهَا الهدمُ والتخريبُ، والتحريش والتشويشُ، وترويجُ الباطلِ وتشويهُ الحقِّ.

والقليلُ من هذه الإذاعاتِ إذا جعلتْ في برامجِهَا سهمًا ضئيلاً من الحقِّ،

سلَّطَت عليه الباطلَ حتّى يُغطِّيهُ ويمحوَ أثرَهُ، فالقرآنُ والحديثُ الدينيُّ يأتِي بعدَهمَا المزمارُ والأغنيةُ والتمثيلياتُ، التي تُستخدَمُ للسخريةِ من المسلمينَ وتنقص أحكام الدينِ، فتسمعُ فيها التنفيرَ ممَّا أباحَ اللهُ من تعدُّدِ الزوجاتِ، والتنفيرَ من تزويجِ كبارِ السنِّ، وتنفيرَ الزوجاتِ من أمهاتِ أزواجهِنَّ، وقد تشتملُ على ترويجِ الخلاعةِ والمجونِ، وغالبُ برامجِ هذِه الإذاعاتِ أغانٍ خليعةٌ وحكاياتٌ فارغةٌ، ومعَ الأسفِ فقد غزَتْ كلَّ بيتٍ إلا ما شاءَ اللهُ، وأقبَلَ على استماعِها الكبارُ والصغارُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، لا سيَّما من لا يُمَيِّزُونَ بينَ الحقِّ والباطلِ، والنافعِ من الضارِّ.

وإلى جانبِ الإعلامِ بالآلةِ: الإعلامُ المكتوبُ في الجرائدِ والمجلاتِ، التي قَلَّ من بينِها جريدةٌ أو مجلةٌ توجِّهُ توجيهًا سليمًا، بَلْ غالِبُها إنَّما يشتملُ على صُوَرٍ خليعةٍ، ومقالاتٍ منحرفةٍ، وقد التقى الماءُ علينا منها من الداخلِ والخارجِ، يوميةً وأسبوعيةً وشهريةً، وأقبل عليها الناسُ، ينظرونَ فيها ويقرؤونَها، ويلتهمونَ مضامينَها بكلِّ ما فيها من سمومٍ قاتلةٍ، وأعرضُوا عن قراءةِ كتابِ اللهِ، ومطالعةِ الكتبِ النافعةِ.

وإلى جانبِ هذِه المجلاتِ والجرائدِ: الكتبُ المنحرفةُ التي تقذِفُ بها المطابعُ، وهي تحملُ أفكارًا هدامةً ونِحَلاً ضالةً، وعقائدَ فاسدةً، وفتاوى خاطئةً، وقد أصبحتْ هذه الكتبُ الفاسدةُ تصلُ إلى أيدِي الناسِ بسهولةٍ، فيأخذونَها بقوةٍ، ويقرؤونَها بلهفٍ، وهم لايُمَيِّزُونَ بين الحقِّ والباطلِ، والصحيحِ من الزيفِ، بَلْ يزعمونَ أنَّها أحسنُ من كتبِ السلفِ الصالحِ التي ألَّفَها علماءُ الإسلامِ، وهداةُ الأنامِ، فيقولونَ عن هذِه الكتبِ النافعةِ: إنَّها كُتبٌ قديمةٌ، ويُسَمُّونها الكتبَ الصفراءَ، للتنفيرِ منها، أمَّا تلكَ التي بأيدِيهِم

فيقولونَ: إنَّها كُتبٌ عصريةٌ، من إنتاجِ المفكرينَ وآراءِ المثقفينَ ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

عِبادَ اللهِ، وإذا انتقلنا إلى التعليمِ وجدناهُ أسوأَ حالاً من الإعلامِ، فقد انتقلَ التعليمُ من المساجدِ إلى المدارسِ النظاميةِ، من دورِ الحضانةِ إلى المرحلةِ الجامعيةِ، وانتقلَ من تعليمِ الدينِ إلى تعليمِ الدُّنيا فقط، أو تعليمٍ لا ينفَعُ لا في دينٍ ولا في دُنيا، حتى نشأَ جيلٌ من أولادِ المسلمينَ يجهلونَ دينَهُم تمامًا، حتى إنَّكَ تجدُ المتخرجَ من الجامعةِ لا يُحسنُ قراءةَ آيةٍ من كتابِ اللهِ على الوجهِ الصحيحِ، حصصُ الدروسِ الدينيةِ قليلةٌ، والكتبُ المقررةُ غيرُ كافيةٍ، والمدرسونَ في الغالبِ معلوماتُهم عن الدينِ قليلةٌ، ولا يُحسنونَ تفهيمَ الطلابِ، وفيهم من هو فاسدٌ في أخلاقِه، لا يُبالِي بدينِه، فيكونُ قدوةً سيئةً لطلابهِ، بلْ بَلَغَ التهاونُ بالعلومِ الدينيةِ ألا تُعطى الأهميةَ في الامتحاناتِ، فينجحُ فيها الطلابُ وهم لا يعرفونَها، حتى اعتادُوا عدمَ الاهتمامِ بها.

عِبادَ اللهِ، هذه حالةُ المسلمينَ اليومَ في أقطارِ الأرضِ: إعلامٌ فاسدٌ، وتعليمٌ فارغٌ من العلومِ النافعةِ، وأنَا لا أعْنِي بذلكَ بلادًا معينةً، بل أقولُ: إنَّ هذِه حالةُ غالبِ المسلمينَ في كُلِّ بقاعِ الأرضِ اليومَ، وإنْ كانَ التنكُّرُ للإسلامِ يشتدُّ في بعضِ البلادِ أشدَّ من البعضِ الآخرِ، حتى أصبحَ الإسلامُ غريبًا بينَ أهلِه، مجهولاً في أوطانِه، لم يبقَ منه إلا اسمُه، ولا من القرآنِ إلا رسمُه. إنَّها فتنٌ، ولا مخرجَ منها إلا بالرجوعِ إلى كتابِ اللهِ الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٧].

* * *

في التحذيرِ مِنَ الإسرافِ والتَّرَفِ

الحمدُ للهِ الذي أنعمَ ووعدَ الشاكرينَ بالمزيدِ، وتوعّدَ الكافرينَ لنعمهِ بالعذابِ الشديدِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يفعلُ ما يشاءُ، ويحكُمُ ما يريدُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، ومن تَبِعَهُم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ، واعلمُوا أنَّ نعمَ اللهِ علينا كثيرةٌ، لا تُعَدُّ ولاَ تُحصَى، ومنها ما أمدَّنا اللهُ به في هذا الزمانِ من الأموالِ التي فاضتْ في أيدي كثير من الناسِ، ولا شكَّ أنَّها ابتلاءٌ وامتحانٌ من اللهِ لعبادِه، سيُحاسَبونَ على تصرُّفِهم فيها، إنَّ من أوتِي مالاً فقد حملَ مسؤوليةً عظيمةً قَلَّ من ينجُو منها.

عِبادَ اللهِ، إنَّ من سوءِ التصرُّفِ في الأموالِ الإسرافَ فيها، وهو نوعانِ:

النوعُ الأولُ: إسرافٌ في الإنفاقِ، وهو التبذيرُ، قالَ تعالَى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧]، قالَ ابنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه: الإنفاقُ في غيرِ حقٍّ، أما الإنفاقُ في الحقِّ فلا يُعَدُّ تبذيرًا. قالَ مجاهدٌ: لو أنفقَ إنسانٌ مالَه كُلَّهُ في الحقِّ لمْ يكنْ مبذراً، ولو أنفقَ مُدًّا في غيرِ حقٍّ كانَ مبذرًا.

النوعُ الثانِي: إسرافٌ في الاستهلاكِ، كالإسرافِ في الأكلِ والشربِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [الأعراف: ٣١]،

فقدْ أباحَ اللهُ لعبادِه الأكلَ والشربَ من الحلالِ، ونهاهُم عن الإسرافِ في ذلكَ، وهو مجاوزةُ الحدِّ في الأكلِ والشربِ؛ لِمَا في ذلكَ من مَضرَّةِ العقلِ والدينِ، لأنَّ الشبعَ والريَّ المفرطينِ يضرانِ بالصحةِ، ويُكَسِّلانِ عن العملِ، ويحملانِ على الأشرِ والبطرِ والكِبْرِ، قالَ النبيُّ ﷺ: «ما ملأَ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِه، حَسْبُ ابنِ آدمَ أُكلات يُقِمنَ صُلْبَهُ، فإن كانَ فاعلاً لا محالةَ، فَثُلُثٌ لطعامِه، وثُلُثٌ لشرابِه، وثُلثٌ لِنَفَسِه»[١].

قالَ بعضُ الأطباءِ: لو استعملَ الناسُ هذا الحديثَ لسلِمُوا من الأمراضِ والأسقامِ، ولتعطَّلت دكاكينُ الصيادلةِ.

وإنَّما قالَ هذا؛ لأنَّ أصلَ كُلِّ داءٍ هو التخمُ، وكما أنَّ الشبعَ يضرُّ البدنَ، فكذلكَ هو يُقسي القلبَ ويورثُ الهَوَى والغضبَ.

ومن الإسرافِ المذمومِ: التوسُّعُ في تناولِ المشتهياتِ، وإعطاءُ النَّفسِ كُلَّ ما تطلبُ من الملذاتِ، وقد ذمَّ اللهُ ورسولُهُ من اتَّبعَ الشهواتِ، قالَ تعالَى: ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ [مريم: ٥٩، ٦٠]، وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «خيرُ القرونِ قرني، ثمَّ الذينَ يلونَهُم، ثمَّ الذينَ يلونَهُم، ثمَّ يأتِي قومٌ يشهدونَ ولا يستشهدونَ، وينذرونَ ولا يوفونَ، ويظهرُ فيهِم السِّمَنُ»[٢]، وقالَ ﷺ: «إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكُم الشهواتُ التي في بطونِكُم وفروجِكُم، ومضلَّات

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معدي كرب، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٣٦٥٠، ٦٤٢٨، ٦٦٩٥) ومسلم (٢٥٣٥) من حديث عمران بن حصين.

الهَوى»[١].

وفي مُسندِ البزارِ وغيرِه عن فاطمةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**شرارُ أُمَّتِي الذينَ غُذُّوا بالنعمِ، يأكلونَ ألوانَ الطعامِ، ويلبسونَ ألوانَ الثيابِ، ويَتَشدَّقونَ في الكلامِ**»[٢].

ومن الإسرافِ المذمومِ: التباهي في الملابسِ الفاخرةِ، والسياراتِ الفخمةِ، والبيوتِ المزخرفةِ، والمبالغةُ في إقامةِ الحفلاتِ والولائمِ بالتكاليفِ الباهظةِ. كُلُّ ذلكَ ـ يا عِبادَ اللهِ ـ من الإسرافِ والتبذيرِ والتخوُّضِ في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، وستسألونَ عنه يومَ القيامةِ سؤالَ حسابٍ وعقابٍ، معَ ما فيهِ من الضررِ العاجلِ في الدُّنيا، فإنَّ الإغراقَ في الملذاتِ والإكثارَ من تناولِ المشتهيات والتوسع في مطالب الحياة، وكثرة الراحة واستعمال الرقيق من الثياب والفرُشِ والمراكبِ مما تزخرُ به حياةُ الناسِ اليومَ، إنَّ ذلكَ كُلَّه من الترفِ المذمومِ، فقد ذمَّ اللهُ المترفينِ، وبيَّنَ مفاسدَ الترفِ في كتابهِ المبينِ، فأخبرَ أنَّ المترفينَ هم أَعداءُ الرسلِ، قالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤﴾ [سبأ: ٣٤] وأخبرَ أنَّ الترفَ هو سببُ هلاكِ الأممِ، قالَ تعالَى: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾ [الإسراء: ١٦].

وأخبرَ سبحانَهُ أنَّ المترفينَ يعملونَ على نشرِ الفسادِ في الأرضِ، ويقاومونَ الإصلاحَ، قالَ تعالَى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مِن قَبۡلِكُمۡ أُوْلُواْ بَقِيَّةٖ يَنۡهَوۡنَ عَنِ

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٢٧٤، ١٩٢٨٩) من حديث أبي برزة.

(٢) ابن أبي الدنيا في ذم الغيبة، والبيهقي في الشعب، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٣٧٠٥).

ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [هود: ١١٦]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحمَهُ اللهُ: قولُه تعالَى: ﴿ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ ﴾، أي: استمرُّوا على ما هم فيهِ من المعاصي والمنكراتِ، ولمْ يلتفِتُوا إلى إنكارِ أولئكَ، حتى فجأهم العذابُ.

وأخبرَ اللهُ أنَّ الترفَ من الأسبابِ التي توجبُ دخولَ النارِ، قالَ تعالَى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الواقعة: ٤١ـ٤٥]، قالَ ابنُ كثيرٍ رحِمَهُ اللهُ: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾، أي: كانوا في الدارِ الدُّنيا منعمينَ مُقبِلينَ على لذاتِ أنفُسِهم.

وبالجملةِ: فما وردَ ذِكرُ الترفِ في القرآنِ الكريمِ إلاَّ وهو يحملُ الذَّمَّ والتحذيرَ منه، وما ذاكَ إلاَّ لِمَا يشتملُ عليه الترفُ من مفاسدَ:

منها: أنَّه يقضِي على الرجولةِ والشهامةِ، التي هي من مقوماتِ الجهادِ ومواجهةِ الصعوباتِ، ويُحِلُّ محلَّها النعومةَ والكسلَ والاسترخاءَ، والميلَ إلى الراحةِ والبطالةِ، وبهذا تفقدُ الأمةُ قوتَها، ويتغلبُ عليها أعداؤُها، وتسقطُ هيبتُها، ومن ثمَّ قيلَ: «الترفُ زمانةُ الأممِ» أي: مرضُ الأممِ المُزمن.

ومن مفاسدِ الترفِ: أنَّه يهدمُ الصحةَ، ويضعفُ الجسمَ، ويعرِّضُه للإصابةِ بالأمراضِ الخطيرةِ، فإنَّ المزيدَ من الرفاهيةِ، وقلةِ الحركةِ، واستخدامِ السياراتِ والطائراتِ، واستخدامِ المصاعدِ في البيوتِ والمكاتبِ، والجلوسِ على الكراسي اللينةِ، كلُّ ذلكَ يقْضِي على قوةِ البدنِ، ويُحوِّلُه إلى بَدَنٍ مُنَعَّمٍ ليِّنٍ، لايتحمَّلُ أدْنى مَشَقَّةٍ، ويعرِّضهُ للإصابةِ بمختلفِ الأمراضِ القاتلةِ.

ومن نتائجِ المدنيةِ والترفِ وتنويعِ المآكلِ: الإصابةُ بالسمْنةِ، والسمنةُ

سببٌ للإصابةِ بتصلُّبِ الشرايينِ وجلطاتِ القلبِ وموتِ الفجأَةِ، وقد قررَ الأطباءُ أنَّ السمنةَ تأْتِي نتيجةً للإفراطِ في الطعامِ والشرابِ وقلَّةِ الحركةِ.

ومن نتائجِ المدنيةِ والترفِ: الإصابةُ بضغطِ الدَّمِ، ومرض السكرِ، وهذه الأمراضُ وغيرُها حدثَتْ في مجتمعِ المسلمينَ نتيجةً لمخالفةِ سُنَّةِ نبيِّهم، وهديِهِ في تقليلِ الطعامِ والشرابِ، والتحرُّكِ المفيدِ للبدنِ.

أَيُّها المسلمونَ، إنَّ الإسرافَ والتبذيرَ والترفَ أمراضٌ فتاكةٌ، وقد نَهانا اللهُ عنها؛ حمايةً لنا، ورعايةً لمصلحَتِنا، فلْنَحْذَرْ منها لتعودَ لنا قوتُنا ورجولَتُنا، وتبقَى لنا أموالُنا، ولنعلمْ جميعًا أنَّنا ما خُلِقْنَا في هذِه الدنيا لنأكلَ ونشربَ ونعيشَ كما تعيشُ البهائمُ، ونُنَعِّمَ أبدانَنا ونزخرف بيوتَنا، وإنَّما خُلِقْنا لنعبدَ ربَّنا ونجاهدَ في سبيلِه، ونصبرَ ونصابرَ ونرابطَ، ما خُلِقْنَا عبثًا ولا تُركنا سُدًى، بلْ تحَمَّلْنا مسؤوليةً أَبَتْ أنْ تحملهَا السمواتُ والأرضُ والجبالُ وأشفقنَ منها. كيفَ يَنعَمُ في هذِه الدُّنيا مَنْ وراءَهُ موتٌ وقبرٌ وبَعْثٌ وحسابٌ وميزانٌ وجنَّةٌ أو نارٌ؟! كيفَ يَنْعَمُ في هذِه الدُّنيا مَنْ لا يَدْري أينَ يكونُ مصيرُه الأبديُّ؟ كيفَ يُسرِفُ في مالِ اللهِ مَنْ يعلمُ أنَّه محاسبٌ على كثيرِه وقليلِه؟ مِنْ أينَ اكتَسَبَهُ وفيمَ أنفقَهُ؟ نسألُ اللهَ أنْ يوقظَ قلوبَنا ويُصلحَ أعمالَنا.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . . ﴾ إلى قوله: ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣ـ٦٧].

* * *

فِي التحذِيرِ مِنَ الظُّلمِ

الحمدُ للهِ الذي حَرَّمَ الظلمَ على نَفسِه وجَعلَهُ مُحَرَّمًا بينَ العبادِ، وتوعَّدَ الظالمينَ باللعنةِ وأليمِ العقابِ في الدنيا ويومَ يقومُ الأشهادُ، أحمدُه، يُمهلُ الظالمينَ ثُمَّ يأخذُهُم أخذًا أليمًا شديدًا. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وكَفَى باللهِ شهيدًا، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حذَّرَ من الظلمِ، وأخبرَ أنَّ دعوةَ المظلومِ ليسَ بينهَا وبينَ اللهِ حجابٌ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِه، ومنْ تمسَّكَ بسُنَّتِهِ وحَكَمَ بشريعتِهِ إلى يومِ الدينِ.

أمَّا بعدُ:

أَيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ، واحذَروا الظلمَ وعواقبَهُ الوخيمةَ.

عِبادَ اللهِ، كم تسمعونَ عن مصيرِ الظالمينَ، وتشاهدونَ بأعيُنِكُم ما حلَّ بهِم من العقوباتِ العاجلةِ التي أهْلَكَتْهُم ودمرتْ ديارَهُم، ومحتْ آثارَهُم، فصاروا أثرًا بعدَ عينٍ، فليكنْ لكُم بهِم عبرةٌ، فإنَّ السعيدَ مَنْ وُعِظَ بغيرِهِ.

عِبادَ اللهِ، إن الظُّلمَ ثلاثةُ أنواعٍ:

النوعُ الأولُ: ظُلمٌ بينَ العبدِ وبينَ ربِّهِ، وهو الشرْكُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا النوعُ لا يغفِرُهُ اللهُ إلاَّ بالتوبةِ منه، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢].

النوعُ الثانِي: ظُلمُ العبدِ لِنفسِهِ بارتكابِ المعاصِي التي هي دونَ الشِّركِ،

فإنَّه بذلكَ قد ظلمَ نفسَهُ، حيثُ عرَّضَها لسخطِ اللهِ وعقوبتِهِ، واللهُ تعالَى يقولُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦]، وهذا النوعُ من الظلمِ تحتَ المشيئةِ إن شاءَ اللهُ غفرَ لصاحبِه، وإن شاءَ عذَّبه به، قالَ تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨].

النوعُ الثالثُ: ظُلمُ الناسِ بالتعدِّي على دمائِهِم وأعراضِهِم وأموالِهِم، وهذا النوعُ لا يُغفَرُ إلاَّ إذا سمحَ له المظلومُ، وإنْ لمْ يسمحْ فإنَّه يُمكَّنُ من الاقتصاصِ منهُ في الدُّنيا والآخرةِ، رَوى مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الحقوقَ إلى أهْلِها يومَ القيامةِ، حتى يُقادَ للشاةِ الجلحاء من الشاةِ القرناء**»[1]، ورَوَى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرةَ أيضًا قال: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ كانتْ عندَهُ مظلمةٌ لأخيهِ من عِرضِهِ أو مِنْ شيءٍ، فلْيَتَحَلَّلْهُ منهُ اليومَ قَبلَ ألا يكونَ دينارٌ ولا درهمٌ، إنْ كانَ له عملٌ صالحٌ أُخِذَ منهُ مظلَمَتُه، وإنْ لَمْ يكُنْ له حسناتٌ أُخِذَ من سيئاتِ صاحبِهِ فحملَ عليهِ**»[2].

وعنه أيضًا: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أتدرونَ مَنِ المُفْلِسُ؟**» قالوا: المفلسُ فينا مَنْ لا دينارَ ولا درهمَ له ولا متاعَ، فقالَ: «**المفلسُ مِنْ أمتي مَنْ يأتِي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتِي وقد شتَمَ هذا، وقذَفَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفَكَ دمَ هذا، وضرَبَ هذا، فيُعْطَى هذَا من حسناتِهِ، وهذا من حسناتِه، فإنْ فَنِيتْ حسناتُهُ قَبْلَ أنْ يقْضِي ما عليهِ أُخِذَ من خطاياهُم فطُرِحَتْ عليهِ، ثُمَّ طُرِحَ في**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) من حديث أبي هريرة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة.

النارِ»[١] رَواه مسلمٌ.

عِبادَ اللهِ، إنَّ مالَ المسلمِ لا يحِلُّ إلاَّ بطيبةٍ من نفسِهِ وبرِضَاهُ التامِّ، وإنَّ حرمةَ مالِ المسلمِ كحرمةِ دمِهِ وعِرضِهِ، فلا يجوزُ أخذُ مالِهِ أو سُكْنَى بيتِهِ أو دكانِهِ إلاَّ برضاهُ، قالَ ﷺ: «**مَنْ ظلمَ قِيدَ شبرٍ من الأرضِ طُوِّقَهُ من سبعِ أرضينَ**»[٢]، متفق عليه.

إنَّ بعضَ الناسِ قد يتوَهَّمُ إنَّ حُكْمَ الحاكمِ له بحقِّ أخيهِ: يبيحُهُ له ويُعْفِيهِ من مسؤوليتِهِ، وهذا وهمٌ خاطئٌ، فإنَّ الحاكمَ بشرٌ، يُخطئُ ويُصيبُ، وما دمتَ تعلمُ أنَّك غيرُ مُحِقٍّ في استيلائِكَ على مُلْكِ غيرِكَ، وجبَ عليكَ التَّخَلِّي عنهُ والتحَلُّلُ منهُ، وهذا رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ للناسِ: «**إنَّما أنا بشرٌ وإنَّما يأتيني الخصمُ، فلعلَّ بعضَكُم أنْ يكونَ أبْلَغَ من بعضٍ، فأحسبُ أنَّه صادقٌ فأقضِي له، فَمَنْ قضيتُ له بحقِّ مسلمٍ فإنَّما هي قطعةٌ مِنْ نارٍ فلْيَحْمِلْهَا أو يَذَرْهَا**»[٣]. فهذا الحديثُ من أوضحِ الأدلةِ على أنَّ حكمَ الحاكمِ لا يُبيحُ المحَرَّمَ، ولا يكونُ عذراً للظالمِ يستبيحُ به أموالَ الناسِ، قالَ ﷺ: «**مَنْ خاصمَ في باطلٍ وهو يعلمُ، لمْ يزلْ في سخطِ اللهِ حتى يَنْزِعَ**»[٤] رواهُ أبو داودَ. وهذا الظالمُ الذي استَتَرَ بهذِهِ الستارةِ، لو عُمِلَ معهُ هذا العملُ، واستُبيحَ مالُه بهذا الحُكْمِ، لتألَّمَ وتظلَّمَ، وطلبَ النظرَ في الحكْمِ، وجأرَ بالدعواتِ على مَنْ ظَلَمَهُ ليلاً ونهارًا، فكيفَ يستبيحُ مال غيرِه بِمْثِلِهِ؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٣، ٣١٩٥) ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٨) ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة.
(٤) سنن أبي داود (٣٥٩٧) من حديث عبد الله بن عمر.

فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، واتقُوا الظُّلْمَ بجميعِ أنواعِهِ، فإنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٢٧]. مرتعُ الظلمِ وخيمٌ، وعاقبتُهُ سيئةٌ، وجزاءُ صاحِبِهِ النارُ، ولو بَغَى جبلٌ على جبلٍ لدُكَّ الباغي منهُمَا[1]، ولقد توعَّدَ اللهُ الظالمينَ باللعنةِ وأليمِ العقابِ، قالَ تعالَى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾﴾ [هود: ١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]. قد يَسْتَبْطِئُ الظالمُ العقوبةَ فيتمادَى في ظُلْمِهِ، ولا يتذكَّرُ أنَّ اللهَ سبحانَه يُمْلِي للظالمِ، حتى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِتْه.

لا تظنَّ ـ أيُّها الظالمُ ـ أنَّ اللهَ لا ينتقمُ منكَ لهؤلاءِ المظلومينَ الذين يصبحونَ ساخطينَ عليكَ، ويبيتونَ يدعونَ عليكَ، ودعوةُ المظلومِ تُرْفَعُ فوقَ الغمامِ، وليسَ بينَها وبينَ اللهِ حجابٌ، ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ١٤].

الويلُ لأهلِ الظُّلمِ في ثِقَلِ الأوزارِ، وذِكْرُهُم بالقبائحِ قد ملأَ الأقطارَ، يَكْفِيهِم أنَّهم وُسِموا بالأشرارِ، ذهبتْ لذّاتُهُم بما ظَلَمُوا وبَقِي العارُ، انتقلوا إلى دارِ العقابِ وملَكَ غيرُهُم الدارَ، وخلوا بالعذابِ في بطونِ تلكَ الأحجارِ، ولا مغيثَ ولا أنيسَ ولا جارَ، ولا راحةَ لهم ولا سكونَ ولا مستجارَ، ولا راحةَ لهم ولا سكونَ ولا قرارَ، سالتْ دموعُهُم على ما جَرَى منهم من الظُّلمِ كالأنهارِ،

---

(١) رُوي في معنى هذا حديثٌ مرفوعٌ وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٨١٠).

شيَّدُوا بنيانَ الأملِ فإذا به قد انهارَ، أمَا عَلِمُوا أنَّ اللهَ جارُ المظلومِ مِمَّن جارَ؟ فإذا قاموا في القيامةِ زادَ البلاءُ على المقدارِ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢ ـ ٥٢].

بارك اللهُ لِي ولكُمْ

* * *

في التحذيرِ مِنَ الرشوةِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ لنا في الحلالِ غنيةً عن الحرامِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وعَدَ مَنِ اتَّقاهُ أنْ يجعلَ له مخرجًا ويرزقَهُ من حيثُ لا يحتسبُ، فلَهُ الحمدُ، يهدي إلى الرشدِ، ويَعِدُ بالرزقِ، ويُفيضُ النعمَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثّ على طلبِ الرزقِ الحلالِ، وحذّرَ من الكسبِ الحرامِ؛ نُصْحًا للأمةِ، وشفقةً عليها مِمَّا يَضرُّها، صلواتُ اللهِ وسلامهُ عليهِ، وعلى آلِهِ وصحابتِه ومن سارَ على نهجِه وتمسَّكَ بِسُنَّتِهِ إلى يومِ الدينِ.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ.

أَيُّهَا المسلمونَ: إنَّه يجبُ على مَنْ وُلِّيَ من أمورِ المسلمينَ شيئًا أنْ يقومَ به خيرَ قيامٍ، ويؤدِّيَهُ على الوجهِ الأكملِ؛ لأنَّه أمانةٌ في عُنُقِهِ سَيُسْأَلُ عنها يومَ القيامةِ، فيجبُ عليه حِفْظُ الوقتِ واستِفْراغُه في أداءِ العملِ الذي كُلِّفَ به، ويجبُ عليه العدلُ بينَ الناسِ، وإعطاءُ كُلِّ ذي حقٍّ حقَّهُ، وأنْ يكونَ قويًّا في غيرِ عُنفٍ، لَيِّنًا في غيرِ ضعفٍ، ولايُحَابِي الأقوياءَ، ولا يحتقرُ الضعفاءَ، بلْ يكونُ القويُّ عندَه ضعيفًا حتى يأخذَ الحقَّ منه، والضعيفُ قويًّا حتى يأخذَ الحقَّ له، قالَ أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطابِ لبعضِ وُلاَتِه: «آسِ بينَ الناسِ في مجلِسِكَ وفي وجهِكَ وقضائِكَ، حتى لا يطمعَ شريفٌ في حيفِكَ، ولا يَيْأسَ ضعيفٌ من عدلِكَ، وإياكَ والغضبَ والقلقَ والضجرَ، والتأذِّي بالناسِ، والتَّنكُّرَ عندَ الخصومةِ، فإن القضاءَ في مواطنِ الحقِّ مِمَّا يوجبُ اللهُ به الأجرَ، ويحسنُ به

الذِّكْرَ، فمَنْ خلصتْ نيتُهُ في الحقِّ ـ ولو على نفسِهِ ـ كفاه اللهُ ما بينَهُ وبينَ الناسِ، ومَنْ تزيّنَ بِمَا ليسَ في نفسِهِ شَانَهُ اللهُ، فإنَّ الله لا يَقْبلُ من العبادِ إلاَّ ما كانَ خالصًا» انتهَى كلامُهُ رضيَ اللهُ عنه.

أَيُّها الموظفُ، اعلمْ أنَّه قد اشتري منكَ وقتُكَ للمسلمينَ، في مُقابلِ ما تتقاضَى من المرتَّبِ الذي يُصْرَفُ لكَ كُلَّ شهرٍ، واشتري منكَ عملُكَ الذي تقومُ به في هذا الوقتِ، فكُلُّ دقيقةٍ تمضِيهَا في غيرِ العملِ الذي كُلِّفْتَ به فإنَّكَ تتقاضَى في مقابِلِها مالاً حرَامًا، وكُلُّ عملٍ خارج عمَّا كُلِّفتَ به فإنكَ خُنْتَ فيه الأمانةَ، وستُحَاسَبُ عنه يومَ القيامةِ، وكُلُّ مالٍ أَخَذْتَهُ من الناسِ في مُقابلِ إنجازِ أعمالِهِم التي كُلِّفتَ بإنجازِها بحكُمِ وظيفتِكَ، فإنَّ هذا المالَ رشوةٌ حرامٌ وسُحْتٌ وظُلمٌ، واسمعْ ما وردَ عن النبيِّ ﷺ مِنَ الوعيدِ على ذلكَ:

روَى أبو داودَ، والترمذيُّ، وابن حبانَ في صحيحِه، والحاكم، عَنِ ابنِ عمرو رضيَ اللهُ عنهما: أنَّ رسولَ اللهَ ﷺ لَعَنَ الرَّاشِي والمُرْتَشِي[1]. وخرجَ الطبرانيُّ بإسنادٍ جيدٍ عن ابن عمرو أيضًا عن النبيِّ ﷺ قال: **«الرَّاشِي والمُرْتَشِي في النار»**[2] وروى أحمد عن ثوبان رضي الله عنه قال: لعن رسولُ الله الراشي والمرتشي والرائش[3]. يعني: الذي يَمْشِي بينهما.

ورَوَى الطبرانيُّ بإسنادٍ صحيحٍ عَنِ ابنِ مَسْعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: الرشوةُ في الحُكْمِ كُفْرٌ، وهي بينَ الناسِ سُحْتٌ[4]. وروى الحاكمُ عَنِ ابنِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠) والترمذي (١٣٣٧) وابن حبان (٥٠٧٧) والحاكم (٤/ ١١٥).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٠٢٦).

(٣) مسند أحمد (٢١٨٩٣).

(٤) أخرجه الطبراني (٩١٠٠) وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٦): رواه الطبراني موقوفا بإسناد صحيح.

عباسٍ رضيَ اللهُ عنهما مرفوعًا إلى النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ وَلِيَ عشرةً فحكَمَ بينهُم بما أَحَبُّوا وبِمَا كَرِهُوا، جيءَ به مغلولةً يدُهُ، فإنْ عَدَلَ ولمْ يرْتَشِ ولم يَحِفْ فكَّ اللهُ عنه، وإنْ حكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ وارْتَشَى وحابَى فيهِ، شُدَّتْ يسارُهُ إلى يمينِهِ، ثُمَّ رُمِيَ به في جهنَّمَ، فلمْ يبلُغْ قعرَهَا خمسمائةِ عامٍ»(١).

عِبادَ اللهِ، الرشوةُ حرامٌ بإجماعِ المسلمينَ، سواء كانتْ للقاضِي، أو للعاملِ على الصدقةِ، أو لأيِّ عاملٍ في وظيفةٍ من وظائفِ الدولةِ، فالإسلامُ يُحرِّمُ الرشوةَ؛ لأنهَّا من أَكْلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ. وشيوعُ الرشوةِ في المجتمعِ شيوعٌ للفسادِ والظُّلْمِ؛ لأنَّها تُسَبِّبُ مَنْعَ صاحبِ الحقِّ من حقِّهِ، ودفْعِهِ إلى غيرِ مُسْتحِقِّهِ، تُسَبِّبُ الظلمَ والعداونَ، تقدمُ مَنْ يستحِقُّ التأخيرَ، وتُؤَخِّرُ مَنْ يَستَحِقُّ التقديمَ، فما خالطتِ الرشوةُ عملاً إلاَّ أفْسَدتْهُ، ولا نظامًا إلاَّ قلبتْهُ، ولا قلبًا إلا أظلمتْهُ، فما فَشَتْ في أمَّةٍ إلاَّ وحَلَّ فيها الغشُّ محلَّ النصحِ، والخيانةُ محلَّ الأمانةِ، والخوفُ محلَّ الأمنِ، والظلمُ محلَّ العدلِ، الرشوةُ مُهْدِرَةٌ للحقوقِ، مُعَطِّلَةٌ للمصالحِ، مُجَرِّئَةٌ للظَّلَمَةِ والمفسدينَ، ما فَشَتْ في مجتمعٍ إلاَّ وآذَنَتْ بهلاكِهِ، تساعدُ على الإثمِ والعدوانِ، تُقَدِّمُ السفيهَ الخاملَ، وتبْعِدُ المُجِدّ العاملَ، تجعلُ الحقَّ باطلاً، والباطلَ حقًّا، كَمْ ضَيَّعَتْ من حقوقٍ، وأَهْدرتْ من كرامةٍ، وَرَفَعْت من لئيمٍ، وأَهانَتْ من كريمٍ، فهي داءٌ وبيلٌ، ومرضٌ خطيرٌ.

كَمْ مِنْ تَقِيٍّ أُهِينَ وضُيِّع حقُّهُ عندَ موظفٍ لئيمٍ؛ لأنَّه لم يدفعْ له رشوةً، وكَمْ من فاسقٍ قُدِّمَ على غيرِهِ وأُعطِيَ مطلَبَهُ وإنْ كانَ باطلاً لأنَّه دفعَ الرشوةَ، ولوَّثَ المجتمعَ بِرجْسِها، فاستحقَّ لعنةَ اللهِ ومقْتَهُ، فقد لعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ في الرشوةِ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٦) والطبراني في المعجم الأوسط (٦٩٣٣)، وانظر: الترغيب والترهيب (٣/ ١٢٦).

ثلاثةً: «الرَّاشِي» وهو الذي يُعْطِي الرشوةَ، و«المُرْتَشِي» وهو الذي يأخذُ الرشوةَ، و«الرائش» وهو الساعي بينهما، وما ذلِكُم ـ يا عِبادَ اللهِ ـ إلاَّ لشناعةِ الرشوةِ وسوءِ أثرِها على المسلمينَ؛ لأنَّ ضرَرَهَا يَعُمُّ، وداءَهَا ينتشر، ولهذا يرى بعضُ العلماءِ أنَّها أشدُّ تحريمًا من المالِ المدفوعِ للبغيِّ في مقابلةِ الزِّنا بها، مِمَّا يدلُّ على شناعةِ الرشوةِ وعظيمِ ضَرَرِها.

والإسلامُ يُحَرِّمُ الرشوةَ في أيِّ صورةٍ كانتْ، بأيِّ اسمٍ سُمِّيتْ، سواء سُميَتْ هديةً أو مكافأةً أو كرامةً، فالاسمُ لا يُغيِّرُ الحقيقةَ؛ لأنَّ الموظفَ يجبُ عليهِ القيامُ بعملهِ في مقابلِ ما يتقاضاهُ من مُرَتَّبٍ، وهذا المالُ الذي يأخذُه من الناسِ إنْ كانَ لأجْلِ أنْ يُعطِيَ صاحبَ الحقِّ حقَّهُ، فهذا واجبٌ عليه، بحكم عملهِ بدونِ مقابلٍ، وإنْ كانَ لأجْلِ أنْ يُعْطِيَهُ غيرَ حقِّهِ أو يقدِّمَهُ على غيرِه مِمنْ هو أسبقُ منه، فهذا مالٌ أَخَذَهُ بغيرِ حقٍّ، وفي مقابلةِ ظُلْمٍ، فهو أشدُّ تحريمًا وأعظُم إثمًا.

واتقُوا اللهَ ـ أَيُّها المسلمونَ ـ وتجنَّبوا هذا الداءَ الخطيرَ، وأنكِرُوا هذا المُنْكَرَ العظيمَ.

أعوذُ باللهِ مِنَ الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٨].

* * *

فِي التحذيرِ مِنَ الرِّبـا

الحمدُ للهِ الذي أحلَّ البيعَ وحرَّمَ الرِّبا، وغَفَرَ لِمَنْ تابَ وآمنَ وعمِلَ صالحًا ثم اهْتَدى، أحمدُه على إحسانِهِ، وأشكُرُه على توفيقِه وامتنانِه، جَعلَ في الحلالِ الغُنيةَ عن الحرامِ، ووعَدَ مَنِ اتقاهُ أنْ يجعلَ له مَخْرجًا ويرزُقَهُ من حيثُ لا يحتسبُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ، له الخَلْقُ والأمرُ، تباركَ اللهُ ربُّ العالمينَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حثّ على الكسبِ الحلالِ، وحذّر من الكسبِ الحرامِ، فقالَ: «**مَنْ نبتَ لحمُهُ من سُحْتٍ فالنارُ أَوْلَى به**»[1]، فصلَّى اللهُ على هذا النبيِّ الناصحِ الأمينِ، وعلى آلِهِ وصحابتِه والتابعينَ لهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينِ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ، واحذروا من دخولِ الرِّبا في معاملاتِكُم، واختلاطِهِ بأموالِكُم، فإنَّ أكلَ الرِّبا وتعاطِيَهُ من أكبرِ الكبائرِ عندَ اللهِ، وقد توعَّدَ اللهُ المرابي بالنارِ، وآذَنَهُ بحربٍ من اللهِ ورسولِهِ، قالَ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩]، وقد لَعَنَ رسولُ اللهِ ﷺ آكِلَ الرِّبا وَمُوكِلَهُ وشاهديهِ وكاتبَهُ.

ما ظهرَ الرِّبا والزِّنا في قومٍ إلاَّ ظهرَ فيهم الفقرُ والأمراضُ المستعصيةُ وظلمُ السلطانِ، والرِّبا يُهلكُ الأموالَ، ويمحقُ البركاتِ، قالَ تعالَى: ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ

---

(١) أخرجه الطبراني من حديث أبي بكر، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٥١٩).

ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

عِبادَ اللهِ، لقد شدَّدَ اللهُ الوعيدَ على آكلِ الرِّبا، وجعلَ أكْلَه من أفحشِ الخبائثِ، وأكبرِ الكبائرِ، وبيَّنَ عقوبةَ المُرَابي في الدنيا والآخرةِ، وأخْبرَ أنَّه محاربٌ له ولرسولِهِ، فعقوبةُ الرِّبا في الدنيا أنَّه يمحقُ بركةَ المالِ، ويعرِّضُهُ للتلفِ والزوالِ، حتى يصبحَ صاحِبُهُ من أفقرِ الناسِ، وكَمْ تسمعونَ من تلفِ الأموالِ العظيمةِ بالحريقِ والغرقِ والفيضانِ فيصبحُ أهلُها فقراءَ بين الناسِ. وإن بقيتْ هذه الأموالُ الربويةُ بأيدي أصحابِهَا، فهيَ ممحوقةُ البَرَكَةِ لا ينتفعونَ منها بشيءٍ، وإنَّما يقاسونَ أتعابَها، ويتحملونَ حسابَها، ويَصْلَوْنَ عذابَها، المرابي مُبْغَضٌ عندَ اللهِ وعندَ خَلْقِهِ، لأنَّه يأخذُ ولا يُعْطِي، يجمعُ ويمنعُ، لا ينفقُ ولا يتصدقُ، شحيحٌ جشعٌ، جَمُوعٌ مَنُوعٌ، تنفرُ منه القلوبُ، وَينْبذُهُ المجتمعُ، وهذه عقوباتٌ عاجلةٌ.

وأمَّا عقوبتُهُ الآجلةُ فهي أشدُّ وأبْقَى: قالَ اللهُ تعالَى في بيانِ ما يُلاقيهِ المُرابي عندَ قيامِهِ من قَبْرِهِ للحشرِ والنشورِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وذلكَ أنَّ الناسَ إذا بُعِثُوا من قبورِهِم، خرجوا مسرعينَ إلى المَحْشَرِ، كَمَا قالَ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣] إلاَّ آكِلَ الرِّبا، فإنَّه يقومُ ويسقطُ كحالةِ المصروعِ الذي يقومُ ويسقطُ بسببِ الصرعِ؛ لأنَّ أَكَلَةَ الرِّبا في الدنيا تَكْبُرُ بُطونُهُم، بسببِ تَضَخُّمِ الرِّبا فيها، فكُلَّمَا قاموا سقطوا؛ لِثِقَلِ بطونِهِم، وكُلَّمَا هَمّوا بالإسراعِ معَ الناسِ تعثّروا وتأخروا؛ عقوبةً وفضيحةً لَهُم، وفي حديثِ الإسراءِ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى رجُلاً يسبحُ في نهرٍ من الدَّمِ، وكُلَّمَا جاءَ ليخرجَ من هذَا النهرِ استقْبلَهُ رجلٌ على شاطئِ النهرِ وبينَ يديهِ حجارةٌ يرجُمهُ بحجرٍ منها في فمِهِ، حتى يرجعَ حيثُ

كانَ، فسألَ عنه، فأُخبرَ أنه آكلُ الرِّبا[١]. ورَوَى ابنُ ماجه والبيهقيُّ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «الرِّبا سبعونَ حَوْبًا، أهونُها كوقوعِ الرجلِ على أُمِّه»[٢] وفي رواية: «أَهونُها كالذي ينكِحُ أمَّه»[٣] والحَوْب: الإثم.

أَيُّهَا المسلمونَ، إنَّ الرِّبا حرامٌ في جميعِ الشرائعِ السماويةِ؛ قالَ اللهُ تعالَى في حقِّ اليهودِ: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١].

ومعَ هذَا الوعيدِ الشديدِ على أكْلِ الرِّبا، فإنَّ كثيرًا من الناسِ لا يُبالونَ في جمعِ المالِ من أيِّ طريقٍ، لا يهمهُم إلاَّ تضخيم الثروةِ وتكديسُ الأموالِ، فالحرامُ عندَهُم ما تعذَّرَ عليهِم أَخذُهُ، والحلالُ في عرفِهِم ما تمكَّنوا من تناولهِ من أيِّ طريقٍ، وهذا يدلُّ على عدمِ خشيةِ اللهِ في قلوبِهِم، وإعراضهِم عن دينهِم، وإذا وَصلتْ حالُ المجتمعِ إلى هذا المستوى فعقوبتُهُ قريبةٌ، ولا خيرَ في حياةٍ تُبنَى على هذا النظامِ، ولا في كسبٍ موردُهُ حرامٌ، إنَّ مالاً يُجمَعُ من حرامٍ كالمستنقعِ المجتمعِ من الماءِ النجسِ القذرِ، يتأذى مِنْ نتنِ ريحِهِ كُلُّ مَنْ قَرُبَ منه أو مَرَّ عليهِ.

لقد انتشرت اليومَ بينَ الناسِ معاملاتٌ ربويةٌ صريحةٌ، فعلى المسلمِ أنْ يَحْذرَ منها، ولا يغترَّ بمنْ يتعاطاها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٨٦) من حديث سمرة بن جندب.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٢٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٥٢٢) من حديث أبي هريرة.
(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٥٥٢١).

فمن المعاملاتِ الربويةِ: قلبُ الدَّينِ على المُعْسِرِ، إذا حلَّ الدَّينُ عليهِ ولم يستطع الوفاءَ، قالَ له صاحبُ الدَّينِ: إمَّا أنْ تسددَ، وإمَّا أنْ أزيدَ المبلغَ الذي في ذمتِكَ، وأمُدِّدَ الأجلَ، وكلَّما تأخرَ الوفاءُ زادَ الدينُ في ذمةِ المُعْسرِ. وهذا هو ربا الجاهليةِ الذي قال اللهُ فيه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ـ ٢٨٠].

ومن المعاملاتِ الربويةِ: القرضُ بالفائدةِ، بأنْ يقرضَه مبلغًا من المالِ على أنْ يردَّ عليهِ هذا المبلغَ مع زيادةٍ مئويةٍ محددةٍ، وكذلكَ إذا اشترطَ المُقرِضُ نفعاً من المُقْتَرِضِ، كسكْنَى دارِه، أو ركوبِ سيارتِه، أو أنْ يهديَ إليهِ هديةً، أو أيِّ نفعٍ، قالَ ﷺ: «كُلُّ قرضٍ جرَّ نفعًا فهو رِبًا»[١]، وقدْ أجمعَ العلماءُ على معناهُ.

ومن المعاملاتِ الربويةِ: ما يجري في البنوكِ من الإيداعِ بالفائدةِ، وهي الودائعُ الثابتةُ إلى أجلٍ، يتصرفُ فيها البنكُ إلى تمامِ الأجلِ، ويدفعُ لصاحبِها فائدةً ثابتةً بنسبةٍ معينةٍ في المائةِ، كعشرةٍ أو خمسةٍ بالمائةِ، ونحو ذلكَ.

ومن المعاملاتِ الربويةِ: بيعُ العِينةِ، وهو أنْ يبيعَ سلعةً بثمنٍ مؤجَّلٍ على شخصٍ، ثُمَّ يرجعَ ويشتريها منه بثمنٍ حالٍّ أقلَّ من الثمنِ المُؤَجَّلِ، فهذهِ معاملةٌ ربويةٌ جُعِلت السلعةُ فيها حيلةً وستارةً فقط.

ومن المعاملاتِ الربويةِ: ما يجري في صرفِ النقودِ بعضِهَا ببعضٍ، مع عدمِ التقابُضِ في المجلسِ، فلا يجوزُ للمتصارفينِ أنْ يتفرقا قبلَ أنْ يقبضَ كُلٌّ منهما

---

(١) عزاه السيوطي في الجامع الصغير للحارث بن أبي أسامة عن علي.

كاملَ مَا لَهُ على الآخرِ ، ومِنْ ذلكَ بيعُ الحُلِيِّ من الذهبِ أو الفضةِ بدراهمَ ورقيةٍ ، ثُمَّ يحصلُ التفرقُ قبلَ قبضِ كُلٍّ من الطرفين ما لَهُ على الآخرِ .

وغيرُ هذِه الصورِ من المعاملاتِ الربويةِ الكثيرةِ ، فعلى المسلمِ أنْ يبتعدَ عن الرِّبا بجميعِ صُوَرِهِ، ولا يغترَّ بمَنْ لا يُبالي ؛ وعليهِ أنْ يسألَ العلماءَ عما أشكلَ عليهِ، فإنَّ الأمرَ عظيمٌ، والخطر جسيمٌ، نسألُ اللهَ لنا ولكم العافيةَ .

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ . . . ﴾ إلى قولهِ: ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ـ٢٨١].

* * *

حرمةُ مالِ المسلمِ

الحمدُ للهِ الذي حرَّمَ الظلمَ على نَفسِهِ، وجعلَهُ مُحرَّمًا بينَ العبادِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، شهادةً تنفعُ قائلَها في الدنيا ويومَ المعادِ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه وخيرتُه من العبادِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِهِ البررةِ الأمجادِ، صلاةً وسلامًا دائمينِ إلى يومِ التنادِ.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالى، واحذروا الظلمَ، فإنَّه ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واحذروا الشُّحَّ، فإنَّه أهلكَ من كانَ قبلكُم.

أيُّها المسلمونَ، يقولُ اللهُ تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، ففي هذِه الآيةِ الكريمةِ ينهى اللهُ سبحانَهُ وتعالَى عن أخْذِ أموالِ الناسِ بغيرِ حقٍّ شرعيٍّ يُسَوِّغ أَخْذَها، كالمعاملاتِ التجاريةِ النزيهةِ، وسائرِ المعاوضاتِ الصحيحةِ، أو التبرعاتِ الصادرةِ مِمَّنْ يصحُّ تَبَرُّعُهُ بطِيبِ نفسٍ واختيارٍ، أو أخذها بموجب حقٍّ شرعيٍّ واجبٍ على صاحبِ المالِ؛ من زكاةٍ ونفقةٍ واجبةٍ، أو دَيْنٍ عليهِ ونحو ذلكَ.

فأخذُ أموالِ الناسِ بغيرِ مسوغٍ شرعيٍّ، أَكلٌ لها بالباطلِ، وظلمٌ وعدوانٌ، قالَ ﷺ: **«لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلاَّ بطِيبةٍ من نفسِهِ»**[1]، وقالَ ﷺ: **«إنَّ دماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكُم حرامٌ، كحرمةِ يومِكُم هذا، في شهرِكم**

(١) أخرجه أحمد (٢٠١٧٢) من حديث حذيفة عم أبي حرة الرقاشي.

هذا، في بلدِكم هذا»[١] قالَ ذلكَ في خُطبتِه يومَ النحرِ، بِمِنَى، في مجمعِ الحجيجِ في حجةِ الوداعِ.

أَيُّها المسلمونَ، وأَكْلُ أموالِ الناسِ بالباطلِ له طرقٌ كثيرةٌ:

من أعظمِهَا الرِّبا: قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، أي: لا يقومونَ من قبورِهِم يومَ البعثِ والنُّشورِ إلا كقيامِ المصروعِ الذي صرعَهُ الجنُّ، فهو يقومُ ويسقطُ، لتضخُّمِ بطنِه بالرِّبا، وقالَ ﷺ: «لعنَ اللهُ آكِلَ الرِّبا وموكلَهُ وشاهديه وكاتبَهُ»[٢].

ومن أعظمِ أنواعِ الرِّبا: قلبُ الدَّينِ على المعسرِ إذا حلَّ أجلُ الدَّينِ وعجزَ عن السدادِ، قالَ لهُ: أزيدُ في قدر الدينِ وأُمدِّد الأجلَ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٨٠].

ومن أنواعِ الرِّبا: القرضُ بالفائدةِ الذي تنتهجُه البنوكُ في العصرِ الحاضرِ؛ حيثُ تقومُ تلكَ البنوكُ بعقدِ صفقاتِ القروضِ بينَها وبينَ ذوي الحاجاتِ، أو أربابِ التجاراتِ، وأصحابِ المصانعِ والحِرَفِ المختلفةِ، فتدفعُ لهؤلاءِ مبالغَ من المالِ نظير فائدةٍ محددةٍ بنسبةٍ مئويةٍ، وتزدادُ هذه النسبةُ في حال التأخيرِ عن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧، ١٠٥، ١٧٤١، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧) ومسلم (١٦٧٩) من حديث أبي بكرة.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٩٨) من حديث جابر بن عبد الله.

السدادِ في الموعدِ المحدد.

ومن أنواعِ الرِّبا المستعملِ في البنوكِ اليومَ: الإيداعُ بالفائدةِ، بأنْ يدفعَ للبنك مبلغًا من المالِ يتعاملُ به لمدةٍ معينةٍ، في مقابلِ فائدةٍ ثابتةٍ بنسبةٍ معينةٍ في المائةِ يدفعُها البنكُ لصاحبِ المالِ.

ومن أَكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: أكلُها بالقمارِ الذي هو المَيْسِرُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ المائدة: ٩٠، ٩١].

ومن أَكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: أخذُ الرشوةِ، فعنِ ابنِ عمرَ رضيَ اللهُ عنهما قالَ: لعنَ رسولُ اللهِ ﷺ الراشِي والمُرْتَشِي[١]. رواه أبو داودَ والترمذيُّ، وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيح. والرشوةُ سُحْتٌ، والتعاملُ بها من صفاتِ اليهودِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّـٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، وفي الحديثِ: «كُلُّ لحمٍ نبتَ من السُّحْتِ فالنارُ أَوْلَى به»[٢] وعَنْ جابر بنِ عبدِ اللهِ رضيَ اللهُ عنهما أن النبيَّ ﷺ قالَ: «يا كعبُ بنَ عجرةٍ، إنَّه لا يدخلُ الجنةَ لحمٌ نبتَ من سُحْتٍ»[٣] رواهُ ابنُ حبانَ في صحيحهِ.

ومِنْ أَكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: الغشُّ في المعاملاتِ، كالبيعِ والشراءِ والمقاولاتِ والإجاراتِ، قالَ ﷺ: «ومنْ غشَّنَا فليسَ منا»[٤] رواهُ مسلمٌ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٨٠) والترمذي (١٣٣٧) وابن حبان (٥٠٧٧) والحاكم (٤/ ١١٥).
(٢) تخريجه في الضعيفة (١٨١٢).
(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٧٢٣) والحديث عند الترمذي في سننه (٦١٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٢) والترمذي (١٣١٥) من حديث أبي هريرة. واللفظ للترمذي.

ومن الغشِّ: إخفاءُ عيبِ السلعةِ، وإظهارُهَا بمظهرِ السليمةِ، فعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ مرَّ على صُبْرةِ طعامٍ، فأدْخلَ يدَهُ فيها، فنالتْ أصابِعُه بَللاً، فقالَ: «ما هذا يا صاحبَ الطعامِ؟» قالَ: أصابتْهُ السماءُ يا رسولَ اللهِ، قالَ: «أفلا جعلتَهُ فوقَ الطعامِ حتى يراهُ الناسُ؟ من غشَّنَا فليسَ منا»[1] رواهُ مسلمٌ.

ومِنَ الغشِّ: تغريرُ البائعِ بالمُشتَرِي في قيمةِ السلعةِ، بحيثُ يبيعُها عليهِ بأكثر من قيمتِها الحقيقيةِ، وكذلكَ تغريرُ المُشْتَرِي بالبائعِ بحيثُ يشتري منه سلعةً بأقلَّ من قيمتِها الحقيقيةِ، إذا كانَ يجهلُ ذلكَ.

ومِنْ أكْلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: الغشُّ في المقاولاتِ، بأنْ يبخسَ المقاولُ العملَ الذي التزمَ به، فلا يؤدِّيه على الوجهِ المطلوبِ، أو يبخسَ العيناتِ التي طُلِبَ منه تأمينُهَا، ثمَّ يستوفي قيمةَ العطاءِ كاملةً، وهو لمْ يوفِ ما وجبَ عليهِ.

ومن أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: منعُ الأجيرِ أجرَهُ، فعَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «قالَ اللهُ تعالَى: ثلاثةٌ أنا خصمُهُم يومَ القيامةِ، ومَنْ كنتُ خصمَهُ خصمْتُهُ، رجلٌ أعطى بي ثم غدر، ورَجلٌ باعَ حُرًا فأكلَ ثمنَهُ، ورَجلٌ استأْجَرَ أجيرًا فاستوفى منه ولمْ يعْطِهِ أجْرَهُ»[2] رواه البخاري.

ومِنْ أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ، أخذُها بالخصومةِ الباطلةِ، والأيمانِ الفاجرةِ، عن ابنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «من حلفَ على مالِ امرئٍ مسلمٍ بغيرِ حقِّهِ، لقيَ اللهَ وهو عليه غضبانُ»، قالَ عبدُ اللهِ: ثمَّ قرأَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ مصداقَه من كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ

---

(١) صحيح مسلم (١٠٢).

(٢) صحيح البخاري (٢٢٢٧).

ثَمَنًا قَلِيلًا . . .﴾ إلى آخرِ الآيةِ[(١)] [آل عمران: ٧٧]. زادَ في روايةٍ بمعناهُ قالَ: فدخلَ الأشعثُ بنُ قيسٍ الكنديُّ فقالَ: ما يحدِّثُكم أبو عبدِ الرحمنِ؟ فقُلْنا: كذا وكذا، قالَ: صدقَ أبو عبدِ الرحمنِ، كانَ بيني وبينَ رَجُلٍ خصومةٌ في بئرٍ فاختصمْنَا إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «شاهداكَ أو يمينُهُ» قلتُ: إذن يحلفُ ولا يُبالِي، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «من حلفَ على يمينِ صبرٍ يقطعُ بها مال امرئٍ مسلمٍ، هو فيها فاجرٌ، لقيَ اللهَ وهو عليهِ غضبانُ» ونزلَتْ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا . . .﴾ إلى آخرِ الآيةِ[(٢)] [آل عمران: ٧٧]، رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ وغيرهُمَا.

ومِنْ أكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: بخسُ المكاييلِ والموزاينِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ١ـ٦]، وعنِ ابنِ عباسٍ رضيَ اللهُ عنهُما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ لأصحابِ الكيلِ والوزنِ: «إنَّكُم قد ولِّيتُم أمرًا هَلكتْ فيه الأممُ السالفةُ»[(٣)] رواهُ الترمذيُّ، والحاكمُ مرفوعًا، والصحيحُ أنَّه موقوفٌ على ابنِ عباسٍ.

ومِنْ أكْلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ: الاستيلاءُ عليها بالغصْبِ، وانتزاعُها منهُم بالقوةِ، من غيرِ مُبَرِّرٍ شرعيٍّ، عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأرضِ طُوِّقَهُ من فوقِ سبعِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٤٥) ومسلم (١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) وانظر أطرافه هناك، ومسلم (١٣٨).

(٣) أخرجه الترمذي (١٢١٧)، والحاكم (٢/ ٣١).

أرضينَ»[١] رواهُ البخاريُّ ومسلمٌ.

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ، تَنْهى عن ظلمِ الناسِ في أموالِهم وأعراضِهم.

فاتقُوا اللهَ عِبادَ اللهِ، واقنعوا بما أحلَّ اللهُ عمَّا حرَّمَ اللهُ، ففي الحلالِ غنيةٌ عن الحرامِ.

اللهُمَّ أغْنِنَا بحلالِكَ عن حرامِكَ، واكفِنا بفضلِكَ عمَّنْ سواكَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣، ٣١٩٥) ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة.

في البيعِ والشراءِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، أباحَ لنا الاتجارَ عن طريقِ المعاملاتِ القائمةِ على الصدقِ والتقوى، وحرَّمَ علينا الغشَّ والخداعَ وترويجَ السلعِ بالكذبِ والتزويرِ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ له، يعلمُ خائنةَ الأعينِ وما تُخفي الصُّدورُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، رسمَ لأمَّتِه طريقَ الاكتسابِ المباحِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِهِ الذينَ تمسَّكُوا بسُنَّتِهِ، وعملُوا بها، فصارُوا خيرَ قدوةٍ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعدُ:

أيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ في أموالِكُمْ؛ قالَ اللهُ تعالَى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]. فينهَى تعالَى عبادَه المؤمنينَ عنْ أنْ يأكلَ بعضُهم أموالَ البعضِ الآخرِ بالباطلِ؛ أيْ: بأنواعِ المكاسبِ التي هي غيرُ شرعيةٍ، كأنواعِ الرِّبا والقمارِ، وما جرى مجْرَى ذلكَ من سائرِ صنوفِ الحيلِ، وإنْ ظهَرتْ في قالبِ الحكمِ الشرعيِّ؛ وهي ممَّا يعلمُ اللهُ أنَّ مُتعاطِيَها إنَّما يريدُ الحيلةَ إلى أخْذِها بغيرِ وجهٍ شرعيٍّ، ثُمَّ قالَ تعالَى: ﴿ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩]، ومعناهُ: لا تتعاطوا الأسبابَ المحرمةَ في اكتسابِ الأموالِ، لكنْ تعاطوا في ذلكَ الأسبابَ المشروعةَ من الاتجَارِ المباحِ، فتسببوا به في تحصيلِ الأموالِ.

أَيُّها المسلمونَ، لا يحملنَّكُم حبُّ المالِ على المغامرةِ في كسْبِهِ، وجمْعِهِ

من غيرِ طُرُقه المشروعةِ، فالكثيرُ من الناسِ لا يُبالِي مِنْ أينَ أخذَ المالَ؟ فالحلالُ عندَهُ: ما تمكَّنَ من أخْذِهِ بأيِّ وسيلةٍ من وسائلِ الحيلِ والكذبِ والخداعِ، أو من وسائلِ القهرِ والغلبةِ، والتسلُّطِ على مَنْ هو أضعفُ منه.

فمنهُم: مَنْ يُظهرُ السلعةَ بأعلى مظهرٍ، وهي في الحقيقةِ معيبةٌ رديئةٌ، فإن كانتْ حبوبًا أو فواكِهَ، جعلَ الطيب السليمَ في الأعْلى، وجعلَ الرديءَ والتالفَ منها في الأسفلِ، ليظنَّها المشتري سليمةً، فيأخُذها بقيمةٍ مرتفعةٍ، وقد أنكرَ النبيُّ ﷺ هذا الصنيعَ حينما مرَّ على بائعِ طعامٍ قد جمعَهُ وأخْفَى عيبَهُ، فأدخلَ النبيُّ ﷺ يدَهُ فيه، فوجدَ أسفلَهُ مبلولاً، فقال: «**ما هذا يا صاحبَ الطعام؟**» فقال: أصابتْهُ السماءُ يا رسولَ اللهِ ـ يعني: المطرَ ـ فقالَ ﷺ: «**هلاَّ جعلتَهُ ظاهرًا حتى رآهُ الناسُ؟ مَنْ غشَّنَا فليسَ منا**»[1].

فهذا الحديثُ الشريفُ يدلُّ على أنَّ الغشَّ منكَرٌ ظاهرٌ، يجبُ إنكارُهُ، وأنَّ على وليِّ الأمرِ أنْ يفتشَ السلعَ المعروضةَ للبيع حتى يمنعَ الغشَّ فيها، وأنَّ صاحبَ السلعةِ لا يجوزُ له أنْ يكتمَ عيبهَا عن المشتري، وأنَّ من غشَّ المسلمينَ فليسَ هو منهم، وكفَى بذلكَ زاجرًا!.

ومن الباعةِ مَنْ يزيدُ في ثمنِ السلعةِ فيقولُ: اشتريتُها بكذَا، أو: سيمَتْ مني بكَذا؛ ليغرِّرَ بالمشتري، فيبنِي على كلامِهِ، ويشتريها بأكثر من قيمتِها، وقد يزيدُ في سومِ السلعةِ شخصٌ لا يريدُ شراءَها، بلْ يريدُ التغريرَ بالآخرينَ، وقد تكونُ السلعةُ المعروضةُ للبيعِ مشتركَةً بينَ جماعةٍ، فيتولَّى عرضَها للبيعِ واحدٌ منهم، والآخرونَ يساومونَه؛ ليخدعُوا الناسَ برفعِ قيمتِهَا.

---

(١) صحيح مسلم (١٠٢).

وهذه الصُّورُ كلُّها من النجشِ الذي نَهَى عنه الرسولُ ﷺ[١]، فالنجشُ هو: أنْ يزيدَ في السلعةِ مَنْ لا يريدُ شراءَها؛ فإذا كانَ شريكًا فيها صارَ ناجشًا وآكلاً للحرامِ.

ومن الحيلِ المحرمةِ: أنْ يتَّفِقَ أهلُ السوقِ أو جماعةٌ منهُم على أنَّهم شركاءُ فيما يُجْلَبُ إليهِم من السلعِ، فيُعَمِّدُوا واحدًا منهم يسومُ السلعةَ المجلوبةَ، ولا يزيدوا عليه؛ لتبورَ السلعةُ بيدِ صاحبِها حتَى يبيعَها رخيصةً وتكونُ للجميعِ. وهذا خداعٌ محرَّمٌ، وإضرارٌ بالمسلمِ، لا يقلُّ ضررًا عن النجشِ، فالنجش إضرارٌ بالمشتري، وهذا إضرارٌ بالبائعِ.

عِبادَ اللهِ، وممَّا نهى عنه الرسولُ ﷺ: البيعُ على بيعِ المسلمِ، والشراءُ على شرائِهِ[٢]. فالبيعُ على بيعِه، كأنْ يبيعَ أخوكَ المسلم سلعةً بقيمةٍ محددةٍ، ثم تذهبُ إلى المشتري وتقولُ له: اتركْ هذه السلعةَ، وأنا أبيعُكَ مثْلَها ـ أو أحسنَ ـ بقيمةٍ أرخصَ. والشراءُ على شراءِ المسلمِ، كأنْ يشتري سلعةً بثمنٍ محددٍ، فتذهبُ للبائعِ وتقولُ: أنا أشتري منك هذه السلعةَ بقيمةٍ أكثرَ مما بعتها به على فلانٍ!

وممَّا نَهى عنه الرسولُ ﷺ: أنْ يبيعَ المسلمُ ما ليسَ عندَه، كما يجري من بعضِ أهلِ المداينات، يبيعُ على المستدينِ سلعةً بثمنٍ مؤجَّلٍ، والسلعةُ ليستْ في ملكِهِ وقتَ البيعِ، ثم يذهبُ ويشتريها ويسلِّمُها له، فيبرمانِ العقدَ ويحددانِ القيمةَ، والبائعُ لا يدْري هَلْ يتمكنُ من تحصيلِ السلعةِ أو لا؟ ولا يدري: هل يجِدُها بالقيمةِ التي توقَّعَها أولا؟ ولاشكَّ أنَّ في ذلكَ ضررًا وجهالةً، وقدْ قالَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٢) ومسلم (١٥١٦) من حديث ابن عمر.

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣، ٦٠٦٦، ٦٧٢٤)، ومسلم (٢٥٦٤).

حكيمُ بنُ حزامٍ رضيَ اللهُ عنه للنبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللهِ، يأتينِي الرجلُ فيسألُنِي عن البيعِ، ليسَ عندي ما أبيعُهُ منه، ثم أبتاعُهُ ـ أيْ: أشتريهِ ـ مِنَ السوقِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «لا تبعْ ما ليسَ عندَكَ»(١).

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمَهُ اللهُ: وهذا كنهيهِ عن بيعِ الغررِ، ؛ لأنَّه إذا باعَ ما ليس عندَه فليسَ على ثقةٍ من حصولِهِ، قد يحصلُ له وقد لايحصلُ، فيكونُ غررًا، وقالَ شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ اللهُ: إنَّما يفعلُهُ لقصدِ التجارةِ والربحِ، فيبيعُهُ بسعرٍ، ويشتريهِ بأرخصَ، ويلزمُه تسليمُهُ في الحالِ، وقد يقدرُ عليهِ وقد لا يقدرُ عليهِ، وقد لاتحصلُ له تلكَ السلعةُ إلاَّ بثمنٍ أغلى مما تسلَّفَ، فيندمُ المسلِّفُ ـ أي: البائعُ ـ وإنْ حصلتْ بسعرٍ أرخصَ ندِمَ المسلَّفُ؛ أي: المشتري؛ إذْ كانَ يمكنُه أن يشتريها هو بذلكَ السعرِ، فصارَ هذا من نوعِ الميسرِ والقمارِ والمخاطرةِ.

أيُّها المسلمونَ، ومن الغشِّ تدليسُ عيوبِ السلعِ على المشتري، كأنْ يأتِي على السيارةِ المعيبةِ ويزوِّقها بالأصباغِ اللَّماعةِ، حتى تظهرَ بمظهرِ السيارةِ الجديدةِ التي لمْ يأتِ عليها كثيرُ استعمالٍ، أو لمْ يقعْ فيها خَدْشٌ، ويأتي على الدارِ المصدَّعةِ الجدرانِ والمُخَلْخَلةِ الأركانِ، فيرمِّمُها ويكسُو عيوبَها بالأصباغِ والديكوراتِ والأدهانِ؛ حتى تظهرَ مظهرَ السليمةِ، فترتفع قيمتُها زورًا وبهتانًا.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وتعامَلُوا فيما بينكُم تعاملَ المسلمينَ المؤمنينَ بالبرِّ والصدقِ والبيانِ، لا بالغشِّ والكذبِ والكتمانِ.

فقدْ خرجَ النبيُّ ﷺ إلى المُصلى، فرأى الناسَ يتبايعونَ فقالَ: «يا معشرَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٠٣)، والترمذي (١٢٣٥).

التجارِ» فاشرأبتْ أعناقُهُم استجابةً لنداءِ رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ: «إنَّ التجارَ يُبْعَثُونَ يومَ القيامةِ فُجَّارًا، إلاَّ من اتَّقى اللهَ وبرَّ وصدقَ»[١].

ويا مَنْ تتعاملونَ بالاتِّجارِ في الأراضِي: اتقُوا الله تعالَى في معاملتِكُم، وراقبوا اللهَ في حقوقِ المساهمينَ معكُمْ، لا تبخسُوها، ولا تأخُذُوا منهم ما لايحلُّ لكم أخْذُه، ووضِّحُوا لشركائِكُم طريقةَ بيعِكُم وشرائِكُم، ومبلغَ الأرباحِ التي تحصلونَ عليها ويشاركونكُم فيها؛ ولا تستولُوا على أراضٍ لا تحلُّ لكم، فقدْ قالَ ﷺ: «مَنْ ظلمَ شبرًا من الأرضِ طُوِّقَهُ يومَ القيامةِ من سبعِ أرضينَ»[٢]، ولا تُدْخلوا في حدودِ أراضيكُم ما ليسَ منها، قالَ ﷺ: «لعنَ اللهُ مَنْ غيَّرَ منارَ الأرضِ»[٣] ومنارُ الأرضِ هي: المراسيمُ التي تحدد حقوقَ الناسِ في الأرضِ، فَلْيَقِفْ كُلٌّ منكُم عندَ حدِّه.

اتقُـــوا اللهَ جميعًا أيُّـها المسلمـــونَ، واصدُقُـــوا في جميعِ معاملاتِكُم، ولا تكتمُوا الحقَّ وأنتم تعلمونَ قولَ النبيِّ ﷺ: «البيِّعانِ بالخيارِ ما لم يتفرَّقَا؛ فإن صدقَا وبيَّنا بوركَ لهما في بيعِهِما، وإن كتَمَا وكذَبا فعسَى أنْ يربحا ويمْحَقَا بركةَ بيعِهِما»[٤] واليمينُ الفاجرةُ منفقةٌ للسلعةِ، ممحقةٌ للكسبِ، واعلموا ـ يا أربابَ الأموالِ ـ أنكُمْ ستُحاسبونَ على هذِه الأموالِ، درهمًا درهمًا: ما طريقةُ كسبكم لها؟ وفي أيِّ شيءٍ أنفقتموها؟ فماذا سيكونُ جوابُكُم عن كل درْهمٍ منه؟

---

(١) أخرجه الترمذي (١٢١٠) وابن ماجه (٢١٤٦) من حديث رفاعة بن رافع.
(٢) أخرجه البخاري (٢٤٥٣، ٣١٩٥) ومسلم (١٦١٢) من حديث عائشة.
(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٩) من حديث علي بن أبي طالب.
(٤) أخرجه البخاري (٢١١٠) وأطرافه في (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨، ٢١١٤) ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام.

تأمَّلوا في العواقبِ، وقدِّروا المواقفَ، ما دمتُم في زمنِ الإمكانِ، توبوا من المكاسبِ المحرَّمةِ، ورُدُّوا المظالمَ إلى أهلِهَا، أو استحلُّوهُم منها، خذوا ما أباحَ اللهُ لكُم من الكسبِ، وأنفقوهُ فيما شُرِعَ الإنفاقُ فيه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [التغابن: ١٦].

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ . . . ﴾ [المنافقون: ٩] الآيتينِ من آخرِ سورةِ المنافقون.

* * *

فِي منافعِ المالِ ومضارِّهِ

الحمدُ للهِ الذي جعلَ المالَ منحةً للأبرارِ، يحصلونَ ببذلِه في وجوهِ البرِّ على الأجورِ والدرجاتِ العُلَى والنعيمِ المقيمِ، وجعَلَهُ محنةً للأشقياءِ، يكتسبونَهُ من غيرِ حِلِّهِ، وينفقونَهُ في غيرِ وجوهِهِ، فيضلُّ سعيُهم ويخيبُ أملُهُم، ويكونُ عليهِم حسرة في الدنيا وعذابًا يومَ القيامةِ.

أحمدُه على ما أولاهُ، وأشكُره على عظيم نعْماهُ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وحدَه لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، حَثَّ على إطابةِ المكسبِ والاعتدالِ في الإنفاقِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِه وأصحابِه، وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أيُّهَا الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، واشكُروا نعمَهُ يزدْكُم منها.

أَيُّها الإخوانُ، إنَّ الإنسانَ مجبولٌ على حُبِّ المالِ ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ٢٠]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨﴾ [العاديات: ٦ـ٨]، والخيرُ هُنا هو المالُ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: إنْ تركَ مالاً، فالمالُ في حدِّ ذاتِهِ خيرٌ ونعمةٌ من اللهِ، وقيامٌ لمصالحِ العبادِ، قالَ تعالَى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾ [النساء: ٥]، ولكنَّ تصرفَ الإنسانِ في المالِ قد يُخرجُهُ عن هذهِ الخيريةِ إلى ضدِّهَا، ذلكم ـ عِبادَ اللهِ ـ أنَّ المالَ له محاسنُ، وله مساوئُ، والحكمُ لِمَا غلبَ منهُما، فإنْ غلبتْ محاسنهُ على مساوئِهِ صارَ خيرًا لصاحبِهِ

عاجلاً وآجلاً، وإنْ غلبتْ مساوئهُ على محاسنِهِ، صارَ شرًّا على صاحبِهِ عاجلاً وآجلاً، ومِنْ هُنا كانَ المالُ فتنةً، كما قالَ تعالَى: ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٨].

فَمِنْ محاسنِ المالِ: أنَّه يُغْني صاحبَه عن الناسِ، بما يُنفِقُه على نفسِهِ وعلى مَنْ تلزمُهُ النفقةُ عليهِ.

ومِنْ محاسنِه: أنَّ صاحبَه يتمكَّنُ من الإنفاقِ في وجوهِ البرِّ، كالجهادِ في سبيلِ اللهِ، فالجهادُ بالمالِ جاءَ مقدَّمًا على الجهادِ بالنفسِ في نصوصٍ كثيرةٍ، وكذا الإنفاق في الحجِّ والعمرةِ وصلةِ الأرحامِ، والصدقةِ على الفقراءِ والمساكينِ، والإنفاق في مرافقِ البرِّ، كعمارةِ المساجدِ والمدارسِ الخيريةِ.

واسمعوا هذا الحديثَ الذي روَاه البخاريُّ ومسلمٌ، عن أبِي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ: أنَّ فقراء المهاجرينَ أتوا رسولَ اللهِ ﷺ فقالوا: ذهبَ أهلُ الدثورِ (أي: الأموالِ الكثيرةِ) بالدرجاتِ العُلَى والنعيمِ المقيمِ، فقالَ: «وما ذاكَ؟» فقالوا: يصلُّونَ كما نُصلِّي، ويصومونَ كما نصومُ، ويتصدقونَ ولانتصدقُ، ويُعتِقُونَ ولانُعتِقُ. فقالَ: رسولُ اللهِ ﷺ: «أفلا أعلِّمُكُم شيئًا تدركونَ به مَنْ سبقَكُم، وتسبقونَ به مَنْ بعدَكُم، ولا يكونُ أحدٌ أفضلَ منكُم إلاَّ مَنْ صنعَ مثلَ ما صنعتُمْ؟» قالوا: بلى يا رسولَ اللهِ، قالَ: «تُسبِّحونَ وتُكبرونَ وتحمدونَ دَبْرَ كلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ مرةً» فرجعَ فقراءُ المهاجرينَ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالوا: سمعَ إخوانُنَا أهلُ الأموالِ بما فعلْنـا ففَعلوا مثلَه، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾[1] [المائدة: ٥٤]، فهذا دليلٌ على أنَّ مَنْ أعطاهُ اللهُ الغنى والمالَ

(١) أخرجه البخاري (٨٤٣، ٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥).

الصالحَ فقدْ تفضَّل عليهِ.

كما أنَّ نفعَ المالِ يجري على صاحبِه بعدَ موتِه، كُلَّما انتفعَ به وارثٌ أو حبسَ منهُ وقْفًا على جهةِ برٍّ، قالَ ﷺ لسعدِ بنِ أبِي وقاصٍ رضيَ اللهُ عنهُ: «**إنَّكَ أَنْ تَذَرَ ورثتكَ أغنياءَ خيرٌ مِنْ أنْ تدَعَهُم عالةً يتكففونَ الناسَ**»(١) وقالَ ﷺ: «**إذا ماتَ ابنُ آدمَ انقطعَ عملُه إلاَّ من ثلاثٍ: صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفعُ به، أو ولدٍ صالحٍ يدْعُو له**»(٢).

أيُّهَا الإخوةُ، وإنَّ المالَ إلى جانبِ ما فيهِ مِنَ المنافعِ فيهِ كذلكَ أخطارٌ عظيمةٌ، ومسؤولياتٌ ثقيلةٌ، فَمَنْ لم يحترزْ من أضرارِهِ أهْلَكَتْهُ، فالمالُ يحملُ على التكبُّرِ والطغيانِ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦، ٧]، وقال تعالَى: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٢٧]، فالإنسانُ إذا رأَى أنّه قد استغْنَى وكَثُرَ مالُه فرِحَ وطغَى. والمالُ غالبًا يجُرُّ إلى المعاصِي؛ لأنَّ مَنْ قدرَ على تحصيلِ شهواتِهِ المحرمةِ انبعثتْ نَفْسُهُ إليها، ومن العصمةِ ألا تقدرَ. والمالُ يحرِّكُ إلى كثرة التنعُّمِ بالمباحاتِ حتى تصيرَ له عادةً وإلفًا، فلا يصبرُ عنها، فيغرقُ في التَّرَفِ، والترفُ مذمومٌ غايةَ الذمِّ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ، فالمترفونَ هم أعداءُ الرسلِ، قالَ تعالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝٣٤﴾ [سبأ: ٣٤]، وقالَ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝١١٦﴾ [هود: ١١٦].

والمالُ يحملُ صاحبَهُ على المداهنةِ والنفاقِ؛ لأنَّ من كَثُر مالُهُ خالطَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٦) ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة.

الناسَ، وإذا خالطَهُم لم يسلمْ من نفاقٍ وعداوةٍ وحسدٍ وغيبةٍ، وكُلُّ ذلك لحاجتِهِ إلى إصلاحِ مالِهِ. والمالُ يُلْهي عن ذكرِ اللهِ، لِمَا يقومُ به صاحبُه من رعايتِهِ وحفظِهِ وتصريفِهِ، ممَّا يأخذُ كثيرًا من وقتِهِ، أو يذهبُ به كُلِّه، فيصبحُ من الخاسرينَ، كما قالَ تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝﴾ [المنافقون: ٩].

وحبُّ المالِ قد يحملُ صاحبَه على الغشِّ والخداعِ والكذبِ والأيْمانِ الفاجرةِ في المعاملاتِ والخصوماتِ، وكُلُّ هذه جرائمُ كبائرُ موجبةٌ لغضبِ اللهِ وعقابِه.

والمالُ قد يحملُ صاحبه بدافعِ حبِّه له أنْ يبخلَ به، ويمنعَ حقَّ اللهِ فيهِ من الزكاةِ، فيقعُ في أليمِ العذابِ، روَى البخاريُّ ومسلمٌ عَنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «ما مِنْ صاحبِ ذهبٍ ولا فضةٍ لا يُؤَدِّي منها حقَّها، إلاَّ إذا كانَ يومُ القيامةِ صُفِّحَتْ له صفائحُ من نارٍ، فأُحْمِي عليها في نارِ جهنَّمَ، فيكوى بها جنبُهُ وجبينُهُ وظهرُه، كلما بردتْ أعيدتْ له، في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بينَ العبادِ، فيرى سبيلَه إما إلى الجنةِ وإما إلى النارِ» قيلَ: يا رسولَ اللهِ، فالإبلُ؟ قالَ: «ولا صاحبُ إبلٍ لا يُؤَدِّي منها حقَّها، ومِنْ حقِّها حلبُها يومَ وِرْدِها، إلاَّ إذا كانَ يومُ القيامةِ بطح لها بقاعٍ قرقرٍ أوفرَ ما كانتْ، لا يفقدُ منها فصيلًا واحدًا، تطؤُهُ بأخفافِها، وتَعَضُّه بأفواهِها، كلَّمَا مرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أُخْراها في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ، حتى يُقْضَى بين العبادِ، فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنةِ وإمَّا إلى النارِ» قيلَ: يا رسولَ اللهِ، فالبقرُ والغنمُ؟ قالَ: «ولا صاحبُ بقرٍ ولا غنمٍ لايُؤدي حقَّها، إلا إذا كان يومُ القيامةِ بُطحَ لها بقاعٍ قرقرٍ أوفرَ ما كانتْ لا يفقد منها شيئًا، ليسَ منها عقصاءُ ولا جلحاءُ

ولا عضباء، تنطحُه بقرونِها، وتطؤهُ بأظلافِها، كلَّما مرَّ عليه أولاها ردَّ عليه أُخراها، في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنة، حتى يُقْضَى بينَ العبادِ فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنةِ وإمَّا إلى النارِ»(١) الحديث.

أيُّها التاجرُ، إنكَ مسؤولٌ عن مالكَ، قليلِهِ وكثيرِهِ، في موقفٍ لا ينفعُ فيهِ إلا الصدقُ، تُسألُ: مِنْ أَيْنَ اكتسبْتَهُ وفيما أنفقْتَهُ؟ فما جوابُكَ حينذاكَ؟ وما عاقبتُكَ بعدَ هذا الجوابِ؟.

أيُّها التاجرُ، لا يحملنَّكَ حبُّ المالِ على المغامرةِ في اكتسابِه وجمعِه دونَ تفكيرٍ في عواقبِه، لا يحملنَّكَ حبُّ المالِ على أنْ تكذبَ في معاملتِكَ، أو تفجُرَ في خصومتِكَ، أو تحلفَ اليمينَ الغموسَ؛ لتروجَ بها مبيعاتِكَ، أو تغشَّ في سلعتِكَ، أو تخدعَ إخوانَك، أو تطففَ المكيالَ والميزانَ، أو تتعاملَ بالرِّبا. اقْنعْ بالكسبِ الحلالِ ففيهِ الخيرُ والبركةُ، والزمْ الصدقَ ففيهِ النجاةُ، ولا تغترَّ بالذينَ ورطوا أنفسَهُم في المعاملاتِ المحرَّمةِ، ومنعوا الحقوقَ الواجبةَ، ولا تظنَّ أنَّكَ حصّلتَ هذا المالَ بحولِكَ وقوتِكَ، وإنَّما هو فضلٌ من اللهِ أسدَاهُ إليكَ، وعاريةٌ بيدِكَ سينتقلُ إلى غيرِكَ، وليسَ لكَ منه إلا ما قدَّمتَ لآخرتِكَ، فاتقِ اللهَ فيه، وتأملْ ما ذكرَهُ اللهُ في قصةِ قارونَ، ليكونَ لكَ منه عبرةٌ؛ قالَ تعالَى: ﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٢) مختصراً، ومسلم (٩٨٧) واللفظ له.

عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨٤].

بارَكَ اللهُ لِي ولكُم في القرآنِ العظيمِ

* * *

في التخذيرِ مِن فتنةِ المالِ

الحمدُ للهِ الذي خوَّلَ عبادَه من الأموالِ ما به تقومُ مصالحُ دينِهم ودنياهُم، وجعلَ لتحصيلِها وتصريفِها طُرُقًا شرَعَها لهم، وبيَّنها لهم وهداهُم، وأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، ربُّ العالمينَ ومولاهُم، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُهُ، أكرم الخلقِ وأزكاهُم، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ ومن اهتدى بهداهم، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ تعالَى، واعلمُوا أنَّ هذه الأموالَ التي بينَ أيديكُم جعلَها اللهُ فتنةً لكُم؛ ليتبينَ المحسنَ من المسيءِ، والمفسدَ من المصلحِ، قالَ تعالَى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

ففي هذِه الأموالِ فتنةٌ لكُم في تحصِيلها، وفتنةٌ في تمويلِها، وفتنةٌ في إنفاقِها:

فأمَّا الفتنةُ في تحصيلِها: فإنَّ اللهَ تعالى شرعَ لتحصيلِها طُرقا معينةً مبنيةً على العدلِ بينَ الناسِ، بحيثُ يكسبُها الإنسانُ من وجهٍ طيبٍ، ليسَ فيه ظلمٌ ولا عدوان، فمِنَ الناسِ مَنِ اتَّقى اللهَ تعالَى وأجملَ في طلبِها، فاكتسبَها من طرائقَ حلالٍ، فكانتْ بركةً عليهِ إذا أنفقَ، ومقبولةً منه إذا تصدَّقَ، وأجْرًا إذا خلَّفَها لورثتِهِ، فهو غانمٌ دنيا وأُخرى. ومن الناسِ مَنْ لمْ يتقِ اللهَ ولمْ يجملْ في طلبِ

المالِ، فصارَ يكتسبُهُ من أيِّ طريقٍ أُتيحَ له، من حلالٍ أو حرامٍ، من عدلٍ أو ظلمٍ، لايبالي بما اكتسبَ، فالحلالُ عندَه: ما حَلَّ بيدِه بأيِّ سببٍ، فهذا قد صارَ مالُه وبالاً عليهِ، إنْ أمسكَه لم يبارِكْ له فيه، وإنْ تصدقَ به لمْ يقبلْ منه، وإنْ خلَّفَه بعدَه كانَ زادًا له إلى النارِ، لغيرِه غُنْمُهُ وعليهِ إثْمُهُ وغرْمُهُ، فهذه فتنةُ المالِ في تحصيلِهِ.

وأما الفتنةُ في تمويلِهِ: فمِنَ الناسِ مَنْ كانَ المالُ أكبرَ همِّهِ وشُغْلَ قلبِه، إنْ قامَ فهو يفكِّرُ فيه، وإنْ قعدَ فهو يفكِّرُ فيه، وإنْ نامَ كانتْ أحلامُهُ فيهِ، فالمالُ ملءُ قلبِه، وبَصرُ عينِه، وسمعُ أذنِه، وشُغْلُ فكرِهِ، يقظةً ومنامًا؛ وحتى في العبادةِ فهو يُفَكِّرُ في مالِه: في صلاتِهِ، وفي قراءتِه، وفي ذكرِهِ، كأنَّما خُلِقَ للمالِ وحدَهُ! فهو النَّهِمُ الذي لا يشبعُ، والمفتونُ الذي لا يُقلعُ، ومعَ هذا الحرصِ الشديدِ والتعبِ الشاقِّ، فلنْ يأتيه من الرزقِ إلاَّ ما كُتِبَ له، ولن تموتَ نَفْسٌ حتى تستكملَ رزقها وأجلها.

ومن الناسِ: مَنْ عرفَ للمالِ حقَّهُ ونزَّلَهُ منزلته، لمْ يكنْ أكبرَ همِّه، ولا مبلغَ علمِه، وجعلَ المالَ في يدِه لا في قلبِه، فلمْ يشغلْهُ عن ذِكْرِ اللهِ، ولا عن الصلاةِ، والقيامِ بشرائعِ الدينِ وفروضِه، فهو مِنَ الذينَ لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ، جعلَ المالَ وسيلةً يتوسلُ بها إلى فِعْلِ الخيراتِ ونفعِ القراباتِ، وإعانةِ ذوي الحاجاتِ، فهو قد استخدَم المالَ ولم يستخْدِمْهُ المالُ، وعَبَدَ ربَّهُ ولم يعبدِ المالَ، قد اكتسبَ المالَ من حِلِّهِ، وأنفقَهُ في وجوهِهِ، وسلمَ من أذَاهُ.

وأما الفتنةُ في إنفاقِ المالِ: فإنَّ أصحابَ الأموالِ منهُم: البخيلُ الذي منعَ حقَّ اللهِ وحقَّ عبادِه في مالِه؛ فلْم يُؤدِّ الزكاةَ، ولمْ ينفقْ على منْ يلزمُهُ الإنفاقُ

عليهِ من الأهلِ والمماليكِ والقراباتِ. ومن أصحابِ الأموالِ: مَنْ هو مسرفٌ مفرطٌ، يبذِّرُ مالَه، وينفقُهُ في غيرِ وجهِهِ، وفيما لا يحمدُ عليهِ شرعًا ولا عُرْفًا، فكانَ من إخوانِ الشياطين، ومِنَ الذينَ ينفقونَ أموالهُمْ رئاءَ الناسِ ولا يؤمنونَ باللهِ ولا باليومِ الآخرِ، ومِن الذينَ يتخوَّضونَ في مالِ اللهِ بغيرِ حقٍّ، فتكونُ لهم النارُ يومَ القيامةِ، كما في الحديثِ الصحيحِ.

فلا ينجُو من شرِّ هذا المالِ إلاَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ في طلبِهِ، واتَّقَى اللهَ في إنفاقِه؛ الذينَ كَسَبُوهُ من حِلِّهِ، وإذا أنفقُوا لم يسرفُوا ولم يَقْتُروا، قد بذَلُوا الواجباتِ وكمَّلُوهَا بالمستحباتِ، وتحلَّوا بالكرمِ والسخاءِ والجودِ، قد أحبَّهُم اللهُ وأحبَّهُم الناسُ، فهؤلاءِ من عبادِ الرحمنِ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

أَيُّها المسلمونَ، إنَّكُم لن تبقوا للمالِ، ولن يبقى لكُم، إنما هو عاريةٌ بينَ أيديكُم، وأنتمُ سائرونَ في طريقِكُم إلى الآخرةِ، فقدْ خرجتُم إلى الدُّنيا بلا مالٍ، وستخرجونَ منها بلا مالٍ، وإنَّما تَبْقَى لكم أعمالكُم، فلا تشتغِلوا بما يفْنى عما يبقَى، ولا تغرنَّكُم الحياةُ الدُّنيا.

أَيُّهَا المسلمونَ، قد لعبَ الشيطانُ بأفكارِ كثيرٍ من الناسِ، فتجرؤُوا على أخْذِ المالِ من وجوهٍ محرمةٍ وطرقٍ خبيثةٍ، فأخذوا الرشوةَ في وظائِفِهم، وخانوا أمانَتَهُم بشتَّى الوسائلِ، وغلُّوا الأموالَ العامةَ، وغشُّوا في بيعِهِم وشرائِهِم، وكذبُوا في معاملتِهِم، ودنَّسُوا البيعَ والشراءَ، وشوَّهوا التجارةَ، وجعلوا كثيرًا من أسواقِ المسلمينَ مجالاً للاعتداءِ والمخادعاتِ والاحتيالِ، واصطيادِ إخوانِهم المسلمينَ الآمنينَ، الذينَ يحسنونَ بهِم الظنَّ، ويعاملونَهم باسمِ الإسلامِ، وفي حُكْمِ الدينِ، الذي جعلَ كُلَّ المسلمِ على المسلمِ حرامًا مالَهُ ودمَهُ وعرضَهُ.

أَيُّهَا المسلمونَ، لقد تبرَّأ النبيُّ ﷺ مِمَّنْ يغشُّ المسلمينَ، حيثُ قالَ: «**مَنْ غشَّ فليسَ منا**»[١]، إنَّ منْ غشَّ فليسَ من المسلمينَ، لأنَّ المسلمَ حقيقةً: مَنْ يعاملُ إخوانَهُ بصدقٍ وصراحةٍ، كما يحبُّ أن يعاملوهُ بالصدقِ والصراحةِ، فالمؤمنُ يحبُّ لأخِيهِ ما يحبُّ لنفسِهِ، فإذا كانَ أحدٌ لا يرضى أنْ يخدَعَه أحدٌ فكيفَ يخدعُ إخوانَه؟

أَيُّهَا المسلمونَ، إنَّ الظلمَ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، وأنتُم تعلمونَ مصيرَ الظلمةِ، والظلمُ في الأموالِ ليسَ مقصورًا على الاغتصابِ والسرقةِ وقطعِ الطريقِ والنهبِ والسلبِ؛ بلْ إنَّ من أشدِّ الظلمِ ما أُخِذَ بطريقِ المعاملاتِ المحرمةِ، وتحت شعارِ البيعِ والشراءِ، ممَّا تشوبُهُ الخديعةُ والكذبُ والغشُّ والتدليسُ والأيْمانُ الفاجرةُ، يقولُ ﷺ: «**البيعانِ بالخيارِ ما لمْ يتفرَّقا، فإنْ صدَقا وبيَّنا بورِكَ لهما في بيعِهما، وإنْ كذَبا وكتَمَا مُحقِتْ بركةُ بيعِهما**»[٢]، إنَّ بيعَ المسلمِ لأخِيهِ الملسمِ يجبُ أنْ يكونَ على مستوى عالٍ من الصدقِ والصراحةِ والنزاهةِ، لا وكسَ فيه ولا شططَ، ولا كذبَ ولا خديعةَ، بيعَ المسلمِ للمسلمِ على ما جاءَ به الإسلامُ.

وأخيرًا: اسمعوا ـ يا أصحابَ الأموالِ ـ هذه القصةَ العظيمةَ؛ لعلكُم تتعظونَ بها:

رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ أنَّه سمعَ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إنَّ ثلاثةً من بني إسرائيلَ أبرصَ وأقرعَ وأعْمَى، فأرادَ اللهُ أن يبتليهمْ، فبعَثَ إليهِم مَلَكًا،**

---

(١) صحيح مسلم (١٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢١١٠) وأطرافه في (٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١٠٨، ٢١١٤) ومسلم (١٥٣٢) من حديث حكيم بن حزام.

فأتى الأبرصَ فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: لونٌ حسنٌ وجلدٌ حسنٌ، ويذهبُ عني الذي قد قَذِرَنِي الناسُ به. قالَ: فمسحَهُ فذهبَ عنه قذَرُهُ، فأُعْطِيَ لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، قالَ: أيُّ المالِ أحبُّ إليكَ؟ قال: الإبلُ أو البقرُ، فأعْطِي ناقةً عُشَراءَ، وقالَ: باركَ اللهُ لكَ فيها. قالَ: فأتى الأقرعَ فقالَ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: شعرٌ حسنٌ، ويذهبُ عني الذي قد قذرَنِي الناسُ به، فمسحَه فذهبَ عنه، وأُعطِي شعرًا حسنًا، فقالَ: أيُّ المالِ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: البقرُ أو الإبلُ فأعطِي بقرةً حامِلًا، قالَ: باركَ اللهُ لكَ فيها. فأَتَى الأعمى فقالَ: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: أنْ يردَّ اللهُ عليَّ بصري، فأُبصِر به الناسَ، فمسحَهُ فرد اللهُ عليهِ بصرَه، قالَ: فأيُّ المالِ أحبُّ إليكَ؟ قالَ: الغنَمُ، فأُعْطِي شاةً والدًا، فأُنتجَ هذان، وولد هذا، فكانَ لهذا وادٍ من الإبلِ، ولهذا وادٍ من البقرِ، ولهذا وادٍ من الغنمِ. قال: ثم إنَّه أَتى الأبرصَ في صورتِهِ وهيئتِهِ فقالَ: رجلٌ مسكينٌ، قد انقطعتْ بي الحبالُ في سفرِي، فلا بلاغ لي اليومَ إلاَّ باللهِ ثم بكَ، أسألُكَ - بالذي أعطاكَ اللونَ الحسنَ والجلدَ الحسنَ والمالَ - بعيرًا أتبلَّغُ به في سفرِي، فقالَ: الحقوقُ كثيرةٌ، فقالَ: كأنِّي أعرِفُكَ! ألمْ تكُنْ أبرصَ يقذرُكَ الناسُ، فقيرًا فأعطاكَ اللهُ عزَّ وجلَّ المالَ؟ فقالَ: إنَّما ورثتُ هذا المالَ كابرًا عن كابرٍ، فقالَ: إنْ كنتَ كاذبًا فصيَّركَ اللهُ إلى ما كنتَ. وأَتى الأقرعَ في صورتِهِ فقالَ له مثلَ ما قالَ لهذا، وردَّ عليهِ مثلَ ما ردَّ عليهِ هذا، فقالَ: إن كنتَ كاذبًا فصيَّركَ اللهُ إلى ما كُنتَ. قالَ: وأتى الأعمى في صورتِهِ، فقالَ: رَجُلٌ مسكينٌ وابنُ سبيلٍ، قد انقطعتْ بِي الحبالُ في سفرِي، فلا بلاغَ لي اليومَ إلاَّ باللهِ ثم بكَ، أسألُك - بالذي ردَّ عليكَ بصرَكَ - شاةً أتبلَّغُ بها في سفرِي. فقالَ: قد كُنتُ أعْمَى فردَّ اللهُ إليَّ بصرِي، فخذْ ما شِئْتَ ودَعْ ما شِئْتَ، فواللهِ لا أجهدُكَ اليومَ بشيءٍ أَخَذْتَه للهِ، فقالَ: أمسك عليك مالَكَ، فإنَّما ابتليتُمْ،

فقد رضيَ اللهُ عنكَ، وسخطَ على صاحبيكَ»[1].

فتأمَّلُوا ـ يا عِبادَ الله ـ ما حصلَ لهؤلاءِ الثلاثةِ من الابتلاءِ، وما انتهتْ به قصتُهُم، مِنْ حسنِ عاقبةِ مَنِ اعترفَ بنعمةِ اللهِ عليهِ، وشكَرَهَا، وبذلَ مالَه في طاعةِ اللهِ، وعقوبةِ مَنْ جَحَدَ نعمةَ اللهِ عليهِ وكفرَهَا، ومنعَ الحقَّ الواجبَ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيمِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال: ٢٨]، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ [التغابن: ١٦].

* * *

(١) صحيح البخاري (٣٤٦٤، ٦٦٥٣) وصحيح مسلم (٢٩٦٤).

فِي التحذِيرِ مِنَ الفِتَنِ المعاصرةِ

الحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، حذَّرنا من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ، وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، يعلمُ السرَّ والعلنَ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، أمرَ عندَ ظهورِ الفتنِ بالاعتصامِ بالكتابِ والسُّنَنِ، صلَّى اللهُ عليهِ وعلى آلِهِ وأصحابِهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أَمَّا بعدُ:

أَيُّها الناسُ، اتقُوا اللهَ، واعلموا أنَّ الإنسانَ حينما يقعُ في خطرٍ من الأخطارِ، إمَّا أنْ يفكرَ في أسبابِ النجاةِ ويأخذَ بها فينجُو، وإمَّا أنْ يستسلمَ ويتركَ الأسبابَ التي بها نجاتُه فيهلكَ. وإنَّنا ـ يا عِبادَ الله ـ في هذا الزمانِ قد وقَعْنا في أخطارٍ كثيرةٍ، وأحاطتْ بنا فتنٌ وشرورٌ مستطيرةٌ.

وقد أخْبرنا نبيُّنا ﷺ عنْ وقوعِ الفتنِ في آخرِ الزمانِ، وبيَّنَ لنا أسبابَ النجاةِ منها:

فعنْ أميرِ المؤمنينَ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**أَلاَ إنَّها ستكونُ فتنٌ**» فقلْتُ: ما المخرجُ منها يا رسولَ اللهِ؟ قالَ: «**كتابُ اللهِ، فيهِ نبأُ ما قبلَكُم، وخبرُ ما بعدَكُم، وحكْمُ ما بينكُم، وهو الفصلُ ليسَ بالهزلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جبارٍ قصمَهُ اللهُ، ومَنِ ابتغَى الهُدَى من غيرِهِ أضلَّهُ اللهُ، هو حبلُ اللهِ المتينُ، وهو الذِّكْرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ**»[1] رواه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٠٦) والترمذي (٢٩٠٦).

وقالَ ﷺ: «إنِّي تاركٌ فيكم ما إنْ تمسكْتُمْ به لنْ تَضِلُّوا، كتابَ اللهِ وسُنَّتِي»[١] ففي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِ اللهِ النجاةُ من الفتنِ، والهُدَى من الضلالةِ، وفي الإعراضِ عنهما الهلاكُ والغوايةُ.

وقد قالَ اللهُ تعالَى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٣ ـ ١٢٦].

عِبادَ اللهِ، لقدْ أصبحْنا في فتنٍ عظيمةٍ، فلننتبه لأنفسِنا ولنأخذْ حذَرَنَا، ومِنْ هذِه الفتنِ: فتنةُ المالِ، عنْ كعبِ بنِ عياضٍ رضيَ اللهُ عنه قالَ: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ لكُلِّ أمةٍ فتنةً، وإنَّ فتنةَ أُمَّتِي المالُ»[٢] رواهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ حبانَ في صحيحِهِ.

وقالَ ﷺ: «فواللهِ ما الفقرَ أخْشَى عليكُم، ولكنِّي أخْشَى عليكُم أنْ تبسطَ الدُّنيا عليكُم، كما بسطتْ على مَنْ كانَ قبلَكُم، فتنافسُوهَا كما تنافَسُوهَا، وتُهْلِككُم كما أهْلَكَتْهُم»[٣] رواهُ الإمامُ أحمدُ والشيخانِ والترمذيُّ وابنُ ماجه مِنْ حديثِ المسورِ بنِ مخرمةَ رضيَ اللهُ عنهما.

فالمالُ فتنةٌ من نواحٍ كثيرةٍ، منها: الانشغالُ بجمْعِهِ وتنميتِهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨) من حديث زيد بن أرقم.

(٢) أخرجه أحمد (١٧٠١٧) والترمذي (٢٣٣٦) وابن حبان (٢٤٧٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٧٨٣، ١٨٤٣٦) والبخاري (٤٠١٥) ومسلم (٢٩٦١) والترمذي (٢٤٦١) وابن ماجه (٣٩٩٧).

ومنها: المكاثرةُ فيهِ، بحيثُ لا يقفُ الإنسانُ عندَ حدٍّ، فهو يطلبُ المزيدَ دائمًا.

ومنها: قلةُ التحرُّزِ من المكاسبِ المحرَّمةِ التي يحملهُ عليها حبُّ المالِ ومجاراةُ الناسِ، والجهلُ بما يحلُّ ويحرُمُ من المكاسبِ.

ومنها: منعُ الحقوقِ الواجبةِ في المالِ من الزكاةِ وحقوقِ الأقاربِ وغيرِها.

وقد فاضَ المال في هذا الزمانِ، مصداقًا لما أخبَر بهِ النبيُّ ﷺ في قولِه: «**إنَّ مِنْ أشراط الساعةِ: أن يفْشُوَ المالُ ويكْثُرَ، وتفْشُوَ التجارة**»[1] رواهُ النسائيُّ، والحاكمُ وقالَ: صحيحٌ على شرْطِ الشيخينِ.

وعن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**ليأتينَّ على الناسِ زمانٌ لا يُبالِي المرءُ بما أخذَ المالَ: أمِنْ حلالٍ أمْ منْ حرامٍ**»[2] رواهُ الإمامُ أحمدُ والبخاريُّ.

عبادَ اللهِ، ومن الفتنِ التي وقعتْ في هذا الزمانِ: ما تجلبُهُ إلينا وسائلُ الإعلامِ ـ من إذاعاتٍ وتلفاز، وصحفٍ ومجلاتٍ ـ من شرورٍ كثيرةٍ: مقالاتٍ مزيفةٍ، وخطبٍ مضللةٍ، وصور نساءٍ فاتناتٍ ثابتةٍ ومتحركةٍ، وأغانٍ مثيرةٍ، ومزاميرَ ملهيةٍ، وتمثيلياتٍ مغرضةٍ، يُقْصَدُ بها: تزيينُ الفاحشةِ، وتعليم السرقةِ، والتدريب على الجريمةِ، كُلُّ هذا وأكْثرُ منه يُعْرَضُ في وسائلِ الإعلامِ الداخليةِ والخارجيةِ، ومن الناسِ من لايكفيهِ هذا على كثرتِه، فيذهبُ يشتري الفيديو بأفلامهِ المدمِّرةِ، وينصبُهُ في بيتهِ بينَ نسائِه وأولادِه، ليكملَ به ما نقصَ من الشرِّ في وسائلِ الإعلامِ، ويمتدُّ شرُّهُ إلى جيرانهِ، فيُغْرِي نساءَهم وأطفالَهم

---

(١) أخرجه النسائي (٤٤٥٦) والحاكم (٢/٧) من حديث عمرو بن تغلب.

(٢) أخرجه أحمد (٩٣٣٧، ٩٥٢٨، ١٠١٨٥) والبخاري (٢٠٥٩، ٢٠٨٣).

على الاقتداءِ به.

لقدْ أصبحَ كثيرٌ من البيوتِ خاليًا من ذكرِ اللهِ والصلواتِ، مسرحًا للفتنِ والضلالاتِ، حَلَّ فيه الشيطانُ، وتجنَّبَتْهُ ملائكةُ الرحمنِ، وعلاوةً على ذلكَ أخذتْ بعضُ الجهاتِ تعلنُ للشبابِ تدعوهُمْ لحضورِ السهراتِ، والمشاركةِ في المسرحياتِ والفنونِ الشعبيةِ والموسيقى.

ومن الفتنِ المخيفةِ في هذا الزمانِ: فتنةُ النساءِ التي حذَّرَ منها رسولُ اللهِ ﷺ، فعنْ أسامة بن زيد رضيَ اللهُ عنهما قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«ما تركْتُ بعْدِي فتنةً هي أضَرُّ على الرجالِ من النساءِ»**[1] رواهُ الإمامُ أحمدُ والشيخانِ وابنُ ماجه، وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضيَ اللهُ عنه عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«إنَّ الدنيا حلوةٌ خضرةٌ، وإنَّ اللهَ مستخلِفكُمْ فيها، فينظر كيفَ تعملونَ، فاتقُوا الدُّنيا واتقُوا النساءَ، فإنَّ أوّلَ فتنةِ بني إسرائيلَ كانتْ في النساءِ»**[2] رواهُ الإمامُ أحمدُ ومسلمٌ وغيرُهُما.

وعنْ أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: **«صنفانِ من أهْلِ النارِ لمْ أرَهُما، رجال معَهُم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربونَ بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ مائلاتٌ مميلاتٌ، رؤوسُهُنَّ كأسْنِمَةِ البُخْتِ المائلةِ، لا يَدْخُلْنَ الجنةَ ولا يَجِدْنَ ريحَهَا، وإنَّ ريحَها ليوجدُ من مسيرةِ كذا وكذا»**[3] رواهُ الإمامُ أحمدُ ومسلمٌ.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٣٩، ٢١٣٢٢)، والبخاري (٥٠٩٦)، ومسلم (٢٧٤٠) وابن ماجه (٣٩٩٨).

(٢) أخرجه أحمد (١٠٧٧٣، ٢٦٥١٥) ومسلم (٢٧٤٢) والترمذي (٢١٩١) وابن ماجه (٤٠٠٠).

(٣) صحيح مسلم (٢١٢٨).

عبادَ اللهِ، لقدْ عَظُمت الفتنةُ بالنساءِ في هذا الزمانِ، لقد تَبرَّجْنَ في الأسواقِ، وعرضْنَ أجسامَهُنَّ أمامَ الرجالِ، لابساتٍ أفخرَ الثيابِ، ومتطيبات بأذكى الأطيابِ، ومشَيْنَ بملابِسَ ضيقةٍ تُبرزُ أحجام أعضائِهِنَّ، ووضعْنَ على وجوهِهِنَّ أغطيةً شفافةً من بابِ المخادعةِ، وكثيرٌ منهُنَّ يكشفْنَ عن وجوهِهِنَّ وأذرعِهِنَّ أمامَ أصحابِ معارضِ القماشِ والصاغةِ، ومنهُنَّ مَنْ تذهب إلى محلاتِ التجميلِ ليلةَ الزفافِ، ورُبَّما يتولَّى تجميلها الرجالُ، ومنهُنَّ منْ تذهبُ إلى دكاكينِ تفصيلِ الثيابِ؛ لتأخذَ المقاسَ الذي يناسِبُهَا والتفصيلَ الذي يلائمُ ذوقَها، ويتولى ذلكَ معَها رجلٌ أجنبيٌّ، ومنهُنَّ من تركبُ معَ سائقٍ أجنبيٍّ في سيارةِ أجرةٍ أو خصوصيةٍ، وتذهبُ معه وحدَها، ومنهُنَّ من تذهبُ إلى الطبيبِ في العيادةِ أو المستوصفِ بدونِ محْرمٍ، فيخلُو بها الطبيبُ، إلى غيرِ ذلكَ من أنواعِ الفتنِ، وأخرياتٌ يكلمْنَ عمالَ الإذاعةِ، يطْلُبنَ أَشرطةَ الأغانِي، ويتبادَلْنَ هذه الأشرطةَ فيما بينَهُنَّ.

والداهيةُ العُظمَى: ما نقرؤهُ في بعضِ الصحفِ من مطالبةٍ مُلحةٍ لتعملَ المرأةُ معَ الرجلِ في المكاتبِ والمتاجرِ وغيرِها، أسوةً بنساءِ الدولِ الكافرةِ، الدولِ التي لا تقيمُ للفضيلةِ وزْنًا، ولاتحسبُ للأخلاقِ حسابًا، فماذا يريدونَ؟ إنَّ المرأةَ في المجتمعِ الإسلاميِّ منذُ ظهورِ الإسلامِ تعملُ عَمَلَهَا اللائقَ بها، والذي لا يقومُ به غيرُها، فهي الأمُّ المربيةُ، وهي الحاملُ والمرضعُ، والقائمةُ بأعمالِ البيتِ.

ومنَ الفتنِ: استقدامُ بعضِ الناسِ مربياتٍ أو خديماتٍ أجنبياتٍ، وقد لايكونُ معهُنَّ محارمُ، وفي ذلكَ مخاطرُ كثيرةٌ، منها: خشيةُ الوقوعِ في الفاحشةِ؛ فقدْ تكونُ امرأةً جميلةً أو تتجمَّلُ وتتبرجُ، فيزيّنها الشيطانُ في نظرِ

الرجلِ، وقد تمكّن منها في بيتِه، وفي الحديثِ: «ما خلا رجلٌ بامرأةٍ إلاَّ كانَ ثالثهما الشيطانُ»[١].

ومنها: أنَّها قد تكونُ فاسدةَ الأخلاقِ، لا تُبالِي بعِرْضِها، أو تكونُ كافرةً فتفسدُ منْ تختلطُ بهِنَّ من النساءِ والأطفالِ، وقد ذُكرَ في هذا قصصٌ يطولُ شرحُها، فالواجبُ على المسلمِ أنْ يتَّقِي اللهَ، ويبتعدَ عن استقدامِ تلكَ النساءِ؛ استبراءً لدينهِ وعرضِهِ، ولا يغتر بمَنْ يفعلُهُ من ذوي الترفِ وعدمِ المبالاةِ.

عبادَ اللهِ، إنَّ الفتنَ كثيرةٌ، وإنَّ دعاةَ الشرِّ يعملونَ بدونِ فتورٍ لترويجِ هذِه الفتنِ، فاحذروا يا عبادَ اللهِ، وتمسكوا بكتابِ ربِّكُم، وسُنَّةِ نبيِّكم ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦].

عبادَ اللهِ، ومن الفتنِ العظيمةِ: تقاربُ الأقطارِ والديارِ بواسطةِ المخترعاتِ العصريةِ من وسائلِ الإعلامِ ووسائلِ المواصلاتِ، التي تقرِّبُ البعيدَ، وتنقلُ الأصواتَ والصُّورَ والأشخاصَ، حتى صارَ العالمُ بأسرِهِ كالبلدِ الواحدِ، ما يحدثُ في طَرَفِهِ يصلُ إلى طَرفِهِ الآخرِ بسرعةٍ ووضوحٍ، فنتج عن ذلكَ: اختلاطُ المسلمِ بالكافرِ، والبرِّ بالفاجرِ، ونقلُ الأفكارِ الهدّامةِ والعقائدِ الزائفةِ والأخلاقِ السيئةِ، إلى مجتمعِ المسلمينَ، حتى أصبحَ المعروفُ منكَرًا، والمنكرُ معروفًا، والسنةُ بدعةً، والبدعةُ سُنَّةً، وصارَ الرواجُ للشرِّ، وقلَّ الخيرُ، وأصبحَ المتمسِّكُ بدينهِ غريبًا حتى في بلادِ الإسلامِ.

عبادَ اللهِ، وإنَّ ما بعدَ هذه الفتنِ أشدُّ منها وأخطرُ، فهناكَ فتنةُ الدجالِ، شرُّ غائبٍ يُنتظرُ، وهناكَ الساعةُ ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾ [القمر: ٤٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٥) والترمذي (٢١٦٥) وابن ماجه (٢٣٦٣) من حديث عمر بن الخطاب.

فاتقُوا اللهَ عبادَ اللهِ، وخُذُوا حِذرَكُم، وأكثِروا من الدعاءِ، عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه أنَّه قالَ: «تكونُ فتنةٌ لا يُنْجِي منها إلاَّ دعاءٌ كدعاءِ الغرقِ»[1]، رواهُ ابنُ أبي شيبةَ، وعن حذيفةَ، رواه الحاكمُ في مستدركِهِ وقالَ: صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ ولم يخرجَاهُ.

أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ١ ـ ٣].

* * *

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٢٤).

فهرس الموضوعات

* * *